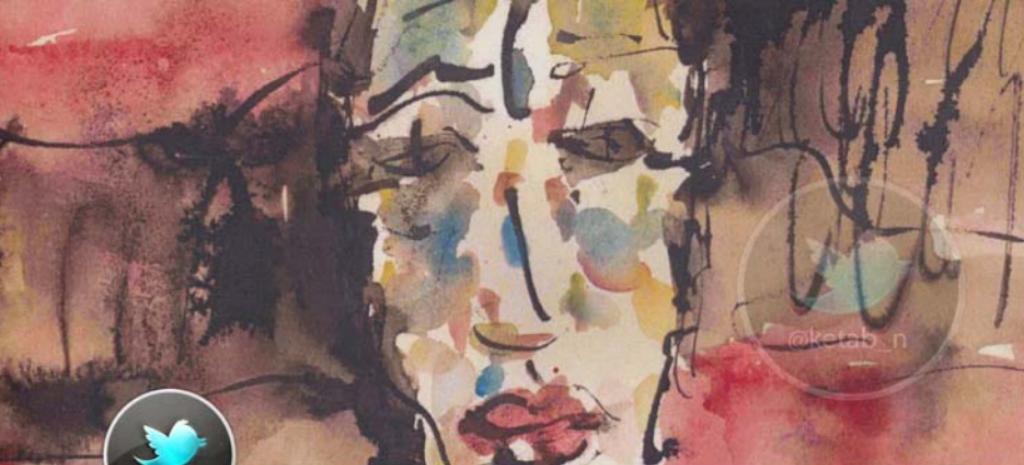




6.1.2015



# دوستويفسكي الجريمة والعقاب

الجزء الأول

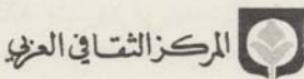
ترجمة: سامي الدروبي

دُوْسْتُوْفِيْسْكِي

الجِيْمَةُ وَالْعَقَابُ

1

ترْجَمَةٌ: سَامِيُ الدَّرْوِنِيُّ



لقد طبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دostويفسكي» أكثر من مرّة.  
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي  
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

**الكتاب: الجريمة والعقاب (1) (رواية)**

**المؤلف: دوستويفسكي**

**المترجم: سامي الدروبي**

**الطبعة الأولى: 2010**

**ISBN 978-9953-68-462-6**

**جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ:**

**الناشر: المركز الثقافي العربي**

**بيروت والدار البيضاء**

**بيروت — لبنان**

ص.ب. 5158 - 113 الحمرا

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01352826 - 01750507

فاكس: +961 - 01343701

**الدار البيضاء — المغرب**

ص.ب. : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 522303339 - 522307651

فاكس: +212 522 2305726

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

## كلمة عن دوستويفسكي

بقلم: الكاتب دانييل جرانيين

في التاسع من فبراير عام 1981 احتفل العالم أجمع بالذكرى المائة لوفاة فيودور ميخائيلوفتش دوستويفسكي . وقد اتجهت أنظار الناس وخواطرهم في جامعات تشيكيوسلافاكيا واستراليا وانجلترا واليابان والولايات المتحدة والسويد إلى تلك الدار المكونة من ثلاثة طوابق في إحدى حارات بطرسبurg والتي شهدت في شتاء 1881 وفاة الكاتب . لقد كانت حياة دوستويفسكي في بطرسبurg مرتبطة كلها بأحياء صغار الموظفين ، والطلاب ، والغرف المفروشة المؤجرة ، والأفنية الحجرية الضيقة كالآبار ، والأسواق ، والحانات . . .

لقد غيرت المائة سنة التي مرت منذ ذلك الحين أشياء كثيرة في ذهن البشرية . ولكن أعمال دوستويفسكي مرت عبر كل هذه التحولات من دون أن تُمنى بخسائر ، بل على العكس ، خرجت منها أكثر حداثة ، بل واكتسبت طابعاً عصرياً ملحاً ، غريباً في بعض الأحيان . وقد يبدو ذلك أحياناً أشبه بالنبوءة . إن كثيراً من الموضع في روايَّتي «الأبالسة» و«الأخوة كaramazov» تُقرأ كنبءات ، وهي من الكثرة بحيث يصعب اعتبارها صدفة . وكأنما قدّمت عبقرية دوستويفسكي وحدست مجرى

تطور البشرية. ولكن، أليس ذلك من واجب العبرية؟

ذات مرة قادني حفيد دوستويفסקי أندريه دوستويف斯基 في شوارع المدينة وهو يربيني أماكن أحداث رواية «الجريمة والعقاب». واتضح فجأة أن كل شيء يمكن رؤيته. واكتسب كل شيء مغزى تاريخياً. فهنا كان يعيش دوستويف斯基، وهنا كان يعيش آل مارميلاروف.

ونحن نلاحظ دقة وصف الأماكن لدى كتاب آخرين، مثلما لدى بوشكين في ميخائيلوفسكيه، ولدى ديكتنر في لندن، ولدى بونين في يلنا. ونجد المناظر الطبيعية والوصف بمثابة ديكورات للأحداث الجارية. ولكن الأمر مختلف لدى دوستويف斯基. إنه يعد مع راسكولنيكوف الخطوات من دار راسكولنيكوف حتى دار العجوز المراية. وهو يعبر على تلك الدار، وعلى السلالم في تلك الدار، وعلى الشقة المطلة عليه، أي يبدو وكأنه يُخرج مسرحية. إنه كاتب مسرحي ومخرج في نفس الوقت. ولا بد له أن يرى ما يحدث بعينيه، وأن يفهم. والفهم هو الأمر المدهش حقاً. إذ إن راسكولنيكوف يظل بالنسبة له سراً إلى حد كبير. ودوستويف斯基 يحاول أن يفهمه، ويقدم لذلك عدداً من التفسيرات. وهو لا يتظاهر بعدم الفهم، فلا معنى لذلك، إذ إنه يعرف عن راسكولنيكوف الكثير... يعرف أفكاره وأحساسه وكلماته وتصرفاته، ولكن ذلك كله لا يكفي لتفسير وتحليل الدافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حدثت براسكولنيكوف للتصرف بما يخالف المنطق. إن كل ذلك لغز بالنسبة لدوستويف斯基. وهو ينظر إلى أبطاله نظرته إلى سرّ، فال Amir ميشكين سرّ، وايفان كaramazov سرّ، وستافروجين سرّ<sup>(1)</sup>.

إن ليف تولستوي يساعدنا على إدراك الإنسان، ويطلعنا على تطور شخصيته، وعلى منابع أفكاره، ويقودنا إلى أعماق روحه.

أما دوستويف斯基 فيساعدنا على إدراك استحالة معرفة الإنسان،

ويطلعنا على لامحدوديته، وعلى فوضى مشاعره، ويرينا أي تناقضات وأي أعمق لا يمكن بلوغها تكمن في نفس الإنسان.

وتلك هي ضريبة احترام الإنسان، وهذا هو الدرس الذي يقدمه دوستويفסקי لكل كاتب. فماذا نفعل نحن؟ إننا في أدبنا نعرف الكثير والكثير عن أبطالنا، وهم واضحون لنا حتى أعماقهم. ونحن على دراية بكل شيء وفي كل الظروف، وكل شيء له دوافعه وكل شيء مفهوم واضح، وبوسعنا أن نحلل أبطالنا حتى النهاية فلا يبقى منهم شيء مجهول.

وذلك يعكس إلى حد ما عصرنا، عصر الثورة العلمية التقنية، حيث الأفعال عادة ما تكون ذات طبيعة نفعية، تخضع للمصلحة والمنطق والظروف. وأمثال هؤلاء الأشخاص يبدو وكأنهم مطلوبون، فهم مريحون، وهم مناسبون... . وعندئذ يتضح أن دوستويفסקי يحمينا من هذا الشخص - المنفعة، هذا الشخص - الوظيفة، يحمي كرامة السر والغاية السامية لوجود الإنسان.

والسيكولوجيا لدى دوستويفסקי أداة لدراسة أهم قضايا الحياة، ولدراسة القضية التي ربما كانت الأولى بينها، قضية الإيمان. بم يؤمن الإنسان؟ وهل يمكن أن يوجد الله؟ . . لعله من المذاقة الظن بأن الإلحاد يقضي على الإيمان، الإيمان بالانسجام، بالسعادة العامة، بالمغزى والغاية الخاصة من وجود الإنسان... .

وإذا ما تحدثنا عن دروس دوستويف斯基 بالنسبة لعصرنا فأعتقد أنها ليست تلك الأسئلة الجريئة التي يطرحها في دائرة القضايا التي يثيرها - على الرغم من معايشة دوستويفסקי ومعاناته لكل الهموم السياسية والشعبية لذلك العصر... . كلا، بل هي الأسئلة الأكثر إلحاحاً وأزلية. ولعله من المفيد أن نرى كيف كانت القضايا اليومية الملحة تتصهر وتُصفى في روايات دوستويف斯基 لتخرج منها الأفكار الحية، لا

التهويمات المجردة، الأفكار المضرّجة بالدم والدموع لنفس حية.

دوسٌتُويفسكي يصوّر بجسارة أناساً فقدوا الإيمان... تخلٍّ بالإيمان عنهم وتركّتهم الآلهة وماتت. والسؤال الذي يعذّب الكاتب هو: ما الذي سيحدث للبشرية إذا لم يكن هناك إله؟ ما الذي سيحدث إذا ما حل محل الإنسان الإله شخص قوي يستبيح لنفسه كل شيء؟ فماذا لو أن النزعة الإنسانية راحت إذا تنقرض وتختفي؟ كيف نواجه ذلك وندفعه عنا؟ وما الذي يجوز للإنسان أن يفعله؟ هل يجوز له أن يتصرف في أقدار الآخرين وحياتهم من أجل مصلحة الآخرين؟ من الذي يقتل فيدور كاراماًزوف؟ كيف يدور الصراع بين الخير والشر في النفس البشرية؟ أئمة خلود؟ ومن أين يأتي الأزدواج والثنائية في الإنسان؟... إنه يدرس قضايا الوجود، والعذاب. والشر، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة المفترضة... .

لقد تميّزت عبقرية دوسٌتُويفسكي الفنية بقوّة فلسفيّة هائلة. وهو مهموم دائمًا بالقضايا الجذرية، الحاسمة. والأدب بالنسبة له وسيلة تفكير، والكاتب عنده لا يتمتع فقط بالقدرة على ملاحظة تفاصيل الحياة بألوانها وروائحها وكلماتها المميزة ودقائقها، بل وأيضًا بالتفكير المضني في مغزى الحياة. تلك هي قوّة دوسٌتُويفسكي، وذلك هو المثل الذي يقدمه للأدب المعاصر.

إن مؤلفاته خالية من الأمور العادبة، فقد كان قادرًا على رؤية خالية الحياة الروسية.

كل ما يجري يجري في أكثر المدن واقعية، إذا جاز التعبير، ومع ذلك فكل ما يجري خيال. ليس هناك شياطين مرعبة، ولكن الواقع تزحزح قليلاً، وأحياناً بدرجة لا تلحظ، ولذا فقد ظهرت إمكانية النظر في فجاج ومهماً لم تكن تخطر لنا على بال.

قراءة دوسٌتُويفسكي أمر صعب، وأحياناً تثير الشعور بالضيق، فما

السبب؟ إن روایاته تخلو من المشاهد الطبيعية وليس فيها تلذذ بوصف الأحداث المرعبة وأعمال العنف المقبضة. ولكن هذا السؤال صعب ولا أستطيع أن أتصدى للإجابة عنه، وبودي فقط أن ألفت النظر إلى إحدى خصائصه، إلى أحد جوانب عقريته والذي يبدو وكأنما يكشف أمرنا.

أريد أن ألفت النظر مثلاً إلى قوله في «المراهق»: «الإحساس الإنساني العادي ببعض السرور عندما تقع مصيبة لآخرين، أي عندما تنكسر ساق أحدهم، أو يتلطخ شرفه، أو يفقد عزيزآ لديه... الخ...» أو قوله في مشهد الكارثة التي أصابت آل مارميلادولف في هذه الرواية: «... فهاهم أولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر، وهم يشعرون بذلك الإحساس الغريب، إحساس اللذة الذي يلاحظ دائماً حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شقاء يحل بقريبهم، وهو إحساس لا يخلو منه أي إنسان مهما يكن إحساسه بالأسف والشفقة صادقاً...».

بالطبع لا يريد أحد أن يكتشف في نفسه مثل هذا. ولكن دوستويفسكي يجبرنا بطريقة ما على أن نجد في نفوسنا الشيء السيء، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف بأبطاله. وعلى هذا نصبح وكأننا مشازكون، ومذنبون نحن كذلك، وهذا قد افتضحتنا وانكشف أمرنا... ويتبين أننا لسنا أفضل من هؤلاء الأبطال، بل إننا مستعدون لارتكاب ما ارتكبوا. وحينما تتحدث رواية «المراهق» عن أن الإنسان قادر على أن يرعى في روحه أسمى المثل إلى جانب أحط الدناءات، وكل ذلك عن صدق خالص... فهل هذا الكلام عن أناس الماضي فحسب؟

عندما تقرأ دوستويفسكي يتابك الخجل... وهذه أعظم سمة من سمات عقريته، وينبغى علينا أن نتعلمها إذا كان من الممكن تعلم

ذلك. تشعر بالخجل وتشعر بتأنيب الضمير، ولذلك تصعب القراءة. فهو يجبرك على أن تخجل وتستحي، ويقضي على كافة محاولات التهرب وتبرير الشر والفساد الخلقي. وما أبرعه في تصوير الدناءة والنفاق والرياء والقسوة! كلا، كلا هذه ليست عبقرية مريضة، بل الأقرب إلى الصواب إنها موهبة شافية، ليست قاسية بل إنسانية. أليس من الجائز أننا عندما نسعى بكل جهودنا إلى تصوير المظاهر الطيبة والجميلة والسامية والفضلة وحدها، وعندما نختار ونمدح أفضل النماذج وأكثرها مثالية فحسب... أليس من الجائز أننا بذلك نخدم يقطة الضمير ونضعف التشدد، وننافق الناس والشعب. إن المكانة التي تبوأها الأدب الروسي إنما تعززت أساساً بفضل ما قام به دوستويفسكي من فضح لا يكل للرذائل والضلالات. ولم يشارك في هذا العمل دوستويفسكي وحده بل الأدب الروسي كله، الذي تحلى بشجاعة أن يقول لشعبه كلمات الغضب والحزن...

وليس من السهل اليوم أن تهز ضمير الإنسان المعاصر، فهو محصن بسياج دفاعي متين. ولكن دوستويفسكي يستطيع، كما لا يستطيع أحد غيره، أن يخترق الحواجز والدفاعات، وهو في ذلك واحد من أكثر الكتاب معاصرة لنا.

وابداع دوستويفسكي يحفّز الفكر، وقد أثر على أكبر الفلاسفة وعلماء النفس والعلماء في العالم. والكتب التي وضعناها عن دوستويفسكي تشير الاهتمام بما تميز به من قيمة فلسفية وعلمية مستقلة. وهي بحد ذاتها رائعة.

الفنان وحده، والكاتب في المقام الأول، هو الذي يستطيع أن يساعد الناس على اكتشاف حقائق جديدة عن أنفسهم. وبهذا المعنى كان دوستويفسكي وسيبقى مفخرة لروسيا وللأدب الروسي وللأدب العالمي. ولتاريخ الفتوح الطويل كله.

أنا لا أرى لماذا تُولف الكتب . وقد قال بوشكين ذات مرة : «ان غاية الشعر هي الشعر». فما هو الбаृعث وما هو الدافع المحرك للفنان ولأي غرض يعمل؟ الممتعة؟ أم للتربية، أم للبحث؟ لست أدری . بيد أن ذلك كله ، وبأسمى درجة ، تقدمه لنا كتب دوستويفسكي . وفيها ، علاوة على ذلك ، الإحساس بالمعجزة التي تشـد إليها مشاعرنا وأفكارنا أكثر فأكثر ، وتسمـو بأفكارنا فـمكـتنا من رؤـية أنفسـنا وعالـمنـا بكل بـؤـسه وعـظمـته بكل جـدارـته وـقيـمـته ، عـالـمنـا كـلـه بـروـعة جـمالـه وـاستـحـالة إـدـراكـه .



الْجَزِيرَةُ الْأَوَّلَى



٩

## الفصل الأول

الأيام الأولى من شهر تموز، وكان الحر شديداً للغاية، خرج شاب في نحو نهاية الأصيل، خرج من الغرفة الصغيرة التي كان يسكنها في زقاق س...<sup>(2)</sup> واتجه نحو جسر ك... بطىء الخطى كأنه كان متربداً.

لقد أسعفه الحظ فأفلح أثناء هبوطه السلم في تحاشي لقاء صاحبة الشقة التي يسكن عندها. إن الغرفة التي يسكنها الشاب تقع تحت السقف من منزل عال يتألف من أربعة طوابق، وهي أقرب إلى جحر منها إلى مسكن. وكانت صاحبة الشقة التي تؤجره هذه الغرفة مع الطعام والخدمة تسكن هي نفسها في الشقة المنفردة في الطابق الأدنى، فكان لا بد للشاب، كلما خرج، أن يمر حتماً أمام مطبخها الذي يظل بابه مفتوحاً على السلم دائماً. وكان الشاب يشعر في كل مرة أثناء مروره بضيق وحرج وانزعاج فيحس بالخجل من هذا الشعور ويقلص وجهه، ويغدو قاتم النفس. كان مديناً لصاحبة الشقة فيخشى أن يلتقي بها.

وليس مرد ذلك إلى أنه جبان رعديد، أو إلى أنه مروع مذعور، بالعكس... ولكنه يعاني منذ بعض الوقت حالة من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة. لقد بلغت حياته من الاعتزال ومن فرط الانطواء على النفس أنه يخشى لقاء أي إنسان، لا لقاء صاحبة الشقة

فحسب. كان يعيش في فقر مدقع، وبؤس شديد، ولكن العوز نفسه أصبح في هذه الأونة الأخيرة لا يشتعل عليه. أصبح الشاب لا يهتم بشؤونه ولا يريد أن يهتم بها. الواقع أن صاحبة الشقة كانت لا تخيفه، مهما تكن المكائد التي تدبّرها له. ولكن الوقوف على فسحة السلم، والإصغاء إلى ثرثرات سخيفة شتى عن ترهات لا تعنيه في قليل ولا كثير، واحتمال التذكير الدائم المستمر، الذي تصحبه تهديدات وشكوى، بضرورة مبادرته إلى دفع الأجرة، واضطراره إلى اختلاق الحيل وانتحال الأعذار وتلقيق الأكاذيب... ولكن ذلك كله أصبح من الأمور التي لا يمكن أن يطيقها، فهو يؤثر على ذلك أن يتسلل على السلم تسلل هرة، وأن يفرّ دون أن يراه أحد. على أن الخوف الذي شعر به هذه المرة من تصور أن دائنته قد تراه، أدهشه هو نفسه منذ أصبح في الشارع.

حدث نفسه يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة: «أفكر في الإقدام على عمل مثل ذلك العمل، ثمأشعر بخوف لأمر تافه هذه التفاهة! نعم، إن كل شيء موجود لدى الإنسان، ومع ذلك يدع الإنسان لكل شيء أن يمر تحت أنفه... وما ذلك إلا لأن الإنسان جبان... نعم، هذه بديهة... إنه لمن الشائق أن نعرف ما الذي يخافه البشر أكثر مما يخافون... إلا أن ما يخافه البشر أكثر مما يخافون هو أن يتقدموا خطوة إلى أمام، هو أن يقولوا كلمة شخصية. على أنني أسرف في الثرثرة كثيراً. وإذا كنت لا أعمل شيئاً، فلا تبني أثراً... أو قل على نحو أصح وأدق: إذا كنت أثراً فلأنني لا أفعل شيئاً. ومع ذلك فأنا في هذه الأشهر الأخيرة إنما تعلمت الثرثرة قابعاً في ركتني أفكر... أفكر في كل شيء ولا أفكر في شيء. مثلاً: فيم أذهب الآن إلى هناك؟ أنا قادر على أن أفعل «ذلك الأمر»؟ هل «ذلك الأمر» جدّ حقاً لا... ما هو بالجد البتة! وإنما هو نزوة خيال لا أكثر! إنني «أدغدغ» نفسي ملتمساً تسلية...».

الحر في الشارع ما يزال مرهقاً. يضاف إلى ذلك نقص الهواء،

والازدحام، والكلس المنتشر في كل مكان، والسفارات، والأجر، والغبار، ثم ذلك التن الصيفي الخاص الذي يعرفه كل ساكن من سكان بطرسبرج لا تتيح له موارده أن يستأجر بيته صيفياً في الضواحي. إن اجتماع ذلك كله قد أثار أعصاب الشاب الذي كانت أعصابه مهترئة من قبل فأورثه مزيداً من الضيق. وهذه رواجع كريهة تنشرها خمارات كثيرة جداً في هذا القسم من المدينة، وهملاً سكارى يلقاهم المرء عند كل خطوة رغم أن اليوم ليس يوم الأحد بل هو يوم عمل، فتصطحب اللوحة بلون حزين منقر. إن شعوراً عميقاً بالاشمئزاز يرتسם للحظة على الوجة الدقيقة من وجه الشاب. والشاب حسن الصورة وسيم الطلة، له عينان دكتوان رائعتان، وشعر أشقر ضارب إلى لون كلون الرماد، وقامة فوق الوسط طولاً، نحيلة ممشوقة. ولكنه لا يلبث أن يبدو عليه الاسترسال العميق في التفكير، أو قل الانحدار إلى نوع من الغبيوبة. وظل يسير لا يرى من حوله شيئاً، ولا يرغب في أن يرى أي شيء. كل ما هنالك أنه كان، بين الفينة والفينية، يستأنف محاورة نفسه جرياً على عادة إلقاء مونولوجات، تلك العادة التي اعترف بها لنفسه الآن. وأدرك في تلك اللحظة نفسها أن خواطره وأفكاره تختلط وتضطرب من حين إلى حين، وأنه ضعيف جداً: إنه لم يكدر يأكل شيئاً منذ يومين.

وكان يرتدي ثياباً تبلغ من الرثاثة أن شخصاً آخر غيره كان لا بد أن يشعر بضيق وحرج، مهما نكن عاداته المكتسبة، إذا هو خرج في وضع النهار بمثل تلك الأسمال. الحق أن هذا الحي ليس من الأحياء التي يمكن أن يستغرب فيها الناس منظر رداء. إن هذا المكان القريب من «سوق العلف»<sup>(3)</sup>، الذي تكثر فيه محالٌ من نوع خاص، والذي يتتألف سكانه أساساً من صناعٍ وحرفيين متكدسين في هذه الشوارع والأزقة من مركز بطرسبرج، يشتمل على تنوع كبير في الأفراد يُستغرب معه أن يُدھش، أحد من شخص متفرد بعض التفرد. علم، أن نفس الشاب قد

بلغت من فرط الامتناع بالاحتقار الكاره أنه رغم ما يتصرف به طبعه من شدة التأذى [الذى يتميز به أحياناً الشباب]، كان لا يشعر بخجل كثير من عرض أسمائه البالية في الشارع. ولا كذلك إذا هو التقى بأشخاص يعرفهم أو برفاق قدامى لا يحب على وجه العموم أن يختلف إليهم... . ومع ذلك حين أحوال سكير كان مقوداً (لا ندري إلى أين ولا لماذا) في عربة كبيرة يجرها حصان قوي، حين أحوال هذا السكير على حين فجأة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومئ إليه بيده: «هيه، أنت يا صاحب القبة الألمانية!»، فإن الشاب توقف بفترة، وقبض على قبعته بحركة عصبية. هي قبعة عالية مشتراء من عند تسميرمان<sup>(4)</sup> لكنها قد اهترأت اهتراء تماماً، واحمر لونها، وغضيبيتها البقع وثقبتها الثقوب وزالت حافتها وانطوى أحد طرفيها حتى صار زاوية بشعة كريهة. على أن الشاب لم يشعر بخجل، وإنما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه الهلع.

ودمدم يخاطب نفسه مضطرباً:

«كنت أعرف هذا حق المعرفة... . قدرته من قبل!.. ذلك أسوأ ما في الأمر! تكفي ترهة سخيفة من هذا النوع، يكفي أمر تافه كهذا، حتى يتعرض كل شيء للخطر! نعم، إن هذه القبعة صارخة... هي مضحكة، وهي لذلك صارخة... . ما دمت أرتدي هذه الأسمال البالية فلا بد لي من قلنوسوة، أو من أية طاقية عتيقة. أما هذه القبعة الفظيعة فلا!.. ما من أحد يلبس قبعة كهذه القبعة. إنها تُرى من مسافة فرسخ كامل... . ومن رآها مرة يتذكرها ولا ينساها... . يتذكرها في المستقبل... . فتكون هي الدليل القاطع... . إنني أحتج الآن إلى أن لا ينتبه إلى أحد!.. إن الأشياء الصغيرة هي التي لها أكبر شأن وأعظم خطر!.. هذه هي الحقيقة، إن أشياء صغيرة كهذه القبعة هي التي تفسد كل شيء في آخر الأمر دائمًا... »

لم يكن طريقه طويلاً، حتى لقد كان يعرف عدد الخطوات التي يجب

أن يقطعها منذ يجتاز باب منزله : إنها سبعمائة وثلاثون خطوة تماماً . لقد عذ هذه الخطوات ذات يوم من الأيام بعد أن أفرط في الاستسلام لأحلامه . في ذلك الأوّان لم يكن يصدق بعد أن هذه الأحلام واقعة ، وإنما كان يرُوح عن نفسه بما تشمل عليه تلك الأحلام من جرأة دنيئة فتانية في آن واحد . أما الآن ، بعد انقضاء شهر على ذلك الأوّان ، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة ، ورغم جميع المحاورات المحنقة التي كانت تجري بينه وبين نفسه ، والتي كان في أثنائها يعيّب على نفسه ضعفه وتردداته ، فإنه قد اعتاد ، رغم إرادته تقريباً ، أن ينظر إلى هذا «الحلم الدني» نظرته إلى مشروع عليه أن ينفذه » ، دون أن يزداد من ذلك ثقة بنفسه على كل حال . وهو الآن ذاهب لاجراء تمرين على ذلك الفعل الدني ، فاضطرابه يزداد قوة عند كل خطوة .

وفيما هو منهاـر القلب تسرى في جسمه رعدة عصبية ، اقترب من مبني ضخم يطل من إحدى جهتيه على القناة ويطل من الجهة الأخرى على شارع س . . . ، إن هذا المنزل ، المقسم إلى مساكن صغيرة ، يسكنه أناس من جميع الأنواع : خياطون ، وقفالون ، وطباخون ، وألمان مختلفون ، وشابات يعشن من جمالهن ، وموظفوـن صغار ، وهلمـ جرا . . . إن الذهاب والأياب تحت قوسـي مدخلـيه الكـبيرـين ، وفي فناءـيه الواسـعين ، لا ينقطـعـان . وثـمة بـوابـون ثـلـاثـة أو أـربـعـة يتـولـون أمرـه . فـما كـان أـشـدـ سـرـورـ الفتـى حـين لم يـلتـقـ بأـحدـ منـهـم . فـلـما اـجـتـازـ المـدخـلـ تـسلـلـ إـلـىـ السـلـمـ الأـيـمنـ دونـ أنـ يـراهـ أحدـ . إنـ هـذاـ السـلـمـ ضـيقـ ، مـظـلـمـ ، «أـسـودـ» ، ولـكـنـ الشـابـ يـعرـفـهـ فـقدـ سـبـقـ أـنـ درـسـهـ ، ثمـ إنـ هـذاـ الجـوـ يـعـجـبـ الفتـىـ وـيرـضـيهـ ، فـهـوـ فـيـ ظـلـامـ كـهـذـاـ الـظـلـامـ لـاـ يـخـشـيـ أـنـ تـقـعـ عـلـيـ نـظـرـةـ مـسـطـلـعـةـ . وـمـعـ ذـلـكـ قـالـ الفتـىـ لـنـفـسـهـ رـغـمـ إـرـادـتـهـ حـينـ وـصـلـ إـلـىـ الطـابـقـ الثـالـثـ : «إـذـاـ كـنـتـ أـشـعـرـ الآـنـ بـهـذـاـ الخـوفـ كـلـهـ ، فـبـمـاـ يـمـكـنـ أـنـ أـشـعـرـ إـذـاـ اـتـفـقـ أـنـ مـضـيـتـ إـلـىـ آـخـرـ الشـوـطـ؟» . . . وـهـنـاكـ كـانـ يـسـدـ طـرـيقـ صـنـادـيقـ وـجـنـوـدـ سـابـقـوـنـ كـانـواـ يـخـلـوـنـ أـحـدـ الـمـسـاـكـنـ مـنـ أـثـائـهـ . كـانـ الفتـىـ

يعرف من قبل أن موظفاً ألمانياً هو رب أسرة كان يقيم في هذا المسكن حتى ذلك الحين. فقال لنفسه أيضاً قبل أن يقرع جرس الباب : «إن هذا الألماني ذاهب إذن الآن، فلا يبقى على الفسحة الثالثة من السلم، خلال فترة من الوقت، إلا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة العجوز. ذلك أمر تسرّ معرفته . . . حين تأذف الساعة». ثم ضعف على جرس باب الشقة ورنّ الجرس رنيناً ضعيفاً كأنه من حديد أبيض لا من نحاس. إن الأجراس تكون دائماً من هذا النوع في المساكن الصغيرة التي تتتألف منها عمارة من هذا الطراز. وكان الشاب قد نسي صوت ذلك الجرس، فإذا هو يحس هذا الصوت الآن تذكيراً مباغتاً بشيء تخيله واضحـاً . . . فارتعد. كانت أعصابه في هذه المرة منهكة. وبعد دقيقة شقّ الباب شقاً ضيقـاً، وأخذت ساكنة البيت تتفحص القادم الجديد، من خلال هذا الشق، بشكٍ واضحٍ وارتياـب ظاهر. إن المرأة لا يرى، في هذا الظلام، إلا عينيها الملتمعتين. ولكنها حين أبصرت على فسحة السلم أناساً كثريـن اطمأنـت ففتحـت الباب فتحـاً كاملاً. اجتاز الفتى العتبة، وولـج حجرة المدخل المظلمة التي يقطعـها حاجـز جعلـ ما وراءه مطبخـاً صغيرـاً: وقفـت العجوز قـبـلـته صـامتـة تحـدـجه بنـظـرة سـائلـة. هي امرأـة عـجوز قـصـيرـة جداًـ نـحـيلة جداًـ، في نـحـوـ السـتـينـ منـ العـمـرـ، لها عـيـنـانـ حـادـتـانـ شـرـيرـتـانـ، وـأـنـفـ صـغـيرـ مدـبـبـ. وكانت حـاسـرـةـ الرـأسـ، فـشـعـرـهاـ الفـاتـحـ قـلـيلـ الشـيـبـ يـلـتـمعـ بـبـرـيقـ الزـيـتـ. وـحـولـ عـنـقـهاـ الطـوـيلـ النـحـيلـ الذـيـ يـشـبـهـ سـاقـ دـجاجـةـ، كانت تـلـتـفـ خـرـقـ مـبـهـمـةـ منـ قـماـشـ «ـالـفـلـانـيلـ»ـ، وـتـضـعـ عـلـىـ كـتـفيـهاـ، رـغـمـ الـحرـ الشـدـيدـ، سـتـرـ قـصـيرـةـ فـرـائـيـةـ قدـ اـصـفـرـ لـونـهاـ وـتـنـسـلـ وـبرـهاـ. وكانت العـجوزـ تـسـعـ وـتـنـاؤـهـ فيـ كـلـ لـحـظـةـ. وأـغـلـبـ الـظـنـ أنـ الفتـىـ أـلـقـىـ عـلـيـهـ نـظـرةـ خـاصـةـ، لأنـ الشـكـ وـالـارـتـيـابـ عـادـاـ يـظـهـرـانـ فيـ عـيـنـيهـاـ.

تـذـكـرـ الفتـىـ فـجـأـةـ أـنـ عـلـيـهـ أـنـ يـكـونـ لـطـيفـاـ وـدـودـاـ، فـأـسـرعـ يـدـمـدـمـ قـائـلاـ  
لـلـتـعـرـيفـ بـنـفـسـهـ وـهـوـ يـنـحـنـيـ نـصـيفـاـ:

- راسكولنيكوف<sup>(5)</sup> ، طالب . جئت إليك منذ شهر . . .

فخاطبته العجوز تقول بصوت واضح متميز دون أن تحول نظرتها السائلة عن وجهه :

- أتذكر يابني ، أتذكر جيداً أنك جئت . . .

فتتابع راسكولنيكوف كلامه وقد ساوره شيء من الدهشة والارتباك حين لاحظ شك العجوز وارتبابها :

- ها أنذا أجيء إليك مرة أخرى . . . لأمر صغير من ذلك النوع نفسه . . .

وحدث نفسه قائلاً وهو يشعر بضيق : «الحقيقة أنها ربما كانت هكذا دائماً ، ولكنني لم ألاحظ ذلك في المرة الماضية».

وصمتت العجوز كأنما لتفكر ، ثم تنحت قليلاً ، وقالت للزائر وهي تدلle على باب الغرفة وتدعه يمر قدامها :

- تفضل ادخل يابني !

دخل الشاب غرفة صغيرة مفروشة الجدران بورق أصفر ، فيها أزهار جيرانيوم ، ولنواذها ستائر من قماش المسلمين . وكانت الغرفة في تلك اللحظة تضيئها أشعة الشمس الغاربة بنور ساطع . قال الفتى يحدث نفسه : «ماذا؟ هل تستطيع الشمس إذن هذا السطوع حينذاك». لقد اخترقت هذه الفكرة ذهن راسكولنيكوف على غير علم منه ، فإذا هو يلف الغرفة كلها بنظرة سريعة ليدرس ترتيبها وليحفظه في ذاكرته إن أمكن ذلك . ولكن هذه الغرفة لا تتميز كثيراً بصفات خاصة . إن أثاثها المصنوع من خشب أصفر على طراز عتيق ، يتتألف من أريكة ذات مستند خشب ضخم له أقواس ، ومنضدة بيضاوية الشكل موضوعة أمام الأريكة ، وخوان زينة بمرآة صغيرة موضوع بين نافذتين وكراسي مصفوفة على طول الجدران ، ولوحتين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها ، موضوعة في إطار مصغر ، تمثل آنسات ألمانيات في أيديهن طيور . ذلك

هو الأثاث . وفي ركن من الأرکان ، أمام أيقونة صغيرة كان يسطع سراج صغير . والمکان کله تسوده نظافة قصوى . فالأثاث وأرض الغرفة قد ذلکت بالشمع فھي تلمع . قال الفتى يحدث نفسه : « هذا من عمل اليزافيتا ! » ما كان لأحد أن يستطيع العثور على ذرة غبار واحدة في المسكن کله . عاد راسكولنيکوف يحدث نفسه فقال : « لا يجد المرء نظافة كهذه النظافة إلا عند الأرامل العجائز الشريرات ». قال ذلك والتفت بيصره خلسة يستطلع ستارة من فماش قطني تحجب باباً يصل هذه الغرفة بغرفة صغيرة أخرى فيها سرير العجوز وخرانتها وهي غرفة لم يسبق له أن دخلها قط . إن المسكن کله لا يضم إلا هاتين الغرفتين . سألته العجوز بقساوة وهي تدخل الغرفة بعده وتقف مرة أخرى أمامه لتفحصه وجهاً لوجه :

- أي خدمة ؟

قال الفتى :

- جئتک بشيء أريد أن أرهنه . هو ذا . . .

قال ذلك وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة ، رسمت على غطائها الكرة الأرضية ، ولها سلسلة من فولاذا .

قالت المرأة العجوز :

- ولكن مدة رهنك الأولى قد انتهت . انقضى على الرهن الأول شهر منذ أمس الأول .

- سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر . أصبرى علي .

قالت :

- أنا التي أقرر ألاصبر أم أبيع الرهن الآن . هذا شأنى أنا يا بني .

- هل تقرضيني مبلغاً كبيراً على رهن هذه الساعة يا ألفينا إيفانوفنا ؟<sup>(6)</sup>

- إنك تجيئني دائماً بأشياء صغيرة تافهة ليس لها قيمة البتة... لقد أقرضتك في المرة الماضية ورقتين صغيرتين (أي روبلين) على رهن خاتمك، مع أن في إمكان أي إنسان أن يشتري من عند الصائغ خاتماً جديداً من نوعه بروبل ونصف روبل.

- أقرضيني أربعة روبلات على رهن الساعة. سأفكها قريباً...  
ورثتها عن أبي. وسيصلني مبلغ من المال بعد مدة قصيرة.

- أقرضتك على رهنها روبلان ونصفاً، والفائدة تدفع سلفاً.

صاحب الفتى متعجبًا :

- روبلان ونصفاً؟

- لا مساومة. إما أن تقبل وإما أن ترفض.

قالت العجوز ذلك ومدت إليه الساعة، فتناولها الفتى غاضباً حتى لقد همّ أن ينصرف. ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك إذ تذكر أنه ليس هناك مكان آخر يذهب إليه وأنه جاء لغرض آخر أيضاً.

قال بلهجة خشنة :

- هاتي !

فدسست العجوز يدها في جيبيا لتخرج مفاتيحها، ومضت إلى الغرفة الأخرى وراء الستارة. فلما أصبح الفتى وحيداً وسط الغرفة، أصاخ بسمعه مستطلعاً، وأطلق العنان لخياله.

سمعها تفتح الخزانة. قال يحدث نفسه: «أغلب الظن أنه الدرج الأعلى... هي تحمل مفاتيحها إذن في الجيب الأيمن...»  
والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة من فولاذ... وبين المفاتيح مفتاح مسند الرأس أكبر من غيره ثلاثة مرات، ولكن من الواضح أنه ليس مفتاح الخزانة... إذن هناك أيضاً سحارة أو صندوق صغير... هذا أمر هام. إن لجميع الصناديق مفاتيح من

هذا النوع... على كل حال، هذا كله كريه بشع...»  
وعادت العجوز.

- خذ يابني. إذا كانت الفائدة عشرة كوبىكات عن كل روبل في الشهر تُقطع سلفاً، فإن الفائدة عن روبل ونصف روبل تكون خمسة عشر كوبىكاً. يضاف إلى ذلك عشرون كوبىكاً عن الروبلين اللذين افترضتهما في المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها، فيكون مجموع ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبىكاً، فيبقى لك عن رهن الساعة روبل وخمسة عشر كوبىكاً. إليك المبلغ.

- كيف؟ ألا يبقى لي إلا روبل وخمسة عشر كوبىكاً؟  
- تماماً.

لم يناقشها الفتى، وتناول المال. وكان ينظر إلى العجوز ولا يستعجل الخروج، كأنما كان يريد أن يقول شيئاً، أو أن يفعل شيئاً، دون أن يدرى ما هو هذا الشيء على وجه الدقة...

وقال لها أخيراً:

- ربما جئتكم بشيء آخر في الأيام القليلة القادمة يا أليونا إيفانوفنا... هو شيء من فضة... شيء ذو قيمة... علبة سجائر...  
نعم، سأجيئكم بعلبة سجائر متى رذها إلى صديق لي...  
ارتبك الفتى وصمت.

فقالت العجوز:

- طيب يابني... ستكلم في الأمر في حينه.  
قال لها الفتى بلهجة منطلقة على قدر المستطاع، وهو يتوجه نحو حجرة المدخل:

- استودعك الله... أأنت إذن وحيدة في البيت دائماً دون أن تكون أختك معك؟

- فيم يعنيك هذا يا بني؟

- لا يعنيني في شيء... انه مجرد سؤال هكذا... دون هدف..  
فإذا أنت... استودعك الله يا أليونا إيفانوفنا.

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب عميق ما ينفك يزداد،  
حتى توقف عدة مرات مذهولاً أثناء هبوطه السلم. فلما صار في الشارع  
آخر الأمر هتف يقول:

«آه... رباء! ما أبشع هذا كله! هل يمكنني، هل يمكنني حقاً  
أن...»

ثم أضاف يقول باقتناع:

«لا... هذه حماقة... هذه سخافة... هل يمكن حقاً أن تكون  
فكرة شيطانية كهذه الفكرة قد ساورت ذهني؟ ما أقدر ما في قلبي إذن  
من وحل! ثم إن هذا كله وسخ جداً، مقرز جداً، قذر جداً! كيف  
أمكنني، خلال شهر بكماله، أن...»

ولكن الفتى لم يجد الكلمات التي كان يمكن أن تعبر عن حالته  
العصبية الرهيبة. إن الإحساس بالاشمئزاز الذي لا نهاية له والذي كان  
قد بدأ يجثم على صدره ويقبض قلبه ويختنقه خنقاً أثناء ذهابه إلى مسكن  
العجز قد بلغ الآن أبعاداً عظيمة وأخذ يتجلّى بعنف شديد حتى صار  
الفتى لا يعرف كيف يتخلص من هذه النازلة التي ألمت به وهذا الحزن  
الذي عصف بقلبه. كان يمشي على الرصيف كالسكران لا يلاحظ حتى  
المارة الذين كان يصطدم بهم. ولم يثبت إلى رشه إلا في الشارع  
التالي. فلما نظر حواليه لاحظ أنه أمام خمارة ينزل إليها النازل على  
سلم يؤدي من الرصيف إلى القبو. وفي تلك اللحظة نفسها كان يخرج  
من الخمارة سكراناً يسند كل منهما الآخر، ويتبادلان الشتائم أثناء  
صعودهما السلم. فلم يلبث راسكولنيكوف أن هبط إلى الخمارة دون  
تردد. لم يسبق له أن دخل خمارة في يوم من الأيام، ولكنه يشعر الآن

بدوار في رأسه، كما أن ظمأ لا يطاق كان يعذبه. اشتتهى أن يشرب بيرة باردة، لا سيما وأنه كان يعزو ضعفه المفاجئ إلى الجوع أيضاً. جلس في ركن مظلم قدر أمام مائدة صغيرة متسخة بالدهن، وطلب بيرة فشرب كأساً أولى بشرابة، فلم يلبث أن شعر بشيء من التخفف والراحة، وأصبحت أفكاره أوضح. قال لنفسه وقد ارتد إليه الأمل: «ذلك كله سخافات! لا داعي إلى القلق! هو انزعاج جسمي لا أكثر! فما أن يشرب المرء كأساً من بيرة وما أن يأكل قطعة من بسكويت حتى يستند فكره ويقوى ذهنه وتتضح أفكاره وتترسخ عزيمته. أوه! ذلك كله باطل!..» ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه، كان راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقيل: ها هو ذا شيء من فرح يتجلى منذ الآن في نظره التي أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة. ومع ذلك أحس، حتى في تلك الدقيقة، إحساساً غامضاً بأن حالة التفاؤل التي صارت إليها نفسه حالة مرضية هي أيضاً.

لم يبق في الخمارة في تلك الساعة إلا عدد قليل من الناس. فبعد السكرانين اللذين التقى بهما على السلم خرجت من الخمارة، دفعه واحدة، عصبة تتالف من خمسة شبان يجررون فتاة ومعهم أكورديون. فما أن انصرفوا حتى عاد الهدوء إلى الخمارة، فأصبح المرء يحسن بحرية أكبر. لم يبق في القاعة إلا شخص ثمل بعض الثمل، جالس أمام كأس بيرة، أغلب الظن أنه تاجر، ومعه رفيقه وهو رجل طويل سمين يرتدي قفطاناً قصيراً له لحية شائبة كان قد بلغ السكر منه كل مبلغ، فهو غافٍ فوق دكة، وهو يصفق بأصابعه من حين إلى حين كأنه يخرج من نومه على حين بعنة، ويأخذ يباعد ذراعيه، ويرجح القسم الأعلى من جسمه، دون أن ينهض عن الدكة، مدمداً بكلام سخيف، محاولاً أن يتذكر أبياتاً من الشعر من هذا النوع:

لأعبت زوجتي طوال السنة

لا... عبت زوجتي طوا..مل السنة

أو قائلاً بعد أن يستيقظ من جديد:

حين مررت بشارع بودياتشسكيابا<sup>(7)</sup>

الحقيقة بصدقتي القديمة الطيبة

ولكن لم يكن يشاركه أحد سعادته. حتى لقد كان رفيقه الصموم  
يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائٍ رياضي. وكان هنالك رجل  
ثالث يدل مظهّره على أنه موظف صغير محال على التقاعد. كان هذا  
الرجل متزورياً أمام كأسه يشرب من حين إلى حين، ويطوف ببصره على  
ما حوله، ويبدو عليه أنه يعاني هو أيضاً حالة عصبية.

## الفصل الثاني

لـ  
يكن راسكولنيكوف معتاداً صحبة الناس ، وكان كما سبق أن قلنا يتحاشى كل مجتمع ، ولا سيما منذ فترة من الوقت . غير أن شيئاً كان يجذبه الآن إلى البشر على حين فجأة ، فكان شيئاً جديداً قد حدث في نفسه ، وكان يشعر في الوقت ذاته بشيء من الظماء إلى عقد الصالات بينه وبين أقرانه . إن ذلك الشهر الذي قضاه في غم ثقيل واحتياج كالح قد جعله متعباً إلى حد أنه يتوق الآن إلى استرداد أنفاسه ولو لحظة من الزمن ، في عالم آخر ، في أي عالم آخر . لذلك شعر من بقائه الآن في الخمارة بلذة كبيرة رغم رداءة المكان .

وكان صاحب الخمارة يجلس في غرفة مجاورة ، ولكنه يظهر في القاعة الرئيسية مرةً بعد مرة . وكان يصل إلى هذه القاعة هابطاً بضع درجات ، فكان الجالس في هذه القاعة يرى ، أول ما يرى ، جزئيه الملمعتين بأناقة واللتين لهما حافتان مقلوبتان حمراوان . وكان لا يضع رباط عنق ، يرتدي سترة مضيقه عند الخاصرة وصديرية سوداء من قماش الأطلس قد بلغت من الاتساح جداً رهيباً . أما وجهه فكان يلتمع من الدهن التماع قفل مزيت . ووراء البسطة كان يجلس صبي في نحو الرابعة عشرة من العمر . وكان هنالك صبي آخر أصغر سنًا ، يخدم الزبائن . وعلى البسطة كانت تُعرض دواير خيار ، وبسكويت أسود ،

وشرائح سمك، وكان ذلك كله ينشر رائحة كريهة. الجو خانق لا يكاد يطاق، والهواء يبلغ من التشبع برائحة الخمرة أنه يكفي أن يمكث المرء فيه لبعض الوقت حتى يسكت.

يتفق للمرء أحياناً أن يلقى أناساً لا يعرفهم البتة فإذا هو يأخذ يهتم بهم منذ أول نظرة قبل أن يبادلهم كلمة واحدة. ذلك كان هو الإحساس الذي أحده في راسكولنيكوف الزيتون المنزوي الذي يدل مظهره على أنه موظف متلاعنة. تذكر الفتى مراراً كثيرة، فيما بعد، ذلك الإحساس الأول، حتى لقد عزاه إلى نوع من النبوة. كان راسكولنيكوف لا يحول بصره عن الموظف، ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن هذا الموظف كان يلح في النظر إلى راسكولنيكوف، وكان واضحاً أنه راغب رغبة قوية في عقد حديث معه. أما الأشخاص الحاضرون الآخر، ومنهم صاحب الخمارة، فقد كان الموظف ينظر إليهم نظرة جليس من جلسات الخماراة المزميين، مع ضجر منهم ومع شيء من الاحتقار لهم والتعالي عليهم في الوقت نفسه، كأنه يعدهم أدنى كثيراً منه، سواء من ناحية منزلتهم الاجتماعية أو من ناحية ثقافتهم وأدبهم، فليس عليه أن يكلمهم. هو رجل تجاوز الخمسين من عمره، متوسط القامة قوي البنية، على رأسه الأصلع قليل من شعر أبيض، له وجه أصفر أو قل ضارب إلى خضراء، قد ورمه الشراب، تستطع فيه تحت جفونين منتفخين عينان صغيرتان محمرتان حادتان. ومع ذلك كان في هذا الوجه شيء غريب جداً. إن نظرته تلتمع بنوع من الحماسة بل ولا تخلو من ذكاء وفكر، ولكن تلم بها ومضات جنون في بعض الأحيان. وكان يرتدي «فراكاً» عتيقاً رثاً قد سقطت أزراره، إلا زرأ واحداً ما يزال في مكانه مهلهلاً يوشك أن يسقط، ولكن الرجل قد أدخله في العروة حتى لا يجافي آداب اللياقة. ومن صدريته المصنوعة من قماش قطني أصفر كانت تخرج حافة قميص مجعدة متسخة ملطخة. وكان حليق الذقن، كما يليق بموظف، ولكن كان واضحاً أنه لم يكرر حلقة ذقنه منذ مدة طويلة، فشعرها القاسي قد

أخذ يرزق خديه. هذا عدا أن وضعه يكشف عن شيء من وقار هو ما يتميز به موظف من الموظفين. ولكنه كان يُظهر قلقاً شديداً، وينفس شعره، ويضغط رأسه بيده حزيناً يائساً، واضعاً كوعي كمية المثقوبين على المائدة الرطبة اللزجة. وفي النهاية نظر إلى راسكولنيكوف محدقاً في عينيه، وقال يخاطبه بصوت عال ثابت:

- هل أجرؤ، أيها السيد الكريم، أن أووجه إليك بعض الكلمات باحترام؟ فإن تجربتي تكشف فيك، رغم مظهرك البسيط المتواضع، عن إنسان حسنت ثقافته، ولم يألف أن يشرب. لقد كنت طوال حياتي احترم الثقافة حين تقرن بعواطف القلب. وأنا عدا ذلك أحمل لقب مستشار اعتباري. أسمى مارميلاروف، ولقمي مستشار اعتباري<sup>(8)</sup>، أجرؤ أن أسألك هل أنت موظف؟

أجابه الفتى وقد أدهشته هذه اللهجة المنتفخة في كلام الرجل، وأدهشته أن يخاطبه الرجل مباشرةً بلا لف ودوران:

- بل أنا أتابع دراستي.

وشعر راسكولنيكوف، رغم ما أحسه منذ قليل من رغبة في صحبة أي إنسان، شعر فجأة منذ الكلمات الأولى التي خاطبه بها الرجل، بذلك النفور المأثور الأليم الذي كان يشعر به كلما قاربه إنسان مجهول أو حاول أن يقاربه.

- أنت إذن طالب، أو طالب سابق... ذلك ما قدرته! هي التجربة يا سيدي الكريم، تجربة طويلة متصلة! ومن أجل أن يعتبر عن احترامه لفاذ بصيرته وسداد حكمه، وضع اصبعاً على جبهته.  
وأردد يقول:

- لقد كنت طالباً، إلا أن تكون قد حضرت عدداً محدوداً من الدراس فحسب... ولكن اسمح لي...  
ونهض متربحاً، فتناول زجاجته وقدحه وجاء يجلس قرب

راسكولنيكوف موارباً قليلاً. لقد كان سكران. ولكنها يتكلم بوضوح وطلقة وحماسة. كل ما هنالك أنه يفقد حبل الحديث من حين إلى حين، فيبيطر تدفق كلامه. لقد هجم على راسكولنيكوف هجوماً يبلغ من الشرارة أن من يراه يعتقد أنه لم يكلم أحداً منذ شهر كامل هو أيضاً.

بدأ يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أبهة:

- أيها السيد الكريم، ليس الفقر رذيلة، ولا الإدمان على السكر فضيلة، أنا أعرف ذلك أيضاً. ولكن الرئيس رذيلة أيها السيد الكريم، الرئيس رذيلة. يستطيع المرء في الفقر أن يظل محافظاً على نبل عواطفه الفطرية، أما في الرئيس فلا يستطيع ذلك يوماً، وما من أحد يستطيعه فقط. إذا كنت في الرئيس فإنك لا تُطرد من مجتمع البشر ضرباً بالعصا، بل تُطرد منه ضرباً بالمكنسة، بغية إذلالك مزيداً من الإذلال. والناس على حق في ذلك، لأنك في الرئيس أول من يريد هذا الذل لنفسه بنفسه. وهذا سبب ادمانك على الشراب! أيها السيد الكريم، منذ شهر، ضرب السيد ليبيزياتنيكوف زوجتي، وزوجتي تختلف عن اختلافاً كبيراً! هل تفهم؟ اسمح لي أيضاً أن أقول عليك سؤالاً، هكذا، ولو من باب الفضول: هل حدث لك أن قضيت الليل في مركب علف على نهر النيفا؟

أجاب راسكولنيكوف:

- لا... لم يحدث لي ذلك... ما هذا؟

- أما أنا فإني آت من هناك، من مركب العلف.. وهذه هي الليلة الخامسة..

قال الرجل ذلك وصب قدحاً ثم أفرغه في جوفه وأخذ يفكر. وكان يُرى فعلاً، هنا وهناك، على ملابسه، وحتى على شعره، تبنٌ ما يزال عالقاً. أغلب الظن أنه لم يخلع ملابسه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام. وكانت يداه خاصةً قدرتين حمراوين أظافرهما الوسخة طويلة.

ويبدو أن كلامه قد أيقظ في نفوس الحضور اهتماماً عاماً، وان يكن

هذا الاهتمام ممتزجاً بالإهمال. أخذ الصبيان، من وراء البسطة، يضحكان. ونزل صاحب الخمارة من الطابق الأعلى خصيصاً، من أجل أن يستمع للرجل «المازح»، فجلس متزوياً بعض الانزواء، وأخذ يتثاءب في كسل، ولكن بكثير من الوقار والكبرياء. لا شك أن مارميلادورف معروف هنا منذ زمن طويل. وأغلب الظن من جهة أخرى أنه قد اعتاد حب الكلام المزيف في أعقاب أحاديث كثيرة ألف أن يجريها في الخمارة مع أناس لا يعرفهم. إن هذه العادة تغدو حاجة قوية لدى بعض السكيرين، ولا سيما لدى أولئك الذين يعاملون في بيوتهم معاملة خشنة ظالمة. لذلك تراهم يحاولون متى سكرروا في صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بخطبٍ وكأنهم يبررون أنفسهم، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

قال صاحب الخمارة بصوت عالي:

- هل تمزح! لماذا لا تعمل؟ ولماذا لا تواظب على عملك ما دمت موظفاً؟

أجاب مارميلادورف يقول مخاطباً راسكولنيكوف وحده، كان راسكولنيكوف هو الذي ألقى السؤال:

- لماذا لا أواظب على عملي أيها السيد الكريم؟ لماذا لا أواظب على عملي؟ ولكن هل تظن أن قلبي لا يتآلم لمنظر خستي حين أرى أنني أمرؤ لا نفع فيه ولا جدوى منه؟ حين حدث منذ شهر أن ضرب السيد ليزياتينيكوف زوجتي، و كنت أنا راقداً كالموتى من فرط السكر، هل تظن أنني لم أتألم؟ اسمح لي أيها الفتى، هل اتفق لك... هم... نعم... هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحد أن يفرضك مالاً دون أن يكون لديك أمل؟

- وقع لي هذا... ولكن ماذا تعني بقولك: دون أن يكون لديك أمل؟...

- أعني دون أن يكون لديك أي أمل، فإنك تعلم سلفاً أن طلبك لن يثمر شيئاً!... مثلاً: أنت تعلم سلفاً على وجه اليقين أن هذا المواطن مهما يكن صالحاً ومهما تكن نياته حسنة لن يعطيك المال بحال من الأحوال... ولماذا عساه يعطيك مالاً ما دام يعرف أنك لن ترده اليه؟ أمن باب الشفقة؟ إن السيد ليبزياتنيكوف، وهو مطلع على الأفكار الجديدة والأراء الحديثة، قد شرح منذ أيام أن الشفقة في أيامنا هذه يحظرها العلم، وأن الأمور تجري على هذا النحو منذ الآن في بلاد الإنجليز التي يسودها الاقتصاد السياسي. فلماذا عساه يعطيك مالاً؟ ومع ذلك، رغم علمك سلفاً بأنه لن يعطيك مالاً، فإنك تمضي اليه، و... قال راسكولنيكوف:

- ولماذا تمضي إليه؟

- كيف لا أمضي إليه إذا لم يكن هناك أحد غيره، وإذا لم يكن هناك مكان آخر أذهب إليه! لا بد لكل إنسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب إليه، لأن الإنسان تمر به لحظات لا مناص له فيها من الذهاب إلى مكان ما، إلى أي مكان! حين ذهبت ابتي الوحيدة، أول مرة، إلى الشارع مع بطاقتها الصفراء<sup>(9)</sup> ذهبت أنا أيضاً...

وأضاف مارميلاروف شارحاً وهو ينظر إلى الشاب بشيء من القلق:

- ذلك أن ابتي لها بطاقة صفراء.

وضج الصبيان بالضحك، وابتسم صاحب الخمار، فأسرع مارميلاروف يقول فوراً وهو يصطمع المهدوء:

- لا بأس يا سيدي الكريم، لا بأس... لا بأس... إن هزهم رؤوسهم لا يبث الاضطراب في نفسي، لأن الأمر أصبح معروفاً لدى جميع الناس. نعم: كل خبيء مآل إلى ظهور<sup>(10)</sup>. وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء باحتقار بل بمذلة. طيب.. طيب... «هو ذا الإنسان!»<sup>(11)</sup>... اسمح لي أيها الفتى: هل تستطيع... لا... يجب

أن ألقى عليك هذا السؤال بقوة أكبر، بطريقة أبلغ دلالة وأصدق تعبيراً، يجب أن لا أقول هل تستطيع، بل يجب أن أقول هل تجرؤ أن تؤكّد حين تتأملني في هذه اللحظة، أنتي لست خنزيراً؟

لم يعجب الشاب بكلمة.

وابع الخطيب كلامه بمزيد من الرصانة، بعد أن انتظر انتهاء القهقات التي أثارتها أقواله الأخيرة، تابع كلامه فقال:

- طيب... فلنسلم بأنني خنزير، ولكنها هي سيدة! حقاً إنني أشبه «الوحش»<sup>(12)</sup> كل الشبه، ولكن زوجتي كاترينا ايفانوفنا إنسانة تملك حظاً عظيماً من الثقافة، هذا عدا أنها ابنة ضابط كبير. لنسلم، لنسلم بأنني وغد دنيء، ولكنها هي ذات نفس كبيرة وروح جميلة، ولها بحكم تربيتها عواطف نبيلة ومشاعر كريمة. ومع ذلك... آه... ليتها تشفع علىي! سيد الكرم، سيد الكريم، لا بد لكل إنسان من أن يجد أيضاً، في مكان ما على الأقل، شخصاً يشفق عليه! ولكن كاترينا ايفانوفنا ظالمة، رغم أنها سيدة تفيس نفسها سماحة. ورغم أنني أفهم أنا نفسي، حين تشندي من شعري، أنها إنما تشندي من شعري شفقة علىي ورأفة بي. لست أخجل من أن أكرر أيها الفتى أنها تشندي من شعري (كذلك أكدر مارميلادولف بمزيد من الرصانة حين سمع انفجار القهقات من جديد)، فإنني أتمنى، يا رب، أن يتفق لها مرة واحدة أن... ولكن لا، لا، هذا كله لا فائدة منه، ولا طائل تحته، ولا يستحق أن أتكلّم عنه! لا يستحق!.. ذلك أنهم اشفعوا علىي أكثر من مرة وتحقق ما كنت أتمناه غير مرة. ولكن هذه طبيعتي أيضاً. نعم، إنني إنسان فطر على الغلطة والفظاظة.

- جداً!

كذلك قال صاحب الخمارة مثاثباً.

فضرب مارميلادولف المائدة بقبضة يده ضربة قوية، وقال:

- هذه هي طبيعتي! هل تعلم، هل تعلم أيها السيد أنتي شربت خمراً حتى بثمن جوريها؟ لا بثمن حذاءيها، فلو قد شربت خمراً بثمن حذاءها لكان الأمر طبيعياً بعض الشيء، ولكنني شربت خمراً بثمن جوريها، نعم بثمن جوريها! حتى وساحتها الصغير المصنوع من شعر الماعز، بعنه أيضاً وشربت بثمنه خمراً، وكان قد أهدى إليها من قبل، فهو ملكها، ملكها هي، لا ملكي أنا. ونحن نعيش في غرفة باردة، وقد مرضت في هذا الشتاء، وأخذت تسعل، حتى إنها تبصق دماً منذ الآن... ولنا ثلاثة أولاد صغار، إن كاترينا ايفانوفنا تعمل من الصباح إلى المساء: تمسح وتغسل، وتنظف الأولاد! ذلك أنها معتادة على النظافة منذ صغرها. إن رئتها ضعيفتان، ومهيأة للإصابة بمرض السل، أنا أحس هذا. أنا لا أحس هذا؟ بالعكس، كلما شربت مزيداً من الخمرة، أحسست به مزيداً من الإحساس. نعم، إذا كنت أشرب، فإنما أنا أشرب سعيّاً وراء الشفقة، وراء العاطفة. أنا أشرب لأنالم المضاعفاً...

قال مارميلاروف ذلك، وأسند رأسه على المائدة وقد عبر وجهه عن غاية الحزن والكرب. ثم عاد يتصرف ليكمل كلامه قائلاً:

- أيها الفتى، أحسب أنني أقرأ في وجهك حزناً. ولقد قرأت هذا الحزن في وجهك منذ دخولك، لذلك سارعت أخاطبك. فإذا كنت أنقل إليك قصة حياتي، فإبني لا أفعل ذلك لأحقن نفسي أمام هؤلاء الكسالي الذين يعرفونها معرفة تامة على كل حال، بل لأنني أبحث عن إنسان حساس كريم النفس حسن التربية. اعلم أن زوجتي قد تربت في مدرسة داخلية ارستقراطية بالأقاليم، وأنها رقصت رقصة الشال أمام المحاكم وشخصيات أخرى، وأنها قد نالت على ذلك ميدالية ذهبية<sup>(13)</sup> وشهادة فخرية... فأما الميدالية فقد بعنها أيضاً... منذ زمن طويل... هم... وأما الشهادة الفخرية فهي ترقد حتى الآن في صندوق، وقد حرصت كاترينا ايفانوفنا على أن تريها لصاحبة البيت...

نعم... فرغم أن بينها وبين صاحبة البيت مشاجرات مستمرة، فقد راودتها الرغبة في أن تعتز أمام شخص ما، أن تذكر شخصاً ما بالأيام الجميلة من ماضيها. لست ألومنها على ذلك، لست ألومنها، لأن هذه الذكرى هي كل ما تملكه الآن، أما الباقي فقد طار كله! نعم... إن زوجتي سريعة الغضب، شديدة الكبراء، صعبة المراس. إنها تغسل أرض الغرفة يديها، وتكتفي بخيز أسود، ولكنها لا تسمح أن يقلل أحد من احترامها. ذلك هو السبب في أنها لم تشاً أن تسكت للسيد ليزياتنيكوف عن فظاظته، فلما ضربها لذلك، فإنها لم تمرض بسبب الضربات التي كالها لها بل بسبب الإساءة التي لحقت كرامتها. لقد تزوجتها أرمل لها أولاد ثلاثة هم جميعاً صغار. كانت قد تزوجت مرة أولى عن حب، تزوجت ضابط مشاة هربت معه من منزل أبيها. كانت تحب زوجها جبأ عنيفاً، ولكن زوجها اندفع في المقامرة، وأحيل إلى المحاكمة فمات. وكان في المدة الأخيرة يضربيها، ورغم أنها كانت لا تسكت له عن شيء - وهذا ما أعرفه من وثائق مفصلة يُرکن إليها - فإنها ما تزال تبكي حين تتذكرة، وتعيرني بالمقارنة بيني وبينه. وأنا أبتهج بهذا، أبتهج به، وبهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنها كانت سعيدة في يوم من الأيام... وبعد موت زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة في مقاطعة نائية متوحشة كنت أعيش أنا فيها أثناء ذلك الوقت. كانت في بؤس يبلغ من الهول أنني لن أستطيع أن أصفه لك إذا أنا حاولت ذلك، رغم أنني قد عانيت أنا نفسي أنواعاً كثيرة من البؤس. جميع أفراد أسرتها أداروا لها ظهورهم. وكانت هي شديدة الكبراء... وفي ذلك الوقت، يا سيدي الكريم، إنما طلبت أنا يدها، و كنت أرمل أيضاً، لي من امرأتي الأولى بنت في الرابعة عشرة من عمرها... طلبت يدها لأنني لم أكن أستطيع أن أحتمل عذاباً كذلك العذاب.

في وسعك أن تتخيل درجة البؤس الذي لا بد أنها كانت تعانيه حين ارتضت، هي المرأة المثقفة التي تربت أحسن تربية والتي تنتهي إلى

أسرة مرمودة، حين ارتفعت أن تزوجني! صحيح أنها وافقت على ذلك باكيةً متحببة عاقفة يديها من الحسرة والحزن، ولكنها تزوجتني، لأنه لم يكن لها مكان تذهب إليه! هل تدرك يا سيدي الكريم، هل تدرك ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يذهب إليه؟ لا، إنك لا تستطيع أن تدرك هذا بعد... وخلال سنة كاملة ظللت أقوم بواجبي بشرف وأمانة وإخلاص، دون أن أقارب هذه ( هنا أشار مارميلادولف بإصبعه إلى الزجاجة )، لأنني إنسان ذو عاطفة. ولكنني بهذا أيضاً لم أستطع أن أفوز برضاهما. وإذا فقدت أثناء ذلك وظيفتي أيضاً، دون أن يكون لي في هذا ذنب على كل حال، وإنما كان فقدى وظيفتي نتيجة لتغييرات في هيئة الموظفين، فقد أخذت ألامس هذه!... ومنذ سنة ونصف تقريباً إنما هبطنا، بعد ترحال كثير ومصائب لا حصر لها، إنما هبطنا هذه العاصمة الرائعة ذات المباني التاريخية التي لا يُحصى عددها. وهنا عثرت على وظيفة. عثرت عليها ثم فقدتها من جديد. هل تفهم؟ لقد كان الذنب في فقدتها هذه المرة ذنبي أنا، لأن طبيعتي الحقيقية قد انتصرت... ونحن نقيم الآن في ركن من بيت امرأة اسمها آماليا فيدوروفنا لييفكسنل، أما ممّ نعيش وكيف ندفع أجرة المسكن، فذلك ما لا أعرف عنه شيئاً! وفي المسكن يقيم أناس كثيرون غيرنا... نحن في سدون فظيعة... هم... نعم!... وفي أثناء ذلك كانت ابنتي من زواجهي الأول تكبر. لن أحدهك عن المعاملة التي تحملتها ابنتي من زوجة أبيها. إن كاترينا إيفانوفنا شديدة الغضب، عنيفة، سريعة الاندفاع، رغم أن نفسها تفيض بالمشاعر السمححة!... نعم! دعنا من هذا على كل حال. ما فائدة تذكر هذه الأمور الآن! تستطيع أن تخيل طبعاً أن ابنتي صونيا لم تصب حظاً من تعليم. صحيح أنني حاولت، منذ أربع سنين، أن أعلمها الجغرافيا والتاريخ العام، ولكنني لم أكن قوياً في هذا الميدان، وكانت تعوزني الكتب المناسبة من جهة أخرى، فإن الكتب القليلة التي كنت أملكها... هم... أصبحت لا أملكها... لذلك توقفت دراسة

ابنتي... وصلنا إلى الحديث عن سيروس، ملك الفرس... وبعد ذلك، حين بلغت ابنتي سن الرشد، قرأت بعض الكتب الروائية، ثم قرأت في الآونة الأخيرة، بواسطة السيد ليزياتينيكوف، كتاب ليويس<sup>(14)</sup> «الفيزيولوجيا»، هل تعرف هذا الكتاب؟ قرأته ابنتي بكثير من الاهتمام، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال. ذلك هو كل ما حصلته ابنتي صونيا<sup>(15)</sup> من تعليم. والآن أتوجه إليك يا سيد الكريم، فألفي عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماماً: هل تستطيع فتاة فقيرة لكنها شريفة، هل تستطيع في رأيك أن تكسب مالاً كثيراً بالعمل الشريف؟ إنها لن تكسب خمسة عشر كوبيناً في اليوم، إذا هي كانت شريفة وإذا هي لم تملك أية هبة خاصة، وهذا على شرط أن لا تترك العمل دقيقة واحدة أيضاً. ثم إن مستشار الدولة<sup>(16)</sup> كلوبيشك، إيفان ايفانوفتش كلوبيشك - هل سمعت عنه؟ - لم يكتف بأن لا يدفع لها أجراً عنها عن ستة قمصان خاطتها له من قماش هولندي، بل زاد على ذلك فطردها شرطه وهو يقع الأرض بقدمه ويصفها بأبغض النعوت، بحجة أن إحدى الياقات لم تكن على قياس عنقه، وأنها قصتها مقلوبة. والصغار في أثناء ذلك جائعون.. وكانتينا إيفانوفنا في أثناء ذلك تمشي في الغرفة ذاهبة آية، عاقفة يديها، وقد أخذت البقع الحمراء تظهر على خديها، كما يحدث ذلك دائماً للمصابين بهذا المرض. قالت وكانتينا إيفانوفنا لابنتي صونيا: «يا عالة، إنك تسكنين في غرفة دافئة ولا تزيددين هنا على أن تملئي بطنك طعاماً وشراباً!» لأن المسكينة قد أتيحت لها أن تأكل وأن تشرب وهي لم تضع في فمها كسرة خبز منذ ثلاثة أيام! وكانت أنا راقداً... نعم... فعلاً... كنت راقداً سكران... وهل أنا ذا أسمع ابنتي صونيا تتكلم (إنها عزباء، لا تملك عن نفسها دفاعاً...) ما أعد صوتها... هي شقراء كل الشقرة... ووجهها شديد الشحوب والنحول دائماً قالت: «أحقاً يا كانتينا إيفانوفنا، أحقاً تريدين أن أعد نفسي لمثل هذا الأمر؟» والموضوع أن داريا فرانتسوفنا، وهي امرأة سيئة النيات تعرفها

الشرطة جيداً، كانت قد استعلمت عن صونيا ثلاث مرات بواسطة صاحبة البيت. أجبت كاترينا ايفانوفنا وهي تضحك ساخرة: «هه! ألا أن كنزاً كهذا الكنز ليستحق أن تحافظي عليه!» ولكن لا تفهمها، لا تفهمها يا سيدي الكريم، لا تفهمها! لم تكن تتكلم هادئة النفس مالكة وعيها... لقد كانت محطمة الأعصاب مريضة وصغارها يبكون جوعاً. ثم إننا لا يجوز لنا أن نفهم أقوالها بمعناها الحقيقي، وإنما يجب أن نفهم هذه الأقوال على أنها إهانة فحسب... ذلك هو طبع كاترينا ايفانوفنا: حين يبكي أولادها، ولو من الجوع، فإنها تأخذ تضربهم فوراً. وهأنذا، قبل الساعة السادسة بقليل، أرى صونيتاشكا تنهض فتتناول وشاحها وبرنسها وتخرج، ثم تعود قبل الساعة التاسعة. فلما دخلت مضت إلى كاترينا ايفانوفنا قُدُّماً فوضعت أمامها على المنضدة ثلاثين قطعة نقدية من فئة الروبل، ثم لم تزد، حتى دون أن تنظر إليها، ودون أن تقول كلمة واحدة، لم تزد على أن تناولت الشال الكبير الأخضر المصنوع من صوف خفيف (نعم، عندنا شال من هذا النوع نستعمله جميعاً)، فغطت به رأسها ووجهها تماماً، ورقدت على السرير متوجهةً بوجهها نحو الحائط، فكنا لا نرى إلا ارتجاف كتفيها وارتعاش جسمها... وكانت ما أزال على حالي تلك نفسها... فرأيت عندئذ، أيها الفتى، رأيت كاترينا ايفانوفنا تقترب، دون أن تقول كلمة واحدة هي أيضاً، من سرير ابنتي صونيتاشكا، وتظل هنالك طوال السهرة راكعةً عند قدميها تقبليها ولا تريد أن تنهض. وبعد ذلك، بعد ذلك، رأيتها تنامان معاً متعانقتين... معاً... كلتيهما... وكانت أنا راقداً... على حالة السكر تلك ذاتها... .

صمت مارميلادولف لأن صوته قد انقطع، ثم ملأ كأسه فجأة وبسرعة فأفرغه في جوفه، ودلك حلقه، وتتابع يقول بعد لحظة صمت:

- ومنذ ذلك الحين يا سيدي، على أثر ظرف تعيس ونتيجةً لوشایة أشخاص أشرار، ولا سيما داريا فرانتسوفنا، بحجة أننا لم نراعها،

اضطربت ابنتي صوفيا سيمينوفنا أن تكون ذات بطاقة صفراء وأن تتركنا تبعاً لذلك، لأن صاحبة البيت، آماليا فيودوروفنا، لم تشاً أن تحتمل هذا الوضع (مع أنها كانت قد ساعدت داريا فرانتسوفنا في ذلك الأمر في الماضي)، وكذلك السيد ليبيزياتنيكوف... وحول موضوع صوفيا هذا إنما جرت تلك الحكاية بينه وبين كاترينا إيفانوفنا. ففي بداية الأمر كان هو نفسه قد حاول التقرب من صونি�تشكا والتماس الحظوة بها، ثم ها هو ذا يثور قائلاً: «كيف يمكنني، أنا الرجل المستنير، أن أعيش في نفس المسكن الذي تعيش فيه هذه ال...». ولكن كاترينا إيفانوفنا لم تستسلم، بل تدخلت... فحدث ما حصل. والآن تزورنا صونি�تشكا من حين إلى حين (بعد هبوط الليل)، فتساعد كاترينا إيفانوفنا وتمدّها باللازم... إنها تقيم في مسكن الخياط كابرناوموف<sup>(17)</sup> الذي استأجرت غرفةٌ عنده. وكابرناوموف، عدا أنه يعرج ويثنىء، له أولاد كثيرون يثنئون جميعاً كذلك. وامرأته ثناًء أيضاً... إنهم يسكنون جميعاً في حجرة واحدة. ولكن صوفيا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز... هم... نعم... أناس لا يتصور للمرء أن يكون في العالم من هم أفقر منهم... وهم إلى ذلك ثناًءون... نعم... ونهضت في ذات صباح، فارتديت أسمالي البالية، ورفعت ذراعي نحو السماء مبتهلاً، ثم ذهبت إلى عند صاحب السعادة إيفان آفاناسييفتش. هل تعرف صاحب السعادة إيفان آفاناسييفتش؟ لا تعرفه؟ إذا فأنت لا تعرف إنساناً قلبه لله، هذا رجل نقى نقاء الشمع، نقاء شمع بكر أمام وجهه... والشمع يذوب... وقد ذاب هو دموعاً بعد أن تفضل فأصغى إلى كلامي حتى النهاية. فلما فرغت من حديثي قال لي: «اسمع يا مارميلادوف، لقد خيّبت ظني مرة... ولكنني سأوظفك هذه المرة أيضاً، على مسؤوليتي الخاصة - تلك كانت أقواله - فتذكرة هذا. والآن في وسعك أن تنصرف». قبلت موظفي قدميه - بالخيال طبعاً، لأن هذا الموظف الكبير الذي آمن بالأفكار الجديدة على صعيد الدولة والثقافة ما كان له أن

يسمح لي بأن أقبل موطن قدميه بالفعل . وعدت إلى مسكنى ، فلما زفت إليهم بشرى أنني سأعود إلى وظيفتي وأنني سأتقاضى راتبـاً ... آه ... رباء ... لا أستطيع أن أصف لك ما حدث ...

صمت مارميلادولف من جديد ، مضطرباً أشد الاضطراب . وفي تلك اللحظة دخلت عصبة كبيرة من السكارى آتية من الشارع ، وعلى عتبة الخمارة دوت أصوات أرغن يدوى استؤجر لهذه المناسبة ، كما دوى صوت نحيل هو صوت طفل في السابعة من العمر كان يغنى أغنية «القرية الصغيرة». ضجت القاعة بالصخب . وأسرع صاحب الخمارة والخدم يهتمون بالقادمين الجدد ، ولكن مارميلادولف تابع سرد قصته دون أن يتبه إلى أحد . كان يبدو وكأن الخمرة قد حطمه وسحقته ، ولكن كلما ازداد سكره ازداد تدفقه في الكلام . أن ذكرى النجاح الأخير الذي أصابه مسعاه قد أنعشته بعض الانعاش ، حتى لقد أضفت على وجهه نوعاً من الاشراق والاشعاع . وكان راسكولنيكوف يصغي إليه بانتباه . . .

- حدث ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدي . . . نعم . . . فما أن علمت كاترينا إيفانوفنا وصونيتشكا بالنـا حتى حدث - يا رباء ! - ما يشبه أن أكون قد انتقلت إلى السماء . قبل ذلك كنت ألبـث راقدـاً على الأرض كبهيمة وأتلقي الشتائم وأبلغـها ! أما الآن فإنـهما تسـيران على رؤوس الأصابع ، وتسـكتان الأولاد قائلـتين : «لقد تعبـ سـيميون زاخارتشـ اليوم في مـكتـبه ، فهو الآن يستـريح . . . هـست !» وصرـت قبلـ أن أذهب إلى عملـي ، أـؤـتـى بالـقهـوة وتسـخـنـ لي القـشـدة . صـارتـا تستـطـيعـانـ الحصولـ علىـ قـشـدة . . . حـقـيقـية . . . هلـ تـسـمـعـ ؟ وأـينـ أـمـكـنـهـماـ الحصولـ علىـ أحدـ عـشـر روـبـلاًـ وـخمـسـينـ كـوبـيـكاًـ لـتـجـهزـانيـ تـجهـيزـاًـ لـائـقاًـ ؟ـ ذلكـ أـمـرـ لمـ أـفـهـمـهـ فيـ يـوـمـ منـ الـأـيـامـ .ـ حـذـاءـانـ ،ـ بـزـةـ رـسـمـيـةـ ،ـ قـمـصـانـ مـمـتـازـةـ . . .ـ لـقـدـ اـشـتـرـتـاـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ كـلـهـاـ بـأـحـدـ عـشـرـ روـبـلاًـ وـخمـسـينـ كـوبـيـكاًـ ،ـ وـجـعـلـتـاهـاـ حـسـنةـ الـمـظـهـرـ لـائـقاًـ .ـ مـاـذـاـ رـأـيـتـ عـنـ أـوـلـ صـبـاحـ عـدـتـ فـيـهـ مـنـ الـمـكـتـبـ ؟ـ أـعـدـتـ كـاتـرـيـنـاـ إـيفـانـوـفـنـاـ طـبـقـيـنـ ،ـ حـسـاءـ

ولحم بقري مملحاً من فجل حار، وذلك أمر لم يحدث قبل ذلك في يوم من الأيام. ثم إنها لم تكن تملك ما تدثر بها ظهرها... لم تكن تملك أي شيء يمكن أن يسمى دثاراً للظهور... فها هي ذي في ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة، كأنها كانت ذاهبة إلى زياره. وليس لباسها جديداً ولكنها تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً. كانت وقد صفت شعرها تصفيفاً جميلاً وأحاطت جيداً بيافقة صغيرة بيضاء، وزينت ذراعيها بك敏ين لطيفين، قد أصبحت إنسانة أخرى تبدو أصغر سنًا وأحسن رونقاً وألطف جمالاً! أما صونيتشكا، يمامتي الصغيرة، فقد اكتفت بتقديم المال، وقالت: «ولكنني أنا لن أستطيع أن أجيء إليكم الآن كثيراً، فذلك ليس بلائق، وإنما أجيء إليكم عند هبوط الليل، حتى لا يراني أحد». هل تسمع؟ هل تسمع؟ وبعد الغداء مضيت أرقد على السرير. فهل تصدق؟ إن كاترينا إيفانوفنا لم تطق صبراً. لم يكن قد انقضى على تшاجرها مع آماليا فيدوروفنا صاحبة البيت إلا أسبوع في أكثر تقدير، ومع ذلك دعتها إلى تناول فنجان من القهوة. وقضتا ساعتين كاملتين تتهامسان دون توقف. قالت لها: «إن سيميون زاخارتش<sup>(18)</sup> له الآن وظيفة، وهو يقبض الآن راتباً. لقد ذهب بنفسه إلى صاحب السعادة، وهب صاحب السعادة نفسه إلى لقائه: جعل جميع الناس ينتظرون، وأمام جميع الناس تناول يد سيميون زاخارتش وقاده إلى مكتبه (هل تسمع؟ هل تسمع؟) وقال له صاحب السعادة: إنني أتذكر بالطبع خدماتك الطيبة يا سيميون زاخارتش، ورغم انقيادك لمليك الطائش، فإنني آمل، ما دمت تعدد بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل الطائش، وما دام كل شيء، من جهة أخرى، قد جرى هنا أثناء غيابك مقلوباً (هل تسمع؟ هل تسمع؟)، فإنني آمل أن تفي الآن بوعدك وأن لا تخون العهد الذي تقطعه على نفسك». الحق أن هذا كله إنما اخترعته اختراعاً وارتجلته ارتجالاً - أنا أقول لك الآن ذلك - ولكنها لم تعمد إلى هذا الاختراع والتلفيق انسياقاً مع ميل صبيانية، ولا حباً في إظهار قيمتها

وإعلاه شأنها. بالعكس: لقد صدقت هي نفسها كل ما تخيلته، وما كان أعظم تلذذها به... قسماً بالرب! وأنا لا ألومها... لا... أنا لا ألومها على هذا... وحين أتيتها براتبى الأول كاملاً منذ ستة أيام - ثلاثة وعشرين روبلًا وأربعين كوبىكاً - نادتني بقولها: يا حبيبي... خاطبني قائلة «ما أجملك يا حبيبي!» قالت لي هذا وكنا في خلوة، هل تفهم؟ وهل أنا جميل وهل أنا زوج على كل حال؟ ولكنها فرقت خدي وقالت لي: «ما أجملك يا حبيبي!».

انقطع مارميلادولف عن الكلام، وأراد أن يبتسم، ولكن ذقنه ارتجفت فجأة. ومع ذلك كبح جماح نفسه. وها هي ذي الخمارة، وسقوط هذا الرجل، وحبه المريض لامرأته وأسرته كلها، والليالي الخمس التي قضتها على العوامات ناقلات العلف، ومنظر الزجاجة، ها هي تلك الأمور كلها تغرق راسكولينيكوف في ذهول. كان يصغي بأكبر انتباه ممكن، ولكنه أحس بضيق وانزعاج. ولا م نفسه على أنه جاء إلى هذا المكان.

صاحب مارميلادولف يقول وهو يتمالك نفسه:

- أيها السيد الكريم، أيها السيد الكريم، ربما كانت هذه القصة تضحكك كما تضحك الآخرين، ولعلني لا أزيد من تفاصيل حياتي المنزلية. ولكن هذا كله لا يضحكني أنا، لأن هذا كله إنما أحسه أنا بكل جوارحي. لقد قضيت ذلك النهار كله وتلك السهرة كلها وأنا في مثل الجنة أطير على أجنحة أحلامي. كنت أفكر في الطريقة التي سأدبر بها الأمور: كيف سأكسو هؤلاء الأولاد، كيف سأهيئ لها هي الهدوء والسكينة والطمأنينة، كيف سأنتزع ابتي الوحيدة من وهذه العار وأردها إلى أحضان الأسرة... . وبكت أحلم بأشياء أخرى أيضاً، بأشياء كثيرة جداً. ذلك مسموح به لي يا سيدي. وبعد ذلك أيها السيد. (هنا ارتعش مارميلادولف فجأة، ونصب رأسه وحدق إلى محدثه) بعد جميع تلك

الأحلام الجميلة (أي منذ خمسة أيام على وجه الدقة) أي في مساء اليوم التالي عمدت إلى أنواع الحيل والأكاذيب، فسرقت من كاترينا ايفانوفنا مفتاح صندوقها، كلص الليل<sup>(19)</sup>، فأخذت ما كان قد بقى من أجري الذي أعطيتها أيام... لا أدرى كم كان المبلغ تماماً... نعم، ذلك ما حدث... انظر أين أنا الآن... انظروا جميعاً... لقد تركت البيت منذ خمسة أيام. وهم هناك يبحثون عنـي. ولقد فقدت وظيفتي، وبقيت بزتي الرسمية مرهونة في خمارـة، على مقربة من «الجسر المصري»<sup>(20)</sup> فحصلت على هذه الثياب... كل شيء انتهى!

لطم مارميلادولف جبهـته بقبضة يـده، وكـرـأ أسنانـه، ثم أغـمض عـينـيه واستـند بـكـوعـه إـلـى المـائـدة استـنـادـاً قـوـياً. ولـكـن وجـهـه تـغـيرـ بعد دـقـيقـة تـغـيرـاً مـفـاجـئـاً مـبـاغـتاً، فإـذـا هو بنـوـعـ من المـكـرـ والـوـقـاهـةـ المـتـظـاهـرـةـ إنـماـ يـنـظـرـ الآـنـ إلى رـاسـكـولـنيـكـوفـ. ثم أـخـذـ يـضـحـكـ وـقـالـ:

- والـيـومـ ذـهـبـتـ إـلـى صـوـنـيـاـ أـطـلـبـ منـهاـ مـالـاً... لـأـشـرـبـ قـلـيلـاًـ منـ أـجـلـ تـخـفـيفـ وـجـعـ رـأـسـيـ... هـاـ هـاـ هـاـ!...

صاح يـسـأـلـ أحدـ القـادـمـينـ الـجـدـدـ وـهـوـ يـضـحـكـ مـلـءـ حـلـقـهـ:

- وـهـلـ أـعـطـتـكـ مـالـاً؟

قال مارميلادولف متـجـهـاًـ بـكـلامـهـ إـلـى رـاسـكـولـنيـكـوفـ وـحـدهـ: لقد جاءـتـيـ صـوـنـيـاـ بـثـلـاثـيـنـ كـوـبـيـكـاـ قـدـمـتـهاـ إـلـىـ بـيـدـهاـ نـفـسـهاـ. وـكـانـ هـذـاـ المـبـلـغـ كـلـ ماـ بـقـيـ لـهـا... رـأـيـتـ ذـلـكـ بـنـفـسـيـ. لمـ تـقـلـ شـيـئـاًـ، اـكـتـفـتـ بـأـنـ نـظـرـتـ إـلـىـ صـامـتـةـ... نـظـرـتـ إـلـىـ لـاـ كـمـاـ يـكـونـ النـظـرـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ، بلـ فـيـ الـحـيـاةـ الـآـخـرـةـ، فـيـ السـمـاءـ، حـيـثـ لـاـ يـوـقـظـ الـأـشـقـيـاءـ فـيـ الـقـلـوبـ إـلـاـ عـاطـفـةـ الـشـفـقـةـ، حـيـثـ يـبـكـيـ النـاسـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـأـشـقـيـاءـ دـوـنـ أـنـ يـوجـهـواـ إـلـيـهـمـ كـلـمـةـ تـقـرـيـعـ وـحـينـ لـاـ يـقـرـعـكـ أـحـدـ، فـإـنـكـ تـشـعـرـ بـأـلـمـ أـشـدـ وـعـذـابـ أـقـوىـ! نـعـمـ! تـشـعـرـ بـأـلـمـ أـشـدـ وـعـذـابـ أـقـوىـ! ثـلـاثـيـنـ كـوـبـيـكـاـ... نـعـمـ... وـلـكـنـهـاـ كـانـتـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـثـلـاثـيـنـ كـوـبـيـكـاـ. هـاـ؟ أـلـيـسـ كـذـلـكـ يـاـ

سيدي الكريم؟ عليها الآن أن تعتنى بنفسها، وأن تهتم بنظافتها. والنظافة، تلك النظافة، تكلف نفقات كثيرة، هل تفهم؟ هل تفهم؟ هناك دهون يجب أن تشتريها لتتطيب بها... يستحيل عليها أن لا تفعل ذلك! وهناك التنورات المتصلبة، والأحذية الأنيقة التي تسمح باظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة! هل تفهم يا سيدي ماذا تعنى نظافة كتلك النظافة؟ وهأنذا، أنا أبوها، اخترس الثلاثين كوبيكاً التي تملكها لأشرب بها خمراً. ولقد أنفقت ذلك المبلغ فعلاً في الشراب!.. فمن ذا الذي يستطيع أن يرثي لحال رجل مثلِي؟ هل ترثي لحالِي أنت الآن يا سيدي؟ هل ترثي لحالِي؟ تكلم يا سيدي، تكلم: أترثي لحالِي أم لا؟ هى هى هى!..

قال مارميلادولف ذلك وأراد أن يصب في كأسه خمراً، ولكن الخمر كان قد نفد... . كانت الزجاجة فارغة!

وكان صاحب الخمار قد اقترب مرة أخرى، فهتف يسأله:

- فيم عسى يرثي الناس لحالك؟

وسمعت ضحكات وشتائم. كان يطلق الضحكات والشتائم أولئك الذين سمعوا القصة كلها وأولئك الذين لم يسمعوا شيئاً بتة ولكنهم ينظرون إلى الرجل الذي كان موظفاً.

زار مارميلادولف فجأة، وهو ينهض، ماداً ذراعيه إلى أمام، وقد وفاه إلهام حقيقي، كأنه لم يسمع إلا تلك الكلمات، زأر يقول:

- لماذا عسى يُرثي لحالِي؟ أهذا ما تقوله؟ نعم، ليس هناك ما يدعوه إلى الرثاء لحالِي! وإنما ينبغي أن أصلب، أن أصلب على صليب، لا أن يرثي لحالِي! ولكن أصلبه، أيها القاضي، ثم ارث لحاله بعد أن تصلبه. وعندئذ سأمضي إليك بنفسِي، أواجه العذاب مواجهة، لأن ظمني ليس إلى فرح، بل إلى حزن ودموع! أتركك تظن أيها البائع أن هذه الزجاجة التي اشتريتها منك قد جاءتني بالفرح وحملت إلى المسرة؟ ألا إن

الألم، ألا إن الألم هو ما كنت أنشده في قراره تلك الزجاجة...  
نعم... الألم والدموع!.. ولقد ذقت فيها الألم، لقد وجدت فيها ما  
كنت أنشده! ولكن ذلك الذي يشفق على جميع الناس ويرأف بجميع  
الناس، سيشفق علينا، وسيرأف بنا... لأنه يدرك كل شيء. إنه هو  
الواحد الأحد. إنه هو القاضي الأعلى. سيظهر في يوم الحساب  
فيسأل: «أين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها في سبيل أمرأة  
أبيها الشريرة المصدورة، في سبيل صغار امرأة أخرى؟ أين هي تلك  
الفتاة المسكينة التي أشفقت على أبيها الدنيوي، السكير الذي لا براء له،  
دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته؟» وسوف يقول لها: «تعالي!  
لقد سبق أن غفرت لك مرة... سبق أن غفرت لك مرة... والآن  
أغفو عن جميع خططياك، لأنك أحبيبتي كثيراً... وسيغفر لها، سيغفر  
لابنتي العزيزة صونيا... أنا أعلم أنه سيغفر لها... شعر قلبي بهذا  
حين كنت عندها منذ قليل... وسوف يحكم عليهم جميعاً. سيغفر  
للأخيار والأشرار، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء. حتى إذا فرغ  
من الجميع، خاطبنا نحن أيضاً فقال: «تعالوا، تعالوا أنتم أيضاً أيها  
السكيرون، تعالوا أيها الضعفاء، تعالوا أيها الفاسقون!» وستقترب منه  
جميعاً، دون شعور بالخزي والعار وستنفك أمامه، وسيقول لنا: «أنتم  
خنازير! قد خلقتم على صورة الوحش، ودمغتم بخاتمه! ومع ذلك  
تعالوا!» وسيقول الحكماء عندئذ، سيقول العقلاء: كيف يا رب؟ كيف  
تستقبلهم هم أيضاً؟» فيجيبهم: «أنا أستقبلهم أيها الحكماء، أنا أستقبلهم  
أيها العقلاء، لأن أحداً منهم لم يحسب أنه جدير بأن يستقبل!» وسوف  
يفتح لنا ذراعيه، وسوف نرتمي بين ذراعيه... وسوف نبكي...  
وسوف ندرك كل شيء... سوف ندرك عندئذ كل شيء!... وسوف  
يدرك جميع الناس عندئذ كل شيء... وسوف تفهم كاترينا ايفانوفنا  
هي نفسها... فليأت ملوكتك أيها الرب!

انهارت قوى مارميلا دوف، فتهاوى على الدكة، دون أن ينظر إلى

أحد، كأنه قد غرق في أحلام عميقه فنسي كل ما كان يحيط به. وأحدثت كلماته أثراً. فساد الصمت خلال دقيقة. ولكن القهقهات والشتائم لم تثبت أن عادت تدوى.

- هكذا يكون الكلام!

- هو يثرثرا!

- موظف!

الخ، الخ . . .

وقال مارميلادولف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطباً راسكولنيكوف:

- هيأ بنا يا سيدى. رافقني إلى عمارة كوزيل . . . إلى الفناء . . . لقد آن الأوان . . . خذني إلى كاترينا ايفانوفنا!

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ مدة طويلة أن ينصرف. وخطر بباله من تلقاء نفسه أن يساعد مارميلادولف. وقد ظهر مارميلادولف أشد وهنأ وأضعف قدرة على القيام على ساقيه مما كان في خطابه. اتكأ مارميلادولف اتكاء ثقيلاً على الشاب. وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة أو ثلاثة خطوة. إن القلق والخوف يجتathan السكير بمزيد من القوة والعنف على قدر اقترابه من منزله.

ودمدم يقول متفعلاً:

- ليس خوفي من كاترينا ايفانوفنا. لست خائفًا لأنها ستتشدّني من شعري. ما قيمة شعري؟ . . . شعري لا يهمني. أنا أقول لك ذلك . . . والأفضل أن تشتدّني من شعري . . . لا . . . ليس هذا ما يخيفني . . . إنما أنا أخاف عينيها . . . نعم . . . أنا أخاف عينيها . . . والبقع الحمراء في خديها . . . أخاف منها أيضًا . . . وأخاف أيضًا تنفسها . . . هل لاحظت كيف يتنفس المصابون بذلك المرض حين تثور ثائرتهم؟ وأنا أخاف كذلك من الأولاد، حين ي يكونون. ذلك أن من الجائز أن لا تكون صوّنياً قد أعطتهم ما يأكلون . . . لست أدرى . . . لست أدرى الآن . . .

أما الضربات فلا أخافها... اعلم أيها السيد أن هذه الضربات لا تقتصر على أنها لا تؤلمني، وإنما هي تهيني لي للذلة في بعض الأحيان... لأنني لا أستطيع الاستغناء عنها. ذلك أفضل! ألا فلتضربني!... ألا فلتخفف عن نفسها!... ذلك أفضل... هذه هي العمارة، عمارة كوزيل... هو فقال، فقال ألماني غني جداً. ادخل معي!

اجتازا الفتاء، وصعدا إلى الطابق الرابع. وكان ظلام السلم يزداد حلكة كلما تقدما في الصعود. الساعة أوشكـت على العاشرة عشرة، ورغم أن مدينة بطرسبرـج ليس لها ليل حقيقي في مثل هذه الفترة من العام، فقد كانت الظلمة حالكة في آخر السـلم.

في أعلى السـلم كان بـاب صغير مـدـخـن مـفـتوـحاً. وكان هـنـالـك بـقـية شـمـعة تـضـيء أـفـقـر غـرـفة في المـسـكـن، طـولـها عـشـر أـقـدـام. إنـالـمرـء يـرى الغـرـفة كـلـهـا من فـسـحة السـلم. إنـفـوـضـى قـصـوى تـسـودـها، وإنـأـشـيـاء لا حـصـر لـأـنـوـاعـها مـلـقاـة عـلـى أـرـضـها، ولا سيـما أـسـمـال أـطـفال. وفي رـكـنـها الغـرـفة هو آخرـها، قدـشـدـت ستـارـة رـثـة لـعـلـورـاءـها سـرـيرـاً، ولـمـيـكنـفيـ الغـرـفة نـفـسـها إـلـا كـرـسيـان، وأـرـيـكة منـجـدة بـقـمـاشـ مشـمـعـ بـالـرـثـ، أـمـامـهـا مـائـدـة مـطـبـخـ عـتـيقـة من خـبـبـ الصـنوـبـرـ لـيـسـ مدـهـونـةـ، لاـ وـلـيـسـ عـلـيـها غـطـاءـ. وفي آخرـ المـائـدـةـ كانت بـقـية شـمـعة توـشكـ أنـ تـذـوبـ كـلـهـاـ، قدـغـرـستـ فيـ شـمـعدـانـ منـ حـدـيدـ. إنـ جـمـيعـ المـظـاهـرـ تـشـيرـ إلىـ أنـ مـارـمـيـلـادـوفـ لاـ يـحـتلـ فيـ هـذـاـ المـسـكـنـ رـكـنـاـ منـ أـرـكـانـهـ، بلـ غـرـفةـ مـسـتـقلـةـ هيـ فيـ الـوـاقـعـ مـمـرـ أوـ دـهـليـزـ. وكانـ الـبـابـ الذـيـ يـفـضـيـ إـلـىـ الغـرـفـ الأـخـرـىـ، أوـ قـلـ إـلـىـ الـعـلـبـ الأـخـرـىـ التـيـ يـتـأـلـفـ مـنـهـ بـيـتـ آـمـالـياـ لـيـبـيفـكـسـلـ، كانـ الـبـابـ مـشـقـوـقاـ، وـكـانـ تـصـلـ مـنـهـ جـلـبـةـ وـصـيـحـاتـ. كانـ الـمـوـجـودـونـ هـنـاكـ يـضـحـكـونـ مـقـهـيـنـ. يـبـدوـ أـنـهـمـ يـلـعـبـونـ بـالـورـقـ وـهـمـ يـحـتـسـونـ الشـايـ. وكانـ يـسـتـطـعـ الـمـرـءـ أـحـيـاـنـاـ أـنـ يـلـتـقطـ وـسـطـ الصـخـبـ الـفـاظـاـ لـيـسـ فـيـهاـ كـثـيرـ تـأدـبـ.

لم يلبث راسكولنيكوف أن تعرف كاترينا إيفانوفنا. هي امرأة نحيلة نحو لاً رهيبة، طويلة القامة، حسنة الهيئة. وما يزال لها شعر كستناوي اللون رائع، وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً. إنها تسير في الغرفة الصغيرة ذهاباً وإياباً، وقد شدت يديها إلى صدرها تضفطه بهما، وكانت شفتاها يابستين وأنفاسها قصيرة مقطعة، وكانت عيناهما تستطعان ببريق محموم، ولكن نظرتها حادة ثابتة. إن هذا الوجه المنفعل الذي التهمه مرض السل يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة المترافق أثراً في النفس أليماً. قدر راسكولنيكوف أنها في الثلاثين من العمر. ما هي في الحق بالمرأة التي تصلح زوجة لمارميلاروف. لم تتبه إلى وصولهما، ولا سمعت وقع خطواتهما. كانت غارقة في نوع من الخيال. فهي لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً. إن حراً خانقاً يسود جو الغرفة، ومن أدنى السلم كانت تصاعد رائحة كريهة. ومع ذلك لم تغلق الباب المطل على السلم. ومن خلال الباب الآخر كانت تصل سحب من دخان التبغ، فكانت تسعى ومع ذلك لم تغلق هذا الباب الثاني أيضاً. وكانت صغرى البنات، وهي طفلة في السادسة من عمرها، نائمة على الأرض قعوداً، وقد تكببت على نفسها وأسندت رأسها إلى الأريكة. وكان الصبي الصغير، وهو أكبر منها بسنة واحدة، يرتعش ويبكي في ركن من الأركان: لا شك أنه قد ضرب منذ قليل. أما البنت الكبرى، وهي طفلة في نحو التاسعة من العمر، طويلة نحيلة كعود ثقاب، فكان كل ما يكسوها قميصاً رديئاً قد تمزق وتخرق في كل ناحية، ورداء عتيقاً من صوف خفيف قد ألقى على كتفيها العاريتين، ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ ستين، أما الآن فهو لا يكاد يصل من قامتها إلى الركبتين. وكانت البنت واقفة في الركن تضم إليها أخاهما الصغير، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة التحلية. يبدو أنها كانت تحاول أن تسرّي عنه، فهي تكلمه بصوت خافت جداً، رجاء أن لا يستأنف بكاءه، ولكنها كانت في الوقت نفسه تتبع أمها وقد امتلأت رعباً،

تتابعها بعينيها الواسعتين القاتمتين اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة في هذا الوجه الهزيل المرتعش. لم يدخل مارميلادول الغرفة، بل ركع على العتبة، ودفع راسكونيكوف إلى أمام. فلما رأت المرأة هذا الشاب المجهول، وقفت أمامه ذاهلة، ثم خرجت من تأملاتها لحظة، ربما لمحاول أن تفسر لنفسها سبب مجئه. ولكن لا بد أنها لم تلبث أن اعتقدت أنه ذا هب إلى سكان آخرين من سكان البيت، لأن الغرفة ممر إلى الغرف الأخرى. فلما وصلت إلى هذه النتيجة، اتجهت نحو باب الدهليز ت يريد أن تغلقه دون أن تهتم بالقادم، فإذا هي تصرخ على حين فجأة، لأنها اكتشفت زوجها الرا�� على الأرض.

صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب:

- آ... هاؤنت ذا عدت! يا لص، يا شيطان، يا مسخ! أين المال؟ ماذا في جيبك؟ أرنى! .. وهذا اللباس الذي ترتديه ليس لباسك، فأين رداوک إذن؟ أين المال؟ تكلم!

قالت ذلك وهجمت عليه لتنبشه جيوبه. فسرعان ما باعد مارميلادول ذراعيه خاضعاً طبعاً بغية أن يسهل عليها تفتيشه جيوبه. ولم يكن في جيوب مارميلادول كوييكاً واحداً.

هافت تقول:

- أين المال؟ آه... يا رب! .. هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً بالمال كله؟ كان ما يزال في الصندوق اثنا عشر روبلأ مع ذلك...

وألمت بها ثورة مسحورة من الغضب على حين فجأة، فأمسكت بشعره، وجرّته إلى الغرفة. وسهل هو عليها هذه المهمة، فكان يزحف على ركبتيه وراءها طائعاً ذليلأ.

صاحب يقول بينما كان يُجَرَّ من شعره حتى لتصطدم جبهته مرة بأرض الغرفة:

- هذه لذة بالنسبة إلي! ليس هذا ألمًا يا سيدي الكريم بل لذة!

واستيقظت البنية التي كانت نائمة على الأرض، وأجهشت بكى.  
ولم يتمالك الصبي الصغير نفسه فأخذ يرتعش ويصرخ وهو نحو أخيه  
مرؤعاً تقاد تجاهه نوبة عصبية. وكانت البنت الكبرى ترتجف بعد  
النوم كورقة في مهب الريح.

صاحت المرأة المسكينة تقول:

- شرب بالمال كلّه، شرب بالمال كلّه. حتى رداوته ليس رداوته! إنهم  
يتضورون جوعاً، يتضورون جوعاً.

قالت ذلك وهي تلوي يديها وتشير إلى الأولاد، ثم أردفت:

- لعن الله هذه الحياة، لعن الله هذه الحياة!

وزارت تخطاب راسكولنيكوف وهي ترمي عليه فجأة:

- وأنت أيضاً خارج من الخماراة! عليك أن تخجل! شربت معه،  
أليس كذلك؟ أنت أيضاً... شربت معه... اخرج من هنا!...

فأسرع الشاب يخرج دون أن يقول كلمة واحدة. وفي أثناء ذلك كان  
الباب قد فتح على كل سعته، وظهر في فرجته عدد من المستطلعين.  
كانوا يمدون رؤوسهم الوقحة الضاحكة، وقد وضعوا عليها طaciاتهم،  
وهم يدخلون سجائر أو غلايين. وكانت ثرى قامات ترتدي معاطف  
المنازل مفتوحة أو ملابس صيفية ليس فيها شيء من احتشام. وكان بين  
المستطلعين أناس يحملون بأيديهم ورقاً من ورق اللعب، وقد ضحكوا  
خاصة حين جرّ مارميلادولف من شعره، فصرخ يقول إن هذه لذة له.  
حتى لقد دخلوا الغرفة وسمعت أخيراً وعورة غاضبة حانقة: إنها آماليا  
لييفكسل بنفسها قد شقت ممراً بين الجمهور لتعيد الهدوء، بطريقتها  
الخاصة، ولترهب المرأة المسكينة بإبلاغها، للمرة المائة، بأن عليها  
إخلاء المسكن منذ الغد. اتسع وقت راسكولنيكوف، قبل أن ينصرف،  
لأن يدس يده في جيبه فيخرج منه جميع النقود التحايسية التي بقيت له  
من الروبل الذي صرفه في الخماراة، وأن يضع هذه النقود خفية على

حافة النافذة. فلما صار في السلم، عدل عن رأيه، وأراد أن يرجع أدراجه.

قال يحدث نفسه: «حماقة ما فعلت!.. هم لهم صونيا، وأنا في حاجة إلى مال». ولكن رأى أن من المستحبيل عليه أن يسترد الصدقة التي أعطاها، وأنه لن يستردها ولو لم يكن استردادها مستحيلاً، فأشاح بيده واتجه نحو مسكنه. وتتابع حديثه مع نفسه أثناء سيره في الشارع وهو يتسم بابتسامة ساخرة: «حقاً إن على صونيا أن تشتري أطياباً تذهب بها... إنها تكلف ثمناً باهظاً، تلك النظافة... هم... ولكن من الجائز جداً أن يصيّبها اليوم إفلاس... إن هذه المهنة معرضة لمخاطر كثيرة، كصيد الوحوش ذات الفراء الثمين والبحث عن مناجم الذهب سواء بسواء... فبدون هذا المال الذي نفتح لهم إيه يمكن أن يتضوروا جوعاً في الغد بلا كوبيك واحد. آه... يا لك من صونيا!.. يا لك من منجم اكتشفوه! ويا لها من فوائد يجنونها منه!.. ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وان ينتفعوا به! بدوا في أول الأمر، ثم ألفوا وتعودوا. إن الإنسان يعتاد كل شيء. يا له من حقير!»

ثم فكر. فإذا هو يصبح قاتلاً رغم إرادته على حين فجأة:

- ماذا لو كنت على ضلال! ماذا لو لم يكن الإنسان في حقيقة الأمر حقيراً... أعني الإنسان عامة، أعني النوع الإنساني... سيكون معنى ذلك أن الباقي كله ليس إلا أوهاماً، ليس إلا مخاوف خيالية باطلة، وأنه ليس هنالك أي حد ينبغي الوقوف عنده. نعم، ذلك ما يجب.

## الفصل الثالث

### استيقظ

في الغداة متأخراً، بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة. وشعر حين استيقظ بأنه معتكر المزاج سريع الاهتياج خبيث النفس، ونظر إلى غرفه نظرة كره ومقت. إن هذه الغرفة أشبه بقفص صغير طوله ست خطوات، يدل مظهرها على أشد الفقر والفاقة، قد غطت جدرانها بورق مصفر تراكم عليه الغبار وانتزع في جميع الجهات. وهي تبلغ من انخفاض سقفها أن رجلاً له قامة تكاد تفوق متوسط القامات، لا بد أن يشعر فيها بأنه مكبوس، ولا بد أن يخشى اصطدام رأسه بالسقف. وأثاث الغرفة يناسبها حقاره ورثائه: كان فيها ثلاثة كراسي عتيقة تعرج قليلاً، وكان في ركن من أركانها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب (يكفي المرء أن يرى طبقة الغبار التي تغطي هذه الكتب حتى يدرك أنها منذ مدة طويلة لم تمتد إليها يد)، وكان فيها أخيراً ديوان كبير يشع يشغل كل طول الحجرة ويشغل نصف عرضها تقريباً، ديوان كان في الماضي منجدأ بقماش هندي ولكن القماش قد أصبح الآن خرقاً رثة ومزقاً بالية. إن هذا الديوان هو سرير راسكونيكوف. وكثيراً ما كان يتفق لراسكونيكوف أن يرقد عليه مرتدياً جميع ثيابه بلا ملابس، غير ملتحف إلا معطفه العتيق الرث، معطف الطالب، واضعاً رأسه على مخددة صغيرة كان يعلوها بأن يدس تحتها جميع ما عنده من ملابس

نظيفة ومتسخة. وأمام الديوان توجد منضدة صغيرة.

إنه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه إهمالاً أشد من هذا الإهمال. ولكن منظر مسكنه هذا، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة، كان يمضي إلى حد أن يولد له شيئاً من لذة. كان قد انفصل عن العالم اتفصالاً حاسماً، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوبة في قواعتها. وحتى منظر الخادمة، التي كان عليها أن تخدمه والتي كانت تظهر أحياناً لترى ماذا يجري، كان يبعث في نفسه كرهًا محموماً. هكذا شأن بعض الموسسين الذين تحاصرهم فكرة واحدة، ويسرف ذهنهم في التركز على نقطة بعينها. لقد كفت صاحبة البيت منذ أسبوعين عن أن تبعث إليه بوجبات طعامه، ورغم أنه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام، فإنه لما يخطر بباله بعد أن يذهب إليها ليناقشها في الأمر. وكانت ناستاسيا، الطباخة، وهي الخادمة الوحيدة لدى صاحبة البيت، كانت، بمعنى من المعاني، غير مستاءة من الحالة النفسية التي كان عليها المستأجر، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته انقطاعاً كاملاً، اللهم إلا من حين إلى حين، مرةً في الأسبوع، وكانت في هذه المرة تكتفي بأن تكنس الغرفة كنساً سريعاً كييفما اتفق. وهي التي أيقظته الآن. صرخت تقول له وهي تميل عليه:

- انهض. ما بك حتى تنام هذا النوم؟ لقد دقت الساعة التاسعة. هأنما ذا آتيك بشئ من الشاي، هل تريده؟ اعتقد أنك جائع. ستموت جوعاً أليس كذلك؟

فتح الشاب عينيه، وارتجمف، وتعرف ناستاسيا، سألهما وهو ينهض ببطء عن ديوانه وقد بدا عليه الألم:

- هل صاحبة البيت هي التي أرسلت إلي هذا الشاي؟

قالت له الخادمة:

- صاحبة البيت؟ هه! ..

ووضعت أمامه إبريقها الخاص بها، إبريقها المتندع الذي يضم بقية قديمة من شاي، ووضعت قطعتين صغيرتين من سكر مصفر كل الأصفار.

قال لها بعد أن نبش جيبيه (كان قد نام لابساً ثيابه)، فأخرج منه عدة قطع نقدية نحاسية:

- خذني يا ناستاسيا، خذني هذا، أرجوك... وادهبي فاشتري لي رغيفاً صغيراً من الخبز، واشترى لي كذلك من عند البقال سجقاً، سجقاً بخس الثمن...

- سأريك بالرغيف حالاً. ولكن ألا تريد، بدلاً من السجق، أن تصيب شيئاً من حساء بالكرنب؟ هو حساء بالكرنب صنعناه أمس، وادرته لك مساء، لكنك رجعت إلى البيت متاخرًا. هو حساء بالكرنب طيب.

وحين جاءته ناستاسيا بحساء الكرنب، فأخذ يأكل، جلست إلى جانبه على الديوان، وأخذت تشرث. إنها امرأة قروية مكتاثرة مهذارة. قالت له :

- إن براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوك إلى الشرطة.  
فأربد وجهه وسألها :

- تشكوني إلى الشرطة؟ ماذا تريد مني؟

- أنت لا تدفع أجر الغرفة، لا ولا تتركها! ذلك ما تريده منك!

جمجم يقول وهو يكرز على أسنانه :

- لم يكن ينقصني إلا هذا! حقاً إن ذلك أسوأ أوان...  
ثم أضاف يقول بصوت عال :

- يا للحمقاء! سأمرّ بهااليوم فأكلّمها.

قالت :

- أما أنها حمقاء فهي حقاً، مثلـي أنا تماماً... ولكن... ما بالك أنت، وأنت ذكي هذا الذكاء كله، تبقى راقداً طول الوقت كصـرة؟ لا يستطيع أحد أن يحملك على شيء! تقول إنـك كنت في الماضي تعطي الأولاد دروساً خاصة، فلماذا أصبحت لا تقوم الآن بأي عمل؟ ..

- بل أقوم ...

كذلك نطق راسـكونيكوف رغم إرادته، بلهـجة جـافة.

سؤالـه:

- ما الذي تقوم به؟

- أقوم بعمل ..

- أي عمل؟

أجابـها جـاداً بعد صـمت:

- أفـكر ..

انتابت ناستـاسيا نوبـة ضـحكـ. إنـها مـتأهـبة دائمـاً لأنـ تنـفـجـر ضـاحـكةـ. ويـكـفيـ أنـ تـمـازـحـ أقلـ مـماـزـحةـ حتىـ تـأخذـ فيـ الضـحكـ، ولـكـنـ ضـحـكـها صـامتـ، فـهيـ لاـ تـزيدـ عـلـىـ أنـ تـحرـكـ وـتـرـجـعـ جـسـمـهاـ كـلـهـ، إـلـىـ أنـ يـصـيبـهاـ منـ ذـلـكـ ضـجـرـ! ..

وـأـفـلـحتـ فيـ أنـ تـنـطـقـ أـخـيرـاـ فـقاـلتـ لـهـ:

- وهـلـ جـنيـتـ مـنـ التـفـكـيرـ مـالـاـ كـثـيرـاـ؟

قاـلـ:

- كـيـفـ يـسـتـطـعـ المـرـءـ أـنـ يـمـضـيـ لـإـعـطـاءـ درـوسـ فيـ حينـ لاـ يـمـلـكـ حـذـاءـينـ؟ عـلـىـ أـنـيـ أـبـصـقـ عـلـىـ هـذـاـ.

- لاـ تـبـصـقـ عـلـىـ مـاـ يـنـفعـكـ.

- يـجـنـيـ المـرـءـ مـنـ تـعـلـيمـ الـأـطـفالـ كـوـبـيـكـاتـ، مـاـذاـ يـسـتـطـعـ المـرـءـ أـنـ

ي فعل ببعضه كوبكبات؟

كذلك تابع يقول بغير إرادة، كأنه يجib عما يدور في رأسه هو من خواطر وأفكار.

سألته قائلة:

- أتراك تريد الحصول على ثروة طائلة دفعه واحدة؟

نظر إليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت جازم بعد صمت قصير:

- نعم ثروة طائلة...

- هيه... رفقاً! إنك تخيفني. أمضى لشراء الرغيف؟

- افعل ما تشائين.

- ها... نسيت... معى رسالة لك وصلت أمس أثناء غيابك.

- رسالة؟ لي؟ ممن؟

- لا أدرى ممن. وقد نقدت ساعي البريد ثلاثة كوبكبات من جيبى. ستردها إلى، أليس كذلك؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب:

- هاتي الرسالة! هاتيها ناشدتك الله... آه... يا رب!..

بعد دقيقة جاءت الرسالة. صدق ما كان يقدره:

إن الرسالة آتية من أمه التي تقيم في إقليم ر... اصفر وجهه وهو يتناول الرسالة. لقد أصبح لا يتلقى أي رسالة منذ مدة طويلة. ولكن شيئاً آخر يقبض الآن قلبه ويحطم على صدره.

قال:

- ناستاسيا، اذهبى... ناشدتك الله... انصرفى... إليك كوبكباتك الثلاثة... اخرجي بسرعة... ناشدتك الله!..

كانت الرسالة ترتعش بين يديه. لم يشا أن يفضها أمام الخادمة. كان

يحرص على أن يبقى وحيداً مع هذه الرسالة. فما أن خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة إلى شفتيه بحركة سريعة، وقبلها، ثم لبث مدة يُنْعِم النظر في خط العنوان، في الخط العزيز الغالي الذي يعرفه حق المعرفة، الخط الصغير المائل بعض الميل، خط أمه التي علمته القراءة والكتابة في الماضي منذ زمن بعيد. أحجم عن فض الرسالة بعض الوقت، حتى لكانه يخشى شيئاً ما. ثم فضّها أخيراً. الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن هي تزن لوتين<sup>(21)</sup>: صحفتان كبيرتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوصة وجهاً وفقاً. وهذا ما كتبته أمه:

«عزيزي روبيا<sup>(22)</sup>! أنقضى أكثر من شهرين دون أن أتحدث إليك كتابة، وذلك أمر عذبني كثيراً، حتى لقد حرمني من النوم ذات ليلة من فرط تفكيري فيه. ولكنني على يقين من أنك لن تؤاخذني على هذا الصمت الطويل الذي لست مسؤولة عنه. أنت تعلم كم أحبك! ليس لنا في هذه الحياة، أنا ودونيا<sup>(23)</sup>، سواك. أنت عندنا كل شيء. أنت كل أملنا. أنت كل إيماننا بالمستقبل! ليتك تعلم الحالة التي صرت إليها حين علمت أنك تركت الجامعة منذ بضعة أشهر لعجزك عن الوفاء بسد حاجاتك، وأنك فقدت الدروس التي كنت تعطيها، وقدرت سائر الموارد الأخرى! كيف كان يمكنني أن أساعدك وأنا لا أقبض إلا مائة وعشرين روبلأً في السنة هي معاش التقاعد! أنت تعلم أن الخمسة عشر روبلأً التي أرسلتها إليك منذ أربعة أشهر، إنما كنت قد افترضتها سلفة على معاشي من تاجر في بلدتنا هو فاسيلي إيفانوفتش فاخروشين. إنه رجل طيب شهم كان صديق أبيك. ولكنني وقد خولته حق قبض المعاش نيابة عنِّي، قد اضطررت أن أنتظر إلى أن ينتهي سداد الدين كاملاً، وذلك ما لم يتم إلا منذ برهة قصيرة. هذا هو السبب في أنني لم أستطع أن أرسل إليك شيئاً طوال ذلك الوقت. أما الآن فأعتقد أنني سأستطيع، والله الحمد، أن أستانف إرسال شيء من المال إليك. ثم إننا في وسعنا، على وجه أعم، أن نغيط أنفسنا على أن الحظ قد وافانا

قليلًا، وذلك ما أسارع إلى ذكره لك. هل يمكنك، أولاً، يا عزيزي روديا، أن تحذر أن أختك تقيم معي منذ شهر ونصف شهر، وأنا لن نفصل بعد اليوم أبداً؟ لقد انتهت الآن جميع آلامها بفضل الله، ولكن ينبغي أن أقص عليك كل شيء مرتبًا متسلسلاً، حتى تعرف كيف جرت الأمور، وماذا كتمنا عنك إلى الآن! لقد كتبت إلىي منذ شهرين قاتلًا إنك علمت من أحد الناس أن أختك دونيا تتألم كثيراً من قسوة المعاملة في منزل الأسرة التي تعمل عندها، وهي أسرة السادة سفيديريجالوف، وسألتني أن أبعث إليك بشرح دقيق وتفاصيل وافية عن هذا الأمر. فماذا كان في وسعي أن أجيبك في ذلك الأوّل؟ فلو قلت الحقيقة كاملة لكن من الجائز أن تترك كل شيء وأن تجيء إلينا سيراً على الأقدام، لأنني أعرف طبعك وأعرف عواطفك، فما كان لك أن تدع لأحد أن يسيء إلى أختك وأن يهين كرامتها.

ولقد بلغت أنا نفسي عندئذ غاية الكرب واليأس. ولكن ما الذي كان يجب أن أفعله؟ ثم إنني لم أكن أعرف الحقيقة كلها حينذاك. ولقد جاء البلاء أساساً من أختك دونيتشكا، حين أخذت تعمل مربية عند آل سفيديريجالوف<sup>(24)</sup>، في السنة الماضية، قد قبضت منهم سلفة مقدارها مائة روبل بقتطعونها من أجورها شهراً شهراً. لذلك كان من المستحيل عليها أن تترك وظيفتها قبل أن تكون قد سددت ما لهم عليها من دين. وذلك المبلغ الذي قبضته (أستطيع الآن أن اعترف لك بذلك يا بني العزيز) إنما أخذته خاصة لترسل إليك الستين روبلاً التي كنت حينئذ في حاجة ماسة إليها والتي تلقيتها هنا في السنة الماضية. لقد خدعناك كلتانا حين كتبنا إليك عندئذ أن ذلك المال هو حصيلة مدخلات قديمة جمعتها دونيتشكا، ولم يكن الأمر كذلك. وإنما أنا أقول الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد أن يبدل كل شيء وأن نصير إلى حال أفضل، ولأن من الواجب أن تعلم مدى ما تحمله لك دونيا من حب، وأن تعرف ما يتصرف به قلبها من نبل لا يضارع! بالفعل إن السيد سفيديريجالوف كان

في أول الأمر يعاملها معاملة شديدة الغلظة والفتواحة وكان يوجه إليها أثناء الجلوس إلى المائدة أنواعاً شتى من الكلمات القارصة والأقوال الساخرة.. على أنني لا أريد أن أفيض في الكلام على هذه التفاصيل الأليمة، حتى لا أعدبك في غير طائل، بعد أن انتهى هذا كله الآن! المهم أن وضع دونيتشكا كان شاقاً جداً رغم أن مارفا بتروفنا، زوجة السيد سفيديريجايلوف وسائر أهل المنزل قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية واللطف. وكان وضعها يزداد مشقة حين يصبح السيد سفيديريجايلوف تحت سيطرة باخوس<sup>(25)</sup> على ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان في الجيش. ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟ تصور أن هذا الرجل المأفون كان منذ مدة طويلة يهيم بأختك دونيا هيااماً يخفيه تحت ستار موقف من الفتواحة والاحتقار يصطنه اصطناعاً. ولعله كان يشعر بالخزي والعار في نفسه، أو لعله كان يحس بارتياح حين يرى أنه في هذه السن، هو رب الأسرة، تراوده آمال تبلغ هذا المبلغ من الطيش، فإذا هو يحقد على دونيا رغم إرادته، أو لعله بفظاظة موقفه وغلظة سخرياته أنها كان يريد أن يخفى الحقيقة عن الآخرين لا أكثر. المهم أنه أصبح في نهاية الأمر لا يطبق صبراً، فإذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضاً صريحة حقيقة، باذلاً لها وعوداً بفوائد شتى ومنافع كثيرة، مقتراحاً عليها فوق ذلك كله أن يترك كل شيء ليسافر معها إلى قرية أخرى من القرى التي يملكونها أو إلى الخارج.. في وسعك أن تخيل الآلام التي قاستها أختك! كان عليها أن لا تفكر في ترك وظيفتها فوراً، لا بسبب ما عليها من دين فحسب، بل أيضاً من باب المراعة والمداراة لمارفا بتروفنا التي كان يمكن أن تساورها شكوك كثيرة على حين فجأة فيحدث في الأسرة شقاق يمزقها شرًّا ممزقاً. ذلك عدا أن تركها وظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة كبيرة لا يمكن تحاشيها. وهناك أسباب كثيرة كانت تجعل دونيا عاجزة عجزاً مطلقاً عن ترك ذلك البيت الفظيع قبل انقضاء ستة أسابيع. لا شك في أنك تعرف دونيا

وتعرف ما تتصف به من تعقل ومن إرادة قوية. أن دونيتشكا تستطيع أن تحمل أشياء كثيرة، وأن تجد في نفسها، مهما تكون الظروف حرجة، قدرأً كافياً من رفعة الروح ونبال القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وثبات جنانها، لذلك لم تكتب الي أنا نفسي شيئاً عن هذا كله، حتى لا تؤلمني وتعذبني، مع أنها كانت تراسل كثيراً. وقد حدثت خاتمة القصة على نحو لم يكن في الحسبان: إن مارفا بتروفنا سمعت زوجها في الحديقة، مصادفةً، يتسلل إلى دونيتشكا ضارعاً مبتهالاً، ففهمت الأمر فهماً لا يتفق مع الحقيقة واتهمت دونيتشكا إذ أنها ظنت أن دونيتشكا سبب كل شيء، فإذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ في الحديقة نفسها: لم تشاً مارفا بتروفنا أن تسمع أي قول، حتى لقد ضربت دونيا، وظلت تصرخ ساعة بكاملها، ثم أصدرت أمراً بنقلها الي في المدينة على عربة حقيبة من عربات الفلاحين، رُميت فيها جميع أشياء دونيا من ملابس وأثواب، رُميت فوضى بغير نظام، حتى دون أن تُربط أو تُحرز. وقد أخذ المطر يهطل عندئذ هطولاً غزيراً، فاضطررت أختك دونيا أن تقطع مع الفلاح في عربته المكسوقة مسافة سبعة عشر فرسخاً على تلك الحال من المذلة والهوان. أنك لترى الآن أنني لم أكن استطيع أن أجيبك بشيء على الرسالة التي بعثت بها الي منذ شهرين: عمّ كان يمكنني أن أحديثك وفيما كنت أستطيع أن أكلمك؟ لقد كنت أنا نفسي في غاية الكرب وذروة الكمد. لم أكن أجرؤ أن أكتب لك الحقيقة. فلو فعلت ذلك لشقيت أنت شقاء كبيراً ولشعرت بغضب شديد واضطراب كبير. وما الذي كان في وسعك أن تفعل؟ لا شيء إلا أن تفاقم آلامك ثم إن دونيا قد حظرت علي أن أفعل. وأما أن أملاً رسالتي إليك بترهات وسفاسف، بينما أنا مثقلة القلب بالحزن والكمد، فذلك ما شعرت أنني لا أقوى عليه. وفي أثناء شهر كامل جرت في المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونمائم، حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحت لا أستطيع معه أن أصحب دونيا إلى الكنيسة بسبب نظرات الاحتقار والازدراء التي يلقاها علينا

الناس وبسبب الهمسات الكثيرة التي يتبادلونها عند مرورنا، حتى إنهم كانوا لا يتحرجون من إبداء ملاحظات خبيثة بصوت عالي في حضورنا. وأصبح جميع من يعرفوننا يديرون لنا ظهورهم ويشيرون علينا بوجوههم، بل لقد كفوا عن تحبتنا. وعرفت من مصدر مطلع أن عدداً من مستخدمي الداكتاين وصغار موظفي المكاتب أرادوا أن يرتكبوا في حقنا وقاحة سافلة، هي أن يلطخوا باب منزلنا بالقطaran، فأخذ أصحاب البيت الذي نسكنه يطالبوننا بإخلائه. وكانت مارفا بتروفنا سبب ذلك كله، فقد اتسع وقتها لأن تذهب إلى جميع البيوت تتهم دونيا وتتوسخ سمعتها. أنها تعرف جميع الناس في بلدنا. وقضت هذا الشهر في زيارات مستمرة. وإذا أنها أميل إلى الشريعة، وإذا أنها تحب أن تقصر شؤونها المنزلية على كل قادم، وأن تشكو زوجها خاصةً، وذلك أمر ليس بالجميل كثيراً، فقد نشرت القصة خلال برهة وجيبة من الزمن، لا في المدينة وحدها، بل في المقاطعة كلها. وقد مرضت أنا من ذلك. ولكن دونيتشكا كانت أقوى مني عوداً، وأصلب شكيمة، وأشد بأساً. ليتك رأيت كيف استطاعت أن تحتمل هذا كله بجأش رابط وجنان ثابت حتى لقد كانت هي التي تعزبني وتواسيني، وتقوي عزيمتي، وتشد أزرني! إنها ملاك! ولكن رحمة الله اختصرت عذابنا. فإن السيد سفيديرجايلوف قد عدل عن رأيه، وندم على ما بدر منه، ولعله شعر بشفقة نحو دونيا، فقد لامرأته مارفا بتروفنا الدليل القاطع والحججة الدامغة على براءة دونيا: كان هذا الدليل القاطع رسالة كانت دونيا، قبل أن تفاجئهما مارفا بتروفنا في الحديقة بزمن طويل، قد اضطررت أن تكتبها وأن تعطيها للسيد سفيديرجايلوف لترفض جميع شروحه وعروضه، ولترفض جميع المواعيد السرية التي كان يضرع إليها أن تضربها له. وقد بقيت هذه الرسالة بين يدي السيد سفيديرجايلوف بعد رحيل دونيا. وفي هذه الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجة عنيفة ثائرة عارمة ما يتصف به سلوكه نحو مارفا بتروفنا من جور وظلم وعسف،

وتذكره بأنه زوج، وبأنه أب لأسرة، وتصور له في آخر الأمر مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسنة إذ هو يعذب ويُشقي فتاة فقيرة عزباء لا تحتاج إلى مزيد من العذاب والشقاء. الخلاصة يا بني العزيز روديا، أن تلك الرسالة تبلغ من رفعة النبل وشدة التأثير أنني أجهشت باكية متتجبة حين قرأتها، وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها إلا وتترافق في عيني الدموع. وجاءت شهادات الخدم تبرئ دونيا مزيداً من التبرئة! والخدم كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد أكثر كثيراً مما ظن السيد سفيديريجايلوف. دُهلت مارفا بتروفنا أشدّ الذهول، بل «صعقت من جديد» كما اعترفت لنا هي نفسها بذلك. ولكن لم يبق في نفسها أي شك في أن دونيتشكا بريئة كل البراءة. لهذا بادرت مباشرة، وكان يوم أحد، فذهبت رأساً إلى الكنيسة حيث جئت على ركبتيها باكية وتضرعت إلى السيدة العذراء أن تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الامتحان الجديد وما يمكنها من القيام بواجبها على خير وجه. ثم جاءت من الكنيسة قُدُماً إلى منزلنا، دون أن تعرج على أحد، فقصت علينا كل شيء، وسكتت دموعاً حارة، وعانت دونيا زاخرة النفس بالندم، مبتلهلة إليها أن تغفر لها وأن تعفو عنها. ومن منزلنا ذهبت رأساً دون أن تضيع لحظة واحدة، ذهبت إلى جميع بيوت المدينة، فكانت تسكب سيلولاً من الدموع، وتکيل الثناء لابتني، دونيا، وتشهد ببراءتها، وتطري نبل عواطفها، وتشيد بحسن سلوكها. وأرادت أن تفعل ما هو خير من ذلك أيضاً، فأظهرت جميع الناس على الرسالة التي كتبتها دونيا إلى السيد سفيديريجايلوف بصوت عال، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وذلك أمر يبدو لي أن فيه شيئاً من الغلو). وقد اضطررت لأن بعضهم شكوا من إهمالها زيارتهم، وساءهم أن تؤثر عليهم غيرهم. على هذا النحو تتالت زياراتها متعاقبة متلاحقة، حتى أصبح الناس ينتظرونها في كل منزل، وحتى أصبح يُعرف أن مارفا بتروفنا ستقرأ

الرسالة يوم كذا في مكان كذا، فكان يحضر قراءة الرسالة في كل مرة حتى أولئك الذين سبق لهم أن سمعوها مراراً سواء في بيوتهم هم أو في بيوت آناس آخرين يعرفونهم. فيرأيي أن ذلك كان فيه مغالاة، كان فيه كثير من المغالاة، ولكن هذا طبع مارفا بتروفنا! مهما يكن من أمر، فإن مارفا بتروفنا قد ردت إلى دونيتشكا اعتبارها كاملاً، فإذا بعار هذه القضية يرتد إلى زوجها بخزي لا يمحى ولا يندثر، ويجعله المجرم الأول حتى أخذتهني به شفقة. لقد أسرفوا في القسوة على ذلك المأفون المسكين. بعد ذلك أسرعت أسر كثيرة تعرض على دونيا أن تعطي أولادها دروساً، ولكن دونيا رفضت جميع هذه العروض. ونستطيع أن نقول بوجه عام إن جميع الناس صاروا يولونها احتراماً خاصاً على حين فجأة. وذلك كله قد سهل تسهيلًا كبيراً حدوث الحادث الذي لم يكن في الحسبان، والذي أستطيع أن أقول إن مصيرنا قد تبدل بفضله تبدلاً تماماً وتغيير تغييراً كاملاً. اعلم يابني العزيز روديا أن خطيباً قد تقدم لأختك دونيا، وأنها قد أعلنت له موافقتها، وذلك ما أسارع فأنقله إليك الآن. أغلبظن أنك لن تؤاخذنا، لا أنا ولا أختك، على أن الأمر قد تم دون الحصول على موافقتك، فلسوف ترى بنفسك أنه كان يستحيل علينا أن ننتظر، وأن نرجيء اتخاذ القرار إلى حين وصول رذك إلينا. هذا عدا أنه ما كان لك أن تستطع، من بعد، أن تحكم في الأمر حكم العارف المطلع. وإليك تفصيل ما حدث:

الرجل مستشار قضائي<sup>(26)</sup>، اسمه بيتر بتروفتش لوجين. وهو يمت بقربى بعيدة إلى مارفا بتروفنا التي شاركت في الأمر مشاركة كبيرة. لقد بدأ الرجل بأن أظهر لمارفا بتروفنا رغبته في التعرف إلينا، فاستقبلناه كما ينبغي أن يستقبل، فشرب عندنا القهوة، فما أن جاء الغد حتى بعث إلينا برسالة يعرض فيها طلبه بكثير من الكياسة، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً. إنه رجل من رجال الأعمال، مشغول جداً، ولما كان عليه أن يسافر إلى بطرسبرج قريباً، فإن لكل دقة قيمة عندة. طبيعى أننا ذهلنا في أول

الأمر: لقد حدث ذلك كله بسرعة مسرفة وعلى نحو مباغت مفاجئ، بطريقة لم تكن في الحسبان! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر في الأمر ونزن الأشياء. هو رجل يحتل مركزاً مرموقاً: يشغل وظيفتين في آن واحد ويملك منذ الآن رأس مال له. الحق أنه يبلغ الخامسة والأربعين من العمر، لكن مظهره لطيف، وما يزال يستطيع أن يرضي النساء. وهو عدا ذلك رجل رصين لائق جداً. كل ما هنالك أنه متوجه المزاج قليلاً، متعال بعض التعالي، ولكن قد لا يكون ذلك إلا شعوراً أول ساورنا حين رأيناها، ولهذا أحذرك يا بني العزيز روديا من أن تحكم عليه بسرعة مسرفة واندفاع عنيف حين ستلقاه في بطرسبرج قريباً (على عادتك في سرعة الحكم وعنف الاندفاع) إذا أنت رأيت فيه عند الوهلة الأولى شيئاً يصادم شعورك. أقول لك هذا من باب الاحتياط لكل مصادفة، رغم يقيني من أنه سيحدث في نفسك أجمل الأثر. أضف إلى ذلك أن على المرء، إذا هو أراد أن يصل إلى معرفة إنسان من الناس، أيّاً كان هذا الإنسان، أن يتصرف إزاءه تصرفًا فيه كثير من التروي والتعقل والحكمة والحذر، وإلا فقد يقع في الخطأ، وقد ينجرف إلى التحيز، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك أن يصحح ذاك الخطأ وأن يزيل ذلك التحيز. ومهما يكن من أمر فإن قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن بيوتر بتروفتش رجل جدير بالاحترام. لقد أعلن لنا منذ أول زيارة أنه رجل وضعى عملى، ولكنه في كثير من الأمور يشارك «أجيالنا الجديدة آراءها» على حد تعبيره، وأنه عدو لجميع أنواع التحيز المسبق، ولقد قال أموراً أخرى كثيرة، فهو رجل لا يخلو من شيء من الغرور، وهو يحب كثيراً أن يصفع الناس إلى كلامه وأن يسمعوا لحديثه. ولكن ذلك ليس آفة كبيرة، أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبيعة الحال، ولكن دونيا شرحت لي أنه على نقص ثقافته إنسان ذكي، وأنه طيب فيما يبدو. إنك تعرف طبع اختك، يا بني العزيز روديا. هي فتاة ثابتة صلبة عاقلة صابرة كريمة، رغم أن لها قلباً حاراً وشعوراً متقداً، وذلك أمر استطعت

أن أدركه فيها. طبعاً، لا مجال للحديث عن حب حقيقي، لا من جانبها هي ولا من جانبه هو. ولكن دونيا، عدا أنها فتاة ذكية، هي في الوقت نفسه نبيلة كملائكة. ولا بد أن تلزم نفسها بإسعاد زوجها الذي لن يسعه إلا أن يسعدها هو أيضاً. فحول هذه النقطة الأخيرة ليس لدينا حتى الآن أي سبب جدي يدعو إلى الشك، رغم أن الأمر قد تم بشيء من السرعة، كما ينبغي أن نعترف بذلك. يضاف إلى هذا أن الرجل إنسان حصيف الفكر سديد الرأي، فلا شك في أنه سيرى بنفسه أن سعادته الزوجية نفسها ستكون مضمونة مزيداً من الضمان إذا سعدت دونيا بفضلها مزيداً من السعادة. أما عما هنالك من بعض الاختلافات في المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض الاختلافات في الآراء (وذلك ما لا يمكن تحاشيه حتى في أكثر حالات الزواج توفيقاً) فإن دونيا كما قالت لي ذلك سوف تأخذ على عاتقها هذا الأمر. إنها تؤكد أنه لا داعي إلى القلق، وإنها تستطيع احتمال أشياء كثيرة شريطة أن تبقى علاقتها على الدوام شريفة صادقة عادلة قائمة على المساواة والإنصاف. يجب أن أقول لك إن الرجل بدا لي أنها أيضاً مسرفاً في الصرامة بعض الإسراف. ولكن ذلك قد يكون ناشئاً عن أنه امرؤ صريح، بل إن الأمر كذلك حتماً. مثال: أنه أثناء زيارته الثانية، بعد حصوله على الموافقة، قد أعلن أثناء الحديث أنه حتى قبل أن يعرف دونيا كان قد قرر أن لا يتزوج إلا فتاة شريفة لا تملك مهرأ، فتاة سبق أن عرفت تجربة الفقر وعانت مرارة البؤس، لأن الزوج يجب أن لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً، وإنما يجب أن تشعر المرأة أن زوجها هو المحسن إليها وصاحب الفضل عليها. يجب أن أذكر أنه قد عبر عن رأيه هذا تعبيراً أكثر رقةً ولطفةً، وأقرب إلى المودة والمحبة من الكلمات التي كتبتها أنا الآن، لأنني نسيت الألفاظ التي استخدمها، وأصبحت لا أتذكر إلا الفكرة التي أفصح عنها. ثم إنه لم يكن قد هنأ أقواله وحضر عباراته، فلا شك أن ذلك الكلام قد أفلت منه إفلاتاً. لذلك حاول بعدها أن

يتدارك الأمر، وأن يلطف الأثر الذي أحدثه كلماته. ومع ذلك استثقلت كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا في هذا، فأجبتني دونيا، وفي نفسها شيء من الغضب والحزن، بأن «الأقوال لا تطابق الأفعال دائمًا»، وواضح أن كلام دونيا صادق. يجدر أن أذكر أن دونيا، قبل اتخاذ قرارها، لم يغمض لها جفن طوال الليل، وأنها حين ظنت أنني غفوت قد نهضت عن فراشها وأخذت تمشي في الغرفة طولاً وعرضاً إلى أن طلع الصبح، ثم ركعت على ركبتيها، ولبست جائحةً أمام الأيقونة تصلي مدة طويلة بكثير من الحرارة والخشوع، حتى إذا طلع النهار أعلنت أنها قد اتخذت قرارها.

سبق أن قلت أن بيوتر بتروفتش سياسفر الآن إلى بطرسبرج. أن له هنالك أعمالاً كبيرة: أنه يريد أن يفتح مكتباً للمحاماة. هو يعني بهذا النوع من الأعمال منذ زمن طويل. وقد ربح دعوى هامة في الآونة الأخيرة. وينبغي له أن يسافر إلى بطرسبرج حتماً لسبب آخر هو أنه سيرافق هنالك أمام مجلس الشيوخ<sup>(27)</sup> في قضية خطيرة. وهكذا ترى يا بني العزيز روديا، أنه سيكون في وسعه أن يفيده كثيراً. لقد رأينا أنا ودونيا أنك تستطيعي منذ اليوم أن تبدأ مهنتك، وأن تعدد مستقبلك مضموناً ضماناً نهائياً. آه! ما أجمل أن يتحقق ذلك! سيكون علينا عندئذ أن نعد هذا أثراً من آثار نعمة الله علينا. إن دونيا أصبحت لا تفكك إلا في هذا. ولقد جازفنا أنا ودونيا، فأسمعنا بيوتر بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع، فتكلم عندئذ بشيء من التروي والتعقل فأعلن أنه، بطبيعة الحال، ما دام لا يستطيع أن يستغني عن سكرتير، سيفضل أن يدفع أجوراً لعضوٍ من أعضاء الأسرة على أن يدفع هذه الأجور لشخص غريب، شريطة أن يبرهن القريب على أنه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك أنت عاجز عن ذلك!). ولكنه لم يلبث أن ساوره شك أفحص عنه فقال إنه يخشى أن لا تدع دراستك في الجامعة متسعًا من الوقت للعمل معه. وقد وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بها الآن أمر غير هذا الأمر، وهي منذ بضعة أيام فريسة

حمى حقيقة، حتى لقد بنت لمستقبلك في خيالها مشروعًا ضخماً: إنها تقدر أنك ستستطيع في المستقبل أن تصبح مساعدًا بل وشريكًا لبيوتر بتروفتش في أعمال المرافعات التي يقوم بها، لا سيما وأنك تدرس القانون. أما أنا، يا روديا، فإنني متفقة معها كل الاتفاق، أشاركها آراءها وأساطيرها آمالها، وأرى أن ذلك ليس بالمستحيل قط. ورغم ما يظهر الآن على بيوتر بتروفتش من تحفظ، وهو تحفظ يمكن فهمه جداً (لأنه لا يعرفك حتى الآن)، فإن دونيا مقتنعة اقتناعاً جازماً بأنها ستصل إلى تحقيق أهدافها بفضل التأثير الطيب الذي تعرف كيف تستطيع أن تحدثه في نفس زوجها المقبل. إنها من ذلك على اقتناع كامل. لقد تحاشينا طبعاً أن نكشف أمام بيوتر بتروفتش، ولو بكلمة واحدة، عن أحلامنا البعيدة، ولا سيما عن حلم أن نراك شريكاً له في المستقبل. أنه رجل وضعى عملى، فقد يسىء النظرة إلى هذا الأمر، لأنه لن يرى فيه إلا أحلاماً. كذلك لم نشر، لا أنا ولا دونيا، أية إشارة إلى أن نراه يساعدنا في أن نرسل إليك ما أنت في حاجة إليه من مال أثناء دراستك بالجامعة. أنها لم نتكلم في هذا الأمر، أولاً لأنه سيتحقق من تلقاء نفسه في المستقبل، ولأن بيوتر بتروفتش سيعرض عليك هذه المساعدة حتماً بدون أقوال زائدة (لن يقصنا إلا أن يأبى هذا على دونيا!) لا سيما وأنك تستطيع أن تصبح ساعدته الأيمن في المكتب، وأن الأمر لن يكون إذن أمر نجدة أو هبة بل أمر أجر تحصل عليه بجهدك. على هذا النحو إنما ت يريد دونيتشكـا أن تربـ الأمور. وأنا متفقة معها في هذا كل الاتفاق.

وثانية: نحن لم نتكلـ في ذلك لأنـي حرـست خـاصـة علىـ أنـ أضعـكـ فيـ موقفـ المـساـواـةـ معـهـ مـنـذـ لـقـائـكـماـ القـادـمـ. فـحينـ كـلـمـتـهـ دونـيـاـ عـنـكـ بـحـمـاسـةـ أـجـابـ بـأـنـ عـلـىـ الـمـرـءـ إـذـاـ هوـ أـرـادـ أـنـ يـحـكـمـ عـلـىـ رـجـلـ مـنـ الرـجـالـ أـنـ يـرـاهـ عـنـ قـرـبـ، وـقـالـ إـنـهـ يـحـفـظـ لـنـفـسـهـ بـحـقـ تـكـوـينـ رـأـيـ عـنـكـ بـعـدـ أـنـ يـتـعـرـفـ إـلـيـكـ. هـلـ تـعـرـفـ يـاـ رـوـديـاـ، يـاـ كـنـزـيـ، مـاـ هـوـ شـعـورـيـ الـآنـ؟ـ يـخـيـلـ إـلـيـ،ـ اـسـتـنـادـاـ إـلـىـ بـعـضـ الـخـواـطـرـ الـتـيـ تـسـاـوـرـنـيـ (ـوـهـيـ لـاـ تـعـلـقـ بـبـيـوـتـرـ

بتروفتش ، ولا تزيد على أن تكون أهواه امرأة عجوز) ، يخجل التي أنتي سوف أحسن صنعاً إذا أنا لم أعش معهما بعد زواجهما بل أعيش منفصلة عنهما مثلما أعيش الآن . أنتي واثقة ثقة مطلقة بأنه يملك من الكرم واللطف ما يكفي لأن يدعوني من تلقاء نفسه ، ولأن يقترح عليّ أن لا أنفصل عن ابنتي . وإذا كان قد سكت عن هذا الأمر حتى الآن ، فلأنه أمر بديهي لا حاجة إلى الكلام فيه . ولكنني سأرفض . لقد أمكنني أن ألاحظ أكثر من مرة خلال حياتي أن الاصحاب لا يحبون حمواتهم كثيراً . وأنا لا أكره أن أحدث أي إزعاج لأي إنسان فحسب ، وإنما أريد كذلك أن أحافظ بحربي كاملة ما ملكت ولو لقمة من خبز ، و ما بقي لي أولاد مثل دونيتشكا . سأسكن غير بعيد عنكم إذا أمكن ذلك . هاؤنذا احتفظت لنهاية رسالتي بأجمل شيء يمكن أن أزفه إليك يا روديا . اعلم يا بني العبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانية في القريب ، وأننا قد نتعانق نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذي دام قرابة ثلاثة أعوام . نعم لقد أصبح يقيناً منذ الآن أننا سننافر أنا ودونيا إلى بطرسبرج . أما متى ننافر فلست أدرى ، ولكننا سننافر قريباً جداً ، ربما بعد أسبوع . أن كل شيء رهن بالاستعدادات التي سيتخذها بيوتر بتروفتش ، وسوف يبلغنا هذه الاستعدادات فور استقراره ببطرسبرج . إنه يحرص لأسباب معينة أن يتم الزفاف بأقصى سرعة ويتمنى لو يتم الاحتفال به في غضون شهر إذا أمكن ، أو بعد عيد رفع العذراء فوراً إذا كان مضطراً إلى تأجيل الزفاف بسبب قصر الوقت . آه ! ما أعظم الفرح الذي سأشعر به حين سأشدك إلى قلبي ! إن دونيا تضطرب أشد الأضطراب حين تتصور أنها ستسعد بلقائك . حتى لقد قالت مرة من باب المزاح أنها مستعدة لأن تتزوج بيوتر بتروفتش لا لشيء إلا هذا ! إنها ملاك ، ملاك حقاً ! لن تضيف دونيا إلى رسالتي هذه شيئاً ، ولكنها ترجوني أن أقول لك أن هناك أموراً كثيرة تريد أن تحدثك فيها ، أشياء تبلغ من الكثرة أنها لا تستطيع أن تتناول القلم ، لأن المرأة لا يمكنها أن يقول ببعضه أسطر شيئاً ، فلو حاول أن

يكتب لما زاد على أن يشير أعصابه. وهي تكلفني كذلك بأن أعانقك عناقاً شديداً، وأن أبعث إليك بقبلات لا حصر لها ولا عد. ولكن رغم أننا سنلتقي قريباً فإن ذلك لن يمنعني من أن أرسل إليك بعض المال في الأيام القريبة. سوف أرسل إليك ما أستطيع ارساله. فالآن وقد علم جميع الناس أن دونيتشكا ستتزوج بيوتر بتروفتش قريباً أصبح في وسعه فجأة أن استدين مبالغ أكبر من المبالغ التي كنت أستطيع أن أستدينها من قبل، ولقد علمت علم اليقين أن آفاناسي إيفانوفيتش سوف يشق بي فيفرضني سلفة على معاشي تبلغ ستين روبلأ، فقد أستطيع أن أرسل إليك إذن خمسة وعشرين روبلأ بل ثلاثين. كان يمكن أن أبعث إليك بمبلغ أكبر لولا أنني أخشى نفقات الطريق بعض الخشية. فرغم أن بيوتر بتروفتش رجل طيب وأنه يتحمل جزءاً من النفقات التي سيقتضيها سفرنا إلى العاصمة، أي رغم أنه عرض علينا أن يتولى الإنفاق على شحن أمتعتنا وصندوقنا الكبير (بفضل ما له من علاقات) فإن علينا أن نحسب حساب وصولنا إلى بطرسبرج، فليس يستطيع المرء أن يجيء إلى هذه المدينة بلا قرش في جيده، ولا سيما في الأيام الأولى. على كل حال، لقد أجرينا أنا ودونيا حساباتنا بأكبر دقة ممكنة، فظهر لنا أن رحلتنا لن تكلف نفقات باهظة. إن المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة الحديدية لا تزيد على تسعين فرسخاً، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح نعرفه على أن نقطع هذه المسافة بعربته كراء. ومن هناك، سننافر سفراً مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار. هكذا ترى أنني قد أستطيع أن أرسل إليك لا خمسة وعشرين روبلأ بل ثلاثين... ثلاثين حتماً. ولكن حسبي هذا الآن! لقد سودت ورقتين كبيرتين وجهاً وفها، ولم يبق فيهما متسع لمزيد من الكلام. ثم إنك قد عرفت الآن قصتنا كلها... الله يعلم كم جرى لنا من أحداث! والآن يا روديا، يا كنزي الحبيب... أقبلك بانتظار لقائنا القريب، وأبعث إليك ببركات الأم! أحبب أختك دونيا، يا روديا... أحببها كما تحبك... واعلم علم اليقين أنها تحبك حباً لا

نهاية له ، أنها تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها! هي ملاك يا روديا! ..  
وأنت كل شيء عندنا يا روديا... أنت أملنا كله ، وأنت مستقبلنا كله!  
حسبنا أن تسعد أنت حتى نسعد نحن أيضاً! هل تصلي الله دائمًا كما كنت  
تصلي له يا روديا؟ أما زلت تؤمن برحمة خالقنا وفادينا؟ إبني أخشي في  
قرارة قلبي أن تكون الزندقة الرائجة في هذا الزمان قد سرت عدواها  
إليك! فإذا كان الأمر كذلك ، فإنني أصلي من أجلك ، واستغفر الله لك .  
تذكر يا بني الحبيب كيف كنت في طفولتك أثناء حياة أبيك ، تذكر كيف  
كنت تتمتم صلواتك جالساً على ركبتي ، وتذكر كم كنا سعداء في تلك  
الأيام! .. استودعك الله يا روديا ، بل إلى اللقاء! إبني أشدك التي شدّا  
قوياً ، أعانك ، وأطبع على وجهك قبلات لا حصر لها... .

لک حتی الممات

بولخيريا راسكولنيкова»

منذ بدأ راسكولنيكوف قراءة الرسالة إلى أن أتمها ، لم تنقطع الدموع  
عن الجريان على خديه . ولكن حين فرغ من قراءتها ارتعش وجهه الذي  
اصفرَ على حين فجأة ، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة شتجت شفتيه .  
وتهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القدرة ، وراح يفكر... . راح يفكر  
 ملياً... . كان قلبه يخفق خفقاتاً قوية . وكانت أفكاره مضطربة أشد  
الاضطراب . وأحسن أخيراً باختناق في هذه الحجرة الصفراء التي تشبه أن  
تكون خزانة أو صندوقاً. إن نظراته وأفكاره تحتاج إلى فضاء واسع .  
فتناول قبعته وخرج... . خرج دون أن يخشى في هذه المرة أن يلتقي بأحد  
على السلم... . أصبح لا يفكر في هذا الأمر . ومضى في اتجاه جزيرة  
فاسيلفسكي سالكاً شارع ف... ، كان أمراً ملحاً مستعجلأً كان يناديه إلى  
هناك . ولكنه كان ، على عادته ، يسير دون أن يلاحظ أي شيء أثناء  
الطريق ، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه ، بل كان يتكلم أيضاً بصوت  
عال ، فيشير بذلك دهشة المارة ، حتى لقد حسبه الكثير من الناس سكران .

الفصل الرابع

၁၀၂

**الحقيقة** رسالة أمه ارهاقاً شديداً. ولكنه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية الأساسية لم يساوره الشك لحظةً حتى عند القراءة الأولى. كان قد اتخاذ في جوهر القضية قراراً لا رجعة عنه «لن يتم هذا الزواج ما حيit. فليذهب السيد لوجين إلى الشيطان!»

كان يجمجم قليلاً بينه وبين نفسه وهو يتسم بابتسامة ساخرة ويتلذذ  
منذ الآن تلذذاً خبيثاً بانتصار قراره: «الأمر واضح لا لبس فيه. لا يا  
أمامه، لا يا دونيا، لن تستطعوا أن تخدعني... وهي تعترض أيضاً عن  
أنها لم تستشرني وعن أنها رتبت الأمر دون علمي ودون إرادتي! ذلك  
طبيعي! هما تخيلان إذن أنه لم يبق سبيل إلى فسخ الخطوبة. طيب!  
سوف نرى أهناك سبيل إلى ذلك أم لا! وبالإله من حجة: «إنه رجل  
مشغول جداً، بيوتر بتروفتش هذا... يبلغ وقته من الازدحام بالأعمال  
إنه لا يستطيع أن يتزوج إلا على جناح السرعة، حتى لكانه يتمنى أن يتم  
الزواج في عربة سريعة العدو إن لم يكن في القطار!» لا، لا، يا  
دونيتشكا... وإنني لأعلم ما هي الأشياء الكثيرة التي تريدين أن  
تحديثني عنها... وإنني لأعلم أيضاً ما الذي فكرت فيه طوال الليل  
وأنت تذرعين الغرفة جيئة وذهاباً، وما الذي طلبته في صلواتك أمام  
«عذراء قازان» التي توجد أيقونتها في غرفة نوم أمنا. ما أشد وعورة

طريق الجلجة... هم... هكذا إذن... كل شيء قد تقرر نهائياً...  
تريدين يا أسفوتيا رومانوفنا أن تتزوجي رجلاً من رجال الأعمال، رجالاً  
وشعراً عملياً، يملك رأس مال له (أو فلنقل يملك منذ الآن رأس مال  
له، فذلك أقرب إلى فرض المهابة والاحترام) يشغل وظيفتين في أن  
واحد وبشارك أجيالنا الجديدة آراءها (كما كتبت الأم) رجلاً هو «فيما  
يبدو طيب» (كما تلاحظ دونيا نفسها). ما أبلغ هذا التعبير: فيما يبدو!  
أن دونيتشكا هذه نفسها هي التي ستتزوج ذلك الرجل، الطيب فيما  
يبدو! رائع! رائع!..

... على أني يهمني أن أعرف لماذا حدثتني أمي في رسالتها عن  
«الأجيال الجديدة»؟ ترى أهي فعلت ذلك من أجل أن تصف لي طبع  
الرجل فحسب أم فعلته لغاية أبعد من ذلك هي أن تهيني لأن أحكم  
على السيد لوجين حكماً حسناً وأن أرى فيه رأياً جيداً؟ آه... يا  
للماكرتين! وانه ليهمني أيضاً أن أعرف الحقيقة فيما يتعلق بالنقطة  
التابعة: إلى أي حد كانت كل منها صريحةً مع الأخرى في ذلك اليوم  
وفي تلك الليلة وفي سائر الوقت؟ هل نُطقت جميع الكلمات حقاً، أم  
أن كلاماً منها قد فهمت ما يدور في قلب الأخرى وما يجري في فكرها،  
فكان كل كلام زيادة لا طائل تحتها ولا داعي إليها؟ لعل الأمر كان  
كذلك، في جلته على الأقل... هذا ما يدركه المرء حق الادراك من  
الرسالة نفسها: فالرجل قد بدا لأمي مسرفاً في الصراوة بعض الارساف،  
ولا بد أن تكون أمي بسذاجتها المعهودة فيها قد أسمعت دونيا ملاحظتها  
المعاً وتلميحاً، ولا بد أن تكون الأخرى قد اغتاظت طبعاً فكان في  
جوابها شيء من «الغضب والحزن». ذلك طبيعي! من ذا الذي يمكن أن  
لا يغضب حين يكون الأمر واضحأ يفقأ العينين، وحين لا يكون ثمة  
حاجة إلى أية ملاحظة تقال، وحين يكون كل شيء قد تقرر فلا داعي  
إلى كلام؟ ولماذا تكتب لي أمي قائلة: «أحبب دونيا يا روديا. إنها  
تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها؟» أليس مرد هذا إلى عذاب الضمير

الذي يبَرِّحُها خفية، أنها ضحت في سبيل ابنها بابتها؟ «أنت أملنا كله. أنت كل شيء عندنا» آه يا أماه! إن غضباً ما ينفك يشتد ويقوى كان يتجمع في نفسه ويتراكم، فلو لقي السيد لوجين في تلك اللحظة، إذن لقتله في أغلب الظن!

وأصل يقول متابعاً إعصار أفكاره الذي كان يعصف في رأسه: «هم... هذا حق... هذا حق... من أراد أن يعرف أحداً فعليه «أن يتصرف ازاءه تصرفًا فيه كثير من التروي والتعقل والحكمة والحذر». ولكن السيد لوجين واضح شفاف. هو قبل كل شيء «رجل من رجال الأعمال» وهو «طيب فيما يبدوا». إلا نرى أنه يتولى شحن أمتاعهما وصندوقهما الكبير على نفقته؟ فكيف لا يكون إذن طيباً؟ والخطيبة والأم كلتاهم تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات غطاء من قماش خشن (أنا أعرف ما هذا، فقد بلوته، وقطعت هذه المسافة بتلك الطريقة). أي ضير؟ إن المسافة لا تزيد على 90 فرسخاً<sup>(28)</sup>، «ومن هنا نسافر سفراً مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار». ألف فرسخ في الدرجة الثالثة! معقول جداً: إن كل إنسان ينفق ما تسمح له موارده باتفاقه! ولكن مارأيك أنت يا سيد لوجين؟ مارأيك أنت؟ الفتاة خطيبتك... ولا بد أنك تعلم أن الأم ستفترض سلفة على معاشها ل تستطيع سداد نفقات الرحلة! عقلك عقل تجاري محض طبعاً... أنت تنظر إلى الأمر نظرتك إلى مشروع تجاري يشترك فيه طرفان يقتسمان ارباحه نصيبيين متساوين، فلا بد أن يسهم كل منهما في نفقاته بنصيبه كاملاً. لسان حالك يقول ما يقوله المثل السائير «الخبز والملح لي ولك، أما التبغ فلكل تبغه الخاص به». ولكن رجل الأعمال قد غشهما وغبنهما في هذه النقطة أيضاً: نفقات شحن الأمتاع أقل من نفقات السفر، وقد يستطيع رجل الأعمال هذا أن يشحن الأمتاع بالمجان. أهـما لا تريان هذا أم هـما لا تريـدان أن تـريـاه؟ والعـجـيبـ أـنـهـماـ رـاضـيـتـانـ، رـاضـيـتـانـ! وـماـ هـذـهـ إـلـاـ الأـزـهـارـ أـمـاـ الشـمـارـ فـسـتـأـتـيـ بـعـدـ ذـلـكـ! وـأـخـطـرـ مـاـ فـيـ الـأـمـرـ لـيـسـ هـوـ

البخل، ليس هو الشح، وإنما هو هذا الطابع العام الذي يطبع الأمر كله مؤذنا بما ستصير إليه الأحوال بعد الزواج... وأمي: ما بالها تريد ارتكاب حماقات؟ لماذا ستصل إلى بطرسبرج؟ بثلاثة روبلات في جيبيها، أو «بورقتين صغيرتين»<sup>(29)</sup> كما قالت تلك العجوز المرا比ة. هم... وعلى أي شيء تعول من أجل أن تعيش بعد ذلك في بطرسبرج؟ بناء على بعض القرائن لقد استطاعت مع ذلك أن تدرك أنه سيستحيل عليها أن تعيش مع دونيا حتى أثناء الأونة الأولى من الزواج. لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع عن نفسه بطريقة أو أخرى، لا شك أن هذا قد أفلت من لسانه، رغم أن أمي تستبعد هذا الافتراض بكلتا يديها قائلة: «أنا سأرفض». فعلى أي شيء تعول إذن؟ أهي تعول على معاشها الذي يبلغ مائة وعشرين روبلًا سيفقطع منها الدين المقترض من آفاناسي إيفانوفتش؟ إنها تقضي الوقت كله في حياكة مناديل شتوية وتطرير أكمام، فترهق بذلك عينيها المتعبتين. ولكن حياكة المناديل وتطرير الأكمام لا يضيفان إلى المائة وعشرين روبلًا في السنة إلا عشرين أخرى. أنا أعلم ذلك! هي إذن تعتمد رغم كل شيء على كرم القلب ونبل النفس لدى السيد لوجين: «سيعرض على من تلقاه نفسه أن يساعدني، وسيليخ...». لقد أخطأ ظنها فلن تناول ما تمناه! هكذا حال نفوس شيللر<sup>(30)</sup> الطيبة دائمًا: تظل حتى آخر لحظة تزيّن الناس بريش الطاووس، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر، ورغم تصورها وجود الشر فإنها لا يمكن أن تعرف لذلك لنفسها بحال من الأحوال: إن تصور هذا وحده يصدّمها وبهزها هزاً قوياً. فهي بيدتها تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة، إلى أن يأتي الإنسان الذي زينته بريش ملون من خيالها فيصفع وجهها ويدمي أنفها بيده نفسها. ليتبيني أعرف هل يملك السيد لوجين أوسبمة. إنني أراهن على أنه يملك وسام القدسية حتى<sup>(31)</sup> وإنه يزين به سترته حين يذهب إلى حفلة عشاء يقيمها أحد من المقاولين أو التجار. ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً يوم زفافه!

على كل حال... شيطان يأخذه!..

والله... إني لأسامح أمي، فهي كما هي، كان الله في عونها!.. ولكن ماذا أقول عن دونيا؟ إبني أعرفك يا عزيزتي دونتشيكا! كنت قد بلغت العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة. وقد أدركت طبعك وفهمت خصالك منذ تلك اللحظة. أمي تقول «إن دونتشيكا تستطيع احتمال أشياء كثيرة»... نعم... هذا أمر أعرفه، أعرفه منذ سنتين ونصف سنة... وأنا منذ سنتين ونصف سنة، لا أفكر إلا في هذا، لا أفكر إلا في هذا نفسه... وهو أن «دونتشيكا تستطيع احتمال أشياء كثيرة». لتن استطاعت أن تحتمل السيد سفيديريجايروف، وأن تحتمل كل العواقب التي ترتب على سلوكه، فهذا دليل على أنها تستطيع فعلًا أن تحتمل أشياء كثيرة!.. وها هما الآن، هي وأمي، قد تخيلنا أن في الإمكان احتمال رجل مثل السيد لوجين، لا يترجح من شرح مزايا زواج الرجل بامرأة فقيرة كي لا تشعر بفضلها عليه، ولا يترجح من شرح هذه النظرية منذ أول لقاء! طيب... لنسلم بأن ذلك قد «أفلت» من لسانه على غير إرادة منه، رغم أنه رجل وضعى عملي (فمن الجائز أن شيئاً لم يفلت من لسانه أفلاتاً وإنما هو أراد عمدًا أن يوضح الأمور دون أن يضيع وقتاً). ولكن ماذا أقول في دونيا؟ ماذا أقول في دونيا؟ لا شك أنها قد كشفت الرجل وأزاحت النقانع عن وجهه وعرفته على حقيقته، ثم هي تقبل أن تعيش معه! إنها تؤثر أن لا تأكل إلا خبزاً وأن لا تشرب إلا ماء، على أن تبيع روحها!.. إنها لا يمكن في سبيل الحصول على الرخاء أن تفقد حريتها! أنها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية في سبيل دوقيتي شفلفسيج وهولشتاين<sup>(32)</sup>، فكيف تتنازل عنها في سبيل السيد لوجين؟.. لا! إن دونيا التي أعرفها لم تكن هكذا... من المؤكد أن طبعها لم يتغير حتى الآن... فماذا أقول؟ صحيح أنه أمر شاق عليها أن تحتمل آل سفيديريجايروف، وأن تظل طوال حياتها تمضي من إقليم إلى إقليم لتعمل مربية في سبيل أن تجني مائتي روبل. ولكن أعلم أن أخي

تؤثر أن تساء معاملتها كما يسيء مزارع معاملة زنجي أو كما يسيء  
الألماني من مقاطعات البلطيق معاملة رجل لاتفيا<sup>(33)</sup>، على أن تدنس  
روحها وأن تفسد حسها الأخلاقي بالارتباط إلى الأبد ومن أجل  
مصلحتها الشخصية فحسب ب الرجل لا تحبه ولا يجمعها به شيء! ولا بد  
أن ترفض أن تصبح خليلة شرعية للسيد لوجين ولو كان السيد لوجين  
ذهبأً كله أو مasaً كله! فلماذا تقبل هذا الزواج الآن؟ ما سبب هذا؟ ما  
هو مفتاح السر؟ الأمر واضح! لو كانت تنشد مصلحتها هي ورخاءها  
هي، لرفضت أن تبيع نفسها ولو لتجنب الموت. أما في سبيل شخص  
آخر فإنها مستعدة أن تبيع نفسها! نعم إنها في سبيل شخص محظوظ،  
في سبيل شخص معبد، مستعدة لأن تبيع نفسها! ذلك هو مفتاح اللغز:  
إنها في سبيل أخيها وفي سبيل أمها قادرة على أن تبيع نفسها، على أن  
تباع كل شيء! آه... نعم إننا نستطيع عند اللزوم أن نخنق حتى  
إحساسنا الأخلاقي! إننا نستطيع عند اللزوم أن نحمل إلى السوق كل  
شيء فنبيعه فيها: الحرية، الطمأنينة، وحتى راحة الضمير! ألا فلتتحطم  
حياتنا إذا كان في ذلك سعادة لأولئك الذين نحبهم! وأكثر من ذلك إننا  
نلفق لأنفسنا عندئذ سفسطة خاصة نتعلمنا من اليهوديين فنريح ضمائراً  
إلى حين، مسؤولين أعمالنا قائلين لأنفسنا: إن ما فعلناه هو ما كان ينبغي  
لنا أن نفعله ما دمنا نعمل في سبيل هدف نبيل وغاية شريفة! نحن جميعاً  
هكذا. كل شيء واضح الآن وضوح النهار. لا شك أن روبيون  
رومانيتش راسكولنيكوف، ولا أحد سواه، قد احتل المقام الأول من  
الاعتبار في هذه القصة. كيف لا؟ أن من الواجب أن نعمل لتوفير  
السعادة له، وأن نعيشه ما ظل في الجامعة، وأن نجعله في المستقبل  
شريكأً لرجل من رجال الأعمال، أي أن نضمن له مستقبلاً، فيصبح غنياً  
محترماً مرموقاً، حتى لقد يصل في أواخر أيامه إلى المجد. والأم؟ ما  
قولنا في الأم؟ ولكن الأمر هنا أمر ولدها الأول، أمر ابنها روبياً، أمر  
ابنها الغالي روبياً! فكيف لا تضحي في سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل

هذه البنت؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة! أتجهلين إذن أن المرء قد تدفعه نية كهذه النية أن يشاطر صونيا مصيرها؟ نعم صونيا، صونيتاشكا مارميلادوفا، صونيتاشكا الخالدة، الخالدة خلود العالم! ولكن هل تصورتما كلتاكم ما مدى هذه التضحية؟ هل هذه التضحية هي حقاً ما تفكران فيه؟ هل تملكان القدرة على القيام بهذه التضحية؟ وهل هذه التضحية مفيدة حقاً؟ وهل هي معقولة؟ هل تعلمين يا دونيتاشكا أن مصير صونيا ليس أفعى من مصير امرأة قضى عليها أن تعيش مع السيد لوجين؟ أن أمي تقول: «لا مجال للكلام عن حب حقيقي» ولكن ما عسى يحدث، بصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها، إذا لم يكن هنالك أيضاً شيء من الاعتبار والاحترام، بل كان هنالك منذ الآن نفور واحتقار وأشمئزاز؟ ما عسى يحدث حينذاك؟ سيكون من الواجب عندئذ مرة أخرى... «مراجعة النظافة». أليس الأمر كذلك؟ هل تفهمان، هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيه هذه النظافة؟ هل تدركان أن هذه النظافة لا تختلف عن نظافة صونيتاشكا، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل، لأنك يا دونيتاشكا تستهدفين مزيداً من الرخاء، أما هنالك فالامر لا يزيد على الرغبة في تعاطي الموت جوعاً. «إنها تكلف ثمناً باهظاً، باهظاً جداً يا دونيتاشكا، تلك النظافة»! وماذا إذا أصبح الحمل في المستقبل أثقل من أن تطيقيه، فاستبدت بك الندامة؟ ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن ومن كرب، وما أكثر ما سيلاحق ضميرك عندئذ من لعن، وما أغزر ما ستذرفين عندئذ من دموع تخفينها عن أعين الناس، لأنك لست امرأة مثل مارفا بتروفنا على كل حال؟ وما عسى تصير إليه أمنا حينذاك؟ إنها منذ الآن فلقة معدبة، فكيف تكون حالها في المستقبل حين ترى كل شيء رؤية واضحة؟ وأنا؟.. ما الذي تظنينه في إذن؟ إبني لا أريد هذه التضحية يا دونيتاشكا! إبني لا أريدها يا أماه! لا، لن يتم هذا الأمر ما حriet، لن يتم، لن يتم! إبني أرفضه!»

هنا ثاب راسكولنيكوف إلى رشده فجأة، فتوقف عن السير، ثم

«لن يتم هذا الزواج؟ ولكن ما عساك تفعل حتى تحول دونه؟ أتمنعها؟ ولكن بأي حق تمنعها؟ ما الذي تستطيع أن تدعهما به في مقابل ممارسة مثل هذا الحق؟ أن تقف عليهما حياتك كلها ومستقبلك كله متى أنهيت دراستك وووجدت عملاً؟ أغنية معروفة! .. ذلك كله في المستقبل، فماذا في الحاضر؟ يجب عليك إذن أن تعمل شيئاً منذ الآن، هل تفهم؟ فماذا تفعل أنت الآن؟ إنك تعيش عالة عليهمـاـ . والمال الذي تنفقـهـ عليك إنما تفترضـهـ سلفـةـ على معاش التقاعد وعلى أجورـ منـ أمـثالـ السيدـ سـفـيدـ رـيـجاـيلـوفـ ! وكيف عساك تحميـهمـ منـ أمـثالـ سـفـيدـ رـيـجاـيلـوفـ وأمثالـ آـفـانـاسـيـ إـيـفـانـوـفيـشـ فـاخـروـشـينـ؟ أـنتـ ياـ مـلـيـونـيرـ المـسـتـقـبـلـ ، أـنتـ ياـ إـلـهـ الـأـولـمـبـ الـذـيـ تـتـحـكـمـ بـمـصـيرـهـماـ ، أـبـعـدـ عـشـرـ سـنـيـنـ تـفـعـلـ لـهـمـاـ شـيـئـاـ؟ـ ولكنـ أـمـكـ ستـكـونـ بـعـدـ عـشـرـ سـنـيـنـ قـدـ فـقـدـتـ بـصـرـهـاـ منـ فـرـطـ اـنـكـبابـهـاـ عـلـىـ حـيـاـةـ الـمـنـادـيلـ ، وـرـبـماـ منـ فـرـطـ ذـرـفـهـاـ الدـمـوعـ ، وـسـيـكـونـ تـكـرـرـ الصـيـامـ عـنـ الطـعـامـ وـالـحرـمانـ مـنـ الـغـذـاءـ قدـ اـنـتـصـرـ عـلـيـهـاـ فـهـمـ جـسـمـهـاـ! ..ـ أـمـاـ أـخـتـكـ ..ـ فـهـيـاـ تـخـيـلـ قـلـيـلـاـ مـاـ سـتـصـيرـ إـلـيـهـ بـعـدـ عـشـرـ سـنـيـنـ ،ـ هـيـاـ تـخـيـلـ قـلـيـلـاـ مـاـ سـتـؤـولـ إـلـيـهـ حـالـهـاـ بـعـدـ عـشـرـ سـنـيـنـ ،ـ هـلـ تـخـيـلـ؟ـ»

هـكـذاـ،ـ بـهـذـهـ الأـسـئـلـةـ ،ـ إـنـمـاـ كـانـ رـاـسـكـولـيـكـوـفـ يـعـذـبـ نـفـسـهـ ،ـ فـكـانـ الـاهـتـيـاجـ الـذـيـ يـحـسـهـ مـنـ ذـلـكـ يـسـتـحـيـلـ إـلـىـ نـوـعـ مـنـ تـلـذـذـ .ـ عـلـىـ أـنـ هـذـهـ الأـسـئـلـةـ لـيـسـ فـيـهـاـ شـيـءـ غـيـرـ مـتـوقـعـ .ـ إـنـهـاـ غـيـرـ جـدـيـدةـ عـلـيـهـ ،ـ بـلـ هـيـ قـدـيمـةـ جـداـ ،ـ وـهـيـ تـعـذـبـهـ مـنـ زـمـنـ طـوـيـلـ .ـ نـعـمـ ،ـ لـقـدـ كـانـ هـذـهـ الأـسـئـلـةـ تـعـذـبـهـ وـتـرـهـقـهـ وـتـمـزـقـ قـلـبـهـ مـنـ زـمـنـ طـوـيـلـ .ـ لـقـدـ كـانـ هـذـاـ القـلـقـ يـشـبـ فـيـ نـفـسـهـ وـيـنـمـوـ وـيـتـراـكـمـ مـنـ زـمـنـ طـوـيـلـ .ـ وـنـضـجـ هـذـاـ القـلـقـ فـيـ الـآـوـنـةـ الـأـخـيـرـةـ ،ـ وـتـرـكـزـ وـتـكـثـفـ ،ـ فـإـذـاـ هـوـ يـتـخـذـ صـورـةـ سـؤـالـ رـهـيـبـ ،ـ سـؤـالـ وـحـشـيـ عـجـيـبـ ،ـ يـضـنـيـ قـلـبـهـ وـفـكـرـهـ ،ـ وـبـطـلـبـ جـوـابـاـ لـاـ سـبـيلـ إـلـىـ تـحـاشـيـهـ .ـ وـهـاـ هـيـ ذـيـ رـسـالـةـ أـمـهـ تـنـقـضـ عـلـيـهـ فـجـأـةـ كـمـاـ تـنـقـضـ الصـاعـقةـ .ـ أـصـبـحـ وـاـضـحـاـ أـنـ الـوـاجـبـ الـذـيـ يـقـعـ عـلـىـ عـاتـقـهـ الـآنـ لـيـسـ هـوـ أـنـ يـقـلـقـ وـأـنـ يـتـأـلـمـ قـاعـدـاـ لـاـ

يعلم معتقداً أن المسألة لا حل لها، وإنما ينبغي له الآن أن يفعل شيئاً بأقصى سرعة ممكنة، بل وينبغي له الآن أن يفعل شيئاً على الفور. إن من واجبه أن يتخذ قراراً مهما كلف الأمر، أياً كان هذا القرار، أو أن . . .

ثم صاح يقول فجأة بصوت عال وقد خرج عن طوره:

« . . . أو أن أستغني عن الحياة، فأقبل مصيري صاغراً إلى الأبد، وأخنق في نفسي كل شيء، وأننازل عن حقي في أن أعمل، وأن أحيا، وأن أحب! »

وتذكر السؤال الذي ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف: وهل تدرك يا سيدي الكريم ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يذهب إليه؟ ذلك أنه لا بد لكل إنسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب إليه . . . »

وارتعش راسكولنيكوف على حين فجأة. إن فكرة آتية من البارحة هي أيضاً قد ومضت في ذهنه مرة أخرى. ولكن لشن ارتعش، فإنه لم يرتعش لأن هذه الفكرة قد ومضت في ذهنه. لقد كان يعلم، كان يوجس أن هذه الفكرة لا بد أن تعاوده، فكان يتوقعها ويتظارها. غير أن هذه الفكرة ليست الآن ما كانت في البارحة، والفرق بينها وبين فكرة البارحة أنها لم تكن منذ شهر، ولا في البارحة، إلا حلماً، أما الآن . . . أما الآن فهي لا تعرض لفكره في صورة حلم، بل هي تعرض له في صورة جديدة، في صورة رهيبة مخيفة، لا عهد له بها من قبل . . . لقد أدرك ذلك على حين بغته . . . فأخذ الدم يدق في صدغيه، واسود كل شيء أمام عينيه.

ألقى على ما حوله نظرة سريعة. كان يبحث عن شيء ما. كان يريد أن يجلس، فهو يبحث عن دكة يقعد عليها. إنه الآن في بولفار ك. . . وعلى مسافة مائة خطوة في الأمام توجد دكة. اتجه راسكولنيكوف نحو الدكة بأقصى سرعة يستطيعها، غير أن حادثاً صغيراً وقع له أثناء الطريق، فشدَّ انتباهه كله خلال بعض دقائق.

لقد لمح، وهو يبحث بنظره عن الدكة، لمح امرأة كانت تسير أمامه، على بعد عشرين خطوة تقريباً. غير أنه في أول الأمر لم يولها أي انتباه، كما لم ينتبه إلى كل ما كان قد صادفه حتى الآن. لقد اتفق له، مراراً كثيرة، أن رجع إلى منزله دون أن يتذكر الطريق الذي سلكه. تلك عادة أصبحت راسخة فيه. ولكن المرأة التي تسير أمامه الآن فيها شيء يبلغ من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر، إن انتباهه قد تركز عليها شيئاً بعد شيء، رغم إرادته وعلى ما يشبه المضمض في أول الأمر، ثم بقاوة ما تنفك تزداد بعد ذلك. واستبدت به رغبة مفاجئة في أن يعرف ما هو الشيء الذي يبلغ في هذه المرأة ذلك المبلغ كله من الغرابة. وسرعان ما أدرك أنها لا بد أن تكون فتاة في ريعان الشباب. كانت الفتاة، رغم الحر الشديد، تسير حاسرة الرأس بلا مظلة ولا قفازين، مرجحة يديها بحركات غريبة مضحكة. وكانت ترتدي ثوباً صغيراً من حرير خفيف، لبس بشكل غريب أيضاً، غير مزرر تقريباً، وقد انشق من الخلف عند الخصر، وتمزق جزء كبير منه فتهاطل. وكانت تضع حول عنقها العاري منديلاً صغيراً قد لفت مقلوبأ. وكانت الفتاة، فوق ذلك، تمشي مشية مضطربة، فهي تتعرّض وتترنح ذات اليمين وذات الشمال. إن هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر. وقد أدركها لحظة كانت تقترب من الدكة، ولكن الفتاة ما إن وصلت إلى الدكة حتى تهالكت تجلس على أحد طرفيها، وتنقلب رأسها إلى وراء فتسنده إلى ظهرها، وتغمض عينيها وقد ظهر عليها أنها محطمة من فرط التعب. فلما تأملها لم يلبث أن لاحظ أنها ثملة قد أخذ السكر منها كل مأخذ. وكان ظهورها على هذا النحو يبلغ من الغرابة والشذوذ أن راسكولنيكوف تسأله هل تصدقه عيناً. كان أمامه وجه باهش في ميزة الصبا، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً، وقد لا يزيد على خمسة عشر عاماً، دقيق نحيل يحف به شعر أشقر، جميل ولكنه محظون حتى لكانه منتفخ متورم. وكان يبدو أن الفتاة لا تعي شيئاً. لقد وضعت سافاً

فوق ساق، فانكشف من ساقيها ما لا يليق أن ينكشف، وأغلب الظن أنها كانت لا تقاد تدرك أنها في الشارع.

لم يجلس راسكولنيكوف، ولكنه لم يشاً أيضاً أن ينصرف، فبقي واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب. كان البولفار دائماً خالياً، أما الآن بعد الساعة الواحدة بعد الظهر من ذلك اليوم، أثناء ذلك الحر الشديد، فلم يكدر يمر فيه أحد. ومع ذلك فعلى بعد خمس عشرة خطوة، كان قد وقف سيد عند حافة البوليفار يبدو واضحاً أنه يريد هو أيضاً أن يقترب من الفتاة لغاية واضحة. لا شك أنه كان هو أيضاً قد لمحها من بعيد فتبعها. ولكن راسكولنيكوف يضايقه الآن وزعجه. ألقى السيد على راسكولنيكوف نظرات فيها كره وبغض، محاولاً مع ذلك أن لا يلمحها راسكولنيكوف، وأخذ ينتظر، بفارغ صبر، انصراف هذا المتشرد الذي جاء في غير أوانه ليحتل مكانه.

كان الأمر إذن واضحاً. والسيد رجل في نحو الثلاثين من عمره، بدین الجسم، سمين، نضر الوجه، يعلو شفتیه الحمراوین شاریان صغیران، ويرتدی ثیاباً آنیقة كل الأناقة.

غضب راسكولنيكوف غضباً رهيباً، واستبدت به على حين فجأة رغبة جامحة في أن يهين هذا السيد السمين المتألق بطريقة أو بأخرى، فترك الفتاة لحظةً، واقترب من السيد، وصاح يقول وهو يشد قبضتي يديه ضاحكاً مُزبداً، ناقماً عليه:

- هيء! أنت! سفیدریچابلوف! ماذا تريد هنا؟

فسأله الرجل بلهجـة قاسية متعالية متکبرـة وقد قطب حاجبيه وظهرت الدهشـة في وجهـه:

- ما معنى هذا الذي تقول؟

- معناه أغـرب عن وجـهي! هذا معناه! ..

- كيف تجرـف أن تقول هذا الكلام أيـها الوغـد الحقـير؟ قال الرجل ذلك

وشهر سوطه يلوح به . فما كان من راسكولنيكوف إلا أن هجم عليه قابضاً كفيه ، حتى دون أن يقول لنفسه إن هذا السيد السمين يستطيع بسهولة أن يجهز على شخصين مثله . ولكن أحداً قد أمسكه من خلف في تلك اللحظة نفسها إمساكاً قوياً: إنه رجل من رجال الشرطة يتدخل في المشاجرة .

- هيء ! ما بالكما أيها السيدان؟ هلاً امتنعتما عن الاقتتال في الطريق العام؟

ثم قال يسأل راسكولنيكوف بلهجة قاسية بعد أن تفحص أسمائه البالية :

- ماذا تريدين مني؟

تفرس فيه راسكولنيكوف بانتباه . إن للرجل وجه جندي شجاع طيب ، مع شاربين وسالفين قد وخط شعرهما الشيب ، وان له نظرة تفليس تعيناً عن الحس السليم والعقل الراوح .

صرخ راسكولنيكوف يقول وهو يمسك ذراع الشرطي :

- أنت أنت من أحتجاج اليه ! أسمي راسكولنيكوف ... إذا كنت تريدين أن تعرف أسمي . أنا طالب سابق ...

واللتفت يخاطب السيد بقوله :

- هذا ما يمكن أن تعرفه أنت ! ..

ثم عاد يخاطب الشرطي فقال :

- تعال معي ! سأريك شيئاً !

وقاد الشرطي من يده إلى الدكة ، وأخذ يتدفق في الكلام قائلاً له :

- انظر ! إنها سكري تماماً ... كانت مارة في البولفار منذ قليل ... لا يدري أحد من أين خرجت ... ولكن لا يبدو عليها أنها محترفة ... أغلب الظن أنهم أسקרוها في مكان ما ، ثم عثروا بها ، لأول مرة في حياتها ... هل تفهم؟ ثم رموها في الشارع ... انظر إلى ثوبها كيف

تمزق... انظر كيف لبس... أنها لم تلبس ثيابها بنفسها، بل ألبسها أحد ثيابها... ألبستها ثيابها أيدٍ غير خبيرة، ألبستها ثيابها أيدي رجال... ذلك واضح! ثم انظر الآن هناك: انظر إلى ذلك الرجل المتألق الذي أردت أنا أن أضربه منذ لحظة... إبني لا أعرفه... ما رأيته في حياتي قبل اليوم! لكنه لاحظها هو أيضاً في الطريق، فأدرك أنها سكرى، وأنها فاقدة شعورها كله. وهو الآن تحرقه رغبة رهيبة في أن يقترب منها وأن يقودها إلى مكان ما وهي على هذه الحالة... ذلك هو ما يريده حتماً... صدق أنني غير مخطئ... لقد رأيت بنفسي كيف رصدتها وتبعها... ولكن وصولي أفسد عليه خطته، فكان يتضرر أن أنصرف، وما يزال يتضرر أن أنصرف... انظر إليه... لقد ابتعد قليلاً...وها هوذا يقف متظاهراً بانه يلف سيجارة... كيف تفعل حتى لا ندع له أن يستولي عليها؟ ليتنا نستطيع أن نقودها إلى منزلها... ما رأيك؟

سرعان ما أدرك الشرطي الموقف. إن حالة السيد السمين واضحة لا سبيل إلى الشك فيها. بقي أن تُعرف حالة الفتاة. مال الشرطي عليها ليراها من قرب، فارتسمت على قسمات وجهه عاطفة شفقة صادقة.

قال وهو يهز رأسه:

- آه! يا للمسكينة! ما تزال طفلة حقاً لا شك أنهم عبثوا بها!

ثم أضاف يناديها:

- اسمعي يا آنسة! اين تسكنين؟

فتحت الفتاة عينيها المكدودتين الناعستين، وألقت نظرة مشدوهة على الرجلين المزعجين، وأجرت يدها بحركة كأنها تريد أن تطردهما. قال راسكولنيكوف وهو ينبعش جيبيه فيخرج منه عشرين كوبيكاً كانت ما تزال فيه:

- اسمع! خذ هذه النقود، وناد حوذياً، ومره أن يقودها إلى بيتها. ليتنا نستطيع أن نعرف عنوانها! ..

عاد الشرطي يقول وهو يتناول النقود:

- يا آنسة! هيـه! يا آنسة! سأنادي عربة على الفور فأعود بك إلى متزلك بنفسـي! إلى أين يجب أن أقودك؟ قولي! أين تسكنـين؟

فجمجمـت الفتـاة تقول وهي تُجـري يـدها بتـلك الحـركة نفسـها:

- دعـوني وشـأنـي! لا تـشـبـعوا بي!

- آه! ليس هذا بالـمـسـتـحسن يا آنسـة! هذا عـيبـ. هذا عـيبـ حـقاـ.

وهـزـ رأسـهـ من جـديـدـ، مـعـبـرـاـ عن العـتـابـ والـشـفـقـةـ والـاستـنـكـارـ فيـ آـنـ واحدـ، ثـمـ تـابـعـ كـلـامـهـ يـخـاطـبـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ وـهـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ مـرـةـ أـخـرىـ منـ أـخـمـصـ الـقـدـمـينـ إـلـىـ قـمـةـ الرـأـسـ. أـغـلـبـ الـظـنـ أـنـهـ بـدـاـلـهـ غـرـيـباـ أـيـضاـ: يـهـبـ الـمـرـءـ نـقـوـدـاـ ثـمـ هوـ يـرـتـديـ مـثـلـ هـذـهـ الأـسـمـالـ الرـثـةـ الـبـالـيـةـ:

- نـعـمـ. . . العنـوانـ. . . تلكـ هـيـ المـسـأـلـةـ!

وـأـضـافـ يـسـأـلـهـ:

- هلـ التـقـيـتـ بـهـاـ فـيـ مـكـانـ بـعـيدـ عـنـ هـنـاـ؟

- سـبـقـ أـنـ قـلـتـ لـكـ: كـانـتـ تـسـيرـ أـمـامـيـ مـتـرـنـحةـ، هـنـاكـ، فـيـ الـبـولـيفـارـ فـمـاـ إـنـ وـصـلـتـ إـلـىـ الدـكـةـ حـتـىـ تـهـاوـتـ عـلـيـهـاـ!

- آـهـ! مـاـ أـكـثـرـ الـعـارـ الـذـيـ سـقـطـ عـلـىـ الـعـالـمـ يـاـ ربـ! أـطـفـلـةـ وـسـكـرـىـ؟ـ لـاـ شـكـ أـنـهـ قـدـ عـبـثـواـ بـهـاـ! ذـلـكـ وـاضـحـ. . . انـظـرـ إـلـيـ ثـوبـهاـ كـيـفـ تـمزـقـ كـلـ التـمزـقـ. . . هـ. . . إـنـ الدـعـارـةـ تـحـقـقـ تـقـدـمـاـ كـبـيـراـ فـيـ هـذـاـ الزـمـانـ!ـ. . . وـمـنـ يـدـرـيـ؟ـ لـعـلـهـاـ مـنـ أـسـرـةـ طـيـةـ جـارـ عـلـيـهـاـ الـدـهـرـ فـأـصـابـهـ بـالـدـمـارـ. . . أـمـثالـ هـذـهـ الـحـالـاتـ كـثـيـرـةـ فـيـ هـذـهـ الـأـيـامـ. . . إـنـ الـمـرـءـ حـيـنـ يـرـاهـاـ لـطـيـفـةـ هـذـاـ اللـطـفـ كـلـهـ مـرـهـفـةـ هـذـهـ الـرـهـافـةـ كـلـهـاـ، يـمـكـنـ أـنـ يـحـسـبـهـاـ آـنـسـةـ مـنـ أـسـرـةـ رـاقـيـةـ نـبـيلـةـ.

قالـ الشـرـطـيـ ذـلـكـ وـمـالـ عـلـيـهـاـ مـنـ جـديـدـ. لـعـلـ لـهـ هـوـ أـيـضاـ بـنـاتـ «ـتـبـلـغـ منـ الـلـطـفـ وـالـرـهـافـةـ أـنـ الـمـرـءـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـسـبـهـنـ آـنـسـاتـ مـنـ أـسـرـةـ نـبـيلـةـ»ـ،

يصطعنن آداب الفتيات الراقيات ويقللنن فيما يخص الموضة.

قال راسكولنيكوف :

- الأمر الأساسي هو ألا نتركها لهذا اللوغد الدنيء! إن من الممكن أن يلحق بها إيزاءات جديدة. نياته واضحة وضوح النهار! يا للوغد القذر! إنه لا ينصرف.

كان راسكولنيكوف يتكلم بقوة وهو يومئ إلى السيد بإصرار عنيد. سمعه الرجل فأوشك أن يغضب من جديد، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احترام، ثم ابتعد ببطء مسافة عشر خطوات، وتوقف مرة أخرى.

أجاب الشرطي واجماً مفكراً يقول :

- أن لا ندعها له فذلك أمر سهل إذا نحن عرفنا المكان الذي ينبغي أن نقودها إليه، ولكن . . .

قال الشرطي ذلك وما على الفتاة مرة أخرى وأخذ يناديها :

- يا آنسة! هيء يا آنسة!

فتحت الفتاة عندئذ عينيها محمصةً، ونظرت بانتباه كأنما هي فهمت شيئاً ما، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها في الاتجاه الذي كانت آتية منه. وجمجمت تقول وهي تُجري يدها بتلك الحركة نفسها كأنما لتتخلص من الرجلين :

- آه! إنهم لا يتحرجون ولا يفكرون يتسبون.

كانت تمشي بسرعة، ولكنها ترتفع في مشيتها كترتفعها منذ قليل. تبعها السيد الأنيق دون أن يحول بصره عنها، سائراً في الممر الآخر.

وأسرع الشرطي ذو الشاربين الكبيرين يمشي وراءها قائلاً لراسكولنيكوف بلهجة جازمة :

- لا تخف، لن أتركها!

وكرر يقول متنهداً:

- رباء! ما هذا الفسق الذي نراه في هذا الزمان!

في تلك اللحظة نفسها أحس راسكولنيكوف في داخله بما يشبه أن يكون وخزة، فإذا بكل شيء في نفسه ينقلب رأساً على عقب، وإذا هو ينادي الشرطي صائحاً:

- هيه! اسمع!

التفت الشرطي فقال له راسكولنيكوف:

- دعهما! ما شانك أنت! دع الأمور تجري على أعتتها! دع الرجل يتسلى! (وقال ذلك وهو يشير بيده إلى السيد الأنيد). ما شانك أنت وهذا كله؟

لم يفهم الشرطي شيئاً وحملق متعجباً. وأخذ راسكولنيكوف يضحك. قال الشرطي وهو يحرك يده:

- ايه! ايه!

وعاد يلاحق السيد الأنيد الفتاة الصغيرة. أغلب الظن أنه كان يعد راسكولنيكوف مجنوناً أو شرّاً من ذلك.

فلما أصبح راسكولنيكوف وحيداً، دمم يقول في خبث: «أخذ مني أنا عشرين كوبيناً، وسوف يأخذ من السيد الأنيد مبلغاً آخر فيترك له البنية. هكذا ستنتهي الأمور... لماذا أقحمت نفسى فيما لا يعنينى؟ لماذا تدخلت في سبيل أن أحمىها؟ هل على أنا أن أفرض نفسى حامياً؟ هل من حقي أن أحمى أحداً أياً كان؟ إلا فليلتهم بعضهم بعضاً أحياء... ما شأنى أنا وهذا؟ وكيف تجرأت أن أهب تلك الكوبيبكات العشرين؟ أهي ملكي؟»

ورغم هذه الأقوال الغريبة، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلاً ثقيلاً. جلس على الدكة المهجورة وشردت أفكاره... كان يصعب عليه

في تلك اللحظة أن يفكر في أي شيء.

وَذَلِكَ يُغَيِّبُ عَنْهُ وَعِيهِ... وَذَلِكَ يُنْسِي كُلَّ شَيْءٍ فَمَا يُشَعِّرُ بِشَيْءٍ...  
ثُمَّ يُسْتَيقِظُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيُسْتَأْنِفُ حَيَاةً جَدِيدَةً...

قال وهو ينظر إلى طرف الدكة الذي أصبح الآن خالياً:

ـ يا للصغيرة المسكينة! سوف تصحو فتبكي، وسوف تعلم أنها بكل شيء... فتضربها أولاً، ثم تجلدها جلداً أليماً فيه أبلغ الإذلال وأعمق الإهانة... وقد تطردها من البيت... وهبها لم تطردها، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمثال داريا فارنتسوفنا... وستأخذ الفتاة تجري هنا وهناك، ستأخذ تدرج من هنا إلى هناك... ثم سرعان ما تُنقل إلى المستشفى (تلك دائمًا حال البنات اللواتي يعشن مع أمهات شريفات جداً ويتخاطلين الفحش خفية)... ثم تُنقل إلى المستشفى من جديد... شراب وحانات ثم المستشفى دائمًا... وما أن تنقضي ستان أو ثلاث حتى تصبح حطاماً... ما أن تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهي!... ألم أرأفتيات كثيرات في مثل حالتها؟ كيف كن يصلن إلى ذلك المصير؟ بهذه الطريقة نفسها! آه... لا ضير! يقال إن الأمور يجب أن تجري هذا المجرى... يقال إن هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضخَّم بها كل عام<sup>(34)</sup>... للشيطان في أغلبظن... وذلك في سبيل ضمانة راحة الآخريات... نسبة مئوية! إن لهم تعبيرات فيها كثير من الجمال حقاً... وهي فوق ذلك تعبيرات مطمئنة جداً، علمية جداً! ما داموا يتحدثون عن نسبة مئوية، فلا داعي إلى أن يصدع المرء رأسه... آه... لو قد استعملوا كلمة أخرى، فمن الجائز... عندي... أن يكون الأمر أدعى إلى القلق... هكذا!... وماذا لو كان على دونيا أن تدخل في النسبة المئوية، بطريقة أو بأخرى... فإن لم تدخل في هذه النسبة دخلت في تلك على الأقل؟

وتساءل راسكولنيكوف فجأة: «ولكن إلى أين أنا ذاهب؟ ألا إنه لأمر

غريب! لقد كان لي هدف حين خرجمت إلى الشارع... فما أن فرغت من قراءة الرسالة حتى خرجمت إلى الشارع... نزلت أريد الذهاب إلى عند رازوميixin، في جزيرة فاسيلفسكي... نعم، ذلك هو المكان الذي كنت ذاهباً إليه... الآن تذكرت. ولكن لماذا أذهب إلى رازوميixin؟ لماذا خطر ببالي أن أذهب إلى رازوميixin لا إلى غيره، في تلك اللحظة لا في غيرها؟ شيء عجيب!

دهش هو نفسه من قراراته. إن رازوميixin هو أحد رفقاء القدامي في الجامعة. الغريب أن راسكولنيكوف، في أيام الدراسة بالجامعة، لم يكن له أصدقاء تقريباً، وكان لا يعاشر أحداً من زملائه، لا يزور أحداً منهم ولا يستقبل أحداً. ثم إن جميع رفقاء كانوا قد تحولوا عنه بسرعة. كان لا يشارك لا في الاجتماعات، ولا في المناقشات، ولا في المتع والمباهج، ولا في أي شيء آخر. وكان يعمل بجد واجتهاد، دون أن يراعي نفسه، وبذلك استطاع أن يحصل على احترام جميع رفقاء. ومع ذلك لم يكن يحبه أحد منهم. وكان راسكولنيكوف فقيراً كل الفقر وأبياً، ولكن في إبائه شيء من التغطرس، وكان مبتعداً قليلاً الكلام، حتى لكانه كان يريد أن يخفي شيئاً في نفسه. وقد رأى بعض رفقاء أنه ينظر إليهم من علو، كما ينظر المرء إلى الأطفال تقريباً، وكما لو كان يفوقهم ذكاء ونضجاً وثقافة ورأياً أو أنه يعتقد أن اقتناعاتهم واهتماماتهم دون مستوى كثيراً.

ومع ذلك ربطته صداقةً برفيقه رازوميixin، مهما يكن سبب هذه الصداقة. على الأقل، كان مع رازوميixin أقل امتناعاً عن الكلام، وأكثر صراحةً مما كان كذلك مع أي رفيق آخر. وكان من المستحيل على كل حال أن يتصرف المرء مع رازوميixin غير هذا التصرف. كان رازوميixin فتى شديد المرح حلو المعاشرة، وكان عدا ذلك طيب القلب إلى حد السذاجة، ولكنها سذاجة تخفي وراءها عمقاً صادقاً وكرامة لاسبيل إلى جهودها، وكان خير رفقاء يعترفون له بذلك

ويحبونه. ولم يكن رازوميixin بالغبي، رغم أنه كان يبدو في بعض الأحيان بسيطاً بعض البساطة. وكان مظهره يخطف الانتباه: كان طويلاً، نحيلًا، أسود الشعر، قليل العناية بحلاقته دائمًا. وكان يتفق له أن يحدث شغباً، وكان يُعد أشبه بهرقل، بعض الشيء. ففي ذات ليلة، أثناء جولة مع رفقاء، جندل بصرية واحدة رجلاً من رجال الشرطة طوله مترين تقريباً. وكان يستطيع أن يشرب من دون اعتدال، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة. وكان في بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد التي تتجاوز كل الحدود، ولكنه كان يعرف كيف يحمي نفسه. وكان رازوميixin يتصرف أيضاً بهذه الصفة البارزة: ما من خيبة يمكن أن تثبط عزيمته وتفل شجاعته قط، وما من ظرف سيء من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيار. وكان يستطيع أن يسكن في أي مكان، ولو تحت السقوف، وأن يتحمل آلام الجوع وأهوال البرد. كان فقيراً جداً، فكان ينفق على نفسه بنفسه، حاصلاً على المال من تعاطي شتى أنواع الأعمال الصغيرة. كان يعرف كيف يدبر أمره ويفي بحاجاته، على شرط أن يعمل طبعاً... وقد اتفق له أن قضى شتاء بكامله دون أن يدفع غرفته، حتى لقد أكد أن لعدم التدفئة فوائد ومزايا، لأن المرء ينام في الجو البارد نوماً أفضل. وقد اضطر رازوميixin، في ذلك الأول، أن يترك الجامعة هو أيضاً... ولكن إلى حين، فيما كان يعتقد. فكان يحاول، بكل ما يملك من قوة، أن يصلح الحال بغية أن يستطيع مواصلة دراسته. إن راسكولنيكوف لم يذهب إليه منذ أربعة أشهر. وكان رازوميixin يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف. مرة واحدة، منذ شهرين، التقى في الشارع مصادفةً، ولكن راسكولنيكوف أشاح بوجهه، حتى لقد انتقل إلى الرصيف المقابل من أجل أن لا يُرى. أما رازوميixin فإنه مضى في طريقه رغم أنه لمع راسكولنيكوف، وذلك لأنه لا يريد أن يزعج صديقه.

**قال**

## **الفصل الخامس**

راسكولنيكوف يحدث نفسه: «فعلاً، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميخين أن يجد لي عملاً، أن أعطي دروساً، أو أي شيء آخر... ولكن فيم يمكن أن يفديني الآن؟» هبه وجد لي دروساً، بل هبه قاسمني آخر كوبيك معه، فإذا كان ما يزال يملك كوبيكاً، بحيث أستطيع أن أشتري حذاء، وأن أصلاح ملابسي، فأتمكن من إعطاء دروس... هم... عظيم... ولكن ماذا بعد ذلك؟ ما عسانى صانعاً بقروش قليلة؟ لهذا ما أنا في حاجة إليه الآن؟ حقاً إنها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب إلى رازوميخين...»

لماذا يذهب الآن إلى رازوميخين؟ ذلك سؤال أصبح يقلقه كثيراً. كان يتساءل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبي الشرير الذي يكمن وراء هذه الخطوة التي أراد القيام بها، والتي تبدو مع ذلك بسيطة عادية تافهة!..

«هل يمكن حقاً أن لا أكون قد أردت إلا أن أدير جميع الأمور وأرتب جميع الأشياء بفضل رازوميخين وحده، وأن لا أكون قد اهتديت إلى حل إلا الاستعانة برازوميخين؟» كذلك كان يتساءل مدهشاً.

وكان يفكر ويفكر، ويحلّق جبينه، فإذا بفكرة غريبة تومض في ذهنه فجأة، بما يشبه المصادفة. أمر عجيب! قال بغتةً بلهجة هادئة كل

الهدوء، كأنما هو قد اتخذ في تلك اللحظة قراراً حاسماً: «هم... إلى رازوميخين! نعم، سأذهب إلى رازوميخين حتماً... ولكنني لن أذهب إليه الآن... وإنما أذهب في يوم آخر، بعد أن أكون قد أتممت القيام بذلك الأمر، بعد أن يكون ذلك الأمر، قد انتهى، بعد أن يبدأ كل شيء على أساس جديدة...»

ثم ثاب إلى رشده على حين فجأة، فقال صائحاً: «بعد أن يكون ذلك الأمر قد انتهى؟ ولكن هل سيتحقق ذلك الأمر؟ هل من الممكن أن يتحقق ذلك الأمر؟»

وانصرف مسرعاً كأنه يركض ركضاً. وذا لو يعود أدراجه، ويرجع إلى مسكنه، ولكنه حين تصور نفسه راجعاً إلى البيت، شعر بنفور شديد: فهناك، في ذلك المكان نفسه، في ركته ذاك، في تلك الحجرة الكريهة الرهيبة، إنما نضجت فكرة ذلك الأمر، منذ أكثر من شهر. ومضى راسكونيكوف يمشي قدمًا على غير هدى.

لقد تحول اضطرابه العصبي إلى ارتعاشات حمى، حتى لقد أحس أنه يرتجف من البرد. أنه يشعر ببرد أثناء ذلك القيظ الشديد. وأخذ يتفحص جميع الأشياء التي يلقاها في طريقه، باذلاً في ذلك جهداً كبيراً، ولكن على غير شعور منه تقريباً، مدفوعاً إلى هذا بضرورة داخلية. لكانه يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو، ولكن سعيه هذا إلى السلوى لم ينجح كثيراً، فهو ما يلبث في كل لحظة أن يعود إلى الاسترسال في أحلامه، فإذا هزته رعشة جديدة فرفع رأسه ونظر فيما حوله، نسي على الفور ما كان يفكر فيه، بل ونسي الطريق الذي كان قد سلكه. على هذا النحو إنما قطع جزيرة فاسيليفسكي كلها، ووصل إلى نهر «نيفا الصغير»، فعبر الجسر واستدار إلى جهة الجُزُر<sup>(35)</sup>. إن الخضراء وطراوة الهواء قد أراحتا في أول الأمر عينيه المكدودتين اللتين ألفتا غبار المدينة، والكلس، والمباني الضخمة المرهقة. هنا لا

اختناق، ولا عفونة، ولا خمارات. ولكن هذه الإحساسات الجديدة الممتعة سرعان ما صارت هي أيضاً مرضية تثير الأعصاب. كان في بعض الأحيان يقف أمام دار صيفية غارقة في الخضراء فينظر من خلال السجاج، فيرى من بعيد، على الشرفات، نساء ترتدي أجمل الحلل، ويرى أولاداً تركض. وكانت الأزهار تجذبه خاصة، فكان يتلمس أمامها ويأخذ يتأملها. وكان يلتقي بين الفينة والفينية بعربات أنيقة ويبصر رجالاً يمتنعون صهوات الخيول ونساء على ظهور الأفراس، فكان يتبعهم بنظراته، ولكنه ما يلبث أن ينساهم حتى قبل أن يغيبوا. وفي ذات مرة توقف ليعدّ نقوده، فعرف أنه لم يكن قد بقي معه إلا نحو ثلاثين كوبি�كاً. قال لنفسه: «أعطيت الشرطي عشرين كوبيكًا، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة كوبيكات مكافأةً لها على أنها جاءتني برسالة أمي، معنى ذلك إذن أنني أعطيت بالأمس أسرة مارميلاروف سبعة وأربعين أو خمسين». لا شك أن هناك سبباً يدفعه إلى أن يحصي ما معه من نقود على هذا النحو، ولكنه سرعان ما نسي هذا الأمر، حتى لقد نسي لماذا ولأي سبب أخرج النقود وعدتها. ثم تذكر النقود حين مرّ أمام مطعم رخيص. لقد أحسّ عندئذ أنه جائع. دخل المطعم، فشرب قدحاً من الفودكا، وأخذ فطيرة محسوسة، فبدأ أكلها في المطعم ثم أنهى في الشارع. إنه لم يشرب فودكا منذ زمن بعيد جداً. لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم يشرب إلا كأساً صغيرة. تراحت ساقاه وثقلتا على حین فجأة، وأحس برغبة قوية في النوم. فعاد يتوجه نحو بيته، ولكنه ما إن وصل إلى جزيرة بتروفسكي حتى توقف خائر القوى تماماً، فترك الطريق، ودخل في الأدغال وتهاوى على العشب، وسرعان ما نام.

في حالات المرض، تتميز الأحلام في أحيان كثيرة ببروز قوي وشدة خارقة، وتتميز كذلك بتشابه كبير مع الواقع. قد يكون مجموع اللوحة عجيبة شاداً، ولكن الجو ومجمل تسلسل التصور يكونان في الوقت نفسه على درجة عالية من المعقولية، ويستملان على تفاصيل مرهفة

جداً، تفاصيل غير متوقعة، تبلغ من حسن المساهمة في كمال المجموع أن العالم لا يستطيع أن يتذكرها في حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو تورجنيف. وهذه الأحلام، أعني الأحلams المرضية، تختلف دائماً باقية، وتحدث أثراً قوياً في الجسم المضطرب المهتز المختل.

كان حلماً مربعاً، ذلك الحلم الذي رأه راسكولنيكوف. لقد حلم بطفولته، هناك، في مدینتهم الصغيرة. ان عمره سبع سنين. وها هو ذا، في يوم عيد، يتنزه في المساء مع أبيه في ظاهر المدينة. الجو داكن، والهواء خانق، والمکان هو المکان الذي انطبع ذكراه في خياله تماماً، ولكنـه يبدو في الحلم أشد وضوحاً وأكثر تميزاً مما هو في الذاكرة. المدينة الصغيرة تمتد مکشوفة لأنـها مبسوطة على راحة الكف، فليست تُرى حوالـيها حتى صفصافة بيضاء واحدة، وفي مکان ما، مکان بعيد جداً، عند آخر الأفق، تلوح بقعة سوداء هي غابة صغيرة. وعلى مسافة بضع خطوات من آخر بستان من بساتين الخضار التي تحيط بالمدينة، توجد حانة كبيرة كانت دائماً تحدث في نفسه أثراً أليماً، حتى لتخيفه حين يمر بها متـنـزاً مع أبيه. كان في هذه الحانة دائماً جمهور كبير، وصيحات وضـحـك مجلجلـ، والنـاس يتـشـاتـمـون هناكـ، ويـغـنـونـ بأصـواتـ جـشـاءـ أغـانـيـ قـبـحـةـ بـذـيـةـ، وـهمـ خـاصـةـ يـتـشـاجـرـونـ ويـقـتـلـونـ فيـ كـثـيرـ منـ الأـحـيـانـ، وـحـولـ الحـانـةـ يـتـجـولـ دائمـاًـ أـفـرـادـ مـخـمـورـونـ لـهـمـ وجـوهـ مـرـبـعـةـ، ماـ إـنـ يـصادـفـهـ الطـفـلـ فيـ طـرـيقـهـ حتـىـ يـلـتـصـقـ بـأـبـيهـ وـيـشـدـ جـسـمـهـ إـلـيـهـ وـقدـ أـخـذـتـ أـعـضـاؤـهـ كـلـهـاـ تـرـتـعـشـ...ـ وـفيـ مـکـانـ غـيرـ بـعـيدـ عنـ الحـانـةـ تـوـجـدـ طـرـيقـ تـرـايـةـ كـثـيرـ الغـبارـ الأـسـودـ، تـسـتـمـرـ مـتـرـعـجـةـ مـتـلـوـيـةـ، وـتـنـعـطـفـ يـمـنـةـ بـعـدـ ثـلـاثـمـائـةـ مـتـرـ فـتـحـيـطـ بـمـقـبـرـةـ المـدـيـنـةـ. وـفـيـ وـسـطـ المـقـبـرـةـ تـنـتـصـبـ كـنـیـسـةـ مـبـنـیـةـ بـالـحـجـرـ، لـهـاـ قـبـةـ خـضـرـاءـ، كـانـ الطـفـلـ يـذـهـبـ إـلـيـهـ للـصـلاـةـ مـعـ أـبـيهـ وـأـمـهـ مـرـةـ أوـ مـرـتـيـنـ فـيـ السـنـةـ، وـذـلـكـ حـينـ إـقـامـةـ قدـاسـ عـلـىـ روـحـ جـدـتـهـ التـيـ مـاتـتـ مـنـذـ مـدـةـ بـعـيدـةـ وـلـمـ يـعـرـفـهـاـ فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ. وـكـانـواـ فـيـ تـلـكـ الـمـنـاسـبـ يـحـمـلـونـ الـحـلـوـيـ التـقـلـيـدـيـ عـلـىـ طـبـقـ أـبـيـضـ مـلـفـوـفـ

بمنشفة: إنها حلوى من الرز والزبيب المجفف المغروس في الرز على شكل صليب. كان الصبي يحب تلك الكنيسة، ويحب أيقوناتها التي يخلو أكثرها من الأطر، ويحب أيضاً ذلك الكاهن الشيخ الذي كان يرتعش رأسه. وإلى جانب قبر جدته الذي تغطيه بلاطة كبيرة، كان يوجد قبر أخيه الأصغر الذي مات في الشهر السادس من عمره والذي لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع إذن أن يتذكره، غير أن أهله قد ذكروا له أنه كان له أخ صغير، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه إشارة الصليب في كثير من التقى والخشوع، وينحنى أمام القبر ويقبله. وإليكم الآن الحلم الذي رأه: رأى نفسه يسير مع أبيه في الطريق المؤدية إلى المقبرة، فيمران أمام الحانة. إنه ممسك أباه من يده، ينظر إلى الحانة مذعوراً. إن هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه! لكان ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل به الناس: إنهم عدد كبير من أهل المدينة بملابس العيد، وفلاحات مع أزواجهن، وخليط كبير من البشر. هم جميعاً سكارى وهم جميعاً يغنون، وأمام باب الحانة تُرابط عربة، ولكنها عربة عجيبة غريبة هي عربة من تلك العربات الكبيرة التي تجرها في العادة خيول ضخمة قوية، والتي تنقل أنواعاً كثيرة من البضائع ويراميل الخمرة. كان الصبي دائماً ينظر بكثير من اللذة والمسرة إلى تلك الخيول الضخمة ذات الأعراف الطويلة والسيقان القوية، التي تسير بخطى هادئة موزونة جازة وراءها حملأً كأنه الجبل ضخامة، دون أن يبدو عليها أنها تشعر بوجود هذا الحمل، حتى لكان الحمل يجعل سيرها أسهل وأيسر. أما الآن فإن الشيء الغريب هو أن هذه العربة الكبيرة قد فُرنست بها فرس ضعيفة واهنة هزيلة شبيهة بتلك الأفراس التي كثيراً ما رأها تضنى بجر حمل كبير من الخشب أو العلف على طرق متحففة موحلة تغوص فيها عجلاتها إلى المحاور، ويضررها الفلاحون بسياطفهم على وجهها ضرباً قوياً مبرحاً. لقد كان قلبه ينقبض انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من الشقاء، حتى ليكاد يبكي حزناً وألماً. وكانت أمه

تضطر عندي إلى إقصائه عن النافذة. وها هي ذي جلبة كبيرة تعلو: إن عدداً من الفلاحين الأقواء السكارى يخرجون من الحانة صارخين، مغترين، عازفين على الباللايكا، مرتدية قمصاناً حمراء وزرقاء، واضعين أرديتهم على أكتافهم. وهذا واحد منهم، وهو رجل ما يزال في شرخ الشباب سميك الرقية، سمين الوجه، أحمر اللون كجزرة، يصرخ قائلاً لهم: «اركبوا، اركبوا جميعاً! سأنقل الجميع، هيا اصعدوا!» فسرعان ما تجيئه قهقهات وصيحات تقول:

- أبغرس ضعيفة كهذه الفرس تقودنا جميعاً؟

- هه! ماذا دهاك يا ميكولكا؟<sup>(36)</sup> أنقرن دابة صغيرة هذا الصغر بعرة ضخمة هذه الضخامة؟

- يميأ إن الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخي!

- اجلسوا! سأنقل جميع الناس!

كذلك صرخ يقول ميكولكا من جديد، وهو يشب إلى العربة أول الواثبين، فيمسك بزمام الفرس، وينتصب في الأمام بقامته كلها، ثم يردد قائلاً وهو في العربية:

- لقد سافر الكمييت منذ هنيهة مع ماتفي. وهذه الفرس يا إخوتي تغيظني كثيراً، وتحطم قلبي تحطيمياً. إنني مستعد لأن أقتلها. إنها لا تستحق ما تأكله من العلف. أقول لكم: اركبوا! اجلسوا! سأجعلها تعود ولسوف تعود!

وأنمسك بسوطه وهو يتلذذ سلفاً بالمتعة التي سيذوقها حين يأخذ يضربها.

قال بعضهم ضاحكاً:

- طيب! اصعدوا ألم تسمعوا؟ سوف تعود الفرس.

- أنها لم تعرف العدو منذ عشر سنين!

- لسوف تعددوا!

- لا تأخذنكم شفقة أيها الأخوة! فليتناول كل منكم سوطاً ولتهيا!

- هيا بنا! هلموا! اضرموا!

ركب الجميع عربة ميكولكا مقهقحين مازحين. ركب ستة رجال وما يزال في المكان متسع. أرَكُبُوا معهم امرأة سمينة حمراء الوجه. إنها ترتدي فستانًا من قماش أحمر، وتنتعل حذاءين ساقاهما طويتان، وتضع على رأسها قلنسوة مزданة بخرزات زجاجية، والجمهور من حولها يضحك كذلك. وكيف لا يضحكون؟ كيف تستطيع فرس ضعيفة ضامرة هزيلة أن تجر مثل هذا الحمل عَدْوا؟ وسرعان ما تناول صبيان في العربة سوطين لمساعدة ميكولكا. ودَوَت في الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير. أخذت الفرس تبذل كل ما تستطيع من جهد لتسير. ولكن أتى لها أن تundo. إنها لا تكاد تقوى على التحرك من مكانها. فهي تراوح وتشن وتنوء تحت ضربات سياط ثلاثة تهوي عليها. تضاعفت الضحكات في العربة وفي الجمهور. ولكن ميكولكا غضب. وهذا هو ذات من شدة حنقه وغيظه يجعل الفرس بمزيد من القوة كأنما هو يعتقد حقاً بأن في وسع دابته أن تجري عَدْوا.

صاحب شاب من بين الجمهور وقد فتنه هذا المشهد:

- هل تسمحون لي بأن أجيء معكم؟

فصرخ ميكولكا يجبيه بقوله:

- اركب! اركبوا جميعاً! سوف تحملنا جميعاً. سوف أجعل الفرس تundo!

وأخذ يضرب ويضرب وقد استبد به حنق بلغ من الشدة أنه لم يلبث أن أصبح لا يعرف بماذا يضرب.

صاحب الطفل يسأل أبياه:

- أبٍ! أبٍ! ماذا يفعلون؟ أبٍ! لماذا يضرّون الفرس المسكينة؟  
قال الأب:

- تعال، تعال، إنهم سكارى يرتكبون حماقات. تعال! لا تنظر  
إليهم.

وأراد الأب أن يقتاد ابنه، ولكن الطفل أفلت من يديه، ثم لم يطق  
صبراً فركض نحو الفرس الشقية. كانت الفرس المسكينة قد ساءت  
حالها وخارت قواها. إنها تلهث وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ما  
تستطيع بذله من جهد لتجز العربة، فترنج وتکاد تسقط.

صرخ ميكولكا يقول:

- اجلدوها إلى أن تفطس ما دام الأمر هكذا. سأضرّيها حتى  
الموت.

هف شيخ من بين الجمهور يسأل:

- ما هذا؟ أنت مسيحي؟ يا لك من متواحش!

وأضاف آخر يقول:

- هل رأى أحد في حياته دابة هزيلة كهذه الدابة تجز حملًا ثقيلاً  
 بهذه الحمل؟

وصاح ثالث يقول:

- سوف تقتل الدابة أخيراً!

قال ميكولكا:

- ما دخلك أنت؟ الدابة دابتني! ما أريده أفعله! اركبوا جميعاً! أريد  
حتى أن تجري الفرس عدواً.

وفجأة، انفجر ضحك عريض غطى كل شيء. لم تستطع الفرس أن  
تحتمل الضربات المتكررة، فإذا هي تأخذ ترفس وتلبط. حتى الشيخ  
نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم. حقاً إن هنالك ما يبعث على

**الضحك**: كيف ترفس وتلبط فرس ضعيفة هزيلة، لا تكاد تقوى على الوقوف، كهذه الفرس!

**خرج من الجمهور شابان فتناولوا سوطين، وركضا نحو الفرس ليجلداها من الجهتين.**

**صاحب ميكولكا:**

- على الخطم، على العينين، على العينين!

وهنف أحد ركاب العربية:

- أغنية أيها الأخيرة!

**فأخذ الجميع في العربية يغنوون بصوت واحد.** هي أغنية مسحورة تصاحبها الحناجر، وتصاحبها قرعات طبل، ويتخللها صفير عند تكرر اللازمة. والمرأة السميّة تقضم البن دق وتنفجر ضاحكة.

... ركض الطفل إلى جانب الحصان، وأسرع إلى أمام.رأى كيف كانت الدابة تُجلد على عينيها، على عينيها تماماً! .. فأخذ يبكي. انقبض قلبه وسالت دموعه. لامس واحد من الضاربين وجهه بسوط. ولكنه لم يشعر بشيء. لوى يديه ألمًا. صرخ. اندفع نحو الشيخ ذي اللحية الشبياء الذي كان يهز رأسه مستنكراً هذا كله. امسكت يده فلاحة، وأرادت أن تبعده. لكنه تملص منها، وركض نحو الفرس من جديد. لقد أنهارت قوى الفرس، ومع ذلك حاولت أن ترفس وأن تلبط مرة أخرى.

**صاحب ميكولكا** يقول وقد استولى عليه حنق شديد:

- شيطان يأخذك!

ورمى سوطه، وانحنى إلى تحت، فتناول من قاع العربية خشبة طويلة ثقيلة، فقبض على طرفها بيديه، وأشهرها فوق ظهر الفرس بجهد. صاح بعضهم:

- سوف يقتل الفرس!

- سوف يهشمها!

صرخ ميكولكا:

- هي ملكي، ولا شأن لأحد بها!

وهوى بالخشبة على الفرس بكل ما أوتي من قوة، فدوى في الجو صوت أصم.

صرخ بعضهم:

- اجلدوا الفرس! اجلدواها! مالكم توقفتم عن جلدتها؟ فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيداً من الاشتعال، وهوى على ظهر الفرس المسكينة بضربة قوية جديدة. تهاوت الفرس عند مؤخرتها، ولكنها ما لبثت أن انتصبت، وحاولت أن تجر بكل ما تملك من قوة. أخذت تجر في كل اتجاه من الاتجاهات عسى أن تتحرك العربة. غير أن ستة سياط هاجمتها من جميع الجهات، وارتفعت الخشبة من جديد فهوت عليها بضربة ثالثة ثم بضربة رابعة، وتالت الضربات قوية مطردة. لقد اشتد حنق ميكولكا لأنه لم يقتل الفرس بضربة واحدة.

صرخ بعضهم:

- عمرها طويلاً!

فصاح واحد في الجمهور:

- لم يعد عمرها طويلاً أيها الأخوة! نهايتها قريبة!

وصرخ ثالث:

- فلتُضرب بفأس! فلتنته منها دفعة واحدة!

صرخ ميكولكا مهتاجاً:

- فلتذهبوا إلى الشيطان! أبعدوا!

ورمى الخشبة، ثم انحنى مرة أخرى إلى تحت، فتناول من قاع العربية قضيباً من حديد، وصرخ يقول مخاطباً الناس:

- احترسوا! ثم هوى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة بكل ما أوتي من قوة، فترنحت الدابة من شدة الضربة، وتهالكت، وحاولت أن تجرّ العربية مرة أخرى، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من جديد، فسقطت على الأرض كأن قوائمها الأربع قد قطعت قطعاً!

صاحب ميكولكا يقول:

- اجهزوا عليها!

ووثب من العربية إلى الأرض كمن فقد السيطرة على نفسه. وها هم هؤلاء فتيان حمر سكارى يمسكون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصى أو أخشاب، وبهرون نحو الفرس المتحضرة. وقف ميكولكا إلى جانب الدابة، وأخذ يضربها بقضيب الحديد على ظهرها. فمدّت الفرس خطمها، وزفرت زفراً عميقاً، وماتت.

صاحب الجمهور يقول:

- لقد أجهز عليها!

- لماذا لم تشاً أن تعدو؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم، ممسكاً بقضيب الحديد بيديه:

- هي ملكي!

وكان واقفاً منتسب القامة كأنه يأسف على أنه أصبح لا يعرف من يضرب!

هتفت عدة أصوات في الجمهور تقول:

- يبدو أنك لست مسيحيًا!

ولكن الطفل المسكين أصبح لا يسيطر على نفسه، وها هو ذا يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخًا شديداً، حتى إذا وصل إلى الدابة أحاط بذراعيه خطمها الدامي، وأخذ يقبلها على عينيها وعلى

شفتيها... ثم اجتاحه حنق قوي، فنهض واثباً وهجم على ميكولكا شاداً على قبضته الصغيرتين. ولكن أبواه الذي كان يلاحقه منذ مدة، أدركه في تلك اللحظة، فأمسك به، وحمله بين ذراعيه إلى خارج دائرة الجمهور قائلاً له:

- هيا! فلنعد إلى البيت.

دمدم الطفل يقول بين شهقتين سائلاً أبواه:

- أبى... لماذا... الحصان المسكين... فعلوا به؟...

ولكن أنفاسه تقطعت، وكانت الكلمات تتدفق من صدره المختنق مع صرخات!

قال الأب:

- هم سكارى يرتكبون حماقات. ليس هذا شأننا. لنذهب! أحاط الطفل أبواه بذراعيه، ولكن كان صدره ما يزال مختنقاً... ما يزال مختنقاً اختناقًا شديداً... وحاول الطفل أن يسترد أنفاسه، ويطلق صرخة قوية... واستيقظ راسكولينيكوف من النوم...

استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضل الشعر لاهثاً. ونهض مذعوراً.

قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس مليء رئتيه:

- الحمد لله على أن هذا لم يكن إلا حلمًا! ولكن ماذا حدث؟ أيكون هذا بداية حمى؟ يا للحلم الرهيب! كان جسمه كالمحطم، وفي نفسه ظلمات واضطراب وابهام. وضع كوعيه على ركبتيه وتناول رأسه بيديه، وهتف يقول مخاطباً نفسه:

- رباه! هل من الممكن، هل من الممكن حقاً أن أتناول فأساً فأضرب بها رأسها وأحطم ججمتها؟... أغرق في الدم اللزج الدافئ... اكسر القفل... أسرق... أرتعش... اختبئ ملطخاً بالدم... حاملاً فأساً بيدي!... رباه، لهذا ممکن؟

وكان راسكولنيكوف يرتعش كورقة في مهب الريح حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام. لكنه تابع يقول محدثاً نفسه لأنما قد استبد به خور عميق وهو مطرق الرأس :

ولكن ماذا دهاني؟ لقد كنت أعلم حق العلم أنني لن أطيق ذلك، فلماذا عذبت نفسى هذا التعذيب كله حتى الآن؟ بالأمس، بالأمس... حين مضيت إليها، لأنترن على فعلتي، أدركت حق الأدراك أنني لن أطيق ذلك... فلماذا أعود إلى الأمر الآن؟ بالأمس، حين كنت أهبط السلم، قلت لنفسي إنها فعلة حقيرة، دنيئة، خسيسة، خسيسة جداً... كان يكفي أن تساورني تلك الفكرة حتى ينقبض صدري وحتىأشعر بذعر شديد...

لا، لن أطيق هذا الفعل، لن أطيقه، ولو كانت حساباتي كلها صحيحة، ولو كان ما عزّمت عليه في هذا الشهر واضحًا وضوح النهار دقيقاً دقة الرياضيات... رياه! فإنني لن أقدم عليه مع ذلك، لن أطيقه، لن أطيقه... فما بالي حتى الآن...

نهض راسكولنيكوف، ونظر حواليه ذاهلاً. كان يبدو عليه أنه مندهش من وجوده في هذا المكان. واتجه نحو جسر «ت...». كان شاحب الوجه، وكانت عيناه تحترقان، وكان يشعر بالتعب في جميع أعضائه، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفساً حراً طليقاً على حين فجأة. شعر أنه أزاح الحمل الرهيب الذي كان يسحقه منذ مدة طويلة، فتحففت نفسه واطمأنت روحه، وعادت إليه السكينة بغية. قال يدعوه الله مبتهلاً: «أرنى طريقى يا رب فأعدل عن تلك... الفكرة اللعينة!»

وفيمَا كان يعبر الجسر، نظر هادئاً إلى نهر نيفا، والى حمرة الشمس الغاربة. فإذا هو، رغم ضعفه، قد أصبح لا يحس بالتعب. فكأن الدمل الذي نضج في قلبه خلال شهر بأكمله قد انفقاً الآن على حين فجأة. الحرية! الحرية! لقد تخلص الآن من السحر، تحرر من الرقية، انطلق من الفتنة.

في المستقبل، حين سيتذكر راسكولنيكوف هذه الفترة، وحين سيستعرض كل ما وقع له في تلك الأيام دقيقة دقيقة نقطة نقطة، فإن ظرفاً معيناً سيظل يجذب انتباهه، ويأسر اهتمامه، ويكتسب في نظره معنى خرافياً. أن ذلك الظرف رغم أنه لا يشتمل في ذاته على أي شيء خارق، سيصبح في نظر راسكولنيكوف في المستقبل نوعاً من نبوءة تصور مصيره وتحدد قدره. إليكم الأمر: لم يستطع راسكولنيكوف أن يعلل لنفسه قطّ لماذا عاد أدرجه إلى بيته في ذلك اليوم عبر «سوق العلف» دون أي سبب يحضنه على الذهاب إلى هناك، ورغم أنه، هو المتعب المكدود المرهق المشعث، كان في حاجة إلى أن يسلك للعودة إلى بيته أقصر طريق بلا تعرج ولا التواء. صحيح أن الدورة التي دارها لم تكن طويلة، ولكن من الواضح أنه لا داعي إليها ولا فائدة منها البتة. وصحيح أنه اتفق له عشرات المرات أن رجع إلى مسكنه دون أن يتذكر الشوارع التي سلكها. ولكن راسكولنيكوف ظل يتساءل دائماً: لماذا وقع له ذلك اللقاء في ميدان «سوق العلف» (الذي لم يكن هناك أي داع يحضره على الذهاب إليه) لماذا وقع له ذلك اللقاء الذي يبلغ ذلك المبلغ كله من خطورة الشأن والذي كان له ذلك التأثير الحاسم كله في حياته، وكان في الوقت نفسه عرضاً طارئاً، لماذا وقع له ذلك اللقاء في تلك اللحظة نفسها، في تلك الدقيقة ذاتها من حياته، في تلك الدقيقة ذاتها التي كان لا يمكن، بسبب حالته النفسية وبسبب الظروف، إلا أن تؤثر في مصيره ذلك التأثير الحاسم الذي لا مناص منه ولا راد له؟ سوف يبدو له أن ذلك اللقاء الذي وقع له إنما كان كميناً يتربص به شرّاً.

كانت الساعة تقارب التاسعة حين اجتاز راسكولنيكوف «سوق العلف». كان جميع التجار والباعة المتوجلين وأصحاب الدكاكين يغلقون محلاتهم، ويجمعون بضائعهم، ليعودوا إلى منازلهم، وكذلك كان يفعل زبائنهم. بالقرب من المطاعم الحقيقة الواقعة في الأقبية، وفي الأفنية القذرة المنتنة من منازل «سوق العلف» ولا سيما بالقرب من

الخمارات كانت تتكاثر أنواع شتى من فقراء الناس وصغار المتكسبين . كان راسكولنيكوف يحب ارتياح هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتياح جميع الأزقة المجاورة حين كان يخرج من بيته لغیر هدف محدد . فهناك كانت أسماله البالية لا تلفت الانتباه ولا تثير الاستهجان . إن المرء يستطيع أن يسير في هذه الأماكن مرتدياً ملابس على ما يشاء له هواه ، دون أن يتعرض لاستهزاء أحد به . فلما وصل راسكولنيكوف إلى ناصية شارع ك . . . ، رأى بائعاً وامرأته يبيعان ، كلَّ على بسطة خاصة به ، خيوطاً وأشرطة ومناديل من قطن وما إلى ذلك . كان الزوجان يستعدان هما أيضاً للعودة إلى منزلهما ، ولكنهما ما يزالان يترثران مع امرأة يعرفانها كانت قد اقتربت منهما . إن هذه المرأة هي اليزافيتا ايفانوفنا أو قل باختصار هي «اليزافيتا» كما كان يسميها جميع الناس . إنها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها آليونا ايفانوفنا ، أرملة الموظف المرا比ة ، التي ذهب إليها راسكولنيكوف أمس ليرهن عندها ساعته ويتمرن على فعلته . . . كان راسكولنيكوف يعرف منذ مدة طويلة أموراً كثيرة عن اليزافيتا هذه التي كانت تعرف هي أيضاً بعض المعرفة . إنها بنت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، طويلة القامة خرقاء السلوك ، خجولة الطبع ، ومتواضعة ودية ، يعدها الناس شبه بلهاء ، قد استعبدتها اختها استعباداً كاملاً ، فهي تعمل لها ليلاً نهاراً ، وترتجف أمامها خوفاً ، حتى لتحتمل منها أن تضر بها أحياناً . كانت اليزافيتا في تلك اللحظة قد وقفت مفكرة أمام البائع وامرأته ، وفي يدها صرة ، وكانت تصغي إليهما بانتباه شديد . إن الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماسة . فلما لمحها راسكولنيكوف على حين فجأة اجتازه إحساس غريب هو نوع من الانشداد الشديد رغم أن اللقاء لا يشتمل في ذاته على أي شيء يدعو إلى الذهول .

قال لها البائع بصوت عالٍ :

- ستعزمني أمرك بنفسك يا اليزافيتا ايفانوفنا . تعالى جداً ، في نحو

الساعة السابعة. سيحضرون هم أيضاً.

- غداً؟

كذلك قالت اليزافيتا بصوت بطيء، وكانت واجهة مفكرة، كأنها لا تستطيع أن تعلم أمرها.

قالت لها زوجة البائع وهي امرأة فطنة بلهجة طلقة صريحة:

- إنها لتخيفك كثيراً. آليونا إيفانوفنا هذه! حين يراك المرء ويسمعك، يحسبك طفلة صغيرة. هذا مع أنها ليست أختاً شقيقة وإنما من أم أخرى ولكنها مسيطرة عليك مستبدة بك... .

قاطع الرجل زوجته قائلاً لاليزافيتا:

- عليك أن لا تذكرني لآليونا إيفانوفنا هذه المرة شيئاً. ذلك ما أنسحوك به! تعالى إلينا دون أن تستأذنها! الصفقة رابحة. وستدرك أختك ذلك فيما بعد.

- حقاً... قد آتى؟

- نعم... غداً... في نحو الساعة السابعة. وسيحضر أحد من عندهم أيضاً. وستقررين أمرك بنفسك.

وأضافت زوجة الرجل تقول:

- وسننشغل السماور.

قالت اليزافيتا وهي ما تزال متربدة:

- طيب، سأتأتي... .

وانصرفت بخطى بطيئة.

إن راسكولنيكوف الذي مرت في تلك اللحظة لم يسمع أكثر من ذلك. لقد مرت صامتاً ساكناً دون أن يلفت إليها الانتباه، ولكنه حاول إلا يفوته من الحديث كلمة واحدة. و شيئاً فشيئاً، حل الذعر في نفسه محل الانشاد، وأحس بقشعريرة باردة تسري في ظهره. لقد علم فجأة، على نحو لم

يكن في الحسبان، أن اليزافيتا، أخت العجوز ورفيقتها الوحيدة في دارها، ستغيب عن البيت غداً في الساعة السابعة تماماً، وأن العجوز ستكون إذن في الساعة السابعة تماماً وحيدة في مسكنها.

لم يكن قد بقي عليه إلا أن يسير بضع خطوات حتى يبلغ منزله. عاد إلى إنسان حُكم عليه بالموت. لقد أصبح لا يفكر، بل أصبح عاجزاً عن التفكير، ولكنه كان يحس، بكل كيانه، أنه أصبح محروماً من حرية الرأي مجردًا من الإرادة، وأن كل شيء قد تقرر فجأة على نحو حاسم لا رجعة عنه.

يقيناً، لو كان عليه في سبيل إنفاذ مشروعه أن يتظاهر سفين طويلة، لما كان في وسعه أن يعول على ظرف يناسب نجاح مشروعه أكثر من هذا الظرف الذي يعرض له الآن، وما كان ليسهل عليه في كل حال أن يعلم علم اليقين، بمثل تلك الدقة، ويدون مخاطر يشتمل عليها اضطراره إلى السؤال والتقصي، إن العجوز التي كان قد قرر أن يقتلها ستكون، في الغد، وحيدة بمسكنها، وحيدة تماماً... .

لقد

اتبع لراسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذي حمل البائع وزوجته على أن يدعوا اليزافيتا إيفانوفنا إلى منزلهما. إن الأمر عادي بسيط تافه لا يشتمل على أي شيء خاص: هناك أسرة وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة، فأصبحت في حالة عوز شديد، فأخذت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء. ولما كان عرض هذه الملابس للبيع في السوق يؤدي إلى خسارة كبيرة، فقد سُأله هؤلاء الناس عن امرأة تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين في الشراء. وكانت اليزافيتا تقوم بمثل هذه الأعمال، وكان لها زبائن كثيرون لأنها امرأة مستقيمة، فهي تحدد السعر العادل دائمًا، ولا تدع مجالاً للمساومة فيه مهما يكن، فما على المشتري إلا أن يأخذ أو أن يدع. وهي قليلة الكلام عامةً، وكانت تبدو، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وجلة وديعة...

ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح في الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام، وقد خلف هذا الوهم في نفسه آثاراً لم تمح خلال مدة طويلة. ثم إنه ظل يميل دائمًا إلى أن يرى في هذا الأمر كله شيئاً غريباً سرياً، وسلسلةً من المؤشرات والمصادفات العجيبة الخاصة. كان طالب من معارفه اسمه بوكوريف، قد أعطاه في الشتاء الماضي أثناء

حدث عارض جرى بينهما قبيل سفره في خاركوف، عنوان العجوز آليونا ايفانوفنا، ليلجا إليها إذا هو احتاج إلى اقتراض مبلغ من المال على رهن. وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف إلى العجوز، لأنه كان في ذلك الوقت يعطي دروساً، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى. ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف شهر. كان يملك شيئاً يمكن رهنهما لاقتراض مبلغ من المال: الساعة الفضية القديمة التي ورثها عن أبيه، وختاماً ذهبياً صغيراً يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته أيام تذكاراً حين افترقا. قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم، فما إن رأى العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة، ودون أن يعرف أي شيء خاص عنها، بكره لا سبيل إلى التغلب عليه. وتلقى منها «ورقتين صغيرتين». وبينما كان راجعاً إلى بيته دخل في الطريق حانة صغيرة حقيقة، فطلب شيئاً، وجلس، واسترسل في أحلام عميقه. إن فكرة غريبة كانت تحاول أن تنقف في رأسه كما ينقف الفرخ في البيضة، وكانت تشغل باله كثيراً جداً... .

على مقربة منه، إلى جانبه تقريباً، كان يجلس حول مائدة أخرى، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفه ولا يتذكر أنه رأه في حياته. كان الشابان قد لعبا البلياردو قليلاً، فهما الآن يحتسيان الشاي. وها هوذا راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابية اسمها آليونا ايفانوفنا هي أرملة موظف، ثم يذكر له عنوانها آخر الأمر. إن هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الغرابة: لقد كان عند العجوز منذ هنيهة، وها هوذا يسمع شخصين يتحدثان عنها هي نفسها. لا شك أن الأمر مصادفة، ولكن فيما كان راسكولنيكوف لا يستطيع أن يتخلص من شعور خارق غير عادي، إذا بشخص يأخذ يعزز في نفسه هذا الشعور كأنما على عمد: لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه، فجأة، بعض التفاصيل عن آليونا ايفانوفنا. قال:

- هي عظيمة... يستطيع المرء في كل لحظة أن يحصل منها على

مال... غنية كيهودي! قادرة على أن تفرضك خمسة آلاف روبل دفعه واحدة، ولكنها لا تحتقر رهناً قيمته روبل واحد. كثيرون منا مروا بها. ولكنها سافلة.

وتفق الطالب يتكلم عن العجوز. وصفها بأنها شريرة خبيثة، وقال إنها صاحبة نزوات: يكفي أن يتأخر المدين عن سداد الدين في الموعد المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن. لا تفرض من المال إلا مبلغاً يساوي ربع قيمة الرهن. تتقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة في المائة بل وسبعة، الخ الخ... كان الطالب يتدفق في الكلام على هذا الموضوع ويفيض فيه إفاضة لا ينضب معينها. وقد أضاف أن للعجز أختاً اسمها اليزافيتا، تضربها العجوز في كل مناسبة، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هي نفسها، والعجز تستعبد اليزافيتا استعباداً تاماً، كطفلة صغيرة، رغم أن اليزافيتا لا يقل طولها عن متر وثمانين سنتيمتراً بل يزيد... .

وصاح الطالب يقول مقهقاً:

- وهذه أيضاً امرأة عجيبة!

جرى الحديث عندئذ على اليزافيتا. كان الطالب يشعر من الكلام عنها بلذة خاصة فهو لا يكف عن الضحك. أما الضابط فكان يصغي إلى رفيقه بكثير من الاهتمام، حتى لقد طلب منه أن يرسل إليه اليزافيتا، لترقّع له ملابسه. لم يفوت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هذه المحادثة. عرف كل شيء دفعه واحدة: عرف أن اليزافيتا هي الأخت الصغرى لآلiona ايغانوفنا، ولكنها ليست شقيقتها وإنما هي أختها من أم أخرى، وعرف أنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها. عرف أنها تعمل في سبيل أختها نهاراً وليلاً، تنهض من منزلها بأعباء الطبخ والغسيل، وتقوم في الوقت نفسه بأعمال الخياطة للزيائين، حتى لقد تتولى مسح الأرض في منازل مأجورة. وعرف أن كل ما تجنيه من مال

إنما يذهب إلى أختها، وأنها لا تجرؤ على قبول أي تكليف أو القيام بأي عمل، دون استئذان العجوز. وكانت العجوز تنص نصاً صريحاً على أنها لن ترث شيئاً، اللهم إلا عدداً من قطع الأثاث والكراسي وما إلى ذلك. أما المال كله فموقوف على دير بمقاطعة ن...، للصلوات الدائمة على روح آلينا إيفانوفنا. إن اليزافيتا تنتهي إلى طبقة التجار لا إلى طبقة الموظفين وهي غير متزوجة، بشعة القوام جداً، يزيد طولها على متوسط الطول كثيراً، لها قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنعلان دائماً حذاءين بالبي الكعبين. ولكنها تعنى بنظافتها أكبر العناية. والأمر الذي كان يدهش الطالب ويفجر ضحكه خاصة هو أن اليزافيتا حبلى دائماً...

قال الضابط :

- ولكن ألم تقل إنها قبيحة؟

أجابه الطالب :

- نعم... إن لها بشرة مسودة دائماً، حتى لكونها جندي متذكر، ولكنها ليست قبيحة البتة!... إن وجهها لطيف جداً، وإن عينيها خاصة طيبتان حلوتان! الدليل على ذلك أنها تعجب كثيراً من الناس، وهي هادئة مسالمة ودية مستعدة لأن تقنع بأي شيء. وإن لها ابتسامة يمكن أن توصف حتى بأنها فاتنة!

سأل الضابط ضاحكاً :

- أهي إذن تعجبك أيضاً؟

قال الطالب :

- نعم، لأن فيها غرابة! واسمع الآن ما سأقوله لك: يميناً إنني مستعد لأن أقتل أختها، تلك العجوز اللعينة، وأن أسرق مالها طائعاً مختاراً، مرتاح البال هادئاً الضمير!..

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسة وعنف.

انفجر الضابط يضحك ضحكاً ارتعش له راسكونيكوف. ما أغرب  
هذا!

قال الطالب وقد ازدادت حرارته :

- إذا أذنت فسألقي عليك سؤالاً جاداً: أنا إنما قلت ذلك كله من باب المزاح طبعاً ولكن فكر قليلاً: هناك من جهة أولى امرأة عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولافائدة منها لأحد بل هي ضارة لجميع الناس ، لا تعرف حتى لماذا تعيش ، وستموت في القريب ميتتها الطبيعية . هل تفهم؟ هل تفهم؟

أجاب الضابط وهو يحدق بانتباه شديد إلى رفيقه الذي كانت حماسه ما تنفك تتاجج :

- طبعاً أفهم !

وواصل الطالب كلامه فقال :

- اسمع التتمة إذن: هناك تلك المرأة من جهة ، وهناك من جهة ثانية قوى فتية شابة نصرة ، تضيع لأنها محرومة من المساعدة ، وتُعد بالآلاف ، في كل مكان. إن ثمة مائة أو ألف عمل خير أو مبادرة رائعة يمكن التحريرض عليها أو اصلاح حالها بمال العجوز ، بهذا المال الموقوف على دير !! إن ثمة مئات وربما ألفاً من الأفراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم. إن ثمة عشرات من الأسر يمكن إنقاذهما بهذا المال من الفقر المدقع ، والتحلل الأخلاقي ، والدمار والفساد ، ومستشفيات الأمراض التناسلية ! فماذا لو قُتلت هذه العجوز ، وأخذ مالها ثم وُقف على الخدمة الإنسانية بأسرها ، على خدمة قضية جميع البشر؟ ماذا؟ لا تعتقد أن جريمة طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألف الأعمال الخيرة؟ إننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألف غيره من العفن والفساد والتحلل ! يموت واحد ليعيش مئات . مسألة حسابية ! وأي وزن في ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز

الشقيقة المصدورة الغبية الشريرة؟ ألا إنها ليس لها من الوزن أكثر مما لقملة أو خنفساء. لا بل إن وزنها دون ذلك، لأن هذه العجوز ضارة. إنها تمتض حياة الآخرين. إنها شريرة. منذ مدة قصيرة عضت أختها اليزافيتا في إصبعها، وكادوا أن يقطعوا الإصبع!

قال الضابط :

- ما هي جديرة بالحياة طبعاً، ولكن هذا نظام الطبيعة . . .

قال الطالب :

- نظام الطبيعة، يا أخي، يمكن تقويمه وتوجيهه، وإلا غرقنا في الأوهام والأباطيل. ثم إنه بدون ذلك لا يكون ثمة إنسان عظيم واحد. يقولون: «الواجب، الضمير» - وأنا لا اعترض بشيء على الواجب والضمير، ولكن يجب أولاً أن تتفق على معاني الألفاظ. اسمع: سألقي سؤالاً آخر، هل تصغي إلي؟

قال الضابط :

- بل أنا الذي سألكي عليك سؤالاً، أصح إلي!

- فيه! . .

- أنت الآن تتكلم وتححدث، ولكن قل لي: أنت مستعد لأن تقتل العجوز بنفسك؟

- لا، طبعاً! . . فإنما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة، ولست أتحدث عن نفسي . . .

- في رأيي أنه ليس هناك ظل من عدالة، ما دمت غير مستعد لأن تقرر تنفيذ هذا الفعل بنفسك. والآن هلم بنا نلعب البلياردو! . .

كان راسكولنيكوف مضطرباً أشد الاضطراب. إن الأحاديث التي سمعها لم تكن إلا أحاديث عادية كثيراً ما سمع شباباً يتداولونها في صور مختلفة بعض الاختلاف بقصد موضوعات شتى. ولكن لماذا وقع له أن

يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الآراء في عين اللحظة التي كانت هذه الآراء نفسها تنبت في ذهنه هو؟ لماذا وقع له أن سمع، في نفس اللحظة التي تلبت فيها فكره على العجوز، حديثاً عن تلك العجوز نفسها؟ لقد ظلت هذه المصادفة تبدو له غريبة. وكان لهذه الشرارة العابرة التافهة التي جرت في الحانة، تأثير عميق فيه أثناء تتمة الأحداث، فكان ذلك كان نبوءة ونذيراً بقدر محظوم . . .

عاد راسكولنيكوف من «سوق العلف» إلى بيته، فارتدى على أريكته، ولبث ساعة بأكملها لا يتحرك. هبط الظلام أثناء ذلك. ولم يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشعل شمعة على كل حال. لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف هل فكر في شيء من الأشياء أثناء ذلك الوقت. وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى نفسها التي أحسها في النهار، وسرّه أن يعرف أن في امكانه أن يرقد على الأريكة. وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص، فنام.

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام، نام بغير أحلام. وحين دخلت عليه ناستاسيا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، بذلت كثيراً من الجهد ولقيت كثيراً من العناء في سبيل ايقاظه. كانت تحمل إليه شاياً وخبزاً. وكان الشاي في هذه المرة أيضاً بقية شاي، وفي هذه المرة أيضاً كان الابريق ابريقها هي.

هتفت ناستاسيا تقول مغناطة:

- ما أكثر ما يستطيع أن ينام! نعم إنه لا ينقطع عن النوم! . .

نهض راسكولنيكوف بجهد كبير. كان يشعر بصداع في رأسه. وقف منتسباً وسار بضع خطوات، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة من جديد.

هتفت ناستاسيا:

- لماذا؟ أتريد أن تنام أيضاً؟ أتراك مريضاً؟

لم يجب راسكولنيكوف.

- هل تريد شيئاً؟

قال بجهد وهو يغمض عينيه من جديد ويستدير نحو العائط:  
- فيما بعد.

لبثت ناستاسيا مائلة عليه لحظة ثم قالت:

- ربما كان مريضاً!

واستدارت وخرجت.

وعادت إليه في الساعة الثانية تحمل حساء. كان ما يزال راقداً، حتى إنه لم يكن قد مس الشاي. اغتاظت ناستاسيا، فهزته غاضبة قائلة له وهي تنظر إليه باشمئزاز:

- ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال؟

فنهض وجلس، ولكنه لم يجب بشيء، وكان يحدق إلى الأرض.

سألته ناستاسيا:

- أنت مريض؟

ولكنها في هذه المرة أيضاً لم تحصل على جواب. استأنفت تقول بعد صمت:

- حقاً إن عليك أن تخرج قليلاً إلى الشارع! سينفعك الهواء الطلق!  
هل تأكل شيئاً من الطعام؟

قال لها بصوت ضعيف واهن:

- فيما بعد... اذهبي الآن...

قال لها ذلك وصرفها بحركة من يده.

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله في شقة ثم خرجت.

وبعد دقائق، رفع عينيه، ونظر إلى الشاي والحساء ملياً، ثم تناول الخبز والملعقة وأخذ يأكل.

بلغ ثلاث ملاعق أو أربعاً دون شهوة، بطريقة آلية تقريباً. قل صداع رأسه. حتى إذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد، لكنه لم يستطع أن ينام مرة أخرى. لبث جاماً، مضطجعاً على بطنه، دافناً وجهه في الوسادة. وبدأت تغزوه الأحلام. كانت جميع أحلامه غريبة جداً، ها هو ذا يرى نفسه في مكان ما بأفريقيا، في مكان ما بمصر، في واحدة من والحات. القافلة تستريح. الجمال راقدة بهدوء وسكون. ومن حوله حلقة منأشجار النخيل. جميع الناس يأكلون. أما هو فلا يزيد على أن يشرب ماء من جدول يجري هناك على مقربة منه مصطخباً. ما أعظم الانتعاش الذي يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذي يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع بلمعان الذهب! .. ولكن ها هو ذا يسمع على حين فجأة دقات ساعة حائط، واضحةً متميزة. ارتعش راسكولنيكوف وثاب إلى نفسه، فلما رفع رأسه، ونظر من النافذة، عرف الساعة التي لعله فيها، فإذا هو يثبت عن أريكته كما لو رفعته قوة مجهولة، صاحي الذهن كل الصحو، ثم يتوجه نحو الباب، سائراً على رؤوس أصابعه، فيفتح الباب قليلاً برفق، ويصبح بسمعه إلى الضجيجات الآتية من السلم. كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً. ولكن كل شيء بدا له عجيناً وشاداً في الوقت نفسه. أن يكون قد استطاع أن ينام على هذا التحو منذ البارحة، وأن يكون قد لبث على هذه الحال من الخدر، بينما هناك أشياء يجب عليه أن يعملها، أن يهينها. لعل الساعة التي سمع زنينها منذ هنีهة قد دقت السادسة... وهذا تعجلٌ خارق محموم مضطرب يستولي عليه بعد النوم والخدر والتواهي. على أن الاستعدادات ليست كثيرة. جهد راسكولنيكوف أن يتنبأ بكل شيء وأن لا ينسى شيئاً. إلا أن قلبه قد بلغ من شدة الخففان أنه كان يتنفس في كثير من العنااء. كان عليه قبل كل شيء أن يصنع علاقة وأن يخيط العلاقة إلى المعطف: ذلك عمل يستغرق دقيقة. نبش صرة الملابس التي توجد تحت وسادته، فسل منها قميصاً عتيقاً، قذراً،

مهترئاً كل الاهتمام، غير صالح للاستعمال، فانتزع من خرقه عصابة عرضها خمس سنتمرات وطولها أربعون سنتمراً. حتى إذا ثنى العصابة ثنيتين، خلع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من نسيج قطني سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذي كان يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخيط إليه طرف العصابة من الداخل تحت الإبط الأيسر. كانت يدها ترتجفان وهو يخيط العصابة إلى المعطف. ولكنه قد أحسن القيام بهذه المهمة على خير وجه، فلما عاد يرتدي معطفه كانت العلاقة لا تظهر من الخارج. إن راسكولنيكوف قد أعد الإبرة والخيط منذ مدة طويلة: لفهما بورق وأودعهما درج منضدته الصغيرة. أما العلاقة فكانت اختراعاً بارعاً جداً ابتكره خياله هو: كان على العلاقة أن تحمل الفأس. إن من المستحيل على راسكولنيكوف أن يتجلو في الشارع وهو يحمل بيده فأساً. ولو قد أخفى الفأس تحت المعطف لكان مضطراً مع ذلك إلى أن يستدتها، وهذا أمر لا بد أن يلفت إليه انتباه الناس. أما الآن فليس عليه إلا أن يدخل نصل الفأس في العلاقة، فتبقى الفأس طوال الطريق معلقة في داخل المعطف تحت الإبط بهدوء، عدا أن في وسع راسكولنيكوف، حين يغمد بيده في جيب المعطف من خارج، أن يستند طرف المقبض ليمعن الفأس من التأرجح. ولما كان المعطف واسعاً جداً حتى لكي أنه كيس، فلن يستطيع الناظر أن يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يستند شيئاً من خلال جيبيه. إن فكرة صنع هذه العلاقة قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ أسبوعين.

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دس أصابعه في الفراغ الضيق الذي يفصل الأريكة «التركية» عن أرض الحجرة، وأخذ يتلمس الزاوية اليسرى من هذا المكان، فأخرج الرهن الذي كان قد هياه وخبأه هناك منذ مدة طويلة. الحق أن هذا الرهن لم يكن رهناً، وإنما هو شريحة ملساء من خشب، بحجم علبة فضية للسجاجير. كان راسكولنيكوف قد عثر على هذه الشريحة الخشبية عَرَضاً أثناء إحدى جولاتِه، وذلك في

فناء منزل كانت تشغله أحد أجنحته ورشة ما . وقد ضم إلى الشريحة فيما بعد صفيحة من حديد، رقيقة ملساء ، - أغلب الظن أن هذه الصفيحة كانت كسرة من شيء ما - التقطها من الشارع آنذاك أيضاً . حتى إذا شد هذين الشيئين المتفاوتين حجماً - وكانت صفيحة الحديد أصغر من الشريحة الخشبية - ، أحدهما إلى الآخر، يعني بربطهما بخيط متصالب ، ثم لفهما لفاً أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة ، ثم عقد الخيط على اللفة عقداً محكماً يجعل فكها أمراً صعباً ، وذلك بغية أن يحول انتباه العجوز برهة من الزمن - لأن العجوز ستنهض في حل العقد - فيختار هو اللحظة المؤاتية . ولقد كان هدفه من إضافة الصفيحة الحديدية هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف ، في الوهلة الأولى على الأقل ، أن «الشيء» ليس إلا قطعة من خشب . وكان الرهن مخبأ تحت الأرضية منذ مدة . فما أن أخرج راسكولنيكوف الرهن حتى سمع صياحاً في الفناء يقول :

- دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة !

فقال راسكولنيكوف يخاطب نفسه :

- منذ مدة طويلة ! رباء ! ..

واندفع نحو الباب ، وأصاخ بسمعه ، ثم تناول قبعته ، وأخذ يهبط درجات السلالم الثلاث عشرة ، كقطة ، محاذراً ، ولم يند صوت عن وقع قدميه . ما يزال عليه أن يفعل أهم شيء : أن يسرق الفأس من المطبخ . فاما أن عليه أن يستعمل فأساً فذلك أمر كان قد قرره منذ مدة طويلة . وكان راسكولنيكوف يملك كذلك مقصاً مطوية تُستعمل في الحدائق ولكنـه كان غير واثق بالمقصـ، وكان غير واثق بقواه خاصةً . لذلك وقع اختياره نهائياً على الفأس . وللنذكر في هذه المناسبة صفة غريبة تميزت بها جميع القرارات القاطعة التي اتخذها راسكولنيكوف لإنفاذ خطته : لقد كانت هذه القرارات تبدو له سخيفة مستحيلة بمقدار ما كانت تصبح

حاسمة قاطعة. إن راسكولنيكوف، رغم الصراع المضني الذي كان يجري في نفسه، لم يستطع قط أن يصدق أن مشاريعه يمكن أن توضع موضع التنفيذ في يوم من الأيام.

ولو قد اتفق له أن توصل يوماً إلى أن يحسّم جميع تلك المسائل، فيبتدء جميع الشكوك ويمهد جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فوراً عن مشروعه ذاك، عدوله عن شيءٍ مستحيل عجيب سخيف! ولكن الواقع أنه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التي يجب حلها ومن الشكوك التي يجب تبديدها. أما طريقة الحصول على فأس، فذلك أمر تفصيلي تافه لا يشغل باله كثيراً، إذ لا شيء أسهل منه. ذلك أن ناستاسيا كانت تتغيب كثيراً عن البيت، ولا سيما في المساء: فهي تذهب إلى الجيران تارة وتمضي إلى الدكاكين تارة أخرى، وتترك الباب مفتوحاً أثناء ذلك، وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من تشاجر. كان يكفي إذن أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق، وأن يأخذ الفأس متى أزف الوقت، ثم إن يرجع بعد ساعة (متى أنهى كل شيء)، فيعيد الفأس إلى مكانها. غير أن شكوكاً كثيرة كانت تنبجس في ذهن راسكولنيكوف: ماذا لو رجع بعد ساعة ليروا الفأس إلى مكانها فكانت ناستاسيا قد عادت إلى البيت مصادفةً أثناء غيابه؟ سيكون عليه طبعاً أن يستمر في طريقه، وأن يتذكر خروجها من جديد. فماذا لو احتاجت أثناء ذلك إلى الفأس فأخذت تبحث عنها، وأخذت تصريح وتصرخ؟ أن ذلك سيولد شبهةً أو هو سيولد فرصةً لشبهة في أقل تقدير.

على أن هذه الأمور كلها تفاصيل لم يكن راسكولنيكوف قد فكر فيها فعلاً بعد. لقد كان راسكولنيكوف يفكر في الشيء الأساسي، ويرجئ التفكير في التفاصيل إلى اللحظة التي يكتمل فيها اقتناعه. ولكن كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجيء قط، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في قراره نفسه. كان لا يتخيل مثلاً أنه في لحظة معينة

سوف يكف عن التفكير. وسوف ينهض، وسوف يذهب إلى هناك، بكل بساطة! .. فحتى زيارته الأخيرة للعجز (وهي الزيارة التي استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل التمرин)، حتى هذه الزيارة لم تكن في الواقع إلا محاولة، ولم يكن فيها جد. كل ما هنالك أنه قال لنفسه: «والله... سأذهب، سأحاول، سأحقق ما أحلم به على الأقل»، ثم لم يسعه بعد ذلك فورا إلا أن يبصق ويولى هارباً وقد امتلاً اشمئزازاً أمام نفسه. ولكن كان يبدو أنه قد أوغل في التحليل إلى النهاية، وأنه حل المشكلة الأخلاقية التي تطرحها هذه القضية. لقد كان منطقه حاداً قاطعاً كسكنين مسنونة، ولم يبق لفكره أي اعتراض واعٍ يمكن أن يقدمه. غير أنه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يتلمس اعترافات من الخارج، على نحو غامض وعنييد، لأن شخصاً يدفعه إلى ذلك ويجبره عليه. وهذا يوم الأمس الذي جاء على غير توقع وكان يوماً حاسماً، قد أثر فيه تأثيراً يشبه أن يكون آلياً: لأن شخصاً قد أمسكه من يده وأخذ بجره، معصوب العينين، بقوة خارقة، جراً لا فكاك له منه، ولا سبيل له إلى الاعتراض عليه! أو لأن الله قد التقى طرف ثوبه فدارت به عجلاتها، وأخذت تعذبه إليها جذباً لا حيلة له في دفعه!

في أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان هنالك سؤال يشغل باله كثيراً، وهو: لماذا تنكشف جميع الجرائم بسهولة ويسر؟ لماذا يُعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً في غير عناء؟ وقد توصل راسكولنيكوف شيئاً فشيئاً إلى نتائج متنوعة شائقة. قال لنفسه إن السبب الأساسي في ذلك لا يرجع إلى استحالة اخفاء الجريمة استحالة مادية بقدر ما يرجع إلى المجرم نفسه. فجميع المجرمين إنما يشعرون، لحظة تنفيذهم جريمتهم، بنوع من انهيار الإرادة وقدان الرأي السديد، فإذا بالراداة والرأي يحل محلهما طيش صبياني تماماً، في الوقت الذي يكون فيه المرء أحوج ما يكون إلى العقل والحكمة والحذر. كان راسكولنيكوف مقتنعاً بأنَّ غياب الرأي السديد وانهيار الإرادة الصلبة يستوليان على

الإنسان كما يستولي عليه مرضٌ من الأمراض وينموان مزيداً من النمو شيئاً بعد شيء ثم يبلغان ذروتهما قبيل تنفيذ الجريمة. وكان مقتناً بأنهما يلبثان على هذه المرحلة عند ارتكاب الجريمة، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمن يختلف طوله باختلاف الأفراد، ثم يزولان كما تزول جميع الأمراض. أما هذا التساؤل: «هل المرض هو الذي يولد الجريمة، أم أن الجريمة يصاحبها دائماً، بحكم طبيعتها، شيء من مرض؟» فتلك مسألة لم يشعر راسكولنيكوف أنه قادر على حلها.

فلما انتهى إلى هذه النتائج ارتأى أن أمثل هذه الاضطرابات المرضية لا يمكن أن تعتريه هو، واعتقد بأنه سيظل محافظاً على سلامته الرأي وقوه الارادة طوال فترة تنفيذ خطته، وذلك لسبب وحيد هو أن ما ينوي القيام به «ليس جريمة». . . لندع جانباً طريقة وصوله إلى هذه النتيجة، فلقد استبقنا منذ الآن أشياء كثيرة. . . وحسبنا أن نضيف إلى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات المادية لم يكن لها في ذهنه إلا دور ثانوي. كان يقول لنفسه: «سوف يكفيوني أن أظل مسيطرًا على إرادتي وعلى فكري حتى تذلل جميع هذه الصعاب متى أزف الوقت وأصبح على أن أدقق في أيسر تفاصيل القضية. . .» ولكن القضية لم تبدأ، فكان اقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضعف شيئاً بعد شيء. حتى إذا أزفت الساعة، جرت جميع الأمور على غير ما تنبأ به، بل تقاد تكون مفاجئة، حتى لكانه لم يتتبأ بشيء يوماً من الأيام.

هناك ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم: حين وصل إلى فسحة المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً كما يكون كذلك دائماً، ألقى على داخل المطبخ نظرة محاذرة موارية ليتأكد من أن صاحبة البيت ليست في المطبخ أثناء غياب ناستاسيا، وليتتأكد من أن باب غرفتها مغلق تماماً بحيث لا تستطيع أن تلمحه حين يدخل إلى المطبخ لأخذ الفأس. فما كان أشد ذهوله حين رأى أن ناستاسيا لم تكن حاضرة فحسب بل كانت مشغولة كذلك، فهي تخرج الغسيل من سلة وتنشره على حبال!

فلما رأته قطعت عملها والتفت نحوه ثم تحول بصرها عنه إلى أن غاب. وقد أشاح راسكولنيكوف عينيه وابتعد كأنه لم يلاحظ شيئاً، ولكن مهمته كانت قد أخفقت: ما من فأس! وأسودت الدنيا في عينيه.

قال يحدث نفسه وهو يجتاز باب المنزل: «من أين جئت بهذه الفكرة وهي أن ناستاسيا لا بد أن تكون في هذه اللحظة غائبة تماماً؟ لماذا اتخذت هذا القرار موقفاً هذا اليقين كله؟» وشعر بأنه مسحوق مُذل. كان من شدة غضبه يشتئي أن يسخر من نفسه... إن حنقاً غبياً حيوانياً أخذ يغلي في أعماقه.

توقف تحت باب المنزل حائراً متربداً. إنه يكره أن يمضي إلى الشارع هكذا، تقيداً بالشكل، ولكنه يكره أكثر من ذلك أيضاً أن يعود إلى غرفته. جمجم يقول: «يا لها من فرصة أضيعتها، أضيعتها إلى الأبد!» قال ذلك وهو تحت قبة المدخل، ولكنها هو ذا الآن أمام حجرة الباب الصغيرة التي كان بابها مفتوحاً أيضاً. ارتعش راسكولنيكوف فجأة. لقد لمح في هذه الحجرة على بعد خطوتين منه، تحت دكة، في اليمين، شيئاً يسطع... نظر حواليه: لم ير أحداً. اقترب من الحجرة سائراً على رؤوس أصابع قدميه، وهبط درجتين، ونادى الباب بصوت ضعيف. لم يجده أحد. قال يحدث نفسه: «نعم! الباب غائب. على كل حال، أغلبظن أنه في مكان ما بالفناء ما دام الباب مفتوحاً». واندفع نحو الفأس بوثبة واحدة (إن الشيء الذي يسطع كان فأساً). سحب الفأس من تحت الدكة حيث كانت موضوعة بين حطبيتين، وقبل أن يغادر الحجرة أسرع يضع الفأس في العلاقة داخل المعطف، ودس يديه في جيبه وخرج. لم يره أحد! قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة غريبة: «لأنك محروم من العقل عاونك الشيطان!» وشجعه هذه المصادفة كثيراً.

سار في الشارع بهدوء ووقار ورصانة دون أن يتتعجل، وذلك حتى لا

يوقظ حوله شبهات. كان لا يكاد ينظر إلى المارة، حتى لقد كان يجهد أن لا يرفع عينيه، بغية أن لا يلفت انتباه أحد. وتذكر عندئذ قبعته فقال يحدث نفسه: «ما أغباتي! كان معي مال أول أمس، ثم لم أشتري قبعة! وأفلت منه شتيمة...».

وألقى نظرة على داخل الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة في الجدار تشير إلى السابعة وعشرين دقيقة. كان عليه أن يغدو الخطي، ولكن كان عليه كذلك أن لا يمضي إلى منزل العجوز رأساً، وإنما ينبغي له أن يدور دورة. إن من الأفضل أن يدخل المتزل من الباب الآخر في الجهة الثانية.

في الماضي، حين كان يتقدّم له أن يتصرّف هذا كله، كان يقدّر أحياناً أنه سيشعر بخوف شديد. ولكنه الآن لا يشعر بهذا الخوف الشديد بل لا يشعر بخوف البتة. الآن تشغله أفكار ليس لها أي شأن بالموضوع، وما أكثر تبدلها وتغييرها! فحين اجتاز حدائق يوسبوف مثلاً انبثقت في ذهنه فكرة توقف عندها مليأً، هي أن من الواجب وضع نوافير مياه من شأنها أن ترتبط الهواء ترطيراً لذيداً في الميادين العامة. وشيناً فشيئاً انتهى كل الاعتقاد بأنه إذا وُسّعت «حدائق الصيف» بحيث تشمل كل «ساحة مارس»، وإذا ضُمت هذه الحديقة إلى حدائق «قصر ميخائيل»، فسيكون ذلك تجديداً في المدينة ممتعاً ومفيداً في آن. وهذا سؤال آخر يشده إليه بقوة. تسأله راسكولنيكوف: لماذا يحب الإنسان في المدن الكبرى، لا بحكم الضرورة بل بداعي الميل، أن يمكث خاصة في الأحياء التي ليس فيها حدائق ولا نوافير مياه، ولا يسودها إلا الحمام والعنف والقاذورات؟ وتذكر عندئذ جولاته في «سوق العلف»، فارتدى لحظة إلى الشعور بالوضع الذي هو فيه، فقال يحدث نفسه: «يا للسخف! من الأفضل أن لا أفكّر البتة!».

ومضت في ذهنه هذه الفكرة: «لا شك أن الذين يقادون إلى المقصولة

يتثبت فكرهم هذا التثبت بجميع الأشياء التي يصادفونها في طريقهم». ولكن هذه الفكرة التي ومضت في ذهنه بسرعة كسرعة البرق، لم تلبث أن اختفت بسرعة كسرعة البرق أيضاً. لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء... ولكنها هوذا قد اقترب... هذا هو المنزل... هذا مدخل العمارة! وفي مكان ما، رأت ساعة حائط على حين فجأة. قال راسكولنيكوف لنفسه متسائلاً: «ماذا؟ أ تكون هي السابعة ونصف؟ وهذا ممكن؟ مستحيل... لا شك أن هذه الساعة متقدمة!...»

وابتسم له الحظ مرة أخرى حين اجتاز المدخل. إن عربة ضخمة محملة بالعلف كانت تدخل، في تلك اللحظة نفسها كما لو عمداً، أمامه تماماً، فتخفيه إخفاء كاملاً طوال مدة مروره. فما أن نفذت العربة إلى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنة. وسمع عدة أصوات آتية من الجهة الأخرى وراء العربية. كان هنالك أناس يصرخون ويتشاجرون. ولكن أحداً لم يلاحظه، ولم يلتقط بأحد البة. وكانت نوافذ كثيرة مطلة على الفناء المربع الواسع مفتوحة في تلك اللحظة. ولكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه. لقد كان لا يملك من القوة ما يمكنه من رفع رأسه. والسلم الذي يفضي إلى بيت العجوز يقع على اليمين قرب المدخل، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم... .

حبس راسكولنيكوف أنفاسه، وضغط بأحد يديه خفقات قلبه، بينما كانت الأخرى تتلقس الفأس وتعدل وضعها. وأخذ يصعد محاذراً هادئاً مصيخاً بسمعه في كل لحظة. ولكن السلم كان خالياً كل الخلو هو أيضاً. إن جميع الأبواب مغلقة. لم يلتقط راسكولنيكوف بأحد. صحيح أن باب شقة غير مسكونة، في الطابق الثاني، كان مفتوحاً. وأن عدداً من الدهانين يعملون في تلك الشقة، ولكنهم لم يلاحظوه. توقف راسكولنيكوف لحظة، وفكّر، ثم تابع الطريق وهو يحدّث نفسه قائلاً: «طبعاً، من الأفضل أن لا يوجدوا هنا... ولكن... ما يزال ثمة طابقان».

هذا هو الطابق الرابع أخيراً... هذا هو الباب... هذه هي الشقة المقابلة... إنها ما تزال خالية... وأغلب الظن أن الشقة التي تقع تحت مسكن العجوز في الطابق الثالث خالية أيضاً. إن البطاقة المسمرة على الباب قد زالت... معنى ذلك أن سكانها قد رحلوا... كان راسكولنيكوف يشعر باختناق. ومضت في ذهنه فكرة سريعة سرعة البرق: «ماذا لو انصرفت؟» ولكن لم يجب عن هذا السؤال، وأنصت يصغي إلى ما يجري في بيت العجوز: لا شيء إلا الصمت... صمت كصمت القبور. واستدار مرة أخرى نحو السلم، وتسمع مدة طويلة، بانتباه شديداً... وبعد ذلك، ألقى على ما حوله نظرةأخيرة، وتهيا، وعدل مقبض الفأس في العلاقة مرة أخرى. تساءل بينه وبين نفسه: «ألاست مسرفاً في الشحوب، مسرفاً في توتر الأعصاب؟ أنها شكاكة ريبة... أفلأ ينبغي لي والحاله هذه أن أنتظر... إلى أن يهدأ قلبي ويسكن روعي؟»

ولكن قلبه لم يهدأ. بالعكس: أخذ قلبه، كأنما على عمد، يدق دقاً أقوى فأقوى... لم يطق صبراً، فمدد يده ببطء إلى جبل الجرس، وشده، وبعد نصف دقيقة قرع الجرس مرة أخرى بقوة أكبر.

ما من جواب. فيم قرع الجرس بغير طائل؟ ثم إن هذا ليس بالمستحسن. لا شك أن العجوز في منزلها، ولكنها الآن وحيدة ولا بد أن تكون أكثر حذراً أو شكاً. لقد كان راسكولنيكوف يعرف بعض عاداتها...وها هو ذا يضع إذنه على الباب مرة أخرى. أكانت حواسه مشحونة شحذاً قوياً إلى هذا الحد - وذلك ما يصعب أن يسلم به الناس عمامة - أم أن الضجة كانت مسموعة حقاً؟ المهم أنه قد ميز، على حين فجأة، خشخثة يد محاذرة على مقبض الباب وخفيف ثوب يلامسه. لا شك أن أحداً يختبئ وراء هذا الباب، ويصيح بسمعه من الداخل، مثلما يصيح هو بسمعه من الخارج، حابساً أنفاسه مثله، واضعاً إذنه على الباب مثله أيضاً...

تعمد راسكولنيكوف أن يتحرك ، ودمدم بصوت عالٍ بغية أن لا تحس العجوز أنه يختبيء ، ثم قرع الجرس مرة ثالثة ، ولكنه قرعه في هذه المرة برفق وهدوء ورصانة ورزانة ، بغير تعجل يدل على نفاد الصبر . إن ذكرى هذه اللحظة ستعاوده في المستقبل واضحة مضيئة ، لأنها قد انطبعت في ذهنه إلى الأبد . إن راسكولنيكوف لم يستطع أن يفهم في يوم من الأيام بعد ذلك ، من أين جاءه ذلك المكر كله ، لا سيما أن فكره كان يظلم بين الفينة والفينية ، وأنه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه . . . وبعد لحظة سمع صوت الملاج يُسحب لفتح الباب .

## الفصل السابع

الباب قليلاً كما حدث في المرة الماضية، وحدقت إلى راسكولنيكوف من قراره الظلام عينان حادتان رباثتان. هنا فقد راسكولنيكوف هدوء أعصابه فارتكب خطيئة كبيرة أو شكت أن تفسد عليه كل شيء.

لقد خشي راسكولنيكوف أن تخاف العجوز من وجودها وحيدة معه، وكان لا يأمل أن يرد إليها مظهره طمأنيتها، فأمسك الباب وشده إليه، حتى لا يخطر ببالها أن تغلقه من جديد، فلما رأت العجوز ذلك لم تشد الباب إلى جهتها، ولكنها لم تترك قبضته أيضاً، فأوشكت أن تُجز إلى فسحة السلم. وحين رآها راسكولنيكوف ما تزال واقفة في العتبة لتسد الطريق، مشى إليها قدمأ، فإذا بذعر شديد يستولي عليها، وإذا هي تنقهقر إلى الوراء بوابة واحدة، وتحاول أن تقول شيئاً فلا تستطيع، وتشخص إليه بكل عينيها.

قال لها وهو يصطنع هيئة طلقة بقدر ما يستطيع ذلك:

- نهارك سعيد يا آليونا إيفانوفنا.

ولكن صوته لم يطعه، فقد كان متقطعاً مرتجفاً. وتتابع كلامه يقول لها:

- جئتكم بالرهن... ولكن فلنمض إلى هناك حيث الضوء أكثر...

ولم ينتظر أن تدعوه إلى الدخول بل دخل إلى الغرفة بخطى حازمة .  
جرت العجوز وراءه . وانحلت عقدة لسانها فقالت :

- رياه ! ما هذا ؟ من أنت ؟ ماذا تريد ؟

- عجيب يا آلiona ايفانوفنا . . أنا راسكولنيكوف . . إنك تعريفتي  
منذ مدة طويلة . . خذى . . لقد جئت بالرهن الذي وعدتك به آخر  
مرة . . .

قال لها ومد إليها الرهن .

أخذت العجوز تتفحص الرهن ، ولكن سرعان ما عادت عيناهما  
تحدقان إلى عيني الزائر الغريب . كانت تتفرس فيه بانتباه وخبث  
وخشية . انقضت دقيقة ، حتى لقد خُيل إلى راسكولنيكوف أنه يرى في  
عينيها نوعاً من السخرية ، كأنما هي قد أدركت كل شيء . شعر  
راسكولنيكوف بأنه يفقد سيطرته على نفسه ، وأن خوفاً يغزوه ، خوفاً  
يبلغ من الشدة أنه سوف يولي هارباً إذا هي ظلت تحدق إليه هذا  
التحقيق نصف دقيقة أخرى دون أن تقول كلمة واحدة .

قال فجأة ، بخبث أيضاً :

- ما بالك تنظرتين إليّ هكذا كأنك لم تعريفيني ؟ خذى الرهن إذا  
شئت . . . وإلا لجأت إلى غيرك ! ليس في وقتٍ متسع . . .  
إن راسكولنيكوف لم يشا أن ينطق بهذه الأقوال ، ولكنها أفلتت منه  
من تلقاء نفسها فجأة .

استردت العجوز هدوءها . اللهجة الجازمة في كلام الزائر قد أعادت  
إليها الثقة .

سألته وهي تنظر إلى الرهن :

- ولكن ، سيدى ، لماذا تفاجئني هكذا ؟ . . وما هو هذا الشيء الذي  
تريد أن ترهنه ؟

قال راسكولنيكوف :

- هو علبة سجائر مصنوعة من الفضة. حدثتك عنها في المرة الماضية.

مدت يدها وقالت :

- ولكن ما أشد شحوبك! ويداك ما بالهما ترتجفان! هل أنت مريض ، هه؟

أجابها بصوت متقطع :

- بي حمى! ..

ثم أضاف يقول بمشقة كبيرة :

- وحين لا يملك المرء ما يأكله فلا بد أن يشحب لونه! ..  
لقد بارحته قواه من جديد. ولكن جوابه كان معقولاً. تناولت العجوز الرهن.

سألت العجوز راسكولنيكوف، وهي تفترس فيه مرة أخرى، وتروز الرهن بيدها :

- ما هذا؟

- علبة سجائر... فضة... انظري.

- لا يبدو أنها من فضة! .. لكنك لفتها لفأ أكثر من اللزوم.

قالت ذلك وأخذت تحاول حلّ عقدة الخيط مقتربة من النافذة حيث كان الضوء أكثر (كانت جميع النوافذ في بيته مغلقة رغم الحرارة الخانقة). تركت راسكولنيكوف إذاً بضع لحظات، وأدارت له ظهرها. فلَك راسكولنيكوف أزرار معطفه وسلّ الفأس من العلاقة، ولكنه لم يخرجها إخراجاً تاماً، فهو ما يزال يمسكها بيده اليمنى تحت المعطف. لقد اعترى ذراعيه ضعفٌ شديد، وهو يحس أنهما تزدادان تحدراً وثقلان لحظةً بعد لحظة، وتصبحان أشبه بقطعتين من خشب. خشي أن يرخي

الفأس وأن يتركها تسقط... وأخذ رأسه يدور فجأة... هتفت العجوز تقول بزعل وهي تنوي أن تتقدم نحوه:

- من ذا يخطر بياله حقاً أن يربط صرّة هذا الربط؟

لم يبق في وقت راسكولنيكوف متسع للحظة يضيعها. وها هو ذا يخرج الفأس، ويشهرها بكلتا يديه، ويسقطها على رأس العجوز وهو لا يكاد يعي ماذا يعمل، ولا يكاد يبذل جهداً، حتى لتوشك أن تكون الحركة التي قام بها حركة آلية. لقد تمت هذه الحركة كما لو من تلقاء نفسها ودون أن تتدخل فيها قواه، ولكنها ما أن أسقط الفأس حتى عادت إليه قواه.

كانت العجوز عارية الرأس على عادتها، وكان شعرها الشائب، الخفيف، المُدهن، المزيت كثيراً، المضفور على صورة ذيل فأرة، المشدود ببقية مشط، كان يبرز ناثناً على قفا رقبتها. ولأن قامتها قصيرة فإن ضربة الفأس قد سقطت على قمة جمجمتها. أطلقت العجوز صرخة، ولكنها صرخة ضعيفة جداً. ومال جسمها إلى الأرض ولكنها استطاعت أن ترفع يديها إلى رأسها. وكانت ما تزال تمسك «الرهن» بإحدى يديها. هو راسكولنيكوف على رأسها بضربيه جديدة، ثم بضربيه أخرى، باذلاً كل ما يملك من قوة، وذلك بظهر الفأس أيضاً، وعلى قمة الجمجمة كذلك. انبعض الدم من الرأس كأنه ينسكب من كأس مقلوبة، وتهاوي الجسم إلى وراء. تقهقر راسكولنيكوف ليختلي لها مكاناً، ثم أسرع يميل على وجهها: كانت العجوز قد ماتت. لكن عينيها المحملتين تريدان أن تخروا من محجريهما. والوجه كله، ولا سيما الجبين، تبدو عليه علامات الانقباض والتشنج التي تصاحب الاحضار.

وضع راسكولنيكوف الفأس على أرض الحجرة قرب الميادة، وأسرع يدس يده في جيبها متحاشياً أن تتتسخ يداه بملامسة الدم. دس يده في

ذلك الجيب الأيمن الذي أخرجت منه العجوز مفاتيحها في المرة الماضية. كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه، كان لا يشعر بظلم فكره أو بدور في رأسه. إن يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان. سوف يتذكر راسكولنيكوف في المستقبل أنه كان في تلك اللحظة شديد الانتباه كثير الحذر، وأنه قد عرف كيف يتحاشى أن يلطخ يديه بالدم... سرعان ما أخرج راسكولنيكوف المفاتيح. كانت المفاتيح، كما في المرة الماضية، مجتمعة في حزمة واحدة تضمها بعضها إلى بعض حلقة من فولاذ. حمل راسكولنيكوف المفاتيح بيديه وهرول مسرعاً إلى غرفة النوم لا يضيع لحظة واحدة. إنها غرفة صغيرة جداً تتصلب فيها أيقونات في داخل خزانة كبيرة ذات زجاج. وعند الحائط المقابل يوجد سرير كبير، نظيف جداً، له غطاء من حرير، مبطن بالقطن ومصنوع من عدة أقمشة مجتمعة. وعند الجدار الثالث توجد الخزانة ذات الأدراج. شيء غريب: ما إن أخذ راسكولنيكوف يدخل أحد المفاتيح في قفل الخزانة، وما إن سمع صرير المفاتيح، حتى سرى في كيانه كله نوع من قشعريرة أو رعدة. وتمنى فجأة من جديد أن يدع كل شيء وأن ينصرف. ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة. لقد فاتت أوان الانصراف. وسخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه إلى الخطر. لقد خيل إليه بغتة أن العجوز ربما كانت ما تزال حية وربما تصحو من غيبوبتها. فإذا هو يترك المفاتيح والخزانة، ويعود إلى الجثمان راكضاً، ويتناول الفأس ويشهرها فوق العجوز مرة أخرى، ولكنه لا يسقطها عليها. لقد كانت العجوز ميته. لم يبق مجال للشك في هذا. وحين مال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها من قرب، رأى رؤية واضحة أن الجمجمة كانت قد انكسرت وأن قمتها كانت قد انحرفت قليلاً. اشتئى أن يضع هنالك إصبعه، ولكنه منع نفسه من ذلك: يكفيه أن يرى. وكان الدم قد شكل على أرض الغرفة أثناء ذلك بركة كبيرة. ولمح راسكولنيكوف، على حين فجأة، حبلًا صغيراً في عنق العجوز، فشده،

ولكن الحبل كان متيناً فلم ينقطع، وكان إلى ذلك مشرباً بالدم. حاول راسكولنيكوف أن يتزع الحبل. ولكن شيئاً ما كان يثبته. ثارت ثائرة راسكولنيكوف، فشهر الفأس من جديد، عازماً على أن يقطع الحبل فوق جسم العجوز، لكنه لم يجرؤ أن يفعل، واستطاع، بعد دققتين من الجهد، أن يقطع الحبل دون أن يحرّك الجثمان، ملطفاً بالدم يديه والفأس معاً. ثم سحب الحبل. لم يخطئ ظنه: هي صرّة مال. لقد عُلق بالحبل صليبيان، أحدهما من خشب السرو، والثاني من نحاس، وعلقت به أيقونة صغيرة مطلية بالمينا، وحافظة نقود من جلد شامواه، صغيرة متسخة كل الاتساخ، ولها إطار وحلقة من فولاذ. كانت حافظة النقود تبدو محسوسة حشوأ. وضعها راسكولنيكوف في جيبيه دون أن يدقق فيها. ثم ألقى الصليبيين على صدر العجوز. وركض إلى غرفة النوم من جديد، حاملاً الفأس في هذه المرة.

ويسرعة محمومة، أمسك المفاتيح، وعاد ينهمك في معالجتها، ولكن دون أن يفلح أيضاً، فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو أنه ملائم للقفل. ليس يرجع ذلك إلى أن يديه كانتا ترتجفان، وإنما يرجع إلى أنه كان يخطئ في كل مرة. كان يدرك مثلاً أن هذا المفتاح من المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب، وأنه لا يدخل في القفل، ومع ذلك كان يستمر على محاولة ادخاله. وفجأة تذكر وفهم أن المفتاح الكبير المستن الذي يتارجع الآن بين سائر المفاتيح الصغيرة، لا يناسب الخزانة ذات الأدراج حتىما (وذلك ما سبق أن قاله لنفسه في المرة الماضية)، بل يناسب صندوقاً ما، وأن كل شيء ربما كان مودعاً مخباً في ذلك الصندوق. ترك راسكولنيكوف الخزانة ذات الأدراج، وأسرع يندس تحت السرير، لعلمه بأن من عادة النساء العجائز أن يخفين صندوقهن في هذا المكان. ولم يخطئ في ظنه إذ كان يوجد تحت السرير فعلاً صندوق كبير، يزيد طوله على أرшин، وله غطاء محدود بمنجد بجلد رقيق أحمر تزيشه مسامير صغيرة من فولاذ. انطبق المفتاح

المستن على القفل انطبقاً تماماً، وفتح الصندوق. هذا معطف من فرو الأرب ببطن بحرير أحمر، يعلو سائر الأشياء التي يضمها الصندوق، ويحميه شرشف أبيض يوجد تحته فستان من الحرير ثم شال. وفي قراره الصندوق لا يبدو أنه يوجد إلا خرق. أخذ راسكولنيكوف يمسح بالبطانة الحمراء يديه الملطختين بالدم، قائلاً لنفسه: «هي حمراء، والدم لا يُرى على قماش أحمر كما يُرى على غيره»، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك، وتساءل مذعوراً: «رباه! أنا بسييل أن أصبح مجنوناً؟».

غير أنه ما كاد يحرك الخرق الموجودة في قراره الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف، على حين فجأة، ساعة ذهبية. فقلب راسكولنيكوف عندئذ كل ما يضمها الصندوق.

كان بين الخرق، فعلاً، أنواع شتى من أشياء ذهبية (لعلها أشياء رهنها أصحابها عند آليونا ايفانوفنا ثم لم يستردوها): فهناك أساور وسلسل وأقراط ودبابيس لرباط العنق وغير ذلك. إن بعض هذه الأشياء موضوع في علب، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخيط في عناية وحرص. أسرع راسكولنيكوف يحشو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه، مهملاً حتى إن يغض الضرر ويفتح العلب. ولكن وقته لم يتسع لأخذ مقدار كبير من هذه الأشياء...

ذلك أنه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام في الغرفة التي يرقد فيها جثمان العجوز. تجمد وانشد حتى لكانه ميت. ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيم. فظن أنه كان ألعوبة وهم من أوهام الخيال. وما هي إلا برهة وجيبة حتى سمع صرخة ضعيفة تنطلق على حين بغته، كانت تلك الصرخة أشبه بأنه خافته متقطعة، ثم عاد الصمت يخيم من جديد. إن صمتاً كصمت الموت قد ساد الجو خلال دقيقة أو دقيقتين. قرفص راسكولنيكوف قرب الصندوق يتضرر، وهو لا يتنفس إلا بكثير من العناء. ثم نهض بوئبة واحدة، فأنمسك الفأس، واندفع يخرج من غرفة النوم.

في وسط الغرفة كانت اليزافيتا واقفةً وفي يدها سلة كبيرة. إنها تنظر إلى أختها الميّة مذعورة مصعوقة. كان وجهها شاحباً شحوباً شديداً، وكانت كأنها لا تملك من القوة ما يمكنها من أن تصرخ. فلما رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة في مهب الريح. وسرت في جسمها كله رعدة قصيرة متقطعة. وتقبض وجهها بتشنجات. رفعت ذراعها، وفتحت فمها، دون أن تصرخ مع ذلك، وأخذت تتقهقر إلى الوراء بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف، محاولةً أن تلطم في ركن من الأركان. وكانت أثناء ذلك تحدق إليه وتتفرس فيه، ولكنها ما تزال خرساء لا تنطق، كأنما انقطعت أنفاسها. هجم راسكولنيكوف عليها مسلحاً بفأسه. تقلصت شفتا اليزافيتا من الألم، وكأنها طفل من أولئك الأطفال الصغار جداً الذين إذا رأوا الشيء الذي يخيفهم، همّوا أن يصرخوا دون أن يحولوا نظراتهم عن الشيء الذي يثير خوفهم. مسكونة اليزافيتا! كانت تبلغ من السذاجة والبساطة ومن فرط ما عانته من اضطراب ورعب في حياتها أنها لم ترفع حتى ذراعها لتحمي وجهها، مع أن هذه الحركة هي الحركة الطبيعية في مثل تلك اللحظة، لأن الفأس إنما كانت مصوّبة إلى رأسها. اكتفت اليزافيتا بأن رفعت قليلاً يدها اليسرى التي لا تحمل شيئاً، فمدتها ببطء نحو راسكولنيكوف كأنما تدفعه عنها. هو راسكولنيكوف عليها بحد الفأس، فأصابت الضربة ججمتها، وشققت أعلى جبينها حتى النافوخ تقريباً. سقطت اليزافيتا على الأرض كتلة واحدة، فتناول راسكولنيكوف سلطها، وقد طار صوابه كله، فرمها وأسرع راكضاً إلى حجرة المدخل.

كان الذعر يستولي عليه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء، ولا سيما بعد جريمة القتل الثانية هذه التي لم تكن في الحسبان قط. إنه الآن يتوجّل مغادرة المكان بأقصى سرعة. ولو كان عندئذ في حالة تمكّنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكّر تفكيراً أسلم، لو استطاع أن يدرك صعوبة وضعه الذي يتصف بأنه يائس فظيع مستحيل، لو استطاع أن يتصور،

عما ذلك، العقبات الكثيرة التي ما يزال عليه أن يجتازها، وربما الجرائم الكثيرة التي سيرتكبها لانتزاع نفسه من هذا البيت والعودة إلى مسكنه، إذن لكان من الجائز جداً أن يترك كل شيء، وأن يبادر فوراً إلى تسليم نفسه، لا عن خوف، بل عن شعور بالهول والاشمئاز مما فعل. لقد كان الاشمئاز، خاصةً، يزداد دقةً بعد دقيقة. ما كان له الآن، بحال الأحوال، أن يقترب من الصندوق، أو حتى من الغرفة.

ولكن نوعاً من الذهول، بل ومن الحلم، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء، حتى لكانه في بعض اللحظات قد نسي نفسه، أو قل نسي الأمر الأساسي وتبثث بالتفاصيل وحدها. وحين ألقى نظرة على المطبخ لمح دلواً موضوعاً على دكة، وممتلئاً نصفه بالماء. فارتأى أن يغسل فيه يديه والفأس. كانت يداه الملطختين بالدم لزجتين. أغطس حذ الفأس في الماء، وتناول من على حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة في صحن، وأخذ يغسل يديه داخل الدلو. فلما انتهى من غسلهما، سحب الفأس، فنظف نصلها، ثم لبث ثلاث دقائق كاملة بذلك مقبضها في الموضع الملطخ بالدم، حتى لقد استعمل في تنظيف الصابون. وبعد ذلك مسح الفأس كلها بخرقة كانت تجف على مقربة منه فوق حبل مشدود بانتباه شديد. لم يبق على الفأس أي أثر، ولكن مقبضها ما يزال رطباً. دس راسكولنيكوف الفأس في العلاقة التي خاطها في داخل معطفه، ثم أخذ يفحص المعطف والسروال والحداءين، بالقدر الذي أتاحه له النور الضعيف. لا شيء، من النظرة الأولى، يبدو على مظهره من خارج. على الحداءين وحدهما كان يمكن أن يرى الناظر بضع بقع. بل راسكولنيكوف خرقه ومسح الحداءين. على أنه كان يعرف أنه لا يفحص نفسه جيداً، وأنه ربما كان هنالك شيء يخطف الأبصار ولكنه لا يلاحظه. وقف في وسط الغرفة حائراً. وهذه فكرة مظلمة قاتمة تغزوه، وهي أنه يتصرف تصرف مجنون، وأنه لا يملك في هذه اللحظة لا القدرة على التفكير ولا القدرة على الدفاع عن نفسه،

وأن ما يجب عليه أن يفعله قد يكون غير ما يفعله الآن. دمم يقول:  
«رباً! إن عليَّ أن أهرب، أن أهرب!» واندفع نحو حجرة المدخل.  
ولكن هناك إنما كان يتظاهر رعب لم يشعر بمثله في حياته!

لبث راسكولنيكوف جاماً لا يتحرك، وأخذ ينظر فلا يصدق عينيه:  
إن الباب الذي يفضي إلى فسحة السلم، هذا الباب الذي قرع جرسه  
ودخل منه منذ قليل، هو الآن مفتوح، لا مفتاح ولا مزلاج إذن، طوال  
الوقت الذي انقضى! إن العجوز لم تغلق الباب إذن بعد دخوله، ربما  
من باب الاحتياط والحدراً! ولكن ما هذه الخواطر؟ ألم يرَ اليزايفينا بعد  
ذلك؟ فكيف لا يخطر بباله أنها لا بد أن تكون قد دخلت من مكان ما؟  
إنها لم تخترق الجدران على كل حال!

وأسرع راسكولنيكوف إلى الباب فأوصد المزلاج.  
ثم سرعان ما قال يحدث نفسه:

- لا، لا، ليس هذا ما يجب عليَّ أن أفعله. ينبغي أن أصرف، أن  
أنصرف...

وسحب المزلاج، وفتح الباب، وأخذ ينصلت إلى ضجات السلم  
متجسساً.

لبث يتتجسس لهذا التجسس مدةً طويلة. هناك، في بعيد، ربما عند  
باب العمارة، أصوات رجلين صارخين معولين، يتشارجران ويتشارمان. تساءل راسكولنيكوف: «ما بالهما؟» وانتظر صابراً. وصمت كل شيء  
في آخر الأمر دفعةً واحدة: افترق الرجالان. استعد راسكولنيكوف  
للخروج، فإذا بباب في الطابق الأسفل يُفتح على حين فجأة صاحباً،  
فيخرج منه أحدٌ ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يندنن لحنناً من  
الألحان. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «ولكن ما بالهم يحدثون  
مثل هذه الضجة جمِيعاً؟» وعاد يغلق الباب عليه من جديد، وانتظر.  
وأخيراً انقطعت كل ضجة، فما من حركة وما من نومة. خرج

راسكولنيكوف . ولكته ما أأن وضع قدمه على أول درجة من درجات السلم حتى سمع مرة أخرى أصوات وقع أقدام .

إن أصوات وقع الأقدام هذه آتية من بعيد ، من أسفل السلم ، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد ، تذكر تذكرًا واضحًا جدًا ، أنه منذ سمع صدى أول خطوة ، أوجس فوراً من أن ذلك آت إلى هنا حتماً ، إلى مسكن العجوز . لماذا؟ ماذا كان في تلك الضجة من شيء خاص ذي دلالة إلى هذا الحد؟ كانت الخطوات ثقيلة ، موزونة ، أميل إلى البطء ، ها هو «القادم» يجتاز الطابق الأرضي ، يستمر في الصعود ، إن صوت وقع خطاه يزداد قوة ، وما ينفك يزداد قوة! إن راسكولنيكوف يسمع الآن لهاته . ها هو ذا يبلغ الطابق الثاني . . . هو قادم إلى هنا! أحسن راسكولنيكوف فجأة بتجميد في جسمه . إن الأمور تجري كما تجري في الأحلام تماماً ، حين يرى النائم نفسه ملاحقاً مطارداً ، فيتحقق به خصمه ، ويصبح مهدداً بالموت ، فيظل مسماً في مكانه إن صح التعبير ، عاجزاً عن تحريك ذراعيه .

ولم يشب راسكولنيكوف إلى رشده إلا حين أخذ القادر يعبر إلى الطابق الثالث . فاستطاع عندئذ أن يرجع إلى البيت مسرعاً محاذراً ، وأغلق على نفسه الباب ، ثم أمسك المزلاج دفعه دفعاً رفياً بلا ضجة ، تقوه في ذلك غريزته ، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه . وكان القادر المجهول قريباً من الباب هو أيضاً . إن كلاً من الرجلين يقف الآن أمام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والعجوز منذ قليل ، حين لم يكن يفصل بينهما إلا سُمك الباب ، وحين كان راسكولنيكوف مصيخاً بسمعه يتنصلت .

تنفس الزائر عدة مرات بمشرفة كبيرة . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه وقد تقلصت يده على الفأس : «لا بد أنه طويل وضخم». حقاً إن ذلك كله يشبه الأحلام شبههاً كبيراً . أمسك الزائر حبل الجرس ، وشده شدأً قوياً .

فما أن دوى رنين الجرس حتى أحس راسكولنيكوف بأنه يسمع ضجة خفيفة في الغرفة كأن أحدا قد تحرك، حتى لقد أنصت جاداً بضع ثوان، وقع الزائر المجهول الجرس مرة أخرى وانتظر ثم إذا هو يثور على حين فجأة ويأخذ يهز قبضة الباب بكل ما أوتي من قوة. فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً إلى المزلاج الذي أخذ يتهتز في الرزة. إن راسكولنيكوف يتوقع، وقد شله الرعب، أن يرى المزلاج ينخلع من لحظة إلى أخرى. والحق أن انخلاع المزلاج لم يكن مستحيلاً. فلقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع المزلاج. خطر ببال راسكولنيكوف في لحظة من اللحظات أن يسند المزلاج بيده. ولكنه أمسك عن ذلك، لأن الرجل كان سيلاحظ هذه الحركة. أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار، وقال يحدث نفسه: «ها أنا ذا أوشك أن أقع». ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم، فسرعان ما ثاب راسكولنيكوف إلى رشده.

زار الرجل المجهول يقول بصوت أحش:

وُجُنَّ من الغضب مِرَةً أخْرَى فَشَدَ حَبْلَ الْجَرْسِ بِكُلِّ قُوَّاهُ عَشَرَ مَرَاتٍ  
مُتَتَالِيَّةٍ. لَا شُكَّ أَنَّهُ رَجُلٌ خَطِيرٌ الشَّأْنُ، وَأَنَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ رَوَادِ هَذَا  
الْمَتَنِ الْذِينَ أَلْفَوْا التَّدَدَ إِلَيْهِ.

وفي تلك اللحظة نفسها سمع صوت وقع خطوات صغيرة متوجلة على درجات السلم. كان شخص آخر يقترب. ولم يسمع راسكونيكوف ضجة مجئه في أول الأمر.

صاحب القادر الجديد يقول بصوت رنان مرح مخاطباً الزائر الأول الذي  
كان لا يزال يشد الحبال:

- هل يمكن أن لا يكون في البيت أحد؟ نهارك سعيد يا كوخ!  
قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «صوته يدل على أنه شاب في  
ريغان الشباب».

أجاب كوخ:

- لا يعلم إلا الشيطان ماذا جرى! لقد أوشكت أن أكسر القفل.  
ولكن كيف تعرفني أنت؟

- ما هذا الكلام؟ ألم أغلكم أمس الأول ثلاثة مرات متتالية في  
البلياردو بمقهى «جامبرينوس»؟  
- آ...

- أليستا إذاً في البيت؟ هذا شيء غريب! وهو فوق ذلك شيء  
مزعج! أين عساها ذهبت، هذه العجوز؟ لقد كنت آتيا إليها لأعمال...  
- أنا أيضاً آت إليها لأعمال، يا صديقي! ..

صاحب الشاب يقول:

- ماذا فعل الآن؟ يا لسوء الحظ! كنت أحسب أنني سأحصل على  
بعض المال.

- طبعاً لم يبق لنا إلا أن ننصرف، ولكن لماذا حددت لي موعداً؟ يا  
للعجز الشمطاء! هي التي حددت لي هذا الموعد! وقد اضطررت من  
أجل الوصول أن أدور دورة طويلة. أين عساها ذهبت؟ إنني لا أفهم!  
إنها تقع في بيتها طوال العام، هذه العجوز الشمطاء... وتععن في  
مكانها لا تبارحه... لأنها تشكو من أوجاع ساقيها فما بالها تمضي  
تجول الآن على حين فجأة؟ ..

- ما رأيك الآن في أن نسأل البواب؟  
- نسأله عماداً؟

- نسأله عن المكان الذي ذهبت إليه، وعن الوقت الذي ستعود فيه!

- هم... نسأل؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذي ذهبت إليه  
وهي لا تذهب إلى أي مكان في يوم من الأيام؟

قال الرجل ذلك وشد قبضة الباب مرة أخرى، ثم أضاف:

- لا فائدة! لم يبق إلا أن ننصرف!

صرخ الشاب على حين فجأة قائلاً:

- انتظر! انتظر... إن الباب يتحرك حين يُهزّ.

- وماذا في هذا؟

- هذا يعني أن الباب ليس مغلقاً بالمفتاح، وإنما هو موصد بالمزلاج  
وحده. إلا تسمع صرير المزلاج؟

- وعلى أي شيء يدلّ هذا؟

- كيف لا تفهم؟ هذا يدلّ على أن إحداهما، في أقل تقدير، موجودة  
في البيت، فلو أنهما خرجتا كلتاهما لأغلقتا الباب بالمفتاح من خارج، لا  
بالمزلاج من داخل. إنك تسمع صرير المزلاج... لا تسمعه؟ ومن  
أجل إغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون في البيت أحد. هل  
فهمت؟ هما إذن في بيتهما، ولكنهما لا تريдан أن تفتحا.

صاح كوخ يقول مدهوشًا:

- حقاً... حقاً! تُرى ماذا تصنعن؟

وراح يهز الباب غاضباً من جديد.

هتف الشاب يقول مرة أخرى:

- انتظر! كفاك هزا للباب! إن في الأمر سراً! لقد قرعتَ الجرس  
وهزّت الباب فلم تفتحا!... معنى هذا، إما أنهما مغشياً عليهما، وإما  
أنهما... .

- وإنما أنهما ماذا؟

- هلم نستدعي البواب. الأفضل أن يتولى هو إيقاظهما!

موافق !

وأخذ الرجلان يهبطان على السلم . ولكن الشاب ما لبث أن قال :

- انتظر! أبق أنت هنا، وأنا استدعى البواب.

أبقى هنا؟ لماذا؟

- لا يدرك أحد ماذا يمكن أن يحدث.

- لک ما تشاء . . .

**قال الشافعى لهجة مت حمسة:**

- أرأيت؟ إنني أهبيء نفسي لوظيفة قاضي تحقيق! الأمر واضح،  
وأ... . ضع! لا شك أن هناك سراً.

واندفع الشاب راكضاً على السلم.

فلما أصبح كوخ وحيداً شد حبل الجرس برفق، فرن الجرس رنة واحدة، ثم هز قبضة الباب مرة أخرى ببطء، كمن يفكر أن يحاذر، فهو يشدّها إليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصدًا إلا بالمزلاج. ثم زفر زفارة قوية ومال إلى تحت، ونظر من ثقب القفل، ولكن المفتاح كان مدسوساً في القفل من الداخل، فلا يمكن أن يُرى شيء.

لبيث راسكولنيكوف ساكنًا جامدًا، قابضًا على فأسه. كان في حالة قريبة من الهذيان. حتى لقد كان يتهيأ لأن يقاتلهما متى دخلا. ولقد خطر بباله مرارًا حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسم الأمر دفعة واحدة فيناديهما من خلال الباب. واستبدت به في بعض اللحظات رغبة مجنونة رعناء في أن يسخر منهما، وأن يستهزئ بهما، وأن يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتحا الباب. لقد ومضت في ذهنه بمثل سرعة البرق هذه الفكرة: «الأفضل أن يتم الأمر بأقصى سرعة».

وكان الوقت ينقضي. مضت دقيقة، ومضت دقيقة أخرى... دون أن يرجع أحد. أخذ كوخ يضطرب. وها هو ذا يهتف فجأة:

- اللعنة! ما شأني أنا؟

ونفذ صبره، فترك مكانه، وذهب بسرعة هو أيضاً. إن أصوات وقع حذاءيه تدوّي على السلم. ثم انقطعت هذه الأصوات.

- ما العمل يا رب؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم سحب المزلاج وشق الباب. لم يسمع أية نائمة. وبدون أن يفكر مزيداً من التفكير، خرج على حين فجأة وأغلق الباب وراءه بقدر ما يستطيع من احكام، واندفع بهبط السلم.

حتى إذا اجتاز طابقين تقريباً سمع صخباً شديداً يدوّي تحت. أين يختبئ؟ لم يعرف أين يستطيع أن يختبئ. حتى لقد تهياً لأن يقفل راجعاً وأن يعود إلى بيت العجوز ركضاً.

- هيء، لعنة الله عليه! يا للشيطان! أوقفوه!

إن الشخص الذي أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة في أسفل، وأخذ يهبط السلم تدريجاً إن صح التعبير، صائحاً بأعلى صوته:

- ميتكا! ميتكا! ميتكا! (37) شيطان يقشر جلدك! يا للجنون!

وانتهى الصراخ بعويل حاد، فكانت أصواته ترجع في فناء المنزل ثم صمت كل شيء. ولكن في تلك اللحظة نفسها أخذ عدة رجال يصعدون السلم محدثين ضجة كبيرة وهم يتكلمون كثيراً بصوت عالٍ. لعل عددهم ثلاثة أو أربعة. وميز راسكولنيكوف ذلك الصوت الرنان، صوت الشاب الذي كان يرابط على الباب مع كوخ منذ قليل. قال لنفسه: «إنهم هم!».

شعر راسكولنيكوف بيأس مطلق فمضى إلى لقاءهم قديماً قائلاً لنفسه: «ليكن ما يكون!». لقد ضاع كل شيء: إذا استوقفوه فقد ضاع كل شيء، وإذا تركوه يمر فقد ضاع كل شيء أيضاً لأنهم سيذكرونها... أوشكوا أن يلتقاو. ليس يفصلهم الآن إلا طابق واحد! وإذا بالنجاة تؤاتيه فجأة! وبعد بعض درجات، على اليمين، كانت هناك

شقة خالية مفتوحة بابها، هي تلك الشقة نفسها التي تقع في الطابق الأول التي كان يعمل فيها الدهانون. لقد غادر الدهانون منذ قليل، بمصادفة تشبه أن تكون عمداً. لا شك أنهم هم الذين خرجنوا منذ قليل محدثين صخباً شديداً. إن خشب الأرض في هذه الشقة ما يزال طلاؤه غضاً. وفي وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً وفرشاة كبيرة. تسلل راسكولنيكوف إلى الشقة من الباب المفتوح في مثل لمع البصر سرعةً، والتنصق بالحائط. وحسن ما فعل لأن الرجال كانوا قد وصلوا إلى فسحة السلم، فداروا وصعدوا إلى الطابق الثالث، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال. انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رؤوس الأصابع وأخذ يهبط السلم راكضاً.

ما من أحد كان على السلم! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العماره! اجتاز العتبة مسرعاً، حتى إذا سار في الشارع، التفت يسراً.

كان يعلم حق العلم، كان يعلم علم اليقين أنهم في هذه اللحظة نفسمها موجودون في بيت العجوز، وأنهم قد دهشوا أشد الدهشة حين رأوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً منذ قليل، وأنهم ينظرون إلى الجثتين، وأنهم لن يحتاجوا إلى أكثر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الإدراك أن القاتل قد بارح المكان منذ برهة وجيبة، وأنه أفلح في الاختباء بمكان ما، وأنه قد تسلل من بين أصابعهم إن صح التعبير. ولعلهم قدروا أيضاً أن هذا القاتل قد اعتصم بالشقة الخالية بينما كانوا يصعدون السلم. ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف أن يتعجل سيره، رغم أنه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل إلى المنعطف التالي. تسأله: «ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب؟» ماذا لو انتظرتُ فترة ما في سلم متزل مجھول؟ ثم أجاب عن سؤاله بقوله: «لا، هذارأي فاسد!» وتسأله أيضاً: «ماذا لو رميتك الفأس في مكان ما؟ ماذا لو رکبت عربة؟» ثم أجاب عن سؤاله بقوله: «لا، هذارأي فاسد، رأي فاسد!».

وها هو ذا يصل أخيراً إلى زقاق، فيدخل فيه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. ولكنه فهم أنه الآن تملص من الورطة أو يكاد إذ أنه في هذا الزقاق لا يشير حوله الشبهات كما يمكن أن يشيرها هناك. ثم إن الناس يذهبون ويجيئون هنا كثيراً فضاع راسكولنيكوف في الجمهور كحبة رمل. ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدت قواه، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير. كان العرق يسيل منه، وكانت عنقه مبتلة مخضلة، حتى إن أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف إلى القناة: «يا للسكران!»

أصبح راسكولنيكوف لا يعي نفسه كثيراً، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة. إن اللحظة الوحيدة التي بقيت في ذاكرته هي اللحظة التي وصل فيها إلى رصيف القناة، فأرعبه أن يرى الناس هناك قليلاً، فمن الممكن أن يلاحظ. فأوشك عنده أن يعود أدراجه إلى الزقاق. ومع ذلك، ورغم أنه قد بلغ من الضعف حداً لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، فقد دار دورة طويلة، ورجع إلى بيته من جهة أخرى تماماً.

وحين اجتاز مدخل العمارة التي فيها بيته، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد. ومهما يكن من أمر فإنه لم يتذكر الفأس إلا حين صار على السلم، مع أن هذه المسألة هي من أخطر المسائل التي كان عليه أن يحلها. لقد كان عليه أن يعيد الفأس إلى مكانها مهما كلف الأمر، وذلك على أخفى نحو ممكן. يجب أن نذكر أنه كان بطبيعة الحال عاجزاً عن أن يتصور أن من الأفضل له، بدلاً من إعادة الفأس إلى مكانها، أن يرميها، ولو بعد مدة، في أي مكان، في فناء عمارة من العمارات.

جرى كل شيء على خير وجه. كان باب غرفة الباب مغلقاً، ولكنه ليس مفلاً بالمفتاح. معنى ذلك أن الباب لا بد أن يكون في غرفته.

ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ من العجز عن التفكير في أي شيء، فاقبل على غرفة الباب بخطى حازمة، وفتح الباب. ولو قد سأله الباب عندهما: «ماذا تريدي؟» لكان من الممكن أن لا يزيد على أن يمد إليه الفأس. ولكن الباب كان غائباً في هذه المرة أيضاً، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد الفأس إلى مكانها تحت الدكة، حتى إنه لم يفته أن يضع فوقها الحطبة التي كانت موضوعة عليها حين أخذها. واستطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفته دون أن يصادف في طريقه أي مخلوق. وكان باب صاحبة البيت مغلقاً. حين دخل راسكولنيكوف حجرته ارتدى على الأريكة دون أن يخلع ملابسه. ولم ينم. كان في حالة تشبه التخدر، فلو دخل عليه أحد في ذلك الوقت، لأسرع يشب عن سريره واقفاً، ولاخذ يصرخ. إن شذرات من أفكاره تتصادم في رأسه، ولكنه، رغم الجهود التي بذلها، لم يستطع أن يقبض على أية فكرة من تلك الأفكار، ولم يستطع أن يستقر على واحدة منها... .



## الجزء الثاني



## الفصل الأول

لبن راسكولنيكوف راقداً زمناً طويلاً. وكان يتفق له أن يستيقظ نصف استيقاظ، فكان يلاحظ أثناء تلك الدقائق القليلة أن الليل قد حل منذ وقت بعيد، ولكن لم يخطر بباله قط أن ينهض. ورأى أخيراً أن النور قد انتشر فكانه النهار. كان مستلقياً على ظهره، وهو ما يزال على تلك الحال من التخدير. ومن الشارع، كانت تصل إليه أصوات عوiel رهيبة، وهي أصوات كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته بعد الساعة الثانية من الصباح، وكانت هي التي توقيظه من نومه. قال راسكولنيكوف لنفسه: «آ... ها هم السكارى يخرجون من خماراتهم. لا شك أن الساعة تجاوزت الثانية!» وبوبية واحدة، نهض على حين فجأة عن الأريكة وقال يخاطب نفسه: «ماذا؟ تكون الساعة تجاوزت الثانية؟» ثم عاد يجلس على الأريكة، وسرعان ما عاد إلى ذهنه كل شيء، فاذا هو يتذكر كل ما حدث، دفعه واحدة في لحظة قصيرة.

اعتقد في أول الأمر أنه فقد عقله، وهذا هي ذي رعدة باردة تسري في جسمه. ولكن هذه الرعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التي انتابته منذ مدة بينما كان نائماً، وهي تهزه الآن هزاً يبلغ من القوة أن أسنانه تصطك. ففتح الباب وأصاخ بسمعه: كان كل شيء في المنزل ينام نوماً عميقاً. دُهش، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله. لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه، في الليلة

البارحة، حين دخل غرفته، أن لا يوصدها بالكلابة، وأن يرتمي على أريكته دون أن يخلع ملابسه، بل ودون أن يخلع قبعته. كانت القبعة قد تدحرجت على الأرض فهي ترقد الآن قرب الوسادة. تساءل راسكولنيكوف: «لو دخل عليّ أحد، فماذا كان يمكن أن يظن؟ أكان يمكن أن يظن أنني سكران، ولكن...» وهرع نحو النافذة. كان الضوء منتشرًا. وأسرع يتفحص نفسه من القدمين إلى الرأس ليرى إلا يزال على ثيابه آثار. ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه إن هذه الطريقة ليست هي الطريقة التي يجب عليه أن يتبعها، ثم نضا عنه ثيابه وأخذ يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجافاً شديداً. قلب ثيابه ثم قلبها، منقباً في كل درزة. ثم لم يشق بحسن ملاحظته، فأعاد فحصها مرة ثالثة. ولكن لم يكن ثمة شيء. كان يبدو فعلاً أنه لم يبق أي أثر، إلا بضع قطرات من دم متختز في أسفل سرواله المهترئ المنسل. تناول سكيناً مطوية كبيرة فقصّ بها حاشيتي السروال. كان يبدو حقاً بأنه ليس ثمة آثار غير هذه الآثار. وتذكر فجأة أن حافظة النقود والأشياء التي أخرجها من صندوق العجوز ما تزال حتى الآن في جيبه. لم يكن قد خطر بباله أن يخرجها من الجيب وأن يخبيها، لا ولا فكر فيها منذ قليل، حين كان يفتش ثيابه. ما معنى هذا؟ وما هو ذا قد أخذ يسلّها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعة، ثم يرميها على المنضدة. حتى إذا فرغ من إخراج كل شيء، ثم قلب الجيوب ليتأكد مزيداً من التأكد أنه لم يبق في الجيوب شيء، مضى يضعها جميعاً في أحد الأركان. ففي أسفل ذلك الركن يوجد ثقب تحت الورق الذي يغطي الجدار والذي كان متزوعاً ممزقاً. فما هي إلا لحظات حتى دسّ جميع الأشياء في الثقب تحت الورق، وقال يحدث نفسه: «حسن! دخل كل شيء! لا أحد رأى ولا أحد عرف! حتى حافظة النقود اختفت!» قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر ببلادة إلى الركن وقد أصبح ورق الحائط منتفخاً على نحو واضح. ارتعش من الرعب، ودمدم يقول يائساً: رياه! ماذا فعلت؟

أهكذا يُخبأ شيء من الأشياء؟»

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدر أنه سيأخذ من عند العجوز أشياء، وإنما كان يتصور أن لا يجد إلا مالاً، لذلك لم يهرب مخبأً يخفي فيه ما يأخذ من أشياء. قال يسأل نفسه: «ولكن هل هناك الآن ما يدعوه إلى الابتهاج؟ أهكذا يخبا شيء من الأشياء؟ حقاً لقد ذهب عقللي!» وتهالك على الأريكة مهدود القوى خائز العزم، وسرعان ما عادت إليه تلك الرعدة التي لا تطاق. وها هو ذا يشد إليه، على نحو آلي، معطفه القديم الذي كان يرتديه طالباً، والذي يوجد الآن على كرسي، وهو معطف شتوي دافئ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقة بالية. شد راسكولنيكوف المعطف، وغطى به جسمه. فاستولى عليه النوم والهديان من جديد، وغاب عنه شعوره.

فما أن انقضت خمس دقائق حتى وثب عن أريكته مرة أخرى، وعاد يسرع إلى ثيابه سائلاً نفسه: «كيف أمكنني أن أنام بينما لم أفعل شيئاً بعد؟ نعم، إنني لم أفعل شيئاً بعد! حتى العلاقة لم أنزعها من تحت الإبط حتى الآن! كيف أمكنني أن أنسى أمراً هاماً كهذا الأمر، كيف أمكنني أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة؟» وانتزع العلاقة، ثم أسرع يقطعها قطعاً صغيراً يرميها واحدة بعد واحدة تحت الوسادة بين الغسيل: إن قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بحال من الأحوال، أو هذا ما يخيل إلي...» ذلك ما كان يرددده راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة. ثم أخذ يجيل بصره حواليه، على أرض الغرفة، في جميع الجهات، ليرى هل أغفل شيئاً من الأشياء. فعل ذلك وهو يشعر بتتوثر مؤلم. لقد كان على يقين من أن كل شيء ببارحه، حتى ذاكرته، وحتى أية قدرة على التفكير، فكان ذلك يعتذبه عذاباً لا طاقة له به. قال يسأل نفسه: «ماذا؟ أيكون الأمر قد بدأ منذ الآن؟ أيكون هذا هو العقاب؟ نعم، نعم، هذا هو العقاب!» وعشر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاة على الأرض يستطيع أن يراها أول قادم. فصرخ يقول وقد تاه عقله من جديد: «ماذا فعلت؟»

هنا راودته فكرة غريبة: ربما كانت ثيابه نفسها مغطاة بالدم، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنها لا يراها ولا يلاحظها لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم! .. وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال لنفسه: «معنى هذا أنه لا بد أن يكون في الجيب دم، لأنني دست حافظة النقود في الجيب رطبة مخضلة». وقلب جيده في مثل لمح البصر سرعة، فتحقق من صدق ظنه: كان في بطانة الجيب بقع دم فعلاً! قال لنفسه: «إذا لم يذهب عقلي ذهاباً تماماً، وما زلت أحتفظ بفكري وذاكري! .. ولو لا ذلك لما اتبعته، ولما كنت قادرًا على استنتاج تلك النتيجة!» قال ذلك وهو يشعر بالانتصار، حتى لقد أفلتت من صدره تنهيدة فرح. وأردف يخاطب نفسه: «لم يكن ذلك إذا إلا غيبة عابرة، لم يكن إلا وهنا ناشئاً عن الحمى!» وانتزع من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر. وفي تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر فأثاره، فرأى راسكولنيكوف آثار دم على الجورب الذي كان خارجاً من الحذاء. «نعم، هي آثار دم. إن كل طرف الجورب مرتوي بالدم!» أغلب الظن أنه لم يحاذر فمثى على بركة الدم، وكان حذاءه مثقوبين! .. تسأله راسكولنيكوف: «ولكن ما العمل بهذا، الآن؟ أين أضع هذا الجورب، وقصاصات حافة السروال وبطانة الجيب؟»

لم كل شيء، وأمسكه بيده، ولبث واقفاً جامداً في وسط الغرفة. قال يحدث نفسه: «أرميه في المدفأة؟ لا! .. فإنهم سيفتشون المدفأة قبل أن يفتشوا أي مكان آخر! أحرقه؟ ولكن بماذا أحرقه؟ ليس عندي عيدان كبريت. خير من ذلك أن أخرج فأمضي أرمي هذا كله في مكان ما! نعم، الأفضل أن أرمي هذا كله!» ذلك ما ردده راسكولنيكوف وهو يجلس على الأريكة من جديد. وأضاف: «ويجب أن أرميه فوراً، يجب أن لا أضيع وقتاً، يجب أن أرميه في هذه الدقيقة نفسها! ..» ولكن رأسه هو على الوسادة من جديد، ومن جديد عاودته الرعدة الباردة التي لا

تطاقي، ومن جديد شد إليه معطفه يغطي به جسمه. وقد ظلت هذه الفكرة الواخزة توافيه مدة طويلة، خلال ساعات عدة، «عليه فوراً، بلا ابطاء، أن يخرج فيرمي هذا كله في مكان ما، حتى لا يراه أحد، وأن عليه أن يفعل ذلك بسرعة، بسرعة كبيرة، بأقصى سرعة ممكنة!» وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان. ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض. وهذه ضربة شديدة على الباب ترد إليه شعوره.

- هلا فتحت الباب أخيراً! أنت حتى أم لا؟ إنه لا يفعل شيئاً غير أن ينام. نعم، إنه ينام أياماً بكمالها، مثل كلب. يا له من كلب! افتح! هلا فتحت! لقد دقت الساعة العاشرة!

كذلك كانت تصيح ناستاسيا وهي تقرع الباب بقبضة يدها.

قال صوت رجل:

- قد لا يكون في غرفته!

قال راسكولنيكوف لنفسه: «هذا صوت البواب... ماذا يريد مني؟» انقض وأثباً، جلس على الأريكة. كان قلبه يدق دقاً إلى حد الألم.

قالت ناستاسيا ترد على الرجل:

- لولا أنه في غرفته فمن عسى يوصد الباب بالكلابة؟ عجيب! هو الآن يحبس نفسه! فهو يخاف أن يُخطف؟ افتح يا نوأم! استيقظ يا كسان!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «ماذا يريدان مني؟ لماذا يجيء البواب؟ لقد اكتُشف إذن كل شيء! أأقاوم أم أفتح؟ سأُضيع..»

وأنهض جسمه، ومال إلى أمام، وسحب الكلابة. كانت غرفته صغيرة بحيث يمكن أن يسحب الكلابة دون أن يغادر سريره.

صدق ظنه: كان البواب وناستاسيا واقفين على عتبة الباب.

ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة، وشخص هو ببصره إلى البواب وقد

بدا عليه التحدي واليأس. مدد إليه الباب ورقة سمراء مطوية مختومة بالشمع، وقال له وهو يتناوله الورقة:

- استدعاء من المكتب!

- أي مكتب؟

- الشرطة تستدعيك إلى المكتب... ما من أحد يجهل ما هو المكتب!..

- الشرطة؟... لماذا..

- أنا أعلم؟ هم يستدعونك، فاذهب اليهم!

قال الباب ذلك، وتفرس في وجه راسكولنيكوف، وألقى نظرة حواليه، ثم استدار لينصرف.

وكان ناستاسيا تنظر إلى راسكولنيكوف، ولا تحول بصرها عنه.وها هي ذي تسأله الآن:

- أحسب أنك مريض جداً، أليس كذلك؟

التفت الباب. وأضافت ناستاسيا قولها:

- إن بك حمى منذ أمس!.

لم يج بها راسكولنيكوف. وما يزال يمسك الورقة التي لم يفتقها بعد.

واصلت ناستاسيا كلامها مشفقةً عليه حين رأته يهم أن ينزل عن السرير:

- لا... لا تنهض! أنت مريض! لا تذهب إلى الشرطة اليوم!.. ما من أمر خطير يدعو إلى الإسراع. ما هذا في يدك؟

نظر راسكولنيكوف إلى يده. كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال، والجورب، وبطانة الجيب الممزوجة. لقد نام وهو ممسك بهذا كله. سوف يتذكر في المستقبل، حين سيفكر في هذا الأمر، أنه

استيقظ نصف استيقاظ أثناء نوبة الحمى، فضغط على هذه الأشياء بيده ضغطاً قوياً، وعاد ينام وهو على هذه الحال.

- عجيب أمره! لمْ هذه الخرق من الأرض، ثم هو ينام ينام معها كأنها كنز ثمين . . .

قالت ناستاسيا ذلك وانفجرت تضحك ضحكتها العصبية المجلجلة. أسرع راسكولنيكوف يدنس الأشياء كلها تحت معطفه، وحذق إلى الخادمة بنظرة نافذة، فشعر، رغم أنه لم يكن في تلك اللحظة قادرًا على أن يحكم على الأمور حكمًا صحيحاً دقيقاً، شعر أن من سيفوض عليه ويُعقل لا يُعامل هذه المعاملة. ومع ذلك تسأله: «ولكن لماذا تستدعيوني الشرطة؟»

قالت له ناستاسيا:

- أشرب شاياً؟ هل تريدين في وسعي أن أجئتك بشاي. ما يزال عندنا بقية!

دمدم راسكولنيكوف مجيئاً وهو يقف:

- لا بل سأذهب إلى الشرطة . . . سأذهب إلى الشرطة فوراً.

قالت ناستاسيا:

- لن تقوى حتى على هبوط السلم!

- سأذهب!

- افعل ما تشاء!

قالت ناستاسيا ذلك وانصرفت في أثر الباب. فلم يلبث راسكولنيكوف أن أسرع يفحص العجورب وحافة السروال في الضوء، ثم قال لنفسه: «هناك بقع، لكنها لا تكاد ترى، فكل شيء متتسخ متآكل محمول. فمن لا يعرف شيئاً لن يرى شيئاً». الحمد لله أن ناستاسيا لم تستطع أن تلاحظ شيئاً البتة» قال راسكولنيكوف لنفسه ذلك ثم فضَّ

الورقة وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً وأخذ يقرأ. لبث يقرأ مدة طويلة، مدة طويلة، ثم فهم أخيراً أنه استدعاء عادي من قسم الشرطة بالحي، يطلب منه فيه أن يحضر إلى مكتب مفوض الشرطة في الساعة التاسعة والنصف من هذا اليوم نفسه.

تساءل راسكولنيكوف وهو يعاني حيرة أليمة: «أمعقول هذا؟ أنا لا شأن لي بالشرطة شخصياً! ولماذا في هذا اليوم ذاته؟ رباء! إلا فلينته هذا كله بأقصى سرعة!» قال ذلك وهم أن يركع ليصلي، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وقهقه ساخراً، لا ساخراً من الصلاة بل من نفسه. وأخذ يرتدي ثيابه مسرعاً قائلاً لنفسه: «ان كنت قد هلكت فلا هلك! يستوي عندي كل شيء! ولكن يجب أن ألبس الجورب (هذا ما خطر بباله فجأة). سوف يتسع بالترباب مزيداً من الاتساح، فيختفي ما بقي عليه من آثار الدم». ولكنه ما أن لبس الجورب حتى انتزعه على الفور مشمئزاً مذعوراً. ثم تذكر أنه لا يملك جوارب أخرى، فعاد يلبسه. ومرة أخرى انفجر يضحك مقهقاً. «ماهذا كله إلا مواضعات اجتماعية شكلية! كل شيء نسيبي!»، قال لنفسه ذلك وهو يفكر بجزء من عقله، ولكنه يرتعش بكل جسمه، وأردد يقول لنفسه: «لقد لبست الجورب مع ذلك! لبسته أخيراً مع ذلك!» وحين قال هذا الكلام، كان ضحكه يتحول إلى يأس. وأضاف يقول: «لا، إن هذا فوق طاقتني...» كانت ساقاه تصطكان. فدمدم في نفسه قائلاً: «هو الخوف!» وألم به دوار وأخذ يشعر بصداع من شدة الحر. تابع كلامه يقول وهو يتوجه نحو السلم: «هذه حيلة! إنهم يريدون استدراجي إلى هناك بالحيلة، ليواجهوني بعد ذلك بالواقع كلها. والمصيبة أنني في حالة تشبه الهذيان... فقد تفلت مني حماقة ما...».

وفيما كان يهبط السلم تذكر أنه ترك جميع الأشياء في الثقب وراء ورق الجدار فتساءل: «ماذا لو فتشوا الغرفة أثناء غيابي؟». وتوقف عن السير. ولكن اليأس والاستهتار - إن صح التعبير - اللذين كانا يستوليان

عليه حين يتصور أنه هالك قد بلغا من القوة أنه لم يزد عندئذ على أن حرك يده بإشارة تدل على قلة الاكتتراث وتتابع سيره قائلاً لنفسه: «فلينته هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنته!»

كان الحر في الخارج شديداً لا يطاق. ما من قطرة مطر هطلت منذ أيام. هو جو الغبار والأجر والكلس مرة أخرى، هو جو المطاعم العفنة والخمارات الكريهة من جديد. وها هم أولاء السكارى يطالعونه عند كل خطوة يخطوها والسعاة والحوذيون المكدودون. وانبهرت عيناه من أشعة الشمس حتى أوجعتاه. وأخذ يحس بدوران في رأسه، كما يحدث عادة للمرء حين يخرج أثناء الحمى فجأة في يوم شديد القيظ.

فلما بلغ منعطف شارع الليلة البارحة، نظر إلى تلك العمارة بقلق وألم، ثم لم يلبث أن حول عنها عينيه فوراً.

وحين اقترب من قسم الشرطة قال لنفسه: «إذا استجوبت فقد اعترف!»

إن قسم الشرطة يقع على بعد مائتين وخمسين متراً من بيته تقريباً. لقد نقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيبة إلى مقر جديد يقع في الطابق الرابع من عمارة بُنيت حديثاً. كان راسكونيكوف قد ذهب مرّة إلى المقر القديم، ولكن هذا حدث منذ مدة طويلة جداً. حين اجتاز مدخل العمارة لمح على اليمين سلماً كان يهبطه رجل يحمل بيده سجلاً فقال لنفسه: «لا بد أنه بواب، ولا بد إذن أن يكون قسم الشرطة في هذه الجهة». وصعد السلالم على غير هدى. كان لا يريد أن يسأل أحداً عن شيء.

وقال لنفسه وهو يصعد: «سأدخل فأجثو على ركبتي وأروي كل شيء».

السلم ضيق، شديد الانحدار، مليء بالقاذورات. مطابخ جميع الشقق في كل الطوابق تتطل على هذا السلم، وأبوابها تظل مفتوحة طول النهار تقريباً. لذلك يكون الجو خاناً جداً. بوابون يحملون سجلات

تحت الابط، وسعة شرطة، وزوار كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع. باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً. دخل راسكولنيكوف، ووقف في حجرة المدخل. الحجرة مزدحمة بأناس من سواد الشعب يتظرون دورهم. الحر خانق هنا أيضاً. تضاف إلى ذلك رائحة الدهان (لقد أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طرياً) التي تبعث في النفس شعوراً بالغثيان. انتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قرر أن يمضي إلى المكتب التالي. إن جميع الغرف صغيرة، سقفها واطئ جداً. كان راسكولنيكوف نافذ الصبر إلى درجة رهيبة وكان نفاذ صبره هذا يدفعه إلى أن يوغل مزيداً من الآيغال. لم يلاحظ أحد. في المكتب التالي كان يكتب كتاب لا يكادون يرتدون ثياباً خيراً من ثيابه، ولا يوصف مظهرهم إلا بأنه مظهر غريب عجيب في أقل تقدير. اتجه راسكولنيكوف إلى أحدهم. سأله هذا:

- ماذا تريد؟

فأراه راسكولنيكوف الاستدعاء الذي تلقاه من مكتب الشرطة.

قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة:

- هل أنت طالب؟

فأجابه راسكولنيكوف:

- نعم، طالب سابقاً.

تفرس فيه الموظف، ولكن بدون أي فضول. هو رجل مشعر الشعر توحى نظرته بأن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «من هذا الرجل لن أعرف شيئاً إن جميع الأمور عنده سواء».

قال الموظف وهو يشير بإصبعه إلى الباب التالي:

- اسأل السكريتير!

دخل راسكولنيكوف الغرفة التي دله عليها الرجل (وهي الرابعة في

صف الغرف). إنها صغيرة جداً كذلك، تزدحم بأناس ثيابهم خير قليلاً من الجالسين في المكاتب السابقة. وبينهم سيدتان. فاما الأولى وهي ترتدي ملابس حداد فقيرة، فقد كانت جالسة أمام منضدة قبالة سكرتير يُملي عليها فكتتب. وأما الثانية فهي امرأة ضخمة الجسم حمراء الوجه، صارخة الزينة، متربفة التبرج، تضع على صدرها حلية كبيرة كأنها صحن. وكانت هذه المرأة الثانية واقفة، متنحية بعض التنجي، يبدو عليها أنها تنتظر شيئاً. مد راسكولنيكوف ورقته إلى السكرتير، فألقى عليها السكرتير نظرة سريعة وقال له: «انتظر» وواصل اهتمامه بالسيدة التي ترتدي ثياب الحداد.

تنهد راسكولنيكوف متخففاً من قلقه وقال يحدث نفسه: «لم يستدعوني إذن من أجل ذلك الأمر». وأخذ يسترد شجاعته، ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنيته.

قال لنفسه: «إن أيسر حماقة أرتكبها وأبسط زلة أقع فيها يمكن أن تفضحني فضحاً تاماً». ثم أضاف: «هم!.. لا هواء هنا.. الجو خانق.. إن رأسي أخذ يدور.. وفكري أيضاً..»

شعر راسكولنيكوف باضطراب رهيب يغزو كيانه كله. خشي أن لا يستطيع السيطرة على نفسه. حاول أن يتثبت بأي شيء لا علاقة له بهمومه، ولكنه لم يفلح. كان السكرتير يشغل باله كثيراً: إن راسكولنيكوف ما ينفك يحاول أن يقرأ في وجهه شيئاً، أن يوجس في وجهه شيئاً. هو شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره، له وجه مسموم كثیر الحركة، يوهم مظهره بأنه أكبر من سنّه، شديد العناية بهندامه، يحترم «الموضة» احتراماً واضحاً، مدهن الشعر، له فرق يهبط حتى النقرة، في أصابعه البيضاء المونقة تسطع خواتم كثيرة، وصدره تزدان بسلاسل من ذهب. حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك، ببعض عبارات بالفرنسية، فكان كلامه بالفرنسية حسناً.

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التي

كانت ما تزال واقفة كأنها لا تجرؤ أن تجلس من تلقاء ذاتها رغم أن كرسيًّا كان يوجد إلى جانبها، قال لها:

- اجلس يا لوبيزا إيفانوفنا!

فأجابته السيدة قائلة:

- (أشكرك) (Ich danke). -

وجلست، فخشخش حرير. إن ثوبها الأزرق كزمرة السماء، المزدان بتحاريم بيضاء، المتتفاخ كمنطاد، قد انتشر حول الكرسي، فشغل نصف الغرفة تقريبًا، وانتشرت منه رائحة عطر، ولكن السيدة أظهرت وجدها من احتلال كل هذا المكان، ومن نشر كل هذا العطر، فكان في ابتسامتها التي ظاهرها الوقاحة كثير من القلق.

انتهت المرأة التي ترتدي ثياب الحداد، فنهضت أخيراً. فإذا بضابط يدخل بضجة على حين فجأة، ضابط يوحى مظهره بالحماسة والنشاط ويحرك كتفيه كلما خطأ خطوة. ألقى الضابط على المنضدة قبعته المزданة بشارة رسمية، وجلس على مقعد. ووثبت السيدة ذات الثوب المخشخ عن كرسيها منذ لمحته، وانحنت تحيةً عميقَةً بنوع من الإعجاب، ولكن الضابط لم يولها أي انتباه. ومع ذلك لم تجرؤ أن تعود إلى الجلوس بحضوره. ولم يكن هذا الضابط إلا مساعد مفروض الشرطة. إن له شاربين أحمررين مدربين يستويان أفقياً على جانبي وجهه، وهو وجه لا تعبر قسماته الدقيقة عن شيء، إلا عن الغطرسة. ألقى الضابط على راسكولنيكوف نظرة شقراء فيها استياء: ذلك أن ملابس راسكولنيكوف كانت زرية حقاً، وكانت هيئته، رغم حالة الانهيار التي هو فيها، لا تتفق وهذه الملابس، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظره طويلة بعض الطول، مدققة بعض التدقيق، فشعر الضابط بانزعاج شديد، وصاح يسأل راسكولنيكوف:

- وأنت، ماذا تريدين؟

لا شك أنه قد أدهشه أن لا يخطر ببال شخص يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة أن يغض طرفه ويرتكب أمام نظرته الكاسرة.

أجابه راسكولنيكوف مضطرباً :

- استدعيت إلى هنا، هو استدعاء . . .

فأسرع السكرتير يتدخل تاركاً أوراقه :

- بشأن المطالبة بدفع مال. هذا هو الطالب!

قال السكرتير ذلك ودفع إلى راسكولنيكوف دفتراً وهو يشير له إلى موضع منه، وأضاف يقول:

- اقرأ !

تساءل راسكولنيكوف : «ب شأن المطالبة بدفع مال؟ أي مال؟ إذن ليس الأمر ذلك الأمر!». وارتعش من الفرح. شعر فجأة بتخفف كبير لا يوصف. إن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفيه.

صرخ الضابط يسأله :

- قيل لك أن تحضر في آية ساعة أيها السيد؟ لقد ورد في ورقة استدعائك أن تحضر في الساعة التاسعة، وال الساعة الآن هي الحادية عشرة، أليس كذلك؟

لا يدرى إلا الله لماذا كان هذا الضابط يشعر بمزيد من الاستياء شيئاً بعد شيء . . .

أجابه راسكولنيكوف بصوت عالٍ، ومن فوق كتفه :

- لم أستلم ورقة الاستدعاء إلا منذ ربع ساعة. أحسب أنني يكفيني أن أجيء رغم الحمى . . .

إن راسكولنيكوف أيضاً قد اعتبراه غضب مفاجئ لم يكن في الحسبان، ولكنه يجد في هذا الغضب لذةً ومتعة.

- لا تصرخ، أرجوك!

- لست أصرخ . بالعكس : أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة ، وأنت تصرخ . ولما كنت طالباً، فإبني لا أسمح بالتكلّم معه بهذه اللهجة .  
بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدة أنه لبث دقيقة بكمالها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة ، فلم يزد على أن يرغي ويزيد . ثم إذا به ينهض بوابة واحدة كمن وُحز ، ويصبح قائلاً لراسكولنيكوف :

- اسكت . أنت هنا في مكتب رسمي . لا تكن فظاً أيها السيد !

فصرخ راسكولنيكوف :

- وأنت أيضاً في مكتب رسمي ، ومع ذلك تصرخ ، بل وتدخن سيجارة ، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أي اعتبار !  
وشعر راسكولنيكوف ، حين قال هذه الكلمات ، بلذة لا توصف .  
وكان السكرتير ينظر إليهما مبتسمًا . واضح أن الضابط الذي كان يغلبي ويفور قد أفحى .  
وأخيراً صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلو أنه كان لا يبدو طبيعياً :

- ليس هذا شأنك . تفضل بالإدلاء بالإفادة المطلوبة منك . أره الشكوى يا الكسندر جريجوريفتش . أنت مطالب بمال تهرب من دفعه . يا للشاطر ! ..

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الإصغاء إليه : أمسك الورقة بشرابة ، محاولاً أن يكشف اللغز بأقصى سرعة .قرأ الورقة مرة أولى ، ثم قرأها مرة ثانية ، ولكنه ظل لا يفهم شيئاً . فقال للسكرتير يسأله :

- ما هو الموضوع ؟

- أنت مدين بمال عليك أن تدفعه . هناك سند تعهد فيه بسداد الدين عند المطالبة به . وعليك الآن إما أن تدفع كل شيء ، بما في ذلك النفقات والغرامات ، الخ ، وإما أن تحدد ، كتابة ، الموعد الذي ستكون

فيه قادراً على دفع المال، وأن تعهد بأن لا تغادر العاصمة، وبأن لا تبيع أمتعتك وأن لا تخفيها قبل سداد الدين. أما الدائن ففي وسعه أن يبيع أمتعتك، وأن يلاحقك وفقاً للقانون.

- ولكن... ولكتني لست مديناً لأحد بشيء!

- ذلك أمر ليس من شأننا. لقد تلقينا سندًا بمبلغ مائة وخمسة عشر روبيلاً مستحق الدفع وفقاً للقانون، كنت أنت قد وقعته منذ تسعه أشهر باسم السيدة زارنتسينا، أرملة موظف من الدرجة الثامنة، ثم انتهت هذا السند إلى يدي المستشار تشيباروف، ومن أجل هذا إنما استدعينا، وعليك الآن أن تدللي بإفادتك.

- ولكن هذه السيدة هي صاحبة البيت الذي أقيم فيه...

- هل يغير هذا من الأمر شيئاً؟

كان السكريتير ينظر إليه وهو يبتسم ابتسامة تسامح توشك أن تشتمل على عطف وشفقة، ولكنها تشتمل كذلك على شعور بالانتصار مرددة إلى أن أمامه شاباً غرّاً قد وقع في الورطة لأول مرة وكأنه يقول له: «هيه! كيف حالك الآن؟» ولكن راسكولنيكوف لم يهتم أي اهتمام بالسند أو تحصيله! حقاً إن هذا لا يستحق، الآن، أقل قلق، ولا يستحق أيّر انتباه! لبث راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يصغي أو يجيب أو حتى يسأل، ولكنه يفعل ذلك كله على نحو آلي. إن فرحة الناشئ عن شعوره بأنه في أمان، وبأنه قد نجا من الخطر الرهيب الذي كان يتربص به، هو ما كان يملأ كل كيانه في هذه اللحظة. لم يبق في نفسه مكان للتبرّص، والتحليل، والاحتياطات الواجب اتخاذها في المستقبل، والافتراضات، والشكوك، والاستجوابات. هذه دقّيّة فرح، فرح مباشر، فرح غريزي صرف. ولكن في تلك الدقيقة نفسها دوى في المكتب ما يشبه أن يكون رعداً وصاعقة. إن الصابط الذي كان ما يزال يغلي ويغور من الإهانة التي ألحقت به منذ قليل، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة في محاولة

لإثبات عظمته المنهارة على السيدة ذات الثوب المخشنخ التي كانت تتأمله منذ دخل ، وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء .

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال (وكانة السيدة التي تلبس ثياب الحداد قد خرجت) :

- آ... ها أنت يا... ماذا جرى عندك في الليلة الماضية ، هـ؟ لقد عدت تشيرين الفضائح ، وتعرضين دعاراتك في عرض الشارع ! عدت تخلقين المشاجرات وتشجعين السكر! أترك تحلمين بأن تقضي أيامك في سجن من السجون؟ لقد سبق أن قلت لك ، سبق أن نبهتك عشر مرات إلى أنني سأكون في المرة الحادية عشرة بغير رحمة ولا رأفة ولا شفقة ، وهأنت ذي تستأنفين... تستأنفين... يا... يا... .

كادت الورقة التي يحملها راسكولنيكوف أن تسقط من يديه . نظر مبهوراً إلى السيدة المخشنخة التي تعامل بمثل هذه الفظاظة . ولكن سرعان ما فهم الموضوع ، وسرعان ما أخذت القصة تسلية ، فكان يصغي متلذذاً ، حتى لقد أحس برغبة في أن يضحك ، في أن يضحك مقهقاً ، فإلى هذا الحد كانت أعصابه مهترأة!

بدأ السكريتير يتكلم فقال بلهجـة تفـيس توـسلاً:

- ايليا بـتروـفـتش... .

ولكنه انقطع عن الكلام ، لأنـه رأـى أنـ منـ الأـفضلـ أنـ يـنـتـظـرـ لـحظـةـ منـاسـبـةـ أـكـثـرـ منـ هـذـهـ اللـحـظـةـ ، لأنـهـ كانـ يـعـرـفـ بـالـتجـربـةـ أـنـ منـ الـمـسـتـحـيلـ كـبـحـ جـمـاحـ الضـابـطـ العـنـيفـ ، اللـهـمـ إـلـاـ بالـلـجوـءـ إـلـىـ الـقـوـةـ.

أما السيدة المخشنخة فإنـها أـخـذـتـ تـرـجـفـ مـنـذـ اـنـطـلـقـ الرـعدـ وـدـوـتـ الصـاعـقةـ . ولكنـ الشـيءـ الغـرـيبـ هوـ أنـ تـعبـيرـ وجـهـهاـ كانـ يـزـدـادـ تـرـقـأـ وـتـلـطـفـاـ ، وـابـتسـامـتهاـ لـلـضـابـطـ الرـهـيبـ كانـتـ تـزـدـادـ حـسـناـ وـظـرـفـاـ عـلـىـ قـدـرـ ماـ كانـتـ الشـتـائـمـ الـمـوجـهـ إـلـيـهاـ تـزـدـادـ كـثـرـةـ وـشـدـةـ . كانـتـ تـرـاـوـحـ فـيـ مـكـانـهـ ، وـلـاـ تـنـحـنـيـ اـحـتـرـاماـ لـلـضـابـطـ ، مـنـتـظـرـةـ مـعـ ذـلـكـ ، بـصـبـرـ نـافـدـ ، أـنـ يـتـبعـ

لها أن تقول كلمة. وكوفئ صبرها فعلاً، فما أن سكت الضابط حتى أسرعت تقول بنبرة ألمانية ظاهرة، رغم أنها تكلمت الروسية بطلاقة:

- لم يحدث في بيتي عربدة ولا مشاجرة، يا سيدي الكابتن، ولا حدثت فضيحة أو جرصة، لم تحدث أية فضيحة! كل ما في الأمر أنه جاء سكران... سأقصص عليك كل هذا يا سيدي الكابتن... حقاً أنا لست مذنبة... إن بيتي بيت لائق يا سيدي الكابتن، والسلوك فيه سلوك لائق يا سيدي الكابتن... وأنا نفسي، أنا نفسي، لم أسمح بأية فضيحة، في أي يوم من الأيام. ولكنه جاء سكران ثم طلب ثلاث زجاجات، ثم رفع قدمه في الهواء وأخذ يعزف بها على البيانو... ذلك أمر لا يستحسن أبداً في بيت لائق. ثم خرب لي البيانو. قلت له: ما هذه آداب مستحبة، ما هذه آداب مستحبة... فتناول عندي زجاجة وأخذ يضرب بها جميع الناس على قفاهم... عندي ناديت الباب... فجاء كارل... وحين جاء كارل، وزم الرجل عين كارل، ووزم أيضاً عين هنرييت، وصفعني أنا نفسي، خمس صفعات!.. ليس من الظرف في شيء أن يفعل أحد ذلك في بيتي لائق يا سيدي الكابتن. عندي صرخت... ولكنه مضى عندي إلى النافذة المطلة على القناة ففتحها، وأخذ ينخر نخير خنزير صغير، وذلك عيب حقاً... كيف يرضى أن يقف إلى النافذة فيأخذ ينخر نخير خنزير صغير؟ هذا عيب، عيب، عيب!.. شدَّه كارل من رداء «الفراك» الذي كان يرتديه، شدَّه ليبعده عن النافذة... وعندي يا سيدي الكابتن - أعترف لك بذلك، نعم أعترف لك بذلك - مزق له كارل رداءه... ولكنه أخذ عندي يصبح قائلاً إنه يطالب بخمسة عشر روبلًا، لأن رداءه تمزق. دفعت له، يا سيدي الكابتن، دفعت له بنفسى، دفعت له خمسة روبلات تعويضاً له عن رداءه. ما هو بالزائر اللائق يا سيدي الكابتن إن الزائر اللائق لا يتسبب بهذه الفضيحة! وقد قال لي: سوف ترين... لأنشرن هجاء مقدعاً لكم. إن لي صلات بجميع الجرائد. وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء! وهذا كلام يقال لي؟

- آ... هو إذاً كاتب؟

- نعم يا سيدي الكابتن، وهو أيضاً زائر غير لائق، لأنه لم يتورع،  
في منزل لائق، أن...

- كفى، كفى، سبق أن قلت لك وكررت أن...

عاد السكرتير يتكلم فقال بلهجة ذات مغزى:

- ايليا بتروفتش!

رشقه الضابط بنظرة سريعة فكَّ السكرتير عن الكلام وهزَ رأسه  
بحركة خفيفة. وتتابع الضابط كلامه فقال:

- اسمعي أيتها المحترمة لويساً ايافانوفنا! إليك كلمتي الأخيرة! أقول  
لنك آخر مرة: إذا حدثت في بيتك اللائق، بعد الآن، فضيحة واحدة،  
فسأتولى بنفسى وضعك في قفة سلطة، كما يقال بالأسلوب الرفيع.  
مفهوم؟... إذن هكذا... أديب... كاتب... أخذ في «منزلك  
اللائق» خمسة روبلات تعويضاً عن تمزيق ردائه. آ... هؤلاء هم  
المؤلفون! (قال الضابط ذلك وهو يرمي راسكولنيكوف بنظرة احتقار).  
وأمس الأول، في حانة من الحانات، حدثت قصة أخرى: تغدى واحد  
من هؤلاء المؤلفين، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة، وقال لصاحب  
الحانة: «سأكتب مقالة أهجوك فيها هجاء لاذعاً» وفي الأسبوع الماضي،  
على ظهر سفينة من السفن، قام كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من  
مستشاري الدولة بأشنع الشتائم، وتناول بالشتم امرأته وابنته خاصةً.  
ومؤلف ثالث، لم يمكن طرده من أحد محال بيع الحلوي إلا ركلًا  
بالأرجل في ظهره. هؤلاء هم الأدباء، هؤلاء هم الكتاب، والطلاب  
والدعاة! أف!.. أما أنت فانصرفي الآن، ولكن اعلمي أنني سأراقبك،  
إلياك ثم إلياك... مفهوم؟

إن لويساً ايافانوفنا، وقد ازدادت تلطقاً وتودداً عن ذي قبل، أخذت  
تنحني انحناء الاحترام في جميع الاتجاهات، ومازالت تتفهقر إلى وراء

أثناء هذا الانحناء حتى بلغت الباب . ولكنها حين بلغت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً مهيباً يزدان وجهه النضر المفتح بسالفين أشقرين رائعين كثيفي الشعر . أنه نيكوديم فومتش ، مفوض الشرطة بذاته . أسرعت لويزا ايفانوفنا تنهني ، احتراماً له ، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحناء ، ثم ولت هاربةً من المكتب بخطوات صغيرة متواة .

قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بترورفتش ، بلهجة محبيه ودود :  
- ماذا؟ أعاد هزيم الرعد ، أعاد قصف الصاعقة ، والعاصفة ، والاعصار؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب؟ لقد سمعت كل شيء وأنا أصعد السلم !

قال ايليا بترورفتش باهمال نبيل وهو ينتقل من منضدة إلى أخرى ، مثل الذراعين بأوراق ، مرتحاً عطفيه تريحاً جميلاً ، عند كل خطوة ، على عادته :

- وكيف لا! انظر أرجوك إلى هذا السيد مثلاً: هو كاتب ، هو طالب أو طالب سابق ، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون ، يوقع سندات ، يرفض إخلاء المسكن ، الشكاوى الكثيرة أودعت ضده ، ثم هو يتزوج لأنني أدخن سيجارة بحضوره . انظروا قليلاً إلى حملة الأقلام هؤلاء . هذا نموذج لهم . عينة تمثلهم بحسنتها وروعتها أجمل تمثيل!

قال نيكوديم فومتش :  
- ليس الفقر عاراً يا صديقي . ونحن نعلم أنك لا تطيق احتمال أي ازعاج . . .

ثم اتجه إلى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة :  
- أغلب الظن أنك توهمت أنه أراد الإساءة إلى شعورك ، فلم تستطع أن تسيطر على نفسك . ولكنك أخطأـت: ثق أن هذا الرجل من أبل الرجال . ولكنـي أـعترـف لكـ بـأنـهـ عـنـيفـ ،ـ عـنـيفـ كالـبارـودـ ،ـ كالـبارـودـ . . . يـشـتعلـ ،ـ يـفـرـقـعـ ،ـ يـنـفـجـرـ ،ـ وـلـكـ كـلـ شـيـءـ يـنـتـهـيـ بـعـدـ ذـلـكـ !ـ وـلـاـ يـبـقـىـ إـلـاـ

قلبه الذي هو من ذهب! .. حتى لقد أطلق عليه لقب «الضابط بارود»  
منذ كان يخدم في الكتبية.

صاحب ايليا بتروفتش، يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره، ولكنه  
ما يزال مهتاجاً:

- ويا لها من كتبية!

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة في أن يخاطبهم جميعاً بكلام  
لطيف ودود إلى أبعد حدود اللطف والود. فبدأ يقول بلهجة طلقة،  
متوجهأً بكلامه إلى نيكوديم فومتش:

- انظر يا كابتن، ضع نفسك في مكانى... أنا مستعد لأن اعتذر  
إلى السيد، إذا كنت قد أخطأت في حقه أي خطأ. أنا طالب فقير،  
مريض، مرهق (هذا ما قاله: مرهق) بالبؤس. أو قل إنني كنت طالباً في  
الماضي، ثم أصبحت عاجزاً عن سد حاجاتي فتركت الدراسة. ولكنني  
سألتني مالاً بعد قليل. أن أمي وأختي تعيشان في إقليم س...، سوف  
ترسلان اليّ مالاً فأدفع ما عليّ. أن لصاحبة البيت الذي أقيم فيه قليلاً  
طيباً كريماً، ولكنها غضبت كثيراً، لأنني فقدت موردي من اعطاء  
دروس خاصة، فأصبحت لا أدفع لها أجر مسكنى منذ أربعة أشهر  
تقريباً، حتى لقد بلغ الغضب بها أنها أصبحت لا تبعث إلى بوجبات  
ال الطعام... لذلك تراني لا أفهم من أمر هذا السندي شيئاً. هي تطالبني  
بمال مستعينةً بهذا السندي الذي وقعته لها ولكن من أين أجيء بمالٍ  
أدفعه؟ أحكموا في الأمر بأنفسكم!

عاد السكرتير يقول من جديد:

- هذا ليس من شأننا!

فاستأنف راسكولنيكوف بكلامه مخاطباً نيكوديم فومتش، لا  
السكرتير، ومحاولاً أن يخاطب في الوقت نفسه ايليا بتروفتش، رغم أن  
هذا كان منهمكاً بأوراقه، وكان يقابلها بقلة الاحتراث وبالاحتفار، قال:

- اسمح لي، اسمح لي، أنا أافقك كل الموافقة، ولكن اسمح لي أيضاً أن أشرح ظروفي، اسمح لي أن أذكر لك من جهتي أنني أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاثة سنين، منذ وصلت من الأقاليم، وأنني قبل كل شيء، قبل كل شيء... نعم، لماذا لا أعترف أنا أيضاً بأنني منذ البداية قد وعدتها بأن أتزوج ابنتها؟ نعم لقد وعدتها بذلك كلاماً... كلاماً فقط... وكانت ابنتها فتاة... أعجبتني على كل حال، وإن لم أكن قد تولهت بحبها! هو الشباب، باختصار! فكانت صاحبة البيت تمهلني في الدفع كثيراً... وكنت أعيش حياة تتصرف بكثير من الطيش...

قاطعه ايليا بترورفتش بفظاظة، شاعراً بالانتصار:

- ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك الخاصة أيها السيد، ثم إن وقتنا ليس فيه متسع للإصغاء إليك...

ولكن راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف، رغم أنه أصبح يشق عليه إلى أبعد حدود المشقة أن يقول أي شيء. قال يرد:

- لا، اسمح لي، اسمح لي أن أروي لكم من جهتي كيف جرت الأمور... وأن أرويها مرتبة، رغم أنني أافقك على أنه ليس من المفيد أن أقص عليكم هذا كله... إليكم ما حدث: منذ سنة، ماتت تلك الفتاة بمرض التيفوس، وبقيت أنا مستأجرأً للمسكن الذي أقيم فيه، فلما جاءت صاحب البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لي (قالت لي ذلك بصداقة ومودة): إنها ثقة بي مطلقة، ولكنها سألتني ألا أستطيع أن أوقع لها سندأً بمبلغ مائة وخمسة عشر روبيلاً، هو المبلغ الذي تعتقد أنني مدین لها به؟ اسمح لي... لقد قالت لي بالحرف الواحد أنها ستظل تمهلني بعد تسليمها هذا السند، ستظل تمهلني في الدفع ما شئت، وإنها لن تستخدم بحال من الأحوال، - هذه أقوالها هي - لن تستخدم هذا السند إذا لم أدفع من تلقاء نفسي.وها هي ذي الآن، بعد

أن فقدت موردي من الدروس ، وبعد أن أصبحت لا أملك ما أفتات به ،  
تقدم السند للسلطات من أجل تحصيله . فما رأيكم في هذا؟

قال له ايليا بتروفتش بوقاحة :

- إن هذه التفاصيل المؤثرة لا تعنينا في شيء أيها السيد ! عليك أن  
توقع الإلقاء والتعهد . . . أما أنك كنت مولهاً بحب الفتاة أو أنك لم تكن  
مولهاً بحبها ، وأما الظروف المحزنة التي أعقبت ذلك . . . فهذا كله لا  
شأن لنا به البتة .

دمدم نيكوديم فوميتش يقول لصاحب الضابط وهو يجلس إلى مكتبه  
ويمضي يوقع بعض الأوراق :

- أحسب أنك تقسو كثيراً !

لقد شعر نيكوديم فوميتش بشيء من العرج .

قال السكرتير لراسكولنيكوف :

- اكتب !

فسأل راسكولنيكوف بلهجة فظة :

- ماذا أكتب؟

- سأملّي عليك . . .

خيل إلى راسكولنيكوف أن السكرتير أصبح يعامله بمزيد من الازدراء  
والاحتقار بعد تلك الاعترافات التي أوردها . ولكن الشيء الغريب هو  
أن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة لا يبالي بالرأي الذي قد يراه  
غيره فيه . وقد حدث له هذا الانقلاب بمثل لمح البصر سرعةً ، حدث له  
في ثانية واحدة ، فلو شاء أن يفكر لحظة واحدة لأدهشه في أغلبظن  
أن يكون قد حدث هؤلاء الموظفين على هذا النحو ، وأن يكون قد  
 أجبرهم على سماع مساراته . من أين جاءته هذه الحالة النفسية الجديدة؟  
لو امتلأت الغرفة الآن لا برجال شرطة بل بأصدقاء حميمين لكان عاجزاً

عن أن يوجه إليهم كلمة فيها شيء من مودة وصدق، وذلك من فرط الفراغ الذي أصيب به قلبه. إن إحساساً غامضاً بالوحدة، إحساساً مبهماً بعزلة أليمة لا نهاية لها، قد اجتاحت شعوره على حين فجأة. لا، ليس إهانة اعترافاته العاطفية أمام ايليا بتروفيتش لا ولا المهانة من انتصار الضابط عليه هو الذي هزّ قلبه هزاً يبلغ هذا المبلغ من العمق. آه... آنه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صغار، وأن يكون في الآخرين صغار، وليس تعنيه المطامح، ولا الضباط، ولا النساء الألمانيات، ولا تحصيل السننات، ولا المكاتب، ولا غير ذلك!.. أنه لو حكم عليه بالحرق حياً في هذه اللحظة، لما قام بحركة واحدة، ولما زاد على أن يصغي إلى الحكم الذي صدر عليه، إذا هو أصغرى. إن شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الان في كيانه، شيئاً لم يعرفه حتى ذلك الحين، شيئاً هو حادث لا يُتنبأ به ولا سابقة له. أن راسكولنيكوف لم يدرك ذلك الشيء. ولكنه كان يحس إحساساً واضحاً بأنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس، هؤلاء الموظفين في قسم الشرطة بالحي، لا يستطيع أن يخاطبهم بأي كلام فضلاً عن الأفضاء اليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمة كما فعل منذ قليل. بل لقد أحسن راسكولنيكوف أنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب أقربائه بحال من الأحوال، ولو كانوا أخوة وأخوات. إن راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة، في يوم من الأيام، بإحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول والغرابة. والأمر الذي كان يؤلمه مزيداً من الألم هو أن ما يشعر به كان إحساساً ولم يكن فكرة. نعم كان إحساساً مباشراً، كان إحساساً أشد إيلاماً من جميع الإحساسات التي شعر بها طوال حياته.

أملى عليه السكرتير صيغة الإقرار المستعملة في هذه الحالة: لا أستطيع أن أدفع. أتعهد بالدفع بتاريخ كذا. لن أغادر المدينة. لن أبيع أشيائي، ولن أتنازل عنها لأحد، الخ.

قال له السكرتير وهو ينظر إليه متعجبًا:

- أرى أنك لا تستطيع الكتابة، وأن القلم يسقط من يدك. هل أنت مريض؟

- نعم... اشعر بدوار في رأسي... ولكن أكمل مع ذلك!

- انتهى! لم يبق عليك إلا أن توقع.

وقع راسكولنيكوف الإقرار، فتناول السكرتير الورقة وانصرف عنه للاهتمام بأشخاص آخرين.

رد راسكولنيكوف الريشة إلى مكانها، ولكنه بدلاً من أن ينهض ويذهب، وضع كوعيه على المنضدة، وضغط رأسه بين يديه. كان يشعر كأن مسماً قد دق في قمة جمجمته. ووافته فكرة غريبة على حين فجأة: أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فوميتش ويقص عليه كل ما حدث في الليلة البارحة، كل ما حصل، حتى أيسر التفاصيل، وأن يقوده بعد ذلك إلى غرفته، فيريه الأشياء هناك، عند الركن، في الثقب. وبلغت رغبته في ذلك من القوة أنه نهض ليضع مشروعه موضع التنفيذ. لكنه لم يلبث أن قال لنفسه: «ربما كان عليّ أولاً أن أفكر لحظة». ثم سرعان ما أضاف يقول: «لا بل الأفضل أن لا أفker البة وأن أتخلص من كل شيء دفعه واحدة».وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسرّر في مكانه: كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحرارة إلى إيليا بتروفتش، فاستطاع راسكولنيكوف أن يلتقط من حديثهما هذه الجمل:

- لا، مستحيل، سوف يخلّي سبيلهما كليهما! أولاً، هناك تناقض. أ الحكم في الأمر بنفسك: لو كانا هما القاتلين فلماذا يستدعيان البواب؟ أليفضحا أمرهما وليشيا ينفسيهما؟ أم تراهما استدعايه من باب المكر؟ ألا إن هذا ليكون إسراها في المكر! ثم إن الطالب بسترياكوف قد رأه البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخوله. وكان في صحبة ثلاثة أصدقاء وذعهم عند المدخل. وبحضور أصدقائه هؤلاء إنما سأله البواب أين يوجد مسكن العجوز. فذكر قليلاً: أكان يلقى هذا السؤال لو

أنه جاء لهدف كهذا الهدف؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت، عند بائع الجواهر، قبل أن يصعد إلى بيت العجوز، وهكذا يكون قد ترك بائع الجواهر وصعد إلى بيت العجوز في الساعة الثامنة إلا ربعاً على وجه التحديد... ففكـر الآن... .

- اسـمح لي! فـكيف نـفسـر هـذـا التـناـقـض الشـدـيد فـي أـقوـالـهـمـا؟ هـما يـؤـكـدـان أـنـهـمـا قـرـعاـ الـبـابـ، وـأـنـ الـبـابـ كـانـ مـغـلـقاـ، ثـمـ يـؤـكـدـان أـنـ الـبـابـ كـانـ مـفـتوـحاـ بـعـدـ ثـلـاثـ دـقـائـقـ حـينـ عـادـاـ يـصـعدـانـ فـي صـحـبـةـ الـبـوـابـ. فـما تـفـسـيرـ هـذـا التـناـقـضـ؟

- هنا إنـما يـكـمـنـ سـرـ القـضـيـةـ: لـقـدـ كـانـ القـاتـلـ فـي دـاخـلـ الـبـيـتـ حـتـمـاـ، وـكـانـ قـدـ أـوـصـدـ الـبـابـ بـالـمـزـلاـجـ، وـلـاـ بـدـ أـنـاـ كـانـاـ سـنـكـتـشـفـهـ لـوـلـاـ أـنـ كـوخـ قـدـ اـرـتـكـبـ تـلـكـ الـحـمـاـقـةـ فـمـضـىـ يـبـحـثـ عـنـ الـبـوـابـ هـوـ أـيـضاـ. فـفـيـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ بـعـيـنـهـاـ، أـعـنـيـ الـفـتـرـةـ الـتـيـ انـقـضـتـ بـيـنـ نـزـولـ كـوخـ وـصـعـودـ الـثـلـاثـةـ إـنـمـاـ تـمـكـنـ الـقـاتـلـ مـنـ هـبـوـطـ السـلـمـ، وـاسـتـطـاعـ أـنـ يـتـسلـلـ مـنـ بـيـنـ أـيـديـهـمـ بـطـرـيـقـةـ أـوـ بـأـخـرـىـ. إـنـ كـوخـ الـآنـ يـرـسـمـ عـلـىـ نـفـسـهـ إـشـارـةـ صـلـيـبـ بـكـلـتـاـ يـدـيهـ قـائـلاـ: «لـوـ قـدـ لـبـثـتـ فـوـقـ، إـذـنـ لـوـثـبـ عـلـىـ وـقـتـلـنـيـ بـفـاسـهـ!» إـنـ كـوخـ يـنـوـيـ أـنـ تـقـامـ لـهـ فـيـ الـكـنـيـسـةـ صـلـاـةـ شـكـرـ اللـهـ عـلـىـ مـاـ خـصـهـ بـهـ مـنـ نـعـمةـ النـجـاةـ! هـىـ هـىـ! ..

- وـالـقـاتـلـ، أـلـمـ يـرـهـ أـحـدـ؟

- كـيفـ يـمـكـنـ أـنـ يـرـاهـ أـحـدـ؟ إـنـ المـتـزـلـ أـشـبـهـ بـسـفـيـنـةـ نـوـحـ. بـهـذـاـ عـقـبـ السـكـرـتـيرـ الـذـيـ كـانـ يـصـعـيـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ مـنـ مـكـانـهـ. وـكـرـرـ نـيـكـوـدـيمـ فـوـمـيـشـ يـقـولـ بـحـرـارـةـ شـدـيدـةـ:

- أـقـولـ لـكـمـ إـنـ القـضـيـةـ وـاضـحةـ، وـاضـحةـ جـداـ!

فـقـالـ اـيلـياـ بـتـرـوـفـتـشـ مـعـارـضاـ:

- لاـ، لـيـسـ وـاضـحةـ الـبـتـةـ!

رـفـعـ رـاـسـكـوـلـيـكـوـفـ قـبـعـتـهـ، وـاتـجـهـ نـحـوـ الـبـابـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـبـلـغـهـ... .

فلما أفاق من غيبوبته رأى نفسه جالساً على كرسي ، ورأى رجلاً يسنده من يمين ، وأخر يقف من شمال وهو يحمل بيده كأساً مملوءاً بماء أصفر ، ورأى نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه يحدق إليه ويتفرس فيه . نهض راسكولنيكوف عن كرسيه .

فسألة نيكوديم فوميتش بلهجة خشنة :

- ماذا بك؟ أنت مريض؟

فقال السكريير وهو يرجع إلى منضدته ويرتد إلى أوراقه :

- إنه ، منذ كان يكتب الأقرار ، كان لا يكاد يستطيع تحريك قلمه !

وصاح ايليا بتروفتشر من مكانه وقد عاد يرتدي أوراقه هو أيضاً ، صالح  
يسأله :

- أنت مريض منذ مدة طويلة؟

كان ايليا بتروفتشر قد لاحظ المريض طبعاً أثناء إغماهه ، ولكنه ابتعد  
فوراً منذ رأه يفيق .

وبدمدم يقول مجيباً عن سؤال ايليا بتروفتشر :

- منذ أمس ...

- وهل خرجت أمس؟

- نعم خرجت .

- مريضاً؟

- مريضاً .

- في أي ساعة؟

- بعد الساعة السابعة من المساء .

- إلى أين ذهبت؟ اسمح لي أن ألقى عليك هذا السؤال .

- إلى الشارع!

- جواب مختصر مفيد!

كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً. وقد أجاب عن تلك الأسئلة بصوت خشن متقطع دون أن يغض عينيه السوداين المشتعلتين أمام نظرات ايليا بتروفتش. قال نيكوديم فوميتش:

- هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، وأنت...

فأجابه ايليا بترورفتش بنبرة غريبة بعض الغرابة:

- لا... بأ... س!..

أراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذي كان يحدق إليه من مكانه. وصمت الجميع فجأة. شيءٌ غريب.

ثم قال ايليا بترورفتش يختتم الحديث:

- طيب! في وسعك أن تنصرف.

خرج راسكولنيكوف. ولكنه استطاع أثناء خروجه أن يسمع استئناف الحديث حاراً محتدماً. وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم فوميتش، المتسائل المستفسر، أكثرها وضوحاً وتميزاً... حتى إذا صار راسكولنيكوف في الشارع ثاب إليه كل وعيه وعاد إليه كل شعوره.

- تفتيش! تفتيش! سيقومون بالتفتيش فوراً! يا للصور! أنهم يشتهون فيّ! ..

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مسرعاً خطاه للرجوع إلى بيته. لقد عاد الخوف يستبد به من أخimus قدميه إلى قمة رأسه.

## الفصل الثاني

راسكولنيكوف في نفسه متسائلاً: «وماذا لو كان التفتيش قد تم؟  
قال ماذا لو وجدتهم في بيتي؟»

ولكن راسكولنيكوف عاد إلى بيته فلم يجد فيه أحداً، ولا كان أحد قد جاء يفتشه. حتى ناستاسيا لم تلمس شيئاً، ولكن رباء! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء في الثقب؟

أسرع راسكولنيكوف نحو الركن، ودست يده وراء الورق، وأخذ يخرج منه الأشياء فيدستها في جيوبه واحداً تلو آخر. عرف أن مجموع الأشياء ثمانية: علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً للأذان أو ما يشبه ذلك (لم يدقق كثيراً)، ثم أربع علب صغيرة من الجلد، فيها جواهر، ثم سلسلة كانت ملفوفة بورقة من ورق الجرائد، ثم شيء آخر ملفوف بورقة من ورق الجرائد أيضاً، وأغلب الظن أنه وسام ... .

وزع هذه الأشياء على مختلف جيوب معطفه، ووضع بعضها في الجيب الأيمن من سرواله، وهو الجيب الوحيد الذي بقي للسروال، وجهد أن يدستها في هذه الجيوب بحيث لا تتمكن رؤية شيء من خارج. وتناول حافظة النقود أيضاً. ثم خرج من الغرفة مسرعاً حتى لقد ترك بابها مفتوحاً تماماً.

كان يمشي بخطى سريعة ثابتة. ورغم أنه كان محظماً فقد كان واعياً

ما هو عليه. كان يخشى أن يلاحق ويطارد، كان يخشى أن يتم وضعه تحت المراقبة بعد نصف ساعة، أو بعد ربع ساعة. فلا بد له إذن، مهما كلف الأمر، أن يغيب هذه الأشياء التي ثبت ارتكابه جريمة القتل، لا بد له أن يتخلص منها ما ملك بعض قوة، وبعض تفكير... ولكن إلى أين يذهب؟

كان قد عزم على هذا الأمر وبيت فيه: «أن يرمي جميع الأشياء في القناة، فتسقط الإثباتات في الماء، وتسقط معها القضية!» ذلك ما كان قد عزم عليه في الليلة السابقة، أثناء هذيانه، في تلك اللحظات التي كان يحاول فيها (وقد تذكر هذه المحاولات) أن ينهض وأن يخرج قائلاً لنفسه: «أسرع، أسرع تخلص من هذا كله!». ولكن التخلص من هذه الأشياء لم يكن سهلاً.

ظل راسكولنيكوف يتجلو مدة نصف ساعة وربما أكثر على طول قناة كاترينا، ونظر مراراً إلى السالم التي تهبط إلى الماء، فكان لا يجوز أن يخطر بباله أن يضع مشروعه موضع التنفيذ، فإما أن أطوافاً توجد عند أسفل الدرجات وعليها نساء يغسلن غسليهن، وإما أن مراكب قد ربطت هنالك بالأقلاس وجميعالأمكانية تقع بالناس. هذا عدا أن في الإمكان أن يُرى وأن يراقب من على أرصفة الشاطئ. أليس أمراً يبعث على الشبهة والريبة أن ينزل رجل إلى تحت، عمداً، ثم يتوقف ليرمي شيئاً من الأشياء في الماء؟ وماذا لو طافت العلب على سطح الماء بدلاً من أن تغوص إلى القاع؟ لا شك أنها ستطفو، ولا شك أن جميع الناس سيرونها! بل إن جميع من لقيهم في طريقه حتى الآن كانوا يتفرسون فيه كأنهم لا هم سواه! قال لنفسه: «المالذي يتفرسون في هذا التفris؟ اللهم إلا أن يكون هذا وهمـا مني لا أكثر!»

وخطر بباله أخيراً أنه ربما كان الأفضل أن يذهب إلى مكان ما على شاطئ نهر نيفا. إن شاطئ نهر نيفا لا يقع بالناس كما يقع بهم شاطئ

القناة. فهناك لن يلاحظ كما يلاحظ هنا، ولهذا يكون رمي الأشياء في الماء أسهل منه هنا على كل حال، وهو هنا أبعد عن المكان الذي وقعت فيه الحادثة منه هنا، نعم، هذا خاصةً! وسرعان ما دُهش على حين فجأة: كيف أمكنه أن يظل يطوف مدة نصف ساعة، قلقاً خائفاً، في أمكنة خطرة هذا الخطر كله، دون أن يدرك هذا الأمر قبل هذه اللحظة؟ كيف يظل يطوف طول هذه المدة لا لشيء إلا أن ينفذ مشروعه تصوره في نومه أثناء هذيان؟ إذن لقد أصبح ذاهلاً وقليل التقدير، ولقد أصبح شديد النسيان! أنه يعرف هذه الحقيقة الآن! لا شك أن عليه أن يسرع. نعم، إن عليه أن يسرع حتماً!

اتجه نحو نهر نيفا عن طريق شارع «ف...» غير أن فكرة أخرى وافته أثناء سيره: «لماذا نهر نيفا؟ لماذا الماء؟ أليس الأفضل أن أذهب إلى مكان بعيد جداً، ولو إلى الجزر مرة أخرى، فاختار مكاناً في الغابة خالياً من الناس، فأدفن كل شيء تحت إحدى الأشجار، بعد أن أضع على المكان علامَة تهديني إليه في المستقبل؟» ورغم شعوره بأنه عاجز عن التمعن في هذا كله تمعناً واضحاً، فإن الفكرة قد بدت له سليمة لا اعتراض عليها.

ولكن لم يكتب له أن يبلغ الجزر أيضاً، وإنما جرت الأمور مجرّد آخر. فما إن خرج من شارع «ف...» إلى أحد الميادين، حتى رأى على يساره، فجأة، مدخلٌ فناءٌ محاط بجدران كبيرة من جميع الجهات، ورأى على اليمين، بعد المدخل مباشرةً، سوراً طويلاً بغير ملاط، هو سور عمارة المجاورة ذات أربعة طوابق، ورأى على اليسار، حاجزاً من خشب يوازي ذلك السور، ويقع بعد المدخل مباشرةً، ويبلغ طوله نحو عشرين خطوة ثم ينعطف يساراً. هذه أرض خلاء تتقدس فيها أنواع شتى من مواد متروكة مهجورة. فإذا نظر الناظر إلى آخر الفناء بعد الحاجز، رأى ركنَ سقيفة من حجر، واطنة، مسودة من الدخان، لعلها كانت جزءاً من ورشة. فلا بد أن مصنعاً للعربات أو للأففان أو

شيئاً من هذا القبيل كان يقوم هنا، لأن الأرض سوداء من غبار الفحم في كل مكان تقريباً منذ باب المدخل. قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة: «ووجدت ضالتي! أرمي كل شيء هنا ثم أنصرف!». وإذا لم ير أحداً في الفناء، أسرع يجتاز الباب، فإذا هو يلمع، بالقرب من الباب، مزراباً مثبتاً بالحاجز الخشبي، بمثابة مبولة (كما يوضع مثله كثيراً في المحلات التي من هذا النوع، حيث يكثر العمال وأصحاب الحرف والحوذيون وأشباههم)، وفوق المزراب كتب على السياج، بالطباشير، الجملة التي تكتب عادةً من باب المزاح، بخط رديء وأخطاء إملائية: «ممنوع الوقوف هنا». قال راسكولنيكوف يغبط نفسه: «لهذا المكان هذه الميزة على الأقل، وهي أن أحداً لن يشتبه في أنني دخلته ووقفت فيه». وأضاف: «أرمي هنا كل شيء، كل شيء، دفعه واحدة، كدسه واحدة، ثم أمضي!»

وألقى على ما حوله نظرة أخرى، وفيما كان يدخل يده في جيبه إذا هو يرى، حداء الجدار، في المسافة التي تفصل الباب عن المبولة ولا يزيد طولها عن خطوتين، صخرة كبيرة غير منحوتة يمكن أن يكون وزنها نحو عشرين كيلوجراماً. إن الرصيف يقع خلف الجدار الحجري في الشارع. وإن وقع أقدام المارة، وهم كثُر دائماً في هذا المكان، يُسمع في الداخل. ولكن أحداً لا يستطيع أن يراه في هذه الجهة من الباب إلا إذا دخل، وذلك أمر يمكن أن يحدث، فلا بد لراسكولنيكوف إذن أن يسع.

مال راسكولنيكوف على الصخرة فأمسك أعلىها بيده كليهما امساكاً قوياً، واستجتمع قواه كلها، ففرزح الصخرة من مكانها. أن حفرة صغيرة كانت قد تشكلت تحت الصخرة. فسرعان ما أخذ راسكولنيكوف يرمي في هذه الحفرة كل ما كان في جيوبه، وكانت حافظة النقود آخر شيء رماه، فكان مكانها فوق سائر الأشياء الأخرى وبقي في الحفرة متسع. ثم أمسك بالصخرة من جديد، وردها إلى

وضعها الأصلي مرة واحدة، فلا يكاد يبدو أنها ارتفعت عن وضعها الأصلي إلا قليلاً. ولكن راسكونيكوف نبش الأرض، وكوم قليلاً من التراب حول الصخرة وعجنه بقدمه. وأصبح من المستحيل أن يلاحظ أي تغير.

وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان، فإذا هو مرة أخرى، كما حدث له في مكتب الشرطة منذ قليل، يشعر بفرح قوي جارف يستبد به لحظة. قال يحدث نفسه: «ها هي ذي الإثباتات قد دفنت في باطن الأرض! من ذا الذي يخطر على باله أن يبحث عنها تحت هذه الصخرة؟ لعل هذه الصخرة موجودة في هذا المكان منذ وجد المنزل، وستظل باقية ما بقي! وهبهم اكتشفوا الأشياء، فمن ذا الذي يمكن أن يشتبه في؟ انتهى الأمر! لا براهين بعد الآن!» وأخذ يضحك. سوف يتذكر في المستقبل أنه ضحك ضحكاً عصبياً صغيراً أخرس متصلة، وأنه كان ما يزال يضحك حين اجتاز الميدان، ولكنه ما إن دخل بوليفار ك... الذي التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة، حتى انقطع ضحكه فجأة. إن خواطر توافي ذهنه الآن. بدا له على حين فجأة أنه سيشعر باشمئزاز لا سبيل إلى التغلب عليه حين يمر قرب الدكة التي جلس عليها غارقاً في أفكاره بعد اتصاف الفتاة، وأنه سيؤلمه أشد الآلام أن يصادف، من جديد، الشرطي ذا الشاربين الذي أعطاه حينذاك عشرين كوبি�كاً. ودمدم يقول: «شيطان يأخذه!»

كان يسير وهو يرمي ما حوله بنظرة ذاهلة خبيثة. إن جميع أفكاره تدور الآن حول نقطة واحدة يحس هو نفسه أنها النقطة الرئيسية، وأنه الآن، على وجه التحديد، يقف وجهاً لوجه أمام هذه النقطة الرئيسية، وذلك لأول مرة منذ شهرين.

ثم إذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق رهيب: «ليأخذ الشيطان هذه القصة. دعنا من ذلك! ما دامت القصة قد بدأت، فلتذهب إلى

الشيطان... هي و«الحياة الجديدة»! ما أبغاني! ما أكثر ما صنعت اليوم من أكاذيب! ما أكثر ما ارتكبت اليوم من حقارات! ما أبشع ما أظهرته من تزلف وصغار، منذ قليل، أمام ذلك التافه ايليا بتروفتش!.. على كل حال... لا ضير... أنتي لا أكرث بهم، لا أكرث بهم ولا بآبني أظهرت لهم تزلفاً وصغاراً! ليس هذا هو الأمر... ليس هذا هو الأمر البتة!»

وتوقف فجأة. إن سؤالاً جديداً لم يكن في حسبانه قط، سؤالاً بسيطاً غاية البساطة، يحيّره الآن ويصعقه صعقاً. قال يسأل نفسه:

«لو كنت قد نفذت هذا الأمر عن وعي حقاً، لا على نحو يبلغ هذا المبلغ من البلاهة، لو كانت لك غاية محددة تماماً مرسومة تماماً، فكيف تفسر أنك إلى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحدة على ما تحويه حافظة النقود، وأنك لا تعرف ما الذي أردت أن تجنيه ولا تدرك الهدف الذي ارتضيت في سبيله أن تحتمل كل هذا العذاب وارتضيت في سبيله عاماً أن ترتكب عملاً يبلغ هذا المبلغ من الحقارنة والخسنة والدناءة؟ ألم تكن ت يريد منذ لحظة أن ترمي في الماء حافظة النقود هذه وجميع تلك الأشياء التي لم تكلف نفسك حتى عناء النظر إليها؟ كيف تفسر هذا كله؟»

نعم هذه هي الحقيقة! هذه هي الحقيقة تماماً! وكان هو يعلم هذه الحقيقة منذ مدة. إن هذا السؤال ليس جديداً عليه. فهو حين قرر في الليل أن يرمي كل شيء في الماء، أنما قرر هذا القرار بدون أي تردد، وبدون أية محاكمة، كما لو كان ينبغي له أن يفعل هذا لنفسه لا أي شيء سواه... نعم أنه يعلم كل هذا، وأنه يتذكر كل هذا، حتى ليكاد يكون قد اتخاذ قراره ذاك منذ البارحة، لحظةً كان ينبش صندوق العجوز ويخرج منه العلب... نعم هذه هي الحقيقة!

«والسبب هو أنني مريض جداً (إلى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف جازماً في نهاية المطاف). لقد عذبت نفسي ومنزقت نفسي وصرت أنا

نفسي لا أعرف ماذا أفعل... وأمس، وأمس الأول، وفي جميع تلك الأيام الأخيرة، كنت أمزق نفسي بغير انقطاع. حين سأشفى من مرضي، فلن... لن أمزق نفسي بعد ذلك... ولكن ماذا... ماذا إذا لم يكتب لي الشفاء؟ يا رب! إن هذا فوق طاقتني!» كان راسكولنيكوف يسير بلا تردد. كان يرغب رغبة رهيبة في أن يسلو وينسى بأي طريقة، ولكنه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلو. وهذا إحساس جديد لا يستطيع التغلب عليه يحتاج نفسه شيئاً بعد شيء ويشتد في كل دقيقة. هو نوع من اشمئاز لا حد له، اشمئاز يشبه أن يكون جسماً، اشمئاز من كل ما يحيط به ومن كل ما يراه في طريقة، اشمئاز عنيد، كاسر، حاقد، مبغض. إن جميع المارة الذين يلقاهم كريهون، كريهة وجوههم، كريهة حركاتهم، وحتى مشيthem كريهة. لو توجه أحد إليه بكلام في هذه اللحظة، لما زاد على أن يبصق في وجهه، ولربما عضه... .

وتوقف عن السير فجأة، لحظة صار على رصيف «نيفا الصغير» في جزيرة فاسيليفسكي قرب الجسر. قال لنفسه: «انه يسكن هنا في هذا البيت! ما معنى هذا؟ لقد جئت إذن إلى رازوميixin رغم إرادتي! ها قد تكرراليوم عين ما حدث في ذلك اليوم... ولكن هذا أمر عجيب جداً: أأنا جئت إلى هنا واعياً عامداً أم أني مشيت على غير هدى فإذا بي أصل إلى هذا المكان مصادفة؟... لا بأس! كنت أقول... أمس الأول... إني سأذهب إليه غداة قيامي بذلك العمل... طيب... أي ضير في هذا؟ سأذهب إليه! ماذا جرى؟ لكانني الآن لا أجرؤ أن أذهب إليه... ». .

وصعد إلى الطابق الخامس حيث يسكن رازوميixin.

كان رازوميixin في بيته، في غرفته الصغيرة، يعمل، يكتب. فتح الباب بنفسه. إنهملا لم يتلقها منذ أربعة أشهر. كان رازوميixin يرتدي روبأ منزلياً مهترئاً يكاد يكون خرقه بالية، وكان عاري القدمين إلا من

بابوج، ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه، ولا مشط شعره. ارتسم على وجهه تعبير الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخله عليه، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين:

- ماذ؟ أنت؟

شم صمت وصقر، ثم أردف يقول وهو ينظر إلى اسمال راسكولنيكوف الرثة:

- هل من الممكن أن تكون أحوالك سيئة إلى هذا الحد؟ لقد تفوقت علي في هذا المجال كثيراً. اجلس، اجلس! لا بد أنك متعب!

وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجدة بقمامش مشمع، وهي أسوأ حالاً من أريكته، أدرك رازوميخين فجأة أن رفيقه مريض فقال له:

- هيئتك تدل على أنك مريض جداً. هل تعلم هذا؟ وجسّ نبضه، فسحب راسكولنيكوف يده بحركة حادة، وقال له:

- لا داعي إلى ذلك. لقد جئت... إليك السبب الذي دفعني إلى المجيء: فقدت جميع الدروس التي كنت أعطيها... أود أن أحصل... ولو على... لكن لا داعي إلى ذلك... أصبحت في غير حاجة إلى دروس...

قال رازوميخين وهو يتفرس فيه بانتباه:

- أنت تهذبي! أتدربي؟

- لا... لست أهذى!

قال راسكولنيكوف ذلك ونهض عن الأريكة. إنه حين صعد إلى رازوميخين لم يخطر بباله أنه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه. وها هو ذا يدرك الآن على حين فجأة أنه لا شيء يضايقه أكثر مما يضايقه أن يرى الآن أي إنسان من الناس وجهاً لوجه. إن كل ما في نفسه من بغض قد

رازوميخين .

قال فجأة :

- وداعاً !

واتجه نحو الباب .

- ولكن انتظر ! انتظر ، يا لك من غريب !

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد :

- لا داعي !

سأله رازوميخين :

- فلماذا جئت إذا؟ أتراك جننت؟ إن في سلوكت هذا ما يشبه أن يكون إهانة لي . لن أدعك تصرف وأنت على هذه الحال .

- إذن فاسمع ! لقد جئت إليك لأنني لا أعرف أحداً غيرك يمكن أن يساعدني أن أبدأ... نعم جئت إليك لأنك أفضل منهم جميعاً، لأنك أذكي منهم جميعاً، ولأنك حصيف الرأي سديد الحكم . ولكنني أرى الآن أنني لست في حاجة إلى شيء . هل تسمع؟ لست في حاجة إلى شيء إطلاقاً... لا إلى خدمات أحد ولا إلى عطف أحد... سأدبّر أموري... بمنفسي ، وحدي . نعم... يكفي هذا . دعوني وشأنني أنتم جميعاً !

- ولكن انتظر لحظة يا سخيف ! أنت مجنون ، مجنون تماماً ! اعمل ما تشاء ! ولكن اسمع قليلاً: أما الدروس فأنا نفسي لا أعطي الآنس دروساً، ولا ولا أكتثر بالدروس ! غير أن عندي في السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيروف، هو فيرأيي خير درس ، ولو ساومني تجارة على أن أعدل عنه في مقابل خمسة دروس لما فعلت ! إنه ينشر كتاباً عن العلوم الطبيعية ! لا تستطيع أن تخيل مدى رواج هذا النوع من الكتب . إن الناس يتخاطفونها تخاططاً ! العناوين وحدها تساوي وزنها ذهبًا ! أنت

تدعي دائمًا أنني غبي، فاعلم يا عزيزي أن هنالك أناساً أغبي مني، أقسم لك على ذلك! لقد أخذ هو أيضًا يجاري التيار، ويتبع الاتجاهات الجديدة<sup>(38)</sup>. إنه شخصياً لا يفهم شيئاًً البتة، ولكنني أشجعه طبعاً على السير في هذه الطريق. انظر عندي ما يزيد عن الملزمتين المطبوعتين باللغة الألمانية. في رأيي أن الكلام الذي تضمنه ليس إلا دجلًا وشعوذة. إن الكاتب يطرح هذا السؤال: هل المرأة إنسان أم أنها ليست إنساناً. وقد انتهى إلى أن يبرهن بفخامة وجلال على أن المرأة إنسان... إن خير وفيموف يهبي هذه الأشياء لعلاقتها بقضية المرأة التي تناوش كثيراً هذه الأيام، وأنا أتولى الترجمة... وسوف نطيل النص الألماني الذي يتالف من ملزمتين ونصف ملزمة ف يجعله ست ملازم، ونجعل له عنواناً فهماً يملأ نصف صفحة، ثم نحدد ثمن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبيناً. طيب! وأنا أتقاضى عن ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات، أي خمسة عشر روبراً عن هذا الكتاب ولكنني أخذت منه ستة روبلات سلفة. ومتى انتهينا من هذا الكتاب، فستترجم كتاباً عن الحيتان. وقد اخترنا من كتاب «الاعترافات» عدداً من النماذج التي سترجمها أيضاً. لقد قال أحدهم لخير وفيموف إن روسو يشبه رادتشيف<sup>(39)</sup> وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه... شيطان يأخذه!... ها نحن إذن نصل إلى الأمر الأساسي: هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب «هل المرأة إنسان؟» إذا كنت ت يريد أن تفعل ذلك، فخذ النص على الفور، وخذ مع النص أقلاماً وورقاً - كل كذلك على نفقة الناشر - واقبل هذه الروبلات الثلاثة، فإني قد تقاضيت سلفةً عن ترجمة الملزمة الأولى والملزمة الثانية، ف تكون هذه الروبلات الثلاثة من حملك. حتى إذا فرغت من ترجمة ملزتك، قبضت ثلاثة روبلات أخرى. وإنني لأرجوك خاصةً أن لا تتصور أن ما أفعله الآن هو خدمةً أقدمها إليك. بالعكس: فإنني ما إن رأيتكم داخلاً علي حتى قلت لنفسي: سوف يفيدوني كثيراً. فأنا أولاً ضعيف في الإملاء، وأنا ثانياً أقرب إلى الضعف في اللغة الألمانية، لذلك تراني في أكثر الأحيان أفق وأخترع، وأعزني

نفسي قائلًا إن النتيجة تكون بذلك أفضل. ولكن من يدرى؟ قد لا تجيء النتيجة أفضل بل أسوأ.. هي، أتقبل أم لا؟

تناول راسكولنيكوف النص الألماني صامتاً، وأخذ الروبلات الثلاثة أيضاً، ثم خرج وهو ما يزال ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة. وتابعه رازوميixin بنظراته مشدوهاً. ولكن ما إن وصل راسكولنيكوف إلى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً على حين فجأة، وصعد ثانيةً إلى بيت رازوميixin، فبعد أن وضع الملزمة والروبلات الثلاثة على المنضدة، خرج مرة أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة أيضاً.

رأر رازوميixin وقد ثارت ثائرته أخيراً:

- لا شك في أنك مصاب بحمى حارة! ما هذه المهزلة التي تمثلها؟  
أنك تفقدني صوابي. لماذا جئت التي إذن أيها الأحمق؟

دمدم راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلالم:

- لست في حاجة إلى... ترجمة!

فصرخ رازوميixin يسأله من أعلى:

- أنت في حاجة إلى ماذا إذن؟

تابع راسكولنيكوف هبوطه في صمت.

- اسمع! أين تسكن الآن؟

لم يجب راسكولنيكوف.

- شيطان يأخذك!

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار في الشارع. وعلى جسر نيكولي<sup>(40)</sup>، اضطر أن يثوب إلى رشده مرة أخرى، بسبب حادث مزعج وقع له: لقد هوى حوذى على ظهره بضربة سوط أليمة، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه إلى تحذيراته التي كررها ثلاثة مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة. وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره،

فغضب غضباً بلغ من الشدة أنه صرَّ بأسنانه، ووثب إلى الأفريز (لقد كان يمشي في وسط الجسر لا حيث يمشي المشاة، لا يدري المرء لماذا!). فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات:

- حصل على جزائه!

- لا بد أنه مجنون، أو محтал!

- حيلة معروفة: يتظاهرون بالسكر ويرتمون عاديين تحت العجلات ليتذروا تعويضاً!

- من هذا يعيشون يا أصدقائي، هذا مصدر رزقهم . . .

ولكن في تلك اللحظة التي رأى فيها راسكولنيكوف نفسه قرب الأفريز آخذَا بحَك ظهره، متابعاً بنظرته المشدوحة الحانقة، ابتعاد العربية، أحسَّ فجأة بأن أحداً يدس مالاً في يده. نظر فرأى أمامه امرأة متقدمة في السن - لا شك أنها زوجة تاجر - على رأسها قلنوسوة من نسيج، وقدماها في حذاءين من الجلد الرقيق، ومعها فتاة تلبس قبعة وتحمل بيدها شمسية خضراء، ولعلها بنتها. قالت له السيدة وهي تدس المال في يده: «خذ هذا يا صاحبي لأجل الله». أخذ راسكولنيكوف الصدقة، وتابعت المرأة طريقهما. وكانت الصدقة قطعة نقد فضية قيمتها عشرون كوبيكأ. لا شك أنهما ظننا من زيه الغريب ومظهره الباري أنه شحاذ محترف. أما العشرون كوبيكأ - وهي مبلغ ضخم بالقياس إلى صدقة - فأغلبظن أنهما أنعمتا بها عليه بسبب ضربة السوط التي أثارت شفقتهما.

قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده، وسار عشر خطوات، ثم التفت يواجه نهر نيفا في اتجاه «القصر». كانت السماء صافية لا يعكرها سحاب، وكان الماء أزرق اللون تقريباً. وذلك ما لا يتفق إلا في القليل النادر. وكانت قبة الكاتدرائية<sup>(41)</sup>، التي لا تبرز هذا البروز إلا حين يُنظر إليها من هذا المكان من الجسر على بعد عشرين خطوة تقريباً

من برج صلاة صغير، كانت متألقة ساطعة، وكان الناظر إليها يستطيع، بفضل شفافية الهواء، أن يميز أدق زخارفها. هدا ألم راسكولنيكوف، ونسي ضربة السوط التي هوى بها الحوذى على ظهره. إن فكرةً مقلقة مضطربة تشغل الآن ذهنه كله. حدق ملياً إلى هذه الأماكن التي كانت مألوفة له. لقد حدث له في الماضي، حين كان ما يزال يتتردد إلى الجامعة<sup>(42)</sup>، حدث له مراراً كثيرة قد تعدد بالمئات، ولا سيما أثناء عودته إلى بيته، أن وقف في هذا المكان نفسه، فأخذ يتأمل المشهد الرائع، فكان يُدهش دائماً من الأثر المبهم الذي يحدّثه هذا المشهد في نفسه. لقد كان هذا المشهد الفخم يبدو له دائماً خالياً من الروح، يبدو له أخرين عقيماً بارداً غريباً... وكان راسكولنيكوف يُدهش في كل مرة من الإحساس القاتم الملغم الذي يشعر به، وكان لشكّه في نفسه يرجي دائماً شرح أسباب ذلك لنفسه. وقد تذكر الآن فجأة، بدقة حادة، جميع المسائل التي هاجمته وحاصرته، فبداله أنه لا يتذكر هذا كله مصادفةً. إن مجرد توقفه في هذا المكان نفسه الذي كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً شاداً. أكان يظن حقاً أنه ما يزال يستطيع أن يفكّر في نفس الأمور وأن يهتم بنفس المشاهد وأن يعني بنفس الموضوعات التي كانت تستهويه في الماضي... وفي الآونة الأخيرة أيضاً. أوشك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً. ولكن قلبه قد انقبض في الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب. بدا له أن ماضيه كله، وأفكاره كلها، وجميع المسائل والعواطف التي كان يعالجها في الماضي، وهذا المشهد نفسه، وهو ذاته، وكل شيء... كل شيء يرقد الآن في أسفل، تحت قدميه، في قراره هوة سحيقة لا نهاية لها... كان يبدو له أنه يطير إلى مكان ما في الأعلى وأن كل شيء يختفي ويزول ويغيب... نعم، كل شيء وعلى إثر حركة غير ارادية من يده أحسن بقطعة النقد الفضية مشدودة بقبضته، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً، ثم رماها في الماء بحركة يسيرة، واستدار على عقبيه وعاد يسير في

طريق بيته . كان يحس في تلك اللحظة كما لو أنه قطع بالمقص كل صلة بينه وبين العالم .

ولم يرجع إلى بيته إلا عند هبوط الليل ، أي أنه ظل يسير ست ساعات كاملة . ولو سأله عن الطرق التي سلكها لما استطاع أن يجيبك شيء . خلع ثيابه وهو يرتجف ارتجاف حصان عاجز ، ثم استلقى على الأرضية ، وغطى نفسه بمعطفه ، فلم يلبث أن غاب عن شعوره . . .

وأفاق في وسط ظلام كامل ، حين أيقظته صرخة كريهة . ما هذه الصرخة يا رب ! لم يسبق له في يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة بشعة إلى هذا الحد : عويل ، ونشيج ، وصرير أسنان ، وصرخات ، وشتائم لا يتصورها العقل ! ما كان له أن تخيل همجية كهذه الهمجية ، ووحشية بهذه الوحشية ! انتصب على أريكته مروعاً مهدود القلب . ولكن الشاجر والصخب والشتائم ما تنفك تقوى وتشتد .وها هو ذا يتعرف صوت صاحبة البيت فجأة ، فيصاب بدهشة كبيرة وذهول شديد . كانت تعول وتشن وتتصيت وتتضرع ، وتشوه الألفاظ من فرط سرعتها حتى ليستحيل على المرء أن يدرك جملة واحدة من كلامها . لعلها كانت تبتهل إلى من يضربها أن يكف عن ضربها ، ذلك أن أحداً كان يضربها على السلم ، نعم . . . إن أحداً يضربها هنالك ضرباً مبرحاً بلا شفة ولا رحمة . وهذا صوت الرجل الذي يضربها قد بلغ من شدة الغضب والحنق والهول أنه أصبح نوعاً من صراخ أبخ . كان هذا الرجل يقول كلاماً ، ولكن كلامه هو أيضاً كان لا يفهم من فرط سرعته واختناقه ! . . وأخذ راسكولنيكوف يرتجف على حين بعنته : تعرف صوت الرجل . أنه صوت ايليا بتروفتش . ماذا ؟ ايليا بتروفتش هنا ، يضرب صاحبة البيت ؟ نعم ، إنه يضربها بقدمه ، ويطرق برأسها درجة السلم : هذا واضح ، تدل عليه الضجات والصرخات والضربات ، ولا تخطئ في الدلاله عليه . ماذا جرى إذن ؟ هل انقلب العالم عاليه سالفه ؟ وهذا راسكولنيكوف يسمع في جميع الطوابق ، من أعلى السلم إلى أدناه ، أصوات جمهور

من الناس يحتشد صارخاً صائحاً. أناس يصعدون، وأناس ينزلون، والجلبة تزداد، والأبواب تقرقع... وأناس آخرون يهربون مسرعين. «لماذا؟ لماذا؟ أهذا ممكناً؟». كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف وهو يعتقد صادقاً بأنه قد أصبح مجئوناً، ولكن لا، إنه ما يزال يسمع ذلك كله واضحاً كل الوضوح... لا بد إذاً أنهم آتون إليه أيضاً، «لأن... نعم... لأن كل شيء يرجع... إلى أنني... بالأمس... قد... رباء!». أراد أن يغلق الباب بالكلابة، ولكن يده رفضت أن تطيعه، ولو قد أغلق الباب بالكلابة لما أجدها ذلك شيئاً من جهة أخرى. لقد كان الخوف يطوق نفسه كدرع من جليد، ويعذبه ويسلمه... ولكنها هي ذي الجلبة كلها تهدأ رويداً رويداً بعد أن دامت عشر دقائق طويلة... إن صاحبة البيت تثن الآن وتتأوه. أما إيليا بتروفتش فاستمر يهدأ ويتوعد ويشتم... وبدا أخيراً أنه هدا هو أيضاً، ثم أصبح صوته لا يُسمع البة. «أتراه انصرف؟ يا رب!». نعم، لقد انصرف. وهذه صاحبة البيت تنصرف أيضاً وهي ما تزال تئن وتبكي. هذا بابها يُغلق مقرقاً... هؤلاء هم الناس يتفرقون جميعاً فيعود كل منهم إلى مسكنه... إنهم يتاؤهون ويتناقشون ويستوضحون تارةً بأصوات قوية جداً (توشك أن تكون صراخاً) وتارةً بأصوات خافتة جداً (توشك أن تكون همساً)... لا شك أن عددهم كبير جداً يكاد يضم جميع سكان المنزل. تساءل راسكولنيكوف: «رباه! أهذا كله ممكناً؟ ولماذا، لماذا جاء إلى هنا؟»

تهالك راسكولنيكوف مهدود القوى على أريكته من جديد، ولكن جفنه لم يعرف إلى الغمض سبيلاً بعد ذلك. ولبث راقداً هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب. وهذا ضياء شديد ينير غرفته فجأة. لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء. فلما نظرت إليه ملياً وعرفت أنه ليس نائماً، وضعـت الشمعة على المنضدة، وأخذـت ترثـب على المائدة ما كانت تحملـه إلـيه: خبـزاً، وملـحاً، وصـحـناً، وملـعـقة.

قالت:

- لم تأكل شيئاً منذ أمس! ظللت تتسع هنا وهناك طوال النهار،  
وهذه حمى شديدة تنتابك الآن!

قال راسكولنيكوف لناستاسيا:

- ناستاسيا، لماذا ضربوا صاحبة البيت؟

فأجابته وهي تنظر إليه ملياً:

- من ضرب صاحبة البيت؟

- منذ قليل، منذ نصف ساعة... ضربها ايليا بتروفتش مساعد  
مفوض الشرطة، هنا، في السلم... لماذا ضربها هذا الضرب؟..  
ولماذا جاء؟..

تفسرت فيه ناستاسيا صامتةً مقطبةً مدة طويلة. لقد آلمه هذا، ثم شعر  
بخوف.

سألها راسكولنيكوف وجلاً، بصوت واهن:

- ناستاسيا، لماذا تصمتين؟

فقالت تجيئه بعد لحظة بصوت خافت كأنها تكلم نفسها:

- هو الدم.

- الدم؟ أي دم؟

كذلك تتمم وقد اصفر وجهه وأخذ يقهقر فيلتصق بالحائط. ما تزال  
ناستاسيا تنظر إليه صامتة. ثم قالت بعد لحظة بلهجة قاسية واثقة:  
- لم يضرب أحد صاحبة البيت.

فنظر إليها وهو لا يكاد يتنفس، وقال لها بمزيد من الوجل:

- سمعت الجلبة بنفسي... لم أكن نائماً... جلست هنا...  
وسمعت... جاء مساعد مفوض الشرطة... وخرج الجميع من  
شققهم... وهرعوا إلى السلم...

- لم يجئ أحد. الدم هو الذي يصرخ فيك. حين لا يوجد الدم  
مخرجاً فيأخذ يتختر ويسد الكبد، تراءى للمرء عندئذ رؤى... أتريد  
أن تأكل أم لا؟

لم يجب راسكولنيكوف. وظللت ناستاسيا واقفةً إلى جانبه، لا  
تكلم، وما تزال تتفرس فيه.  
- اسقيني يا ناستاسينكا...

نزلت ناستاسيا، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرة صغيرة من الفخار  
الأبيض فيها ماء. لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك. كل ما  
يتذكره هو أنه شرب جرعة من ماء بارد، وأنه قلب ماء الجرة على  
صدره. ثم أغمى عليه.

## الفصل الثالث

لَمْ يُفْقِدْ وَعِيهِ كُلَّهُ طَوَالَ مَدَةٍ مَرْضِهِ . كَانَ يَعْانِي حَالَةً حَمْى مَصْحُوبَةً بِبَهْدِيَانٍ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ تَرَكَتْ لَهُ نَصْفَ وَعِيٍّ . وَقَدْ تَذَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً . كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ تَارَةً أَنْ أَنَاسًا كَثِيرِينَ قَدْ احْتَشَدُوا حَوْلَهُ ، وَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْخُذُوهُ ، أَنْ يَنْقُلُوهُ إِلَى مَكَانٍ مَا ، وَأَنَّهُمْ يَتَنَاقِشُونَ وَيَخْتَلِفُونَ فِي أَمْرِهِ . وَكَانَ تَارَةً أُخْرَى يَجِدْ نَفْسَهُ وَحِيدًا فِي غُرْفَتِهِ عَلَى حِينٍ فَجَأًةً : فَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ جَمِيعًا لِأَنَّهُمْ خَافُوا مِنْهُ ، فَهُمْ يَشْقَوْنَ الْبَابَ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِ ، وَلِيَهُدُّوهُ ، وَهُمْ يَتَأَمَّرُونَ عَلَيْهِ ، وَيَضْحَكُونَ مِنْهُ ، وَيَزْدَرُونَهُ ، وَيَسْتَفْزُونَهُ . وَقَدْ تَذَكَّرَ رَاسِكُولِنِيكُوفُ أَنَّهُ رَأَى نَاسِتَاسِيَا سَاهِرَةً عَلَيْهِ قَرْبَ سَرِيرِهِ مَرَارًا . وَاسْتَطَاعَ كَذَلِكَ أَنْ يَمْيِيزَ رَجُلًا لَا بدَ أَنَّهُ كَانَ يَعْرَفُهُ جَيْدًا ، وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَنْ يَقُولَ مَنْ هُوَ هَذَا الرَّجُلُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ . وَكَانَ ذَلِكَ يَحْزِنُهُ وَيَؤْلِمُهُ ، حَتَّى لَقِدْ كَانَ يَبْكِي . وَكَانَ يَتَرَاءَى لَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَنَّهُ رَاقِدٌ فِي سَرِيرِهِ مِنْذُ شَهْرٍ ، وَكَانَ يَتَرَاءَى لَهُ فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى أَنَّهُ هَذِهِ الْمَدَةَ كُلُّهَا يَوْمٌ وَاحِدٌ يَتَصَلُّ وَيَسْتَمِرُ . وَلَكِنَّ مَا بَالِهِ نَسِيَ ذَلِكَ الْأَمْرِ ، مَا بَالِهِ نَسِيَ ذَلِكَ الْأَمْرِ نَسِيَانًا تَامًا! عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَتَذَكَّرُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَنَّهُ قَدْ نَسِيَ شَيْئًا لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَنْسَاهُ . وَكَانَ عَنْدَئِذٍ يَبْذُلْ جَهْدًا كَبِيرًا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَذَكَّرَ ، وَيَتَعَذَّبَ وَيَشْنَ ، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَسْتَولِي عَلَيْهِ حَنْقٌ مَسْعُورٌ أَوْ يَسْتَبِدُ بِهِ ذَعْرٌ شَدِيدٌ ، فَيَنْهَضُ عَنْ أَرْبِكَتِهِ ، وَيَحَاوِلُ أَنْ

وَلَلَّهُ

يهرب ، غير أن أحد الناس يمنعه من ذلك بالقوة ، فيهوي إلى ضعفه من جديد ، ويغيب عنه شعوره مرةً أخرى . ثم عاد إليه وعيه تماماً .

حدث ذلك في الساعة العاشرة من أحد الأصباح . كانت الشمس في مثل تلك الساعة من أيام الصحو يسقط منها شعاع طويل على الجدار الأيمن من غرفته ، ويضيء الركن القريب من الباب . هذه ناستاسيا واقفة قرب سريره ، وهذا شخص آخر يتفرس فيه بكثير من الاستطلاع ، رجل لا يتذكر راسكولنيكوف أنه رأه قبل اليوم فقط . هو فتى يرتدي قفطاناً ، وله لحية صغيرة ، وتدل هيئته على أنه مستخدم في محل تجاري . ومن خلال الباب المشقوق ، تنظر صاحبة البيت .

رفع راسكولنيكوف جسمه قليلاً ، وسأل وهو يومئي إلى الشاب :

- من هذا يا ناستاسيا؟

قالت ناستاسيا :

- صحا من غيبوبته !

فأقمن المستخدم على كلامها قائلاً :

- نعم ، صحا !

وفهمت صاحبة البيت التي كانت تنظر من خلال شق الباب ، أن راسكولنيكوف صحا من غيبوبته ، فأغلقت الباب مسرعةً وغابت . إن هذه المرأة كانت دائماً خجولة ، لا تطيق النقاش والعتاب . هي في نحو الأربعين من عمرها ، لها حاجبان سوداوان ، وعينان سوداوان ، وهي بدينة سمينة ، وطيبة بسبب هذه السمنة ، وبسبب كسلها أيضاً ، وإنها لتمتاز بكثير من البشاشة على كل حال ، ولكنها مفرطة في العفة .

عاد راسكولنيكوف يسأل من جديد ، وهو يتوجه بسؤاله إلى المستخدم رأساً :

- من . . . أنت؟

ولكن الباب فتح في تلك اللحظة واسعاً، ودخل رازوميخين منحنياً بسبب طول قامته. وهتف يقول وهو يدخل:

- مسكنك هذا يشبه أن يكون حجرة في سفينة. أهذا مسكن؟ لا يدخله المرء مرة إلا ويصطدم جبينه! إذاً لقد أفقت من غيبوبتك يا صاحبي، هه؟ لقد أعلمني باشنكا<sup>(43)</sup> منذ هنีهة أنك أفقت . . .

قالت ناستاسيا:

- نعم، أفاق الآن.

وردد المستخدم قائلاً وهو يتسم بابتسامة خفيفة:

- نعم، أفاق الآن . . .

سأل رازوميخين وهو يتوجه إلى المستخدم فجأة:

- ولكن . . . من أنت؟ أنا، مثلاً، اسمى فرازوميخين، لا رازوميخين كما اعتاد الناس أن يسموني، بل فرازوميخين . . . وأنا ابن رجل من السادة النبلاء وهذا هو صاحبي . . . ولكن، أنت، من أنت؟

- أنا مستخدم في محل التاجر شيلوباييف، وقد جئت هنا لأعمال.

- هلاً تفضلت فجلست على هذا الكرسي!

قال رازوميخين ذلك وجلس على كرسي آخر في الجهة الأخرى من المائدة. وتتابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف:

- أحسنت صنعاً يا عزيزي بالصحو من غيبوبتك. فإنك منذ أربعة أيام لم تطعم شيئاً، غير قليل من الشاي جُرّعته بالملعقة. وقد جئتك بزوسيموف مرتين. هل تتذكر زوسيموف؟ فحصلك بكثير من الاهتمام والانتباه، ثم قال إنك سليم معافي، إلا من ضربة أصابت رأسك. وأضاف أن الأمر لا يعدو أن يكون أنزعاجاً عصبياً بسيطاً مرده إلى سوء التغذية. فقد كنت في حاجة إلى بيرة وفجل، فلما حرمته منهما مرضت. ولكنه يؤكد أن ذلك كله سينقضى بسرعة، ستبرأ في القريب

على أحسن ما يكون. يا له من رجل لامع، زوسيموف هذا. لقد نجح  
نجاحاً فائقاً في الطب منذ الآن.

ثم أضاف رازوميغين يخاطب المستخدم من جديد:

- لا نريد أن نؤخرك. هلا تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه  
الزيارة!

وتابع بكلم راسكولنيكوف:

- لاحظ يا روديا أن هذه هي المرة الثانية التي يوفد فيها مكتبهم  
مندوبياً. ولكن مندوبيهم في المرة الماضية لم يكن هذا الشاب، بل كان  
رجالاً آخر، ومع ذلك الرجل الآخر إنما باحثنا.

وعاد يسأل المستخدم قائلاً:

- من ذلك الذي جاء في المرة الماضية؟

فأجابه المستخدم:

- لا شك أنك تقصد الذي جاء منذ ثلاثة أيام. أنه الكسي  
سيميونوفتش. هو يعمل في المحل أيضاً.

- أرى أنه أربع منك. مارأيك؟

- نعم، إنه أكثر وقاراً.

- أهنتك! طيب، أكمل!

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرةً:

- إليك الموضوع: بواسطة افاناسي ايفانوفتش فاخروشين الذي  
أرجو أن تكون قد سمعت عنه، ويطلب من السيدة والدتك، ووصلت  
إلى مكتبنا حواله مالية لك، فإذا كنت في حالة تمكنك من الفهم،  
فسوف أدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلًا تلقاها سيميون سيميونوفتش  
من افاناسي ايفانوفتش بناءً على طلب من السيدة والدتك. هل أبلغت  
هذا الأمر؟

- قال راسكولنيكوف حالمًا مفكراً:
- نعم، أذكر... فاخروشين...
- هفت رازوميixin يقول:
- هل سمعت؟ إنه يعرف التاجر فاخروشين، فكيف لا يكون في حالة تمكّنه من الفهم؟ ثم إنني لاحظ أنك رجل عاقل، فهيا أكمل حديثك. إنه ليحلو للمرء دائمًا أن يسمع أقوال رجل عاقل.
- تابع المستخدم كلامه فقال:
- نعم، إن فاخروشين هذا نفسه. أفالاني ايفانوفتش فاخروشين، لم يتردد، حين طلبت السيدة والدتك ذلك - وهي التي أوصلت إليك بواسطته، في مرة سابقة، مبلغًا من المال - لم يتردد في هذه المرة أيضًا أن يكتب إلى سيميون سيميونوفتش طالبًا منه أن يدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلًا، بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك في المستقبل.
- يميناً إن قولك «بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك في المستقبل» هي خير ما خرج من فمك. ولا بأس كذلك في قولك «السيدة والدتك». ما رأيك الآن؟ أهو يملك شعوره كاملاً أم لا؟
- أتمنى ذلك... كل ما أريده هو أن يعطيوني إيصالاً صغيراً يشهد باستلامه المبلغ.
- سيكتب لك الإيصال فوراً. ما هذا الذي معك؟ أهو سجل؟
- نعم، سجل.
- هاته. هيتا يا روديا! انھض قليلاً. سأسندك. وقع له اسمك دفعه واحدة. خذ القلم يا صاحبي، لأن حاجتنا إلى المال ماسة، ماسة...
- قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم:
- لست في حاجة...
- لست في حاجة إلى ماذا؟

- لن أوقع.

- ولكن كيف يمكن أن... . بغير توقيع... يا للعنة!

- لست في حاجة إلى مال.

- لست في حاجة إلى مال؟ ألا إنك لتکذب يا عزيزي. أنا شاهد على أنك تکذب.

قال رازوميixin ذلك، والتفت يخاطب الشاب:

- لا تقلق، أرجوك... هو يقول هذا، ولكنه يهدي من جديد. ثم إنه يتافق له أن يهدي في الحالة الطبيعية. أنا أعرفه. وأنت رجل عاقل. ليس علينا إذن إلا أن نرشده، أو قل أن نرشد يده، في الواقع. هيا، ساعدني!

- يمكنني أن أرجع مرة أخرى.

- لا، لا، لماذا تزعج نفسك مرة أخرى؟ أنت رجل عاقل... هلْ يا روبيا، لا تؤخر ضيفنا... أنت ترى أنه يتظر منذ مدة.

قال رازوميixin ذلك وتهياً، جادأ كل الجد، لأن يقود يد راسكولنيكوف. فقال له راسكولنيكوف:

- دع عنك. سأوقع بنفسي.

وتناول القلم، ووقع.

دفع له المستخدم المال، وخرج.

- مرحى! والآن يا عزيزي، ستأكل! هه؟  
نعم سأكل!...

قال رازوميixin يسأل ناستاسيا التي لبست هناك طوال تلك المدة:

- هل عندكم حساء؟

- نعم، عندنا حساء من أمس.

- أهو حساء بالرز والبطاطس؟

- بالرز والبطاطس.

- قدرت ذلك. هاتي الحساء، وأتينا بشاي!

- حالاً!

نظر راسكولنيكوف حواليه مدهوشًا مخبولاً شاعرًا بذعر أخرين. لقد قرر أن يصمت وأن يتضطر تتمة الأحداث. قال يحدث نفسه: «يخيل إليّ أني لا أهدي الآن. يخيل إليّ أن هذا كله واقع وليس أضغاث أحلام!» وبعد دقيقةين عادت ناستاسيا بالحساء، وأعلنت أن الشاي سيكون مهياً بعد قليل. من أجل الحساء ظهرت ملعقتان وصحنان وجميع أدوات المائدة: وعاء الملح، ووعاء الفلفل، ووعاء الخردل لتطيب المرق، الخ. إن مثل هذا الترتيب الدقيق لم يُرَاع منذ مدة طويلة. وكان غطاء المائدة نظيفاً.

قال رازوميخين:

- لا بأس، يا ناستاسيوشكا، في أن ترسل إلينا براسكوفيا بافلوفنا زجاجتين صغيرتين من البيرة. سوف يسرنا أن نشربها.  
فدمدمت ناستاسيا وهي تمضي لتنفيذ الأوامر:

- إنك لتحب المسئفات!

وكان راسكولنيكوف ما يزال ينظر حواليه زانع الهيئة مشدود الانتباه. وفي أثناء ذلك الوقت كان رازوميخين الذي جلس إلى جانبه على الأريكة، ينهض رأسه بيده اليسرى، بخرقة كخرقة الدب، ويحمل إلى فمه باليد اليمنى ملعقة من الحساء بعد أن ينفح عليها عدة مرات حتى لا يحترق بها فم صاحبه. وكان الحساء في الواقع فاتراً غير ساخن. التهم راسكولنيكوف ملعقة أولى، فملعقة ثانية، فملعقة ثالثة، بشهادة ونهم. فلم يلبث رازوميخين أن توقف عن إطعامه قائلًا إن من الواجب أن

يُستشار في ذلك زوسيموف أولاً.

ودخلت ناستاسيا تحمل زجاجتي بيرة.

- هل تريدين شيئاً من الشاي؟

- نعم.

- هاتي لنا شيئاً يا ناستاسيا، فإننا فيما يتعلق بهذا الشراب، أعني الشاي، نستطيع أن نستغنى عن وصفات كلية الطب! آآآ.. هذه هي البيرة!

قال رازوميخين ذلك، وعاد إلى كرسيه، وجذب إليه الحساء، واللحم المسلوق، وأخذ يلتقط كل هذا كأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام. ددمد يقول بمقدار ما يتبع له فمه المملوء لحماً أن يتكلم:

- نعم يا روديا، نعم يا صديقي القديم، على هذا النحو إنما أصبحت أكل الآن كل يوم في متزلكم. إن صاحبة البيت باشنسكا هي التي تكرمنا هذا التكريم. إنها تحبيطني بكل أنواع العناية والرعاية. طبعاً أنا لا أطلب شيئاً، ولكنني لا أرفض شيئاً كذلك... هذه ناستاسيا وشایها! هي الريح نفسها في صورة امرأة! هل تريدين شيئاً من البيرة يا ناستاسيا؟

- مهرّج!

- وهل تريدين شيئاً من الشاي؟

- الشاي... لا أرفض الشاي! ..

- إذاً صبي لنفسك شيئاً. لا بل انتظري! سأخدمك أنا، بنفسي. اجلس إلى المائدة.

قال رازوميخين ذلك وأسرع ينهمك في صب الشاي، فملأ فنجانه ثانية، ثم ترك غدائه، وعاد يجلس على الديوان. وكما فعل منذ قليل، دس يده اليسرى تحت رأس المريض، فأنهضه قليلاً، وأشربه شابه بالملعقة، نافخاً على كل ملعقة بكثير من العناية والاهتمام، لأن سلامه

المريض مرهونة بهذا النفح. وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يقاومه أية مقاومة، رغم شعوره بأنه يملك من القوة ما يكفيه لأن ينهض جسمه، ولأن يبقى جالساً بغير مساعدة من أحد، بل ولأن يستعمل يديه أيضاً ليأخذ ملعقة أو فنجاناً، حتى لقد مضى إلى حد الاعتقاد أن في وسعه أن يمشي إذا شاء. ولكنه بنوع من مكر غريب، مكر يكاد يكون غريزياً، خطر بباله فجأة أن يخفي قواه، بل وأن يتظاهر بغيوبية تامة إذا لزم الأمر، من أجل أن يتجلّس خلال ذلك على مايجرى حوله. غير أنه لم يستطع أن يتغلب على اشمئزازه: فبعد أن ابتلع نحو عشر ملاعق من الشاي، سلَّ رأسه، ودفع الملعقة بنزوة طارئة، وتهالك على الوسادة، إن رأسه يستريح الآن على وسادات حقيقة من ريش، تجلّلها أغطية نظفة، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك وأدركه.

أعلن رازوميixin وهو يعود إلى مكانه ويهاجم على حسائه وبيته من جديد:

- يجب على باشنكا أن ترسل إلينا في هذا اليوم نفسه شيئاً من مرتب التوت نصنع منه لمريضنا شراباً.

قالت ناستاسيا التي كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباعدة، وترشف شايها فيرشح «من خلال السكر» في فمهَا:

- ولكن من أين عساها تأتي الآن بالتوت؟

- التوت يا عزيزتي ستجده عند البقال. هل تعلم يا روديا؟ لقد جرت هنا قصة لا تعرف عنها شيئاً! حين هربت من عندي هروب وغد من الأوغاد، دون أن تذكر لي عنوانك، غضبُ غضباً بلغ من الشدة أنني قررت فوراً أن أعثر عليك... وأن أعاقبك! وأخذت في ذلك اليوم نفسه أبحث عنك... يمكن أن يقال إنني ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتمادي إليك... كنت قد نسيت عنوانك الحالي، أو قل إنني ما نسيته لأنني ما كنت أعرفه أصلاً. أما مسكنك القديم، فإن كل ما كنت

اذكره عنه هو أنه يقع في مكان ما من «الأركان الخمسة» بعمارة تسمى «عمارة خارلاموف»... والحق أن ذلك السيد، صاحب العمارة، لم يكن اسمه خارلاموف، بل بوخ. فانظر كيف يخطئ المرء بسبب التجانس اللفظي! الخلاصة أنتي غضبت غصباً شديداً، غضباً بلغ من الشدة أنتي ذهبت من الغدر رأساً إلى مكتب تسجيل العناوين: فإذا أنا أعرف منهم عنوانك في غضون دقائقتين. نعم، نعم، إنك مسجل عندهم!

- مسجل!

- نعم، نعم، مسجل. ومع ذلك لم يستطعوا أن يعثروا على عنوان الجنرال كوبليف. لست أخترع شيئاً: لقد جرى هذا أمامي. هوه! ما لنا نتوه في التفاصيل!.. عل كل حال، ما إن جئت إلى هنا، حتى كنت أعرف جميع شؤونك، نعم، جميع شؤونك! يا صديقي أنا أعرف كل شيء. وناستاسيا شاهدة على ذلك. لقد أرَوني ايليا بتروفيتش، وتعارفت مع نيكوديم فومتش، والباب، والمُسَيد زاميوتوف، الكسندر جريجورييفتش زاميوتوف، سكريتير قسم شرطة الحي، وعرفت أخيراً باشنكا... باشنكا... إنها زهرة من عرفهم. ناستاسيا تعرف ذلك.

تممت ناستاسيا تقول وهي تصاحك ضحكة فيها شيء من مكر:

- عرف كيف يتملقها.

- عليك أن تصعي السكر في فنجانك يا ناستاسيا نيكيفوروفنا!

صاحت ناستاسيا تقول وهي تنفجر ضاحكة:

- يا للحيوان!

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك:

- ليس اسمي نيكيفوروفنا بل بتروفنا.

قال لها رازوميخين:

- أحطنا علمًا بذلك.

ثم استأنف كلامه مخاطبًا راسكولنيكوف:

- هكذا يا صاحبي، الخلاصة أني أردت أن أستعمل سائلاً كهربائيًا من أجل أن استحصل، دفعة واحدة، جميع الأوهام المعيشة في هذه النواحي. ولكن باشنكا غلبتني. يا صديقي، ما كنت لأنتصور في يوم من الأيام أنها جذابة... إلى هذا الحد... هـ؟ ما رأيك؟

لم يجب راسكولنيكوف، رغم أنه لم يحول بصره القلق عن رازوميixin في لحظة من اللحظات، ورغم أنه ما يزال يحدق اليه.

تابع رازوميixin كلامه فقال دون أن يظهر عليه أي استياء من صمت راسكولنيكوف وكأنه يوافق على كلام صاحبه:

- نعم، إنها إنسانة ممتازة من جميع الجهات.

هفت ناستاسيا تقول من جديد، وقد بدا عليها أن هذه المحادثة تسرها سروراً عظيماً:

- يا له من حيوان!

- المصيبة يا صديقي أنك لم تعرف كيف تتدبر أمرك منذ البداية. إن على المرء أن يتبع في معاملتها طريقة غير طريقتك. إن لها طبعاً... غريباً! ستتكلم عن طبعها فيما بعد. ولكن كيف استطعت أن تفسد أمورك معها إلى الحد الذي انقطعت معه عن ارسال طعامك إليك؟ وما قصة السندي تلك؟ أنت جنت؟ كيف ترضى أن توقع سندات؟ ومشروع الزواج ذاك، حين كانت ابنتها ناتاليا ياجوروفنا ما تزال على قيد الحياة؟ إنني أعلم كل شيء! أنا أدرك أنني هنا أمسك الوتر الحساس، وأنني حمار. معذرة، معذرة. ولكن قل لي بمناسبة الحماقات ما رأيك: أليست بارسكونوفيا بافلوفنا حمقاء إلى الحد الذي قد يفترضه المرء من أول نظرة، أليس كذلك؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شفتيه، مشيحاً بوجهه، مدركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل:

- نعم . . .

فهتف رازوميخين وقد أسعده إسعاداً واضحاً أنه حصل على جواب:  
- أليس كذلك؟ ولكنها ليست ذكية أيضاً، هه؟ إن لها طبعاً لا يتوقع  
أبداً. أنا، بصراحة، يحيّرني هذا الطبع يا صاحبي. لا بد أنها في  
الأربعين من عمرها... هي تقول إنها لم تتجاوز السادسة والثلاثين.  
هذا حق من حقوقها. على أني (أحلف لك!) لا أحكم عليها إلا من  
 وجهة النظر الفكرية، من وجهة النظر... الميتافيزيقية وحدتها. إن ما  
يقع بيننا يدخل في نطاق الرمز. هو نوع من علم الجبر يا صاحبي...  
لست أفهم من ذلك شيئاً. سخافات كل هذا! ولكنها إذ رأت أنك لم  
تعد طالباً، وأنك فقدت ما كنت تعطيه من دروس، وأنك أصبحت لا  
تملك ما تدثر به ظهرك، وأنك غدوت منذ موت آنستها لا تستطيع أن  
تعذّك عضواً في الأسرة، قد انتابها ذعر. وإذا أنك من جهتك انطويت  
على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت تعيش في الماضي، فقد قام في  
ذهنها أن تطردك. وكانت تفكّر في هذا المشروع منذ مدة، ولكن السند  
كان يقلّقها كثيراً، ولما كانت قد أكدت لها أن أمك ستدفع... .

- قلت لها ذلك حقاراً مني... إن أمي توشك أن تستجدي أكف  
الناس... لقد كذبت عليها لأجبرها على أن تحفظ بي وأن  
تطعمني... .

قال راسكولينيكوف ذلك بصوت عالٍ واضح.

أجابه رازوميخين:

- نعم، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقل وحكمة. ولكن  
المشكلة هي أنه من تلك اللحظة ظهر السيد تشيباروف، وهو مستشار  
ورجل من رجال الأعمال، فلو لا هذا الرجل لما خطر ببال باشنكا،  
وهي المرأة الخجولة، أن تتخذ أي إجراء. ولكن رجل الأعمال لا  
يملك هذا الخجل، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً هو هذا السؤال: هل

هناك أمل في قبض قيمة السندي؟ وكان الجواب بنعم. لأن هناك أمّا لها معاش مقداره مائة وخمسة وعشرون روبيلاً، فلن تضن على ابنها رودنكا بإخراجها من المأزق ولو اضطررها ذلك إلى حرمان نفسها من الطعام، ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضى بأن تبيع نفسها عبدةً في سبيل إنقاذ أخيها الحبيب. على هذا اعتمد الرجل. ما بالك تضطرب لهذا الاضطراب؟ هاؤنت ذا ترى يا صاحبي أنني أعرف الآن قصتك، أعرفها من ألفها إلى يائها. لم يذهب سدى ما أفضيتك به إلى باشنكا من مسارات حين كنت ما تزال تعد نفسك من أقربائها بصفة زوج ابنتهما المقبل... ولعن كنت أقول لك هذا الكلام، فلأنني صديقك. اسمع إذن ما حدث: حين يسترسل الإنسان الشريف الحساس في مسارات حميمة، فإن رجل الأعمال يجلس إلى منضيده وينهمك في الحساب ليخرج بمنفعة. وهكذا تنازلت باشنكا عن السندي لتشيباروف، فلم يتورع تشيباروف هذا عن المطالبة بقيمة السندي. وحين علمت أنا بهذا كله، أردت أن أتدخل في الأمر فأرسلت سائلـي الكهربائي إليه هو أيضاً. ولكن الانسجام قام بيـني وبين باشنـكا أثناء ذلك، فأوقفت القضية كلـها، وقضـيتـ عليهاـ فيـ مـهـدـهاـ،ـ إذـ كـفـلتـ أـنـ تـدـفعـ المـبـلـغـ.ـ لـقـدـ أـصـبـحـتـ كـفـيلـكـ ياـ صـاحـبـيـ،ـ هـلـ تـسـمـعـ؟ـ وـاسـتـدـعـيـناـ تـشـيبـارـوفـ،ـ فـدـسـسـتـاـ فـيـ فـمـهـ عـشـرـةـ روـبـيلـاتـ،ـ فـرـدـ السـنـدـ الـذـيـ يـشـرـفـنـيـ،ـ يـاـ سـيـدـيـ،ـ أـنـ أـقـدـمـ إـلـيـكـ.ـ لـنـ تـطـالـبـ بـعـدـ الـآنـ بـسـنـدـ،ـ بلـ سـُـتـصـدـقـ عـلـىـ عـهـدـ الشـرـفـ وـحـدـهـ.ـ خـذـ السـنـدـ.ـ لـقـدـ مـزـقـتـهـ قـلـيـلاـ،ـ كـمـ يـجـبـ أـنـ أـفـعـلـ...ـ

وضع رازوميixin السندي على المائدة. فألقى راسكونيكوف عليه نظرة سريعة، ثم التفت إلى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً، فاستاء رازوميixin من ذلك، وقال بعد دقيقة:

- أرى يا صاحبي أنني كنت غبياً مرة أخرى. لقد ظنت أنني بثراتي سأستـرـيـ عنـكـ وأـسـلـيـكـ،ـ وـهـاـنـدـاـ أـلـاحـظـ الـآنـ أـنـيـ لمـ أـزـدـ عـلـىـ أـنـ حـرـكـ غـضـبـكـ!

- أنت الشخص الذي كنت أثناء هذيني لا أعرف إليه؟  
كذلك سأله راسكولنيكوف بعد أن صمت خلال دقيقة هو أيضاً،  
ودون أن يلتفت إليه. فأجاب رازوميخين:  
- نعم أنا، حتى إن حضوري قد سبب لك بعض نوبات الهياج، ولا  
سيما حين جئت إليك بزاميوفوف.  
فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف. وحدق إلى رازوميخين سائلاً:  
- زاميوفوف؟ سكرتير مفوض الشرطة؟ لماذا جاء؟  
- ولكن ماذا دهاك؟ لماذا تضطرب هذا الاضطراب؟ لقد أراد أن  
يتعرف إليك... وإنما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً. وكيف كان  
يمكنني، لولاه، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك؟ إنه رجل شهم،  
 رائع... في نوعه طبعاً. ونحن الآن صديقان، نلتقي كل يوم تقريباً.  
ذلك أبني سكنت في مكان قريب. ألم تعرف ذلك بعد؟ نعم، انتقلت  
منذ برهة وجيزة. وقد ذهبنا إلى لوبيزا مرة أو مرتين. أتتذكر لوبيزا  
إيفانوفنا؟

- هل كنت أهذى؟  
- أظن ذلك! كنت غير نفسك؟  
- وماذا كنت أقول؟  
- ماذا كنت تقول؟ ه... معروف ماذا يمكن أن يقول رجل يهدي.  
والآن، يا صاحبي، لم يبق لنا وقت نضيعه. إلى العمل!  
نهض من الكرسي وتناول قبعته.

- ما باله يصر؟ أتراه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار؟ لا  
تقلق إذن. لم يفلت منك كلام في حق السيدة الكونتيسة. ولكنك  
تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع «البولدوخ»، وتكلمت عن أقراط

إذن، وعن سلاسل ذهبية، وعن جزيرة كريستوفسكي، وعن بواب ما، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم فومتش وايليا بتروفتش مساعد مفوّض الشرطة. ثم إنك يا سيدي قد اهتممت اهتماماً عظيماً بجوربك، فكنت تتوسل أن نسرع ونعطيك جوربك فبادر زاميروف بنفسه يبحث لك عنه في كل ركن من الأركان، حتى إذا وجده، حتى إذا وجد تلك القاذورة حملها إليك بيديه، بيديه البيضاوين المعطرتين المجللتين بالخواتم. عندئذ هدا روّعك، ثم ظللت قابضاً بيديك على تلك القاذورة يوماً كاملاً، لا يستطيع أحد أن يتزعّها منك. لا بد أنها ما تزال في مكان ما تحت غطائك! وكنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك، حتى لقد كنت تبكي وأنت تطالب بتلك القصاصات. تسأّلنا آية قصاصات تعني، ولكن كان كلامك مشوشًا فلم نفهم منه شيئاً. والآن كفى كلاماً، ولنبادر إلى العمل. هذه خمسة وثلاثون روبلًا. أثني آخذ منها عشرة، وسأعود إليك بالحساب بعد ساعتين. وفي أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف، الذي كان ينبغي أن يكون هنا منذ مدة طويلة، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. وأنت يا ناستاسيا، أرجوك أن تعني به أثناء غيابي! أعطه ما يشربه، أو أعطه شيئاً آخر إذا هو رغب في ذلك. أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً ما يجب قوله. إلى اللقاء!

قالت ناستاسيا عندما خرج :

- إنه يدعوها باشنكا! آه! يا للماكر!

ثم فتحت الباب وأصاحت بسماعها، ثم لم تطق صبراً فهرولت تهبط. أنها تحرق شوقاً إلى معرفة ما قد يقوله رازوميخين لمولاتها. وفي وسعنا أن نقول بوجه عام أنها كانت مفتتنة برازوميخين افتتانًا واضحًا.

فما أن أغلاقت وراءها الباب حتى رمى المريض غطاءه، ووثب عن السرير كالمحنون. كان قد انتظر خروجهما نافذ الصبر إلى حد الاحتراق والتشنج، ليباشر العمل بأقصى سرعة. ولكن ما هو هذا العمل الذي

يريد أن يقوم به؟ ها هو ذا قد أصبح، كأنما عن عمد، لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل! «رباه! قل لي شيئاً واحداً يا رب: أهم يعرفون أم هم لا يعرفون بعد؟ أهم يعرفون منذ الآن كل شيء ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئاً؟ أكانوا يعيشون بي بينما أنا راقد هنا؟ أتراهم سيدخلون علينا فجأة ليقولوا إنهم يعرفون كل شيء منذ مدة طويلة، ولكنهم تظاهروا بالجهل عامدين؟ .. ما العمل الآن؟ هاؤنذا نسيت ما يجب أن أعمله، كأنما قصدت ذلك! هاؤنذا نسيته مع أنني كنت أذكره منذ قليل ..»

ظل راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً حيرة أليمة. ثم اقترب من الباب، ففتحه وأخذ يتنصل، ولكن ليس هذا ما كان يريد أن يفعله. وكأنه تذكر فجأة، فإذا هو يهرع نحو الركن، حيث يوجد ثقب تحت ورق الجدار. أخذ يفتش هنالك بانتباه، وأدخل يده في الثقب يتلمسه، ولكن هذا ليس ما كان يريد أن يفعله أيضاً... فاتجه عندئذ نحو المدفأة، ففتحها، ونبش رمادها، فعثر على قصاصات السروال ومزق الجيب المنتزع كما كانت حين رماها في هذا المكان. إذن لم ينظر أحد في المدفأة. وعندها ذكر الجورب الذي جاء رازوميixin على ذكره منذ قليل. إن ما قاله رازوميixin صحيح. إن الجورب موجود تحت الغطاء فعلاً، ولكنه بلغ من الاتساع ومن الاهتمام بالحلك أن زاميتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة.

«نعم! زاميتوف! .. قسم الشرطة! ولكن لماذا استدعى إلى قسم الشرطة؟ أين كتاب الاستدعاء؟ هوه! إبني أخلط! لقد استدعيت إلى قسم الشرطة في يوم ماضٍ! وكنت حينذاك أدقق النظر في الجورب. والآن... والآن... لقد كنت مريضاً... لماذا جاء زاميتوف إلى هنا؟ لماذا أتى به رازوميixin إلى بيتي؟»

بهذا تتم راسكولنيكوف مهدود القوى، وهو يعود إلى الجلوس على سريره. وتتابع حديثه لنفسه:

«ماذا يجري؟ أأنا ما أزال أهذى أم أن هذا كله الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهدىيان؟ يبدو لي أن هذا كله الآن واقع... آ... تذكرت: أهرب، يجب أن أهرب بأقصى سرعة، يجب أن أهرب حتماً. نعم، ولكن إلى أين؟ وأين ثيابي؟ أين حذائي. لقد أخذوها... لقد أخفوها عنِّي! فهمت! آ... هذا معطفِي... لقد نسوه! وهذا هو المال على المائدة! الحمد لله! وهذا هو السند... سأخذ المال وأهرب. سأستأجر بيتاً آخر، ولن يشعروا عليَّ! نعم، ولكن مكتب العناوين... آه... سيكتشفونني! سيكتشفونني رازوميخين! الأفضل مع ذلك أن أهرب... أن أهرب إلى مكان بعيد، إلى أمريكا، ثم أبصق عليهم... ويجب أن أخذ السند أيضاً... فقد ينفعني هناك... ماذا أخذ أيضاً؟ هم يعتقدون أنني مريض! لا يخطر ببالهم أن في إمكاني أن أمشي... ها ها! قرأت في أعينهم أنهم يعرفون كل شيء! المهم أن أستطيع الهبوط على السلم! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة! ماذا لو كان يوجد شرطة تحت؟ ما هذا؟ شاي؟ آ... ما تزال بقية من بيرة، نصف زجاجة، باردة تماماً!»

أمسك الزجاجة التي كان قد بقي فيها ما يملأ كأساً كبيرة، فأفرغها في جوفه دفعة واحدة، متلذذاً، كأنما ليطفئ النار التي تحرق صدره. ولكن قبل أن تنقضي دقيقة واحدة، كانت البيرة قد صعدت إلى رأسه، فإذا برعدة خفيفة تسري في ظهره، رعدة توشك أن تكون لذيدة، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر به جسمه. أخذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلي مزيداً من الغليان، وسرعان ما استولى عليه نعاس لطيف. فاهتدى إلى مكان رأسه على الوسادة متلذذاً، وتدثر مزيداً من التدثر بالغطاء الرخو الممحشو بالقطن الذي يقوم الآن مقام معطفه الممزق، وزفر زفراً خفيفاً، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً.

واستيقظ حين سمع أحدهم يدخل عليه، ففتح عينيه، ليرى رازوميخين. كان رازوميخين قد فتح الباب واسعاً، ووقف على العتبة

متسائلًا أيدخل أم لا يدخل. أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره جالساً، ونظر إلى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما.

قال رازوميixin:

- هـ . . . أنت غير نائم؟

ثم صرخ ينادي ناستاسيا في السلم قائلاً:

- ناستاسيا، هاتي الصرة!

وعاد يقول لراسكولنيكوف:

- سأقدم إليك الحساب فوراً.

سؤال راسكولنيكوف وهو يلقي على ما حوله نظرة قلقة:

- كم الساعة الآن؟

- يمكننا أن نقول، أيها الأخ العزيز، إنك غير محروم من النوم. لقد حان المساء. لا بد أن الساعة غير بعيدة عن السادسة. معنى ذلك أنك نمت ست ساعات أو أكثر . . .

- رباه! كيف أمكن أن . . .

- ماذا؟ إنك قد أحسنت صنعاً. ما أحسب أنك مستعجل! ما أحسب أنك مرتبط بموعد! أليس كذلك؟ نحن نملك إذن وقتنا. إنني منذ ثلاثة ساعات أنتظر أن تفيق من نومك. جئت إليك مرتين، ولكنك كنت ما تزال نائماً. وقد ذهبت مرتين أيضاً إلى زوسيموف. ولكتنبي لم أجده. لا ضير! سوف يجيء . . . ثم إنني قد تغيرت لأمور شخصية صغيرة. أنت تعلم أنني قد انتقلت اليوم من مسكنى، انتقلت منه مع عمي . . . إن لي عمَا الآن. ولكن دعنا من هذا كله . . . سحقاً لهذا كله! هاتي الصرة يا ناستاسيا. سوف . . . فوراً . . . وكيف صحّتك الآن يا صاحب؟

قال راسكولنيكوف:

- صحّتي حسنة. أبللت من المرض. أأنت هنا منذ مدة طويلة؟

- قلت لك إنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات.

- نعم، ولكن... قبل ذلك؟

- قبل ماذا؟

- منذ متى تأتي إلى هنا؟

- ألم أقصص عليك ذلك؟ ألا تذكر؟

Shard فكر راسكولينيكوف . إن ما جرى في هذه الفترة يبدو له حلماً .  
 كان عاجزاً عن أن يتذكر أي شيء بنفسه ، وألقى على رازوميixin نظرة مستفسرة .

قال رازوميixin :

- آ... إذن نسيت ! لقد بدا لي في الصباح أن عقلك ... أما الآن فقد ساعدك النوم وشفاك . حقاً إن هيئتكم الآن أفضل كثيراً مما كانت .  
 مرحى ! إلى العمل إذن ! وسوف تتذكر فوراً ! انظر إلى هنا ، أيها السيد العزيز !

وأخذ رازوميixin يفضض صرته التي كان يبدو أنه يوليه أكبر اهتمام .

- نعم يا عزيزي ، هذا أمر يهمني كثيراً ، ذلك أن عليّ أن أجعلك رجلاً . هيا بنا ! لنبدأ من فوق .

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وإن تكون من طراز عادي بخس الثمن :

- هل ترى هذه القبعة؟ سأجريها عليك ، أتسمح بذلك؟

قال راسكولينيكوف وهو يدفعه عنه باستثناء :

- ليس الآن... بل وفي وقت آخر...

- لا سبيل إلى التملص يا صاحبي . لا تصرّ في وقت آخر يكون الوقت قد فات . لن أنام الليل إذا لم أجرّيها عليك ، ذلك أنني اشتريتها كيـفـما اتفـقـ ، دون أن أعرف قيـاسـ رأسـكـ .

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المتصر:

- إنها تناسبك... تناسبك كثيراً، لكانها فضلت لك. لباس الرأس يا عزيزي أهم جزء من أجزاء اللباس، فهو الذي يحدد مكانتك في المجتمع. إن تولستياكوف، وهو صديق قديم لي، يضطر إلى خلع قبعته الرديئة كلما ظهر في مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتهم على رؤوسهم، والناس يردون ذلك إلى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعود أنه أحسن بالخجل من قبعته الرديئة التي تشبه أن تكون عشن عصفور. نعم، تلك هي أسباب حياء هذا الرجل! انظري يا ناستاسيا، انظري إلى هاتين القبعتين: انظري إلى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتي من أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدورّة المشوهة، التي لا يدرى أحد لماذا سماها قبعة بالمرستون<sup>(44)</sup>، ثم انظري إلى هذه الآية من آيات فن صنع القبعات، واحذر كم دفعت ثمنها؟ ما رأيك؟ وما رأيك أنت يا ناستاسيا، (لقد التفت رازوميخين إلى الخادمة يسألها، حين رأى راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب).

قالت ناستاسيا تعجب عن سؤاله:

- عشرين كوبيكاً على الأقل!

فهتف يقول مسناة:

- عشرين كوبيكاً يا غبية، يا حمقاء؟ بعشرين كوبيكاً لا يمكن شراءك أنت في هذه الأيام! لقد دفعت ثمانين كوبيكاً، ولم يكن ثمنها قليلاً هذه القلة إلا لأنها مستعملة. ثم إنني اشتريتها على شرط: أن في وسعك أن تذهب إلى البائع في السنة القادمة، متى اهترأت هذه القبعة، فإذا هو يُبدلها لك بقبعة جديدة مجاناً، أحلف لك!.. والآن هلموا إلى الولايات المتحدة الأمريكية<sup>(45)</sup>، كما كنا نسميها في المدرسة. ولكنني أتبهك قبل كل شيء إلى أنني معتز جداً بهذا السروال (قال ذلك وبسط أمام راسكولنيكوف سروالاً رمادياً من نسيج صيفي خفيف): لا ثقب فيه، ولا بقعة، هو إذن، رغم أنه لم يلبس من قبل، سروال جيد، ناهيك

عن الصدرية التي تتناسبه على نحو ما توجب الموضة. أما أنه لبس من قبل، فتلك مزية، فلقد أصبح بذلك أكثر ليونة وأشد مرونة. اسمع يا روديا: لكي ينفع المرء في الحياة، يكفيه في رأيي أن يراعي الفضول: إذا لم تطالب بـمليون في شهر كانون الثاني، فسيبقى لك دائماً بضعة روبلات في حافظة نقودك. ونفس الشيء يمكن القول عن هذا السروال. نحن الآن في منتصف فصل الصيف، لذلك اشتريت سروالاً صيفياً. صحيح أنك ستحتاج في فصل الخريف إلى قماش يضمن لك مزيداً من الدفء، وسيكون عليك أن ترمي هذه الملابس، لا سيما وأنها ستكون قد بليت، بسبب إهمالك طبعاً... ولكن فلنعد إلى سؤالنا: أحرزكم دفعت ثمن هذا السروال! روبلين وخمسة وعشرين كوبيكاماً! لاحظ أنني اشتريته على ذلك الشرط نفسه الذي اشترطته في شراء القبعة: إن من حقك أن تستبدل به سروالاً بالمجان متى اهتماً. فعلى هذا النحو إنما تتم الصفقات في دكان فديايف: يدفع المشتري مرة واحدة إلى الأبد، لأنه لن يضع قدميه مرة أخرى في هذا الدكان قط. ولننتقل الآن إلى الحذاءين. كيف تجدهما؟ واضح أنهما مستعملان، ولكنهما ما يزالان يصلحان خلال شهرين، فهذه بضاعة أجنبية: إن سكرتير سفارة إنجلترا قد باعهما في الأسبوع الماضي. لم يكن قد أتعلمهما إلا ستة أيام، ولكنه كان في حاجة ماسة إلى المال. الثمن: روبل وخمسون كوبيكاماً. صفقة رابحة، أليس كذلك؟

قالت ناستاسيا:

- ولكنهما قد لا يكونان على قياس قدميه!

- قد لا يكونان على قياس قدميه؟ وهذا الذي أخذته معه!

قال رازوميixin ذلك واستل من جيبيه حذاء قديماً مهترئاً مثقباً متسخاً بوحل جاف هو أحد أحذية راسكولنيكوف. ثم أردف:

- لقد اتخذت الاحتياطات الضرورية! ماذا تظندين؟ عرفنا قياس قدميه من قياس هذا الحذاء العجيب! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعنابة

محكمة. أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت. إليك ثلاثة قمصان من نسيج سميك، ولكن صدرها على آخر موضة. لنحسب الآن التكاليف كلها. قبعة: ثمانون كوبيكاً، ملابس أخرى: روبيلان وخمسة وعشرون كوبيكاً، المجموع: ثلاثة روبيلات وخمسة كوبيكاً، الحذاءان: روبل وخمسون كوبيكاً، لأنهما في حالة جيدة جداً. المجموع: أربع روبيلات وخمسة وخمسون كوبيكاً، الملابس الداخلية، جملة واحدة، خمسة روبيلات. المجموع: تسعة روبيلات وخمسة وخمسون كوبيكاً. الباقي: خمسة وأربعين كوبيكاً، نقوداً نحاسية من فئة الخمسة كوبيكاً. إليك هي. خذها. هكذا يا روديا تكون قد «تهنمت» الآن، لأن معطفك برأبي ما يزال قابلاً للاستعمال، حتى إنه لا يخلو من وجاهة. أرأيت قيمة اختيار المرء ملابسه من محلات شارمر! <sup>(46)</sup> أما الجوارب وما إلى ذلك، فإني أترك لك أمر الاهتمام بها. وأما المال فما زلنا نملك منه خمسة وعشرين روبلأ. وليس عليك بعد الآن أن يقللوك أجر المسكن. أن باشنكا ستنهلك أمها لا غير محدود، كما قلت لك. والآن يا عزيزي، اسمح لي أن أبدل لك قميصك لأنني لا أستغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل إليك من هنا... .

قال راسكولنيكوف بعد أن استمع مشمئزاً إلى الكلام المرح الذي تدفق من فم رازوميixin:

- دعني ! لا أريد!

قال رازوميixin مصراً:

- لا مناص يا عزيزي ! لن يقول أحد أنني أبليت حذاءتي في غير طائل !

ثم التفت يقول لناستاسيا :

- هلمي ا ناستاسينكا ! لا تستحي ! ساعديني ! نعم .. هكذا ... .

استطاع رازوميixin وناستاسيا أن يبدلاً قميص راسكولنيكوف، رغم

المقاومة التي أبدأها. وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته، ولزم الصمت خلال دققتين قائلًا لنفسه: «سيلبيان مدة طويلة لا يتركاني وشأنني» ثم سأله وهو ينظر إلى الجدار:

- بأي مال اشتريت هذه الأشياء كلها؟

فأجابه رازوميixin متوجهاً:

- بأي مال؟ عجيب! بمالك أنت. لقد جاء إلى هنا مستخدماً من عند فاخروشين يحمل إليك مالاً أرسلته أمك. إلا تذكرة؟

قال راسكولنيكوف بعد تفكير طويل شاق:

- نعم، الآن تذكرت!

فتأنمه رازوميixin مقطباً فلقاً.

وفتح الباب، ودخل رجل طويل القامة قوي البنية. أحسن راسكولنيكوف أنه سبق أن رأى هذا الرجل.

هتف رازوميixin يقول فرحاً كل الفرح:

- زوسيموف! أخيراً وصل!

## الفصل الرابع

### زوسيموف

رجل طويل القامة، سمين الجسم، ممتلىء الوجه، شاحب اللون، حليق اللحية، يوشك شعره المسبل أن يكون من فروت شقرته أبيض. على عينيه نظارتان، وفي إحدى أصابعه السمينة المنتفخة خاتم كبير من ذهب. أنه في السابعة والعشرين من عمره. يرتدي معطفاً أبيضاً واسعاً مصنوعاً من نسيج صوفي خفيف، وسريراً أصيفياً فاتح اللون، ويوجه عام كان لباسه واسعاً أبيضاً جديداً. أن قميصه الناصع البياض يتالق تالقاً باهراً، وإن ساعته تزدان بسلسلة سميكة. أما حركاته فبطيئة بعض البطء، ثقيلة بعض الثقل، رغم أنها ليست خالية من انطلاق مصطنع. هذا إلى أن الادعاء يظهر فيه واضحاً كل الوضوح، رغم جميع الجهد التي يبذلها لاختفاءه. أن كل الذين عرفوه قد لاحظوا أنه رجل صعب المراس شديد الطبع، ولكنهم يجمعون على أنه يعرف مهنته معرفة طيبة.

هفت رازوميixin يقول له:

- لقد ذهبت إليك مرتين يا صاحبي! ها هو ذا قد أفاق من غيبوبته كما ترى.

قال زوسيموف:

- نعم! نعم!

ثم أردد يسأل وهو يتفرس فيه ويجلس عند قدميه على طرف السرير  
بغير تحرّج :

- هي! كيف حالنا الآن؟

قال رازوميخين :

- ما يزال مكتتب المزاج، ولقد كاد يبكي منذ قليل حين بذلنا له  
قمصه!

- هذا طبيعي!.. كان يمكنكم أن ترجعوا ذلك إلى حين آخر ما دام  
يضايقه... النبض جيد. أما زلت تشعر بشيء من صداع في رأسك؟

قال راسكولنيكوف حانقاً مصراً:

- لا! صحتي حسنة! أنا معافي!

وكان راسكولنيكوف قد نهض على سريره ملتمعاً العينين متقد  
النظرات. ولكنه لم يلبث أن تهاوى على الوسادة والتفت نحو الحائط.  
وكان زوسيموف يراقبه بانتباه فقال بلهجة متألقة:

- كل شيء على ما يرام. هل أكل شيئاً؟  
ذكر له ماذا أكل المريض ثم سُئل عما يمكن أن يأكله.

قال الطبيب :

- يمكن إطعامه كل شيء! حساء، شاي... ولكن لا فطر، ولا قاء  
طبعاً. وقد لا يناسبه لحم البقر أيضاً. ولكن علام هذا الكلام كله؟  
(وتتبادل نظرة مع رازوميخين). ولا حاجة إلى الدواء بعد الآن، لا حاجة  
إلى شيء بعد الآن. غداً أرى... على أننا نستطيع اليوم في الواقع  
أن... ولكن...

قال رازوميخين :

- سأصطحبه مساء غد في نزهة. نذهب أولاً إلى حديقة يوسوبوف،  
ثم نذهب بعد ذلك إلى «قصر الكريستال»<sup>(47)</sup>.

- لو كنت في مكانك لتركته غداً حيث هو. قد أخرج معه مدة قصيرة... على كل حال سوف نرى.

- خسارة... ذلك أنني أحفل اليوم بانتقالي إلى المسكن الجديد الذي يقع على بعد خطوتين من هنا. ليته يستطيع أن يشاركنا، ولو رافقاً على أريكته! أما أنت فسوف تجيء أليس كذلك؟ (قال رازوميفixin هذا متوجهًا بالكلام فجأة إلى زوسيموف). لن تنسى، هه؟ قد وعدتني بهذا.

أجاب زوسيموف:

- قد أجيء، ولكنني إذا جئت فسأجيء متأخرًا. ماذا أعددت للحفلة؟

- لم أهيء أشياء كثيرة! شاي، فودكا، سمك مجفف، فطائر أيضًا. ليس بيننا غرباء.

- من سيحضر؟

- رفاق من شباب هذا الحي، أكثرهم لا أعرفه من قبل. وسيحضر الاحتفال عمْ لي جاء بالأمس إلى بطرسبرج لأعمال، ولا أراه إلا مرة واحدة كل خمس سنين.

- ما هو عملك هذا؟

- سلخ حياته كلها في مقاطعة نائية مديرًا لمركز بريد... وقد أحيل على التقاعد فهو يتتقاضى معاشًا صغيرًا. عمره خمس وستون سنة... لا داعي إلى الكلام عنه... على أنني أحبه في الواقع. سيفجيء بورفيري بتروفتش أيضًا، قاضي التحقيق في الحي. أنه متخصص في القانون. ولكنك تعرفه...

- هل يمت إليك بقرابة أيضًا؟

- قرابة بعيدة جداً! ولكن لماذا أراك معتكر المزاج؟ أمل أن لا تحملك المشاجرة التي وقعت بينك وبينه ذات يوم على أن تظن أنك معفى من حضور الحفلة...

- هوه! أنا لا أكترث به.

- أحسن، أحسن. وهكذا ستضم الحفلة طلاباً، واستاذة، وموظفاً، وموسيقياً، وضابطاً وزاميتوف . . .

- قل لي: ما الذي يمكن أن يجمع بينك أو قل بيته (هنا أو ما زوسيموف باشارة من رأسه إلى راسكونيكتوف) وبين رجل مثل زاميتوف؟

- يا لهؤلاء المتعبيين! المبادئ طبعاً! يميناً أنك جالس على المبادئ كجلوسك على خازوق فلست تجرو أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء لك هوak. أما أنا ففي رأيي أن الإنسان الطيب الخير هو في ذاته مبدأ من المبادئ. ولا يهمني أي شيء آخر. وزاميتوف رجل رائع في نظري .

- هو على كل حال رجل يعرف معرفة رائعة كيف يلعب على حبلين وكيف يجني ربحاً من طرفين.

صاحب رازوميختين وقد ازداد استياؤه ازدياداً شديداً:

- ما شأني أنا وهذا؟ ولا أكترث بأنه يلعب على حبلين ويجني الربح من طرفين. إن كل ما قلته لك هو أنه في نوعه إنسان جيد. ولو نظرنا إلى جميع أنواع البشر وقدرناهم من جميع الجوانب لوجدنا أن الطيبين والأخيار ليسوا بكثيرين. أنتي لعلى يقين من أنني أنا نفسي لا أستحق أن أشتري بصلة، ولو أضفت أنت الي.

- أنت تبالغ! أنا مستعد لأن أشتريك بوصلتين اثنتين!

- أما أنا فلا أشتريك إلا بصلة واحدة. ها . . . يا لك من فكاهي! ثم إن زاميتوف ما يزال صبياً صغيراً. ولسوف تأتي مناسبات أشدّ فيها ذئبه، ولكن يجب علي بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أصدّه. لا سبيل إلى إصلاح إنسان بسوء المعاملة، ولا سيما إذا كان صبياً، فإنما يجب على المرء أن يذكر مزيداً من المكر حين يُعامل صبياً صغيراً. ولكنكم،

معشر التقدميين المتصلبين، لا تفهمون من هذا الأمر شيئاً، ولا تحترمون الطبيعة الإنسانية. وانتم حين لا تحترمون الطبيعة الإنسانية إنما تسيئون إلى أنفسكم. وإذا كنت تحرص على أن تعرف كل شيء، فاعلم أن لنا، أنا وهو، قضية مشتركة.

- هل يمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة، ما هي؟

- قضية ذلك الدهان. نعم، سوف ننقذه من تلك الورطة! على أنه أصبح غير معزز لأي خطر. لقد أصبحت القضية واضحة، واضحة جداً. وكل ما علينا هو أن ندفعها إلى نهايتها بسرعة.

- من ذلك الدهان؟

- كيف؟ لم أقصص عليك القصة. ها... فعلًا... أنا لم أقصص عليك إلا البداية... إن جريمة قتل العجوز المرا比ة، أرملة الموظف... أقصد... أن الدهان أصبح الآن مقحماً في هذه القضية.

- سمعت عن جريمة القتل هذه من قبل... حتى لقد اهتممت بها بعض الاهتمام... لي سبب... نعم، وقرأت أيضاً ما تقوله عنها الصحف... .

- وقد قُتلت اليزافيتا أيضًا!

بذلك نطقت ناستاسيا على حين فجأة، متوجهة بالكلام إلى راسكولنيكوف. كانت قد بقىت في الغرفة طوال ذلك الوقت، مستندة إلى الباب، تتابع الحديث.

تمت راسكولنيكوف يقول بصوت لا يكاد يسمع:

- اليزافيتا؟

قالت ناستاسيا:

- نعم اليزافيتا، السمسارة. ألا تعرفها؟ كانت تجيء إلى هنا، تحت، حتى لقد رقعت لك قميصاً.

التفت راسكولنيكوف نحو الحائط، حيث تتناثر على الورق الأصفر الوسخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء، فاختار من هذه الأزهار زهرة مخططة بلونبني ومرسومة رسمًا دينامياً، فأخذ يتأملها محاولاً أن يحصي عدد توبيجاتها وعدد الأسنان في حافات أوراقها. وشعر بأعضائه تتقدّر، حتى بدا له أنها ليست أعضاء، ولكنه لم يحاول أن يتحرك، وظل ينظر إلى الزهرة مصراً معانداً.

قال زوسيموف يسأل رازوميخين مقاطعاً ثرثرة ناستاسيا باستحياء واضح:

- طيب، فماذا وقع لذلك الدهان؟

وابع رازوميخين حديثه قائلاً بحرارة:

- لقد أقحم هو أيضاً في جريمة القتل.

- هل هناك قرائن؟ وما هي تلك القرائن؟

- قرائن؟ ليست هناك أية قرائن! غير أن القرينة التي يستشهدون بها ليست قرينة، وذلك ما يجب البرهان عليه!.. المسألة بسيطة: لقد أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التي ارتكبواها حين اشتبهوا في الرجلين الآخرين فاعتقلوهما... أقصد: كوخ وبسترياكوف! نعم لقد كرروا تلك الحماقات نفسها نقطة نقطة. ما أغربى تصرفهم يا رب! إن المرء ليشعر بالخزي والعار من هذا التصرف، ولو لم يكن له به شأن! قد يجيء إليّ بسترياكوف اليوم!.. بالمناسبة يا روديا: عليك أن تعرف هذه القصة لأنها وقعت قبيل مرضك، تماماً عشيّة اليوم الذي أغمي عليك فيه بقسم الشرطة... بينما كانوا يتحدثون في هذا الأمر هناك... .

نظر زوسيموف إلى راسكولنيكوف مستطلعاً، فلم يحرك راسكولنيكوف ساكناً.

قال زوسيموف:

- تريد أن تعرف رأيي يا رازوميخين؟ إنك تسرف في الحركة حول هذه القضية حقاً!

فأجاب رازوميخين صارخاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده:

- لا ضير! ستنقذه من تلك الورطة على أية حال! إن الأمر الذي يغطيوني في هذا كله أكثر مما يغطيوني أي شيء آخر ليس وقوعهم في الخطأ، فالوقوع في الخطأ يمكن التسامح فيه دائماً، حتى إن الخطأ شيء رائع فعلاً لأنه يؤدي إلى الحقيقة. ليس الخطأ إذن هو الذي يغطيوني منهم، وإنما يغطيوني إصرارهم على إنكار الأخطاء التي يقعون فيها. أنتي أعتبر بورفيري، ولكن... اسمع، هل تعرف مثلاً ما هو الذي حيرهم وأضلّهم في أول الأمر؟ أن الباب كان مغلقاً، فلما عاد الرجال مع الباب كان الباب مفتوحاً، فاستنتجوا من ذلك أن كوخ ويسترياكوف هما القاتلان! أرأيت إلى هذا المنطق ما أujeبه!

- لا تتحمس لهذا التحمس كله: لقد أوقفوهما فحسب... لم يكن في وسعهم على كل حال أن... بالمناسبة... لقد أتيح لي أن أقابل كوخ. يظهر أنه كان يشتري من العجوز الأشياء المرهونة التي تخلف أصحابها عن تجديد رهنها في الموعد المحدد. أليس هذا صحيحاً؟

- بلـى، بلـى، إنه وجد حقيـر! وهو يشتري سندات أـيضاً. هو وجد حـقـير! هو مـحتـال خـطـير... شـيـطـان يـأخذـه! ولـكن لـيس هـذـا مـا يـشـير غـضـبـي وـحـنـقـي، وإنـما يـشـير حـنـقـي وـغـضـبـي أـنـهـم يـتـبعـون روـتـيـناً عـتـيقـاً بـالـيـاـ تـراـكـم الغـبـار عـلـيـهـ. إنـهـا روـتـيـنـ هوـ الـذـي يـشـير سـخـطـي! وـمـا أـسـهـلـ أنـ يـكـشـفـ المـرـءـ، فـيـ معـالـجـةـ هـذـهـ القـضـيـةـ، طـرـقـاً جـدـيـدـةـ كـلـ الجـدـةـ! إنـ فـيـ وـسـعـنـاـ، إـذـاـ نـحـنـ اـعـتـمـدـنـاـ عـلـىـ عـلـمـ النـفـسـ وـحـدـهـ، أـنـ نـجـدـ السـبـيلـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ الـحـقـيـقـةـ. هـمـ يـقـولـونـ: «ـلـدـيـنـاـ وـقـائـعـ». ولـكنـ الـوـقـائـعـ لـيـسـ كـلـ شـيـءـ، وـنـصـفـ الـقـضـيـةـ أـنـماـ يـكـمـنـ فـيـ طـرـيـقـةـ تـأـوـيلـ هـذـهـ الـوـقـائـعـ...ـ

- وهـلـ تـسـتـطـعـ تـأـوـيلـهـاـ، أـنـتـ؟ـ

- عجيب أمرك! أن المرء لا يمكنه أن يسكت حين يحس، حين يحس بغرائزه أن في وسعه تقديم خدمة إذا هو... آه! هل تعرف القضية تفصيلاً؟

- ما زلت أنتظر أن تقصّ على حكاية الدهان.

- سأقص عليك حكايته. اسمع: في اليوم الثالث بعد وقوع الجريمة، في الصباح، حين كانوا يدقون في استجواب كوخ ويسترياوكوف مع أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما وسكناتها، ورغم أن كل شيء قد اتضاع اتضاحاً صارخاً حدث على حين فجأة حادث لم يكن متوقعاً على الأطلاق: أن فلاحاً اسمه دوشكين، وهو صاحب خمارة تقع أمام العمارة التي وقعت فيها الجريمة، جاء إلى قسم الشرطة حاملاً علبة مجوهرات فيها قرطان من ذهب، وأخذ يروي قصة عجيبة، قال: « أمس الأول، في المساء، بعد الساعة الثامنة بقليل، (لاحظ الوقت: اليوم والساعة) رأيت الدهان نيكولي يهرع إلى خمارتي، وكان قد ارتادها مراراً قبل ذلك، حاملاً إلى علبة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجار صغيرة، راجياً أن أرهنهما لدى لقاء قرض قيمته روبلان. فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بالقرطين، قال إنه عشر عليهما على رصيف، فلم أسأله غير ذلك (إن دوشكين هو الذي يتكلم)، ونقدته ورقة صغيرة أي روبلان واحداً، لأنني قلت لنفسي: إذا لم يرهن هذين القرطين عندي فسيرهنهم عند غيري ليشرب بالقرض خمرة، فالأولى أن يبقيا بين يدي أنا: بذلك أضمن على الأقل أن لا يطوفوا العالم كله، فإذا راحت إشاعة تقول إنهما مسروقان، مضيت إلى قسم الشرطة لأبلغ عنهما». واضح أن هذه القصة التي رواها دوشكين سخيفة. وأنا أعرف دوشكين هذا: إنه كذاب كبير. إنه، هو نفسه، يقرضن برهن ويختفي الأشياء المسروقة. فلشن أخذ من نيكولي شيئاً تساوي قيمته ثلاثة روبلان فإنه لم يفعل ذلك من أجل أن «يبلغ عنه». كل ما هنالك أنه خاف. ودعنا من دوشكين هذا على كل



الخمارة طبعاً. سألت نيكولاي:

- هل رأيت ميتكا؟

فأجابني:

- لا، لم أره.

- وهل كنت هنا؟

- لم أكن هنا منذ امس الاول.

- وأين نمت في هذه الليلة؟

- في حي «الرمال»، عند أهل كولومنا<sup>(48)</sup>.

- ومن أين جئت بالقرطين في ذلك اليوم؟

- عثرت عليهمما على الرصيف.

وكان يقول ذلك كله مشيحاً بوجهه عندي. سأله:

- هل سمعت عن حدوث كذا وكذا، في ذلك المساء نفسه، في تلك الساعة نفسها وعلى نفس السلم؟

فأجابني:

- لا، لم أسمع عن شيء من هذا!

سمع ما أقوله ولكن حملق، وابيض لونه حتى صار كالطباسير. وفيما أنا أروي له ما حدث، رأيته يتناول طاقته فجأة، وينهض. حاولت أن أحبسه عن الخروج، فقلت له:

- انتظر يا نيكولاي! ألا تريد أن تشرب كأساً؟

وأومأت إلى أحد الصبيين أن يسد عليه الطريق، وتركت البسطة. لكن صاحبنا نيكولاي ولئن هارباً، فهو ينطعف عند ناصية الشارع، حتى إنني لم أره بعد. لم يبق إذن شك: أنه هو الذي ارتكب تلك الجريمة!

قال زوسيموف:

- واضح!

قال رازوميخين :

- انتظر! اسمع التسعة! مضت الشرطة كلها تبحث عن نيكولاي طبعاً، فتشوا خمارة دوشكين، ثم أوقفوا دوشكين، وأوقفوا دمترى أيضاً، وقلبوا كل شيء عاليه سافله عند أهل كولومنا، ثم لم يستطعوا أن يضعوا أيديهم على نيكولاي إلا بعد ثلاثة أيام، أي أمس الأول. قبضوا عليه في خان قرب حاجز «س...». يظهر أنه حين وصل إلى هناك استل صليب الفضي، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة، فأجيب طلبه. وبعد بعض دقائق دخلت امرأة إلى الاسطبل، فإليك ما رأته من شق الباب: رأت نيكولاي في الزريبة المجاورة، قد ربط حزامه بوتد وجعل فيه عقدة منزلقة، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن ينتحر شنقاً. خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفقة، وهي أن تصرخ، فصرخت، فهرع الناس إلى المكان، وقالوا له:

- آ... أهكذا أنت إذن؟

فقال لهم :

- نعم... خذوني إلى قسم الشرطة في حي كذا، وسأعترف هنا لك بكل شيء!

فاقتادوه إلى قسم الشرطة الذي حذده، أي إلى قسم الشرطة في حيننا، فسرعان ما بدأت الأسئلة تنهمر عليه انهمار المطر: كيف، وماذا، ولماذا، وأين، ومن أنت، وما سنتك - «عمرى اثنان وعشرون سنة» - وهلم جرا!! ..

سؤال :

- بينما كنت تعمل مع دمترى، ألم ترأ أحداً على السلم في ساعة كذا؟

- مَرْأَةً كَثِيرُونَ طَبِيعًا، وَلَكِنْ لَيْسَ مَهْمَتِي أَنْ أَرَاقِبُهُمْ . . .
- أَفْلَمْ تَسْمَعُ شَيْئًا مَا، أَفْلَمْ تَسْمَعُ ضَجَّةً مَا؟
- لَا، لَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا يَلْفَتُ الانتِبَاهَ<sup>١</sup>
- وَأَنْتَ يَا نِيكُولَاهُ، هَلْ كُنْتَ تَعْلَمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ الْأَرْمَلَةَ قَدْ قُتِلَتْ وَسُرْقَتْ هِيَ وَأَخْتَهَا، يَوْمَ كَذَا، سَاعَةً كَذَا؟
- مَا عَلِمْتُ شَيْئًا، وَلَا رَأَيْتُ شَيْئًا. عَلِمْتُ بِالْأَمْرِ أَوْلَى مَرَةً مِنْ أَنَّانَاسِي بِالْفَلَوْفَشِ مِنْذِ يَوْمَيْنِ، فِي الْخَمَارَةِ.
- وَمَنْ أَينْ جَئْتَ بِالْقَرْطَيْنِ؟
- عَثَرْتُ عَلَيْهِمَا عَلَى الرَّصِيفِ.
- لِمَاذَا لَمْ تَأْتِ إِلَى الْعَمَلِ مَعَ دَمْتَرِي غَدَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمِ؟
- لِأَنِّي قَصَّفْتُ وَلَهُوتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.
- أَينْ قَصَّفْتُ وَلَهُوتَ؟
- فِي مَكَانٍ كَذَا.
- لِمَاذَا هَرَبْتَ مِنْ عَنْدِ دُوشِكِينِ؟
- لِأَنِّي خَفَتْ خَوْفًا شَدِيدًا.
- مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَفَتْ؟
- خَفَتْ أَنْ أَحَالَ إِلَى الْمَحاكِمَةِ.
- وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَخَافَ مِنْ أَمْرٍ كَهُذَا، مَا دَمْتُ تَعْرِفُ أَنَّكَ لَمْ تَقْتَرِفْ جَرْمًا؟

وَعَقْبَ رَازُومِيَخِينَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

- نَعَمْ يَا زُوْسِيمُوفْ، بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ إِنَّمَا أَلْقَى عَلَيْهِ هَذَا السُّؤَالُ، بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ نَفْسَهَا، صَدَقَتْ أَمْ لَمْ تَصَدَّقْ! نَعَمْ، بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ

نفسها... أنا أعلم ذلك علم اليقين، لقد نقل إلى السؤال بنصه، كلمة  
كلمة. ما رأيك؟ ما رأيك؟

- نعم، نعم، ولكن هناك قرائن على كل حال... السؤال الذي  
ألقوه عليه، أتكلم عن طريقة هؤلاء الناس في فهم مهنتهم. ولكن دعنا  
من هذا الآن، ولنكمel وصف ما جرى بينهم وبين نيكولاي. ضيقوا عليه  
الخناق، ثم ضيقوا عليه الخناق مزيداً من التضييق، فاعترف. قال:

- لم أغذر بالقرطرين على الرصيف، وإنما عثرت عليهمَا في الشقة  
التي كنا نذهبنا أنا ودمتري.

- كيف عثرت عليهمَا؟

- كيف؟ هكذا: كنا قد عملنا أنا ودمتري طول النهار حتى الساعة  
الثامنة، وكنا نستعد للانصراف، ولكنها هو ذا دمتري يتناول فرشاة  
ويأخذ يلطم لي وجهي. فلما لطخ لي وجهي، ولّى هارباً، فركضت  
وراءه أطارده. كنت أركض وأطلق صرخات وحشية ولكن حين خرجت  
من السلالم ووصلت إلى فناء المنزل، رأيتني أسقط على الباب الذي كان  
معه عندئذ بعض السادة. أما عدد أولئك السادة فإنني لا أذكره الآن.  
أخذ الباب يشتمني، ثم جاء الباب الثاني فأخذ يشتمني أيضاً،  
وخرجت امرأة الباب الأول من مسكنها فأخذت تشتمنا كلينا، وفي  
تلك اللحظة كان يمر تحت باب الدخول سيد تصبحه سيدة، فأخذ  
يشتمنا هو أيضاً، لأننا كنا، أنا ودمتري، قد انبطحنا فسددنا عليه  
الطريق. كنت قد أمسكت دمتري من شعره، ورميته على الأرض  
ورحت أهوى عليه بوابل من اللكمات، وكان دمتري تحتي، قد أمسك  
بشعري وأخذت لكماته تنهر على أيضاً - ولكن ذلك كله لم يكن دافعه  
الخبث والشر، وإنما كان دافعه المودة والمحبة، فهو نوع من التسلية.  
ثم تخلص دمتري، وولّى هارباً إلى الشارع، فركضت وراءه ولكنني لم  
أستطع أن أدركه. عندئذ عدت إلى الشقة وحدني لأرتّب أشيائي. وفيما

أنا أرتبها، منتظرًا دمترى، إذا بي أدوس على علبة صغيرة، قرب الباب، في ركن الدهلiz، فنظرت، فرأيتها ملفوفة بورق، فنزعت الورق فرأيت كلابتين، كلابتين صغيرتين، صغيرتين جداً، فشدّدتهما فخرج القرطان...»

- وراء الباب؟ كانت العلة وراء الباب؟

- نعم، ولكن ماذا بك؟ ماذا دهاك؟

وكان رازوميixin قد نهض هو أيضاً عن مقعده.

أجاب راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يُسمع، وهو يتهالك على  
مسادته من جديد، وبعد بلتفت نحه الحائط :

- ۲ -

وليث الجميع صامتين يرهة وجيزة.

- بعد ذلك، بعد ذلك! نعم... ما إن رأى القرطرين، حتى نسى

- ما علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً.

- فلماذا اختفيت إذاً حتى الآن؟

- خفت.

- ولماذا أردت أن تتصرّف شنقاً؟

- لأنني قدرت أن أمراً سيحدث لي.

- ما هو الأمر الذي قدرت أنه سيحدث لك؟

- قدرت أنني سأحال إلى المحاكمة.

وعقب رازوميخين على ذلك سائلاً زوسيموف:

- هذه هي القصة كاملة. فما الذي تظن أنهم استنتاجوه من ذلك كله؟

- ما عسى أظن؟ هناك قرائن. ومهما تكن هذه القرائن، فإنها تبقى قرائن. الواقعه قائمه. ليس في وسعهم أن يخلوا سبيل صاحبك الدهان، رغم كل شيء.

- ولكنهم حشروا مع القتلة وانتهى الأمر. لم يبق عندهم ظل من شك . . .

- أنت تخطئ . . . أنت تحمس وتندفع . . . يجب أن تنظر في واقعه وجود القرطين مع نيكولاي. لا بد لك من التسليم بأن هذين القرطين إذا كانا انتقلا رأساً في ذلك اليوم نفسه، في تلك الساعة نفسها، من صندوق المرأة العجوز إلى يدي نيكولاي، فقد انتقلا بطريقة من الطرق. هذا أمر له خطورته في التحقيق . . .

هتف رازوميخين:

- أقصد طريقة انتقالهما إلى يدي نيكولاي؟ ألا إن أمرك لعجب! هل يمكنك حقاً، وأنت طبيب يُفرض فيه أن يعرف الإنسان، وأتيح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة الإنسانية، هل يمكنك أن لا ترى من خلال جميع هذه المعلومات، طبيعة نيكولاي هذا؟ هل يمكن أن لا ترى منذ البداية أن كل ما صرحت به نيكولاي أثناء تلك الاستجوابات جميعاً إنما كان الحقيقة خالصة صافية؟ لقد وصل القرطان إلى يديه على النحو

الذي ذكره تماماً. داس على العلبة فتناولها.

- الحقيقة خالصة!!.. ولكن اعترف هو نفسه بأنه كذب في المرة الأولى. أليس كذلك؟

- اصح إلي بانتباه! إن البواب، وكوخ، وبسترياكوف، والبواب الثاني، وامرأة البواب الأول، والبائعة التي كانت في مسكنها حينذاك، والمستشار القضائي كريوكوف الذي نزل من مرکبة في تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة، إن هؤلاء جميعاً، أي ثمانية شهود أو عشرة، قد أجمعوا في أقوالهم على أن نيكولاي كان قد بطح دمتي أرضاً، وجثم عليه، وراح يمطره بوابل من اللكمات، وأن دمتي كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً، وأنهما تدحرجاً كليهما بالعرض فسداً الطريق، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب، وإنما كانا «أشبه بالصبية الصغار»، على حد تعبير الشهود نصاً، يولolan ويتصاربان وينفجران ضاحكين ويتساقان في الفهمة ويطارد كل منهما الآخر في الشارع كالصبيان وقد ظهر في وجهيهما هزل الأطفال! هل سمعت هذا كله؟ فاسمع الآن البقية: كانت الجثتان، فوق، في ذلك الوقت نفسه، ما تزالان ساخنتين... ساخنتين... نعم، نعم، لقد كانتا ساخنتين حين اكتشفتا. فلو كان نيكولاي ودمتي هما القاتلين، أو كان نيكولاي وحده القاتل، وكانا في الوقت نفسه قد سرقا العجوز أو لم يزدوا على أن شاركا في السرقة مشاركة فحسب، لكان من حقي أن ألقى عليك هذا السؤال: هل تلك الحالة النفسية (أعني الولولة، والضحك، والتراجير الصبياني تحت باب الدخول) تتفق والفالس، والدم والمكر الوحشي والحدن والسلب والنهب؟ أيكونان قد قتلا منذ برهة قصيرة، منذ خمس دقائق أو عشر في أكثر تقدير وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجثتين - ثم هما يمضيان فجأة، تاركين الجثتين والباب مفتوح، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة إلى أخرى. أيقتلان منذ برهة وجيزة، ثم يتركان غنيمتهمما،

ويمضيان يتدرجان في الشارع «كالصبية الصغار»، ويضحكان ضحكةً صاحباً، ويلفثان إليهما انتبه الناس جميعاً، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد؟

- هذا غريب فعلاً. ذلك مستحيل طبعاً، ولكن . . .

- يا أخي، إذا كان وجود القرطين بين يدي نيكولي، في ذلك اليوم نفسه، في تلك الساعة نفسها، واقعةً مادية هامة تشهد عليه - وهي مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً تاماً، فيمكن إذاً دحضها - أقول إذا كان الأمر كذلك فيجب أن ندخل في الحساب وقائع أخرى تشهد للمتهم لا عليه، وتؤكده براءته، لا سيما وأنها وقائع ثابتة لا سبيل إلى دحضها. ولكن ماذا تظن؟ هل تعتقد أن قضايانا، وهو على ما هو عليه، يمكن أن يسلم بأن واقعة قائمة على الاستحالات السنيكولوجية وحدها، واقعة مبنية على الحالة النفسية فحسب، يمكن أن تُعدّ واقعة ثابتة لا سبيل إلى دحضها، واقعة قادرة بمفردها على أن تهدم جميع وقائع الاتهام المادية أيًّا كانت؟ لا، إن قضايانا لن يسلم بهذا، لن يسلم به في حال من الأحوال، وذلك بحججة أن العلبة قد وُجدت، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه، وأنه «ما كان ليفعل ذلك لو لا شعوره بجرمه!» تلك هي المسألة الرئيسية، ذلك هو السبب الذي يحضرني على الاندفاع والحماسة، هل فهمت؟

- أرى أنك تندفع وتتحمس فعلاً. انتظر! نسيت أن ألقى عليك سؤالاً: ما هو الدليل الذي نملكه على أن العلبة التي تحوي القرطين مصدرها صندوق العجوز حقاً؟

أجاب رازوميخين على مضض، وقد عبس وجهه:

- ذلك ثابت. لقد عرف كوخ العلبة، وحدد الشخص الذي رهنها عند العجوز، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً على أنها علبة.

- هذا مؤسف. والآن ألقى عليك سؤالاً آخر: ألم يلمح أحد

نيقولاي لحظة كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السلم؟ أفلأ يمكن اثبات ذلك بطريقة من الطرق؟

أجاب رازوميخين متحسراً:

- لا، لم يلمحه أحد، وذلك هو الأمر المحزن. أن كوخ وبسترياكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال أثناء صعودهما. صحيح أن شهادتهما الآن لا تتنسم بأهمية كبيرة... . هما يقولان: «رأينا باب الشقة مفتوحاً، وقدرنا أنه ربما كانت تجري فيها إصلاحات، ولكننا لم نتبه أثناء مرورنا، ولا نتذكر أكان فيها عمال أم لا».

- فالتفسير الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه إذن، للتدليل على براءتهما، هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان مقهقحين. طيب! هذا دليل قوي ولكن... . اسمح لي: كيف تفسر أنت الواقع؟ كيف تفسر العثور على القرطين إذا كان قد وجدهما على نحو ما صرّح؟

- كيف أفسرها؟ ليس هناك شيء يحتاج إلى تفسير: الأمر واضح وضوح النهار، أو قل في أقل تقدير إن الطريق الذي يجب أن يسير فيه التحقيق واضح مرسوم. والعلبة هي التي ترسم هذا الطريق. إن القرطين قد سقطا من القاتل الحقيقي. كان هو في أعلى، موصداً عليه الباب بالمزلاج، حين رابط كوخ وبسترياكوف على الباب. وقد ارتكب كوخ حماقة كبيرة، حين نزل في أثر صاحبه، فانتهز القاتل الفرصة، فهرب من الشقة، ونزل هو أيضاً، إذ لم يكن له مخرج آخر. وفيما كان على السلم، اختباً عن أعين كوخ وبسترياكوف والباب بدخوله إلى المسكن الخالي الذي تركه دمترى ونيقولاي منذ لحظة قصيرة، فظل مختبئاً وراء الباب بينما كان الباب والرجلان الآخران يصعدون. حتى إذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهدوء، وذلك في اللحظة التي كان فيها دمترى ونيقولاي يطارد كل منهما صاحبه في الشارع أي في اللحظة التي كان قد تفرق فيها الجميع فلم يبق أحد في مدخل العمارة. بل إن من الجائز أن

يكون أحدهم قد رأه، لكنه لم يلاحظه: إن ناساً كثيرين يمرّون. أما العلبة فلا بد أنها قد سقطت من جيبي لحظة كان واقفاً وراء الباب، فلم يتتبّع إلى ذلك. لأن ذهنه كان مشغولاًً عنئذ بهموم أخرى كثيرة. نعم، إن العلبة تبرهن برهاناً قاطعاً على أن القاتل قد رابط هناك. تلك هي القصة كلها.

قال زوسيموف:

- هذا تفسير بارع! نعم... حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبي...  
بارع جداً جداً...  
- ولكن لماذا؟ لماذا تقول؟...  
- لأن كل شيء فيه مرتب بحذق ومركب بإحكام.. لكاننا في  
مسرح!...

هم رازوميخين أن يتكلم فقال:

- هيء...  
ولكن الباب فتح في تلك اللحظة نفسها، فانفرج عن قادم جديد لم يكن يعرفه أحد من الحضور.

## الفصل الخامس

سيد ليس الآن في ريعان الشباب، سيد متكلف متصنع، ذو أبهة وجلال، تعبّر هيئته عن التحفظ والتعالي، وقف على العتبة يلقي على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة لا تخفي وكان عينيه تلقيان هذا السؤال: «أتراني ضللت الطريق؟» أنه يتفحص «حجرة» راسكولنيكوف الواطئة الضيقة وهو يشعر بشيء من الشك ويبدي نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من الأسف والمضمض. وبمثل هذه الدهشة نفسها وجهه بصره إلى راسكولنيكوف، ثم ثبته عليه، فرأى راسكولنيكوف الذي لم يكن مرتدياً ثيابه ولا حلق ذقنه، والذي كان مشعر الشعر راقداً على أريكته الوسخة الحقيرة، رآه يتفحصه من جهة دون أن يتحرك. وبهذا البطء نفسه أخذ يلاحظ رازوميixin الذي لم يكن ممشط الشعر ولا محلوق الذقن وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقع دون أن يتحرك. ختيم صمت متواتر خلال ما يقرب من دقيقة ثم لم يلبث المشهد أن تغير تغيراً طفيفاً كما ينبغي أن تتوقع. ذلك أن القادم الجديد قد أدرك من بعض العلامات، وهي علامات واضحة جداً على كل حال، أن هيئته المسرفة في الصرامة لن تنفعه كثيراً في هذه الحجرة، فلطف هيئته بعض التلطيف، واتجه إلى زوسيموف يسأله بأدب وكيسة، مع احتفاظه بشيء من الجمود والصلابة، قائلاً بلهجة تبرز مقاطع الكلام ابرازاً واضحاً:

- روبيون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب أو طالب سابق؟

تحرك زوسيموف ببطء ، ولعله كان سيجيب لو لا أن رازوميخين الذي لم يسأل أحد شيئاً أسرع يسبقه إلى الجواب فقال :

- هو ذا... راقد على السرير... ماذا تريد أنت؟

إن هذا السؤال الذي ليس فيه شيء من تحرج :

«ماذا تريد أنت؟» قد بلبل السيد المتصنّع فأوشك أن يلتفت نحو رازوميخين ، ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه ، فاتجه مرة أخرى بسرعة شديدة إلى زوسيموف .

- نعم ، هذا راسكولنيكوف !

كذلك قال زوسيموف بإهمال وتناقل ، وهو يشير إلى المريض بإيماءه من رأسه ، ثم ثناء بفتح فما واسعاً سعة غير مألوفة أيضاً . ثم أغطس يده في جيب صديرته ببطء فاستل منه ساعة ذهبية كبيرة محدبة الشكل ، ففتحها ونظر فيها ، ثم أعادها إلى جيبيه بذلك البطل وبذلك التوانى نفسه .

وفي أثناء هذا الوقت ، ظل راسكولنيكوف راقداً على ظهره ، وظل صامتاً لا يقول كلمة ، وكان يلقي على الزائر نظرة ثابتة عنيدة ، وان تكون هذه النظرة لا تعبر عن أي فكرة . إنه وقد تحول وجهه عن تلك الزهرة الصغيرة العجيبة المرسومة على ورق الجدار ، يبدو الآن شاحباً شحوباً شديداً ، وتدل ملامحه على أنه يعاني ألماً هائلاً ، حتى لكانه خارج من عملية موجعة أو كأنه أطلق سراحه بعد التعذيب . ولكن القادم الجديد أخذ يشير فيه بعض الانتباه شيئاً بعد شيء ثم أخذ يشير فيه شكاً وارتياحاً ، حتى لقد أثار فيه آخر الأمر نوعاً من خوف وخشية . فلما قال زوسيموف وهو يومئ إليه : «نعم هذا راسكولنيكوف» انتفض فجأة كأنما وخرzte إبرة ، وجلس على السرير ، وقال بلهجته تقاد تكون تحدياً وان يكن صوته واهناً ضعيفاً متقطعاً :

- نعم، أنا راسكولنيكوف! ماذا تريده؟

نظر إليه الزائر وقال يعرف بنفسه بلهجة رصينة وقور:

- بيوتر بتروفتش لوجين. أحب أن أظن أن اسمي ليس مجهولاً عندك تماماً.

ولكن راسكولنيكوف الذي توقع شيئاً غير هذا، نظر إليه دون أن يجيب، وكان زائف البصر شارد الفكر كأنه يسمع اسم بيوتر بتروفتش أول مرة حقاً.

سؤاله بيوتر بتروفتش مرتبكاً بعض الارتباك:

- كيف؟ هل يمكن أن لا تكون قد تلقيت أي نبأ حتى الآن؟

فلم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على الوسادة بيطر، ثم صالب يديه وراء رأسه، وأخذ ينظر إلى السقف. طاف بوجه لوجين تعبير عن حزن، وأخذ زوسيموف ورازوميixin ينظران إليه بمزيد من الاستطلاع والفضول، حتى بدا عليه الاضطراب في آخر الأمر. ودمدم بقول:

- كنت أفترض وأقدر أن الرسالة، وقد أودعت في البريد منذ أكثر من عشرة أيام إن لم يكن منذ خمسة عشر يوماً، لا بد أن . . .

فقطاعه رازوميixin فجأة بقوله:

- اسمع! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة على الباب؟ هلم فاجلس إذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه . . . إن العتبة لا تتسمع لكما كليكما أنت وناستاسيا! يا ناستاسيوشكا، تتحي قليلاً، ودعيه يمز! تقدم! هذا كرسى! ادخل!

قال رازوميixin ذلك، وأبعد كرسيه عن المائدة، جاعلاً بينها وبين ركبتيه فراغاً صغيراً، ولبث على هذا الوضع، المزعج بعض الازعاج، برهة من الوقت، ينتظر أن «يتسلل» الزائر من هذه الفرجة. لقد اختار

رازوميخين اللحظة المناسبة اختياراً لا يدع للزائر سبيلاً إلى الرفض، لذلك أسرع الزائر ينسن في الفراغ الضيق متعرضاً، حتى إذا وصل إلى الكرسي جلس وألقى على رازوميخين نظرة ريبة وشك.

قال رازوميخين بغير اكتراث:

- لا تتحرج! لا تتحرج! إن روديا مريض منذ خمسة أيام، وقد ظل يهذي ثلاثة أيام، لكنه ثاب الآن إلى رشده تماماً، حتى إنه أصبح يُقبل على الطعام نهماً. والجالس هناك هو طببه. وقد فحصه منذ برهة قصيرة. أما أنا فإني أحد رفاق روديا، كنت طالباً مثله وأصبحت الآن ممراضًا له. فلا تنتبهلينا، ولا تحفل بنا، ولا تتحرج منا. أكمل كلامك وقل ما تريد أن تقوله!

قال بيوتر بتروفتش:

- شكرًا.

ثم التفت يسأل زوسيموف:

- ولكن إلا يزعج المريض حضوري وحدشي؟

فأجابه زوسيموف مجتمماً:

- ل... لا! حتى لقد يسليه هذا قليلاً!

قال ذلك وتناءب من جديد.

قال رازوميخين:

- نعم، نعم! لقد أفاق من غيبوته منذ مدة طويلة، منذ هذا الصباح!

قال رازوميخين ذلك بلهجة فيها من الألفة ورفع الكلفة ما جعل بيوتر بتروفتش يغير موقفه فأخذ يشعر بشيء من الارتياح والانطلاق، ولعل ذلك يرجع بعض الرجوع أيضاً إلى هذا الفقير الواقع رغم كل شيء في أن يعرف بنفسه على أنه طالب.

بدأ لوجين يتكلم فقال:

- إن والدتك ...

فإذا برازوميixin يهتف بصوت عال:

- هم!

فرشقه لوجين بنظرة مستوضحة مستفهمة. فقال له رازوميixin:

- ليس هذا شيئاً! لا تلق إلى هذا بالأ. هلْ أَكْمَلَ كلامك.

رفع لوجين كتفيه متعجباً، وواصل حديثه فقال:

- إن والدتك قد شرعت في كتابة رسالة إليك حين كنت عندها. فلما وصلت إلى هنا تعمدت أن لا أجيء لزيارتكم قبل انقضاء بضعة أيام وذلك بغية أن أكون على يقين كامل من أنك أطلعت على كل شيء. ولكتني أراك، مدھوشًا كل الدهشة ..

فقطاعه راسكولنيكوف فجأة، وظهرت في هيئته علامات نفاد الصبر والزععل، قاطعه قائلاً:

- أعرف! أعرف! أنت الخطيب، أليس كذلك؟ أعرف أعرف.  
ويكفيوني هذا.

أحسن بيوتر بتروفتـش بأنه أهين فعلاً، ولكنه صمت. كان يحاول جاهداً أن يفهم ما قد يعنيه كلام راسكولنيكوف ودام الصمت ما يقرب من دقيقة.

وفي أثناء ذلك كان راسكولنيكوف الذي التفت نحوه قليلاً ليجيـبه، قد أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد واستطلاع قوي كأنه وقه لم يتسع منذ قليل لأن يفحصه فحصاً كاملاً، أو كأن شيئاً جديداً قد خطف بصره فيه، حتى لقد أنهض رأسه عن الوسادة لهذا الغرض عمداً. وكان ذلك الشيء في مظهر بيـوتر بتروفتـش لا يخفـي عن عين الناظر إليه فعلاً، إنه شيء خاص، شيء لا أدرـي ما هو، شيء يسـوغ الصفة التي أطلـقـها عليه راسكولـنيـكـوف بغير تحرـج حين سـمـاه «ـالـخـطـيـبـ». إنـ المرـءـ يـلاحظـ قبلـ كلـ شيءـ يـلاحظـ بوضـوحـ شـدـيدـ أنـ بيـوترـ بتـروـفتـشـ قدـ أـسرـعـ يـستـفـيدـ منـ

الأيام القليلة التي يعتزم قضاءها في العاصمة ليجعل نفسه جميلاً وأنيناً بانتظار وصول خطيبته، وذلك، على كل حال، أمر مشروع تماماً، بريء كل البراءة. حتى ليمكن أن يغفر المرء لهذا الرجل، بسبب لقب «الخطيب» الذي أصبح يحمله، ما كان يراه في نفسه من رأي لعله مسرف في التعظيم، بعد التبدل الموفق السعيد الذي طرأ عليه. كان يمكن أن تُعد ثيابه كاملة كل الكمال رائعة كل الروعة، لو لا عيب واحد هو أنها خارجة من عند الخياط رأساً لهدف محدد وغاية معينة. حتى قبعته المستديرة الأنثوية الجديدة كانت تدل على ذلك الهدف وتبنيه بتلك الغاية: أن بيوتر بتروفتش يداريها مداراة فيها شيء من الغلو ويمسكها بيده امساكاً مفرطاً في الاحتياط والحذر. وحتى الفغازان الزاهيان بلون البنفسج اللذان اشتراهما من محل جوفان كانوا يشهدان بذلك الهدف ويشيران إلى تلك الغاية، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما، فهو يحملهما بيده بغية أن يكون لهما أثر في أعين الناظرين. إن ثياب بيوتر بتروفتش تغلب عليها، في العادة، الألوان الزاهية التي يحبها المراهقون. ولقد كان يرتدي في ذلك اليوم ستة صيفية جميلة بلون الكستناء، وسر والأصيفياً زاهياً، وصديرة مناسبة من نفس القماش، وقميصاً من قماش رقيق جداً، قد اشتراه منذ قليل أيضاً، ورباطاً للعنق تخدده خطوط بلون الورد، وأجمل ما في ذلك له أن هذه الملابس جميعها كانت تتسع وشخص بيوتر بتروفتش كل الاتساق. إنك لو نظرت إلى وجهه التئير الذي لا يخلو من جمال لا يمكن أن تقدر أنه في الخامسة والأربعين من عمره. وهذان سالفان بلون الكستناء، بحيطان يوجهه إطاراً لطيفاً. أنهما مقدودان على شكل ضلعين، فهما يتكاثفان حول الذقن تكاففاً حلواً، وقد حُلقت الذقن حلقاً ناعماً فهي ملتمعة براقة. وشعره نفسه، الذي لم يكدر يشيب، والذي تولى الحلاق تصفيقه وتجعيده، ليس له ذلك المظهر المضحك الغبي الذي نراه عادة في الشعر المجنع لأنه يضفي على وجه المرء ذلك التعبير الأبله الذي يلاحظ في وجه ألماني يرتدي ثياب الزفاف. ولthen كان في هذا الوجه

الرصين اللطيف شيء مزعج بل ومنقى من ذلك، فإن مرد هذا إلى أسباب أخرى. نظر راسكولنيكوف إلى السيد لوجين يتفحصه بغير كلفة، ثم ابتسامة مسمومة، ثم استرخى على الوسادة مرة أخرى، وعاد ينظر إلى السقف من جديد.

ولكن السيد لوجين صمد، ويدا عليه أنه قرر مذعنًا أن لا يلاحظ الآن هذه الحركات الغريبة:

وقال يقطع الصمت بجهد ومشقة:

- يؤسفني أشد الأسف أن أجده على هذه الحال من المرض ولو قد علمت أنك مريض لجئت أزورك قبل الآن. ولكن الأعباء الكثيرة المتعبة قد حالت بيبي وبين ذلك. هذا عدا أن هنالك دعوى هامة جداً توجب علىي وظائفي، كمحام، أن أرفعها إلى مجلس الشيوخ. ناهيك عن المشاغل التي لا بد أنك تدركها... أنتي أنتظر وصول والدتك وأختك.

تحرك راسكولنيكوف، ويدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً، وعبر وجهه عن شيء من الانفعال، فأمسك بيوتر بتروفيتش عن الكلام، وانتظر برهة، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه حين رأى أن راسكولنيكوف لا يتكلم، فقال:

- ... وقد وجدت لهما مسكنًا يتزلانه في الآونة الأولى...

سأله راسكولنيكوف بصوت واهن:

- أين يقع هذا المسكن؟

- غير بعيد عن هنا. في عمارة باكالايف.

قال رازوميixin مقاطعاً:

- في شارع «الصعود». تضم العمارة طابقين مفروشين يؤجرهما التاجر يوشين. لقد ذهبت إلى هناك.

- نعم، هي غرف مفروشة.

قال رازوميخين:

- منزل حقير، فظيع، قذر، عفن، وهو فوق ذلك مشبوه، جرت فيه قصص بشعة... لا يعلم إلا الشيطان من هم أولئك الذين يقيمون فيه... لقد زرته بنفسي على أثر فضيحة شائنة. ولكنني يمتاز بأن أجره زهيد.

رد السيد لوجين يقول بلهجة جافة:

- لم أستطع طبعاً أن أجمع هذه المعلومات، لأنني لم أصل إلا منذ مدة قصيرة. على أن الغرفتين نظيفتان كل النظافة، ولما كانت الإقامة فيها قصيرة جداً...

ثم تابع كلامه ملتفتاً إلى راسكولنيكوف:

- وقد وجدت مسكننا لنا نحن منذ الآن، أعني البيت الذي سنسكنه في المستقبل، وقد بوشر في اعداده، وبيان تأثير الانتهاء من ذلك أقيم أنا نفسي على مسافة خطوتين من هنا، في غرفة مفروشة كيفرما اتفق، عند سيدة اسمها ليفوكسيل، في شقة صديق لي هو أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف، وهو الذي دلّني على عمارة باكالايف...

- ليزياتنيكوف؟

كذلك سأل راسكولنيكوف ببطء، كأن هذا الاسم يذكره بشيء ما.

- نعم، أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف، موظف باحدى الوزارات.

أتراك تعرفه؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً:

- نعم... لا...

- معدرة. لقد خيل إلى من سؤالك أنك... لقد كنت في الماضيولي أمره... هو فتى لطيف جداً، مطلع على كل ما هو جديد... إنني أحب معاشرة الشباب. من يعرفهم يتعلم كثيراً من الأشياء الجديدة.

قال بيوتر بتروفتش ذلك وهو يلف السامعين بنظره شاملة، آملاً أن يحظى كلامه بتأييدهم.

سؤال رازوميخين:

- بأي معنى؟

قال بيوتر بتروفتش وقد أسعده أن يُسأل:

- بالمعنى الجدي، بالمعنى الهام الأساسي. منذ عشر سنين كنت لا أزور بطرسبرج، صحيح أن جميع هذه الأشياء الجديدة، جميع هذه الإصلاحات وهذه الأفكار<sup>(49)</sup>، قد وصلت إلى الأقاليم أيضاً. ولكن إذا أراد المرء أن يرى الأمور رؤية أوضح، رؤية أشمل، فلا بد له أن يكون ببطرسبرج. وعندني أن خير وسيلة للتعلم إنما هي ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية. وإنني لأعترف بأنني قد ابتهجت كثيراً...

- ما الذي ابتهجت له على وجه التحديد؟

- سؤالك واسع قليلاً... قد أكون مخطئاً، ولكن يخيل إليّ أنني أجد الآن نظرة أوضح، وأجد قدرًا من حس النقد أكبر، وأجد فكراً وضعياً أنمى وأوسع...

قال زوسيموف بغير اهتمام:

- هذا صحيح.

فرد رازوميخين قائلاً:

- أكاذيب! ليس هناك أي فكر وضعبي! إن الفكر الوضعي يتم اكتسابه بكثير من المشقة والعناء، وليس يهبط من السماء. ونحن أناس فقدنا عادة العلم والفعل منذ مائتي سنة أو نحو ذلك.

ثم أضاف يقول متوجهًا بكلامه إلى بيوتر بتروفتش:

- صحيح أن الأفكار تختمر، وأن الرغبة في حسن العمل موجودة أيضًا مهما تكن صبيانية، حتى لقد نجد شيئاً من الاستقامة والشرف

والأمانة، رغم أن عدد المحتالين والأوغاد لا يُحصى ولا نهاية لهم. وأقر أن الفكر الوضعي لا وجود له. أما الذين يملكون الفكر الوضعي فهم التجار وأغنياء الحرفين.

قال بيوتر بتروفتش ببردة على رازوميخين وهو يشعر برضى واضح وارتياح لا يخفى:

- لا أشاطرك رأيك. صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة، وأن هناك اختلافات شديدة، ولكن يجب أن تكون عادلين: إن هذه الاعتداءات المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست هي الظروف التي يجب توافقها. ولئن لم يتحقق حتى الآن إلا القليل، فلأنه لم يتهيأ حتى الآن إلا وقت قصير، ناهيك عن قلة الوسائل. وفي رأيي شخصياً أنه قد تحقق منذ الآن شيء ما: انتشرت الأفكار الجديدة، الأفكار المفيدة، انتشرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلاً من المؤلفات الرومانسية الحالمة التي ذاعت في القديم. نصح الأدب، واستوصلت أوهام كثيرة ضارة. بإيجاز: قطعنا الصلة بالماضي قطعاً حاسماً، وهذا وحده هو في رأيي شيء هام ...

دمدم راسكولنيكوف قائلاً:

- يردد أقوالاً محفوظة جاً بالظهور!

لم يسمع بيوتر بتروفتش ما قاله راسكولنيكوف، فسأله مستوضحاً:

- نعم؟

ولكنه لم يحصل على جواب.

وأسرع زوسيموف يقول:

- هذا كله صحيح جداً.

قال بيوتر بتروفتش وهو ينظر إلى زوسيموف نظرة فيها لطف ووداعة:

- أليس كذلك؟

- ثم اتجه إلى رازوميixin يقول له بلهجة تنم في هذه المرة عن الانتصار وتعبر عن الشعور بالتفوق، حتى ليكاد يخاطبه بقوله: «أيها الفتى»:
- عليك أن تسلم بأن هناك سيراً إلى الأمام، أو أن هناك تقدماً على حد التعبير الرا�ح الآن، على الأقل باسم العلم والحقيقة الاقتصادية.
  - كلام معاد مكرر!
  - لا، ليس كلاماً معاداً مكررَا.

فذلك قال بيوتر بتروفتش، ثم تابع يقول بتعجل لعل فيه إسرافاً:

- مثلاً، قالوا لنا حتى الآن: «أحب قربك». فلنفترض أنني أحبيه، فما الذي يترب على ذلك؟ يترب عليه أن أشطر معطفٍ شطرين فأعطيه أحدهما فتصبح كلانا عاريين نصف عري، وفقاً لما يقوله المثل الروسي: «من طارد أربين في آن واحد لن يدرك أيّاً منهما». أما العلم فإنه يقول: أحب نفسك قبل سائر الناس، لأن كل شيء في العالم قائم على المنفعة الشخصية<sup>(50)</sup>. فإذا لم تحب إلا نفسك صرقت شؤونك على نحو ما يجب أن تصرفها ودبّرت أمورك كما ينبغي أن تدبّرها، فبقي معطفك كاملاً سليماً لم يُمزق. وتضييف الحقيقة الاقتصادية إلى ذلك أنه كلما ازداد وجود الثروات الفردية في المجتمع، أي كلما كبر عدد المعاطف الكاملة، ازدادت الأسس التي يقوم عليها المجتمع متانة وصلابةً، وازدادت ثروة المجتمع. معنى هذا أنني حين أجني خيراً لنفسي وحدي، فإنما أحصل في الوقت نفسه خيراً لجميع الناس، فينشأ عن ذلك أن قربي ينال عندئذ أكثر من نصف معطف، ولا يتم ذلك عندئذ بفضل كرم فردي، بل يتم نتيجةً لرخاء عام ورفاهية شاملة. الفكرة بسيطة، ولكنها لم تفرض نفسها - وأسفاه! - إلا بعد وقت طويل، لأنها كانت محجوبةً عن الأنظار بحماسة ساذجة وأحلام وهمية باطلة. ولم يكن المرء مع ذلك في حاجة إلى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء من أجل أن يدرك أن ... .

قاطعه رازوميixin يقول بخشونة:

- معذرة، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوه الذكاء، فلنقف إذن عند هذا الحد، وحسبنا ما قلناه! أنا أئما تكلمت لأنني كنت أرمي إلى هدف معين، أما هذه الشرارة كلها التي لا تفصح إلا عن اعجاب المرء بنفسه اعجاباً لذيداً، وأما هذا الكلام المعاد المكرور الذي لا ينضب له معين، فذلك كله ما يزال يبعث في نفسي التقزز منذ ثلاث سنين حتى صرت أحمر لا حين أقوله أنا فحسب، بل حين أسمع غيري يقوله أيضاً. لقد تسرعت كثيراً في اظهار ثقافتك وابراز معارفك. وذلك أمر يمكن أن يغفر لك، ولست ألومك عليه. ولكنني أردت أن أعرف من أنت، ذلك أن الذين تعلقوا بالقضايا العامة من الأوغاد الحقيرين قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع، وبلغوا من شدة افساد كل ما لمسوه، في سبيل مصلحتهم، أنهم وسخوا كل شيء توسيخاً لا خلاص منه ولا يمكن محوه. وكفى هذا! ..

قال السيد لوجين بوقار شديد:

- أتراك، أيها السيد الكريم، ت يريد أن تشير بهذه الصراحة الصارخة الخالية من أي تحرج إلى أنني أيضاً ...

- رحماك، رحماك! كيف يمكنني أن... . والآن، كفى! ..  
فذلك قطع رازوميixin كلامه، والتفت إلى زوسيموف التفاناً جازماً، ليسألنف ما كان بينهما من حديث.

وملك بيوتر بتروفيتش من الذكاء ما جعله يقبل هذا الجواب فوراً. وكان قد قرر، على كل حال، أن ينصرف بعد دقيقتين.

قال يخاطب راسكولنيكوف:

- أرجو للعلاقات التي بدأت بيننا الآن أن تتوطد مزيداً من التوطد حين تبل من مرضك، وبفضل الظروف التي تعرفها... . أئما أتمنى لك تحسن الصحة قبل كل شيء... .

لم يلتفت راسكولنيكوف اليه . وهم بيوتر بتروفتش أن ينهض .

قال زوسيموف يخاطب رازوميixin بلهجـة قاطعة :

- لا شك أن أحد زبائـنها هو الذي قتلها .

فأجاب رازوميixin موافقاً :

- لا شك ! لا شك أن أحد زبائـنها هو الذي قتلها .

إن بورفيرـي لا يطلع أحدـاً على خواطـره ، ولكنـه يستجـوب جميع الذين أودعـوا عندـها رهـونـا . . .

سأل راسـكولـنيـكـوف بصـوت عـالـ جداً :

- يستـجـوبـهمـ؟

نعم ، لـمـاـذاـ تسـأـلـ هـذـاـ السـؤـالـ؟

- لاـ لـشـيءـ!

وسـأـلـ زـوـسيـمـوفـ:

- أـينـ يـمـكـنـهـ أـنـ يـجـدـهـمـ؟

- سـقـىـ لهـ كـوـخـ بـعـضـهـمـ . وـهـنـاكـ أـسـمـاءـ أـخـرـىـ مـسـجـلـةـ عـلـىـ الأـورـاقـ التي لـفـتـ بـهـ الأـشـيـاءـ . وـهـنـاكـ آخـرـونـ جـاءـوـاـ منـ تـلـقـاءـ أـنـفـسـهـمـ مـنـذـ عـلـمـواـ بالـبـأـبـاـلـ . . .

- يـمـيـناـ أـنـ الـذـيـ ضـرـبـ هـذـهـ الضـرـبةـ لـاـ بـدـ أـنـ يـكـوـنـ وـغـداـ كـبـيرـاـ، وـغـداـ مـحـنـكاـ، ذـاـ خـبـرـةـ! يـاـ لـهـاـ مـنـ جـرـأـةـ! يـاـ لـهـاـ مـنـ عـزـيمـةـ!

قال رازومـيـخـينـ مقـاطـعاـ:

- لاـ، بـالـعـكـسـ! وـذـلـكـ بـعـيـنـهـ هوـ ماـ يـتـوهـكـمـ جـمـيعـاـ. أـنـاـ أـزـعـمـ أـنـ القـاتـلـ أـخـرـقـ لـيـسـ بـذـيـ تـجـربـةـ وـلـاـ خـبـرـةـ، وـأـنـ هـذـهـ الجـرـيمـةـ هيـ خطـوطـهـ الأولىـ عـلـىـ هـذـاـ الطـرـيقـ. لوـ اـفـتـرـضـنـاهـ بـارـعاـ حـاذـقاـ لـغـدـتـ جـمـيعـ الـأـمـورـ سـلـسلـةـ مـنـ وـقـائـعـ لـاـ يـمـكـنـ تـفـسـيرـهـاـ. أـمـاـ إـذـاـ اـفـتـرـضـنـاهـ غـيـرـ ذـيـ تـجـربـةـ وـلـاـ خـبـرـةـ، فـإـنـ المـصـادـفـةـ وـحـدـهـاـ تـكـوـنـ هيـ التـيـ أـخـرـجـتـهـ مـنـ الـورـطةـ وـمـاـ أـكـثـرـ

ما تفعله المصادرات! لعله لم يتبنّاً بالعقبات التي ستعرض سبيله، ولم يتصور الحواجز التي سيصطدم بها! انظر كيف تصرف: لقد أخذ أشياء لا تزيد قيمة كل منها على عشرة روبيات أو على عشرين روبيلاً، فملاً بها جيوبه، لقد نبش بين الخرق في صندوق العجوز، على حين أن الدرج الأعلى من الخزانة ذات الأدراج قد غُثِر فيها على علبة تحوي ألفاً وخمسمائة روبل فضة عدا السنديان والنقود الأخرى. حتى السرقة لم يحسنها. إنه لم يحسن إلا القتل!.. هذه خطوطه الأولى على طريق الاجرام، أقول لك هذه خطوطه الأولى! نعم، لقد طاش عقله وذهب صوابه... أؤكد لك أن ما أنقذه ليس هو الحساب بل المصادفة.

تدخل بيوتر بتروفتش في الحديث، فقال يسأل زوسيموف:

- أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التي وقعت مؤخراً وكان ضحيتها تلك المرأة العجوز، أرملة الموظف، أليس كذلك؟  
وكان بيوتر بتروفتش يحمل بيده قبعته وقفازيه. غير أنه ما يزال يحب أن يرسل بعض الأقوال الملائمة الذكية قبل أن ينصرف. كان واضحأ أنه يهمه أن يخلف في نفوس سامعيه أثراً حسناً، فتغلب حب الظهور عنده على رجاحة العقل.

- هل سمعتَ عن هذه الحادثة؟

- طبعاً! إن جميع الجيران...

- هل تعرف التفاصيل؟

- لا أستطيع أن أزعم أنني أعرف التفاصيل، غير أن ما يعنيني في هذه القضية إنما هو بعض ظروفها، أو بعض المشكلات التي تطرحها. لست أتكلّم عن أن عدد الجرائم التي تُرتكب في الطبقات الدنيا قد ازداد ازيداً كثيراً في السنوات الخمس الأخيرة، لا ولا أتكلّم عن حوادث السطو وحوادث الحرائق التي تعاقب في كل مكان بغير انقطاع. لا، لا أتكلّم عن هذا، وإنما الشيء الذي يبدو لي غريباً هو أن عدد الجرائم

يتزايد في الطبقات العليا أيضاً، على موازاة تزايده في تلك الطبقات الدنيا إن صح التعبير. هنا، طالب سابق يهاجم عربة بريد<sup>(51)</sup> في الطريق الكبير، وهناك أناس ممن يحتلون مركزاً اجتماعياً حسناً، يصنعون أوراقاً مالية مزيفة، وهنالك أيضاً، في موسكو، ثُعتقد جماعة بكاملها من الأفراد تزيف أوراق اليانصيب، ومن بين الجناء الرئيسين فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام<sup>(52)</sup>. وهنالك أخيراً، يُقتل موظف من موظفي سفاراتنا في سبيل الحصول منه على مال أو لأغراض أخرى من ذلك! .. فإذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من أبناء الطبقات العليا - ولا بد أن يكون كذلك، لأن أبناء الشعب الفقير لا يرهنون، فيما أعلم، أشياء ذهبية - فكيف نفسر إذن هذا التحلل الذي يعيث فساداً في الجزء المتمدن المتحضر من مجتمعنا؟

قال زوسيموف:

- إن للتبدلات الاقتصادية دخلاً كبيراً في حدوث هذه الظاهرة ..

وقال رازوميixin مجيباً عن سؤال بيوتر بتروفتش:

- كيف نفسر هذا التحلل؟ الأمر بسيط: نفسره بفقدان الفكر الوعي والروح العملية ..

- أي؟

- قل لي: بماذا أجاب، في موسكو، أستاذ التاريخ العام ذاك حين سُئل لماذا يزيف أوراق اليانصيب؟ لقد أجاب بقوله: «إن جميع الناس يغتتون ويشرون بأية وسيلة من الوسائل، لذلك أردت أنا أيضاً أن أغتنى وأن أثرى بأقصى سرعة». لا أتذكر الآن أقواله بنصها، ولكن معناها هو أنه أراد أن يجمع ثروة بأقصى سرعة وبأقل تكلفة، دون أن يتحمل مشقة أو أن يبذل جهداً. نعم، لقد اعتاد الناس أن يعيشوا عالة على الآخرين، دون أن يحفلوا بشيء أو أن يكتثروا بشيء، واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة، فمتي آن الأوان ظهر كل واحد على حقيقته ..

- ولكن هناك أخلاق... هناك مبادئ رغم كل شيء...  
تدخل راسكولنيكوف على حين فجأة قائلاً:

- ما الذي يقلقك؟ هذه هي النتيجة التي تترتب على نظريتك نفسها!  
- نظريتي أنا؟

- استخرج النتائج التي تترتب على المبدأ الذي وضعه منذ قليل،  
تجد أنه يجيز للإنسان أن يقتل الآخرين...

صاحب لوجين يقول:  
- أرجوك! ..

قال زوسيموف:

- لا، ليس هذا صحيحاً.

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً، وكان شاحباً شحوباً شديداً،  
وكانت شفته العليا ترتجف، ويتنفس بمشقة وعسر. تابع لوجين كلامه.  
فقال متعالياً:

- هنالك حدود معتدلة معقولة. ليست الفكرة الاقتصادية حضأ على  
القتل، وإذا فرضنا أن... .

فقطاعه راسكولنيكوف على حين فجأة من جديد يسأله بصوت خفيف  
مرتجف من شدة الغضب، بصوت يشوبه نوع من فرح خبيث، يشوبه  
نوع من التلذذ بالآهانة:

- هل صحيح أنك قلت لخطيبتك، ساعة وافقت على زواجهما منك،  
إن ما يسعدك مزيداً من السعادة أنها فقيرة معدمة... لأن من المفید  
 جداً أن يت disillusion الرجل امرأة من وحدة الشقاء، ليسيطر عليها بعد ذلك عن  
طريق الخيارات التي يمكن بها عليها؟

صاحب لوجين يقول بصوت شرير حانق، وقد خرج عن طوره:  
- أيها السيد الكريم، إنك تشوه فكريتي. معذرة. غير أن من واجبي

أن أعلن لك أن الشائعات التي بلغتك، أو قل الشائعات التي نقلت إليك عمداً، لا تقوم على أي أساس من الصحة... وأبني... أشتبه... الخلاصة... أشتبه في أن هذا السهم... الخلاصة... إنما أرسلته أمك!... على كل حال... إنني بغض النظر عن هذا... قد لاحظت... رغم ما لأمك من مزايا عظيمة... إنها مشبوبة العواطف رومانسية النفس قليلاً...

لكنني ما كان لي أن أتخيل أنها يمكن أن تنظر إلى الأمور هذه النظرة المشوهة التي صورها خيالها... وعلى كل حال، على كل حال... صرخ راسكولينيكوف يقول له وهو ينهض عن وسادته ويحدق إليه بعينين تقدحان شرراً:

- هل تريد أن أقول لك؟  
- ماذا تقول لي؟

قال لوجين ذلك، وانتظر جواب راسكولينيكوف متحدياً بمظهر من أهين منذ قليل، وختم الصمت بضع ثوان.

قال راسكولينيكوف:

- اعلم أنك... إذا تجرأت مرة أخرى، فقلت في حق أمي الكلمة واحدة، فلا نزلتك تدحرجاً على السلم...  
صاح رازوميixin يقول لراسكولينيكوف:

- ماذا دهاك؟

فقال راسكولينيكوف:  
- نعم، هكذا.

اصفر لوجين، وعرض على شفته، ثم قال متمهلاً محاولاً أن يكظم غيظه بكل ما أوتي من قوة، لأن الغضب كان يختنقه خنقاً، قال:  
- اسمع يا سيد. لم يفتني أن لاحظ منذ قليل، حين دخلت،

الاستقبال الخشن الذي من طرفك ، ولكنني تعمدت أن أبقى لأرى إلى أي حد سوف تمضي . . . ولقد كان يمكن أن أغفر أشياء كثيرة لإنسان مريض تربطني به قرابة . . . أما لك أنت ، فلن أغفر . . . لن أغفر في يوم من الأيام . . .

صاحب راسكولنيكوف يقول :

- لست مريضاً !

- ذنبك إذن أعظم !

- اذهب إلى جهنم !

ولكن لوجين كان قد خرج دون أن يكمل كلامه . تسلل بين المائدة والكرسي من جديد ، ونهض له رازوميخين في هذه المرة عن كرسيه ، ليفسح له مجال المرور . خرج لوجين حتى دون أن ينظر إلى أحد دون أن يحيي برأسه زوسيموف الذي كان منذ برهة طويلة يومئ إلهي برأسه مهيباً به أن يدع المريض وشأنه ، وقد خرج وهو يرفع قبعته إلى مستوى كتفه على سبيل الاحتياط ، لحظة انحنى ليجتاز عتبة الباب . كان واضحأ من طريقة حنية ظهره أنه انصرف وهو يحمل شعوراً بأنه أهين إهانة فظيعة .

قال رازوميخين لراسكولنيكوف وهو يهز رأسه متحيراً مرتباً :

- هل يمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف؟

صاحب راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره :

- دعوني ، دعوني جميعاً ! ألا ت يريدون أن تتركوني وشأنني أيها الجلادون؟ أنا لست خائفاً منكم . . . لست الآن خائفاً من أحد . اخرجوا من هنا ! أريد أن أكون وحيداً ، وحيداً ، وحيداً . . .

قال زوسيموف وهو يومئ لرازوميخين :

- فلتصرف !

- كيف؟ هل يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال؟

فکر روسیموف قوله جازماً:

- فلتنتصرف .

وخرج.

فکر رازومیخین لحظه، ثم مضى يلحق بصاحبہ زوسیموف.

قال زوسيموف وقد صارا على السلم:

- لو لم نطعه لساعات حاله مزيداً من السوء . ما يعني أن نحنته .

- ماذًا أصا به؟

- ليت هزة سارة تصيبه . نعم ، ذلك ما هو في حاجة إليه . لقد استرد قوله منذ قليل . . . أظن أن هناك أمراً يشغل باله ، أظن أن هناك فكرة تنقل على صدره ، وتحاصر فكره . . . وذلك ما أخشاه ! لاشك أن الأمر كذلك . . .

- لعل للسيد بيوتر بتروفتش دخلاً فيما هو فيه. إن الحديث الذي جرى بينهما يدل على أن بيوتر بتروفتش سيتزوج أخت روديا، وأن روديا قد أبلغ هذا النبأ بر رسالة وصلت إليه قبيل مرضه ببرهة وجيزة . . .

- نعم، إن الشيطان هو الذي قاد هذا الرجل إليه، في هذا اليوم عينه! لعل هذا الرجل قد أفسد الآن كل شيء. ولكن قل لي: هل لاحظت أن روديا كان لا يكتثر بشيء، ولا يخرج عن صمته إلا لأمر واحد كان يخرجه عن طوره هو جريمة القتل تلك؟

أجاب رازوميخين موافقاً:

- نعم، نعم، لاحظت ذلك بوضوح. إن هذه الجريمة تهمه، بل وترعبه... ولكن مرد ذلك إلى أنه في ذلك اليوم نفسه الذي مرض فيه قد ارتاب في مكتب رئيس الشرطة، حتى لقد أغمى عليه.

- ستقصّ على ذلك تفصيلاً في هذا المساء ، وسأقول أنا لك شيئاً حينذاك . إن حالته تعنيني كثيراً . سأجيء أستطلع أخباره بعد نصف

ساعة. مهما يكن من أمر، فلا خوف عليه من أن يُصاب باحتقان...  
- شكرأ لك. وفي أثناء هذا الوقت، سأنتظر أنا عند باشنكا،  
وسأكلف ناستاسيا بمراقبته... .

نظر راسكولنيكوف إلى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر. إن ناستاسيا لم تشا أن تصرف.

قالت له :

هل لك بقليل من الشاي الآن؟

- بل فيما بعد. الآن أريد أن أنام. اتركيني!

قال راسكولنيكوف ذلك، واستدار نحو العائط بحركة تشنجية.  
وخرجت ناستاسيا.

ولله

ما أن خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالقفل وفضَّ صرَّة الملابس التي أتى بها رازوميخين وأعاد ربطها، ثم أخذ يلبس. شيءٌ غريبٌ: لكان راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأةً هادئاً كلَّ الهدوء. لم يبق فيه أثرٌ من ذلك الهذيان الذي يشبه أن يكون جنوناً والذي كان يسكن فيه منذ قليل، ولا بقي فيه شيءٌ من ذلك الرعب الشديد الذي استولى عليه في الآونة الأخيرة. كانت تلك دقيقة من الهدوء الغريب الذي استولى عليه فجأةً. إن حركاته الدقيقة الواضحة تدلُّ على عزم قويٍّ. وكان يدمدم قائلاً بينه وبين نفسه: «في هذا اليوم، في هذا اليوم نفسه». كان يدرك مع ذلك أنه ما يزال ضعيفاً، غير أن توترًا نفسياً شديداً كان يهب له قوةً وثقةً. وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى في الشارع. فلما انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة، نظر إلى المال الموضوع على المائدة، ففكَّر ثم وضعه في جيبه. كان هناك خمسة وعشرون روبلًا. وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقية من الروبلات العشرة التي وقفها رازوميخين على شراء الملابس. ثم فتح الباب برفق، وخرج من الغرفة، وهبط السلالم وهو يلقي نظرة على المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً تماماً: كانت ناستاسيا مدبرة له ظهرها مائلةً تنفسُ على سماور مولاتها، فلم تسمع شيئاً. ومن ذا الذي كان يمكن أن يفترض، على كل حال، أن راسكولنيكوف قد

يخرج؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف في الشارع. الساعة تقارب الثامنة، والشمس تغرب، والجو خانق كما كان بالأمس، ولكن راسكولنيكوف كان يستنشق، بنهم شديد، هذا الهواء المعffer العفن الموبوء الذي تنشره المدينة الكبيرة. أخذ يشعر بدوران خفيف. وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع فجأة في عينيه الملتهبتين، وينعكس على وجهه المهزول المزرق. كان لا يعرف إلى أين يجب أن يذهب، لا ولا يخطر بباله أن يلقي على نفسه هذا السؤال. كان لا يعرف إلا شيئاً واحداً هو أن كل شيء يجب أن ينتهي في هذا اليوم نفسه، دفعة واحدة، وفوراً؛ وأنه بدون ذلك لن يعود إلى بيته، لأنه لا يريد أن يعيش هكذا. أما كيف ينتهي من ذلك كله، وبأية وسيلة ينتهي من ذلك كله، فإنه لم يعرف سبيلاً إلى هذا ولم يكن يريد أن يفكر في هذا! لقد كان يدفع عن نفسه هذه المسألة الأليمة، غير أنه يحس ويعلم أن كل شيء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى «مهما يكن من أمر، ومهما يحدث من حادث». هذا ما كان يكرره لنفسه بياض وثقة وعناد.

وقادت خطاه عادةً قديمة من عاداته، فسار في الطريق التي يسلكها في نزهاته المألوفة، واتجه رأساً نحو «سوق العلف». حتى إذا أوشك أن يصل إليه رأى على أرض الشارع شاباً أسمر يعزف على أرغن يدوى لحنًا عاطفياً وهو واقف أمام أحد الدكاكين. وكان الشاب يصاحب بالعزف غناء صبية في نحو الخامسة عشرة من عمرها، قد وقفت أمامه على الرصيف ترتدي تنورةً متنفخةً وخماراً وقفازين وقبعةً من قش تزيتها ريشة حمراء بلون النار؛ ومجموع ثيابها يبدو عتيقاً باليأ. كانت الصبية تغني بصوت مغنية من مغنيات الشارع، وهو صوت مصدئ لكنه ممتع قوي، وما تزال تمعن في الغناء آملةً أن ينفحها صاحب الدكان كوبكين. وقف راسكولنيكوف إلى جانب شخصين أو ثلاثة أشخاص كانوا يصغون إلى الغناء، فأصغى هو أيضاً، ثم أخرج قطعةً نقديّةً قيمتها خمسة كوبيكات فدسّها في يد الصبية. فما كان من الصبية إلا أن توقفت

عن الغناء عند النغمة التي كانت قد بلغتها، وهي النغمة الأقوى على الأبلغ تأثيراً، ثم صرخت تقول للعازف بصوت جاف: «كفى!»؛ واستأنف الاثنان سيرهما إلى الدكان التالي.

اتجه راسكولنيكوف بالكلام فجأة إلى رجل كهيل كان يسمع لعزف الأرغن إلى جانبه، وكان يبدو أنه متزه هائم على وجهه، فقال له:

- هل تحب أغاني الشوارع؟

فنظر إليه الرجل مبهوتاً.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال له وكأن الأمر لا شأن له بغناء الشوارع البتة:

- أنا أحب أن أسمع الغناء على صوت أرغن يدوبي، في ليلة حالكة من ليالي الخريف، ليلة رطبة باردة، رطبة على وجه الخصوص، بينما المارة، قد ازرت وجوههم جميعاً حتى لكانهم مرضى، ولا سيما حين ينهر ثلج ذائب يتتساقط قائماً لا تهبط عليه نسمة من ريح، فتستطيع رؤوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهر...

قال السيد مدمداً وقد رؤاه السؤال مثلما رؤاه هذا المظهر الغريب في راسكولنيكوف:

- لا أدرى!... معدرة...

ومضى ينتقل إلى الجهة الأخرى من الشارع.

سار راسكولنيكوف قديماً، فوصل إلى ناصية «سوق العلف»، إلى ذلك المكان نفسه الذي كان قد سمع فيه البائع وزوجته اليزافيتا. ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك في ذلك الوقت. تعرف راسكولنيكوف المكان، فوقف، ونظر حوله، ثم اتجه إلى شاب يلبس قميصاً أحمر كان يثاءب عند مدخل دكانٍ لبيع الدقيق فقال له:

- هنا، عند هذه الناصية، يعمل باائع وامرأته، هه؟

فأجابه الفتى وهو يزوره بنظره:

- يجيء إلى هنا باعةً كثيرون لا يُحصى لهم عدده!

- ماذا يسمونه؟

- يسمونه باسمه.

- وأنت، ألسن من زارايسك؟ من أي إقليم أنت؟

ألقى الفتى نظرة أخرى إلى راسكولنيكوف ثم قال:

- منطقتنا يا صاحب السعادة ليست إقليماً بل مقاطعة، وإذا إن أخي هو الذي يسافر، وأبقى أنا في الدار، فإنني لا أعرف شيئاً. أرجو أن تعذرني يا صاحب السعادة!

- هل المحل الذي أراه في الطابق الأعلى مطعم؟

- بل هو خمارة... وفيها بلياردو... وتتجدد فيه حتى أميرات...  
هو محل عظيم!

مضى راسكولنيكوف يتقلل إلى الجهة الأخرى من الميدان. وهناك، عند الزاوية، كان يجتمع جمهور كثيف ليس فيه إلا فلاحون. تسلل راسكولنيكوف إلى حيث يتكاثف الجمهور أكبر تكاثف، وأخذ يتفحص الوجوه. كان يتمنى أن يكلم كل واحد من هؤلاء الناس، لا يدرى لماذا! ولكن الفلاحين لم يلتقطوا إليه. كانوا يحتشدون جماعات صغيرة تتحادث متمازحة. وقف راسكولنيكوف لحظة يفكر، ثم مضى يمنة في اتجاه شارع «ف...». حتى إذا غادر «سوق العلف» دخل في زقاق ضيق...

سبق له كثيراً أن سلك هذا الزقاق القصير المنحنى الذي يصل بين الميدان وبين شارع سادوفايا. لقد كان يحب في الآونة الأخيرة، حين كان كل شيء يشير فيه الاشمئزاز والتقرّز، أن يتجول في هذه التواحي، «نشدانا لمزيد من الاشمئزاز والتقرّز». ولكنه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن يفكر في أي شيء. إن في هذا المكان عمارة كبيرة ليس فيها إلا خمارات ومطاعم ومقاه، تخرج منها في كل لحظة نساء حاسرات

الرؤوس يرتدين ثياباً خفيفة، ويحتشدن جماعات في مكانين أو ثلاثة على الرصيف ولا سيما قرب مداخل الأقبية حيث يكفي المرء أن يهبط درجتين حتى يصل إلى بيت من بيوت اللذة. إن في أحد هذه البيوت الآن جلبةً كبيرة تجتاح الشارع كله: فهناك عزف على قيثارة، وغناء، ومرح بلغ ذروته؛ وعند المدخل تزدحم نساء كثيرات، فبعضهن جالسات على الدرجات، وبعضهن جالسات حتى على الرصيف، وبعضهن واقفات يثيرن. وغير بعيد من ذلك المكان، يسير على أرض الشارع جندي سكران متربع، قد وضع في فمه سيجارة، وراح يشتم بصوت عالٍ. كان كأنه يريد أن يدخل مكاناً ما، ولكنه أصبح لا يعرف أين. وهذا رجل يرتدي أسمالاً رثة قد طفق يتبادل الشتائم مع رجل آخر يرتدي أسمالاً رثة أيضاً. وهذا شخص قد بلغ السكر منه كل مبلغ فاستلقى يرقد على أرض الشارع عرضاً. وقف راسكولنيكوف قرب جماعة كبيرة من النساء. كنَّ يثيرن بصوت أبَعَّ. إنهن جميعاً حاسرات الرؤوس، يرتدين فساتين من قماش خفيف مشجر، وينتعلن أحذية من جلد الماعز. منهن من تجاوزن الأربعين من العمر غير أن منهن صبايا في السابعة عشرة. وجميعهن تقريباً يحملن آثار كدمات.

اجتبته الأغاني والجلبة الصادرة عن القبو، دون أن يعرف لماذا. في وسط الفضحكات والصرخات، كان يُسمع صوت رجل يعني بصوت تحيل حاد ويصاحب غناءه المرح عزف على قيثارة، بينما أعقاب الأرجل تقرع الأرض قرعاً قوياً لإظهار الإيقاع. مال راسكولنيكوف نحو الباب، وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة، وراح يصغي مظلم النفس شارد الفكر. كانت الأغنية التي يصدح بها الصوت النحيل الحاد تقول:

**يا حارسي الجميل**

**لا تضربني ظلماً بغير سبب**

شعر راسكولنيكوف برغبة رهيبة في سماع هذه الأغنية، لأن المسألة كلها في نظره هي هذه!

قال يسأل نفسه: «ماذا لو دخلت؟ إنهم يضحكون مقهقحين. إنهم سكارى. ماذا لو سكرت أنا أيضاً؟»

سألته إحدى النساء بصوت واضح لكنه أبجع بعض الشيء:

- ألا تدخل يا سيدى العزيز؟

كانت المرأة شابة، بل كانت بين هذه الجماعة من النساء المرأة الوحيدة التي لا يبعث منظرها على التفور البتة.

قال وهو يتتصب وينظر إليها:

- ما أجملك!

ابتسمت المرأة. لقد سرّها هذا المديح سروراً عظيماً. وقالت له:

- أنت أيضاً شاب جميل.

فقالت امرأة أخرى تعارض بصوت أحش:

- لكنه نحيل جداً. خارج من المستشفى، هه؟

وكان يمزّ فلاح له وجه سخيف مرح ماكر، يرتدي ستراً حُلت أزرارها، فقال فجأة:

- يظهر أنهن بنات من أعلى طبقة. على الرغم من أن أنوفهن كبيرة!

وأضاف:

- أرأيت إلى هذا المرح ما أعظميه!

قالت له إحداهن:

- هياً ادخل ما دمت قد جئت!

- فوراً يا حلوة، فوراً.

أجابها الفلاح بذلك، وهرول يهبط الدرجات.

وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف سيره. فلما همّ أن يستدير لينصرف، صرخت البنت تقول له:

- اسمع يا سيد!

- ماذا؟

- فارتبتك ، وقالت له :

- سيسعدني دائمًا ، أيها السيد ، أن أقضي معك بعض ساعات؛ ولكنني ... أشعر الآن بخجل شديد منك . هلاً أهديت إلى ستة كوبكأت أشرب بها كأساً ، أيها الفارس الجميل !

فأخرج راسكولنيكوف من جيده ما وقع تحت يده: ثلاثة قطع نقدية من فئة الخمسة كوبكأت.

- آ... يا للسيد السخي !

- ما اسمك؟

- لن يكون عليك إلا أن تسأل عن دوكليدا.

قالت امرأة من جماعة النساء ، وهي توميء إلى دوكليدا بإشارة من رأسها :

- ما أتعجب هذه الأساليب ! كيف ترضى هذه البنت أن تستعطي هذا الاستعطاء؟ لو كنت في مكانها لآثرت أن أدفن نفسي في التراب من شعوري بالغزى والعار !

نظر راسكولنيكوف إلى المرأة التي قالت هذا الكلام ، نظرة مستطلعة مستغربة . هي مومن في نحو الثلاثين من عمرها ، مجدورة الوجه منتفرخة الشفة العليا ، تعطي بشرتها كدمات زرقاء . ولقد قالت عتابها بلهجة هادئة جادة.

تساءل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره: «ترى أين قرأت أن رجلاً محكوماً عليه بالإعدام قد قال أو تخيل قبل إعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش في مكان ما ، على قمة ، فوق صخرة ، بموضع لا تزيد مساحته على موطئ قدم ، وكان كل ما حوله هوة سحيقة ، خصماً كبيراً ، ظلمات أبدية ، عزلة خالدة ، زوابع لا تنقطع ، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة ، بل ألف سنة ، بل أبد الدهر ، لظل

مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً، أن يعيش فحسب، أن يعيش! أن يعيش أي عيشة، ولكن أن يعيش.. نعم، أين قرأت هذا؟ ما أصدق هذا الكلام! رباه، ما أصدق هذا الكلام!...»<sup>(53)</sup>.

قال راسكولنيكوف ذلك، ثم أردف بعد لحظة:  
- الإنسان جبان، ولكن سافل أيضاً ذلك الذي يصفه بالجبن لهذا السبب!

ودخل في شارع آخر. فما لبث أن قال لنفسه:  
«هه! هذا «قصر الكريستال»! لقد تكلم عنه رازوميixin منذ قليل... ولكن ماذا كنت أريد أن أعمل؟ نعم نعم، كنت أريد أن أقرأ... لقد ذكر زوسيموف أنه قرأ في الجرائد...».

- هل عندكم جرائد?  
كذلك سأله راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة، نظيفة، ذات عدة قاعات، ولكنها مع ذلك خالية إلا من عدد قليل من الناس. كان هنالك شخصان أو ثلاثة يحتسون الشاي؛ وفي قاعة أخرى، في آخر الحانة، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون الشمبانيا، اعتقاد راسكولنيكوف حين رأهم أن زاميتووف أحدهم. ولكن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً كل الثقة من صدق رؤيته، على مسافة بعيدة هذا البعد.

قال لنفسه: «وأي ضير في هذا على كل حال؟»  
سؤاله الخادم:

- هل تريد فودكا؟

فقال له راسكولنيكوف:

- بل هات لي شيئاً، وجئني بجرائد، جرائد قديمة، جرائد الأيام الخمسة الأخيرة. سوف أنفحك بقشيشاً سخياً.

- حاضر. إليك الآن جرائد اليوم. وهل تريد فودكا أيضاً؟

ووصلت الجرائد والشاي. جلس راسكولنيكوف وانكب على الجرائد باحثاً منقباً: «أيستلر - أيستلر - الأزتيكيان - أيستلر. - بارتولا. - ماسيمو. - الأزتيكيان. - أيستلر<sup>(54)</sup> -» إلى الشيطان هذا كله... آ... آخرًا... هذه هي الأنباء المتفرقة... «سقوط في سلم»، «تاجر سكران يحترق حيًّا»، «حريق في حي الرمال»، «حريق في حي بطرسبرجسكايا»، «حريق آخر في حي بطرسبرجسكايا» «أيستلر.. أيستلر.. أيستلر.. ماسيمو...». آ... وصلنا...».

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه، وأخذ يقرأ. إن الأسطر تترافق أمام عينيه، ولكنه قرأ «النبا» حتى نهايته، وطفق يبحث، في شراهة ونهم، عن تفاصيل جديدة في الأعداد التالية، فكانت يداه ترتجفان من نفاد الصبر وهو يتصفح الجرائد. وفجأة جاء أحد فجلس إلى مائدة، بقربه. رفع راسكولنيكوف عينيه. أنه زاميوتوف، زاميوتوف نفسه، بلا تبدل ولا تغير، زاميوتوف، بخواتمه، وسلامله، والفرق الذي يشطر شعره الأسود العكف المطیب، والصديرة الأنثقة، والبدلة القديمة قليلاً، والقميص الذي ذهب بعض رونقه. كان زاميوتوف مرحاً، أو قل على الأقل أنه كان يبتسم بكثير من المرح والطيبة. وكان وجهه الأسمر يبدو ساخناً بعض السخونة من الشمبانيا التي شربها.

بدأ يتكلّم مدهوشًا فقال لراسكولنيكوف بلهجته من يعرفه منذ مدة طويلة :

- كيف؟ أنت هنا؟ أمس قال لي رازوميixin أنك لم تفق من غيبوبتك. شيء عجيب. هل تعرف أنني زرتك أثناء مرضك؟

كان راسكولنيكوف يعرف أن زاميوتوف سيتعرض له. فوضع الجرائد جانبًا، والتفت إليه. إن ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه، ويرى المرء في هذه الابتسامة، منذ الآن، صبراً نافذاً وغيظاً شديداً.

أجابه يقول:

- أعرف أنك زرتني. حُكِي لي هذا. حتى لقد بحثت عن جوربي. ولكن هل تعلم أن رازوميixin مجنون بك ، قال لي إنكما ذهبتما معاً إلى عند لوبيزا ايفانوفنا... نعم، تلك التي حاولت أن تدافع عنها في ذلك اليوم ، غامزاً «الضابط بارود» الذي لم يفهم من غمزك شيئاً. ألا تتذكر؟ كيف أمكن أن لا يفهم أن الإشارة كانت واضحة، هه؟

- يا له من رجل صَخَاب!

- من؟ الضابط بارود؟

- بل صديقك رازوميixin.

- إنك تعيش حياة فرحة يا سيد زاميتووف. تستطيع أن تذهب إلى الأماكن الممتعة اللذيدة دون أن تنفق قرشاً واحداً. قل لي: من ذلك الذي قدم لك الشمبانيا منذ قليل؟

- نعم، شربنا شمبانيا...

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً:

- أعرف... هذه أجورك. أنك تجني نفعاً من كل شيء. ثم أضاف وهو يربت على كتف زاميتووف:

- لا ضير في هذا، يا صاحبي، لا ضير... أنا لم أقل ما قلتة عن نية سيئة خبيثة، وإنما قلتة عن «محبة ومودة، من باب التسلية»، كما قال الدهان حين كان يضرب ميتكا. أنت تعرف هذا في قضية مقتل العجوز...

- ولكن كيف تعرفه أنت؟

- أنا؟ ربما كنت أعرف أكثر مما تعرف.

- أمرك عجيب... أغلب الظن أنك ما تزال مريضاً. ما كان ينبغي لك أن تخرج!

- أيدو لك أمري عجياً؟

- نعم. ما هذا؟ أكنت تقرأ الجرائد؟

- نعم.

- تتحدث الجرائد كثيراً عن حرائق.

- نعم، ولكن ليست الحرائق هي التي تهمني أنا!

قال ذلك ونظر إلى زاميتوف نظرة ملغزة، وعادت بسمة ساخرة  
تعطف شفتيه، ثم أضاف وهو يغمز بعينه:

- لا، ليست الحرائق هي التي تهمني. أعرف أنها الشاب اللطيف  
أنك تحترق شوقاً إلى أن تعرف ماذا كنت أقرأ!

- غير صحيح! لقد ألقيت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن ألقى  
عليك أي سؤال آخر. أليس من حق أحد أن يلقي سؤالاً؟ ما بالك تبلغ  
هذا المبلغ من . . .

- اسمع، أنت رجل متعلم، مثقف، هيه؟

أجاب زاميتوف بوقار:

- قطعت في المدرسة الثانوية ست سنين.

- ست سنين؟ يا للفتى الظريف! وإلى ذلك في شعره فرق، وفي  
أصابعه خواتم . . . هو رجل غني. يا للشاب اللطيف!

قال راسكونيكوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زاميتوف ضحكة  
عصبية. فتراجع زاميتوف إلى وراء، لا لأنه أنزعج بل لأنه دُهش.

كرر يقول بلهجة العجد:

- حقاً إن أمري عجيب! كأنك ما تزال تهذى!

- أنا؟ أهذى؟ أخطأ ظنك أيها الفتى الظريف! أمري عجيب، هه؟ أنا  
أثير فضولك، أليس كذلك؟ هه؟ أثير فضولك؟

- نعم!

- الخلاصة... أنت ت يريد أن تعرف عمّ كنت أبحث، ت يريد أن تعرف ماذا كنت أقرأ، أليس كذلك؟ انظر كم عدداً من الجرائد طلبت! هذا يبعث على اشتباه قوي، هه؟

- هلاً قلت إذا! ...

- أتوقع مفاجأة؟

- سأقول لك فيما بعد. أما الآن، يا صديقي العزيز، فإنني أعلن لك... عفواً... بل «أعترف» لك... لا... ليس هذا هو التعبير الصحيح... إنما التعبير الصحيح هو: «أدلي بإفادتي، وتسجل أنت». نعم هذا هو التعبير الصحيح. وهأنذا أدلي لك بإفادتي فأقول إني أردت أن أقرأ، وأن أكتب، وأن أمعن في الت نقib... .

هنا ضيق راسكولنيكوف عينيه وتوقف عن الكلام برهة ثم استأنف يقول همساً وهو يسرف في تقريب وجهه من وجه زاميتوف:

- أنا أمعن في الت نقib - وأنا ما جئت إلى هنا إلا لهذا الغرض - عن جميع الأخبار التي تتصل بمقتل العجوز أرملة الموظف.

كان زاميتوف يحدّق إلى عيني راسكولنيكوف، دون أن يقوم بأية حركة، دون أن يبعد وجهه عن وجهه. إن الشيء الذي أثار دهشة زاميتوف بعد ذلك أكثر من كل ما عده، هو أن الصمت بينهما دام عندئذ دقيقة كاملة، دون أن يكف أحدهما عن التحديق إلى صاحبه والتفرس فيه.

صاح زاميتوف فجأة وقد نفد صبره وأصبح لا يعرف ماذا يجب أن يظن:

- طيب! وهل يعنيني أنا أن تقرأ أنت هذا النبأ أو ذاك من الأنباء؟ فدمدم راسكولنيكوف يقول دون أن يحرك ساكناً بسبب صيحة زاميتوف:

- إن الأمر يتصل بتلك العجوز نفسها التي أغمي على في قسم

الشرطـة منـذ جـرـى الحـدـيـث عـلـيـهـا . نـعـمـ، لـحـظـةـ جـرـى الحـدـيـث عـلـيـهـا .  
أـفـهـمـتـ الـآنـ؟

قال زاميـوتـوفـ وـقـدـ كـادـ يـجـنـ جـنـونـهـ :

- ماـذـاـ يـجـبـ أـنـ أـفـهـمـ؟ مـاـذـىـ يـجـبـ أـنـ أـفـهـمـ؟

فـمـاـ أـنـ سـمـعـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ هـذـاـ حـتـىـ تـبـدـلـ وـجـهـ الـهـادـيـ السـاـكـنـ فـيـ  
ثـانـيـةـ وـاحـدـةـ، ثـمـ إـذـاـ هوـ يـنـفـجـرـ ضـاحـكـاـ بـعـصـبـيـةـ كـمـ اـنـفـجـرـ ضـاحـكـاـ مـنـذـ  
قـلـيلـ، حـتـىـ لـكـأـنـهـ لاـ يـسـطـعـ أـنـ يـمـسـكـ عـنـ الضـحـكـ. وـفـيـ مـثـلـ وـمـيـضـ  
الـبـرـقـ سـرـعـةـ، طـافـتـ فـيـ خـيـالـهـ بـوـضـوحـ هـائـلـ ذـكـرـىـ الإـحـسـاسـ الذـيـ شـعـرـ  
بـهـ مـنـ قـبـلـ، حـيـنـ كـانـ وـاقـفـاـ وـرـاءـ الـبـابـ، مـمـسـكـاـ فـأـسـهـ، يـرـىـ المـزـلاـجـ  
يـتـهـزـزـ، بـيـنـمـاـ كـانـ الرـجـلـانـ، فـيـ الجـهـةـ الـأـخـرـىـ مـنـ الـبـابـ، يـشـتـمـانـ  
وـيـحـاـلـانـ فـتـحـ الـبـابـ، فـأـحـبـ هوـ عـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ أـنـ يـهـيـنـهـماـ، وـأـنـ يـكـيلـ  
لـهـمـاـ سـيـلـاـ مـنـ الشـتـائـمـ، وـأـنـ يـمـدـ لـهـمـاـ لـسانـهـ، وـأـنـ يـضـحـكـ، أـنـ يـضـحـكـ،  
أـنـ يـضـحـكـ!

قال زاميـوتـوفـ :

- إـمـاـ أـنـكـ مـجـنـونـ، وـإـمـاـ أـنـكـ . . .

ولـكـنـهـ أـمـسـكـ عـنـ إـتـامـ كـلـامـهـ، كـأـنـ فـكـرـةـ قـدـ وـمـضـتـ فـيـ فـكـرـهـ عـلـىـ  
حـيـنـ بـغـتـةـ.

- إـمـاـ مـاـذـاـ . . . إـمـاـ مـاـذـاـ؟ مـاـذـاـ؟ هـيـاـ، قـلـ !

قال زاميـوتـوفـ غـاضـبـاـ :

- لـاـ شـيـءـ. كـلـ هـذـاـ سـخـفـ !

وـصـمـتـ الـاثـنـانـ. إـنـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ، بـعـدـ انـفـجـارـهـ المـفـاجـئـ،  
وـضـحـكـتـهـ الـعـصـبـيـةـ، قـدـ أـصـبـحـ حـزـينـاـ حـالـمـاـ عـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ. وـهـاـ هوـ ذـاـ  
يـضـعـ كـوـعـيـهـ عـلـىـ الـمـائـدـةـ، وـيـسـنـدـ رـأـسـهـ بـيـدـهـ. لـقـدـ بـداـ عـلـيـهـ أـنـ نـسـيـ  
زـامـيـوتـوفـ نـسـيـانـاـ تـامـاـ. وـدـامـ الصـمـتـ بـرـهـةـ طـوـيـلـةـ.

قال زاميـوتـوفـ :

- لماذا لا تشرب الشاي؟ سوف يبرد....

- لماذا؟ الشاي؟ نعم....

وقرب راسكولنيكوف الشاي إلى شفتيه، وازدرد لقمة من خبز، حتى إذا نظر إلى زاميوتوف بدا عليه أنه تذكر كل شيء فجأة، وأنه يطرد عنه خموده وخوره. وعلى الفور استرد وجهه ما كان يعبر عنه منذ قليل من سخرية. واستمر يشرب الشاي.

قال زاميوتوف:

- أمثال هذه السرقات تتكاثر في هذه الأيام. إليك هذا المثال: لقد قرأت في الآونة الأخيرة في «أخبار موسكو» أنه قُبض على عصابة كاملة من مزيفي النقد. إنهم شركة حقيقة تقوم بتزييف الأوراق المالية.

فأجابه راسكولنيكوف هادئاً:

- قرأت هذا منذ شهر. هذه قصة قديمة.

ثم أضاف مبتسمًا:

- في رأيك إذاً إنهم لصوص محتالون!

- لصوص محتالون طبعاً!

- لصوص محتالون؟ أما أنا فأرى أنهم أطفال، أرى أنهم أغرار سُلْج، لا لصوص محتالون. فهو أمر طبيعي أن يجتمع نحو خمسين شخصاً لغاية بهذه الغاية؟ لو كانوا ثلاثة لكان هذا وحده كبيراً. وحتى في هذه الحالة لا بد أن يكون كل واحد واثقاً بالاثنين الآخرين أكثر من ثقته بنفسه. إذ يكفي أن يزلّ لسان أحد منهم أثناء سكر، فيشرث قليلاً، حتى يفسد الأمر كله. نعم، سُلْج أغرار! ولو لا أنهم سُلْج أغرار لما عهدوا إلى أناس لا يستحقون الثقة بأن يذهبوا إلى البنوك ييدلون أوراقهم المالية. هل يُعهد بمهمة بهذه المهمة إلى أي إنسان؟ ولنفرض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا فأصبح كل واحد منهم يملك مليوناً. فماذا بعد

ذلك؟ هل يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد؟ إن كل واحد سيظل رهناً بالآخرين مدى الحياة! ألا إن الانتحار شنقاً خير من هذا! ثم إن هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم المالية: إن الشخص الذي تقدم إلى شبكة الصرف في البنك قد ارتعشت يداه ارتعاشاً قوياً حين قبض الخمسة آلاف روبل؛ ثم لم يعد إلا أربعة آلاف منها، أما ألف الخامسة فقد أخذها على الثقة دون أن يعدها، فأراد أن يدنسها في جيبه وأن يولّي هارباً بأقصى سرعة. لذلك أيقظ الريب والشبهة. ففسد الأمر كله بسبب ذلك الأبله. وهذا ممكן حقاً؟

- أن تكون يداه قد ارتعشتا؟ طبعاً... هذا أمر يتصور. أنا أرى أن ذلك طبيعي جداً. هناك حالات يفقد فيها المرء سيطرته على نفسه، إذ يكون الأمر فوق طاقته!

- أمعقول أن هذا الأمر فوق طاقة المرء؟

- أكان يمكنك أنت أن تحافظ على سيطرتك على نفسك في حالة كتلك الحالة؟ أنا على كل حال ما كان يمكنك أن تسيطر على نفسك! كيف يرضى إنسان أن يتعرض لمثل هذه المخاطرة الرهيبة في سبيل مائة روبل مكافأة؟ كيف يمضي يبذل أوراقاً مالية مزيفة؟ وأين؟ في بنك، حيث الموظفون خبراء يعرفون كيف يكتشفون أي تزوير! لا، لا، لو وقفت أنا ذلك الموقف لفقدت صوابي! وأنت؟ ألا تفقد صوابك في حالة كتلك الحالة؟

شعر راسكولنيكوف فجأة، مرة أخرى، برغبة رهيبة في أن «يمدّ لسانه» استهزاءاً! وكانت تسري في ظهره رعدات أحياناً.

ومضى يقول:

- أنا لو كنت في مكان ذلك الرجل لتصرافت غير ذلك التصرف. إليك كيف كان يمكن أن أفعل: لو كان عليّ أن أبدل تلك الأوراق المالية، لرحلت أعدُّ الألف الأولى مرة تلو المرة، ثلاث مرات أو

أربعاً، وأنا أقلب كل ورقة على جميع الوجوه وأنظر إليها من جميع الجهات؛ فإذا تناولت الألف الثانية أخذت أعدها حتى أصل إلى النصف، ثم سحبت من الحزمة ورقة بخمسين روبيلاً فأخذت أفحصها في الضوء الساطع ثم أقلبها ثم أفحصها من جديد كأنني أخشى أن تكون مزيفة، قائلًا للرجل: «إنني شكاك قليلاً. إن لي قريبة قبضت ورقة مزيفة فأضاعت بذلك خمسة وعشرين روبيلاً»، ثم أروح أقصى حكاية طويلة؛ فإذا وصلت إلى الألف الثالثة قلت له: «انتظر! أظن أنني أخطأت في عدد المائة السابعة، في الألف الثانية»، ثم تركت الألف الثالثة ورجعت إلى الثانية، وهكذا دواليك... فإذا فرغت من العد، عدت أسحب ورقة كييفما اتفق، من الألف الثانية مثلاً، أو من الألف الخامسة، ورحت أفحصها من جديد، بالنظر إليها استشفافاً، فإذا بشكوك تراودني، فأقول: «هل تستطيع، من فضلك، أن تعطيني ورقة غيرها بدلاً منها؟»، وهكذا دواليك إلى أن ينضج الرجل دمأً وماء، وإلى أن يضيق بي ذرعاً فلا يدرى كيف يتخلص مني، ثم انصرف أخيراً... لا... عفواً... لا انصرف هكذا ببساطة، بل أعود إليه فأستوضنه أمراً من الأمور، وأسئلته عن شيء من الأشياء. نعم، كذلك كان يمكن أن أتصرف.

قال زاميتوف وهو يضحك:

- حقاً أنك لفظيع! على أن هذا كله كلام. أما في الواقع، فلا شك أنك كنت ستفضح نفسك. هل تريد أن أقول لك رأيي؟ اسمع إذا: في رأيي أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على نفسه. وليس يصدق هذا عليك وعلى فحسب، بل يصدق أيضاً على أكبر لص وأعظم وغد. إليك هذا المثال القريب: لقد قُتلت في حيننا امرأة عجوز. يخيل إليَّ أن الذي قتلها سفاح رهيب لم يحجم عن ارتكاب جريمته في وضع النهار، ثم تمكَّن أن ينجو بأعجوبة. ومع ذلك ارتجفت يدا ذلك القاتل: أنه لم يحسن السرقة، إنه لم يصمد. الواقع تبرهن على ذلك.

بدا الاستياء في وجه راسكولنيكوف.

- الواقع تبرهن على ذلك؟ حاولوا إذاً أن تقبضوا عليه لاحقه  
وطاردوه!

بهذا هتف راسكولنيكوف بلهجة تحدي فيها شيء من فرح خبيث.  
قال زاميتوف:

- ستقبض عليه حتماً!

- من؟ أنتم؟ ستقبضون عليه أنتم؟ مستحيل! أليس الأمر الرئيسي في  
نظركم هو أن تعرفوا هل الشخص الذي تشبهون فيه ينفق مالاً أم هو لا  
ينفق مالاً؟ أنتم تقولون لأنفسكم: إن فلاناً لم يكن يملك في السابق  
مالاً، وهذا هو ذا ينفق الآن كثيراً على حين فجأة، فكيف لا يكون هو  
الجاني؟ ألا إن طفلاً صغيراً ليستطيع إذن أن يضللكم متى أراد!

أجاب زاميتوف:

- هذا لا ينفي أنهم جميعاً يسلكون هذا السلوك. إن الجاني يرتكب  
جريمه بكثير من البراعة والحنق، ويعرض حياته للخطر، ثم يتبع  
للهذين يتبعقوه أن يقبضوا عليه في حانة. إنه أثناء إنفاقه المال أنما يُقبض  
عليه... ليس جميع الجناء ماكرين مثلث. أنت، مثلاً، لا يمكن أن  
تذهب إلى حانة، إذا كنت قد...

قطّب راسكولنيكوف حاجبيه وحدق إلى زاميتوف بنظرة ثابتة. ثم  
قال متوجهاً:

- يبدو أن لعابك يسيل شوقاً إلى معرفة ما كان يمكن أن أفعله في  
مثل هذه الحالة.

فأجابه زاميتوف برصانة ورزانة:

- نعم، أتمنى أن أعرف ذلك.

وكان في صوت زاميتوف وفي نظرته جدًّا مفرط.

سؤال راسكولنيكوف :

- هل تمني ذلك كثيراً؟
- كثيراً.

فيبدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحب وهو يقرب وجهه من وجهه مرة أخرى، ويحدّق إليه بنظره ثابتة من جديد، قال بصوت هامس، حتى إن صاحبه أحس هذه المرة ببرودة تسري في جسمه:

- اسمع إذا! إليك ما كان يمكن أن أفعله! لو كنت أنا القاتل لأخذت المال والأشياء فخرجت من البيت ومضيت فوراً دون أن أضيع دقيقة واحدة، ودون أن أدور في الشوارع دورة واحدة، إلى مكان منعزل متزوج هو حديقة محاطة بسياج مثلاً، أو هو شيء من هذا القبيل. وأكون قد حددت سلفاً، في تلك الحديقة أو في ذلك الفناء، أكون قد حددت صخرة كبيرة وزنها ثلاثون رطلاً أو أكثر، صخرة لعلها موجودة في ذلك المكان منذ بناء المنزل، فهأنذا الآن أزحزح تلك الصخرة التي لا بد أن تكون الأرض تحتها مقعرة طبعاً، وهأنذا أدفن المال والأشياء في هذا القعر؛ حتى إذا انتهيت من دفنهما، ورددت الصخرة إلى مكانها، وسوت التراب حولها، انصرفت لا ألوى على شيء، ثم لبست بعد ذلك سنة أو سنتين أو ثلاثة سنين أمتّع عن زيارة المكان وأخذ الغنيمة. هلم فابحث إذن! ما رأيت ولا عرفت!

قال زاميوتوف الذي أخذ يدمدم دمداً، دون أن يعرف لماذا، قال وهو ينحني بفتحة نحو راسكولنيكوف:

- أنت مجنون!

سطعت عينا راسكولنيكوف، واصفر وجهه اصفراراً رهيباً، وارتجمفت شفته العليا، وما لحت اقترب من زاميوتوف أكبر اقتراب ممكن، وحرّك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة، وانقضى على هذه

الحال نصف دقيقة. كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ولا أن يتحكم بسلوكه. إن كلمة رهيبة كانت تهمُّ أن تنجس من فمه، كما كان المزلاج، في ذلك اليوم، بهمُّ أن يخرج من الرزة. كانت الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى؛ كان راسكولنيكوف يوشك أن يطلقها، وأن ينطقوها.

قال فجأة:

- ماذا لو كنت أنا قاتل العجوز واليزيافيتا؟  
لكته ثاب إلى رشده، وكبح جماح نفسه.  
نظر إليه زاميوتوف مرتاعاً، وانكفاً لونه حتى صار كغطاء المائدة  
بياضاً، وتجعدت شفاته بابتسمة، وسأله بصوت لا يكاد يسمع:

- ولكن أهذا ممكن؟

فالقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة، وقال له:

- اعترف بأنك صدقت، أليس كذلك؟ اعترف!

أسرع زاميوتوف يقول:

- لا لم أصدق قط... وأنا أستبعد الآن ذلك أكثر مما استبعده في أي وقت مضى!

- وقعت في الفخ! إذاً لقد صدقت في يوم من الأيام، ما دمت تقول إنك تستبعده الآن أكثر مما استبعده في أي وقت مضى!

صاحب زاميوتوف يقول مرتبكاً ارتباكاً واضحاً:

- لا... أبداً!.. أمن أجل أن تصلك إلى هذه النتيجة أخفتني!

- أنت لا تصدق إذن؟ فعمَّ تكلمت، في ذلك اليوم، حين خرجمت أنا من القسم؟ ولماذا أخذ الضابط «بارود» يستجوبني بعد صحوي من الإغماء؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم صرخ ينادي خادم الحانة وهو ينهض  
ويتناول قبته:

- هيءاً! أنت! الحساب!

هرع الخادم إليه قائلاً:

- ثلاثة. كوبيكاً.

- خذ، وهذه عشرون أخرى بقشيشاً!

ثم قال لزاميتوف وهو يمد إليه يدأ مرتعة ملأى بأوراق مالية:

-رأيت. أوراق حمراء، وأوراق زرقاء!<sup>(55)</sup> المجموع: خمسة وعشرون روبلًا! فمن أين جاءتني هذه الأوراق؟ ومن أين جاءتني ثيابي الجديدة؟ أنت تعلم أنني لم أكن أملك كوبيكاً واحداً. أراهن على أنك استجوبت صاحبة البيت الذي أقيم فيه! ولكن كفى الآن! إلى اللقاء. لك خالص تمنياتي!

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من إحساس غريب، إحساس هستيري، تخالطه مع ذلك لذة عظيمة. ولكنه ظل في الواقع متوجه النفس خائز القوة. كان وجهه متقلصاً، كأنه خارج من نوبة. وازداد إعياؤه بسرعة. إنه الآن، عند كل إحساس جديد، وعند كل صدمة جديدة، تستيقظ فيه قواه وتعود إليه، ولكن قواه هذه ما تلبث أن تخور بسرعة أيضاً، مع زوال الصدمة وإمحاء الإحساس.

وحين أصبح زاميتوف وحيداً، لبث جالساً إلى تلك المائدة نفسها مدة طويلة، غارقاً في تأمله. إن راسكولنيكوف قد قلب له جميع أفكاره فيما يتعلق بنقطة معينة رأساً على عقب، دون أن يعرف ذلك، وجعل رأيه يستقر استقراراً لا عودة عنه، ويثبت ثباتاً لا يتزعزع. قال لنفسه جازماً: «إن إيليا بتروفتش غبي!»

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضي إلى الشارع، حتى كان رازوميixin على درجات المدخل بهمُّ أن يدخل. ولكنهما لم ير أحد منهما الآخر، رغم أن المسافة بينهما خطوة واحدة، حتى لقد أوشك رأساهما أن يتصادما. ولبسا لحظة يشتمل كل منهما صاحبه

بنظره. لقد دُهل رازوميixin ذهولاً ليس بعده ذهول. غير أن غضباً مفاجأة شديدةً لم يلبث أن سطع في عينيه بيريق رهيب.

رأر يقول بصوت عالٍ:

- آه... أنت هنا؟ قام عن سريره، هرب من بيته! أتعرف أني بحثت عنك حتى تحت السرير؟ بل لقد صعدنا إلى العلية نبحث عنك! وأوشكت بسببك أن أضرب ناستاسيا! انظروا أين هو! روديا، ما معنى هذا؟ قل لي الحقيقة كلها! إعترف! هل تسمع؟

أجابه راسكولنيكوف بهدوء:

- معناه أني سئمتكم جمِيعاً إلى حد الموت، وأنني أريد أن أكون وحيداً.

- وحيداً؟ بينما أنت عاجز حتى عن المشي، بينما وجهك أصفر كوجه الأموات، بينما أنت تختنق طول الوقت؟ ألا إنك لأبله! ماذا جئت تعمل في «قصر الكريستال»؟ اعترف، اعترف فوراً!

- اتركتني.

كذلك قال راسكولنيكوف؛ وأراد أن يمشي متخطياً رازوميixin فغضب رازوميixin غضباً شديداً، وخرج عن طوره، فأمسك صاحبه من كتفه إمساكاً قوياً، وصاح يقول له:

- أتركتك؟ أتجروأ أن تقول: «اتركني»! إسمع إذا: هل تعرف ما أنا فاعل بك؟ سوف أقبح عليك بذراعي، فأربطك بحبلى كما ثُرِبَتْ صرّة، ثم أنقلك إلى البيت فأحبسك فيه مقللاً عليك الباب بالمفتاح! بدأ راسكولنيكوف يتكلم في رفق، فقال بلهجـة تبدو هادئة كل الهدوء:

- اسمع يا رازوميixin! ألسـت ترى إذاً أني لا أريد نعمك وأياديـك على؟ ما حاجتـكم دائماً إلى أن تغمرـوا بالنـعم أولـئـك الذي لا يـعبـؤـونـ بهاـ، أولـئـكـ الذينـ لا يـسـتطـيعـونـ حقـاًـ أنـ يـحـتـملـوهـاـ؟ـ لـمـاـ سـعـيـتـ إـلـيـ فيـ بـدـاـيـةـ مـرـضـيـ؟ـ لـعـلـهـ كـانـ يـسـعـدـنـيـ جـداـ أـنـ مـوـتـ.ـ أـفـلـمـ أـفـهـمـكـ الـيـوـمـ إـفـهـاماـ

كافياً أنك تعذبني، وأنك... تزعجني وتضايقني؟ ما حاجتكم هذه دائمًا إلى تعذيب الناس؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائي، لأنه يجعلني في حالة اهتياج متصل. انظر إلى زوسيموف: لقد انصرف حتى لا يهيجني. فاتركني بسلام أنت أيضًا، ناشدتك الله! ثم أي حق لك في أن تحتجزني بالقوة؟ ألا ترى أنني أملك عقلي كاملاً وأنا أكلمك في هذه اللحظة؟ قل لي: بأية وسيلة أستطيع أن أمنعك من التشتبث بي بعد الآن، وأن أحملك على ألا تغدق عليَّ بنعمك وآلاتك هذه؟ افرض أنني سافل؛ ولكن دعوني، دعوني جميعاً، ناشدتك الله، دعوني، دعوني! كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بلهجة هادئة، متلذذاً منذ ذلك الحين بالسم الذي سينفعه، ولكنه أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن طوره محتبس الأنفاس مختنق الصدر، كما حدث مع لوجين.

فكَّر رازوميixin لحظةً ثم ترك ذراع صاحبه، وقال له بهدوء، شارد الفكر تقريرًا:

- اذهب إلى الشيطان! ...

فلما همَّ راسكولنيكوف أن ينصرف، زأر يقول له فجأة:

- انتظراً! أصغ إليَّ! إنني أعلن لك أنكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم، لستم إلا ثرثرين صغاراً، ومتبعجيين تافهين! إنكم ما إن يصبكم شر يسير حتى تحضنوه كما تحضنن الدجاجة بيضها. وحتى في هذا إنما أنتم تسرقون من الكتاب الأجانب! ليس فيكم ذرة من حياة، ليس فيكم ذرة من حياة شخصية أصيلة! ليس ما يجري في عروقكم دماء بل مصالة. ما من أحد منكم يوحى إليَّ بالثقة. هُمُّكم الأول في جميع الظروف هو أن لا تسلكوا سلوك رجال... .

وهنا رأى أن راسكولنيكوف يهمُّ أن ينصرف مرة أخرى، فصرخ يقول وقد تضاعف غضبه وحقه:

- ق... ف! أصغ إليَّ حتى النهاية! أنت تعلم أنني أحتفل الليلة

باتتقالى إلى المسكن الجديد. وربما كان ضيوفى قد وصلوا... على أننى تركت هنالك عمى لاستقبالهم (كذلك أسرع يضيف...) فإذا لم تكن أبله، إذا لم تكن أبله كل البلاهة، إذا لم تكن أبله متكبراً، إذا لم تكن ترجمة عن أصل أجنبى... اسمع يا روديا، أنا أعلم أنك فتى ذكي، ولكن هذا لا ينفي أنك أبله... فإذا لم تكن أبله، فإن مجيك إلى لقضاء السهرة عندي خير لك من أن تُبلي نعلى حذاءيك متسكعاً في غير طائل، ما دمت قد خرجمت... وسأريك بمقدار مريحة رخص... إن عند أصحاب البيت الذي أقيم فيه مقعداً من هذا النوع... وتشرب فنجاناً من الشاي، وتجالس الناس... بل هناك ما هو خير من هذا: سأرقدك على مضجع، ولكنك تكون بيننا على الأقل... وسيجيء زوسيموف أيضاً... سوف تأتي، هه؟

- لا.

هف رازوميخين يقول نافذ الصبر:

- لا تقل هذا. أنت لا تعرف نفسك. ثم إنك لا تفهم من شؤون الحياة شيئاً. لقد حدث لي ألف مرة أن بصقت على الناس، ثم هرولت أسعى وراءهم. سوف تخجل من هذه العواطف، وسوف ترجع إلى البشر. تذكر عناني إذن: عمارة بوتشنكوف، الطابق الثاني.

- يخيل إليّ يا سيد رازوميخين أنك مستعد لأن تُضرّب في سبيل أن يكون لك على أحد فضل ومنة.

- أنا؟ لا، بل إنني مستعد لأن أجدع أنف من تووسوس له نفسه بذلك! تذكر إذن عمارة بوتشنكوف، رقم 47، مسكن الموظف بابوشكين.

- لن أجيء يا رازوميخين.

قال راسكولنيكوف ذلك ثم استدار وانصرف.

صرخ رازوميخين يقول وراءه:

زاميتوف في الحانة؟

- نعم.

- رأيته؟

- رأيته.

- وكلمته؟

- كلمته.

- عمّ كلمته؟ هيّا، لا تقل إذا كنت لا تريد أن تقول. شيطان يأخذك! العنوان: عمارة بوتشنوف، رقم 47، شقة بابوشكين. تذكر العنوان! مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب. وقد تابعه رازوميخين بنظره شارد الفكر حالماً، ثم أشاح بيده تعبيراً عن عدم الاكتتراث، ودخل، لكنه لم يلبث أن توقف على وسط السّلّم، وقال يحدث نفسه بصوت عالٍ: «شيطان يأخذه! إنه يتكلم كما يتكلم إنسان سليم العقل، ومع ذلك يشبه أن يكون... ولكن ما أغباني! ألا يتكلم المجانين كلاماً معقولاً جداً؟ ثم إن ذلك بعينه هو ما يخشاه زوسيموف فيما يخيّل إلى... - وهنا لطم رازوميخين جبينه بيده متسائلاً: - ما عسى يحدث لو... . كيف أتركه وحيداً في هذه اللحظة؟ إن من الجائز جداً أن يلقى نفسه في الماء. آه... . لقد ارتكبت حماقة كبيرة! ما كان ينبغي أن أتركه ينصرف!». وأسرع رازوميخين يلاحق راسكولنيكوف، ولكن لم يكن قد بقي لراسكولنيكوف أثر. بصدق رازوميخين على الأرض، وقف راجعاً إلى «قصر الكريستال» بخطى واسعة ليسأل عن زاميتوف بأقصى سرعة.

مضى راسكولنيكوف قُدماً إلى جسر «ص...»<sup>(56)</sup>، فتوقف في وسط الجسر، ووضع كوعيه على إفريزه، وأخذ ينظر إلى بعيد. إنه بعد أن ودع رازوميخين قد بلغ من الضعف والإعياء والوهن أنه لم يجرأ

ساقيه إلى هذا الموضع إلا في كثير من المشقة والعناء: تمنى لو يجلس في أي مكان، تمنى لو يرقد في عرض الشارع! مال راسكولنيكوف على الماء، وأخذ ينظر، على غير شعور ولا إرادة، إلى أواخر الانعكاسات الوردية لأشعة الشمس الغاربة، وإلى صف المنازل التي يغشاها الغسق رويداً رويداً. هذه غرفة بعيدة من الغرف التي تقع تحت السقوف على الكورنيش إلى اليسار منه تلتمع نافذتها وتتوهج كأن حريقاً يشتعل هناك، تحت شعاع الشمس الساقط عليها. وهذا ماء القناة يظلم مزيداً من الإللام شيئاً بعد شيء. كان راسكولنيكوف يبدو كأنه ينظر إلى الماء بانتباه. ثم إذا بدواير حمراء تأخذ تدور أمام عينيه، وإذا بكل شيء بعد ذلك، إذا بالمنازل والمارة والأرصفة والعربات تأخذ تدور من حوله وتترافق. وها هو ذا يرى مشهدأً رهيباً فظيعاً فإذا هو يرتجف فينجو من الإغماء. كان قد أحссَ أن أحداً وقف بقربه إلى يمينه، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول، على رأسها خمار، ذات وجه شاحب مستطيل هزيل، عيناهما حمراوان غائرتان في حجاجيهما. كانت المرأة تنظر إليه في عناد، ولكن كان واضحاً أنها لا تبصر شيئاً ولا تميز أحداً. وها هي ذي تضع ساعدتها الأيمن قائماً على الإفريز، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة فوقه وتُتبعها بالقدم اليسرى فتلقي بنفسها في الماء. انشق الماء الموحل من صدمة سقوطها ثم ابتلع فريسته، ولكن المرأة الغريق لم تلبث أن طفت على السطح بعد دقيقة واحدة، ثم جرت مع التيار ببطء غاطسة الرأس والقدمين، طافية الظهر، وقد انتفخت تنورتها فكأنها لحاف.

صرخت عشرات من الأصوات:

- إنها تغرق! إنها تغرق!

فهرع الناس، حتى امتلاً بهم الرصيفان، واحتشد الجمهور على الجسر حول راسكولنيكوف يصدمه ويعصره عصراً من الخلف.

وهفت امرأة تقول، من مكان غير بعيد، بصوت نادب شايك:

- رياه! هذه صاحبتنا أفروسينوشكا. أنقذوها أيها الأخيار الطيبون!  
أنقذوها!

وأخذ بعض المحتشدين يصرخون:

- علينا بقارب، علينا بقارب!

ولكن لم يبق ثمة داع إلى قارب: فإن شرطياً من شرطة المدينة أسرع بهبط سلماً يفضي إلى القناة، ثم خلع معطفه وحذاءيه، وألقى بنفسه في الماء، ولم يلق عناء كبيراً باللحاق بالمرأة الغريق، فإن تيار الماء قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة، فقبض على ثوبها بيده اليمنى، وأمسك باليد اليسرى عصا مدها إليه زميل له، حتى أخرجت المرأة من الماء، وأضجعت على الدرجات الصخرية. ولم تلبث أن ثاب إليها وعيها، فنهضت، وجلست وأخذت تعطس وتشخر وتمسح بيديها ثيابها المبتلة بحركة لا إرادية. ولم تنطق بكلمة واحدة.

صرخت تلك المرأة، قرب أفروسينوشكا، قائلة:

- لقد ركبها ألف عفريت أيها الأخوة والشرب هو السبب. حاولت منذ مدة أن تشنق نفسها، فأخرجنا عنقها من الحبل. ومضيت اليوم إلى البقال بعد أن أوصيت الصغيرة بمراقبتها، فإذا بالمصيبة تقع... هي جارتنا يا أخي، جارتنا. نحن نسكن في مكان قريب، في العمارة الثانية، هناك، آخر الشارع...

تفرق الحشد، وظل الشرطيان منهمكين حول المرأة الغريق. وهذا صوت يصرخ متكلماً عن شيء يتصل بقسم شرطة... كان راسكولنيكوف ينظر إلى هذا كله وهو يحس بإحساساً غريباً بعدم الاهتمام وقلة الاكتتراث. وها هو ذا يشعر بنفور وتفزز، ثم يقول مجمجماً بينه وبين نفسه: «لا، لا، هذا شيء يدعوا إلى الاشمئاز... الماء... لا فائدة منه... لن يحدث شيء... ما فائدة الانتظار إذن؟ أما

قسم الشرطة... ولكن لماذا غاب زاميتوف عن القسم؟ إن مكاتب قسم الشرطة تظل مفتوحة بعد الساعة التاسعة». وأدار راسكولنيكوف ظهره للإفريز، ونظر حواليه.

ثم قال بلهجة جازمة: «لِمْ لَا؟ ليكن!». وغادر الجسر وسار متوجهًا إلى قسم الشرطة. كان قلبه يخفق مغلقاً. كان لا يريد أن يفكر. حتى القلق تبدد. لم يبق في نفسه أثرٌ من انتفاضة القوة تلك التي أخرجته من غرفته «ليتهي من الأمر». وحلَّ محلَّ تلك القوة خمولٌ وخمودٌ وتبلد.

قال لنفسه وهو يسير على رصيف القناة بمملل وكسل وتوازن: «نعم، هذا أيضًا حل. سأتهي من الأمر مع ذلك، لأنني أريد أن أنتهي منه. ولكن هل هذا هو الحل حقاً؟ آه... لا ضير... سيبقى لي موطنٌ قدم من الأرض أقف عليه. ولكن يا لها من نهاية! هل يمكن أن يكون هذا نهاية؟ أقول لهم الأمر أم لا أقوله؟ ولكن دعنا من هذا! إنني متعب مكدود مرهق. يجب أن أضطجع حالاً، يجب أن أقعد في مكان ما. أعيّب ما في الأمر أن هذا كله غباء! هيئا، ابصق على هذا أيضاً! آه... ما أكثر الحماقات التي يمكن أن تساور فكرنا أحياناً...»

كان على راسكولنيكوف، من أجل الوصول إلى قسم الشرطة، أن يمضي في أول الأمر قُدُّماً، ثم إن يلتفت يسراً عند الشارع الثاني. ولكنه توقف قبل أن يصل إلى العطفة الأولى، وفكَّر، ودخل في زفاف ضيق، ثم قام بدورة سائراً في شارعين، ربما بدون نية محددة تماماً، ولكن ربما ليهب لنفسه مهلة جديدة أيضاً، ليكتب فسحةً من وقت. كان يسير مطرقاً إلى الأرض. وفجأة أحسَّ كأن أحداً يهمس في إذنه، فرفع رأسه، فوجد نفسه أمام تلك العمارة، أمام مدخلها تماماً. إنه منذ ذلك المساء لم يكن قد عاد إلى المكان.

وهذه رغبة لا سبيل إلى مقاومتها ولا يمكن تفسيرها، تسيطر عليه وتستبد به. دخل العمارة، ونفذ إلى الباب الأول، الباب الأيمن، وأخذ

يصعد السلم الذي يعرفه جيداً، حتى وصل إلى الطابق الثالث. كان ظلام حالك يلف السلم الضيق شديد الانحدار. وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلم عند كل طابق، فكان ينظر حواليه مستطلاً. هذا زجاج النافذة في الطابق الأرضي قد خلع. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنه لم يكن هكذا في ذلك اليوم». ثم وصل إلى الشقة التي تقع في الطابق الثاني حيث كان يعمل نيكولاي وديمترى. «البيت مغلق، وقد أعيد دهن الباب. معنى ذلك أن البيت معد للإيجار». ثم هذا هو الطابق الثالث. «هنا». توقف راسكولنيكوف مسمراً: كان باب البيت مفتوحاً تماماً، وكان في البيت ناس، إن كلامهم مسموع. لم يكن راسكولنيكوف يتوقع هذا. وبعد تردد قصير، صعد الدرجات الأخيرة، ودخل البيت.

إنه يُجدد أيضاً. إن فيه عملاً. بدا راسكولنيكوف كالمزهول. لقد كان يتصور، دون أن يدرى لماذا، أنه سيجد البيت كما تركه تماماً؛ حتى الجشتين كان يتصور أنه سيفجدهما راقدتين على أرض الغرفة في ذلك الموضع نفسه. فماذا يرى الآن: جدراناً عارية، وما من أثاث! ما أغرب هذا! تقدم نحو النافذة وجلس على حافتها.

لم يكن هنالك إلا عاملان اثنان. أحهما شابان ولكن أحدهما أكبر سنًا من الثاني بكثير. كان يغطيان الجدران بورق أبيض ذي أزهار صغيرة بنفسجية، بدلاً من الورق القديم الأصفر الحائل الممزق. شعر راسكولنيكوف من ذلك بأسف شديد. وأخذ ينظر إلى الورق الجديد مغناظاً، كأنه يتحسر على أن تغيراً قد حدث.

يبدو أن العاملين قد أطلا يوم عملهم. وهم الآن يرتبان لفافات الورق، ويستعدان للعودة إلى المنزل. لم يلتفت ظهور راسكولنيكوف انتباهم. كان يجري بينهما حديث نشيط. طوى راسكولنيكوف ذراعيه على صدره وراح يصغي إلى حديثهما.

قال الأكبر للأصغر :

- جاءتنى منذ الفجر، لابسة أجمل الثياب. قلت لها: «مالك تغنجين هذا الغنج»، فقالت لي: «أريد بعد الآن يا تيت فاسيلتش أن أكون لك جسماً وروحاً!». أسمعت؟ وليتك رأيت الثياب التي كانت تلبسها. لكانها صورة من صور مجلة، صورة حقيقة من صور مجلة.

سؤال الأصغر :

- وما هي هذه المجلة يا عمي؟  
كان واضحأً أن الأصغر يتلمذ على الأكبر.

- المجلة يا أخي واحدة من تلك الصور الملونة، صورة الموضة، التي تصل إلى الخياطين المحليين بالبريد من الخارج كل سبت. والغاية منها أن تُرى الناس كيف يجب أن يلبسوا، رجالاً ونساء. هي رسم. فأما الرجال فثيابهم هي المعاطف أساساً، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء... هناك حدث ولا حرج... . مهما تقل عنها فلن توفيها حقها!

هف الأصغر يقول متھمساً :

- ما أكثر ما يراه المرء في «بيوتر»<sup>(57)</sup> هذه! إن المرء يرى فيها كل شيء حقاً، عدا أمه وأبيه!

قال الأكبر في رصانة :

- نعم، يرى كل شيء عدا أمه وأبيه!

نهض راسكولنيكوف ومضى إلى الغرفة الثانية التي كانت في الماضي تضم الصندوق والسرير والخزانة ذات الأدراج. فلما رأها خاليةً من الأثاث بدت له صغيرة صغيراً رهيباً. لم يُبدل ورق جدرانها. وفي الركن، يُرى على ورق الجدران بوضوح ذلك المكان الذي كانت فيه الأيقونات. نظر راسكولنيكوف حواليه، ثم عاد إلى النافذة يجلس على حافتها. نظر إليه العامل الكبير نظرة شزراء وسأله بخشونة:

- ماذا تفعل هنا؟

ولكن راسكولنيكوف لم يجده، بل نهض وخرج إلى فسحة السلم، فأمسك بحبل الجرس وشدّه. هو ذلك الجرس نفسه، وهو ذلك الرنين نفسه. شدّ الجرس مرةً ثانيةً فمرةً ثالثة. فكان يصغي ويتذكر. عاوده الإحساس الذي شعر به في ذلك اليوم، ذلك الإحساس الرهيب الكاوي، عاوده بحدة ما تنفك تقوى شيئاً بعد شيء. فكان يرتعش كلما رنّ الجرس مرةً جديدة، وكانت لذته تزداد.

صرخ العامل يقول وهو يخرج إلى فسحة السلم:

- ماذا تريدين؟ منْ أنت؟

فعاد راسكولنيكوف إلى الغرفة. وقال:

- أنا أبحث عن شقة أستأجرها، وقد جئت أرى هذا البيت!

قال العامل:

- ما من أحد يزور مسكنًا في الليل. ثم إن عليك أن تصطحب  
البواكب...

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال:

- أرى أن الأرض قد غسلت. هل سيعاد دهنها؟ لم يبق دم، هه؟  
- دم؟

- لقد قتلت العجوز وأختها. كان ههنا بركة دم...

صاح العامل يقول قلقاً:

- ولكن منْ أنت؟

- أنا؟

- نعم أنت.

- تريدين أن تعرف؟ تعال معي إذن إلى قسم الشرطة. هناك سأقول لك  
من أنا.

نظر العاملان إلى راسكولنيكوف مبهوتين. وقال الأكبر للأصغر:

- هلم... لقد آن لنا أن نصرف، حتى لقد تأخرنا. هيأ يا أليوشا!  
يجب أن نغلق... .

قال راسكولنيكوف بلهجة هادئة:

- هلموا نصرف!

وخرج أول الخارجين، وهبط السلم ببطء. حتى إذا وصل إلى الباب المطل على الشارع، صرخ ينادي البواب:

- هيء! يا بواب!

وكان يقف عند باب العمارة عدة أشخاص ينظرون إلى المارة وامرأة وتاجر يرتدي ثوبًا من ثياب المنزل، وأناس آخرون. مضى راسكولنيكوف إليهم قدمًا.

سأل أحد البوابين:

- ماذا تريدين؟

- هل ذهبت إلى قسم الشرطة؟

- عدت منه منذ برهة. ماذا تريدين؟

- أما يزالون هناك؟

- ما يزالون هناك.

- وهل كان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضًا؟

- وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضًا. ماذا تريدين؟

لم يجب راسكولنيكوف وتسمّر بين الواقفين حالماً.

اقرب العامل الكبير وقال:

- جاء يرى الشقة.

- أي شقة؟

- الشقة التي نعمل فيها. سألهما: «المال الذي أعمل به؟». ثم قال: «ارتكبت هنا جريمة قتل، وأنا أريد أن أستأجر البيت». وقد أخذ يشد حبل الجرس، حتى كاد ينزعه. ثم قال: «هلموا بنا إلى قسم الشرطة، فسأقول لكم هناك كل شيء».

نظر الباب إلى راسكولنيكوف متحيرًا مرتاتبًا.

ثم صرخ يسأل مهدداً:

- ولكن من أنت؟

- روبيون رومانوفتش راسكولنيكوف، طالب سابق. وأسكن قريباً من هنا، في زقاق مجاور، عمارة شيل، شقة 14؛ أسأل عني بباب العمارة. إنه يعرفني.

قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة هادئة، شارد الفكر، حتى دون أن يلتفت، فقد كان يحدق إلى الشارع الذي اجتاحه الظلام.

- ولماذا جئت إلى هذه الشقة؟

- لأراها.

- ماذا ت يريد أن ترى هناك؟

- لا شيء.

- ما رأيك في أن نقتادك إلى قسم الشرطة، هه؟  
فذلك قال التاجر فجأة، ثم صمت.

نظر إليه راسكولنيكوف من فوق كتفه، وترفس فيه بانتباه، ثم قال له بلهجة ما تزال هادئة:

- موافق، هلموا بنا إلى قسم الشرطة!

استأنف التاجر كلامه فقال بشقة أكبر:

- نعم، يجب اقتياده إلى قسم الشرطة. لماذا جاء إلى هناك، فإن ذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله، أليس كذلك؟

جمجم العامل يقول:

- أهو سكران أم لا؟ الله وحده يعلم!

وعاد الباب يصرخ وقد أخذ يغضب حقاً:

- ولكن ماذا ت يريد؟ ما مجئك إلينا لتزعجنا هذا الإزعاج؟

قال راسكولنيكوف ساخراً:

- ها... إنك تخاف الذهاب إلى قسم الشرطة!

- مم عسانى أخاف؟ ولكن لماذا تأتي إلينا فتزعجنا هذا الإزعاج؟

صرخت المرأة:

- هذا لص!

فقال الباب الآخر، وهو رجل ضخم يرتدي معطفاً فضفاضاً،  
ويحمل مجموعة من المفاتيح معلقة بحزامه:

- علام نناقشه؟ اخرج من هنا أيها المترشّد!... هيئا انصرف. أقول  
لنك انصرف!

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفه، ورماه إلى الخارج، فترنح  
راسكولنيكوف وكاد يهوي على الأرض ولكنه لم يسقط، ثم انتصب  
ونظر إلى الجميع صامتاً ثم مضى.

قال العامل:

- إنسان عجيب!

فعقبت المرأة قائلة:

- جميع الناس عجيبون في هذه الأيام!

وأضاف التاجر يقول:

- كان ينبغي أن نقتاده إلى الشرطة مع ذلك.

فقال الباب الكبير يحسم المناقشة:

- لا داعي لاقتياده إلى الشرطة . هو محتاب مشاكس ما في ذلك ريب ، ولو اقتدناه إلى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه ، أنا أعرف أمثال هؤلاء الناس ! . . .

تساءل راسكولنيكوف وهو يقف في عرض الطريق عند أحد المفارق وينظر إلى ما حوله كأنه ينتظر أن يهديه أحد إلى الحل الحاسم والقول الفصل : «أذهب إلى الشرطة أم لا أذهب؟» ولكن ما من جواب جاءه من أي مكان . كان كل شيء أصمّ ميتاً كالحجارة التي كان يسير عليها .. ميتاً بالنسبة إليه وحده . وها هو ذا يلمع فجأة ، في البعيد ، على مسافة مائتي خطوة ، في آخر الشارع ، في الظلام المتزايد ، ها هو ذا يلمع احتشاداً ، ويسمع جلبة وصراخاً . وكانت تقف عربة في وسط الجمهور المحتشد . وومض في الشارع ضوء مصباح . دار راسكولنيكوف واتجه نحو الحشد . كان يبدو حقاً أنه يريد أن يتثبت بأي شيء ، فلما أدرك هو ذلك ضحك في فتور ، لأنّه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة قد اتُّخذ وانتهى الأمر ، وكان يعلم علم اليقين أن كل شيء سيكون قد انتهى بعد قليل .

## الفصل السابع

كانت تقف في وسط الشارع عربة أنيقة من عربات السادة، قد شدَّ إليها حصانان أشهبان قويان ثائران. وكانت خاليةً قد نزل حوذيا عن مقعده ووقف إلى جانبها يشد الحصانين باللجام؛ وقد تجمهر حولها عدد كبير من الناس، وراء حاجز من رجال الشرطة. وكان أحد رجال الشرطة يحمل بيده مصباحاً مشتعلأً قد مال به إلى تحت يضيء بنوره شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتتصقاً بالعجلات. وكان جميع الناس يتكلمون ويصرخون ويتأوهون، وكان الحوذى مضطرباً يردد بين الفينة والفينية قوله:

- يا للمصيبة! رياه! يا للمصيبة!

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه ممراً، فأفلح أخيراً في أن يرى ذلك الشيء الذي يشير هذا الاضطراب القوي وهذا الفضول الشديد. إنه رجل يرقد على الأرض داماً مغشياً عليه يرتدي ثياباً فقيرة رثة لكنها من ثياب «السادة»، قد داسه الحصانان، فالدم يسيل من جمجمته ومن وجهه المتخن المهمش. كان واضحاً أن الإصابة خطيرة.

صاح الحوذى نادباً شاكياً:

- يا رب السماء! كيف كان يمكن أن أتفاداه! لم تكن العربية مسرعة، وأنا كنت أصرخ منها! كانت العربية تسير في رفق، كانت تسير على

مهل. جميع الناس رأوا ذلك. إن كنت أكذب فقد كذب إذن جميع الناس. ولكن السكران لا يرى حتى في وضع النهار... هذا معروف. أبصرته يجتاز الشارع متربحاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر. صرخت أنتبه، مرة، مرتين، ثلث مرات... ولجمت الحصانين، ولكنها هو ذا يمشي إليهما قُدُّماً فيسقط بين حوافهما... فإما أنه فعل ذلك عاماً، وإما أنه قد بلغ منه السكر كل مبلغ... وحصاناي مهران صغيران عصبيان، فها هما يجمحان، وهما هو ذا يصرخ فيزداد جموحهما فتفق المصيبة...

قال أحد شهود الحادث:

- نعم، ذلك ما حدث.

وقال صوت آخر:

- نعم، لقد صرخ الحوذى، صرخ ثلث مرات..

وقال ثالث مؤيداً:

- نعم، ثلث مرات، جميع الناس سمعوا...

على أن الحوذى لم يكن منهار العزيمة ولا شديد الخوف. وكان واضحاً أن المركبة يملكتها شخص ثري لا بد أنه كان يتنظر وصولها في مكان ما. وهذه حقيقة لم تغرب عن بال رجال الشرطة طبعاً، ولا أسقطوها من الحساب. لم يبق إذن إلا أن يُنقل المصايب إلى قسم الشرطة وإلى المستشفى. ولم يكن أحد يعرف اسمه.

في أثناء ذلك، كان راسكولنيكوف قد تسلل إلى وسط الجمهور، ومال على الأرض، فإذا بالمصابح الصغير يضيء وجه الشقي على حين فجأة، وإذا براسكولنيكوف يتعرفه فوراً.

صرخ يقول وهو يندفع إلى الصف الأول:

- أنا أعرفه! أنا أعرفه! هو موظف محال على التقاعد، هو الموظف

مارميلادولف. أنه يسكن قريباً من هنا، في عمارة كوسل... أسرعوا، نادوا طيباً! سأدفع! خذ... .

قال ذلك وأخرج من جيده مالاً فعرضه على أحد رجال الشرطة. كان راسكولنيكوف في حالة اضطراب تبعث على الدهشة.

سرّ رجال الشرطة بمعرفة شخص المصاب. وأسرع راسكولنيكوف يعرف بنفسه أيضاً، فذكر اسمه، وذكر عنوانه، وألح إلحاحاً شديداً، كما لو كان المصاب أباه، على أن يُنقل مارميلادولف إلى مسكنه بأسرع ما يمكن. وكان مارميلادولف ما يزال فاقداً وعيه مغشياً عليه. قال راسكولنيكوف متوجلاً:

- بيته هناك: بعد ثلاث عمارات. إنه يسكن في عمارة كوسل، الألماني الغني... لا شك أنه كان سكران عائداً إلى بيته. أنا أعرفه. إنه سكير... له أسرة، وزوجة، وأولاد، وبنت. لماذا المستشفى؟ إن نقله إلى المستشفى يستغرق وقتاً طويلاً. ولا بد أن يوجد في عمارته طبيب. سوف أدفع، سوف أدفع. بذلك يعني به ذوبوه، ويفعلون ما يجب فعله فوراً. ولا يتعرض للموت حتى قبل أن يصل إلى المستشفى.

وأفلح راسكولنيكوف في أن يدس قطعة نقدية في يد أحد رجال الشرطة. وكانت القضية من جهة أخرى واضحة شرعية. وبدأ على كل حال أن نقل الجريح إلى بيته أبسط وأيسر. فرفع المصاب وحمل، ووُجد من يساعد في ذلك. كانت عمارة كوسل تقع على مسافة ثلاثة خطوة. فكان راسكولنيكوف يمشي وراء الجريح سانداً رأسه بكثير من الحذر والاحتياط، وكان يدل الآخرين على الطريق.

- من هنا! من هنا! وحين نصعد السلالم يجب أن نجعل رأسه عالياً... دوروا... تعم هنا... سوف أدفع... أشكر لكم صنيعكم...

كذلك كان يدمدم راسكولنيكوف.

كانت كاترينا ايفانوفنا، على عادتها كلما أتيحت لها دقيقة من فراغ، تسير في غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً، فتمضي من النافذة إلى المدفأة ومن المدفأة إلى النافذة، مصالبة ذراعيها على صدرها، مكلمة نفسها، ساعلة من حين إلى حين. ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أن تتحدث إلى ابنتها الكبرى بولينكا التي يبلغ عمرها عشر سنين والتي كانت، رغم أنها لا تستطيع أن تفهم أشياء كثيرة بعد، تدرك حق الإدراك أن أمها في حاجة إليها، فكانت لذلك تتبعها بنظراتها الذكية محمولة، وتبدل كل ما تملك من قوة في سبيل أن تظاهر بأنها تفهم كل ما كانت تقوله لها. وفي تلك اللحظة، كانت بولينكا تنضو عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه في السرير بعد أن لبث مريضاً طوال النهار، فكان الصبي الصغير، بانتظار إيدال قميصه الذي يجب أن يُغسل في تلك الليلة نفسها، جالساً على كرسى، رزيناً صامتاً. كان منتصب الجسم، ساكناً، ملصقاً ساقيه إحداهما بالأخرى وهو يرفعهما إلى الأمام، موجهاً إيهاميه إلى الخارج، نافخاً خديه، محملاً بعينيه، يصغي إلى ما كانت تقوله أمه لأنفته دون أن يتحرك، كما ينبغي للصغار العقلاة حين تخلع عنهم ثيابهم للنوم. وكانت البنت الثانية، وهي أصغر سنًا منه، وثيابها أطمار بالية تماماً، تنتظر دورها واقفةً قرب الحاجز. وكان الباب المطل على فسحة السلالم مفتوحاً على سعته كلها، من أجل أن يهرب منه ولو جزء من دخان التبغ الذي يأتي من الغرف الأخرى، ويسبّ للمصدورة المسكينة نوبات سعال طويلة أليمة قاسية. لقد نحلت كاترينا ايفانوفنا مزيداً من النجول منذ أسبوع، وأصبحت البقع الحمراء على خديها تزداد حمراً.

كانت تقول لابنتها وهي تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً:

- لا تستطعين أن تعرفي، لا تستطعين أن تخيلي، يا بولينكا، نوع الحياة الفرحة المرحة الباذخة التي كنا نحيها في دار بابا، ولا نوع

الشقاء الذي نزل عليّ بسبب هذا السكير، والذي سينزل عليكم أنتم جميعاً كذلك. كان بابا في رتبة تعدل رتبة كولونيل. كان يوشك أن يصبح حاكماً، لم يكن عليه إلا أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً، لذلك كان جميع الناس يجيئون إليه ويقولون له: «نحن نعدك حاكماً لنا منذ الآن يا ايفان ميخائيلتش». وحين... كح كح كح... حين... كح كح كح... لعن الله هذه الحياة... (صاحت هكذا وهي تبصق وتضغط صدرها) - نعم، حين... آه... حين رأتنى الأميرة بيزيملنيا، في آخر حفلة رقص، عند رئيس مجلس النبلاء - وهذه الأميرة هي التي باركتنى حين تزوجت أباك يا بوليا نعم... حين رأتنى أسرعت تسأل على الفور: «أليست هذه الفتاة الفتانة هي التي رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية؟» يجب ترقيقع هذا الثقب، عليك أن تأخذني إبرة وخيطاً فترفعيه، كما علمتك، وإنما فإنه... كح... غداً... كح كح كح... سيتسع مزيداً من الاتساع (صرخت تقول ذلك صراخاً وقد هدأها السعال). وفي ذلك الأوان إنما وفد إلينا من بطرسبرج شاب من الحاشية هو الأمير ستيشيجول斯基... ورقص معه رقصة مازوركا، وقال لي أنه سيجيء في الغداة ليخطبني... فشكرته باللطف العبارات، ولكنني صرفته قائلة له أن قلبي يملكه رجل آخر منذ مدة طويلة، وهذا الآخر هو أبوك يا بوليا. وغضب أبي غضباً شديداً. هل أعد الماء؟ هيئاً اثنين بالقميص. والجوارب، أين هي؟ يا ليديا (كذلك قالت لصغرى بنتيها) ستتخمين هذه الليلة بدون قميص... دُبْري أمريك... ودعني الجوربين جانبًا كذلك... سأغسلهما... ألن يعود هذا الرث السكران؟ لقد لبس قميصه حتى أصبح وسخاً كممسمحة. ومزقه أيضاً. أتمنى لو أغسل كل شيء دفعة واحدة. فبذلك لا أتعذب ليلتين متواليتين... يا رب! كح كح كح... ما هذا أيضاً؟ (هتفت تسأل هذا السؤال وهي ترى جمهوراً على فسحة السلم، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حملاً ويحاولون أن يشقوا

طريقهم نحو الغرفة) ماذا جرى؟ ماذا يحملون؟ رباء!  
سؤال الشرطي وهو ينظر حواليه بينما كان يحمل مارميلادور إلى  
الغرفة دامياً مغشياً عليه:

- أين نصعه؟

قال راسكولنيكوف:

- على الديوان! أضجعوه على الديوان، واجعلوا رأسه في هذه  
الجهة.

صاحب يقول واحد وهو على فسحة السلم:

- داسته عربة في الشارع وهو سكران!

وقفت كاترينا ايفانوفنا جامدة، شاحبة الوجه، تتنفس بصعوبة  
ومشقة. وارتعب الأولاد. وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت إلى  
بولينكا، فعانقتها وهي ترتجف بجميع أعضاء جسمها.

حتى إذا أضجع مارميلادور على الديوان، هرع راسكولنيكوف إلى  
كاترينا ايفانوفنا، وقال لها مسرعاً:

- اهدئي ناشدتك الله، لا تضطربي! ... كان يجتاز الشارع، فمرت  
عربة فوقه. لا تقلقي. سيصحو من إغمائه. أنا أمرت بحمله إلى هنا.  
لقد جئت إليكم مرة قبل الآن، هل تذكرين؟ سيفيق من غيبوبته. سوف  
أدفع!

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول يائسة وهي تندفع نحو زوجها: - نال  
ما كان يسعى إليه!

لم يلبث راسكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك  
النساء اللواتي يغمى عليهن لأيسر الأسباب. وبمثيل لمع البصر سرعة  
وضعت وسادة تحت رأس المسكين: ما من أحد قد خطرت بياليه هذه  
الفكرة من قبل. ثم أخذت كاترينا ايفانوفنا تخلع ثيابه، وتفحصه،

وكان منهن مكهة في العناية بالجريح مسيطرة على نفسها، عاضة على شفتيها المرتعشتين، تكظم الصرخات التي تهم أن تنطلق من صدرها.

وفي أثناء ذلك استطاع راسكولنيكوف أن يقنع أحد الحضور بأن يمضي يستدعي طبيباً. وكان يوجد طبيب في عمارة المجاورة.

وكرر يقول لكاترينا إيفانوفنا:

- أرسلت في طلب طبيب. لا تقلقي. سوف أدفع. أليس عندكم ماء؟ وأعطيك أيضاً فوطة، منشفة، أي شيء، بسرعة! لا نعلم بعد هل جرحه بلغ... على كل حال، هو جريح وليس قتيلاً... ثق في بذلك... لنتظر ما سيقوله الطبيب.

هرعت كاترينا إيفانوفنا إلى النافذة. كان يوجد هناك، في ركن، على كرسي خاسف، طست كبير من فخار، مملوء ماء، قد هيأته من أجل أن تغسل في الليل ملابس أولادها وزوجها. إن كاترينا إيفانوفنا هي التي تتولى غسل الملابس بيديها ليلاً، وهي تفعل ذلك مرتين في الأسبوع على الأقل، وقد تفعله أكثر من مرتين أحياناً، ذلك أنهم قد وصلوا إلى حيث أصبحوا لا يملكون من كل ملابس من الملابس إلا قطعة واحدة لكل فرد. وكانت كاترينا إيفانوفنا لا تحتمل الوضاعة، وتأثير على هذا أن تقوم في الليل، بينما الجميع نائمون، بعمل تفرضه على نفسها ويفوق طاقتها: تغسل الملابس ثم تنشرها على حبل لتجف، بغية أن تجد الأسرة أشياءها نظيفة في الصباح. حملت الطست كما أمرها بذلك راسكولنيكوف، وكادت تسقط معه على الأرض. وكان راسكولنيكوف قد استطاع في أثناء ذلك أن يعثر على منشفة. فبلغها بالماء وأخذ يغسل وجه مارميلاروف الدامي. وكانت كاترينا إيفانوفنا تقف إلى جانبه، متنفسة بمشقة وصعوبة، ضاغطة صدرها بيديها. لقد كانت هي نفسها في حاجة إلى إسعاف. وبذل راسكولنيكوف يقول لنفسه إنه ربما أخطأ حين ألح على ضرورة نقل المريض إلى هنا. وكان الشرطي مرتبكاً حائراً.

وصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول لابتها:

- بوليا<sup>(58)</sup>، إذهبي إلى أختك صونيا، وأحضريها بسرعة. فإذا لم تجديها في مسكنها، فلا بأس... قوله إن أباها قد داسته خيول، وأن عليها أن تجيء حالاً متى عادت. أسرعي يا بوليا! خذني، ضعي هذا المنديل على رأسك.

وصرخ الصبي الصغير من على كرسيه على حين فجأة يهيب بها أن تسع قائلًا:

- أتلعي... (أسرعي)...

قال ذلك وعاد يغرق في صمته، واسترد وضعه: محمق العينين، متصلب الجذع، متجمد الجسم، مشدود الساقين.

وامتلأت الغرفة بالناس في أثناء ذلك، فلو أُلقيت تفاحة لما سقطت على الأرض من شدة ازدحامهم. وانصرف رجال الشرطة، إلا واحداً بقي إلى حين، بغية أن يصد الجمهور الذي كان يصل من السلم ويتدفق من جديد. إن المستأجرین الذي يسكنون عند مدام ليفكسيل قد هرعوا جميعهم تقريباً من غرفهم التي تقع في آخر الشقة: تجمعوا في أول الأمر على الباب، ثم اجتاحوا الغرفة نفسها. غضبت كاترينا ايفانوفنا، فصرخت تخاطب الناس:

- دعوه يموت بسلام على الأقل. آه... أهذه مسرحية ما هذا الذي تفعله أنت؟ تدخلون ولا تزالون تدخنون السجائر! كح كح كح! لم يبق إلا أن تحتفظوا بقبعاتكم على رؤوسكم أثناء رؤية المشهد. هه... هذا واحد قد احتفظ بقبعته على رأسه فعلاً! هيئا اخرجوا من هنا... ااحترموا الأموات على الأقل!

قالت ذلك ثم خنقتها نوبة سعال شديدة. ولكن تقريرها كان له أثره. واضح أنهم يخشون كاترينا ايفانوفنا بعض الخشية. فها هم أولاء سكان البيت يتوجهون نحو الباب واحداً بعد آخر، وهم يشعرون بذلك

الإحساس الغريب، إحساس اللذة الذي يُلاحظ دائمًا حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شفاء يحل بقربهم؛ وهو إحساس لا يخلو منه أي إنسان، مهما يكن إحساسه بالأسف والشفقة صادقاً.

وكانت تسمع وراء الباب أحاديث يدور فيها الكلام على المستشفى، وعلى أنه ليس من اللائق تعكير صفو عمارة في غير طائل.

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- ماذا؟ ليس من اللائق أن يموت الإنسان؟

وهمنت أن تفتح الباب وأن تصب على هؤلاء الناس سيلًا من الشتائم، ولكن حين وصلت إلى العتبة رأت نفسها تصطدم بمدام ليفسكل نفسها التي علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام إلى نصابه. إن مدام ليفسكل هذه ألمانية مشاكسة مزعجة.

قالت وهي تصفق يديها إحداهم بالآخر:

- آه... يا رب! زوجك داسه حصان وهو سكران. إلى المستشفى، إلى المستشفى إنما كان يجب... أنا صاحبة البيت...

فقالت كاترينا ايفانوفنا في تعالى وكبرباء:

- أرجوك يا آماليا لودفيجوفنا أن تفكري فيما تقولين... يا آماليا لودفيجوفنا...

كانت كاترينا ايفانوفنا تخاطب صاحبة البيت دائمًا في تعالى وكبرباء، كيما «تلزم هذه حدودها»؛ ولم تستطع حتى في هذا الظرف أن تحرم نفسها من هذه اللذة.

قالت مدام ليفسكل:

- قلت لك مرة واحدة إلى الأبد أن لا تسميني آماليا لودفيجوفنا قط. أنا آماليا ايفانوفنا.

- أنت لست آماليا ايفانوفنا، بل آماليا لودفيجوفنا؛ وأنا لست واحدة

من أولئك الذين يتملقونك تملقاً ذليلاً، ومنهم السيد ليزياتنيكوف الذي تدوي قهقهاته في هذه اللحظة نفسها وراء الباب (وكان يدوي وراء الباب ضحكَ فعلاً، وكانت تسمع هذه الجملة: «قد بدأت مشاكسة!») فإبني سأسميك دائماً آمالياً لودفيجوفنا. ولست أفهم على كل حال لماذا يسوءك هذا الاسم إلى هذه الدرجة. لقد رأيت ما حدث لسيميون زاخاروفتش: إنه يموت. فأرجوك أن تغلقي هذا الباب فوراً، وأن لا تدعني لأحد أن يدخل إلى هنا. فلیمت بسلام على الأقل! وإنني أؤكد لك أن سلوكك هذا سيعرفه الحاكم العام نفسه من الغد. إن الأمير قد عرفني قبل أن أتزوج، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش جيداً، وقد أحسن إليه مراراً. وجميع الناس يعلمون أن سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء وحمة كثُر أهملهم هو نفسه بسبب عزته وكبرياته، وبسبب ما كان يحسه من ضعفه المحزن. ولكن شاباً سمحاً (وأومأت إلى راسكولنيكوف) ذا ثراء وعلاقات، شاباً يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته، يتولى مساعدتنا الآن، ففي وسعك أن تكوني على يقين يا آماليا لودفيجوفنا من أن... .

قيل ذلك كله بسرعة قصوى كانت تتزايد من دقيقة إلى دقيقة. ولكن السعال قطع بلامحة كاترينا ايفانوفنا فجأة؛ واستعاد المحتضر وعيه في تلك اللحظة وأطلق أنيناً فهرعت إليه. وفتح عينيه، وأخذ ينظر إلى راسكولنيكوف الواقف بقربه، أخذ ينظر إليه دون أن يتعرف أحداً ودون أن يفهم شيئاً. وكان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً. وظهر دم على طرفي شفتيه. وكان العرق يتکائف على جبينه. وإذا لم يستطع أن يحدّد شخصية راسكولنيكوف، أجال بصره على ما حوله قلقاً. وكانت كاترينا ايفانوفنا تلقي عليه نظرة حزينة لكنها قاسية، وكانت تسيل من عينيها دموع.

قالت بائسة:

- رباء! إن صدره معجون عجناً! ما أكثر الدم! ما أكثر الدم! يجب أن تُنزع عنه ملابسه. استدر قليلاً يا سيميون زاخاروفتش، إذا كنت تقوى على ذلك.

تعرفها مارميلادوف. فنطق بصوت أبيح:

- كاهن!

فتراجعت كاترينا ايفانوفنا نحو النافذة، وأسندت جبينها إلى الزجاج، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد والكرب:

- قاتل الله هذه الحياة!

وعاد المحضر يقول من جديد، بعد لحظة صمت:

- كاهن!

فصرخت كاترينا ايفانوفنا:

- أر... سلنا... نست... عيه!

فهم وصمت. وكان يبحث عنها بنظراته وجلاً قلقاً. فعادت إليه ووقفت بقربه. فهذا قليلاً ولكن هدوءه لم يطل فإن عينيه لم تلبثا أن توقفتا على الصغيرة ليدوتشكا<sup>(59)</sup> (أثيرته) التي كانت في ركن من الأركان ترجف ارتجاف من أصابته نوبة عصبية، وتحدق إليه بعينيها المدهوشتين، عيني الطفلة، تحديقاً ثابتة.

غمغم محاولاً أن يقول شيئاً وهو يومئ إليها قلقاً:

- أ... أ... أ...

فصرخت كاترينا ايفانوفنا:

- ماذا أيضاً؟

فقال وقد تلبت نظراته على قدمي البنت الصغيرة الحافيتين:

- حافية! حافية!

فرأرت كاترينا ايفانوفنا تقول وقد بلغ غضبها أشدّه:

- اسكت! أنت تعلم حق العلم لماذا هي حافية!

صاحب راسكولنيكوف يقول متخففاً من قلقه:

- الحمد لله! وصل الطبيب!

دخل الطبيب. أنه شيخ مهندم (وهو ألماني) أخذ يلقي على ما حوله نظرات زاخرة بالريبة والشك. اقترب من المريض، وجسّ نبضه، وتفحص رأسه بانتباه، ثم تعاون مع كاترينا ايفانوفنا على حلّ أزرار القميص المبتل بالدم، وعرّى الصدر. كان الصدر خاسفاً خسوفاً مروعاً، وكان مهروساً ممزقاً. إن عدّة أصلاح في الجهة اليمنى كانت محطمة مهشمة. وفي الجهة اليسرى، عند القلب، كانت ثُرى بقعة سوداء ضاربة إلى صفرة، بقعة كبيرة رهيبة: إنها آثار حافر حصان. قطب الطبيب حاجبيه. وروى له الشرطي أن الجريح قد تشبّث به إحدى عجلات العربة، فجرّته أثناء دورانها مسافة ثلاثين خطوة على أرض الشارع.

قال الطبيب لراسكولنيكوف هامساً:

- أغرب ما في الأمر أنه عاد إليه شعوره!

فسأله راسكولنيكوف:

- ما رأيك؟

- سيموت حالاً.

- أليس هناك أيأمل؟

- لا أمل البة. إنه يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه. أنه في النزع الأخير. ثم إن رأسه مصاب بجراح خطير جداً. هنـ... يمكننا طبعاً أن نجري له فصداً... ولكن مافائدة ذلك؟ سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو عشر.

- لنجرِب الفصد مع ذلك!

- طيب. ولكنني أتبهك مرة أخرى إلى أننا لن نجني من ذلك أية فائدة.

وفي هذه اللحظة نفسها سمع وقع أقدام مرة أخرى. فتحى الجمهور على فسحة السلم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل الأعراض السرية<sup>(60)</sup>، ووراءه شرطي جاء به إلى البيت. فسرعان ما أخلى له الطبيب المكان، بعد أن تبادل معه نظرة ذات دلالة، وبادر راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظة قصيرة. فرفع الطبيب كفيه، ولكنه بقي.

تنحى الجميع. ولم يدم الاعتراف إلا وقتاً قصيراً جداً: فأغلب الظن أن المحتضر كان فاقداً إدراكه وكان عاجزاً عن الكلام، وكان لا يستطيع، في أكثر تقدير، أن ينطق إلا بأصوات متقطعة غير متميزة. أمسكت كاترينا ايفانوفنا يد ليدوتشكا، فأنهضت الصبي الصغير عن كرسيه ثم مضت إلى الركن قرب المدفأة، فجئت على ركبتيها وأركعت الأولاد أمامها. استمرت البنت الصغيرة ترتجف. أما الصبي الصغير الذي كان جائياً بركتبته العاريتين على بلاط الأرض، فكان يرفع يده اليمنى في فواصل مطردة، فيرسم إشارات الصليب واسعة كبيرة، ثم يسجد فيلصق جبينه بالأرض، وكان واضحـاً أن هذا يحدث له لذة قصوى. وكانت كاترينا ايفانوفنا تعـض على شفتيها وتحبس دموعها. كانت تصلي هي أيضاً، وتعدل قميص الصغير من حين إلى حين في الوقت نفسه. حتى لقد استطاعت، دون أن تنهض ودون أن تقطع صلاتها، استطاعت أن تسلـل من الخزانة ذات الأدراج منديلاً أقتـه على كتفـي الصبية العاريـتين. ولكن الباب المطل على الغرف الأخرى قد فتحـه المستطلعون أثناء ذلك مرة أخرى. كان جمهور المشاهـدين على فسحة السـلم - وهم السـكان الذين هرـعوا من جميع طوابـق العمـارة -

تزداد كثافته شيئاً بعد شيء، إلا أن أحداً منهم لم يتحط عتبة الغرفة.  
وكان لا يضيء هذا المشهد كله إلا بقية شمعة.

وفي تلك اللحظة وصلت بوليا التي ذهبت تحضر أختها، فاندفعت  
تشق لها ممراً بين ذلك الجمهور. دخلت منقطعة الأنفاس تقريباً، لأنها  
قد ركضت بسرعة مفرطة، فنزعت المنديل الذي كان يغطي كتفيها،  
وبحثت عن أمها بعينيها، ثم اقتربت منها وقالت لها: «ستجيء، فقد  
لقيتها في الشارع!» أركعت الأم ابنتها إلى جانبها. ثم وصلت فتاة،  
فتقدمت وسط الجمهور خجلاً بلا ضجة، فكان ظهورها المفاجيء في  
هذه الغرفة التي يسودها الفقر والبؤس والأسمال الرثة والموت واليأس  
أمراً غريباً يبعث على أشد الدهشة. كانت ترتدي أسمالاً أيضاً وكانت  
ثيابها رخيصة، ولكنها صارخة صخابة تناسب أذواق وقواعد العالم  
الخاص الذي تعيش فيه هذه الفتاة، وتلائم الغايات الدينية التي تسيطر  
على ذلك العالم. وقفـت صونيا على العتبة لا تجرؤ أن تتجاوزها. وكانت  
تنظر حوالـيها زائفة الهيئة تائهة الفكر. كان يبدو عليها أنها لا تدرك شيئاً  
ولا تعـي شيئاً، وكان يبدو عليها أيضاً أنها ذهـلت من ثوبـها الحريري  
الـذي اشتـرته مستـعملاً - والـذي كانت ألوـانـه الزاهـية وذـيـولـه الطـويـلة  
المـضـحـكة لا تـنـاسـب هذا المـكـان - وـذهـلت من تـنـورـتها المـسلـكـة  
الـفـضـفـاضـةـ التي تمـلاً عـرـضـ الـبـابـ كـلـهـ، ومن حـذـاءـيها الـلامـعـينـ  
وـشـمـسيـتهاـ التي لا فـائـدةـ منهاـ الـبـتـةـ لأنـ الـوقـتـ لـيلـ، ومن قـبـعـتهاـ المـدـوـرـةـ  
المـضـحـكةـ المـصـنـوعـةـ منـ قـشـ، المـزـدـانـةـ بـرـيشـةـ حـمـراءـ. وكان يـلـوحـ تحتـ  
هـذـهـ القـبـعـةـ، المـوـضـوـعـةـ مـائـلـةـ، وجـهـ صـغـيرـ نـحـيلـ أـصـفـرـ مـرـتـاعـ، فـاغـرـ الفـمـ  
شارـدـ العـيـنـينـ منـ الرـعـبـ. إنـ صـونـياـ تـبـلـغـ منـ الـعـمـرـ ثـمـانـيـةـ عـشـرـ عـامـاًـ،  
وـهـيـ قـصـيـرةـ الـقـامـةـ هـزـيـلـةـ الـجـسـمـ، لـكـنـهاـ لـطـيفـةـ، شـقـراءـ، لـهـاـ عـيـنـانـ  
زـرـقاـوانـ رـائـعتـانـ. وقد رـاحـتـ تـحـدـقـ إـلـىـ الـدـيـوـانـ إـلـىـ الـكـاهـنـ بـنـظـرـاتـ  
ثـابـتـةـ. وكانتـ مـقـطـعـةـ الـأـنـفـاسـ هيـ أـيـضاـ، لأنـهاـ رـكـضـتـ رـكـضاـ سـرـيعـاـ.  
وـلـاـ شـكـ أـنـ كـلـمـاتـ تـبـادـلـهاـ بـعـضـهـمـ فـيـ الـجـمـهـورـ هـمـساـ قدـ تـناـهـتـ إـلـىـ

مسامعها فيها هي ذي تخفض رأسها وتتقدم خطوةً إلى أمام . ولكنها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب .

انتهت الاعتراف والتناول . وعادت كاترينا ايفانوفنا إلى قرب الديوان . وتنحى الكاهن . ولكنها اعتقد أن من واجبه أن يوجه إلى كاترينا ايفانوفنا بعض كلمات تواصيها وتقوي عزيمتها . فقاطعته كاترينا ايفانوفنا تقول بللهجة خشنة غاضبة وهي تشير إلى الأولاد :

- وهؤلاء ، أين أضعهم الآن؟

فقال الكاهن :

- الله رحيم . تأمل في عون رب!

- هو رحيم بلا شك ، لكنه ليس رحيمًا بنا نحن .

قال الكاهن وهو يهز رأسه :

- هذا إثم يا سيدتي ، هذا إثم !

صرخت كاترينا ايفانوفنا مشيرة إلى المحتضر :

- وهذا ، أليس إثماً؟

- لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة بغير إرادة منهم ، لعلهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً بسبب فقدانك مواردك على الأقل ...

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول بشراسة وهي تلوح بيدها :

- أنت لا تفهم ! لماذا عساهم يدفعون لي تعويضاً؟ إن هذا السكير هو الذي ألقى بنفسه بين حوارف الخيل ! ثم ما كلامك هذا عن مواردي ! إنه لم يمدني بأية موارد في يوم من الأيام ! إنه لم يهبي لي إلا أنواع العذاب ! هذا كل ما أمندي به ! لقد كان سكيراً ، سكيراً ، ما وصل إلى يده شيء إلا سارع بشرب به خمراً ، كان ينهبنا نهباً ، كان يذهب إلى الحانات يتلف فيها حياته وحياته ! سيموت الآن ، الحمد لله ، وسيكون موته توفيرًا واقتصادًا !

- على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر، في ساعة الموت! إن الشعور بمثل هذه العواطف إثم يا سيدتي، إثم كبير!

كانت كاترينا ايفانوفنا ما تزال منهمكةً حول المحتضر تسقيه وتمسح عن رأسه العرق والدم وتعدّل وضع الوسادة تحت رأسه؛ فهي تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها ملتفة إليه أحياناً. ولكنها وئّثت نحوه على حين فجأة حانقة غاضبة، وقد خرجمت عن طورها:

- آه يا أبي! ما هذا كله إلا كلام، كلام لا أكثر! العفو والصفح والمغفرة! هه! لو لم يقع له هذا الحادث، لرجع إلى البيت في هذا المساء سكران؛ ولأنه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذي يلبسه، لكان علىي أنا أثناء غطيته في النوم أن أتبلى بالماء لأغسل له القميص ولأغسل ملابس الأولاد؛ ولكن علىي بعد ذلك أن أجفف الغسيل كله على النافذة، حتى إذا طلع الفجر أخذت أعمل في الترقيع! على هذا النحو كنت سأقضى الليل! فعلام الكلام عن العفو والصفح والمغفرة إذن؟ لقد عفوت وصفحت وغفرت منذ زمان!

واعتبرتها نوبة سعال شديدة فاضطررت أن تنقطع عن الكلام. وبصقت في منديلها ومدته تحت عيني الكاهن ضاغطةً صدرها بيدها الأخرى. كان المنديل مبللاً بالدم.

خفض الكاهن رأسه ولم يقل شيئاً.

وكان مارميلاروف المحتضر لا يحول عينيه عن وجه كاترينا ايفانوفنا التي مالت عليه من جديد. كان يريد أن يقول لها شيئاً ما. حاول ذلك محركاً لسانه بمشقة، متمتماً ببعض كلمات مهممة غير متميزة، ولكن كاترينا ايفانوفنا، وقد أدركت أنه يريد أن يسألها أن تغفر له أسرعت نصرخ قائلة له بلهجة آمرة:

- اسكت! اسكت! لا داعي! أعرف ما تريد أن تقول!  
فصمت الجريح. ولكن بصره التائه سقط في تلك اللحظة على

الباب، فلمح صونيا. لم يكن قد لاحظها قبل ذلك: كانت صونيا تقف في الجزء المظلم من الغرفة.

- من هذه؟ من هذه؟

كذلك ثائناً يسأل فجأةً بصوت أبَّ لاهث، وهو يحاول أن ينهض، ويومئ بعينيه مرتابعاً إلى الباب الذي كانت ابنته ما تزال واقفةً عنده.

فصرخت كاترينا إيفانوفنا تقول له:

- أبَّ راقداً! أبَّ راقداً!

ولكنه استطاع بجهد خارق أن ينهض جسمه مستنداً بيده إلى الديوان. فحدق إلى ابنته برهةً من الوقت بنظره غريبة، كأنه لم يتعرفها. ذلك أنه لم يسبق له أن رآها بمثل هذا الزي الغريب. ولكنه لم يلبث أن تعرفها فجأةً. كانت مُذلةً منهارةً في ملابسها المبهرجة تحس بالخزي والعار، وهي تنتظر في رفق ووداعة، وفي إذعان وتسلیم، أن يجيء دورها لتوديع أبيها المحتضر. ارتسم على وجه الأب تعبير عن الالم لا نهاية له، وعذاب ليس له حدود. وصرخ يقول:

- صونيا، ابتي، اغفر لي!

وأراد أن يمد إليها يده، لكنه فقد توازنه لأنه لم يتذكر على شيءٍ، فتدحرج عن الديوان منكبَ الوجه على الأرض. أسرعوا ينهضونه، وعادوا يُرقدونه على السرير. ولكنه كان قد أخذ يلفظ أنفاسه. أطلقت صونيا صرخة ضعيفة، وهرعت إليه، وعائقته طويلاً، فمات بين ذراعيها.

صاحت كاترينا إيفانوفنا تقول وهي ترى جثة زوجها:

- نال ما كان يسعى إليه. ولكن ما العمل الآن؟ أين لي بالمال أنفقه على دفنه؟ وهؤلاء، هؤلاء، من أين أطعمهم غداً؟

اقرب راسكولنيكوف من كاترينا إيفانوفنا. وبدأ يتكلم فقال:

- كاترينا ايفانوفنا! في الأسبوع الماضي روى لي زوجك المتوفى قصة حياته تفصيلاً... ثقى أنه تكلم عنك بحماسة شديدة واحترام عظيم. وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المساء الذي عرفت فيه مدى إخلاصه لكم جميعاً، ومدى ما يحمله لك خاصةً يا كاترينا ايفانوفنا من حب وتقدير، رغم آفته الشقية، آفة الإدمان على الشراب... فاسمحي الآن إذن... اسمحي لي أن أساهم... أن أقوم بأخر واجباتي نحو صديقي المتوفى. خذى هذا المبلغ... أظن أنه عشرون روبلًا... فإذا كان هذا يساعدكم ولو قليلاً، فإنني... لكتني سأعود إليكم، سأعود إليكم حتماً، وقد أعود من الغد... أستودعكم الله!

قال ذلك وغادر الغرفة متوجلاً، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور بسرعة. ولكن لم يلبث أن اصطدم بنيكوديم فومتش الذي علم بنبأ الحادث، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الإجراءات الضرورية. لم يكوننا قد التقينا منذ وقع ذلك المشهد في قسم الشرطة، ولكن نيكوديم فومتش عرفه من أول نظرة. قال:

- هه! هذا أنت؟

قال راسكولنيكوف:

- مات! ولقد جاء الطيب، وجاء الكاهن، وتم كل شيء كما يجب أن يتم. لا تزعج كثيراً تلك المرأة الشقية. حسبها أنها مصدومة. واسها واشدد أزرها إن أمكن...

ثم أضاف يقول ساخراً، وهو يرمي بنظرة ثابتة:

- أنا أعرف أنك رجل طيب القلب.

لاحظ نيكوديم فومتش، في ضوء المصباح، لاحظ بقعاً من الدم ما تزال طرية على صديرة راسكولنيكوف، فقال ينبهه:

- ولكنك... ملطخ بالدم!

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة ذات دلالة:

- نعم، تلطخت... أنا كلّي ملطخ بالدم.

ثم ابتسم، وحِيَّاه بحركة من رأسه، وأخذ يهبط السلم.

كان ينزل ببطء، ولكنّه كان يرتعش كمن أصابته حمى. إن موجة كبيرة من الإحساس الجديد الشديد بالحياة الفياضة تغمر نفسه الآن، على غير شعور منه. يمكن أن يشتبه هذا الإحساس بالإحساس الذي يشعر به رجل محكوم عليه بالإعدام حين يعلم فجأة بصدور قرار العفو عنه. فلما وصل إلى متصرف السلم أدركه الكاهن الذي غادر إلى بيته. تنحى راسكولنيكوف ليدع له مجال المرور، وبادله تحية صامتة. ولكنّه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه على حين فجأة وقع خطوات سريعة. كان واضحًا أن هناك من يحاول أن يلحق به. إنها بولينكا. كانت ترکض وراءه وهي تناديه صائحة: «اسمع! اسمع!»

التفت راسكولنيكوف. كانت الصبية قد هبّت الطوابق الأخيرة بسرعة شديدة، وها هي ذي الآن تقف أمامه على الدرجة التي تعلو درجته. إن نوراً ضئيلاً كان يتسلل من الفناء إلى ذلك المكان. ميّز راسكولنيكوف الوجه الذي كان ينظر إليه ويبتسم له فرحاً كما يفعل الأطفال. إنه وجه صغير هزيل، ولكنه لطيف. لقد هرعت الصبية وراءه مكلفةً بمهمة كان واضحًا أنها تسرّها كثيراً.

سألته معجلةً بصوت لاهث:

- اسمع! ما اسمك؟ وأين تسكن؟

وضع راسكولنيكوف يديه على كتفي الطفلة، ونظر إليها بنوع من الفرح. لقد وجد في النظر إليها متعةً كبيرة دون أن يعرف لماذا.

سألها:

- من أرسلك؟

فأجاّبته وهي تبتسم بمزيد من الفرح:

- أختي صونيا هي التي أرسلتني .
  - قدرت ذلك .
  - وأمي أيضاً . فحين سألتني صونيا أن أجري وراءك ، اقتربت أمي فقالت لي هي أيضاً : «نعم ، اركضي وراءه بسرعة يا بولينكا» .
  - هل تحبين أختك صونيا؟
  - أكثر مما أحب أي أحد في العالم !
- قالت بولينكا ذلك بلهجة قاطعة ، وأصبح في ابتسامتها مزيد من الجد على حين فجأة .

سألها :

- وأنا؟ هل ستحببتي؟
- فلم تزد الصبية ، في الجواب عن هذا السؤال ، على أن قرّبت وجهها من وجهه ، ومدّت إليه شفتتها الممتلتين البريئتين ، بسذاجة ، لتقبله ، ثم عانقته بذراعيها الصغيرتين ، النحيلتين كعودي ثقاب ، عناقًا قوياً ، ومالت برأسها على كتفه ، وأخذت تبكي بكاء رفيراً ، ودفت وجهها على كتفه . وقالت بعد دقيقة وهي ترفع وجهها الذي احتفظ بآثار الدموع والذي أخذت تممسحه بظهر يدها :

- مسكين ببابا!

- ثم أضافت تقول فجأة ، وهي تصطنع هيئة الجد التي يصطنعها الأطفال حين يريدون بغية أن يتكلموا «كما يتكلم الكبار» :

- ما أكثر المصائب التي تحل بنا!

- وأبوك ، هل كان يحبك؟

- فتابت كلامها تقول جادة دون إيتسام ، كشخص كبير تماماً في هذه المرة :

- من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً . كان يحبها لأنها

صغريرة جداً، ولأنها مريضة أيضاً. وكان يجيئها دائماً بهدايا صغيرة.  
ونحن، كان يعلمها القراءة.

وأضافت تقول بوقار:

- أنا، كان يعلمني قواعد اللغة، والدين. وكانت أمي لا تقول شيئاً،  
ولكننا كنا نعرف أنها تسرّ بذلك، وكان باباً يعرف هذا أيضاً. وماماً ت يريد  
الآن أن تعلمني الفرنسية، لأنه آن الأوان لأن أتعلم ...

- وهل تجيدين الصلاة؟

- طبعاً نجيد الصلاة. أنا أجيد الصلاة منذ مدة طويلة! أنا أصلي، في  
سري، لأنني كبيرة. أما كوليا وليدوتшка فهما يصليان بصوت عالي، مع  
ماما. يرتلان أولاً: «سلام عليك يا مريم ...»، ثم يتلوان دعاء آخر:  
«اغفر لأختنا صونيا يا رب، وباركها!». ويتلون بعد ذلك دعاء آخر:  
«اغفر لأبينا الآخر، يا رب، وباركه!». ذلك أن أبانا الأول مات. أما  
هذا فهو أبونا الثاني. لذلك ندعوا للأول أيضاً.

- بولينكا! اسمي أنا روبيون. فادعوا لي أنا أيضاً في بعض الأحيان.  
أضيفوا في صلاتكم: «ولروبيون المسكين»، لا أكثر من ذلك.

قالت الصبية بحماسة وحرارة:

- طول حياتي، سأدعوك لك!

ثم أخذت تضحك فجأة، واندفعت إليه فعانته بذراعيها عناقاً قوياً.  
ذكر لها راسكولنيكوف اسمه، وذكر لها عنوانه، ووعد بأن يجيء  
إليهم من الغد. فانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها بالإعجاب به. كانت  
الساعة قد تجاوزت العاشرة حين أصبح راسكولنيكوف في الشارع.  
وبعد خمس دقائق وصل إلى الجسر، إلى ذلك الموضع نفسه الذي  
ألقت فيه المرأة المسكينة بنفسها في الماء.

قال لنفسه بلهجة جازمة إحتفالية: «كفى! تراجع يا أنواع السراب!  
إلى الوراء يا أيتها المخاوف الوهمية! تقهقري أيتها الأطیاف! الحياة

موجودة! ألمست حيًّا في الساعة التي أنا فيها؟ إن حياتي لم تمت بموت المرأة العجوز! لا! إن ملوكتها الآن هو ملوكوت السماوات! كفاك أيتها المرأة العجوز! آن لك أن تدعى العالم هادئاً! أما ملوكتي أنا فهو ملوكوت العقل والضياء... و... القوة... والإرادة... وسنرى من المنتصر منا نحن الاثنين الآن!». كذلك أضاف متغطرساً، كأنما هو يخاطب ويتحدى قوَّة غامضةً ما. وتتابع يكلم نفسه فقال: «كيف رضيت أن أحيا على حيْز ضيق من المكان لا يزيد على أن يكون موطن قدم؟

... أنا الآن ضعيف جداً، ولكن... اعتقاد أن مرضي قد انتهى... وحين خرجت منذ برهة، كنت أعلم حق العلم أنه سيتهي. بالمناسبة: إن عمارة بوتشنکوف على مسافة خطوتين من هنا. سأذهب حتماً إلى بيت رازوميixin... نعم، سأذهب إليه حتى ولو كان لا يقيم في منزل قريب هذا القرب كله. إلا فليكسب الرهان! إلا فليسخر مني! أي ضير في هذا. إن ما أنا في حاجة إليه هو القوة، القوة. بغير القوة لا يصل المرء إلى شيء. والقوة لا ثناها إلا بالقوة. هذا ما لا يعرفونه!» كذلك أضاف يقول بزهو وكبراء وثقة. وغادر الجسر بخطى بطيئة. فكانت الكبراء والثقة تزدادان فيه كلما انقضت دقة جديدة؛ وكلما انقضت دقة جديدة كان يصبح رجلاً آخر. فما الذي حدث إذن حتى تحقق في نفسه هذا التحول؟ كان هو نفسه يجهل ذلك. إنه، كالغرير الذي يتعلق بقشة، يتصور أنه « يستطيع أن يحيا، وأن الحياة ما تزال موجودة، وأن حياته هو لم تمت بموت المرأة العجوز». ولعله أسرف في التعجل حين انتهى إلى هذه التبيجة، ولكن ذلك لم يخطر له ببال.

قال لنفسه فجأة: «ومع ذلك طلبت صلوات ودعوات لروديون عبد الرب، المسكين!» ولكنه لم يلبث أن أضاف: «كان هذا من باب الاحتياط على كل حال!» وأسرع يضحك من فعلته الصبيانية. لقد كان مزاجه مشرقاً إشرافاً رائعاً!

اهتدى إلى مسكن رازوميixin بسهولة: كان المستأجر الجديد معروفاً

في عمارة بوتشنوكوف، ودلل الباب على الطريق فوراً. فما إن وصل إلى متصف السلم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير. كان الباب المطل على السلم مفتوحاً على كل سعته. فكان يسمع صراغ ونقاش. إن غرفة رازوميخين واسعة سعة كافية، فكانت تضم نحو خمسة عشر شخصاً. توقف راسكولنيكوف في ردهة المدخل، ووراء الحاجز، كانت خادمتان، مستعاراتان من صاحبة البيت، منهمكتين حول سماوريين كبيرين، وكانتا تهتمان كذلك بزجاجات وصحون وأطباق مثقلة بفطائر ومشهيات. والصحون والأطباق مستعارة من صاحبة البيت أيضاً. سأله راسكولنيكوف عن رازوميخين، فهرع إليه رازوميخين مسروراً مفتوناً. إن المرء ليلاحظ من أول نظرة أنه قد أسرف في الشراب؛ ورغم أنه في العادة لا يمعن في الشراب إلى حد السكر، فإن مظهره الآن لا يخطئه الظن.

قال راسكولنيكوف بسرعة:

- اسمع! أنا لم آت إلا لأقول لك إنك كسبت الرهان، وإنه ما من إنسان يستطيع في الواقع أن يحزر ما قد يقع له... ولكنني لا أستطيع أن أدخل... أنا ضعيف إلى حد أنني قد أقع أرضاً... لذلك أقول لك: السلام عليكم وإلى اللقاء. تعال إلى غداً.

- اسمع، سأصلك، ما دمت تقول أنت نفسك أنك تبلغ من الضعف أنك...

- وضيوفك؟ قل لي: من ذلك الرجل المجنّد الشّعر الذي ألقى الآن نظره علينا؟

- ذاك؟ الشيطان وحده يعلم من هو! لا شك أنه رجل له بعمي علاقه، أو أنه دعا نفسه بنفسه!... سأترك الضيوف مع عمي! إنه رجل رائع! خسارة كبرى أنك لا تستطيع الآن أن تتعرف إلى عمي! شيطان يأخذهم جميعاً! ثم إنهم في هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما

يمكنهم من أن يفطنا إلى! وما أحوجني إلى استنشاق الهواء! يا عزيزي، لقد جئت في الأوان المناسب. فلو تأخرت دقيقتين لأخذت أتضارب معهم! قسماً بالرب! ليتك سمعت ما كانوا يقولون. ليس في وسعك أن تتصور مدى الأكاذيب التي يستطيع فرد أن يقولها! ولكن قد تستطيع أن تتصور ذلك. لم لا؟ وليكذبوا ما شاءوا أن يكذبوا على كل حال! .. ولكن لا بد أن يأتي يوم سينقطعون فيه عن الأكاذيب! .. اجلس لحظة، سأنادي زوسيموف.

هجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشرابة، وظهر عليه استطلاع قوي وفضول غريب، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء.

قال جازماً بعد أن فحص المريض كيما اتفق:

- عليك أن تنام حالاً. وعليك قبل ذلك أن تتناول شيئاً قبل أن تنام.  
ابلע هذه الحبة، هه؟ لقد حضرتها منذ قليل.

أجا به راسكولنيكوف:

- لا بلعَ حبتين إذا لزم الأمر!  
وبليع الدواء حالاً.

وقال زوسيموف لرازوميixin:

- إنك لعلى صواب حقاً إذ ت يريد أن تصحبه. ما سيحدث غداً، ستراه في حينه؛ أما اليوم فحالته ليست سيئة جداً. لقد تبدل تبدلاً واضحاً مما كان عليه قبل قليل. إن الإنسان يتعلم في كل يوم أموراً جديدة.

قال رازوميixin لراسكولنيكوف منذ صارا في الشارع:

- هل تعلم بماذا همس زوسيموف في إذني لحظة خرجنا؟ يا صاحبي، سأكلمك بصرامة، لأن هؤلاء جميعاً حمقى أغبياء. لقد طلب مني زوسيموف أن أثرثر معك أثناء الطريق، حتى تثرثر أنت أيضاً، ثم أمضى أقصى عليه فوراً كل ما تكون قد قلته... ذلك أنه قد قام في ذهنه أنك... أنك مجنون... أو أنك توشك أن تصبح مجنوناً. هل تخيل

هذا؟ أنا أرى أولاً أنك أذكي منه ثلاثة أضعاف، وأرى ثانياً أنك إذا لم تكن مجنوناً فلن تكرر بما قد يقوم في ذهنه؛ وأرى ثالثاً أن هذه الشريحة من اللحم التي هي طبيب جراح، قد أصبحت لا تُعنِي إلا بالأمراض العقلية، فاقتنت بعد حديثك مع زاميوتوف بأنك . . .

- هل روى لك زاميوتوف كل شيء؟

- كل شيء. ولقد أحسن صنعاً. إن هذا أفهمني القضية كلها، وقد فهمها زاميوتوف هو أيضاً. الخلاصة يا روبيا . . . الواقع أن . . . حقاً أنا الآن سكران قليلاً، ولكن لا ضير . . . الواقع أن هذه الفكرة . . . هل تفهم؟ . . . قد ترسخت في أذهانهم، هل تفهم؟ لم يجرؤوا طبعاً أن يفصحوا عنها صراحة، لأن الأمر سخيف حقاً، ولا سيما بعد أن اعتلقوا الدهان. نعم لقد تبدد كل شيء إلى الأبد كففاعة صابون. ولكن لماذا هم أغبياء إلى هذه الدرجة من الغباء؟ لقد ضربت زاميوتوف قليلاً. ولكن هذا سر بيتنا. أنت لا تعرف هذا، أليس كذلك؟ ذلك أنتي لاحظت أنه أميل إلى المماحكة والترقق . . . حدث هذا كله عند لوبيزا. أما الآن فقد اتضح كل شيء. والحق أن المذنب الرئيسي إنما كان إيليا بتروفتش. لقد استغل حادثة إغمائكم في قسم الشرطة، ثم خجل هو نفسه مما ذهب إليه ظنه. أنا أعلم كل شيء.

كان راسكولنيكوف يصغي بشرابة. وقد أفاض رازوميخين في الكلام بتأثير السكر.

قال راسكولنيكوف :

- إنما أغمي على لأن الجو كان خانقاً و مليئاً برائحة الدهان.

- عجيب أمرك! ما بالك تشعر أنك في حاجة إلى تبرير! لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب ، فإنما أنت تحضن المرض منذ شهر. إن زوسيموف يشهد بهذا. لا تستطيع أن تخيل مدى ما يشعر به هذا الغر، زاميوتوف، من خجل واضطراب. لقد قال: «إنني لا أساوي إصبع هذا

الرجل»، يعني إصبعك أنت. إنه يبرهن أحياناً يا أخي على أن له عواطف طيبة كريمة. ولكن الدرس الذي تلقاه اليوم في «قصر الكريستال» قد بلغ متهى الكمال. ذلك أنك أخذت في أول الأمر تخيفه حتى أخذ يرتعد! ثم كدت تجبره إجباراً على أن يصدق ذلك الأمر السخيف المستحيل... ثم إذا بك تمدُّ له لسانك مستهزئاً على حين فجأة!.. يا سلام، نعم، بلغ ذلك متهى الكمال! ظل الرجل محطمًا مسحوقاً. يميناً أنك لأستاذ، لقد عاملتهم بما يستحقون أن يعاملوا به. آه.. خسارة أنتي لم أكن هناك! هل تعلم؟ لقد كان زاميتووف ينتظرك عندي محترقاً من نفاد الصبر. كان بورفيري أيضاً يود لو يتعرف إليك... .

- آه... كذلك الرجل أيضاً؟.. ولماذا يعدونني مجنوناً؟

- أقصد... لا مجنوناً تماماً! أظن يا صاحبي أنتي أسرفت في الشرارة بعض الإسراف... أن ما خطف انتباهه هو أنك لا تهتم إلا بهذا الأمر. هم الآن يرون طبعاً لماذا تهتم به. هم الآن يعرفون الظروف، يعرفون أن ذلك كله قد اختلط بمرضك فأثارك. أنا سكران قليلاً كما ترى يا صاحبي. ولكن له فكرة ما لا يعلمه إلا الشيطان. أعود فأقول لك: أن الأمراض العقلية قد ذهبت بعقله. أما أنت فما عليك إلا أن تبصق على هذا كله... .

وصمت الاثنان نصف دقيقة.

ثم بدأ راسكولينيكوف الكلام فقال:

- اسمع يا رازوميixin، أريد أن أكلمك بصرامة. أنا آتٍ من بيت رجل ميت. أن موظفاً قد مات... وقد تركت هناك كل ما بقي لي من مال... هذا إلى أنتي قد قبَّلْتني منذ قليل مخلوقة لو كنت قد قتلت أحداً لكان في وسعها مع ذلك أن... الخلاصة... رأيت هناك مخلوقة أخرى... على قبعتها ريشة حمراء... ولكنني أرى أنتي أهدر وأهذى... أنتي ضعيف جداً... اسندني... هناك السلم... .

سؤال رازوميخين قلقاً:

- ماذا بك؟ ماذا بك؟

- رأسي يدور قليلاً، ولكن ليس هذا هو الأمر... وإنما الأمر أنني حزين جداً، حزين جداً! كامرأة... حقاً... انظر! ما هذا؟ انظر! انظر!... .

- ماذا؟

- ألا ترى؟ إن في غرفتي ضوءاً. نعم، إنني أرى الضوء من خلال الشق... .

كانا قد وصلاً من السلم إلى الفسحة السابقة على الفسحة الأخيرة، أمام باب صاحبة البيت؛ ومن هناك كان يُرى ضوء في غرفة راسكونيكوف فعلاً.

قال رازوميخين:

- غريب! لعلها ناستاسيا.

- ناستاسيا لا تجيء إليّ أبداً في مثل هذه الساعة؛ ثم إنها نائمة منذ مدة طويلة... على أن هذا كله يستوي عندي... أستودعك الله!

- ما هذا الذي تقوله؟ لا بد لي أن أصبحك طبعاً! سندخل معاً!

- أعرف أننا سندخل معاً، ولكنني أريد أن أصافحك وأن أودعك هنا. هلّم هات يدك ووذهبني!

- ماذا دهاك يا روبيا؟

- لا شيء. هيئا، ستكون شاهداً.

واستمر رازوميخين يصعدان السلم، وخطر ببال رازوميخين عندئذٍ أن زوسيموف ربما كان على حق، فدمدم يقول بينه وبين نفسه: «يا للأسف! أثرت في نفسه الاضطراب بشريري» وفيما هما يقتربان من الباب سمعاً فجأةً أصوات كلام في الغرفة. هتف زاميتوف يسأل:

- ولكن ماذا يجري هنا؟

بادر راسكولنيكوف فأمسك قبضة الباب وفتحه على سعته كلها.  
فتحه ووقف متسمراً على العتبة.

كانت أمه وأخته تنتظرانه منذ ساعة ونصف ساعة، جالستين على الديوان. ثُرى لماذا كان يتوقع ذلك أقلَّ مما كان يتوقع أي شيء آخر؟ لماذا خطرتا بياليه أقلَّ مما خطر بياليه أي إنسان آخر، مع أنه في ذلك اليوم نفسه تلقى رسالة تؤكد أن وصولهما قريباً، وشيك؟ لقد لبستا طوال مدة الانتظار لا تكfan عن مسألة ناستاسيا التي كانت ما تزال في الغرفة أمامهما، فاتسع وقتها لأن تروي لهما كل شيء عن راسكولنيكوف. ولقد استبد بهما ذعر شديد حين علمتا «أنه هرب اليوم من البيت» مريضاً، وأنه كان يهذى، على ما روت لهما ناستاسيا. «ماذا جرى له يا رب؟». ولقد بكت المرأتان كلتاهم وعانتا عذاباً شديداً خلال مدة الانتظار هذه التي دامت ساعة ونصف ساعة.

فلما ظهر راسكولنيكوف استقبلته بصيحات فرح وحماسة، واندفعتا كلتاهم نحوه، ولكن راسكولنيكوف لبث جامداً كجثة. إن فكرة مواجهة لا تطاق قد نزلت عليه عندئذٍ نزول الصاعقة؛ حتى إن ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما، ولم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك. شدته الألم والأخت إلى صدريهما، وأغرقتهما بال قبل، وكانتا تضحكان وتبكian في آن واحد. فتقدم خطوة، وترفع، ثم هوى على الأرض مغشياً عليه.

انطلقت صيحات الرعب، وأنات الخوف... وكان رازوميixin قد لبث على عتبة الباب، فهرع إلى الغرفة، وأمسك المريض بذراعيه القويتين، فأرقله على الديوان بمثل لمح البصر سرعة.

وصاح رازوميixin يقول للأم والأخت مطمئناً مهدئاً:

- ما هذا بشيء، ما هذا بشيء! ليس هذا إلا إغماء تافهاً لا قيمة له.  
لقد قال الطبيب منذ هنـيـة إن صحته قد تحسـنـتـ كثيراً، وأنـهـ شـفـيـ شـفـاءـ

تاماً... إلية بقليل من الماء! ها... ها هو ذا يسترد وعيه، ها هو ذا يستعيد شعوره!

ثم أمسك يد دونيا إمساكاً قوياً كاد يهشمها، ليجبرها على أن تميل على أخيها فترى أنه «استعاد شعوره». كانت الأم والأخت تنظران إلى رازوميخين نظرتهما إلى إله، وتشعران نحوه بامتنان عظيم وشكر عميق وعاطفة قوية وحنان شديد. كانتا قد عرفتا من ناستاسيا ما فعله هذا «الشاب الهمام» في سبيل عزيزهما روديا طوال مدة مرضه، كما نعتته بهذه الصفة بولخيريا الكسندروفنا راسكولنيكوفا، في ذلك المساء نفسه، أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا.



الثالث  
الجزء



## الفصل الأول

التعذيب

راسكولنيكوف وجلس على الديوان.

وأومأ إيماءة خفيفة يهيب برازوميixin أن يوقف سيل المواساة العارم المتقطع الذي كان يغمر به أمه وأخته، ثم أمسك بيديهما كلتيهما، وراح يتأملهما صامتاً، واحدة بعد أخرى، خلال دقيقة أو دقيقتين. خافت الأُم من نظرته، فقد كانت هذه النظرة تشف عن عاطفة عنيفة إلى حد الألم، وكانت في الوقت نفسه ثابتة تكاد تدل على جنون... وأخذت بولخيريا الكسندروفنا تبكي.

وكانت آذونات رومانوفنا شاحبة الوجه، يدها ترتجف في يد أخيها.

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يومئ إلى رازوميixin:

- عودا إلى بيتكما... معه! إلى الغد. كل شيء غداً سوف... هل وصلتما منذ مدة طويلة؟

أجبت بولخيريا الكسندروفنا:

- هذا المساء يا روديا. لقد تأخر القطار تأخراً رهيباً! ولكنني لن أتركك الآن بحال من الأحوال يا روديا. سأقضى الليل قرب...

قال وهو يحرّك يده بإشارة اهتياج وغيظ:

- لا تعذبوني هذا التعذيب!

صاحب رازوميخين يقول:

- سأبقى بقربي! لن أتركه دقيقة واحدة. ليذهب ضيفي إلى الشيطان!  
إلا فليغضبوا إذا حلا لهم أن يغضبوا! ثم إن عمي هناك يترأس الحفل...

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي تصافح رازوميخين من جديد:

- أني لي أن أوفيك حقك من الشكر!

ولكن راسكولنيكوف قاطعها مرة أخرى، وقال مردداً في غضب:

- لا أستطيع! لا أستطيع! لا تعذبوني! كفى هذا! اذهبوا... لا  
أستطيع! ..

دمدمت دونيا تقول مرتابعة:

- لنذهب يا ماما، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظة قصيرة. إن لم  
نخرج فسنقتله... هذا أكيد... .

فهتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول باكية:

- ألا يجوز لي إذن أن انظر إليه قليلاً بعد فراق دام ثلاث سنين؟  
وعاد راسكولنيكوف يتكلم فقال:

- انتظروا... أنتم تقاطعونني دائماً... وقد اضطربت أفكاري  
واختلطت... هل رأيتما لوجين؟

قالت الأم:

- لا، يا روديا، ولكنه يعرف أنها وصلنا.

ثم أضافت تقول بوجل:

- وقد عرفنا يا روديا أن بيوتر بتروفتش قد تفضل فزارك في هذا  
اليوم.

- نعم... تفضل!... يا دونيا لقد أبلغت لوجين أنني سأدرجه إلى  
أسفل السلم إذا هو جاء إلى مرة أخرى. وأرسلته إلى الشيطان.

- روديا، ما هذا الكلام الذي تقوله؟ لا شك أنك لا تريدين... مع ذلك... أن تقول إن... .

كذلك بدأت تقول بولخيريا الكسندروفنا مرتاعة، ولكنها نظرت إلى دونيا فلم تلبث أن قطعت كلامها وصمتت.

كانت آفدوبيا رومانوفنا تحدّق إلى أخيها بنظرات ثابتة وتنتظر التتمة. وكانت المرأة قد عرفتا أمر المشاجرة من ناستاسيا، بمقدار ما كانت ناستاسيا قادرة على أن تصوّرها، فكانتا لذلك في حيرة شديدة واضطراب قوي.

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال بجهد ومشقة:

- دونيا، أنا لا أريد هذا الزواج. لذلك يجب عليك أن تعلّمي له رفضك من الغد. لا أحب أن أراه بعد الآن!

صاحت بولخيريا الكسندروفنا:

- رياه!

وبدأت آفدوبيا رومانوفنا تتكلم فقالت باندفاع:

- هلاً فكرت قليلاً فيما تطلبه مني يا أخي! ...

ولكنها لم تلبث أن سيطرت على نفسها، فأضافت تقول برفق وهدوء ولين:

- قد لا تكون صحتك الآن حسنة... أنت متعب!

- أنا أهذى إذن؟ لا، أنا لا أهذى! إنك تريدين أن تتزوجي لوجين في سبلي أنا! ولكنني أنا أرفض هذه التضحيات. لذلك ستكتفين له اليوم رسالة قطيعة. وسأقرأ الرسالة في الصباح، ويتهمي كل شيء.

هفت الفتاة تقول مستنكرة:

- لا أستطيع أن أفعل هذا. وبأي حق... .

فقط اعترتها أمها مرتاعة وهي تندفع إليها:

- أنت أيضاً سريعة الغضب يا دونيتشكا... كفى الآن... غداً...  
ألسنت ترين إذن أنه... آه... والأفضل أن نصرف أيضاً!

وصاح رازوميخين الثمل يقول:

- إنه يهزمي! وإلا فهل كان يجرؤ أن... لسوف تخرج من رأسه هذه  
الحمقات كلها غداً. لقد طرده اليوم فعلاً. هذا صحيح. وغضب الآخر  
طبعاً. كان يفيض في الكلام هنا، ويعرض علمه ومعرفته. لكنه خرج  
مع ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه...

هتفت بولخيريا الكسندروفنا قائلة:

- أصحيح إذن؟

وقالت دونيا وقد امتلاً قلبها شفقةً ورحمةً:

- إلى الغد يا أخي. هلمي يا أمي! أستودعك الله يا روديا!

كرر راسكولنيكوف يقول مستجماً آخر قوله:

- اسمعي يا أختي! أنا لا أهزمي. ليس هذا صحيحاً. إن هذا الزواج  
دناءة! لنفرض أنني أحط إنسان. ولكن يجب عليك أنت أن لا... إنه  
يكفي أن يكون واحد منا... ثم إنني على كوني أحط إنسان، لن أعدك  
أختي إذا أنت... فإذا لوجين وأماما أنا! وانصرفوا الآن!

زار رازوميخين يقول:

- ولكنك جُنت! يا لك من طاغية مستبد!

لم يجب راسكولنيكوف، ربما لأنه كان لا يملك من القوة ما يمكنه  
من الكلام. وعاد يرقد على الديوان، واستدار إلى جهة الحائط، مهدود  
القوى تماماً. نظرت آفدوتيا رومانوفنا مستوضحة إلى رازوميخين.  
كانت عيناها السوداوان تستطuan. حتى لقد ارتعش رازوميخين بتأثير هذه  
النظرة. ولبشت بولخيريا الكسندروفنا جامدة مذهولة. وهمست تقول  
لرازوميخين يائسة:

- لكنني لن أستطيع أن أنصرف بحال من الأحوال. سأبقى هنا، في مكان ما. أصحب أنت دونيا.  
فأجابها رازوميخين همساً كذلك، ولكنه كان غاضباً خارجاً عن طوره:

- بهذا تفسدين كل شيء. لنخرج إلى فسحة السلم على الأقل. يا ناستاسيا، هاتي لنا ضوءاً.

حتى إذا صاروا في السلم، تابع كلامه يقول بصوت خافت:

- أحلف لكما أنه كاد يضرربنا أنا والطبيب منذ قليل. هل تفهمان؟  
نعم، كاد يضررب الطبيب نفسه. وأضطرر الطبيب أن يطيعه حتى لا يهيجه مزيداً من الهياج، فانصرف؛ ورغم أنني بقيت أنا تحت، من أجل أن أحرسه، فقد استطاع أن يلبس ثيابه... وأن يهرب! فإذا أهجناه الآن وأغضبناه، فسيهرب، أو هو سيحاول، في وسط الليل، أن يرتكب عملاً ضد نفسه...

- ما هذا الذي تقوله؟

- ثم إن آفدوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تقضي الليل وحيدة في تلك الغرفة المفروشة. هلاً فكرت قليلاً في المنزل الذي تنزلونه! ألم يكن في وسع ذلك الوغد بيوتر بتروفتش أن يجد لكم مسكنًا أليق؟ على أنني سكران قليلاً، لذلك شتمت... لا تولوا هذا انتباها!

قالت بولخيريا الكسندروفنا مصراً:

- إذن سأمضي أتوسل إلى صاحبة البيت أن تهب لنا، أنا ودونيا، ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة، لا أستطيع أن أتركه وهو على هذه الحال، لا أستطيع.

كانوا قد هبطوا طابقاً وهم يتكلمون، فأصبحوا الآن أمام باب صاحبة البيت. وكانت ناستاسيا تقدمهم درجة فتنير لهما المكان. كان رازوميخين يعاني اندفاعاً خارقاً. إنه قبل نصف ساعة، على إفراطه في

الثرثرة أثناء مراقبته راسكولنيكوف إلى بيته - كما اعترف هو نفسه بذلك - كان يشعر بأنه صاح تقربياً، وبأنه ممتلىء نشاطاً رغم المقادير الضخمة من الخمرة التي شربها في السهرة. أما الآن فهو في حالة نشوة شديدة، والخمرة تصعد إلى رأسه بقوة متزايدة. هو الآن واقف بين السيدتين، ممسك يديهما، يحاول بصراحة قوية أن يقنعهما بالحجج التي يعرضها. وأغلب الظن أنه من أجل أن يقنعهما بمزيد من القوة إنما كان يشد يد كل منهما بما يشبه الكلابة، عند كل كلمة يقولها، فإذا هو يوجعهما، بينما عيناه تلتهمان آفدوتيا رومانوفنا التهاماً، من دون أي تحرّج. فكانتا من شدة الألم تخْلُصان أصابعهما أحياناً من قبضة يده الضخمة المعروقة، ولكنه لا يتتبه هو إلى هذا، حتى ليشدهما إليه شدأً أقوى. ولو قد طلبتا منه في تلك اللحظة أن يرمي نفسه من أجلهما إلى أسفل السلم منكس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد. كانت بولخيريا الكسندروفنا تستغرب بعض الاستغراب أن يضغط الشاب يدها هذا الضغط القوي، وأن يكون تصرفه شاذًا هذا الشذوذ، ولكنها من شدة تأثيرها حين تذكر ابنها روديا، ومن أنها ترى في رازوميخين عوناً أرسلته العناية الإلهية، كانت لا ت يريد أن تعرف لنفسها بهذه التفاصيل. أما آفدوتيا رومانوفنا المتأثرة أيضاً، فقد كانت، رغم أنها ليست بالفتاة الوجلة، لا تخلو من شعور بالدهشة والذهول بل ومن إحساس بالخوف والرعب، حين يلتقي بصرها بتلك النظرة الملتمعة التي يلقاها عليها صديق أخيها، غير أن الثقة العظيمة التي أوحى إليها بها حديث ناستاسيا عن هذا الرجل الغريب هي التي كانت تنتزعها من الرغبة في الهروب منه جارأةً معها أمها. ثم إنها كانت تدرك حق الإدراك أنهما أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن. يضاف إلى هذا أنها قد هدأت بعد عشر دقائق: فرازوميخين يملك موهبة الظهور على حقيقته كاملةً من أول نظرة، أيةً كانت الحالة التي هو فيها، فإذا بمن يراه يعرف من يعامل.

هف رازوميخين يقول ليقنع بولخيريا الكسندروفنا:

- لا مجال للتفكير في الالتجاء إلى صاحبة البيت! تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها. لو بقيت لأثرت غضبها وحنقها رغم أنك أمه، ولا يدرى إلا الشيطان ماذا يمكن أن يحدث! اسمعيوني ، إليك ما سأفعله: تبقى ناستاسيا الآن إلى جانبه، وأصحابكما أنا كلتيكما إلى بيتكما، لأنكما لا تستطيان أن تسيرا وحيدتين هكذا في الشوارع. عندنا ، في بطرسبرج ، من هذه الناحية . . . لا بأس . . . فمتي أوصلتكم رجعت إلى هنا راكضاً ، فما أن ينقضى على ذلك ربع ساعة حتى أعود إليكما من جديد لأخبركما بكل شيء: أقول لكما كيف حالته ، وهل نام أم هو لم يتم ، إلخ إلخ . لكما عليّ عهد الشرف لأعودنّ إليكما بعد ربع ساعة . ثم أثب إلى بيتي حيث يوجد ضيوفهم جميعاً سكارى ، فأخذ زوسيموف - إن زوسيموف هو طبيبه ، وهو الآن في بيتي لكنه ليس بسكران ، هو لا يسكر أبداً - آخذه وأمضي به إلى روديا . ومن هناك نجيء إليكما فوراً نحن الاثنين ؛ فبذلك تتلقيان أخباراً عن روديا مرتين في غضون ساعة ، وفي إحدى هاتين المرتين تتلقيان الأخبار من فم طبيب ، نعم من فم طبيب ، فيكون فيها من العجد ما لا يكون في الأخبار التي قد أنقلها أنا وحدي بطبيعة الحال . . . فإذا لم يكن روديا بخير اصطحبه بكم إلى حتماً ، يميناً لأصطحبه بكم إلى إيه إن لم يكن بخير . . . أما إذا كانت حالته حسنة ، فلن يكون عليكم عندئذ إلا أن ترقدا وتناما . وأننا سأقضى الليلة هنا ، على فسحة السلم ؛ ولن يلاحظ هو ذلك . وسأطلب من زوسيموف أن يبيت عند صاحبة البيت ، فيكون بذلك تحت تصرف في وردن إشارتي . من ينفعه في هذا الوقت أكثر ، أنتما أم الطبيب؟ الطبيب طبعاً! فعوداً إذن إلى بيتكما! ولا مجال للتفكير في الالتجاء إلى صاحبة البيت . أنا يمكن أن أبكيت عندها ، أما أنتما فلا . لن تحب أن تبكيت عندها . . . لأنها امرأة حمقاء . سوف تغار . . . سوف تغار بسبب آفدوتها رومانوفنا . وبسببك أنت أيضاً . . . هذه امرأة غريبة الأطوار جداً . على أنني أنا أيضاً غبي ! لا بأس . . . هيا بنا . . . أثقان بي؟ أثقان بي أم لا؟

قالت آفدوتيا رومانوفنا:

- فلنصرف يا ماما. لا شك في أنه فاعل ما يقول. لقد رد أخي إلى الحياة. وإذا صح أن الطبيب يقبل أن يقضي الليلة هنا، فهل نتمنى خبراً من هذا؟

هتف رازوميخين يقول مفتتنا غاية الإفتان:

- حقاً... إنك لتفهميني لأنك ملاك! هيئا بنا. يا ناستاسيا، اصعدني إلى فوق، فوراً، مع النور، وابقى هناك بالقرب منه، وسأعود أنا بعد ربع ساعة.

لم تعارضه بولخيريا الكسندروفنا أية معارضة، رغم أنها لم تقتنع اقتناعاً تاماً. وتأبط رازوميخين ذراع السيدتين وجرهما على السلالم. ولكن الأم ظلت قلقة، فكانت تقول لنفسها: «قد يكون شاباً ذا نخوة، ولكن فهو قادر على أن يفي بوعده، وهو على هذه الحال؟»

قال رازوميخين وكأنه حذر ما يدور في خاطر بولخيريا الكسندروفنا، بينما هو يسير على الرصيف بخطى واسعة فلا تكاد تستطيع السيدتان أن تجاريه إلا بمشقة كبيرة، وذلك أمر لم يلاحظه على كل حال؛ قال:

- آ... أنا أفهم! إنك تقدرين أنني في الحالة التي أنا فيها، لا... نعم... أنا سكران، سكران تماماً، ولكن ليست هذه هي المسألة. ليست الخمرة هي التي أسكرتني... فالضررية التي سقطت على رأسي أنها سقطت على رأسي حين رأيتكم! على كل حال، لا تكرثوا لهذا! أنا لا شيء! أنا أهذى، أنا لست جديراً بكم، لست جديراً بكلمة... وما أن أوصلكم، حتى أذهب إلى القناة، فأصب على رأسي جردين من الماء فأفيق فوراً. ليتكما تعرفان كم أحبكم كليكم! لا تضحكا! لا تزعلا! ازعلا من جميع الناس، ولكن لا تزعلا مني أنا! أنا صديقه، فأنا إذن صديقكم. ذلك ما أريد أن يكون! ولقد أوجست هذا منذ السنة الماضية... نعم، في لحظة ما، هكذا... على أنني لم أوجس شيئاً

البته، لسبب بسيط هو أنكما هبطتما عليّ من السماء. من الجائز جداً أن لا أنام طوال الليل. كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يجنّ روديا. لذلك يجب تحاشي إهاجته.

هتفت الأم تسأله:

- ما هذا الذي تقوله؟

وسائله آفدوتیا رومانوفنا مرؤعة:

- حقاً؟ الطيب نفسه قال لك؟

- قال لي! ولكن كلامه ليس صحيحاً، ليس صحيحاً على الإطلاق.  
لقد أعطى له دواء،رأيت هذا المسحوق ولكنكم وصلتما... آه...  
كان من الأفضل أن لا تصلا إلا غداً! على كل حال، لقد أحسنا صنعاً إذ  
انصرفنا. وبعد ساعة ستأتيكم زوسيموف بتقرير كامل. ليس زوسيموف  
سكران مثلي، ليس هو سكران. وأنا لن أكون سكران أيضاً!... لماذا  
شربت حتى ثملت؟ لماذا؟ لأنهم جرؤوني إلى مناقشتهم، أولئك  
الملاعين! وكنت مع ذلك قد آلئت على نفسي أن لا أناقش. وما  
أسف ما كانوا يقولونه! كدت أن أقتل معهم! وتركت عمي يترأس  
بدلاً مني. هل تصدقان؟ أنهم ينادون باللاشخصية ويعتبرونها أفضل  
شيء... يقولون إن على المرء أن لا يكون عين نفسه. ويسمون هذا  
ذرورة التقدم. ويا ليت السخافات التي قالوها كان فيها شيء من أصالة  
وطرافـة. أبداً...

قالت بولخيريا الكسندر وفنا خجلةً وجلةً :

اسماعيل -

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده إلا اندفاعاً وحماسة. فصاح يقول بصوت أعلى:

- آه، إنما أنا أحب الهدر والهذيان والخطأ والضلال. إن الخطأ هو الميزة الوحيدة التي يمتاز بها الكائن الإنساني على سائر الكائنات الحية.

من يخطئ يصل إلى الحقيقة. أنا إنسان لأنني أخطئ. ما وصل امرؤ إلى حقيقة واحدة إلا بعد أن أخطأ أربع عشرة مرة وربما مائة وأربع عشرة مرة! وهذا في ذاته ليس فيه ما يعيب. لك أن تقول آراء جنونية، ولكن لتكن هذه الآراء آراءك أنت، فأغمرك بالقبل. لأن يخطئ المرء بطريقته الشخصية، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد حقيقة لفنه إليها غيره. أنت في الحالة الأولى إنسان، أما في الحالة الثانية فأنت ببغاء لا أكثر. الحقيقة لا تطير، أما الحياة فيتمكن خنقها. إلى أين وصلنا من هذا الآن؟ نحن جميعاً، بغير استثناء، سواء في ميدان العلم، أو الثقافة، أو الفكر، أو العبرية الخالقة، أو المثل الأعلى، أو الرغبات، أو اللبرالية، أو العقل، أو التجربة، نحن في كل شيء، في كل شيء، في كل شيء، نعم، في كل شيء، ما زلنا في الصفوف الإعدادية لدخول المدرسة الثانوية! نحب أن نكرر ونمضخ أفكار الآخرين، وتعودنا على ذلك! أليس هذا صحيحاً؟ أليس الأمر كما أقول؟ أليست هذه هي الحقيقة؟

فذلك قال رازوميخين وهو يهزُ يدي السيدتين ويضغطهما.

فدمدمت المسكينة بولخيريا الكسندروفنا تقول:

- الله... لا أعلم!

وأضافت آفدوتييا رومانوفنا قائلة بلهجة الجد:

- نعم، هو هذا، هو هذا، رغم أنني لا أوقفك على جميع النقاط. ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم، لأن رازوميخين قد ضغط يدها في هذه المرة ضغطاً قوياً فلم تملك إلا أن تطلق تلك الصرخة.

وهتف رازوميخين يقول مفتناً:

- نعم؟ تقولين نعم؟ إلا أنك إذن... إلا أنك إذن لينبوع خير، وطهارة، وعقل، وكمال. ناوليني يدك، ناوليني يدك، وأنت أيضاً، ناوليني يدك. أريد أن أقبل يديكما في هذا المكان، في هذه اللحظة، جائياً على ركبتي، راكعاً!

وركع في منتصف الطريق، الذي كان خالياً في تلك اللحظة من حسن الحظ.

صرخت بولخيريا الكسندروفنا تقول قلقة أشد القلق:

- كفى، من فضلك! ما هذا الذي تفعله؟

وقالت دونيا ضاحكة، رغم قلقها هي أيضاً:

- انهض، انهض! ..

- لن أنهض بحال من الأحوال، لن أنهض إلا بعد أن تناولاني يديكما! نعم، هكذا. وكفى الآن! أنهض ونمضي. أنا امرؤ غبي مسكون. أنا لست جديراً بكما. أنا سكران. وإنني لأشعر من هذا بخزي وعار... أنا لا أستحق أن أحبكم. أما السجود أمامكم كما فهو واجب يقع على كل إنسان ليس أحمق كل الحمق. لذلك سجدت... ولكن هذا هو مسكنكم. يكفي هذا وحده سبباً أجاز لروديون أن يطرد أصحابكم بيوتر بتروفتش شر طردة! كيف أباح لنفسه أن يُسكنكم في غرفة مفروشة بهذه الغرفة؟ هذه فضيحة! هل تعلم أن نوع الناس الذين يؤزونهم هنا؟ ثم يقول إنك خطيبته!.. أنت خطيبته أليس كذلك؟ فاسمح لي أن أقول لك إذن أن خطيبك رجل قذر!

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلم فقالت:

- اسمع يا سيد رازوميخين؛ إنك تنسى أن...

فأسرع رازوميخين يقول مستدركاً:

- نعم، نعم، أنت على حق! أنا أقول سخافات! إنني لأشعر بخجل وعار. ولكن... ولكن لا يمكنك أن تغضبي لأنني كلمتك بهذه الطريقة. ذلك أنني تكلمت مخلصاً صادقاً، ولم أقل ذلك الكلام لأنني... هم... لا... لن أقول... لو قلت لكان كلامي دناءة... الخلاصة... أنا لم أقل ذلك لأنني... بك... هم... لا، ما ينبغي أن أقول لماذا... لا أجرؤ... ولكن، حين دخل علينا في هذا اليوم،

أدركتنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس منا. لا لأنه وصل مجعداً  
الشعر وقد خرج من عند الحلاق رأساً، لا ولا لأنه أسرع يعرض ثقافته  
ومعلوماته، بل لأنه جاسوس ومستغل لأنه بخيل كيهودي، لأنه دجال،  
ولأن هذا كله واضح لا يخفى! أتظناته ذكيًا؟ لا بل هو غبي، غبي! لهذا  
زوج لك؟ لا، لا!

ثم أضاف يقول وهو يتوقف فجأة لحظة بدأوا يصدعون السلم :

- اسمعا يا سيدتي: إن الضيوف الذين هم في بيتي الآن أناس شرفاء  
مهما يكونوا سكارى، ورغم أنها جميعاً نهذر ونهذى - وأنا أيضاً أهذر  
وأهذى - فإن هذرنا وهذيانا سيفضيان بنا يوماً إلى الحقيقة، لأننا نحن  
نسير في طريق الإخلاص والتجرد عن المنفعة، وليس هذا طريق بيوتر  
بتروفتش، فإن بيوتر بتروفتش لا يسلك طريق التجرد عن المنفعة...  
نعم، فرغم أنني وصفتهم في هذا المساء بجميع النعوت وانهلت عليهم  
بجميع الشتائم، فإني أقدرهم جميعاً حق قدرهم. وأنا أحب زاميتوف  
رغم أنني لا أحترمه. أنا أحبه فعلاً، لأنه غر على كل حال. أحب حتى  
ذلك الشرس زوسيموف، لأنه شريف ولأنه يعرف مهنته. ولكن كفى  
الآن هذا. لقد قلت كل شيء... وسامحانى، أليس كذلك؟ هيئاً بنا!  
أني أعرف هذا الدھلیز. لقد سبق أن جئت إلى هذا المكان، وهنا، في  
رقم 3، وقعت فضيحة. أين تسكنان؟ في أي رقم؟ ثمانية؟ طيب...  
أغلقا علينا الباب طوال الليل، ولا تدعوا لأحد أن يدخل. سأعود  
إليكم بأنباء بعد ربع ساعة، وبعد نصف ساعة من عودتي الأولى،  
سأعود ثانية مع زوسيموف، ستريان. أستودعكم الله. أنا ذاهب!

قالت بولخيريا الكسندروفنا لابنتها خائفة مضطربة :

- رياه! ماذا سيحدث يا دونيتشكا!

فأجابت دونيا وهي تخلع قبعتها وطرحتها:

- هذئي روعلك يا ماما. إن الله نفسه هو الذي أرسل إلينا هذا السيد،

رغم أنه مسرف في السكر. في وسعنا أن نعتمد عليه، أؤكد لك.  
انظري إلى كل ما فعله في سبيل أخي من قبل أن نصل . . .

- آه يا دونيتشكا. الله يعلم هل يعود! وكيف أمكن أن أوفق على  
ترك روبيا؟ . . ثم إنني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة! ما أقساه!  
لكانه لم يُسر برفقيننا!

وتلاؤات في عيني الألم دموع.

- لا يا أماه. ليس هذا هو الأمر. أنت ما رأيته رؤية جيدة، لأنك  
كنت تبكين طول الوقت. إنه مريض مرضًا شديداً. فهذا المرض هو  
سبب كل شيء.

- آه . . . المرض! ماذا سيحدث؟ وهل رأيت بأية لهجة خاطبك؟

أضافت الألم هذا السؤال الأخير، وهي تختلس نظرة وجلة إلى عيني  
ابتها لتقرأ ما يدور في ذهنها، متغيرة بعض التعزيز منذ الآن، لأن دونيا  
دافعت عن أخيها، فهذا دليل على أنها غفرت له.

ثم أردفت تقول وهي ت يريد أن تعرف رأي ابتها دون أي تكتم:

- أنا واثقة بأنه سيرجع غداً إلى عواطف أخرى.

فرئت آندوتيما رومانوفنا تقول بللهجة قاطعة:

- أما أنا فواثقة بأنه سيكرر غداً ما قاله اليوم . . . في هذا الموضوع.

وبهذا الرد وضعت الفتاة حدأً للحديث، فقد كانت المسألة صعبة  
لأنها تتناول نقطة كانت بولخيريا الكسندروفنا، في هذه اللحظة على  
الأقل، تخشى المجازفة في الكلام عليها. واقتربت دونيا من أمها  
فقبّلتها. فعانتها أمها عناقاً قوياً دون أن تقول كلمة واحدة. ثم جلست  
تنتظر عودة رازوميixin قلقةً، وتنظر وجلةً إلى ابتها التي غرفت في  
خواطرها وأفكارها مضطربة هي أيضاً، وأخذت تذرع الغرفة طولاً  
وعرضاً، مصالبةً ذراعيها على صدرها. إن هذا المشي في الغرفة طولاً

وعرضاً هو عادة من عاداتها، وأمها تخشى دائمًا في مثل هذه الظروف أن تذكر تأملاتها.

لا شك أن رازوميخين السكران كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا الهيام المباغت بأفدوتيا رومانوفنا. ولكن ما أكثر الذين لو رأوا أفادوتيا رومانوفنا، ولا سيما في ذلك الوقت الذي كانت تطوف فيه بالغرفة حزينةً مفكراً مصالبة ذراعيها على صدرها، ما أكثر الذين لو رأوها لعذروا الفتى ولو كان في حالة طبيعية من غير سكر. إن أفادوتيا رومانوفنا فتاة جميلة جداً، فارعة القوام، معتدلة القد، قوية، واثقة بنفسها كما تشهد بذلك كل إشارة من إشاراتها دون أن يجرّدها بذلك من شيءٍ من مرونته ولبيونتها، وخفتها ورشاقتها. هي تشبه أخاها وجهها، ولكنها يمكن أن توصف بأنها «آية في الجمال». شعرها كستنائي اللون، أزهى قليلاً من شعر أخيها. وعيناها اللتان تشبهان أن تكونا سوداوان، تلتمعان وتسطعان، وتعبران عن عزة وشمم، وتعبران أحياناً عن رقة وعدوبه وطيبة لا حدود لها. وهي شاحبة، لكن شحوبها ليس شحوب المرض، فإن وجهها يشع نضارة وعافية. وفمهما أميل إلى الصغر، وشفتها السفلية حمراء قانية، بارزة قليلاً كبروز ذقنها كذلك. وهذا هو العيب الوحيد في ذلك الوجه الرائع؛ على أنه عيب يضفي عليها طابعاً أصيلاً من صلابة وثبات، بل من تعالى وكبراء. وإذا كان وجهها يعبر عن الجد والتفكير أكثر مما يعبر عن المرح، فإن ابتسامتها، وضحكتها الفرحة التي هي ضحكة الشباب والتي فيها شيءٌ من إهمال، تناسبان وجهها كثيراً. فلا غرابة إذن أن نرى رازوميخين الذي يتصرف بالحرارة والبساطة والاستقامة، أن نرى رازوميخين القوي كعملاق، الشمل فوق ذلك، الذي لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا الجمال، لا غرابة أن نراه يفقد عقله منذ أول نظرة. يضاف إلى ذلك أن المصادفة قد شاءت، بما يشبه العمد، أن يرى دونيا في اللحظة السارة التي كانت فيها زاخرة بالفرح لرؤيه أخيها، وأن يراها بعد ذلك وقد أخذت شفتها السفلية تترجف

استياءً من مطالب هذا الأخ القاسية الواقحة، فكيف كان يمكنه أن يقاوم وأن يصمد؟

ولقد صدق حين قال على السلم، في سكره، أن صاحبة البيت الذي يسكن فيه راسكولنيكوف، أي براسكوفيا بافلوفنا الغربية الأطوار، سوف تغار لا من آفدوتيما رومانوفنا فحسب، بل ربما غارت كذلك من بولخيريا الكسندروفنا، فإن هذه رغم أنها بلغت الثالثة والأربعين من العمر، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير بوجهها الذي يحمل بقايا الجمال السابق، وهذا هو في كثير من الأحيان شأن النساء اللواتي استطعن الاحتفاظ حتى اقتراب الشيخوخة بصحو الذهن، ونضارة الإحساسات وحرارة القلب الطاهر الشريف (ولنصل إلى هذا مستطردين أن الاحتفاظ بهذا كله هو للمرأة الوحيدة التي تستطيع بها أن لا تفقد جمالها حين تشيخ). صحيح أن شعر بولخيريا الكسندروفنا قد أخذ بيض ويتناثر؛ وصحيح أن غضونا صغيرة رقيقة قد ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة؛ وصحيح أن خديها قد خسفا وجفأ بسبب الهموم والأحزان؛ ولكن هذا الوجه قد ظل جميلاً، حتى لم يكن أن يقال إنها صورة دونيا بزيادة عشرين عاماً، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلية عند الأم ليست بارزة. وكانت بولخيريا الكسندروفنا امرأة حساسة، ولكن هذه الحساسية لا تمضي إلى حد العاطفة المُضطئعة. وهي خجولة، ميالة إلى المغاراة، مستعدة للتنازلات، حتى حين يخالف ذلك اقتناعاتها. ولكن لهذا حدوداً. فمتي كان الأمر أمر شرفها وواجبها واقتناعاتها العميق، مما من ظرف من الظروف يمكن أن يحملها على تخطي تلك الحدود.

ما إن انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميixin، حتى نُقر الباب نقرتين خفيفتين متباينتين: لقد عاد رازوميixin.

أسرع يقول منذ فتح له:

- لن أدخل. لا يتسع الوقت. إنه ينام نوماً هادئاً مريحاً. أسأل الله أن يظل نائماً هذا النوم عشر ساعات متتالية! ناستاسيا قائمة عليه. أوصيتها أن لا تتركه إلى أن أرجع. والآن سأمضي أحضر زوسيموف. سيحدثكم ما هو عن حاله. ثم تهدأ أن فتنaman، ذلك أنتى أرى أنكما تكادان تسقطان من فرط التعب... .

قال ذلك ثم اندفع منصراً.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فرحةً كل الفرح:

- ما أعظم ما يمتاز به هذا الفتى من فطنة وإخلاص!

فأجابت آفدوتيا رومانوفنا تقول بشيء من الحرارة وهي تستأنف سيرها في الغرفة طولاً وعرضًا:

- إنه رجل رائع فيما يبدوا!

وما إن انقضت على ذلك ساعة واحدة، حتى سمعت أصوات وقع أقدام في الدهليز، ونُقر الباب من جديد. كانت المرأتان قد انتظرتا في هذه المرة وهما ممتلئتان ثقة بصدق وعد رازوميixin. وقد جاء رازوميixin مصطحبًا زوسيموف فعلاً. وقد رضي زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف، ولكنه لم يقبل أن يجيء إلى السيدتين إلا بشدّ الأذن، لأنه كان يرتاب في حالة رازوميixin. فما أسرع ما أرضى غروره، وحتى شعر بشيء من السرور، حين أدرك أنهما كانتا تنتظرانه حقاً كما يُنتظر عِرَاف. وقد لبث معهما عشر دقائق تماماً، وأفلح كل الإفلاح في أن يقنع بولخيريا الكسندروفنا وأن يهدىء روعها. وكانت أقواله كلها تشهد باهتمامه الشديد بالمريض؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئته مسرفة في الجد والرصانة تناسب طبيباً في السابعة والعشرين من عمره يُستشار في ظرف خطير، فلم ينطق بكلمة واحدة تبتعد به عن موضوعه، لا ولا أظهر أية رغبة في أن تقوم بيته وبين السيدتين صلات شخصية مستديمة وأكثر مودة. وإذا لاحظ منذ دخوله

جمال آفدوتيا رومانوفنا الباهر، حاول فوراً أن لا ينتبه إليها أي انتبه، وظل طوال مدة الزيارة لا يكلم إلا بولخيريا الكسندروفنا وحدها. وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه. أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن أنه وجده هذه المرة في حالة مرضية على وجه الإجمال؛ وشخص المرض فقال إن له، عدا الظروف المادية المؤسفة التي عاش فيها المريض خلال الأشهر الأخيرة، له عدا تلك الظروف أسباباً نفسية، « فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة، منها عوامل نفسية ومادية، فهو ثمرة الهموم والمخاوف وبعض الأفكار، إلخ ». وإذا لاحظ أن آفدوتيا رومانوفنا تصغي إليه بانتباه شديد جداً، أفاد في شرح رأيه مجاملأً. حتى إذا سأله بولخيريا الكسندروفنا بصوت قلق خجول عما إذا كان هنالك شيء من «أعراض جنون...»، أجابها وهو يبتسم ابتسامة هادئة صريحة بأن أقواله قد بولغ في تفسيرها؛ فلشن كان صحيحاً أنه لاحظ لدى المريض ميلاً إلى مرض الفكرة الثابتة، لكن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة لا سيما وأنه، هو زوسيموف، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب فإن « علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهدي حتى هذا اليوم، أو حتى هذا اليوم تقريراً، وأضاف زوسيموف يقول: « ولا شك أن وصول أسرته سيحسن إليه كثيراً، وسيسرّي عنه، أي سيساعد على شفائه »، هذا إذا أمكن (أضاف ذلك بلهجة ذات دلالة) أن « يجب صدمات شديدة جديدة ». قال زوسيموف ذلك ثم نهض، فحيّا تحية هي مزيج من جد ومودة، وخرج تغمّره عبارات الامتنان والدعاء من بولخيريا الكسندروفنا. حتى إن يد آفدوتيا رومانوفنا، الصغيرة، قد امتدت إليه من تلقاء نفسها، فصافحها، وخرج مفتوناً بهذه الزيارة، ومفتوناً بنفسه أكثر من ذلك أيضاً.

قال رازوميختين يختتم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف:

- سنتحدث غداً. أما الآن فيجب أن تناهـا، يجب أن تناهـا حالـاـ. سأجيـنكمـا غداـ في أول ساعـةـ، لأنـيـنـكمـا بكلـ شيءـ.

قال زوسيموف بحرارة حين صارا في الشارع:

- فتاة فتاة، آفدوتيَا رومانوفنا هذه!

زارازوميخين يقول:

- فتاة؟ تقول فتاة؟

وهجم عليه فجأة، فامسك بخناقه، وتتابع كلامه وهو يهزه من ياقته  
ويضغطه على حائط:

- إذا تجرأت في ذات يوم... هل تسمع؟ هل تسمع؟ هل تسمع؟  
فالزوسيموف متighbطاً:

- دعني يا سكير!

فلما تركه حدق إلى رازوميخين بنظرة ثابتة ثم انفجر يضحك في  
قهقهة شديدة. كان رازوميخين واقفاً أمامه، متراجعاً الذراعين، غارقاً في  
تأملات سوداء خطيرة.

قال رازوميخين مظالم الوجه متوجهماً:

- أنا حمار طبعاً، ولكن أنت أيضاً، أنت أيضاً...

- لا يا صاحبي. شأني أنا شأن آخر. أنا لا أفكر في سخافات.

وأخذ يسيران دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وكان يبدو على  
رازوميخين أنه مهموم جداً. فلما وصلا إلى قرب عمارة راسكولنيكوف  
قطع رازوميخين الصمت فقال:

- اسمع يا زوسيموف. أنت فتى رائع، ولكنك بالإضافة إلى جميع  
عيوبك السيئة، تمتاز بأنك زير نساء، وبأنك من أكثر أمثالك خلاعة،  
بل أنت نجس إلى أبعد حدود النجاسة. أنت مخلوق ضعيف ذو  
أعصاب ضعيفة. أنت ترفة نفسك، وتسمن جسمك، ولا تتورع عن  
شيء، لذلك أقول إنك نجس، فبهذا أنما يصبح المرء نجساً. وقد  
بلغت من الرخاؤة حداً لا أستطيع معه أن أفهم كيف أمكنك أن تكون

رغم هذا طيباً بارعاً، بل طيباً مخلصاً متفانياً. أنت تنام على فراش من ريش (طبيب ينام على فراش من ريش!) ثم تنهض في الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرض! أحسب أنك بعد ثلاث سنين لن ترضى أن تنهض في سبيل مريض. على أن المسألة ليست هذه! إليك المسألة: ستبيت هذه الليلة في شقة صاحبة البيت (لقد استطعت أن أقنعها بذلك بعد لأي)، وسأبكي أنا في المطبخ. هذه فرصة لك من أجل أن تتعرف إليها عن كثب... ولكنها يا صاحبي ليست كما تظن. ليس هنا ظل من... .

- ولكنني لا أظن شيئاً بتة!

- هنا يا صاحبي سكت وخرق وحياة وخجل وعفة لا تغالب. وهنا بالإضافة إلى ذلك تنهدات ذوبان ذوبان الشموع، نعم ذوبان ذوبان الشموع! خلصني منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض! وهي جذابة إلى أبعد حدود الجاذبية... سأعرف كيفأشكر لك هذا الصنيع، أحلف لأعرفنَّ كيفأشكر لك هذا الصنيع!

أخذ زوسيموف يصححه مزيداً من الضحك؛ ثم قال:

- ما أشد اضطرابك! ولكن ما عسانى صانعاً بها؟

- أؤكد لك أن هذا لن يتبعك كثيراً. ستجلس بالقرب منها، فتقول لها أي شيء يخطر ببالك. نعم، لن يكون عليك إلا أن تجلس وأن تتحدث. ابدأ بعلاجها من مرض ما دمت طيباً. ولن تندم على أنك فعلت ذلك. أحلف لك! ثم إن عندها بيانو من طراز قديم. أنت تعلم أنني أعزف على البيانو قليلاً... وهناك أغنية روسية عاطفية تقول: «بدموعي السخينة، سأسقي...». هي تعبد الأغاني العاطفية عبادة، وبهذا إنما بدأنا. وإذا أنك عازف ماهر، إذ أنك أستاذ في العزف، إذ أنك عازف مثل روبنشتاين<sup>(61)</sup>... أحلف لك لن تندم!

- أتراءك بذلك لها وعوداً؟ تعهدأ خطياً مثلاً؟ أعلك وعدتها بأن تتزوجها؟

- لا، لا، لا شيء من هذا البتة! إنها ليست كما تظن. لقد حاول  
تشيباروف...

- ما عليك إذا إلا أن تتركها!

- ولكن هذا مستحيل.

- لماذا؟

- لا لشيء إلا لأنه مستحيل. هذا هو الأمر. هناك مبدأ الإغراء يا  
صاحب.

- ولكن لماذا حاولت إغراءها؟

- أنا لم أحاول إغراءها البتة. لعلني أنا الذي أغريت، بسبب  
غباؤتي. ويستوي عندها أن أكون أنا أو أن تكون أنت. كل ما يهمها أن  
يجلس إلى جانبها رجل يتنهد لها. هي يا صاحبي... لا أدرى كيف  
أعبر لك. أنت تجيد علم الرياضيات، وتواصل دراستها، أنا أعلم  
ذلك... حدثها إذن عن حساب التكامل. يميناً أنتي لا أمزح. أحلف  
لك أنها لا تكرر بالأمر. سوف يكفيها أن تنظر إليك طوال السنة وأن  
تنتهد. أنا مثلًا لبشت يومين على الأقل أحدهما، عن مجلس النواب  
الروسي، حديثاً طويلاً جداً، إذ كان لا بد أن أحدهما عن شيء ما!  
فكانـت لا تزيد على أن تنهـد وتدوبـ. ولكن حذـار أن تكلـمـها فيـ  
الـحبـ، فـلوـ كـلـمـتهاـ فيـ الحـبـ لأـمـكـنـ منـ شـدـةـ حـيـانـهاـ أـنـ تصـابـ بـنـوـبةـ  
تشـنجـ. المـهمـ أـنـ تـجـعـلـهـاـ تـعـقـدـ بـأـنـكـ لـاـ تـقوـىـ عـلـىـ تـرـكـهاـ. سـيـكـفـيـهاـ  
هـذـاـ. وـسـتـكـونـ عـنـدـئـذـ كـأـنـكـ فـيـ بـيـتـكـ: اـقـرأـ، اـضـطـجـعـ، اـكـتـبـ. بـلـ فـيـ  
وـسـعـكـ أـنـ تـجـازـفـ فـتـقـبـلـهاـ... وـلـكـ اـمـضـ إـلـىـ هـذـاـ بـحـكـمـةـ وـحـذـرـ!..

- ولكن ما حاجتي إلى هذا كلـهـ؟

- آه! لا أدرى كيف أشرح لكـ. اسمـعـ: أـنـ كـلـاـ مـنـكـمـاـ قـدـ خـلـقـ  
لـلـآخـرـ. حتـىـ لـقـدـ فـكـرـتـ فـيـكـ مـنـ قـبـلـ. وـمـاـ دـمـتـ سـتـتـهـيـ إـلـىـ هـذـهـ النـهـاـيـةـ  
أـخـيرـاـ، فـسـيـأـنـ أـنـ يـتـمـ هـذـاـ مـتـقـدـمـاـ بـعـضـ التـقـدـمـ أـوـ مـتـأـخـرـاـ بـعـضـ التـأـخـرـ.

ه هنا يا عزيزي يتحقق مبدأ فراش الريش ، بل تتحقق أشياء أخرى كثيرة أيضاً . هنا إغراء ، هنا خاتمة المطاف ، هنا المرساة ، هنا المرفأ الهدىء الآمن ، هنا سرعة الأرض ، هنا أسس الكون نفسها ، هنا أنواع الفطائير الدسمة ، سماور السماء ، التنهدات الهايئ ، المدافئ الساخنة ، الثياب المبطنة بالفرو ! نعم ، ستكون كالموتى ، وفي الوقت نفسه ستكون حياً : ترمي طائرتين بحجر واحد ! اللعنة ! أصبحت أقول سخفاً . آن أوان النوم . اسمع : يتفق لي أحياناً أن أستيقظ في الليل ؛ فإذا استيقظت هذه الليلة فسأذهب أرى كيف حال روبيون . سخافة أقولها . لن يحدث له شيء . فلا تقلق كثيراً ولكن إذا حدث قلبك بشيء فاذهب إليه مرة . فإذا لاحظت شيئاً غير مألوف ، كهديان أو حمى ، فأيقظني فوراً . على أن هذا ضعيف الاحتمال . . .

## الفصل الثاني

**استيقظ** رازوميخين في الغد بعد الساعة السابعة بقليل ، مشغول بالال مهموماً. إن أموراً كثيرة تدعو إلى القلق قد هاجمته في ذلك الصباح ولم يكن قد تباً بها . ولم يكن قد تخيل في حياته أنه يمكن أن يستيقظ يوماً على هذه الحال. تذكر حوادث الأمس بجميع تفاصيلها ، وأدرك أنه قد وقع له شيء خارق تماماً ، وأنه أحس بعاطفة كان يجهلها كل الجهل حتى ذلك الحين ، عاطفة لا تشبه العواطف التي سبق أن أحس بها قبل ذلك في شيء . لكنه أدرك في الوقت نفسه إدراكاً واضحاً أن الحلم الذي نشأ في دماغه حلم مستحيل التتحقق ، حلم يبلغ من استحالاته التتحقق أنه شعر منه بالحزن والعار ، فأسرع ينتقل إلى هموم أخرى محسوسة مباشرة من الهموم التي أورثه إليها «ذلك اليوم المشؤوم».

والشيء الذي آلمه تذكُرُه أكثر من أي شيء آخر هو أنه تصرف تصرُف إنسان «دنيء خسيس»، لا لأنَه قد سكر فحسب ، بل أيضاً لأنَه كان غبياً أحمق فشعر بغيرة بلهاء فأخذ يذم الفتاة خطيبتها مستفيداً من الوضع الذي كانت فيه ، دون أن يعرف ما بينهما من علاقات على وجه الدقة ، بل ودون أن يعرف ما هو هذا الرجل على وجه التحديد. ثم أي حق له في أن يحكم عليه بمثل هذه السرعة ويمثل هذه الخفة وهذا الطيش؟ من

ذا الذي نصبه قاضياً؟ وهل يمكن أن تقبل إنسانة مثل آفدوتيا رومانوفنا أن تبيع نفسها بالمال لرجل تافه حقير؟ فلا بد إذن أنه يملك بعض المزايا... أما هذه الغرفة المفروشة التي استأجرها لهما فكيف كان يمكنه أن يعرف ما هي؟ أفاليس يهين لها شقة مناسبة؟ آه... ما أدناً هذا كله في نظر رازوميixin الآن! هل يبرر سكره ذلك السلوك؟ يا له من عذر! إلا أن سكره ذاك ليلطخه بمزيد من العار! الخمرة تكشف عن حقيقة الرجل، ولقد انكشفت الحقيقة كاملة. «إن قذارة قلبه الحسود الطماع» قد ظهرت واضحة للعيان. ثم هل يجوز له أن يراوده، هو رازوميixin، حلم كهذا الحلم، على أي نحو من الأثناء؟ ما قيمته بالقياس إلى هذه الفتاة، هو السكير العربيد، المتصدق المهزار؟ بل كيف يمكن أن تُعقد بينه وبينها مقارنة تبلغ هذا المبلغ من السخف والاستهتار؟ كذلك تسأله رازوميixin فإذا هو يحرّم خجلاً، ويشعر بكره شديد، ثم إذا هو يتذكر تذكرًا واضحًا جدًا، على حين فجأة، بما يشبه العمد، أنه قال بالأمس، على السلم أن صاحبة البيت ستغار عليه من آفدوتيا رومانوفنا، فوّقعت هذه الفكرة من نفسه موقعًا لا يطاق ولا يحتمل، فإذا هو يضرب المدفأة بقبضة يده ضربة استجمعت لها كل ما يملك من قوة، فجُرحت يده وُكسرت آجرة.

دمدم يقول بينه وبين نفسه، بعد دقيقة، وهو يحس بشعور عميق من المذلة: «لا شك أنه لا يمكن محو أو إصلاح جميع هذه الحقارات التي ارتكبها، لا الآن ولا في أي يوم من الأيام. فلا قائدة من التفكير فيها إذن، وإنما الأفضل أن أذهب إليهما دون أن أقول شيئاً، وأن أقوم بواجباتي دون أن أقول شيئاً كذلك... دون أن أستغفر... دون أن أقول شيئاً البتة... فقد ضاع كل شيء منذ الآن طبعاً!»

ومع ذلك عُني رازوميixin بهندامه أثناء ارتدائه ملابسه أكثر مما ألف أن يعني به قبل ذلك اليوم. لم يكن يملك إلا بدلة واحدة. ولكن هبه كان يملك بدلة أخرى فلعله ما كان ليرتديها. قال يحدث نفسه: «لو

كنت أملك بدلةً أخرى لتعمدت أن لا أرتديها». على أنه لا يستطيع أن يستخف ويستهتر، فيذهب إليهما وسخ الشباب مشعر المظهر. فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين، لا سيما وأن هؤلاء الآخرين محتاجون إليه، وأنهم هم الذين يطلبوه. لذلك حرص رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة بعناية خاصة. أما قميصه فقد كان نظيفاً. والحق أن رازوميخين من هذه الناحية شديد العناية دائماً.

وقد اهتم في ذلك الصباح بنظافته اهتماماً دقيقاً. وجد قطعة من الصابون عند ناستاسيا، فغسل شعره ورقبته، وغسل يديه خاصةً. أما سؤاله أبيحلق ذقنه أم لا (ولقد كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة بقيت لها من زوجها المتوفي السيد زارنتسين)، فقد أجاب عنه بالنفي، حتى لقد ثارت ثائرته حينذاك، فقال: «لتبق لحيتي كما هي! ولا ظننا أنني حلقت في سبيل أن... نعم ذلك ما ستظنناه! إذن لن أحلق بحال من الأحوال!»

وابع يقول لنفسه: «إنني قدر أشد القذارة، فظ أبلغ الفظاظة، قليل الأدب إلى أبعد حد... وهبني رجلاً شريفاً (ذلك أنني أعرف نفسي وأعرف أنني رجل شريف)، فهل لي أن أعتز وأن أفتخر بأنني رجل شريف. المفروض في كل إنسان أن يكون شريفاً، بل وأن يكون أكثر من ذلك. ثم إن لي (أنا أتذكر هذا جيداً) سقطات صغيرة إن لم تكن غير شريفة، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنها... هذا عدا الأفكار التي تساورني في بعض الأحيان... فكيف أطبع في أن أوازن بيبي وبين آندوتيا رومانوفنا؟ على كل حال، فليذهب هذا كله إلى الشيطان! نعم، سأبقى كما أنا عن عمد! سأظل وغداً، خنزيراً، عابشاً... ولا أكتثر. سأبقى على هذه الحال، وسأزيد...»

وبينما كان رازوميخين يحاور نفسه هذا الحوار، جاءه زوسيموف الذي بات ليلته في صالون براسكوفيا بافلوفنا.

كان زوسيموف يتهيأ للعودة إلى بيته، فأراد قبل انصرافه أن يلقي نظرة على المريض. فأخبره رازوميخين أن المريض نائم تماماً. فأمر أن لا يوقظ، ووعد بأن يعود في نحو الساعة الحادية عشرة. ولكنه أضاف يقول:

- هذا إذا وجدته في غرفته! ما أصعب أن يعالج الطبيب مريضاً وهو لا سلطة له عليه. قل لي: هل هو الذي سيذهب إليهما؟ أم هما اللتان ستجيئان إليه؟

أجاب رازوميخين وقد فهم معنى السؤال:

- أظن أنهما هما اللتان ستجيئان. وأغلب الظن أنهما ستحدثانه في شؤونهم العائلية. لذلك سوف أتركهم وأخرج. أما أنت فإنك بصفتك طبيباً تملك حقوقاً أكثر.

- ما أنا بكاهن يسمع اعترافات. سوف أجيء ثم ما ألبث أن أخرج. إن أعمالاً كثيرة تناذني . . .

قاطعه رازوميخين يقول وقد اربأ وجهه:

- هناك شيء يقلقني: أمس مساء، أثناء سكري، أفلتت من لساني، وأنا أعود به إلى البيت، حمامات سخيفة. من ذلك خاصةً أني قلت له . . . إنك تخشى أن يكون به جنوح إلى الجنون.

- وقد عدت تقول هذا للسيدتين.

- أعرف. هذه بلاهة. اضربني إذا شئت. ولكن أنت تعتقد حقاً أنه قد يجنّ بقصد هذا الشأن؟

- لا، لن يجنّ! ولا تنسَ أنك أنت الذي قلت لي بأن هوساً ملحاً يسيطر عليه، وذلك حين جئت بي إليه. وبالامس زدنا النار أواراً، ولا سيما أنت . . . حين رحت تتكلم عن الدهان. يا له من موضوع حديث، حين يكون هذا كله هو السبب في فقدانه صوابه! . . آه . . لو كنت أعلم على وجه الدقة ما قد جرى في قسم الشرطة في ذلك اليوم، لو

كنت أعلم أن وغداً هناك قد أهانه مفصحاً عن اشتباهه فيه، لما سمحت لك بأن تجري لسانك في حديث كذلك الحديث. إن المصابين بمرض الهوس الملح يجعلون من الفارة جبلاً، ويرون أشياء كثيرة حيث لا يوجد شيء البتة! إذا صدق ذاكرتي، فإن ما رواه زاميوتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة. إبني أعرف حالة رجل في الأربعين من عمره كان مصاباً بمرض الوسواس، فلما كان جالساً إلى المائدة، فأخذ طفل في الثامنة من عمره يستهزئ به، لم يستطع احتمال سخرياته، فقتله. ونحن هنا إزاء شاب شقي يرتدي أسمالاً بالية، ويعاني بداية مرض، فإذا بشرطي فظ غليظ يهينه موجهاً إليه شبّهات بهذه الشبهات، فماذا تتّظر أن يحدث؟ شخص مصاب بالوسواس، هو إلى ذلك على جانب عظيم من كبراء مسحورة، أفلًا يكون ذلك هو السبب الحقيقي للداء الذي يعاني منه الآن. على كل حال... لا ضمير في هذا!.. بالمناسبة: إن زاميوتوف فتى لطيف حقاً، ولكن... هم... لقد أخطأ أمس حين روى ذلك كله! يا له من ثرثار فظيع!

- ولكن لمن روى ذلك؟ لك ولبي.

- رواه أيضاً لبورفيري.

- ما قيمة أن يرويه أيضاً لبورفيري؟

- بالمناسبة: هل لك تأثير فيهما، أقصد في الأم والأخت؟ يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم.

أجاب رازوميixin قائلًا على مضض:

- سيجري كل شيء على ما يرام.

- لماذا هو غاضب على لوجين؟ ما مأخذته عليه؟ إن هذا الرجل يملك مالاً، ويدو أن الفتاة لا تنفر منه. وهم لا تملكان فجلة، هه؟

صرخ رازوميixin يقول مهتاجاً:

- لماذا تسألني هذا السؤال؟ ما شأنك أنت وهذا؟ أنى لي أن أعرف

هل تملكان فجلة، أم لا! أسئلهمما إن شئت فتعرف ذلك.

- ما أغباك أحياناً! واضح أنك ما صحوت من سكرك! إلى اللقاء.  
وأشكر عني براسكوفيا بافلوفنا على ضيافتها. لقد حبست نفسها في غرفتها، وقلت لها «صباح الخير» من وراء الباب فلم تجبني. وكانت قد استيقظت في الساعة السابعة، وهي إليها بالسماع في غرفتها عن طريق الدهليز. ولكنني لم أشرف برؤيتها.

في الساعة التاسعة تماماً وصل رازوميخين إلى منزل باكالايف؛ فكانت السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة محمومتين من نفاد الصبر. لقد نهضتا في الساعة السابعة أو قبل ذلك. فلما دخل عليهما مظلم الوجه كظلام الليل، حيّاهما بخراقة، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً شديداً. ذلك أنه لم يضع في حسابه ما مستقبله به بولخيريا الكسندروفنا: لقد هرعت بولخيريا الكسندروفنا إليه، فأمسكت يديه، وكادت تقبلهما. وألقى نظره خجلى على آفدوتيا رومانوفنا، فكان وجهها الذي ينم في العادة عن الكبراء، يعبر في هذه اللحظة عن شكر عميق وصداقة واضحة واحترام كامل؛ وكان هو لا يتوقع شيئاً من هذا كله، بل كان لا يتطرق إلا نظرات ساخرة، واحتقاراً ظاهراً، فلو استقبلته فعلاً بشتائم متلاحقة لكان وقع ذلك في نفسه أسهل وأيسر، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر. لقد شعر الآن باضطراب كبير وببلة عظيمة حقاً. ولكن كان هناك موضوع للحديث من حسن الحظ، فسرعان ما تشبت به.

حين علمت بولخيريا الكسندروفنا أن روديا «لم يستيقظ بعد»، وأن «كل شيء على ما يرام»، أظهرت ارتياحاً كبيراً ورضى عظيمًا، لأنها حقاً «في حاجة ماسة إلى أن تتحدث مع رازوميخين حديثاً طويلاً قبل أن ترى ابنها». وأثير عندئذٍ موضوع الشاي، فدُعى رازوميخين إلى تناول الشاي مع السيدتين، وكانت قد انتظرتاه لهذا. دفعت آفدوتيا رومانوفنا الجرس، فجاء خادم قذر المظهر رث الثياب، فأمر بإحضار الشاي،

فأتأتى بالشاي أخيراً، ولكن بطريقة تبلغ من القذارة وقلة اللياقة حدّ أن السيدتين صُعقتا خجلاً. ووَدَ رازوميخين لو ينْدَد بهذه «الغرفة المفروشة»، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام، وشعر بحرج، وابتھج ابتهاجاً عظيماً حين أخذت بولخيريا الكسندروفنا تمطره بوابل من الأسئلة.

ظل يتكلم خلال ثلاثة أربع الساعة، فكان يُقاطع دائماً وتطرح الأسئلة عليه من جديد. واستطاع مع ذلك أن يروي - بمقدار ما يعرف - الواقع الأساسية من حياة روبيون رومانوفتش منذ سنة حتى إصابته بالمرض الذي يعاني منه الآن. لكنه سكت عن أمور كثيرة كان ينبغي أن يسكت عنها، ولا سيما المشهد الذي وقع في قسم الشرطة وجميع النتائج التي نجمت عنه. وكانت السيدتان تلتهمان أقواله التهاماً. لكنه حين ظن أنه انتهى من الكلام وأرضى سامعيه، بدا أنه في نظرهما لم يكد يبدأ الكلام.

قالت بولخيريا الكسندروفنا تسأله متوجهة:

- قل لي، قل لي ما رأيك... معدرة... إنني لا أعرف اسمك حتى الآن...  
- دمترى بروكوفتش.

- نعم، قل لي يا دمترى بروكوفتش: أود جداً جداً لو أعرف...  
كيف هو... يرى الأمور الآن... بوجه عام... أقصد... هل  
تفهمني؟ رباه كيف أفصح بوضوح؟... أعني ماذا يحب، وماذا لا  
يحب؟ أما يزال شديد الغضب سريع الاتهياب؟ ما هي رغباته...  
و... و... كيف أعتبر... ما هي أحلامه، إذا جاز لي أن... ما  
الذي يؤثر فيه الآن أكبر تأثير؟ الخلاصة، أوَّلَ لِو...

قالت أندوتيا رومانوفنا:

- ماما! كيف يمكن الجواب على جميع هذه الأسئلة في آن واحد؟

- يا رب! ذلك أنتي، يا دمترى بروكوفتش، لم أكن أتوقع أبداً،  
أبداً، أن أجده على هذه الحال!

أجاب دمترى بروكوفتش يقول:

- هذا طبىعى جداً. أنا ليس لي أم. ولكن لي عمماً يجئ إلى هنا كل سنة، فكلما جاء صعب عليه أن يتعرفي حتى من الناحية الجسمية، مع أنه رجل ذكي، عمي هذا. وقد افترقتم أنتم منذ ثلاث سنين، فجرى ما كثير تحت الجسور خلال هذه السنين الثلاث. ماذا أقول لك أيضاً؟ إنتي أعرف روبيون منذ سنة ونصف سنة. فكان منذ عرفته قاتم النفس متوجه الوجه شديد الكبراء متعالياً، وهو في هذه الآونة الأخيرة (ولعل ذلك يرجع إلى عهد أبعد) كثير الشكوك والوساوس أيضاً. هو سمع طيب. وهو لا يحب أن يظهر عواطفه، ويفثر أن يرتكب إساءةً على أن يفتح قلبه. على أنه في بعض الأحيان يبراً من الوساوس، فلا يظهر عليه عندئذ إلا برودة في العاطفة وفتور في الإحساس حتى ليصل من ذلك إلى درجة يفقد معها روح التواصل الإنساني، فكان له طبعين متعارضين يتناوبان الغلبة واحداً بعد آخر. يتفق له أحياناً أن يكون صموتاً إلى حد رهيب: فإذاً أن يزعم أنه ليس في وقته متسع، وإنما أن يزعم أن الناس جمِيعاً يزعجونه؛ ومع ذلك يظل مستلقياً على سريره لا يعمل شيئاً. وما هو بالساخر، ليس لأنه فقد روح الفكاهة، بل لأنه كمن لا يريد أن يتلذث على سفاسف سخيفة وترهات باطلة. إنه لا يصغي أبداً إلى ما يقال له حتى النهاية. إنه لا يهتم أبداً بالأشياء التي يهتم بها الآخرون في لحظة من اللحظات. وهو معتدٌ بنفسه اعتداداً عظيماً، ويظهر أن من حقه أن يعتقد بنفسه هذا الاعتداد. ماذا أقول أيضاً؟ .. أظن أن وصولكم سيفيده وسيحدث فيه أثراً نافعاً.

هفت بولخيريا الكسندروفنا تقول وقد أرهقتها أقوال رازوميخين:

- سمع الله منك.

وعزم رازوميixin أمره أخيراً على أن ينظر إلى آفدوتيا رومانوفنا بمزيد من الثقة والطمأنينة. كان قد نظر إليها مراراً أثناء الحديث، ولكنه كان ينظر إليها خلسةً، بسرعة كوميض البرق، ثم يحول بصره عنها على الفور. وكانت آفدوتيا رومانوفنا تجلس أمام المائدة تارةً فتصغي بانتباه، وتنهض تارةً أخرى فتأخذ تمشي على عادتها من ركن إلى ركن مصالبة ذراعيها، كازة شفتها، ملقية سؤالاً من حين إلى حين، ولكن من دون أن تقطع سيرها، من دون أن تقطع تأملها الذي كان يبدو أنها تتبعه مستمراً متصلأً. وكان من عادتها أيضاً أن لا تصفي حتى النهاية إلى ما يقال لها. كانت ترتدي فستانًا داكن اللون من نسيج خفيف، وقد عقدت حول عنقها منديلًا أبيض شفافاً. وقد لاحظ رازوميixin رأساً، من علامات كثيرة، أن السيدتين في حالة شديدة من الفقر. ولو كانت آفدوتيا رومانوفنا مرتدية ملابس أميرة، فعلعلها كانت لا تثير في نفسه كل هذا الخجل والخوف، أما الآن فربما كان السبب في الخوف الذي استقر في قلبه إنما يرجع إلى أن ملابسها كانت فقيرة إلى هذا الحد، وأنه أدرك كل ما هي فيه من بؤس؛ ولذلك أصبح يخاف من كل قول من أقواله، وكل حركة من حركاته، وهذا أمر هو بالنسبة إلى رجل ضعيف الثقة بنفسه أصلاً لا بد أن يكون مصدرًا جديداً من مصادر الهرج والإرباك.

قالت آفدوتيا رومانوفنا مبتسمة:

- لقد علمنا أشياء كثيرة هامة عن طبع أخي، ولقد تكلمت من دون تحيز ما في ذلك شك. هذا جيد. وكنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المتحيز.

ثم أضافت تقول حالمه مفكراً:

- يخيل إليّ أنه لا بد أن يكون في حياته امرأة فعلاً!

- أنا لم أقل هذا! ولكن من الجائز أن تكوني على حق. غير أن...

- ماذا؟

- إنه لا يحب أحداً، ولعله لن يحب أحداً في يوم من الأيام.  
كذلك قال رازوميخين قاطعاً جازماً.

- أيكون عاجزاً عن أن يحب؟

أفلت لسان رازوميخين يقول فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك:

- هل تعلمين يا آفدوتيما رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبهأ رهيباً في كل شيء؟

ثم تذكر ما قاله عن أخيها، فاحمر وجهه احمراراً شديداً وارتبك ارتباكاً فظيعاً. فلم تستطع آفدوتيما رومانوفنا أن تحبس ابتسامة ساخرة وهي تنظر إليه.

واستأنفت بولخيريا الكسندروفنا كلامها وقد استاءت بعض الاستياء فقالت:

- من الجائز أن يكون رأيكما كليهما في روبيا خطأ. لا أنكلم الآن عن الحاضر يا دونيتشكا. إن ما كتبه بيوتر بتروفيتش في تلك الرسالة، وما قد تصورناه أنا وأنت، قد لا يكون صحيحاً. ولكنك لا تستطيع أن تخيل يا دمترى بروكوفتش مدى ما يتصف به روبيا من شدة الجموح وقوة التزوات. أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أركن إلى طبعه، حتى حين كان في الخامسة عشر من عمره. وإنني لعلى يقين من أنه ما يزال حتى هذه الساعة قادرأ على ارتكاب أشياء لا تخطر ببال أي إنسان آخر غيره. لا تذهب بعيداً: هل تعلم أنه منذ سنة ونصف سنة قد أدهشتني وعذبني، وكاد يميتنى غيطاً وقهراً، حين وضع في رأسه أن يتزوج تلك ال... . ماذا أقول؟ تلك ال... . أقصد بنت زارنتسينا هذه، صاحبة البيت الذي يسكن فيه؟

اتجهت آفدوتيما رومانوفنا إلى رازوميخين فسألته:

- هل تعرف تفاصيل عن هذا الأمر؟

وتابعت بولخيريا الكسندروفنا كلامها فقالت بحرارة:

- هل تحسب أن دموعي وضراعاتي وشقاءنا ومرضي وموتي من الأسى، هل تحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصده عن تحقيق ما قام في رأسه؟ لا... . كان سيفجتاز جميع العقبات هادئاً كل الهدوء. ماذا؟ هل من الممكن حقاً أنه لا يحبنا؟

أجاب رازوميخين بتعقل وحذر:

- إنه لم يقل لي كلمة واحدة عن هذا الأمر. ولكنني عرفت شذرات من السيدة زارنتسينا نفسها، مع أنها ليست كثيرة الكلام هي أيضاً. والحق أن ما عرفته غريب بعض الغرابة... .

قالت المرأةان كلتاهمما تسألهان :

- ما الذي عرفته؟

- لم أعرف أشياء ذا شأن، كل ما علمته أن هذا الزواج الذي كان مقرراً ومبتوتاً فيه، والذي لم يحل دونه إلا موت الخطيبة، كانت السيدة زارنتسينا مستاءة منه. ويقال عدا ذلك أن الخطيبة لم تكن جميلة، حتى لقد كانت توصف بأنها دميمة... . وأنها بالإضافة إلى ذلك ممراض... وأنها فوق هذا غريبة الأطوار. ولكنها كانت لا تخلي من بعض المزايا. لا بد أن تكون لها مزايا فلولا هذه المزايا لكان الأمر عجيباً لا سبيل إلى فهمه البتة. ثم إنها لم تكن تملك مهرأ. على أن روديا آخر من يمكن أن يعنيه أمر المهر. الخلاصة أن الحكم على الموضوع في ظرف كذلك الظرف صعب.

قالت آفدوتيا رومانوفنا موجزةً:

- أنا مقتنة بأنها كانت تملك مزايا كثيرة.

فعقبت بولخيريا الكسندروفنا تختتم الحديث قائلةً:

- أسأل الله أن يغفر لى. لا أكتمكمما أني ابتهجت

لموتها، رغم أنني لم أعرف في يوم من الأيام أيهما كان سيشقي الآخر!  
ثم عادت تسأل رازوميخين - وهي تلقي على دونيا نظرات مختلسة  
كان واضحاً أن دونيا تستاء منها - عادت تسأل رازوميخين بحذر وتردد  
عن المشهد الذي حدث أمس بين روديا ولوجين. لم يكن خافياً أن هذا  
الحادث كان يشغل بالها ويقلق نفسها أكثر من أي شيء آخر، حتى  
ليرعبها ويهزها هزاً. أعاد رازوميخين رواية القصة تفصيلاً، ولكنه  
أضاف إليها في هذه المرة النتيجة التي يستخلصها هو، فاتهم  
راسكولنيكوف، دون لف ولا دوران، بأنه أهان بيوتر بتروفتش عن  
سابق عمد وتصميم؛ ولم يلح في هذه المرة على مرضه الذي ذكر قبل  
ذلك أنه عذر يشفع له. وختم يقول:  
- لقد أعد ذلك حتى قبل أن يمرض.

قالت بولخيريا الكسندروفنا مكرورة مقهورة:  
- أظن ذلك أنا أيضاً.

ولكنها شدّت حين رأت رازوميخين يتكلم في هذه المرة عن بيوتر  
بتروفتش بكثير من الاعتدال، بل وبشيء من الاحترام. وأثار هذا الرأي  
دهشة آفدوتيا رومانوفنا أيضاً.

ولم تطق بولخيريا الكسندروفنا صبراً فقالت تساءلته:  
- وهذا هو رأيك إذن في بيوتر بتروفتش؟  
فأجاب رازوميخين يقول بحرارة وجزم:

- لا يمكنني أن أرى غير هذا الرأي في خطيب ابنتك، ولست أقول  
هذا من باب التأدب والمجاملة، وإنما أقوله لأن... لأن... أقوله ولو  
لهذا السبب البسيط: وهو أن آفدوتيا رومانوفنا نفسها هي التي أرادت  
طوعاً أن تولي هذا الرجل شرف اختياره زوجاً لها. ولئن ذمته ذلك  
الذم كله بالأمس، فلأنني كنت بالأمس سكران... سكران سكران  
مقززاً، ولأنني عدا ذلك... كنت قد فقدت عقلي... لأنني

جنتت... جنتت تماماً. أما اليوم فإننا أشعر من ذلك بخزي وعار.

قال رازوميخين ذلك، واحمرّ وصمت. واحمرّت آفدوتييا رومانوفنا، ولكنها لم تقطع الصمت. إنها لم تنبس بكلمة واحدة منذ دار الحديث على لوجين.

ومع ذلك ظلت بولخيريا الكسندروفنا مرتباً واضحاً لأن ابنته لا تساعدها. ثم اعترفت متربدة وهي تلتفت في كل لحظة صوب ابنته، بأن هناك ظرفاً يقلّقها الآن إقلاقاً شديداً.

بدأت تتكلم فقالت:

- الحق يا دمترى بروكوفتش...

ثم اتجهت إلى ابنته فقالت تسأّلها:

- سأكون صريحةً كل الصراحة مع دمترى بروكوفتش يا دونيتشكا، أليس كذلك؟

فأجابتها آفدوتييا رومانوفنا تقول باقتئاع:

- طبعاً يا ماما.

فلما أذن لها بأن تبوح بحزنها أحسّت بأن جبلًا قد أزبح عن صدرها فأسرعت تقول:

- إليك الأمر: اليوم، في ساعة مبكرة من هذا الصباح، وصلتنا بطاقة من بيوتر بتروفتش رداً على الرسالة التي أتبأناه فيها بالأمس بوصولنا. كان ينبغي له طبعاً أن يجيء إلى المحطة لاستقبالنا كما كان وعدنا بذلك. ولكننا، في المحطة، لم نجده هو بل وجدنا خادماً قادنا إلى هذه الغرفة المفروشة التي كان معه عنوانها. وأبلغنا الخادم أن بيوتر بتروفتش سيجيء إلينا اليوم في الصباح. ولكن بيوتر بتروفتش لم يجيء وإنما بعث إلينا بهذه البطاقة. الأفضل أن تقرأها بنفسك، لأن هناك نقطة تقلقني كثيراً. سرعان ما ستري ما هي هذه النقطة، فتقول لي رأيك

صريحاً يا دمترى بروكوفتش. إنك تعرف طبع روديا أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر، فسوف تستطيع إذن أكثر مما يستطيع أي إنسان آخر أن تسدِّي إلينا بنصيحتك. وإنني لألفت نظرك إلى أن دونيا قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى، أما أنا فما زلت حائرة لا أدرى ما الذي يجب فعله... . و كنت أنتظرك.

فضَّ رازوميixin البطاقة التي تحمل تاريخ اليوم السابق، وقرأ ما يلى :

«السيدة الكريمة بولخيريا الكسندروفنا، يشرفني أن أعلمك أنني بسبب موانع لم أكن أتوقعها لم أستطيع أن أستقبلكم على رصيف المحطة، فأرسلت إليكم رجلاً بارعاً فطناً سيساعدكم. وكذلك سأحرم نفسي، في صباح الغد، من التشرُّف بزيارتكم، بسبب بعض الأعمال التي تستدعي ذهابي إلى مجلس الشيوخ، ولأنني أريد أيضاً أن لا أزعج اجتماعكم العائلي، أعني لقاءك الأول بابنك ولقاء آفدوبيا رومانوفنا بأخيها. فلن يتاح لي إذن شرف لقائكم وتقديم احترامي لكم في مسكنكم إلا مساء غد في الساعة الثامنة تماماً. وإنني أسمح لنفسي بأن أضيف إلى هذا رجاءً ملحاً، فأطلب إليكم أن تتدبروا الأمر بحيث تعفونني من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا، لأنه أهانني بالأمس بفظاظة لا مثيل لها حين زرته أثناء مرضه، ولأنني أريد أن أكلمكم على انفراد في أمر أحب أن أعرف تفسيركم له ورأيكم فيه. ويشرفني أن ألفت نظركم إلى أنني ساضطر إلى الانسحاب فوراً إذا أنا لقيت عندكم روديون رومانوفتش رغم طلبي هذا، ولن يكون لكم عندي أن تلوموا أحداً إلا أنفسكم. وإنما أكتب هذا لأنني أتبناً بأن روديون رومانوفتش الذي كان يبدو مريضاً حينما زرته ثم استرد صحته فجأةً بعد ذلك ساعتين قد يجيء إليكم ما دام يخرج الآن. إن ما أقوله قد رأيته بعيني رأسى في بيت رجل سكينير داسته خيول فهشمته فمات. وقد أعطى روديون رومانوفتش ابنة ذلك السكينير، وهي بنت معروفة بسوء السمعة

لدى جميع الناس، أعطاها خمسة وعشرين روبلًا بحجة دفع نفقات الجنaza، فأدهشني ذلك أشد الدهشة، أنا الذي أعرف الجهود التي بذلت بها في سبيل جمع ذلك المبلغ. أختتم رسالتي هذه راجياً أن تنقلني إلى آفدوتيا رومانوفنا المحترمة أبلغ اعتباري، وأن تفضل بي بقبول أسمى مشاعر الاحترام والإخلاص من خادمك المطيع:

ب. لوجين»

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي توشك أن تبكي :

- فما الذي يجب أن أعمله الآن يا دمترى بروكوفتش؟ كيف يمكنني أن أطلب من روديا أن لا يجيء؟ لقد كان يطالب أمس مطالبة صارمة بطرد بيوتر بتروفتش، فإذا بالآية تقلب الآن، فيكون هو الذي لا يجوز استقباله! ولكنه سيجيء عامداً متى عرف، فما عسى يحدث حينذاك؟

قال رازومixin فوراً بهدوء :

- افعلي ما قررته آفدوتيا رومانوفنا.

- آه... رباء! هي تقول... هي تقول... الله يعلم ماذا تقول... وهي لا تشرح الأسباب التي تدفعها إلى قول ما تقول! هي تقول إن من الأفضل، بل إن من المحموم قطعاً، أن يجيء روديا هذا المساء، في الساعة الثامنة، وأن يتلقيا. أما أنا فكنت أريد حتى أن لا أطلعه على هذه الرسالة، وكنت أؤثر أن أعمد إلى الحيلة بواسطتك، لأمنعه من المجيء، لأنه... سريع الاحتياج جداً! ثم إن هناك أمراً لا أفهمه: من هو ذلك السكير الذي داسته الخيل فمات، ومن هي تلك البنت، وكيف أمكنه أن يعطي تلك البنت آخر ما بقي له من المال الذي...

- الذي لقيت ذلك العناء كله في الحصول عليه.

كذلك أضافت آفدوتيا رومانوفنا.

قال رازومixin شارد الفكر :

- لم يكن أمس في حالة طبيعية. لو عرفت كيف تصرف أمس في حانة ولو كان في سلوكه شيء من التعقل! .. هم .. على كل حال، لقد حدثني بالأمس فعلاً، حين كنت أقوده إلى بيته، عن موظف مات، وحدثني كذلك عن فتاة ما، لكنني لم أفهم من كلامه شيئاً. ثم إنني أنا نفسي، بالأمس، قد .. .

- الأفضل يا ماما أن نذهب نحن إليه. أؤكد لك أننا بذلك سنرى ماذا بقي علينا أن نفعل. وقد آن لنا أن نذهب على كل حال. رباه! تجاوزت الساعة العاشرة.

كذلك صاحت آفدوتيا رومانوفنا وهي تلقي نظرة على الساعة الذهبية الرائعة، المرصعة بالمينا، التي كانت تحملها معلقة في عنقها بسلسلة رقيقة من صنع البندقية، والتي تناور تناوراً عجيباً مع جملة زينتها. قال رازوميخين لنفسه: «هذه هدية الخطوبة!»

قالت بولخيريا الكستندروفنا وقد تملمت باضطراب:

- آه .. آن الأوان! آن الأوان يا دونيتشكا! إذا تأخرنا في الذهاب إليه، فقد يظن أننا ما زلنا غاضبتين بسبب ما حدث أمس. آه .. يا رب!

قالت ذلك وأسرعت ترمي على كتفيها خماراً أسود، وتضع قبعتها على رأسها. وارتدت دونيتشكا ثيابها أيضاً. إن قفازيها ليسا مهترئين جداًحسب، بل هما مثقبان أيضاً. ولم يفت رازوميخين ذلك. على أن هذا الفقر الظاهر في ملابس السيدتين كان يضفي عليهما وقاراً خاصاً، وهذا ما يحدث عادة لأولئك الذين يعرفون كيف يرتدون ملابس فقيرة. كان رازوميخين ينظر إلى الفتاة باحترام وتقديس، ويشعر باعتزاز وافتخار حين يتصور أنه سيصحبها. كان يقول لنفسه: «إن تلك الملكة»<sup>(62)</sup> التي كانت ترقص جوربيها في سجنها لا بد أنها كانت أثناء ذلك أعظم إجلالاً وأكبر مهابةً منها في أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات!».

وهتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول :

- رباه! هل كان في وسعي أن أصدق يوماً أنني سوف أهاب، كما أهاب الآن، لقاء مع ابني، مع عزيزي، مع روديا؟

ثم أضافت تقول وهي تلقي على رازوميفيين نظرة خجلة:

- أنا خائفة يا دمترى بروكوفتش.

قالت دونيا وهي تقبلها:

- لا تخافي يا ماما، بل ثقي به. أما أنا فوائقة.

صاحت المرأة المسكينة تقول:

- آه... يا رب!.. أنا أيضاً واثقة! ومع ذلك لم أنم طوال الليل!

وخرجوا إلى الشارع.

- هل تعلمين يا دونيتشك؟ أنتي ما إن غفوت قليلاً عند طلوع الصبح حتى حلمت فجأة بتلك المسكينة مارفا بتروفنا... . كانت تلبس ثياباً بيضاء... واقتربت مني... وأمسكت يدي... وكانت تهتز رأسها وهي تنظر إليّ نظرة قاسية، قاسية جداً، كأنها تلومني على شيء ما... . أهذه علامة حسنة؟ آه... يا رب! إنك يا دمترى بروكوفتش لا تعلم، بعد، أن مارفا بتروفنا قد ماتت.

- لا، لا أعلم. ولكن من هي مارفا بتروفنا هذه؟

- ماتت فجأة... . تصور أنها... .

تدخلت دونيا تقول لأمها:

- ستقولين له فيما بعد يا ماما. هو لا يعرف من هي مارفا بتروفنا هذه.

- صحيح؟ لا تعلم؟ كنت أظن أنك على اطلاع... . اغفر لي يا دمترى بروكوفتش... . أصبحت لا أعرف أين رأسي في هذه الأيام الأخيرة. حقاً أنتي أعدك معيناً أرسلته العناية الإلهية، لذلك كنت أحسبك مطلعاً على كل شيء. إنني أعدك واحداً من أسرتنا. لا

تؤاخذني إذا أنا كلمتك بهذه الطريقة! .. آه.. رياه! ماذا أصاب يدك  
اليمني؟ أهي مجروحة؟

دمدم رازوميixin يقول سعيداً كل السعادة:  
- نعم، مجروحة.

- إنني أسرف في الصراحة أحياناً، فتردني دونياً... ولكن...  
رباه! ما هذه الغرفة الصغيرة التي يقيم فيها؟ ترى هل استيقظ من نومه؟  
وتلك المرأة، صاحبة البيت، كيف تسمى هذا الجحر غرفة؟ اسمع،  
أنت تقول إنه لا يحب أن يتكلم عما يعتلج في قلبه، فلا شك إذاً إنني  
سأزعجه وأضجره... بعواطفه وضعفي! لا تستطيع أن تهديني يا  
دمترى بروكوفتش إلى الطريقة التي يمكنني أن أعمد إليها في معاملته?  
لقد طاش صوابي تماماً...

- لا تلقني عليه أسئلة كثيرة، إذا رأيته يعبس أو يتوجه. ولا تسأله  
عن صحته خاصةً، فإنه لا يحب هذا.

- آه يا دمترى بروكوفتش، ما أصعب الأمة! وانظر إلى هذا السلم!  
يا له من سلم فظيع!  
قالت دونيا ملاطفة:

- ماما، أنك شاحبة الوجه جداً، هديي من روحك يا يمامتي! إنه  
سعيداً بلقائنا، فلماذا تعذبين نفسك هذا التعذيب?  
هذا ما أضافته وقد سطعت عينها.

- انتظرا، سأرى أولاً هل استيقظ من نومه.

باتأت السيدتان خطاهما، وتقدمهما رازوميixin على السلم. فلما  
وصلتا إلى الطابق الثالث لاحظتا أن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً،  
ورأتا في الظلام عينين سوداويين حادتين جداً كانتا ترقبانهما. فلما التقت  
الناظرات أغلق الباب بشدة، فقرقع قرقعة بلغت من القوة أن بولخيريا  
الكسندروفنا أوشكت أن تصرخ رعاً.

## استقبلهم

زوسيموف قائلاً في فرح: «هو بخير، هو بخير». إن زوسيموف يعود راسكولنيكوف منذ نحو عشر دقائق، وقد جلس في ذلك المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس، على ركن من الديوان. وكان راسكولنيكوف يجلس في الركن المقابل، مرتدياً، ثيابه كاملة، وقد اعتنى بغسل وجهه وتصفيف شعره، وذلك أمر لم يقع له منذ مدة طويلة. امتلأت الغرفة دفعةً واحدةً، ولكن ناستاسيا استطاعت مع ذلك أن تتسلل وراء الزائرين، وبقيت تنصت إلى الحديث.

كانت صحة راسكولنيكوف قد تحسنت بعض التحسن فعلاً، ولا سيما إذا قورنت بما كانت عليه أمس. كل ما هنالك أنه الآن شديد الشحوب شارد الفكر متوجههم النفس. فإذا نظرت إليه كنت كمن ينظر إلى رجل أصابه جرح بالغ، أو عانى ألماً جسرياً حاداً. كان مقطب الحاجبين، مكروز الشفتين، محموم النظرة. وكان لا يتكلم إلا قليلاً، فإذا تكلم على مضض، كأنه يقوم بواجب، وكان في حركاته أحياناً نوع من قلق.

ليس ينقصه إلا ضماد في الذراع أو عصبة من قماش في الإصبع حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أصيب بداعوس أليم، أو جرح موجع أو

أي شيء آخر من هذا القبيل.

على أن هذا الوجه الشاحب المتجمهم بدا أنه يتألق لحظة حين دخلت الأم والأخت. غير أن ذلك لم يزد على أن يضيف إلى الذهول المتجمهم تعبيراً عن ألم مكثف. وسرعان ما انطفأ الألق، ويفي الألم. ولم يفت زوسيموف الذي كان يراقب مريضه ويدرسه بكل ما يستطيعه من اهتمام وشفف طبيب في بدايات ممارسته مهنته، لم يفته أن يلاحظ لدى مريضه، بغير قليل من الدهشة، حين وصلت أسرته، نوعاً من تصميم أليم خفي، يشبه التصميم الذي يقوم في نفس إنسان يرى عذاباً عليه أن يحتمله، بدلاً من الفرح الذي ينبغي أن يظهر بسبب هذه الزيارة. وقد استطاع الطبيب أن يلاحظ بعد ذلك أن كل كلمة تقريباً من الحديث الذي جرى حينذاك كانت كأنها تشير وتتنكأ جرحاً لدى المريض. ولكن الطبيب قد أدهشه في الوقت نفسه أن يرى أن المريض كان يسيطر على نفسه بعض السيطرة، فاستطاع أن يخفى هذه العواطف، مع أنه كان بالأمس يثور حنقه عند كل كلمة تُقال، كمن استبدت به فكرة وحيدة ثابتة.

قال راسكولنيكوف وهو يقبل أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان واضح (وهذا ما جعل وجه بولخيريا الكسندروفنا مشرقاً) :

- نعم، ألا حظ أنا نفسي أنني شُفيت.

ثم أضاف يقول مخاطباً رازوميixin و هو يصافحه بمودة :

- لا أقول هذا مثلما قلته أمس !

سر زوسيموف كثيراً من وصول الزوار، لأنه كان قد استنفد خلال الدقائق العشر التي قضتها مع المريض جميع موضوعات الحديث، فبدأ كلامه يقول :

- حتى لقد دُهشت من رؤيته على هذه الحال اليوم. فإذا استمر هذا التحسن، فلن تنقضي ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً، أعني كما كان منذ شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة.

ثم أضاف إلى ذلك مخاطباً راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة محاذرة، كأنه يخشى أن يثير غضبه:

- ذلك أن هذا المرض قد بدأ كامناً منذ مدة طويلة، هه؟ اعترف أن بعض الذنب في ذلك يرجع إليك... .

أجاب راسكولنيكوف يقول ببرود:

- جائز جداً.

تابع زوسيموف كلامه فقال متھمساً:

- أقول هذا لأن شفاءك الكامل متوقف بعد الآن عليك أنت خاصة. أوّلُ أتفعلك الآن، بعد أن أصبح الحديث معك ممكناً، أنه ينبغي علينا القضاء على الأسباب الأولى، الأسباب الأساسية إن صح التعبير، التي ولدت مرضك. فإذا فعلت ذلك شفيت، وإنما تفاقم مرضك. أنا لا أعرف ما هي تلك الأسباب، ولكن لا بد أنك تعرفها أنت. فأنت شاب ذكي، ولا شك أنك لاحظت نفسك. ويخيل إليّ أن بداية اضطراباتك قد جاءت حين تركت الجامعة تقريباً. مما ينبغي إذن أن تبقى عاطلاً عن أي عمل يشغلك. أعتقد أن عملاً موجهاً إلى غاية محددة سيساعدك كثيراً.

- نعم، نعم. أنت على حق تماماً. سأعيد تسجيلى في الجامعة. وعندئذ سيجري كل شيء... على ما يرام.

كان بين أهداف زوسيموف من إسداء نصائحه الحكيمية تلك أن ينال إعجاب السيدتين، لذلك كان طبيعياً أن يرتبك بعض الارتكاب وأن يضطرب بعض الاضطراب حين فرغ من إلقاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرأى في وجهه سخرية ظاهرة لا تخفي. على أن ذلك لم يدم إلا لحظة. فإن بولخيريا الكسندروفنا سرعان ما طفت تفيف في شكر زوسيموف، وتعبر له خاصةً عن امتنانها من زيارته لهما في الشقة المفروشة في الليلة الماضية.

قال راسكولنيكوف يسألها قلقاً:

- كيف؟ هل ذهب إليكما ليلاً؟ إذن لم تナما بعد رحلة متعبة كتلك الرحلة؟

- في الساعة الثانية كان كل شيء قد انتهى يا روبيا. وقد ألفنا، أنا ودونيا، في بيتنا، أن لا ننام قطُّ قبل الساعة الثانية من الصباح. واصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد أظلم وجهه فجأة، وأطرق إلى الأرض:

- أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكره....

ثم اتجه يخاطب زوسيموف فقال:

- بصرف النظر عن الناحية المالية - معذرة إذا أنا أشرت إلى هذه الناحية! - فإنني لا أعرف فعلاً كيف استحققت كل هذه العناية منك. حقاً إنني لا أفهم... لذلك كانت هذه العناية تشق على نفسي... أقول لك هذا بصرامة تامة.

أجابه زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك حملأً:

- لا تثورُنْ أعصابك يا صاحبي. افرض أنك أول زبائني. إن الطيب الذي ما يزال في بداية ممارسته يدلل دائمًا زبائنه الأول، حتى لقد يُشغف ببعضهم. وأنت تعلم أن زبائني ليسوا كثُرَا حتى الآن.

أضاف راسكولنيكوف يقول وهو يومئ إلى رازوميixin:

- ناهيك عن هذا... الذي لم ينل مني إلا أنواع التصديق وضرورب الإهانة.

هتف رازوميixin قائلاً:

- أسفاقات جديدة؟ هاينت ذا قد أصبحت «عاطفياً»!

الآن لو كان يملك مزيداً من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس أمر «عاطفية»، بل شيء آخر هو نقىض العاطفية تماماً. وقد لاحظت آفدوتيما

رومانوفنا ذلك. وكانت تراقب أخاها في قلق.

وتتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه في هذا الصباح:

- أما عنك أنت يا أماه فلا أكاد أجرؤ أن أتكلم. إنني لم أدرك إلا اليوم مدى العذاب الذي لا بد أنك عانيته أمس حين كنت تنتظرینني هنا.

قال ذلك ومدّ يده إلى أخته على حين فجأة مبتسمًا دون أن يقول كلمة. ولكن شعوراً صادقاً يظهر في ابتسامته هذه المرة. فأسرعت دونيا تتناول اليد الممدودة إليها، فتصافحها بحرارة، سعيدة شاكرة. هذه أول مرة يتوجه فيها إلى أخته بعد الشناق الذي وقع بينهما أمس. وأشرق وجه الأم سعادة حين رأت هذه المصالحة الصامتة الحاسمة بين الأخ وأخته.

خمس رازوميixin يقول متھمساً وهو يستدير بقوة على كرسيه:

- هذا ما يعجبني فيه! إن له دائمًا اندفاعات كهذه!

وقالت الأم لنفسها: «وما أجمل الطريقة التي اتبعها! ما أتبليها من بادرة! ما أحلاها من حركة بسيطة مرهفة أنهى بها سوء التفاهم الذي قام بينه وبين أخته! لقد كفاه أن يمد إليها يده، في هذه اللحظة، وهو يرمي بها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان... وما أجمل عينيه! ما أجمل وجهه كله!... ألا إنه لأجمل حتى من دونيتها!... ولكن رباه! ما هذه الثياب التي يرتديها! ما أردا ملابسه! إن الخادم في دكان آفاناسي يفانوفتش، الخادم فاسيا، يرتدي ثياباً أحسن من ثيابه! أوه... لشد ما أحب أن أندفع إليه فأعانقه و... آخذ أبكي... لكتني أخاف، أخاف جداً!... إنه غريب الأطوار يا رب! هو يتكلم برقة وحنان، ومع ذلك أنا خائفة! عجيب، ممّ أنا خائفة؟»

استأنفت كلامها فجأة، إذ سارعت ترد على ملاحظة ابنها، فقالت:

- آه يا روديا! لا تستطيع أن تتصور مدى ما شعرنا به من شقاء، أنا دونيتها، أمس. أما وقد انتهى هذا الآن، أما وأنه انقضى فأصبحنا

جميعاً سعداء من جديد، فإننا نستطيع أن نرويه لك. تصور أننا هرعنا إلى هنا لنقبلك، منذ نزلنا من القطار، فقالت لنا تلك المرأة... . هه... . ها هي ذي... . نعمت صباحاً يا ناستاسيا... . نعم، قالت لنا هذه المرأة... . هكذا فجأة... . إنك كنت في السرير تعاني من حمى حارة، ثم هربت وأنت تهدي هذيانا شديداً، دون أن يعرف الطبيب عن ذلك شيئاً، وأنهم ركبوا يبحثون عنك في الشارع. لا تستطيع أن تتصور ما أحدهه هذا فيما من أثر!.. . لقد تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التي انتهى إليها الملازم بوتانتشيكوف، أحد أصحابنا القدماء، صديق أبيك - ألا تذكره يا روديا - الذي كان مصاباً هو أيضاً بحمى حارة فهرب من البيت مثلك فسقط في بئر الحوش، ولم يمكن إخراجه منه إلا في اليوم التالي. وقد غالينا طبعاً في تصور خطورة حالتك. وتمينا أن نركض نبحث عن بيوتر بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل... . لأننا كنا وحيدتين، وحيدتين تماماً... .

قالت جملتها الأخيرة هذه بصوت فيه شكوى وتوجع. لكنها أمسكت عن الكلام فجأة، لأنها تذكرت أن الكلام عن بيوتر بتروفتش ما يزال خطراً بعض الشيء، «رغم أن الجميع قد أصبحوا سعداء من جديد».

جمجم راسكولنيكوف يقول مجياً:

- نعم نعم، هذا كله مؤسف طبعاً... .

ولكن هيئته كانت تنم على ذهول وغياب يبلغان من الشدة أن دونيتشكا نظرت إليه مشدوهة.

وابع يقول وهو يبذل جهداً واضحاً لاستجمع ذكرياته:

- ماذا كنت أريد أن أقول لكم كما أيضاً؟ ها... . نعم... . أرجوك يا أمي، وأرجوك أنت يا دونيتشكا، أن لا يذهب بكم الظن إلى أنني كنت لا أنوي أن أسبقكم إلى الذهاب إليكما، وأنني انتظرت أن تجيئنا أنتما إلى... .

هفت بولخيريا الكسندروفنا تقول مدهوشة هي أيضاً:

- ما هذا الذي تقوله يا روديا؟

وقالت دونيا لنفسها: «ما باله؟ أتراء لا يحبينا إلا من باب القيام بالواجب؟ إنه يصالحنا ويستغفرا، ولكنه كأنه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً».

- لقد أردت منذ صحوت أن أذهب إليكما، لكن مسألة الثياب آخرتني... لقد نسيت أمس أن أقول لها، أعني أن أقول لناستاسيا أن... تغسل هذا الدم. ولم أستطع أن أرتدي ثيابي إلا الآن.

هفت بولخيريا الكسندروفنا تأسّل في قلق:

- الدم؟ أي دم؟

فأجابها:

- لا تقلقي، ليس الأمر بذمي بالـ. هذا الدم سببه أنني تر Hatch قليلاً أمس، بسبب الهذيان، فاصطدمت برجلٍ كانت قد داسته عربة... هو موظف...

قاطعه رازوميخين قائلاً:

- هذيان؟ ولكن ها أنت ذا تذكر كل شيء!

فأجاب راسكولنيكوف بهلجة تنم على الهم:

- صحيح... أتذكر كل شيء، حتى أدق التفاصيل. ولكن لماذا فعلت كيت وكيت، لماذا ذهبت إلى مكان كذا، لماذا قلت ذلك الشيء في ذلك المكان، هذا ما لا أستطيع أن أفسره لفسمي.

تدخل زوسيموف فقال:

- هذه ظاهرة معروفة جداً. رب فعل يقوم به صاحبه على نحو رائع، ببراعة فائقة وحذق مدهش، ثم يبقى الباعث عليه والدافع إليه ممولاً، لارتباطه بمشاعر مرضية شتى. فكأن الأمر كله حلم من الأحلام.

قال راسكولنيكوف لنفسه: «إنه لحظ موفق أن يدعني أشبه بمحظون!»

قالت دونيا وهي تلقي على زوسيموف نظرة قلقه:

- ولكن ألا يصدق هذا على أناس أصحاء أيضاً؟

فأجابها زوسيموف قائلاً:

- هذه ملاحظة سديدة جداً، بمعنى أننا جميعاً على وجه التقرير نشبه المجانين حقاً في كثير من الأحيان، مع فرق واحد مع ذلك هو أن «المرضى» مجانيين أكثر مما قليلاً، فمن الضروري أن نميز هنا درجات. أما الإنسان «السوبي»، فمن الواجب أن نقول أنه لا يكاد له وجود. قد نجد فرداً سوياً، أو فرداً قريباً من السوبي، بين عشرات الآلاف وربما مئات الآلاف من الأفراد.

اربأّت وجوه الحاضرين جميعاً حين سمعوا كلمة «المجانين» هذه التي أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا ترو أثناء ثرثرته حول موضوعه المفضل. وكانت تطوف على شفتني راسكولنيكوف الذي ما يزال جالساً، كانت تطوف على شفتيه اللتين زال عنهما لونهما، ابتسامة تنم على أنه كان مسترسلاماً في أحلام عميقة.

صاحب رازوميixin يسأله بسرعة شديدة:

- هي، لقد قاطعتك... ما حكاية الرجل الذي داسته العربة؟

قال راسكولنيكوف وكأنه يستيقظ فجأة:

- ماذا؟ آ... نعم... لقد تلوثت بالدم حين ساعدت في نقله إلى بيته... بالنسبة يا أمي: لقد فعلت أمس أمراً لا يغتفر. حقاً لم أكن أملك كل عقلي. لقد أعطيت امرأة ذلك الرجل، أمس، كل المال الذي أرسلته إليها... من أجل دفنه... هي الآن أرملة، أنها امرأة شقية فقيرة... عندها ثلاثة يتابعي صغار جائعين... ما من قرش واحد في بيتهم... وهناك أيضاً بنت... لعلكما كنتما ستفعلان ما فعلته أنا لو كنتما في مكاني. طبعاً لم يكن من حقي أن أفعل ذلك، أنا أعترف

بهذا... لأنني أعرف حق المعرفة كيف حصلتـما على ذلك المال. فمن أجل أن يساعدـ المرأةـ غيرـهـ يجبـ عليهـ أولاًـ أنـ يكونـ لهـ حقـ فيـ ذلكـ وإلاـ: «موتواـ أيـهاـ الكلـابـ إذاـ لمـ تكونـواـ راضـينـ».

أليسـ الأمرـ كذلكـ ياـ دونـيـاـ؟

قالـ راسـكـولـنيـكـوفـ هذاـ وـضـحـكـ.

أجاـبـتـهـ دونـيـاـ بـلـهـجـةـ جـازـمـةـ تـقـولـ:

- لاـ، لـيسـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ!

فـدـمـدـمـ يـقـولـ وـهـوـ يـلـقـيـ عـلـيـهـ نـظـرـةـ توـشـكـ أـنـ تـكـونـ كـارـهـةـ، وـتـطـوـفـ بـشـفـتـيـهـ اـبـسـامـةـ سـاحـرـةـ:

- هـاـ... أـنـتـ أـيـضاـ تـزـخـرـينـ بـنـيـاتـ طـيـبـةـ. كـانـ يـنـبـغـيـ لـيـ أـنـ أـفـهـمـ هـذـاـ!.. ذـلـكـ جـمـيلـ جـداـ عـلـىـ كـلـ حـالـ!.. رـبـماـ كـانـ ذـلـكـ أـفـضـلـ!.. إـذـاـ وـصـلـتـ إـلـىـ نـقـطـةـ لـاـ تـجـسـرـيـنـ أـنـ تـتـخـطـيـهـاـ فـسـوـفـ تـشـقـيـنـ، وـإـذـاـ تـخـطـيـتـهـاـ فـرـبـماـ شـقـيـتـ أـكـثـرـ. ثـمـ إـنـ هـذـاـ كـلـهـ سـخـافـاتـ (أـضـافـ ذـلـكـ مـهـتـاجـاـ، نـادـمـاـ عـلـىـ أـنـهـ اـسـتـسـلـمـ لـاـنـدـفـاعـهـ). وـإـنـماـ أـرـدـتـ يـاـ أـمـيـ أـنـ أـعـتـذـرـ إـلـيـكـ، أـنـ أـسـتـغـفـرـكـ.

كـذـلـكـ خـتـمـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ كـلـامـهـ بـصـوـتـ جـازـمـ مـتـقـطـعـ.

قـالـتـ الـأـمـ رـاضـيـةـ كـلـ الرـضـىـ:

- كـلـ ماـ تـفـعـلـهـ يـاـ روـديـاـ فـهـوـ خـيـرـ. أـنـاـ وـاثـقـةـ بـهـذـاـ.

فـأـجاـبـتـهـ بـاـبـسـامـةـ مـصـطـنـعـةـ:

- لـاـ تـثـقـيـ كـلـ هـذـهـ الثـقـةـ!

أـعـقـبـ ذـلـكـ صـمـتـ. لـقـدـ كـانـ الـحـدـيـثـ كـلـهـ مـتـوـرـاـ جـداـ، سـوـاءـ فـيـ الصـمـتـ، أـوـ فـيـ الـمـصالـحةـ، وـفـيـ الـغـفـرانـ. وـكـانـ الـجـمـيعـ يـحـسـونـ ذـلـكـ.

قالـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ لـنـفـسـهـ وـهـوـ يـنـظـرـ إـلـىـ أـمـهـ وـأـخـتـهـ بـطـرـفـ عـيـنهـ: «لـكـأـنـهـماـ خـائـفـتـانـ مـنـيـ حـقاـ». وـالـحـقـ أـنـ بـولـخـيرـياـ الـكـسـنـدـرـوـفـنـاـ كـانـ يـزـدادـ خـوفـهـاـ عـلـىـ قـدـرـ اـمـتـدـادـ صـمـتهاـ.

وومضت هذه الفكرة في ذهن راسكولنيكوف : «أنا أنما كنت أحبهما إذن من بعد» .

هفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فجأة :

- هل تعلم يا روديا؟ لقد ماتت مارفا بتروفنا!

- من هي مارفا بتروفنا؟

- عجيب ! مارفا بتروفنا سفيديرجايلوفا . حدثتك عنها طويلاً في رسالتي !

- آ... آ... نعم... تذكرت ! إذن ماتت؟ آ... حقاً؟ .. (قال

ذلك مرتعشاً كمن يصحو من نوم) . ماتت... أصحيح أنها ماتت؟ مم ماتت؟

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيئه وقد شجعها هذا الاستطلاع :

- ماتت فجأة . حدث ذلك يوم أرسلت إليك رسالتي . تصور !

وتصور أن أغلب الظن أن ذلك الرهيب هو سبب موتها . يقال أنه كان قد ضربها ضرباً فظيعاً.

سؤال راسكولنيكوف أخته :

- هل كان ذلك من عاداتهما؟

- لا ، بالعكس . كان يبدو على الدوام صبوراً جداً معها ، بل ولطيفاً جداً في معاملتها . وكان في كثير من المناسبات كثير اللين والتسامح في

تصرفه إزاء طبع زوجته . ولكن ذلك دام سبع سنين ، فلعله فقد صبره على حين فجأة .

- إذن لم يكن فظيعاً إلى ذلك الحد ما دام قد استطاع أن يسيطر على نفسه خلال سبع سنين . لكانك تعذرلينه يا دونيتشكا .

- لا ، لا ، إنه رجل فظيع ! لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أفظع منه .

فذلك أجابت دونيتشكا وهي تكاد ترتجف . وقطبت حاجبيها وغرقت في أفكارها .

وأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تتابع كلامها فقالت :

- ضربها في الصباح فأمرت بعد ذلك بإعداد العربية لتجهز إلى المدينة بعد الغداء رأساً، لأنها تذهب إلى المدينة دائماً في مثل تلك الحالات. يقال إنها التهمت غدائها بشهية قوية.

- بعد أن ضربت؟

- نعم، هذه عادة من عاداتها. وما إن انتهت من تناول طعامها حتى أسرعت تستحم حتى لا تتأخر في الذهاب إلى المدينة. إنها تعالج نفسها بالحمامات. أن لديهم ينبوع ماء بارد، فهي تستحم به بانتظام واطراد كل يوم. ولكنها ما إن غطست في الماء حتى أصبت بالسكتة.

قال زوسيموف معقباً:

- لا غرابة!

- وهل ضربها ضرباً شديداً جداً؟

قالت دونيا:

- أي قيمة لهذا؟

وقال راسكولنيكوف فجأة، في اهتياج ولهجة غير متوقعة:

- هم... ثم ما قيمة قص سخافات من هذا النوع يا أمي؟

فقالت بولخيريا الكسندروفنا:

- آه يا بني!.. إنما أنا رويت هذه الأمور لأنني أصبحت لا أعرف عم ينبعي أن أنكلم!

فقال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة من جديد:

- أتراكم تخافون جميعاً مني؟

قالت دونيا وهي تحدق إلى عيني أخيها بنظرة ثابتة:

- هذا صحيح. حتى إن ماما قد رسمت إشارة الصليب قبل صعودها للسلم، من شدة خوفها.

تقلص وجه راسكولنيكوف حتى لكانه أصيب بالتشنج.

فتمتمت بولخيريا الكسندروفنا تقول مرتبكَة كل الارتكاك:

- آه... ما هذا الذي تقولينه يا دونيا؟ لا تزعل يا روديا، أرجوك... لماذا تقولين هذا الكلام يا دونيا؟ صحيح أنني طوال مدة الرحلة، في القطار، كنت أتخيل كيف سأنتقي، وما الذي سيقوله بعضاً البعض... وقد بلغت من شدة السعادة أنني لم أشعر بالرحلة. ولكن ما هذا الذي أقوله؟ إنني ما زلت سعيدة... الآن أيضاً أنا سعيدة... ما كان ينبغي لك يا دونيا أن تقولي هذا الكلام... أنا سعيدة يا روديا، أن روبيتك تجعلني سعيدة... .

فدمدم راسكولنيكوف يقول لأمه مرتبكَا، وهو يشد على يدها دون أن ينظر إليها:

- كفى يا ماما. سيسع وقتنا للتتحدث طويلاً!

ولكنه ما إن قال هذا الكلام حتى اضطرب فجأة، واصفر وجهه، وعاوده ذلك الإحساس الرهيب الذي يعرفه حق المعرفة، الإحساس ببرودة رهيبة تجتاح نفسه، وشعر شعوراً لا يخالجه ريب بأنه قد كذب كذبة فظيعة، وبأنه لن يستطيع أن يكلم أحداً بعد الآن بقلب مفتوح في يوم من الأيام، بل ولن يستطيع بعد الآن أن يتكلم في أمر من الأمور أياً كان. ويبلغ الإحساس الذي ولدته هذه الفكرة في نفسه من شدة الإيلام أنه كاد يفقد الشعور بالواقع فقداناً كاملاً خلال لحظة، فنهض واتجه نحو الباب قُدُّماً لا يلوى على شيء ولا ينظر إلى أحد.

هتف رازوميخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه:

- ماذا تفعل؟

فعاد راسكولنيكوف يجلس، وأجال بصره حواليه صامتاً. فكان الجميع يتأملونه مشدوهين.

وهتف يقول فجأة:

- حقاً إنكم جميعاً لبعثون الضجر والسم في النفس! هلاً قلتم شيئاً!

ما بالنا نبقى جالسين هكذا! تكلموا! تكلموا! سوف نتكلم... معاً!  
أنجتمع ثم لا نقول شيئاً؟ هيأ قولوا شيئاً! هلموا!

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي ترسم إشارة الصليب:

- الحمد لله. لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس.

وقالت آفدوتي رومانوفنا تسأل أخاها مرتابة:

- ما بك يا روديا؟

فأجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة:

- لا شيء... لا شيء... تذكرت سخافة من السخافات!

دمدم زوسيموف يقول:

- إذا كان الأمر أمر سخافة من السخافات، فهذا يبعث على الاطمئنان. وإنما يمكن أن أفترض...

ثم أضاف:

- على كل حال، يجب أن أنصرف. قد أجيء لأراك، إذا أنا وجدتك!

ثم هيأ وخرج.

قالت بولخيريا الكسندروفنا:

- يا له من رجل رائع!

فقال راسكولنيكوف فجأة وبسرعة شديدة غير متوقعة، وبحرارة أشد مما أظهر من حرارة حتى الآن:

- نعم، هو رجل رائع، مدهش، مثقف، ذكي... لا أتذكر الآن أين التقيت به قبل مرضي. ولكن يبدو لي أنني سبق أن التقيت به.

ثم أضاف وهو يومئ إلى رازوميخين بإشارة من رأسه:

- وهذا أيضاً رجل ممتاز!

ثم التفت إلى أخته يسألها وقد أخذ يضحك فجأة لا يدرى أحد لماذا:

- هل يعجبك يا دونيا؟

فأجابته دونيا قائلة:

- كثيراً.

قال رازوميخين وهو ينهض محمراً الوجه من الخجل والاضطراب:

- يا للأحمق!

وابتسمت بولخيريا الكسندروفنا ابتسامة خفيفة، بينما كان راسكولنيكوف يضحك ضحكاً صاخباً.

- ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا أيضاً مشغول.

- لا لست مشغولاً بشيء البتة، ابق! ألا يكفي أن ينصرف زوسيموف حتى يكون عليك أن تنصرف أنت أيضاً. لا، لا تذهب! ثم كم الساعة الآن؟ الثانية عشرة؟ ما أجمل هذه الساعة التي تحملينها يا دونيا! ولكن ما بالكم تصمتون جميعاً من جديد؟ لا يتكلم أحد غيري هنا!

أجبت دونيا:

- هي هدية من مارفا بتروفنا.

وعقبت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

- وقد كلفت ثمناً غالياً جداً.

- هي ضخمة جداً بالقياس إلى ساعة نسائية.

- أحب الساعات الضخمة هكذا.

وقال رازوميخين لنفسه: «ليست هدية من الخطيب إذن»، وابتهر لهذا دون أن يدرى كثيراً لماذا!

وقال راسكولنيكوف :

- تصورت أنا أنها هدية من لوجين !

- لا ، إنه لم يقدم إلى دونيا حتى الآن أية هدية !

قال راسكولنيكوف فجأة وهو ينظر إلى أمه التي ذهلت من انتقاله إلى هذا الكلام بغير تدرج ، ومن اصطناعه هذه اللهجة التي اصطناعها :

- آ... آ... هل تذكرين يا أمي أتنى عشت وأتنى أردت أن أتزوج ؟

- نعم أتذكر يابني .

وتبادلـت بولـخـيرـيـا الكـسـنـدـرـوـفـنـا نـظـرـةـ مع دـونـيـشـكـا وـراـزـوـمـيـخـينـ .

- نـعـمـ . وـمـاـذاـ أـقـولـ لـكـ عـنـ ذـلـكـ الـأـمـرـ أـيـضـاـ ؟ لـقـدـ نـسـيـتـ فـأـصـبـحـتـ لـاـ تـذـكـرـ . . .

وابـاعـ كـلـامـهـ وـهـوـ يـطـرـقـ إـلـىـ الـأـرـضـ وـيـصـبـحـ شـارـدـ الـذـهـنـ حـالـمـاـ مـنـ جـدـيدـ :

- كانت فتاة ممراضـاـ . . . مـمـراـضـاـ جـداـ . وكانت تحـبـ أن تتصـدقـ على المـتـسـؤـلـينـ . وكانت تحـلـمـ بالـدـيـرـ . . . وقد أـجـهـشـتـ باـكـيـةـ في ذاتـ يـوـمـ حـيـنـ حدـثـتـيـ عنـ ذـلـكـ . نـعـمـ . . . نـعـمـ . . . أـتـذـكـرـ . لاـ يـمـكـنـ أنـ يـقـالـ إنـهـ كـانـتـ جـمـيـلـةـ ! حـقـاـ . . . لاـ أـدـرـيـ لـمـاـذـاـ تـعـلـقـتـ بـهـاـ . ربماـ لأنـهـ كـانـ دائمـاـ مـرـيـضـةـ . وأـحـسـبـ أـنـهـ لـوـ كـانـتـ عـرـجـاءـ أوـ حـدـباءـ لأـحـبـبـتـهـاـ أـكـثـرـ .  
(قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة). كان ذلك نوعـاـ من جـنـونـ الـرـبـيعـ !

قالـتـ دـونـيـاـ مـنـدـفـعـةـ :

- لاـ ، لمـ يـكـنـ نوعـاـ منـ جـنـونـ الـرـبـيعـ .

أـلـقـىـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ عـلـىـ أـخـتـهـ نـظـرـةـ مـتـبـهـةـ . ولـكـنـ كـانـ يـبـدوـ عـلـيـهـ أـنـهـ لمـ يـفـهـمـ كـلـامـهـاـ وـلـاـ سـمـعـهـ . ثـمـ نـهـضـ وـهـوـ مـاـيـزاـلـ شـارـدـ الـفـكـرـ ، فـمضـىـ إـلـىـ أـمـهـ ، فـقـبـلـهـاـ ، وـعـادـ يـجـلـسـ فـيـ مـكـانـهـ .

سألته بولخيريا الكسندروفنا مضطربةً أشد الاضطراب:

- أما زلت تحبها؟

- هي؟ ما زلت أحبها؟ آ... نعم... أنت تتكلمين عنها... لا... ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر... انقضى زمان طويل... انقضى زمان طويل... ليس هذا فحسب... بل إن كل ما يجري حولي الآن فكانه يجري في عالم آخر.

قال راسكولنيكوف ذلك، ونظر إليهم بانتباه ثم أردف يقول:

- إليكم هذا المثال: أنا انظر إليكم الآن، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ مني... ولكن لماذا تتكلم عن هذه الأشياء؟ ثم لماذا تسألونني؟ (أضاف ذلك غاضباً، وصمت، وأخذ يقضم أظافره، وغاب في أحلامه من جديد).

وقطعت بولخيريا الكسندروفنا هذا الصمت الأليم، إذ قالت فجأة:

- ما أرداً مسكنك يا روديا! إنه أشبه بتابوت! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآباتك!

فقال راسكولنيكوف ذاهل الهيئة:

- المسكن... نعم... لا بد أن لمسكني هذا دخلاً في الأمر... أنا أيضاً خطر بيالي هذا.

ثم أضاف يقول فجأة وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

- ولكن ليتك تعلمين عن أي فكرة غريبة عبرتِ أنت الآن يا أمي!

كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع، وهذه الأم وهذه الاخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاثة سنين، وهذه اللهجة الحميمة في الحديث، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شيء، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق إطلاقاً. غير أن هناك مسألة لا تحتمل مناقشتها إرجاء، مسألة كان قد قرر منذ صحا من نومه

أن يحلّها في هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى . وها هو ذا يحس الآن بالارتياح لأن بوسعه أن يتّخذ هذه المسألة وسيلة للخروج من مأزقه .

بدأ كلامه فقال بلهجة خشنة قاسية :

- اسمعي يا دونيا . أنا طبعاً أستغفرك عما جرى أمس ، ولكنني أرى أن من واجبي أن أذكُرك بأنني ما زلت مصرأ على الشيء الأساسي من أقوالي . إما أنا وإما لوجين . قد أكون أنا أسوأ الناس طرأ ، ولكن ما ينبغي أن تكوني أنت كذلك . يكفي أن يكون أحدهنا سيناء . إذا تزوجت لوجين ، فلن أعدك أختي .

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول بمرارة :

- روديا ، روديا ! ها نحن إذن نعود إلى ما كنا فيه بالأمس ! لماذا تعد نفسك «أسوأ الناس طرأ»؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا . أمس أيضاً كان هذا نفسه ...

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة ، قاسية كلهجته :

- هذا ناشئ عن خطأ ترتكبه يا أخي . لقد فَكِرت هذه الليلة ، فاكتشفت سبب خطئك . إن كل شيء ناشئ ، فيما يبدو لي ، عن تصورك أنني أضحي بي نفسي في سبيل أحد . وهذا ليس صحيحاً البتة . فإنما أتزوج تحقيقاً لمصلحتي الخاصة ، لأن حياتي صعبة . طبعاً ... إذا استطعت في المستقبل أن أفع أهلي ... فسوف يسعدني ذلك ، ولكن السبب الرئيسي للقرار الذي اتخذته ليس هو هذا ...

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حانقاً : «إنها تكذب ! يا للمتعجرفة ! إنها لا ت يريد أن تعرف بأنها تحلم أن تكون محسنة . آه ! يا لهذه الطبائع ! حتى حين يحبون ، فكأنهم يكرهون . آه ... لشد ما أكرههم جميعاً !»

وتابعت دونيا تقول :

- باختصار : أنا أتزوج بيوتر بتروفيتش لأنني اختار أهون الشررين . وإذا

أني قررت أن أنفذ كل ما ينتظره مني، بأمانة واستقامة وشرف، فإنني  
أعتقد أنني لا أخدعه... لماذا تتسم؟  
سألها راسكوليوكوف بللهجة مسومة:

- ستفذدين كل شيء؟

- إلى حيد ما. وإن الطريقة التي اتبعها بيوتر بتروفتش في خطبتي قد  
أفهمتني على الفور ما يتنتظره مني. صحيح أن رأيه في نفسه عاليٌ كثيراً،  
ولكتني آمل أن يقدّرني أيضاً... لماذا تضحك من جديد؟

- وأنت لماذا تحرّمِين من جديد؟ إنك تكذبين يا أختي، تكذبن  
عamedaً، بعناد امرأة، حتى لا تتراجعِي أمامي. أنت لا يمكن أن تتحترمي  
لوجين: لقد رأيته وتحدث معه. إذن أنت تبيعين نفسك بالمال. إذن  
أنت تصرفين تصرفَا دنيئَا على كل حال. فإنه ليسعدني، أن تكوني على  
الأقل قادرةً على أن تحرّمي خجلاً.

صاحت دونيا تقول وقد فقدت كل هدوئها:

- هذا غير صحيح. أنا لا أكذب! لن أتزوجه دون أن أقنع بأنه  
يقدرني حق قدرى، وأنه يحرص علىَي. لن أتزوجه دون أن أقنع اقتناعاً  
جازماً بأنني أستطيع أن أقدرها. ومن حسن الحظ أن في وسعي أن أقنع  
بهذا على وجه اليقين في هذا اليوم نفسه. ليس هذا الزواج دناءة علىَ  
نحو ما تصف. وهبك على صواب، وهبني قررت أن أرتكب عملاً  
دنيئاً، أفلأ تكون أنت قاسيَا حين تقول لي هذا الكلام؟ لماذا تتطلب مني  
بطولة تعجز عنها أنت نفسك؟ هذا ظلم واستبداد، هذا عنف وطغيان!  
إذا كنت أشقي أحداً، فإنما أشقي نفسي! أنا لم أذبح أحداً بعد... لماذا  
تنظر إلىَ هكذا؟ لماذا أصفر وجهك هذا الاصفراز فجأة؟ روديا، ماذا  
بك؟ روديا، عزيزي... .

صاحت بولخيريا الكسندروفنا:

- رباه! لقد بلغت من تعذيبه أنه سيُغمى عليه!

- لا، لا، لم يحدث شيء، لا قيمة لهذا. كل ما حدث هو أنني أحسست بشيء من دوار... ولكن لم يُعمَّ علىَيْ. إنكم تظنون كل شيء إغماء... . . . ماذا كنت أريد أن أقول؟ نعم: بأية وسيلة ستقتعنين، في هذا اليوم نفسه، بأنك تستطعين احترامه، وبأنه يقدرك؟ ذلك هو ما قلتَه، أليس كذلك؟ يخيل إليَّ أنك قلتَ: «في هذا اليوم نفسه»، أم تراني سمعت خطأ؟

قالت دونيا:

- ماما، أطلعي أخي على رسالة بيوتر بتروفتش. فمدَّت بولخيريا الكسندروفنا الرسالة إليه، مرتعشةً اليدين. فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوي، ولكنه قبل أن يفضِّلها نظر إلى دونيا مدھوشًا. وقال ببطء، كأنما وافته فكرة جديدة:

- غريب جداً أنني ثرت هذه الثورة كلها من أجل... . لماذا هذا الاضطراب كله؟ تزوجي من تشارن... .

قال هذا كمن يحدث نفسه، ولكنه كان يتكلم بصوت عالٍ، وظل برهةً من الوقت ينظر إلى أخته مرتباً.

وفضَّل الرسالة أخيراً وهو ما يزال على ما هو عليه من دهشةٍ لا تعليل لها. ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه. أعاد قراءة الرسالة مرتين. وكانت بولخيريا الكسندروفنا قلقة إلى أبعد حدود القلق. وكان الجميع، من جهة أخرى، يتوقعون انفجاراً.

بدأ راسكولنيكوف كلامه بعد لحظةٍ من تأمل، فقال وهو يرد الرسالة إلى أمه، ولكن دون أن يخاطب أحداً بعينه:

- غريب. هو محام. وله زبائن، وحتى حديثه لا يخلو من... . حذلقة. ومع ذلك يحسُّ الماء حين يقرؤه أنه ليس على شيء من تعليم أو ثقافة.

حدثت حركة شاملة: لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً.

قال رازوميخين بلهجة قاطعة :

- ولكنهم جميعاً يكتبون هكذا.

- هل قرأت هذه الرسالة؟

- نعم.

قالت بولخيريا الكسندروفنا مرتيبة :

- أطلعناه عليها يا روديا، و... سألناه... النصح... منذ

برهة... .

فقطاعها رازوميخين يقول :

- هذا أسلوب القضاء لا أكثر... إن جميع الأوراق القضائية تحرر الآن بهذا الأسلوب!

- القضاء؟ نعم... صحيح!.. ذلك أن أسلوب هذه الرسالة ليس أسلوب رجل محروم من أي حظ من ثقافة، ولكنه في الوقت نفسه ليس أسلوباً أدبياً. إنه أسلوب رجل من رجال الأعمال.

قالت آفدوتيما رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها الجديدة :

- أن بيوتر بتروفتش لا يخفى أن تعليمه كان متواضعاً، بل أنه ليتعزز بأنه عصامي شق طريقه بنفسه.

- إذا كان يتعزز فلا شك أن هناك ما يدعوه إلى الاعتذار! أعتقد أنك انزعجت يا اختي لأنني لم أخرج من هذه الرسالة كلها إلا بهذه الملاحظة التافهة؛ وأنت تظندين أنني تعمدت أن أثبت بهذه السفاسف لأسخر منك بداعف زعلي. والحق عن ذلك بعيد: ففي صدد موضوع الأسلوب هذا، أنما خطرت بيالي ملاحظة تبدو لي في هذه الحالة ذات شأن. لقد ورد في الرسالة تعبير يقول: «لن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً إلا أنفسكم»، وهو تعبير ذو دلالة بلغة في ذاته، عدا أنه يستعمل على تهديد: لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً إذا أنا حضرت. فهذا التهديد بالانصراف معناه أنه سيترك كما إذا أنتما لم تطاوعاه، مع أنه هو

الذي حملكما على المجيء إلى بطرسبرج . فما رأيك ؟ هل يمكن أن تسوءك هذه الكلمات حين يكتبها لوجين مثلكم يمكن أن تسوءك لو كتبها هذا (قال ذلك وهو يومئ إلى رازوميixin) أو كتبها زوسيموف أو كتبها أي واحد منا ؟

قالت دونيتشكا متجمسة :

- لـ... لا ! .. لقد أدركت حق الإدراك أن في أسلوبه سذاجة شديدة ، وأنه قد لا يكون حاذقاً كل الحذق في استعمال قلمه . إن ملاحظتك سديدة جداً يا أخي ، حتى إنني لم أكن أتوقع أن ...

- نعم ، هذا هو طابع الأسلوب القضائي ، وبالأسلوب القضائي لا يمكن أن يكتب المرء غير هذا . ولعل لوجين كان فيما كتبه ظناً أكثر مما أراد . ومع ذلك أريد أن أخيب ظنك قليلاً : إن في هذه الرسالة نفسها تعبيراً آخر هو نيميمة في حقي ، نيممة خسيسة . لتن وهبت بالأمس مالاً لأرملة مصدورة يائسة ، فإنني لم أفعل ذلك «بحجة» دفع نفقات الجنازة ، بل لدفع نفقات الجنازة فعلاً . ثم إنني وضعت هذا المال لا في يد الفتاة أو في يد «البنت المعروفة بسوء السمعة» على حد تعبيره ، وهي الفتاة التي رأيتها بالأمس لأول مرة في حياتي ) وإنما وضعت المال في يد الأرملة نفسها . إنني أرى في كلامه هذا رغبة شديدة جامحة في تلطيخ صفتني ، وفي إحداث شفاق بيني وبينكم . هنا يكشف الأسلوب القضائي عن نيات صاحبه بوضوح ، ويدل على تسرع فيه شيء من سذاجة . إن الرجل ذكي ، ولكن لا يكفي أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذلك . هذا كله يطلعك على حقيقته . ثم إنني ... لا أعتقد أنه يحترمك كثيراً . لا أقول لك هذا إلا لتحيطي علماً . . ذلك أنني أتمنى لك الخير صادقاً كل الصدق .

لم تجب دونيا . كانت قد اتخذت قرارها منذ مدة ، فهي تنتظر حلول المساء .

سألت بولخيريا الكسندروفنا ابنها، وقد اشتد قلقها بسبب أقواله الجديدة المفاجئة التي تتناول موضوع الأعمال.

- فماذا قررت يا روديا؟

- ماذا تعنين بقولك «ماذا قررت»؟

- أن... بيوتر بتروفتش يطلب في رسالته أن لا تجيء إلينا هذا المساء، وأنه سينصرف إذا أنت جئت. فهل... تجيء؟

- لست أنا من يجب أن يقرر. وإنما ينبغي أولاً أن تقرري أنت: هل تجدين في طلب بيوتر بتروفتش إهانة لك أم لا؛ وينبغي ثانياً أن تقرر دونيا: هل هي أيضاً مستاءة من هذا الطلب وتجد فيه إهانة لها أم لا.

وأضاف راسكولنيكوف يقول ببرود:

- أما أنا فسأفعل ما يناسبكم كلتكم.

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيب:

- لقد اتخذت دونيتشكا قرارها وانتهى الأمر؛ وأنا أتفقها كل الموافقة.

قالت دونيا:

- نعم، لقد قررت يا روديا... قررت أن أطلب منك، ملحة مصرة، أن تحضر الاجتماع عندنا هذا المساء. هل تجيء؟

- سأجيء.

والتفت دونيا إلى رازوميixin فقالت له:

- وأنت أيضاً... أرجوك أن تكون عندنا في الساعة الثامنة. يا أمي، إنني أدعوه أيضاً.

قالت بولخيريا الكسندروفنا:

- هذا حسن جداً يا دونيا.

ثم أضافت :

- ليكن ما تقرران. ثم إنني أنا نفسي أؤثر هذا. إنني لا أحب أن  
أتظاهر وأن أكذب. نعم، الأفضل أن نقول الحقيقة جميـعاً... أغضـب  
أو لا تغضـب يا بيـوتر بـتروـفـتش!

## الفصل الرابع

تلك اللحظة فتح الباب برفق، ودخلت الغرفة فتاة تلقي على ما حولها نظرات وجلى. فالتفت الجميع نحوها مدهوشين مستطلين. ولم يتعرفها راسكولنيكوف في الوهلة الأولى. أنها صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا. كان قد رأها أمس أول مرة، ولكنه رأها في لحظة خاصة وظروف خاصة، ورأها مرتدية ثياباً خاصة، فكانت صورتها المنقوشة في ذاكرته صورة إنسانة أخرى غير هذه التي يراها الآن. هي فتاة بسيطة الملبس بل فقيرة الملبس، تبدو في ميعه الصبا حتى لكونها بنية صغيرة، متحفظة الحركات محتشمة، نقية الوجه على شيء من خوف ووجل، ترتدي ثوباً بسيطاً مما يلبس كل يوم، وتضع على رأسها قبعة بالية الزي، ولكنها تحمل بيدها شمسية كالامس. فلما رأت، على دهشة شديدة منها، أن الغرفة تغصُّ بالناس، لم تضطرب فحسب، بل فقدت كذلك كل سيطرة لها على نفسها، ووجلت كطفلة صغيرة وتحركت تهمُّ أن تنسحب.

قال راسكولنيكوف وقد بلغ ذروة الدهشة :

- آ... أهذا أنت؟

وقد هو أيضاً كل سيطرة له على نفسه.

وسرعان ما تذَكَّر أن رسالة لوجين قد أخبرت أمه وأخته بوجود هذه

الأنسة «المعروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس». وقد احتاج هو من ذي قليل على نمائم لوجين معلناً أنه رأى هذه الفتاة أول مرة مساء أمس، وها هي ذي تدخل عليه الآن بشخصها فجأة. وتذكر أيضاً أنه لم يحتاج أي احتجاج على ما ورد في رسالة لوجين من أن «البنت معروفة بسوء السمعة». ومض ذلك كله في ذهنه مضطرباً مبهماً بسرعة كسرعة البرق. ولكنه حين تأمل القادمة بانتباه أكبر، رأى أنها مخلوقة مسكونة مذلة إلى حدٍ كبير فلم يلبث أن أخذته بها شفقة. فلما تحركت تهمُّ من رعبها أن تهرب، كان هو قد شعر باضطراب، فأسرع يقول لها وهو يستوقفها ينظره:

- لم أكن أتوقع مجيئك البتة. هلا سررتني فجلست. لا شك أنك آتية من قبل كاترينا ايفانوفنا. من فضلك. لا، ليس هنا. بل هنا. اجلس هنا.

حين دخلت صونيا، كان رازوميخين جالساً بالقرب من الباب على أحد الكراسي الثلاثة التي تضمها غرفة راسكولنيكوف، فنهض ليفسح لها مجال المرور. وقد دلّها راسكولنيكوف في أول الأمر على مكان في طرف الديوان هو المكان الذي كان يشغله زوسيموف منذ برهة. لكنه وقد تذكر أن الجلوس على الديوان ينم عن رفع الكلفة، وأنه يتزخر الديوان سريراً له، أسرع يدّلها على كرسي رازوميخين. وقال لرازوميخين وهو يجلسه على طرف الديوان الذي كان يجلس عليه زوسيموف:

- وأنت، أجلس هنا.

جلست صونيا وهي تكاد ترتعش من الخوف ، ونظرت إلى السيدتين خجلةً وجلة . كان واضحًا أنها لا تفهم هي نفسها كيف تجرأت أن تجلس إلى جانبهما . وقد بلغت من الارتياب حين تصورت ذلك أنها

نهضت على حين فجأة مضطربة أشدّ الاضطراب، وثأثأت تقول متوجهةً  
بكلامها إلى راسكولنيكوف:

- أنا... أنا ما جئت إلا لدقّيقة واحدة... اغفر لي إزعاجك. إن  
كاترينا إيفانوفنا هي التي أوفدتني إليك... لأنها لم تجد أحداً غيري  
يمكنها أن توفده. طلبت مني كاترينا إيفانوفنا أن أرجوك ملحة... أن  
تحضر غداً قداس الجنائز... صباحاً... بعد الصلاة... في مقبرة  
ميتروفان<sup>(63)</sup>... وأن تجيء بعد ذلك إلينا... إليها... لتتصيب شيئاً  
من طعام... هي ترجوك أن تهب لها هذا الشرف. نعم، كلفتني بأن  
أسألك هذا... .

قالت صونيا ذلك، واشتد ارتباكاً فصمت.

نهض راسكولنيكوف هو أيضاً، واضطرب هو أيضاً، وقال يجiblyاً:

- سأحاول أن أجيء حتماً... حتماً... .

ثم أردد يقول لها فجأةً:

- هلاً سرتني فجلست. إن لي حديثاً معك. أرجوك. أنت  
مستعجلة ولكن أرجوك، هبي لي دقيقتين!

قال ذلك وقرب لها الكرسي. جلست صونيا. وعادت تلقي على  
السيدتين نظرة سريعة خجلة وجلة، ثم خفضت عينيها فجأةً.

احمر وجه راسكولنيكوف الشاحب، وقبضت قسماته، وقد حلت  
عيناه، وقال بلهجة قاطعة ملحةً:

- يا أمي، هذه صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا، ابنة ذلك السيد  
المسكين مارميلادوف الذي داسته الخيل مساء أمس على مرأى مني،  
والذي سبق أن حدثكم عنه... .

ألقت بولخيريا الكسندرزوفنا نظرة على صونيا وقد زلت عينيها قليلاً.  
إنها لم تستطع، رغم الخشية التي توقظها فيها نظرة ابنها الثابتة

المتحدية، أن تمنع عن نفسها هذه المتعة. أما دونيا فقد حدّقت إلى وجه الفتاة المسكينة في جد وإصرار، وأخذت تدرسها بعناية واهتمام. وقد أرادت صونيا، حين سمعت التعريف بها، أن ترفع عينيها، ولكنها اضطربت مزيداً من الاضطراب.

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها:

- وددت أن أعرف كيف جرت الأمور عندكم اليوم. ألم تلقوا مضائقات؟ من جهة الشرطة مثلاً؟

فأجابت الفتاة:

- لا... جرى كل شيء مجرى عادياً. كان لا يمكن أن يشك أحد في سبب الوفاة. لم يزعجونا. ولكن السكان غاضبون علينا.

- لماذا؟

- لأن الجثمان بقي مدة طويلة... والجو الآن حار، والرائحة... لذلك سينقل الجثمان اليوم إلى المقبرة، عند صلاة الغروب، فيوضع في المصلى إلى الغد. كانت كاترينا إيفانوفنا لا ت يريد ذلك في أول الأمر، لكنها تدرك الآن أن ليس هناك وسيلة أخرى...

- إذن اليوم؟

- لا بل هي ترجوك أن تشرفنا بحضور صلاة الجنازة غداً... في الكنيسة... وبأن تأتي غداً إلينا للمشاركة في الوليمة.

- أهي تقصد وليمة؟

- نعم، وليمة جنازة. وقد كلفتني بأنأشكر لك المساعدة التي تفضلت عليها بها أمس. فلولاك لما ملكنا ما نفقه على الدفن. وأخذت شفتا الفتاة وذقنها تختلج فجأة، ولكنها كابررت وتجلدت فاستطاعت أن تسيطر على نفسها، ثم أغضت طرفها من جديد.

تفحصها راسكولنيكوف أثناء الحديث تفحصاً دقيقاً. إن لها وجهاً

صغيراً بائساً، شديد الهزال والنحول، شاحب اللون، ليس في قسماته اتساق كثير، متكسر الخطوط، بأنف وذقن صغيرين مدببين. حتى ليصعب أن يقال إنها جميلة. ولكن لها في مقابل ذلك عينين زرقاويين تبلغان من الصفاء أن وجهها يكتسي حين تتقدان طيبة وسماحة لا يملك المرء إزاءهما إلا أن ينجذب إليها. هذا إلى أن لوجه صونيا، ولسائر شخصها، صفة خاصة تميزها هي أنها، على كونها في الثامنة عشرة من عمرها، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير، حتى ليكاد يحسبها المرء طفلة. وكان هذا يتجلى أحياناً في بعض حركاتها، فيكاد يبعث على الضحك.

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بإلحاح:

- ولكن كيف استطاعت كاترينا ايفانوفنا أن تتدبر أمورها بمثل ذلك المبلغ الضئيل من المال، حتى لتولم وليمة؟

- سيكون التابوت بسيطاً جداً... وسيكون كل شيء بسيطاً... فلا تكون النفقات باهظة... لقد أجريتنا الحساب منذ قليل مع كاترينا ايفانوفنا، فلاحظنا أن سيبقى لنا من المال ما نولم به وليمة... لأن كاترينا ايفانوفنا تحرص على هذا أشد الحرث. ليس في الإمكان أن لا... أن في هذا عزاء لها. هذه طبيعتها، هي هكذا... أنت تعرفها...

- مفهوم، مفهوم... لماذا تتفحصين غرفتي؟ أمي أيضاً تقول إن غرفتي أشبه بغير.

قالت صونيا تجبيه بنوع من همس قوي سريع، وهي تخفض عينيها من جديد:

- أنت أعطيتنا بالأمس كل ما كنت تملك... وعادت شفتاها وذقنها تختلجم. كانت قد لاحظت منذ برهة طويلة ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر شديد، فأفلتت هذه الكلمات منها الآن على غير إرادة أو شعور

تقريباً. وخيم بعد ذلك صمت. وأضاءت عينا دونيا. وحتى بولخيريا الكسندروفنا نظرت إلى الفتاة في رضى وبشاشة. ثم قالت وهي تنهض:  
- يا روديا، سنتغدى معاً بالطبع. هلمي يا دونيا. أما أنت يا روديا فعليك أن تقوم بنزهة قصيرة، ثم تستريح: تستلقي قليلاً، وتجيء إلينا بعد ذلك. أخشى أن تكون قد أتعبناك كثيراً.

أجاب راسكولنيكوف وهو ينهض متوجلاً:

- نعم نعم، سأجيء. ثم إن هناك أ عملاً يجب أن أقوم بها . . .

صاحب رازوميixin يقول مدهوشًا وهو ينظر إلى راسكولنيكوف:

- أصحح أنكم لن تتغدوا معاً؟ ما هذا الذي تقوله؟

- نعم نعم، سأجيء بالطبع. أما أنت يا رازوميixin، فابق دقيقة أخرى. لستما في حاجة إليه على الفور يا أمي، أليس كذلك؟ أو ربما حرمتكم منه؟

- لا، لا! .. وأنت يا دمترى بروكوفتش، هل تصحبنا إلى الغداء؟  
هل تفضل فقبل أن تصحبنا إلى الغداء؟

وثئـت دونيا على طلب أمها فقالـت هي أيضـاً:

- أرجوك، تعال . . .

انحنى رازوميixin وقد أشرق وجهه فرحاً. وشعر الجميع بنوع من الضيق والحرج الغريب للحظة ما.

- وداعاً يا روديا، بل إلى اللقاء . . . أنا لا أحب أن أقول وداعاً!  
وداعاً يا ناستاسيا . . . هوه! هأنذا أعود فأقول وداعاً! . .

وذهب بولخيريا الكسندروفنا لو تحبي صونيا أيضاً، ولكنها لم تفلح في ذلك، فأسرعت تخرج من الغرفة.

ولكن آفدوتيا رومانوفنا، حين مررت أمام صونيا بعد أمها لأنها انتظرت دورها فحيتها تحية فيها كياسة، بل فيها مودة أيضاً. فاضطررت

صونيا، وأحنت رأسها متعجلةً وجلةً، بينما طاف بقسمات وجهها تعibir أليم، كأن ما أظهرته لها آفدوتيا رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على نفسها وجعلها تتذهب.

هتف راسكولنيكوف يقول لأخته وقد خرج في أثرها إلى فسحة السلم:

- أستودعك الله يا دونيا! هلاً صافحتني!

فأجابت دونيا وهي تلتفت إليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب:

- ولكنني صافحتك، هل نسيت؟

- أي ضير في أن تصافحيني مرةً أخرى؟

وتناول يدها، وشدَّ على أصابعها شدًّا قوياً، فابتسمت له دونيا، واحمررت، وسحبت يدها بسرعة، وهرعت تلحق بأمها سعيدة كل السعادة لا تدرى لماذا!

قال راسكولنيكوف وهو يعود إلى الغرفة ويلقي على صونيا نظرة صافية مضيئة:

- عظيم! اللهم اجعل الموتى في سلام، وابق الأحياء على قيد الحياة. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ هو كذلك، هه؟

كانت صونيا تنظر مدهوشة إلى وجهه الذي أضاءه الفرح على حين فجأة. ثم لم تلبث قصة أبيها الراحل عنها أن عادت إلى ذاكرته بعنة... . بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلّم، منذ صارتَا في الشارع، فقالت تخاطب ابنتها:

- رباه! دونيتشكا! إننيأشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده! نعم، إنني أحس كأن حملًا قد أزيف عن صدري. لو قال لي قائل بالأمس، في القطار، إن ترك ابني سيسريني، فهل كنت أصدق؟

- أكرر لك يا أمي إنه ما يزال مريضاً جداً. هل يمكن أن لا تكوني

قد لاحظت ذلك؟ لعل حزنه الناشئ عن أنه يتآلم ويعطف علينا هو الذي جعله في هذه الحالة. يجب على الإنسان أن يكون متسامحاً، فيمكّنه عندئذٍ أن يغفر أموراً كثيرة، كثيرة جداً.

فأجابتها بولخيريا الكستندروفنا بلهجة حادة ساخطة:

- وهل كنت أنت متسامحة؟ اسمعي يا دونيا: لقد أنعمت النظر إليكما، فهل تعرفين ماذا لاحظت؟ لاحظت أنك صورته تماماً، تشبهينه وجههاً وروحهاً، بل وتشبهينه روحًا أكثر مما تشبهينه وجهها. كلاكم مكتتب المزاج، كلاكم متجهم النفس، مندفع الطبع؛ كلاكم متكبر متعال وسمح كريم. يستحيل أن يكون أناانياً يا دونيتشكا، أليس كذلك؟ حين أفكر فيما سيحدث عندنا هذا المساء، يتجمد قلبي!

- لا تقلقي يا ماما! لن يحدث إلا ما يجب أن يحدث.

- ولكن هلاً فكرت يا دونيتشكا في الظرف الذي نحن فيه؟ ماذا لو رجع بيوتر بتروفتش عن وعده؟

هذا ما أفلت من لسان بولخيريا الكستندروفنا المسكينة بغير حذر أو تبصر. فأجابتها دونيا بلهجة جافة تنم على الاحتقار:

- إن ذلك لن يشرفه كثيراً!

فأسرعت بولخيريا الكستندروفنا تقاطعها قائلةً:

- لقد أحسنا صنعاً إذ تركنا روديا. كان يستعجل الخروج لأمرٍ ملح. بهذا يُتاح له أن يتحرك قليلاً، وأن يستنشق هواء نقى. الجو خانق في غرفته! ولكن أين يمكن أن يتنفس الإنسان في هذه المدينة؟ حتى في عرض الشارع يحسن المرء أنه في غرفة بلا نوافذ! رباه! يا لها من مدينة!.. انتبهي... ابتعدي... كادوا يدوسونك! هذا بيانو محمول! آه... ما أكثر ما يُصدم المرء هنا!.. أنا خائفة أيضاً من تلك البنت!..

- أية بنت؟

- صونيا سيميونوفنا تلك التي كانت . . .

- لماذا أنت خائفة منها؟

- عندي هواجس يا دونيا . . . صدقيني أو لا تصدقيني . . . ولكنني منذ أن دخلت ، قلت لنفسي ، في تلك الدقيقة نفسها ، أن كل شيء ربما كان مردئاً إلى هذا . . .

هفت دونيا تقول غاضبةً :

- لا شيء مردئ إلى هذا . . . عجيبة أنت وهواجسك يا ماما! . . إنها لا يعرفها إلا منذ أمس . . . حتى إنه لم يتعرفها حين دخلت!

- سوف ترين! . . هي . . . سوف ترين . . . سوف ترين! . . آه . . . ما أشد ما أشعر به من خوف! كانت تنظر إليَّ بعينين . . . بعينين لا أدري ماذا أقول فيهما . . . حتى لقد كنت من نظراتها لا أكاد أستطيع المكوث في مكاني . . . هل تتذكرين طريقته في تقديمها إلينا وتعريفنا بها؟ إن الأمر الذي ييدو لي غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بيوتر بتروفتش ذلك الكلام ، ثم إذا بروديا يقدمها إلينا ، ويقدمها إليك أنت خاصة! ذلك دليل أنها عزيزة لديه.

- ما أكثر ما يقوله الناس! ألم يقولوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة؟ أتراك نسيت ذلك؟ أما أنا . . . فإنني واثقة بأنها إنسانة . . . رائعة . . . وأن كل ما قيل عنها ليس إلا افتراء . . .

- أسأل الله أن يكون هذا صحيحاً!

- أما بيوتر بتروفتش فليس إلا ناماً دنياً.

كذلك قالت دونيتشكا بلهجة قاطعة على حين فجأة! فتعكر مزاج بولخيريا الكستندروفنا ، وانقطع الحديث .

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين نحو النافذة:

- إليك الأمر الذي أريد أن أحدهك فيه . . .

فقالت صونيا متعجلةً وهي تحبي لتنصرف:

- سأقول إذن لكاثريننا إيفانوفنا إنك ستجيء...

- لحظةً يا صوفيا سيميونوفنا. ليس هناك أسرار. إنك لا تضاهينا  
البطة... وأنا أريد أن أقول لك كلمتين أيضاً...

قال ذلك ثم التفت إلى رازوميخين قبل أن يتم جملته، فواصل كلامه  
له قائلاً:

- إليك الأمر... أنت تعرف ذلك الرجل الذي يسمى... ما اسمه؟  
نعم... بورفيري بتروفتش... أنت تعرفه، أليس كذلك؟

- أعرفه. نحن قريبان!

ثم أردد يسأل باستطلاع قوي:

- ولكن لماذا هذا السؤال؟

- أليس هو الذي يحقق في القضية، قضية مقتل العجوز؟ ألم تقل إنه  
هو الذي يحقق فيها؟

حملق رازوميخين فجأةً وسأل:

- طب وماذا؟

- لقد استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة، وأنا لي أشياء  
مرهونة هناك... أشياء صغيرة على كل حال: خاتم أعطتهنيه أختي  
تذكاراً عند سفري إلى بطرسبرج، وساعة أبي الفضية. والرهنان كلاهما  
لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو ستة، لكنهما تذكاران، وأنا  
أحرص عليهما. فما الذي يجب عليَّ أن أفعله الآن؟ لا أريد لهذين  
الشيئين أن يضيعا، ولا سيما الساعة. فمنذ قليل، حين تكلمنا عن ساعة  
أختي، ارتجفت أنا خوفاً من أن تسألني أمي أن ترى ساعتي. إن هذه  
الساعة هي الشيء الوحيد الذي بقي لها من أبي! فإذا ضاعت هذه  
الساعة كان يمكن أن تمرض من ذلك أمي. هكذا هن النساء! فإنما انتظر

منك نصيحة . قل ما علىي أن أفعل . أنا أعلم أنه سيكون من الواجب أن أدلي بإفادة في قسم الشرطة ، ولكن أليس الأفضل أن أتجه إلى بورفيرى نفسه؟ ما رأيك؟ إنني أود أن أسوّي هذا الأمر بأقصى سرعة . لسوف ترى أن أمي ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء!

هتف رازوميخين يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- لا فائدة من الذهاب إلى الشرطة . الأفضل أن نتجه إلى بورفيرى . آه... أنا مسورو! نستطيع أن نمضي إليه فوراً . هو على مسافة خطوتين . وسنجده حتماً.

- إذن هلمَّ بنا إليه!

- وسيسرُّه أن يتعرف إليك! لقد حدثته كثيراً عنك ، عدّة مرات . أمس أيضاً حدثته عنك . هلمَّ نذهب إليه . إذن كنت تعرف العجوز؟ هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! إن كل شيء يترا بط ترابطاً را... ثعا! آ... نعم... يا صوفيا أيقانوفنا...

- صوفيا سيميونوفنا (هكذا صَحَّ راسكولنيكوف)... يا صوفيا سيميونوفنا ، هذا الرجل هو صديقي رازوميخين ، وهو رجل طيب... . قالت صونيا دون أن تنظر إلى رازوميخين مما جعل ارتباكاها يزداد: - إذا كان عليكم أن تخرجوا الآن...

قال راسكولنيكوف يحسِّم الأمر:

- نعم ، فلنخرج . سأجيء إليك في هذا النهار يا صوفيا سيميونوفنا ولكن قولي لي أين تقيمين؟

قال لها راسكولنيكوف ذلك دون ارتباك ، ولكنه كان يتكلم بسرعة محمومة ، متحاشياً أن يننظر إلى الفتاة . ذكرت له الفتاة عنوانها وأحرّ وجهها . وخرجوا جميعاً.

سأله رازوميخين وهو يهبط السلم وراءهما :

- أأنت لا تغلق بابك إذن بالمفتاح؟

فأجابه راسكولنيكوف بقوله:

- أبداً.

ثم أضاف يقول بإهمال:

- على أتنى أتني مني مني ستين أن أشتري قفلًا.

ثم قال يخاطب صونيا وهو يضحك:

- ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوصدوا عليه الأبواب  
بالأقفال، أليس كذلك؟

حتى إذا صاروا في الخارج، توقفوا عند المدخل.

- أأنت ذاهبة يمنة يا صوفيا سيميونوفنا؟ .. بالمناسبة: كيف فعلت  
حتى استطعت أن تعثري على بيتي؟

ألقى عليها هذا السؤال وكأنه كان يريد أن يقول شيئاً آخر. لقد ظل  
طوال الوقت يشتهي أن يتثبت بصره على عيني الفتاة الصافية الهدائين  
دون أن يفلح في ذلك ...

أجابته صونيا:

- أنت نفسك ذكرت بالأمس لبوليشكا عنوانك.

- ذكرته لبوليا؟ آ .. نعم .. بوليشكا! هي الصغرى ... هي  
أختك! إذن أنا أعطيتها عنواني؟

- هل نسيت هذا؟

- لا .. الآن تذكرت.

- ثم إنني سمعت أبي الراحل يتحدث عنك. لكنني لم أكن أعرف  
اسمك .. وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك .. فجئت الآن ... ولما  
كنت قد عرفت اسمك أمس، سألت اليوم: «أين يسكن السيد  
راسكولنيكوف؟» ... ولم أكن أعرف أنك تقيم في غرفة مفروشة ...

كانت تشعر بسرور رهيب من أنها استطاعت أخيراً أن تودع لتنصرف. وسارت خافضة العينين، مسرعة، تستعجل الهروب من نظراتهما وأن تقطع العشرين خطوة التي تفصلها عن ناصية الشارع التالية على اليمين، وأن تبقى أخيراً وحدها فتستطيع أثناء سيرها البطيء، دون أن تنظر إلى أحد دون أن ترى شيئاً، أن تفكر وتتذكر وتزن في ذهنها كل كلمة قيلت وكل أمر حدث. إنها لم تشعر طوال حياتها، بشيء يشبه ما تشعر به الآن. إن عالماً جديداً كاملاً يدخل إلى نفسها غامضاً مجهولاً. وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يريد أن يجيء إليها في هذا النهار، وربما في الصباح، وربما على الفور.

دمدمت تقول منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف:

- لا، لا اليوم، أرجوك! رباء! أجيء إليّ، في هذه الغرفة؟ .. إذن سوف يرى ... رباء!

ولم يكن في وسعها طبعاً أن تلاحظ أن سيداً مجهولاً كان يتبعها في تلك اللحظة. كان هذا السيد قد تبعها منذ مدخل العمارة، حين توقفت هي وراسكولنيكوف ورازوميixin على الرصيف يتداولون بعض كلمات. وكان هذا السيد المجهول قد بدا كأنه يرتعش حين التقط عرضاً، أثناء مروره بهم، تلك الكلمات التي قالتها صونيا: «سألت: «أين يسكن السيد راسكولنيكوف؟». فألقى على المتحادثين ثلاثة، ولا سيما على راسكولنيكوف الذي كانت الفتاة تتجه إليه بالكلام، نظرة سريعة لكنها متتبهة، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه. تم ذلك كله بمثل لمح البصر سرعة، ودون أن يتوقف ودون أن يلفت نظر أحد، ثم ابتعد الرجل متباطئ الخطى كمن يتظر أحداً. كان يتظر صونيا. ورأى صونيا تودع الشابين، فأدرك أنها ذاهبة إلى مسكنها.

قال يسائل نفسه وهو يتذكر ملامح صونيا: «إلى مسكنها! ولكن أين

مسكناها؟ لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما... يجب أن أستعلم!»

فلما وصل إلى ناصية الشارع انتقل إلى الرصيف المقابل، والتفت فرأى صونيا تسير الآن في نفس الاتجاه، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً. فلما وصلت هي أيضاً إلى الناصية مضت في نفس الشارع الذي مضى هو فيه. فأخذ يتبعها دون أن يحول عنها بصره. حتى إذا قطع نحو خمسين خطوة رجع إلى الرصيف الذي كانت تسير عليه صونيا، ولحق بها، وأخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها.

هو رجل في نحو الخمسين من عمره، يميل إلى الطول، بدین، عريض المنكبين عالي الكتفين، حسن الملبس أنيق الهندام، له مظهر سيد من السادة، يحمل عصا جميلة يقرع بها أرض الرصيف عند كل خطوة من خطواته، ويداه موشحتان بقفازين جديدين. إن وجهه العريض لا يخلو من وسامه، وإن لبشرته نضارة لا يُرى مثلها في سكان بطرسبرج. وإن شعره أشقر زاه، ما يزال كثيفاً، لم يكدر يشيب؛ وإن لحيته المزدحرة الكثيفة أزهى من شعر رأسه أيضاً. عيناه زرقاوان لهما بريق كбриق المعدن، ولهما نظرة ثابتة ملحاح. وشفتاه حمراوان حمرة قوية. إنه، على وجه الإجمال، رجل ما يزال محافظاً على نضارته، يبدو أصغر كثيراً من سنه.

فلما وصلت صونيا إلى القناة، كان هو وهي وحدهما على الرصيف؛ فاستطاع الرجل أن يلاحظها فرأى ما كان يعبر عنه وجهها من شرود وتفكير. وحين وصلت أمام العمارة التي تسكن فيها، استدارت فدخلت الباب الكبير، فتبعدوا مدهوشان بعض الدهشة. حتى إذا بلغت فناء المنزل اتجهت يمنة نحو الركن الذي يوجد فيه السلالم المفضي إلى شقتها. فجمجم السيد المجهول يقول لنفسه: «عجب!»، وأخذ يصعد درجات السلالم وراءها. وفي تلك اللحظة إنما انتبهت إليه صونيا. صعدت صونيا حتى وصلت إلى الطابق الثاني، فسارت إلى الرواق، ثم قرعت جرس باب الشقة 9، حيث يقرأ المرء على بابها هاتين الكلمتين

مكتوبتين بالطباشير: «كابرناوموف، خيّاط». فجمجم السيد المجهول يقول من جديد: «عجب!». لقد أدهشته المصادفة الغريبة. وقرع هو جرس باب الشقة المجاورة، الشقة 8. إن المسافة بين البابين لا تزيد على ست خطوات.

قال وهو ينظر إلى صونيا ضاحكاً:

- آ... أنت تسكنين عند كابرناوموف! لقد أصلح لي صديرتني أمس. أنا أسكن هنا، قريباً منك، عند السيدة رسيليخ، السيدة جرترودا كارلوفنا رسيليخ. يا لها من مصادفة!

نظرت إليه صونيا بانتباه.

وابع هو كلامه يقول لها بلهجة فيها مرح خاص:

- نحن إذن جاران. أنا لا أقيم ببطرسبرج إلا منذ ثلاثة أيام، وسيسرني أن ألقاك مرة أخرى.

لم تجب صونيا. وفتح الباب، فانسلت إلى بيتها. كانت وجلى فكانها تشعر بخجلٍ وعارٍ من شيء ما...

كان رازوميixin مضطرباً اضطراباً شديداً في الطريق إلى بورفيرى. وقد كرر يقول لراسكوليوكوف عدة مرات:

- هذه فكرة حسنة! أنا مسرور، مسرور جداً!

قال راسكوليوكوف لنفسه: «ولكن ممَّ أنت مسرور؟»

وابع رازوميixin:

- كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنت عند العجوز بعض الأشياء. هل حدث ذلك منذ مدة طويلة؟ أقصد: هل منذ مدة طويلة ذهبت إليها؟

فقال راسكوليوكوف لنفسه: «يا للساذج! يا للأحمق! هل منذ مدة طويلة كنت عندها؟»

وتوقف لحظة يفكـر. ثم قال يجيب صاحبه:

- قبل موتها بثلاثة أيام، فيما يبدو لي .

ثم أسرع بضيف بلهجة يُظهر بها اهتمامه الشديد بأشیائه المرهونة:

- على أنني لا أنوي استرداد أشيائي حالاً. فإنني لم يبق معنِي إلا روبل واحد... ومرد هذا إلى ذلك الهذيان اللعين الذي اعتبراني أمس!

وقد نطق كلمة «الهذيان» هذه نطقاً فيه دلالة وإصرار.

فسرعان ما قال رازوميخين مزاوداً دون أن يدرِّي لماذا:

- نعم، نعم... ذلك هو السبب إذن في أنك... في ذلك اليوم... آه... لشد ما فاجأني ذلك... إنك، أثناء هذيانك، كنت لا تقطع عن الكلام عن خواتم، وعن سلاسل، وعما لا أدرِّي أيضاً... آ... نعم... اتضح الآن كل شيء... اتضحَت الأمور... أصبح كل شيء واضحاً!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «هكذا إذن! لقد قامت الفكرة في أذهانهم ونمّت... إن هذا الرجل مستعد لأن يصلب في سبيلي، ومع ذلك يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذي جعلني أتكلّم أثناء الهذيان عن خواتم، قد اتضح له الآن! لقد ترسخت الفكرة في أذهانهم جميعاً!»

ثم سأله صاحبه بصوت عالي:

- هل تعتقد أننا سنجده في بيته؟

فأسرع رازوميخين بجيئه قائلاً:

- سنجده، سنجده! إنه شاب شهم يا صاحبي... سوف ترى. صحيح أنه أخرق قليلاً... وإن يكن ممن يرتادون المجتمع الراقي... على أنني أجده أخرق من ناحية أخرى، بمعنى آخر... إنه شاب ذكي، ذكي، ليس بالغبي البتة... ولكن لتفكيره مجرى غريباً بعض الغرابة. فهو كثير الشك والريب، قوي الاشتباه والحدر، شديد الاستخفاف والاستهتار... يحلو له أن يضلّك... لا أقصد أن يضلّك، بل أن يغرّ

بك... الخلاصة: هو الأسلوب العتيق... أسلوب الواقع المادية! ولكنه يجيد مهنته... يتقنها!.. في السنة الماضية حقق في قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها تقريباً. وهو يرغب كثيراً في التعرف إليك، يرغب في ذلك كثيراً جداً.

- لماذا يرغب في ذلك كثيراً؟

- لا بسبب أن... وإنما لأنني، في الآونة الأخيرة، أثناء مرضك، اتفق لي أن حدثه عنك مراراً. فكان هو يصفني... فلما علم أنك تدرس القانون، وأنك لم تستطع أن تنهي دراستك بسبب الظروف، قال: «خسارة!»... فاستنتجت من ذلك... أقصد... من كافة هذه الأشياء مجتمعة... لا من ذلك وحده... وبالأمس، قال زاميتووف... اسمع يا روديا، أمس مساء، حين كنا عائدين إلى بيتك معاً، كنت أنا سكران جداً، فلعلني أسرفت في الشراقة، فأرجو يا روديا أن لا تغلو في حمل كلامي على محمل الجد...

- ماذا؟ هم يعتقدون أنني مجنون، أليس كذلك؟ ولكن قد يكونون على حق.

قال راسكولنيكوف ذلك وابتسم ابتسامة مصطنعة.

- نعم نعم... لا بل!.. دعك من هذا الكلام! إن كل ما قلته (وسائل ما عداه أيضاً) ليس إلا سخفاً... ليس إلا ثمرة السكر!

صرخ راسكولنيكوف بغضب شديد نصفه تصنع وتظاهر:

- ولكن علام تعذر؟ أوه!.. ما أكثر ما تضجرني وتزعجني هذه الأمور كلها.

قال رازوميixin:

- أعرف، أعرف، أنا أفهم. ثق أنني أفهم. بل إن الكلام عن هذا كله عار!

- إذا كان الكلام عن هذا كله عاراً، فلنكشف إذن عنه!

صمت الاثنان. كان رازوميixin متھمساً وقد لاحظ راسكولنيکوف ذلك مشمیزاً. وكان من جهة أخرى قلقاً مما قاله له رازوميixin عن بورفیری منذ هنیہه.

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه: «لهذا الرجل أيضاً سيكون على أن أشکو الفقر، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشفقة والرثاء... وأن أفعل ذلك بطريقة تبدو طبيعية. ولكن الطريقة الطبيعية هي أن لا أقول شيئاً، أن لا أقول شيئاً البتة! ولكن لا... أن لا أقول شيئاً البتة هذا أيضاً لن يبدو طبيعياً!.. على كل حال سوف نرى كيف ستجري الأمور، وسوف نرى هل كان من الخير أن أذهب إلى هناك أم لم يكن ذلك من الخير!.. الفراشة تطير إلى لهب الشمعة من تلقاء نفسها. قلبي يخفق. هذا نذير سوء!»

قال رازوميixin:

- هنا، في هذه العمارة الرمادية.

وقال راسكولنيکوف يحدث نفسه: «النقطة الأساسية هي هذه: هل بورفیری على علم بالزيارة التي قمت بها أمس لمسكن العجوز، وهل هو على علم بسؤالي عن الدم؟ يجب على أن أعرف هذا منذ دخل، من النظرة الأولى، يجب أن أقرأه في وجهه لحظة دخولي، وإلا فإن... لأعرف هذا ولو هلكت!»

وقال يخاطب رازوميixin فجأة، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

- هل تعرف ماذا لاحظت عليك؟ لقد لاحظت عليك من هذا الصباح، يا صاحبي، أنك مضطرب اضطراباً غير مألوف كثيراً. أنا مخطيء؟

أجاب رازوميixin مسناً:

- أنا مضطرب؟ لا لست مضطرباً البتة.

- دعك من هذا الكلام يا صاحبي! الأمر واضح! منذ قليل، كنت

جالساً على الكرسي كما لا تجلس عادةً. كنت جالساً على حافة الكرسي تماماً، وكنت كمن أصيّب برعدة. وكنت تتحرّك من هذا الطرف إلى الطرف الآخر، لا أدرى لماذا. فتارةً تغضب، وتارةً يظهر على وجهك تعبير مريح لسبب ما! بل لقد كان وجهك يحمر احمراراً شديداً. وقد احمر وجهك خاصةً حين دُعيت إلى الغداء. نعم، اصطبغت بالحمرة حتى جذور شعرك.

- غير صحيح. أنت تكذب. ماذا تقصد إلى ماذا تغمز؟

- أريد أن أغمس إلى أنك خجول كتلميذ! ها... هاؤنت ذا تحرر من جديد!

- يا للخنزير!

- ولكن علام هذا الاضطراب كله؟ مسكيين روميو! اسمع: لن يفوتنـي أن أتكلـم عنكـ اليـوم فيـ مـكانـ ماـ. هـأ هـأ! سـوف أـضـحـكـ أمـيـ كـثـيرـاـ... وـسـوفـ أـضـحـكـ شـخـصـاـ آخرـ أيـضاـ.

قال رازوميixin وقد طاش عقله وتجمد رعايا:

- اسمع، اسمع، هذا أمر خطير، هذا... يا للعواقب!.. ما عساك قائلـاـ لهـماـ؟ أناـ... ياـ صـاحـبـيـ... آـهـ... ياـ لـكـ منـ خـنـزـيرـ!..

- وردة، وردة من ورود الربيع حقاً! ليتك تعلم كم يناسبك هذا! روميو طوله متراً تقرباً! ثم إنك قد غسلت وجهك اليوم، ونظفت أظافرك، هـهـ؟ ذلك ما لم يحدث يوماً. هـاـ... وهـاـ أـنـتـ ذـاـ قـدـ تـدـهـنـتـ وـتـطـيـتـ! هـيـأـ أـخـفـضـ رـأـسـكـ لأـرـىـ!

- ياـ لـكـ منـ خـنـزـيرـ!

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك ضحكاً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه. وعلى هذه الحال من الضحك الشديد إنما دخل الشابان شقة بروفيري بتروفتش. وذلك بعينه هو ما أراده راسكولنيكوف. من آخر البيت كان يمكن أن يُسمع

دخولهما ضاحكين . وقد استمرا يضحكان هنا في الردهة .  
همس رازوميixin يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على  
كتفه :

- إياك أن تقول كلمة واحدة في هذا الموضوع هنا ، وإلا هشمت  
بوزك !

## الفصل الخامس

راسكولنيكوف قد دخل الشقة. دخل دخول من يبذل كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر ضاحكاً. ودخل وراءه رازوميخين، الخجل الطويل القامة، محمراً الوجه، أخرق الحركات، متقبض القسمات من الغضب. كان وجهه في تلك اللحظة، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً، يبرر ما كان فيه راسكولنيكوف من قهقهة صاحبة. وقد انحنى راسكولنيكوف يحيي رب البيت حتى قبل أن يقدم إليه. وكان رب البيت واقفاً في وسط الغرفة يلقي على القادمين نظرة سائلة. ثم مدَّ راسكولنيكوف إليه يده فصافحه، وهو يبذل جهداً ظاهراً في سبيل أن يكبح جماح مرحة، وأن ينطق بالكلمات القليلة التي يوجبهها التعارف. ولكنه ما إن أفلح في اتخاذ هيئة الجد، وفي أن يدمدم ببعض الكلمات حتى عاد ينظر إلى رازوميخين كأنما رغم إرادته، فلم يستطع في هذه المرة أن يصمد، فإذا بضاحكه يتتدفق قوياً لا سيل إلى مغالبته، لا سيما بعد أن كظمه مدة طويلة. فإذا بالغيط الخارق الذي يستقبل به رازوميخين هذا الضحك «الصرير» يضفي على المشهد كله مظهر مرح طبيعي، بل ومرح صادق. وقد فاقم رازوميخين مظهر المرح مزيداً من المفاقمة كأنما عن عمد: ذلك أنه زأر يقول لراسكولنيكوف وهو يُجري يده بحركة تنم عن الغضب قائلاً:

- آ... يا للشيطان الرجيم!

فإذا بالحركة التي أجرها تصدم منضدة صغيرة مستديرة عليها فنجان شاي فارغ، فيطير كل شيء في الهواء، ويسقط على الأرض مرقعاً.  
هتف بروفيرى بتروفتش يقول مرحاً:

- لماذا تحطمون الأثاث يا سادة؟ لماذا تلحقون أذى بالدولة؟

إليكم وصف المشهد الذي كان يُرى في تلك اللحظة: راسكولنيكوف يضحك مليء حنجرته تاركاً يده في يد رب البيت، ولكن دون أن يفقد حس الاعتدال، متظراً اللحظة المناسبة التي سوف يستطيع فيها أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعي. ورازوميخين قد هوى به سقوط المنضدة وتهشم الفنجان إلى درك الخجل والاضطراب، فألقى على الحطام نظرة سوداء، وبصق على الأرض، وابتعد نحو النافذة، فلبث أمامها مديراً ظهره، عابس الوجه مقطب الأسarisير ينظر إلى الخارج دون أن يرى شيئاً. وبورفيرى بتروفتش يضحك ويرغب في الضحك، لكنه ينتظر شروداً بطبعية الحال. وفي ركن من الأركان، يجلس زاميوتوف على كرسي. كان زاميوتوف، حين دخل الزائران، قد نهض يتظر وانفرج فمه عن ابتسامة، لكنه يبدو مدهوشًا مرتابة، ولا سيما إزاء راسكولنيكوف، فهو ينظر إليه الآن متفرساً بانتباه. إن وجود زاميوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف وأزعجه، فقال يحدث نفسه: «هذا عنصر يجب أحده في الحسبان» وبدأ يتكلم فقال يعرف بنفسه مصطلحنا الخجل:

- معذرةً، أرجوك. اسمى راسكولنيكوف . . .

قال بورفيرى بتروفتش يجيئه:

- لا داعي إلى الاعتذار البتة؛ إنه لجميل جداً أنك دخلت على هذا النحو.

وأردف يقول مشيراً إلى رازوميخين:

- هيه! ما باله لا يريد حتى أن يحيي؟

قال راسكولنيكوف :

- حقاً لست أدرى ما سبب حنقه على إلى هذا الحد. كل ما فعلته هو أتني قلت له أثناء الطريق إنه أشبه بروميو... وبرهنت له على صدق قوله. لا شيء غير هذا. أو ذلك هو ما يخيل إلي على الأقل!

دمدم رازوميخين يقول شاتاما دون أن يلتفت:

- خنزير!

فقال بورفيرى ضاحكاً :

- لا بد أن هناك أسباباً خطيرة كل الخطورة تجعله يغضب هذا الغضب كله لكلمة بسيطة صغيرة!

فقال رازوميخين مقاطعاً :

- هيه! اسكت أنت يا قاضي التحقيق! ثم فلتذهبوا جميعاً إلى الشيطان!

قال ذلك وقد أخذ يصلاح هو أيضاً على حين فجأة واقترب من بورفيرى بترؤفتش مشرق الوجه منبسط الأسارير كان شيئاً لم يحدث. وتتابع كلامه يقول:

- كفى! نحن جميعاً حمقى في الواقع. اسمع: هذا صديقى روذيون رومانوفتش راسكولنيكوف. إنه أولاً، من كثرة ما سمع عنك، أراد أن يتعرف إليك؛ وهو ثانياً يحب أن يحدثك في قضية صغيرة. هه! زاميوتوف؟ شيء عجيب! ماذا تفعل هنا؟ أنتما متعارفان إذاً؟منذ متى؟

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه في قلق: «ما معنى هذا أيضاً؟» ظهر الاضطراب على زاميوتوف، ولكن اضطرابه لم يكن شديدأ. وقال يجيب بلهجة طلقة:

- لقد تعارفنا أمس في بيتك!

- إذن لقد أعفتنى العناية الإلهية من جهد كان ينبغي أن أبذله . تصور يا بورفيرى أنه يلُّح ، منذ أسبوع ، إلحاحاً شديداً على أن أعرفك به . فها أنتما قد استغنىتما عنى ، فتعارفتما دون وساطة مني . . . أين تبغك؟

كان بورفيرى بتروفتش يرتدي ملابس البيت : ثوب المنزل ، وقميصاً نظيفاً ، وبابوجين قديمين بنعلين باليدين . هو رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ؛ مربوع القامة ؛ بدین الجسم ؛ له كرش ، حليق الوجه تماماً فلا شارب ولا لحية ؛ مقصوص الشعر على رأس ضخم مدوار بارز القفا ؛ متورم الوجه ، أقطس الأنف قليلاً ، أصفر اللون كأنه مريض ، ولكن وجهه لا يخلو من تعبر عن الحيوية ، ولا عن السخرية . حتى لقد كان يمكن أن يعبر وجهه عن شيء من الطيبة لولا عيناه اللتان تنظر إليهما فترى فيها أخضلاً وبريقاً كбриق الماء ، وتکاد تحجبهما أهداب يضرب لونها إلى بياض ، وكأنهما من غمزهما المستمر ترسلان إشارات لا تقطع . إن نظرة هاتين العينين تنافي سائر هيئته بعض المنافة (وهي هيئه فيها شيء من أنوثة) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل إلى الجد والجهامة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقاها عليه .

ما أن علم بورفيرى بتروفتش أن زائره يرغب في أن يحدثه في «قضية صغيرة» ، حتى رجاه أن يجلس على الديوان ، ثم جلس على الطرف الآخر ، محدقاً إليه ومنتظراً عرض القضية بلا إبطاء ، مُظهراً أشد الاهتمام . إن مثل هذا الانتباه الصادر عن رجل لا تعرفه ، يبدو لك غير طبيعي ، بل ويُشعرك بشيء من الهرج والارتباك ، ولا سيما إذا كان ما ستقوله لا يستحق في رأيك هذا الانتباه ؛ ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قضيته ببعض الكلمات ، في دقة ووضوح ، فبلغ من رضاه عن نفسه أنه أتيح له أن ينعم النظر في بورفيرى بتروفتش أثناء ذلك . وكان بورفيرى بتروفتش ، من جهته ، لا يحول بصره عن راسكولنيكوف دقيقة واحدة . وكان رازوميixin قد استقر أمامهما إلى المنضدة ، فهو يتبع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافذ ، متوجهًا بنظراته إلى هذا تارة ، وإلى هذا

تارة أخرى، وكان في هذا شيء من غلو طبعاً.

دمدم راسكولنيكوف يقول بينه وبين نفسه: «يا للأبله!»

أجاب بورفيري بلهجة رسمية جداً:

- يجب عليك أن تبعث إلى الشرطة ببلاغاً تقول فيه إنك وقد علمت بالبنا، نباً مقتل العجوز، وتريد إبلاغ قاضي التحقيق المكلف بالقضية أن هذه الأشياء هي أشياؤك وأنك تريد استردادها. أو أن... على كل حال، سيكتبون إليك...

قال راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطفع الخجل ما وسعه ذلك:

- ولكنني... ولكنني... في الوقت الحاضر... لا أملك مالاً... فحتى هذه الأشياء التافهة التي لا قيمة لها لا أستطيع أن... كل ما أريده الآن هو أن أصرّح بأن هذه الأشياء لي، وبأنني متى أصبح معي مال سوف...

أجاب بورفيري بترؤفتش مستقبلاً هذه الإيضاحات المالية ببرودة:

- ليس لهذا من قيمة. تستطيع على كل حال أن تكتب إلى رئيساً إذا أردت فتقول: لما كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا وكذا هي أشيائي، فإنني أرجوكم أن... إلخ.

فأسرع راسكولنيكوف يسأله، مظهراً بذلك اهتمامه بالناحية المالية من جديد:

- أأكتب هذه العريضة على ورق عادي؟

- نعم نعم، على ورق عادي...

أجابه بورفيري بترؤفتش بهذا، ثم نظر إليه على حين فجأة نظرة فيها سخرية صريحة، زاماً عينيه كأنه يقول له إن أسلوبه هذا لا يخفى على ذكائه. على أن من الجائز أن لا يكون ذلك إلا إحساساً خالج راسكولنيكوف، لأن الغمزة لم تدم إلا لحظة قصيرة كومض البرق. ومع

ذلك لا بد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث. ومهما يكن من أمر، فإن راسكولنيكوف مستعد لأن يحلف أغلفظ الإيمان على أن بورفيرى قد غمز له... فإذا بكلمتين تومضان في ذهنه بسرعة شديدة، فيقول لنفسه: «إنه يعلم!»

وتتابع كلامه يقول وقد ارتبك قليلاً:

- أغرر لي أزعاجك بهذه الترهات... صحيح أن هذين الشيئين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا تساوي قيمتهما أكثر من خمسة روبيلات، ولكنني أحرص عليهما حرصاً شديداً، لأنهما تذكار من واهيهما؛ أتعرف لك بأنني دُعِرت أشد الذعر حين علمت أن...

قال رازوميخين متعمداً وهو يبكي نية واضحة:

- ذلك هو السبب في إنك أنتفضت أمس حين كنت أثرثر أنا مع زوسيموف فقلت له أن بورفيرى يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنا أشياء عند العجوز.

طبع الكيل عندئذ. فهذا هو راسكولنيكوف يخرج عن طوره فيلقي على رازوميخين نظرة سوداء تشتعل غضباً. ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فوراً. ثم قال له بحقن أحسن اصطนาوه في حدق وبراعة:

- يا عزيزي، يخيل إلي أنك تسخر من عقلي. أنا أوقفك على أنني أسرف قليلاً في الاهتمام بأشياء هي في نظرك تافهة لا قيمة لها. ولكن هذا ليس سبباً يدعو إلى اعتباري أناياً أو بخيلاً، لأن هذه الأشياء التافهة في نظرك قد لا تكون تافهة في نظري أنا. لقد قلت لك منذ قليل إن تلك الساعة الفضية التي لا قيمة لها هي الشيء الوحيد الذي بقي لي من أبي. فاسخر مني ما شئت أن تسخر، ولكن أمري قد وصلت (وهنا التفت راسكولنيكوف نحو بورفيرى فجأة)، فإذا علمت (استأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يعود إلى رازوميخين مسرعاً ويحاول أن يجعل صوته متهدجاً مرتجفاً) فإذا علمت أن هذه الساعة قد فقدت،

فيمينا أنها ستنهي إلى حضيض الكلب واليأس. هكذا خلقت النساء!

هتف رازوميخين يقول بمرارة:

- ولكنني لم أقصد هذا فقط! أنا لم أقل ما قلته بهذا المعنى! هذا نقىض ما أردت أن...

تساءل راسكولنيكوف مهوماً مغموماً: «هل نجح هذا الأسلوب؟ هل كان كلامي طبيعياً؛ ألم أبالغ؟ لماذا قلت: «هكذا خلقت النساء»؟»

قال بورفيرى بتروفتش يسأل لسبب من الأسباب:

- آ... وصلت أمك؟

- نعم.

- متى؟

- مساء أمس.

وصمت بورفيرى كأنه يفكر. ثم أردد يقول بهدوء، ببرود:

- أشياؤك لا يمكن أن تفقد بحال من الأحوال. ثم إنني كنت أنتظرك منذ مدة طويلة.

قال بورفيرى ذلك، ثم التفت نحو رازوميخين وكأنما لم يحدث شيء، ووضع أمامه منفحة سجائير، لأن رازوميخين كان يهز سيجارته بغير شفقة فيسقط رمادها على السجادة. ارتعش راسكولنيكوف، ولكن بورفيرى الذي كان مشغولاً بسيجارة رازوميخين، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظه.

صرخ رازوميخين سائلاً:

- كيف؟ كنت تتظره؟ أكنت تعرف إذن أن له رهوناً هناك هو أيضاً؟

فاتجه بورفيرى بتروفتش إلى راسكولنيكوف رأساً وقال له:

- كان هناك، الخاتم والساعة، موجودين عندها، ملفوفين بورقة واحدة، وقد كتب اسمك على الورقة واضحاً بقلم الرصاص، كما

سُجل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً...

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكاً آخر، ويحاول خاصةً أن ينظر إلى عيني بورفيري:

- ما أقوى ذاكرتك!

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن أن يضيف قائلاً على حين فجأة:

- لئن أبديت هذه الملاحظة، فلأن هناك أشخاصاً كثيرين جداً قد رهنا أشياء كما أعتقد... فلا بد أن يصعب عليك أن تتذكر أسماءهم جميعاً... ولكنك تتذكرةهم تذكرة واضحاً، و... و....

ثم قال لنفسه: «ما أغباني! ضعيف جداً! لماذا أضفت هذا الكلام؟»

أجابه بورفيري بشيء من سخر طفيف لا يكاد يلاحظ:

- ولكن جميع أولئك الأشخاص أصبحت أعرفهم، وأنت الشخص الوحيد الذي لم يطالب بأشياءه حتى الآن.

- ذلك أنني كنت مريضاً.

- هذا أيضاً سمعته عنك. بل لقد سمعت كذلك أنك كنت قلقاً للغاية مضطرباً جداً من شيء ما. ثم إنك ما زلت تبدو شاحباً.

- لست شاحباً بتات. بالعكس: صحتي الآن حسنة جداً.

كذلك رد راسكولنيكوف بفظاظة وشراسة، وقد تغيرت لهجته فجأة. لقد غلى الغضب في نفسه، فأصبح لا يستطيع كبحه. وقال يحدث نفسه من جديد: «هذا الغضب هو الذي سيفضحي! ولكن لماذا يعذبونني هذا التعذيب!»

عاد رازوميixin يتكلم فقال:

- صحتك جيدة جداً! اسمعوا هذا الكلام! كان حتى أمس لا يكاد يعي، وكان يهزمي! هل تصدق يا بورفيري أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه، فما أن أدرنا ظهرنا، أنا وزوسيموف، حتى ارتدى

ثيابه وتسلل خلسةً ليمضي يتسع لا أدرى أين، إلى منتصف الليل، أو إلى منتصف الليل تقرباً، وهو في حالة هذيان كامل؟ هل تستطيع أن تخيل شيئاً كهذا يا بورفيرى؟ أمر غريب!

قال بورفيرى وهو يهز رأسه بحركة من الحركات التي تجربها النساء:

- حقاً؟ في حالة هذيان كامل؟ غريب! ..

وأفلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الغضب:

- هذا سخف! لا تصدقه!

ولكن بورفيرى بترؤفتش بدا كأنه لم يسمع هذه الأقوال العجيبة!

قال رازوميixin وقد تحمس مزيداً من الحماسة على حين فجأة:

- ولكن هل كان يمكن أن تخرج لولا أنك كنت في حالة هذيان؟ ولماذا خرجت؟ ماذا كان هدفك من الخروج؟ ولماذا خرجت خفية؟ إنك لم تكن تملك عقلك! أستطيع أن أقول لك هذا الآن وقد زال كل خطراً!

قال راسكولنيكوف متوجهها بالكلام إلى بورفيرى وهو يبتسم ابتسامة فيها وقاحة وتحدي:

- لقد أرهقوني أمس إرهاقاً فظيعاً، فهربت لأستأجر شقة أخرى لا يستطيعون أن يعثروا علىَ فيها؛ وحين خرجت حملت كل ما أملكه من مال. وقد رأى السيد زاميوتوف ذلك المال. يا سيد زاميوتوف، أكنت بالأمس سليم العقل أم لا؟ عليك أنت أن تحسن النقاش.

لو استطاع في تلك اللحظة أن يخنق زاميوتوف لما تردد في ذلك. كانت نظرة زاميوتوف وكان صمته يغيظانه أعظم الغيط.

قال زاميوتوف يجبيه بجفاف:

- فيرأىي أنك كنت تتكلّم كلام إنسان عاقل جداً، بل وكلام رجل حاذق جداً... كل ما هنالك أنك كنت سريع الاتهام والغضب.

وقال بورفيرى بتروفتش :

- واليوم ذكر لي نيكوديم فومنتش أنه لقيك أمس ، في ساعة متأخرة ،  
بمتزل موظف داسته عربة .

فقال رازوميخين يستأنف كلامه مخاطباً راسكونيكوف :

- نعم ، لننظر فيما قلته في بيت ذلك الموظف مثلاً: ألم تتصرف  
تصرف رجل مجنون هناك؟ لقد أعطيت أرملته كل ما كان معك من مال  
لدفع نفقات الجنازة . أبداً كان في وسعك ، إذا أنت حرصت حرضاً  
مطلقاً على مساعدتها ، أن تعطيها خمسة عشر روبلأ أو حتى عشرين  
روبلأ ، أو أن تحتفظ لنفسك بثلاثة روبلات في أقل تقدير؟ ولكنك لم  
تفعل هذا ، بل جدت عليها بكل ما تملك : خمسة وعشرين روبلأ !

- ولكن لعلني عثرت في مكان ما على كنز . ما يدريك؟ ولهذا كنت  
كريماً ذلك الكرم كله بالأمس . إن السيد زاميوتوف يعلم أنني وجدت  
كنزاً ! اغفر لنا (قال ذلك لبورفيرى بتروفتش مختلجه الشفتين) اغفر لنا  
إزعاجك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة ! نحن نضجرك ، أليس  
ذلك؟

- بالعكس ، بالعكس ! ليتك تعلم كم يهمني أمرك ويشوقني حديثك !  
أنها لمتعة عظيمة أن يراك المرء وأن يصغي إليك . . . أعترف لك أنني  
شديد السرور بأنك تفضلت فجئت إلى . . .

هتف رازوميخين يقول لبورفيرى :

- هيه ! هلاً قدمت إلينا شيئاً من الشاي على الأقل ! لقد جفّ حلقي  
 تماماً !

- هذه فكرة رائعة ، ولعل سائر الصحب بواافقونك عليها ! ولكن  
ألاست تحب أن تصيب قبل الشاي شيئاً أحلى ؟

- لا . . .

وخرج بورفيرى بتروفتش ليأمر بالشاي .  
كانت الخواطر تعصف في رأس راسكولنيكوف كالإعصار . وكان  
محتاجاً أشد الالهتياج .

قال يحدث نفسه : «أنكى ما في الأمر أنهم لا يخفون ولا يكتمون ،  
أنهم لا يتحرجون ! كيف حدث ، وأنت لا تعرفي بعد ، أن تتحدث عنـي  
مع نيكوديم فومتش ؟ معنى ذلك أنهم لا يحاولون حتى أن يخـفوا أو  
يكتـمون ، وأنهم يطاردونـي جميعـاً كما يطارد الفريـسة سـربـ من كلـاب  
الصـيد ! أنـهم يبـصـقـونـ في وجهـي صـراـحةـ ! (كـذلك قال لنـفـسـهـ وهوـ  
يرـتحـفـ من شـدـةـ الغـضـبـ) . ما بالـكمـ لا تكونـونـ صـرـيحـينـ ! لـماـذاـ تـلـعبـونـ  
معـيـ لـعـبـةـ القـطـ وـالـفـأـرـةـ ؟ حـقـاـ أنـ هـذـاـ لـمـنـ قـلـةـ الأـدـبـ ياـ بـورـفـيرـىـ  
بـتـرـوـفـتـشـ ! ولـعـلـنـيـ لـنـ أـسـمـعـ بـهـ بـعـدـ الآـنـ) .. لـسـوـفـ أـنـهـضـ وـاقـفـاـ،  
فـأـرـمـيـكـ بـالـحـقـيقـةـ كـلـهاـ صـفـعاـ عـلـىـ وـجـوهـكـ . ولـسـوـفـ يـرـوـنـ عـنـدـئـلـ مـدىـ  
الـاحـقـارـ الـذـيـ أـحـمـلـهـ لـهـمـ ! » دـارـتـ هـذـهـ خـواـطـرـ فيـ رـأـسـ رـاسـكـولـنـيـكـوفـ  
وـهـوـ يـجـدـ فيـ التـنـفـسـ مـشـقـةـ كـبـيرـةـ . تـابـعـ يـحـدـثـ نـفـسـهـ : «ولـكـنـ أـلـاـ يـمـكـنـ  
أـنـ يـكـوـنـ هـذـاـ كـلـهـ إـحـسـاـسـاـ بـاطـلـاـ، وـهـمـاـ مـنـ أـوـهـامـ الـخـيـالـ، سـرـابـاـ لـاـ  
أـكـثـرـ ؟ أـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ أـكـوـنـ مـخـطـئـاـ فـيـ الـحـكـمـ عـلـىـ الـأـمـرـ كـلـهـ مـنـ أـوـلـهـ إـلـىـ  
آخـرـهـ، وـأـنـ لـاـ يـكـوـنـ غـضـبـيـ نـاشـئـاـ إـلـاـ عـنـ نـقـصـ الـخـبـرـةـ وـقـلـةـ الـتـجـرـبـةـ وـعـنـ  
عـجـزـيـ عـنـ تـمـثـيلـ دـورـيـ السـاقـطـ ؟ لـعـلـهـمـ يـقـولـونـ كـلـ ماـ يـقـولـونـهـ بـدـونـ  
فـكـرـةـ مـبـيـتـةـ أـوـ نـيـةـ سـيـئـةـ ! .. لـاـ، إـنـ كـلـ ماـ يـقـولـونـهـ عـادـيـ، وـلـكـنـ الـمـرـءـ  
يـحـسـ وـرـاءـ كـلـ كـلـمـةـ مـنـ كـلـمـاتـهـمـ .. صـحـيـحـ أـنـ مـمـكـنـ أـنـ يـتـكـلـمـ  
جـمـيعـ النـاسـ بـهـذـهـ الطـرـيقـةـ وـهـذـاـ اـسـلـوبـ، وـلـكـنـ لـاـ بـدـ أـنـ هـؤـلـاءـ  
يـضـمـرـونـ أـشـيـاءـ يـلـمـعـونـ إـلـيـهاـ إـلـمـاعـاـ . لـمـاـذاـ قـالـ كـلـمـةـ «ـعـنـدـهـ»ـ بـإـلـحـاجـ  
خـاصـ؟ وـلـمـاـذاـ قـالـ زـامـيـوتـوفـ أـنـيـ كـنـتـ أـنـكـلـمـ كـلـامـ رـجـلـ حـاذـقـ؟ لـمـاـذاـ  
يـخـاطـبـونـيـ بـهـذـهـ اللـهـجـةـ؟ نـعـمـ، هـيـ اللـهـجـةـ .. وـرـازـوـمـيـخـينـ مـوـجـودـ،  
فـلـمـاـذاـ لـاـ يـشـتـبـهـ فـيـ شـيـءـ؟ لـكـنـ هـذـاـ الـأـبـلـهـ السـاـذـجـ لـاـ يـشـتـبـهـ فـيـ شـيـءـ يـوـمـاـ  
مـنـ الـأـيـامـ . هـاـ هـيـ ذـيـ الـحـمـىـ تـعـرـيـنـيـ مـنـ جـدـيدـ! هـلـ غـمـزـنـيـ بـورـفـيرـىـ

بعينه منذ لحظة أم هو لم يغمزني؟ سخافة! ترى لماذا وجّه إلى تلك الغمزة؟ أتراهم لا يريدون إلا أن يثيروا أعصابي ويخرجنني عن طوري؟ . . إما أن ذلك كله ليس إلا سراباً، وإما أنهم يعرفون . . ولكن حتى زاميتوف وقع! هل زاميتوف وقع؟ لا بد أنه فكر طويلاً أثناء الليل. كنت أوجس أنه سيفكر! هو هنا كأنه في بيته رغم أنه جاء إلى هنا لأول مرة. بورفيرى لا يعده ضيفاً ويجلس مديرأً ظهره له! إنهم متواطئان علىَّ! لا شك في أنهم كانوا يتكلمان عني أنا قبل وصولنا. هل يعرفان أنني ذهبت أرى الشقة؟ ليتنى أعلم هذا بسرعة! حين قلت إنني هربت أمس مساء لأبحث عن شقة أستأجرها، فإن بورفيرى لم يفطن إلى أقوالى ولم يرَ على إشارتى. نعم، لقد دسست مسألة الشقة هذه بحذق. سوف يفیدنى هذا في المستقبل! . . في حالة هذيان. . . ها ها ها! . . ولكنك يعرف كل ما فعلته مساء أمس. كان يجعل أن أمي وصلت! وقد سجلت العجوز تاريخ الرهن بقلم الرصاص! أنت تكذب، أنتم مخطئون، لن أسلم نفسي! ما هذه بوقائع على كل حال. سراب لا أكثر! هاتوا وقائع! والشقة نفسها ليست واقعة، وإنما هي هذيان! ألا أنني أعرف ماذا سيجب عليَّ أن أقول لهم! أهم يعرفون ما حدث في الشقة؟ لن انصرف قبل أن أعرف هذا. لماذا جئت؟ هانا ذا أغضب الآن! هذه واقعة! أوه . . ما أشد احتياجى وما أسرع غضبى! ولكن لعل هذا أفضل . . فإننى بذلك أمثل دور المريض . . إنه يختبرنى وسيحاول أن يشوش أفكارى. لماذا جئت؟ . . »

ذلك كله ومض في ذهن راسكونيكوف سريعاً كالبرق.

وعاد بورفيرى بعد لحظة. أنه يبدو الآن مرحاً جداً.

قال يخاطب رازوميغين صاحكاً، بلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة التي كان يتكلم بها منذ قليل:

- هل تعرف يا صاحبى أنني بعد سهرة الأمس في بيتك الجديد،

أخذ رأسي يدور، وأنني ما زلت على هذا الحال... .

- كانت سهرة شائقفة، أليس كذلك؟ لا تنس أنني تركتكم في أجمل لحظة. من الذي انتصر؟

- لم ينتصر أحد طبعاً. لقد أخذوا يتناقشون في مشكلات أبدية، وحمي وطيس المناقشة! ..

- تصور يا روديا أنهم اندفعوا يتجادلون في هذا الموضوع: أهناك جرائم أم ليس هناك جرائم؟ يا للسخافات التي قالوها!! .. شيء فظيع ... .

فأجاب راسكولينيكوف شارد الفكر وبلهجة عادية:

- لا غرابة! هذه مسألة اجتماعية عادبة جداً، مع ذلك!

وتدخل بورفيرى فقال:

- غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته.

فأسرع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسته على عادته:

- صحيح. لم تكن هذه صيغته تماماً. اسمع يا روديا، اسمع وقل لي رأيك. أنا حريص على معرفة رأيك. لقد اندفعت أمس معهم بانتظار وصولك. وكنت قد أعلنت لهم جميعاً أنك آت. بدأت المناقشة بوجهة نظر الاشتراكيين. معروفة وجهة نظر الاشتراكيين. الجريمة احتجاج على وضع اجتماعي غير سليم. ليست الجريمة شيئاً غير هذا. ليس هناك أي باعث آخر على الجريمة.

صاحب بورفيرى بتروفتش يقول:

- هاؤنت ذا تعود إلى الافتراء!

كان بورفيرى بتروفتش ينتعش انتعاشاً واضحاً، ولا يكف عن الضحك وهو يلاحظ رازوميخين، فكان ذلك يزيد هياج رازوميخين.

وابع رازوميخين كلامه يقول محموماً:

- نعم، ليس هناك أي باعث آخر، في نظر الاشتراكيين. أنا لا أفتري. سوف أريك كتبهم. هم يرون أن كل شيء، أن كل شيء على الإطلاق، إنما مرده إلى «جو البيئة السيئة». لا أكثر من ذلك. نعم، هذا هو تعبيرهم المفضل. ويستنتجون من هنا أن جميع الجرائم ستزول دفعًّا واحدة متى نظم المجتمع تنظيمًا سليمانًا. فمتى زالت أسباب الاحتجاج، أصبح جميع الناس فوراً «صالحين» من تلقاء أنفسهم. إن الاشتراكيين لا ينظرون إلى الطبيعة بعين الاعتبار، بل يسقطونها من الحساب. لا مكان للطبيعة! هم لا يرون أن الإنسانية هي التي ستصل من تلقاء ذاتها، بتطور تاريخي حي، إلى أن تصبح مجتمعاً سليماناً، وإنما يتصورون نظاماً اجتماعياً سوف يخرج من رأس عالم رياضي لا يدرى أحد ما هو، فإذا هو ينظم النوع الإنساني بأسره حالاً، وفي طرفة عين يجعله صالحًا مبرأً من كل خطيئة؛ وذلك طبعاً خارج أي منطق تاريخي، حيائني، حي. هذا هو السبب في أنهم بغيريتهم يكرهون التاريخ: «ليس التاريخ إلا أهواً كريهة وحمقات حقيرة». هذا ما يقولونه. وهم يفسرون كل شيء بالحمامة. وذلك هو السبب في أنهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حياً، وينادون خاصةً بأن: لا نفس حية! .. أن النفس الحية تتطلب الحياة، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا، النفس الحية ريبة، النفس الحية رجعية! لذلك تراهم يصنعون نفساً من كاوتشوك ينبعث منها نتن الموت، ولكنها ليست حية على الأقل، يصنعون نفساً طبيعية ذليلة لا تتمرد! كل ذلك في سبيل أن يصلوا إلى حيث قادونا: إلى تلك المجموعة من الأجر، المقسمة ممرات وغرفًا، التي يسمونها تعاونية<sup>(64)</sup>! أن تعاونيتهم هذه جاهزة، والطبيعة هي التي لم تصبح جاهزة بعد لهذه الفالانستيرا، لأنها تقتضي الحياة، لأنها لم تفرغ بعد من التطور الحيائي، لأنها لم تتأهب بعد للمقبرة! ألا إن المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نشب فوق الطبيعة ونتخطاها. إن المنطق يتصور ثلاث حالات، مع أن الحالات ملايين! أفنحذف هذه الملايين كلها

باسم قضية الرخاء وحدها؟ لا شك أن حلّ المشكلة بهذه الطريقة هو أسهل الحلول! كل شيء واضح: لم تبق حاجة إلى التفكير! ذلك مغر جذاب. فإنما المهم أن لا نفكر. وفي الإمكان بعد ذلك أن نحصر سر الحياة كله في ورقتين مطبوعتين!

قال بورفيرى ضاحكاً:

- ها هو ذا يندفع ويثرثر. يجب تكبيله!

ثم أضاف يقول ملتفتاً نحو راسكولنيكوف:

- تصور أن هذا نفسه هو ما حدث مساء أمس... وذلك في غرفة تعلو فيها ستة أصوات... وكان قد سقانا فوق ذلك حتى سكرنا. هل تتصور ما حدث؟ لا يا صاحبي، أنت مخطئ... إن «البيئة» دخلاً كبيراً في الجريمة. أستطيع أن أؤكّد لك ذلك.

- أعرف أن للبيئة دخلاً كبيراً في الجريمة. ولكن قل لي: هب رجلاً في الأربعين قد اغتصب بنتاً في العاشرة، فهل البيئة هي التي دفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة؟

قال بورفيرى برصانة تثير الدهشة:

- بالمعنى الدقيق للكلمة، يجوز أن نقول إن البيئة هي التي دفعته إلى ذلك. نعم، إن اغتصاب بنت صغيرة يمكن جداً أن يعلّم بالتأثير الذي تحدثه البيئة.

قاد رازوميixin أن يستعر غضبه استعراً رهيباً. وزأر يقول:

- هذا هراء. وبمثل هذا الهراء أستطيع أن أبرهن لك على أن السبب في أن أهدابك بيضاء هو أن برج الأجراس في كنيسة القديس يوحنا بموسكو يبلغ علوه 35 ساجين<sup>(65)</sup>، وأن أبرهن لك على ذلك بوضوح، وبدقة، وأن أبرهن عليه برهاناً فيه تقدمية، بل وفيه ليبرالية. أتريد أن أبرهن لك على ذلك؟ هل تراهن على أنني قادر أن أفعل؟

- إفعل ! سوف نرى كيف تستطيع أن تفعل !

هتف رازوميixin يقول وهو ينهض بوابة واحدة ، ويحرك يده بإشارة  
تنم على الأسف والمضض :

- ما أشدّ ولعه بالتمثيل والعبث ! لا حاجة إلى الكلام معك ، لا داعي  
إلى هذا العناء ! ذلك أنه يفعل هذا عامدأ ، أنت لا تعرفه بعد يا روديا !  
ولقد تحبّز أمس لهم ، ليسخر منهم ويعبث بهم ! الله يعلم ماذا قال لهم  
امس ! وما كان أشد سرورهم برؤيته منحازاً إلى صفهم ! إنه قادر على أن  
يظل يمثل خمسة عشر يوماً بغير انقطاع . في السنة الماضية ، روى لنا ،  
لسبب من الأسباب ، أنه سيصبح راهباً ، وظل يخدعنا بهذه القصة  
شهررين كاملين . ومنذ مدة قصيرة ، أوهمنا بأنه سيتزوج ، وقال إنه هيأ  
للاحتفال كل شيء . حتى لقد أوصى ببدلة جديدة ، وصدقناه نحن  
وأخذنا نهنهه . فماذا كان ؟ لم يكن هناك خطيبة ، لم يكن هناك شيء  
البطة : سراب لا أكثر !

- أنت تكذب ! لقد أوصيت بالبدلة الجديدة أولاً ، والبدلة الجديدة  
هي التي أوحت إليّ بفكرة تضليلكم جميماً !  
سؤال راسكولنيكوف بإهمال :

- أنت تحب التغريب بالناس كل هذا الحب حقاً؟

- أكنت تظن غير ذلك ؟ انتظر إذن ، فسوف أغرس بك أيضاً . ها ها  
ها ! ولكن اسمع ، سأقول لك الحقيقة كلها : إن جميع هذه المسائل التي  
دار عليها الحديث ، كمسألة الجريمة ، ومسألة البنات الصغيرات ،  
ومسألة «البيئة» ، قد ذكرتني بمقالة لك منشورة ، مقالة شاقتني دائماً على  
كل حال ، وعنوانها : «في الجريمة» ... أو شيء من هذا القبيل ... لا  
أذكر الآن . لقد أتيح لي منذ شهرين أن أستمتع بقراءة تلك المقالة في  
مجلة «القول الدورية» .

هتف راسكولنيكوف يقول مدھوشًا :

- مقالتي؟ في «القول الدورية»؟ صحيح أنتي، منذ ستة أشهر، بعد تركي الجامعة، كتبت مقالة عن كتاب كان قد صدر منذ مدة قصيرة، ولكنني بعثت بالمقالة إلى جريدة «القول الأسبوعية»، لا إلى «القول الدورية».

- لكنها نشرت في مجلة «القول الدورية».

- جريدة «القول الأسبوعية» توقفت عن الصدور ولذلك لم تنشر مقالتي . . .

- نعم. ولكنها حين توقفت عن الصدور قد انصرفت في «القول الدورية»؛ وذلك هو السبب في أن مقالتك قد نشرت في «القول الدورية» منذ شهرين. أكنت تجهل ذلك؟

كان راسكونيكوف يجهل ذلك فعلاً.

قال له بورفيري بتروفتش:

- غريب! إنك تستطيع أن تطالب المجلة بأجرك عن المقال. ما أعجب طبعك! أنت تعيش إذن في عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التي تتصل بك من قرب. هذا واقع.

هتف رازوميخين يقول:

- مرحي روديا! أنا أيضاً كنت أجهل هذا! سأركض في هذا اليوم نفسه إلى قاعة مطالعة، فأطلب المقالة. هل ظهرت منذ شهرين؟ ولكن في أي يوم على وجه الدقة؟ لا بأس، سأجدها على كل حال. هذه حكاية حقاً. أنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً؟

- ولكن كيف عرفت أن المقالة لي؟ أنا لم أوقعها إلا بالحروف الأولى.

- عرفت ذلك عرضاً وعرفته في الآونة الأخيرة فقط، بفضل رئيس التحرير الذي أعرفه. وقد كانت المقالة مشوقة كثيراً، وأثارت اهتمامي.

- أذكر أنني حللت في تلك المقالة الحالة النفسية التي يكون عليها القاتل طوال مدة الجريمة.

- نعم، كنت تقول إن تنفيذ الجريمة يُصاحب دائمًا بحالة نفسية مرضية. وجهة نظر أصيلة، أصيلة جداً... ولكن هذا الجزء من مقالتك ليس هو الجزء الذي أثار اهتمامي أكثر من غيره، وإنما أثارت اهتمامي فكرة دستتها في نهاية المقالة، ولم تتوقف عندها طويلاً، وإنما أشرت إليها إشارة سريعة لسوء الحظ. وقد أردت أن تقول، إذا كنت تتذكر ذلك، أن على الأرض أناساً يستطيعون... لا يستطيعون فحسب... بل لهم كذلك حق مطلق في أن يرتكبوا جميع أنواع الأفعال الشائنة والجرائم، وأنه لا قيمة لأي قانون بالنسبة إلى هؤلاء الناس.

ابتسם راسكولنيكوف بسخرية إزاء هذا الكلام الذي يؤوّل فكرته تأويلاً مراوغاً جداً.

سؤال رازوميخين بنوع من الذعر:

- ماذا؟ ما هو الموضوع؟ الحق في ارتكاب الجريمة؟ ولكن لا بسبب «البيئة» على كل حال، هه؟

فأجابه بورفيرى:

- لا، لا، إنك لم تفهم المقصود. المسألة في تلك المقالة هي أن الناس فتنان: فتن العاديين، وفتنة الخارجين. فأما «العاديون» فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين، وليس لهم حق في مخالففة القانون، وذلك لأنهم عاديون. وأما «الخارجون»، فيحق لهم أن يرتكبوا جميع الجرائم وأن يخالفوا جميع القوانين، وذلك لأنهم «خارجون». أكان هذارأيك أم ترانى مخطئاً؟

دمدم رازوميخين يقول مدھوشًا:

- ولكن كيف؟ ليس من الممكن... أن يكون الأمر كذلك...

وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة ساخرة من جديد. لقد أدرك فوراً ما الذي يريد أن يبلغه بورفيرى، ما الذي يريد أن يستدرجه إليه أو أن يستخرجه منه. وكان يتذكر مقالته. وقرر أن يرد على التحدي بمثله.

بدأ بتكلم فقال بلهمجة سبطة متواضعة:

- ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقة. على أنني أعترف بأنك عرضت فكريتي عرضاً أميناً، بل وأميناً كل الأمانة إذا شئت (كان يسره أن يوافق على أن فكرته قد عُرضت عرضاً أميناً كل الأمانة). والفرق الوحيد هو أنني لم أقطع بأن جميع الخارجيين يجب عليهم أن يرتكبوا دائمًا جميع أنواع الجرائم كما تقول. ولو قد فعلت ذلك لمنعت الرقابة نشر المقالة فيما يخلي إلي. كل ما أوحيت به هو أن الإنسان الخارق يملك الحق... لا الحق الرسمي بل الحق الشخصي في أن يأخذ لضميره بتحطيم بعض الحواجز... وذلك في حالة واحدة هي الحالة التي يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التحطيم (وهي فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الإنساني). أنت تدعى أن مقالتي غير واضحة، فإنما مستعد لأن أشرحها لك في حدود الإمكانيات. ولعلني لا أخطيء إذ أفترض أن هذه هي رغبتك. فليكن لك ما تشاء!.. فيرأيي أنه لو كانت إكتشافات كبلر أو نيوتن، بسبب تضافر ظروف معينة، ما كان لها أن تتحقق إلا إذا ضُحِي في سبيلها بحياة فرد أو عشرة أفراد أو مائة فرد بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلًا دونها، فإنه يكون من حق نيوتن بل ومن واجبه... أن يزبِح أولئك الأفراد العشرة أو المائة في سبيل أن ينفع الإنسانية بإكتشافه. ولكن ليس يترتب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل أي إنسان يحلو له أن يقتله، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق. وإذكر أنني أوضحت في مقالتي أن جميع المؤسسين والمُشرعين في تاريخ الإنسانية، من أقدمهم إلى أحدثهم، مروراً بأمثال لي سورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم، يمكن أن يوصفو جميعاً بأنهم مجرمون، لأنهم حين أقاموا قانوناً إنما

خالفوا بذلك قانوناً قدِيماً كان يُعدُّ مقدساً وكان موروثاً عن الأسلاف؛ وما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً في بعض الأحيان، ومهما يكن قد بذل بذلاً بطوليًّا في سبيل القانون القديم) حين يسهل سفك هذا الدم مهمتهم، بل ويحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا إلى الإنسانية وأصلحوا المجتمع أنما كانوا أناساً شاذين دمويين. وأوجز فأقول إنهم جميعاً، لا أعظمهم فحسب بل الذين يعلون أقل علوٍ فوق الحد الوسط أيضاً، أي الذين هم قادرُون ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجديدة، أنما كانوا مضطربين بحكم طبيعتهم نفسها إلى أن يكونوا قتلةً، قليلاً أو كثيراً طبعاً، ولو لا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن الحد الوسط، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط. الخلاصة: هنا من واجبهم أن لا يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط.

الخلاصة: هنا أنت ذا ترى أنه ليس فيما قلته حتى الآن شيء جديد كل الجدة. أما عن تقسيمي الرجال إلى فتتين، فئة العاديين وفئة الخارجين، فإبني أوافق على أن في هذا التقسيم شيئاً من التحكم، ولكني لم أقدم أرقاماً أيضاً. وأنا أنما أؤمن بفكري الرئيسية، وهي أن الرجال ينقسمون، بحكم قوانين الطبيعة، إلى فتتين، بوجه عام: فئة العاديين الذين لا وجود لهم إلا من حيث إنهم مواد إن صحت التعبير، وليس لهم من وظيفة إلا أن يتناسلوا، وفئة عليا هي فئة الخارجين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا في بيئتهم قولًا جديداً. ولا شك أن هناك تقسيمات فرعية لا حصر لعدها، ولكن السمات المميزة التي تفصل هاتين الفتتين قاطعة. فاما الفتاة الأولى، وهي فئة المواد، فإن أفرادها، على وجه العموم، أناس، «خلقوا محافظين»، أناس معتدلون يعيشون في الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا في الطاعة. وعندِي أن عليهم أن يطيعوا، لأن الطاعة هي ما كُتب لهم، وليس في طاعتهم ما يسيء إليهم أو يذل كرامتهم. وأما الفتاة الثانية فهي تتألف من رجال يتميزون بأنهم جميعاً يكسرُون القانون،

بأنهم جميعاً مدمرُون، أو بأنهم جميعاً ميالون إلى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم. وجرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها وتنوع أشكالها طبعاً. وأكثرهم يريدون، بأساليب متنوعة جداً، تدمير الحاضر في سبيل شيء أفضل. فإذا وجب على أحدهم، من أجل تحقيق فكرته، أن يخطو فوق الجنة، أو فوق بركة دم، فإنه يستطيع (في رأيي) أن يعزّم أمره على أن يخطو فوق الجنة وفوق بركة الدم مرتاحاً الضمير، وكل شيء رهن بمضمون فكرته، وبما لها من أهمية طبعاً. لاحظوا ذلك.

بهذا المعنى وحده إنما تحدثت في مقالتي عن حق ارتكاب الجريمة (إنك تذكر أن نقطة البداية التي انطلقتنا منها إنما كانت مسألة حقوقية). على أنه لا داعي إلى القلق كثيراً. فإن الجمهور لا يكاد يعترف لهؤلاء الرجال أبداً بهذا الحق. بالعكس: إن الجمهور يغضّ بهم ويشنقهم (كثيراً أو قليلاً)، وهو في هذا يمارس حقه، ويقوم بوظيفته كجمهور محافظ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر أولئك المغضّ بهم المعدّين فتقديسهم (كثيراً أو قليلاً). فالفتاة الأولى من الرجال هي سيدة الحاضر، والفتاة الثانية هي سيدة المستقبل. الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً، والآخرون يحركونه ويقودونه إلى غاية. ولهم ولهم أولئك حق واحد في الحياة. أي أن لهم كلهم حقوقاً متساوية، و«عاشت الحرب الأبدية» (بالفرنسية)، إلى أن تقوم أورشليم الجديدة طبعاً!

- أَنْتَ تُؤْمِنُ إِذْنَ بِأُورْشَلِيمِ الْجَدِيدَ؟

أجاب راسكولنيكوف بصوت ثابت:

- أَؤْمِنُ!

قال ذلك خافضاً رأسه مثبتاً بصره على نقطة من السجادة، كما كان طوال مدة حديثه المستفيض.

- وَهَلْ تُؤْمِنُ بِاللهِ أَيْضًاً! اغْفِرْ لِي فَضْولِي!

فأجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره إلى بورفيرى :

- أؤمن به .

- وهل تؤمن ببعث لعازار؟

- أو... أؤمن به . ولكن لماذا تسألني عن هذا كله؟

- هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً؟

- نصاً وحرفاً!

- صحيح؟ أغفر لي فضولي . لقد سألك عن هذا كله من باب حب الإطلاع . ولكن إسمح لي . سوف أعود الآن إلى ما كنت تقوله . أنا أرى الجمهور لا يضطهد هم ويعدّهم جمِيعاً . بالعكس : بعضهم ...

- بعضهم يتتصرون أنباء حياتهم؟ ... نعم بعضهم يتحققون غایياتهم أثناء حياتهم ، وعندئذ فإنهم هم الذين ...

- هم الذين يرسلون الآخرين إلى التعذيب والاضطهاد ...

- نعم ، إذا لزم الأمر ... وأكثرهم يفعلون ذلك حقاً . ملاحظتك هذه ... لطيفة جداً .

- أشكرك . ولكن قل لي : كيف نميّز هؤلاء الخارجين عن أولئك العاديين؟ هل هم يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم؟ أقصد أنه لا بد من دقة أكبر ، أي لا بد من علامة مميزة واضحة . أغفر لي هذا الاهتمام ، وهو اهتمام طبيعي لدى رجل عملي يريد الخير . إلا يمكننا مثلاً أن نلبسهم رداء خاصاً ، أن نخلع عليهم زياً موحداً ، أن نميّزهم بعلامة فارقة؟ إذ لا بد أن تسلّم معي بأنه إذا حدث إختلاط ، فتخيلَ رجل من رجال الفتنة الأولى أنه ينتمي إلى الفتنة الثانية ، فأخذ «يزبح جميع العوائق» ، على حد تعبيرك الموفق ، فإن ...

- صحيح ... هذا يحدث كثيراً . ملاحظتك هذه ألطف من سابقتها أيضاً .

- لا داعي إلى الشكر . ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع إلا لأفراد الفتنة الأولى ، أي فئة العاديين (الذين لعنى لم أوفق كثيراً حين أطلقوا عليهم هذا الإسم) : إن كثيراً من هؤلاء العاديين ، رغم ميلهم الفطري إلى الطاعة ، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوةً من تلك النزوات التي نلاحظها في الطبيعة ، ونلاحظها حتى لدى الأبقار ، فإذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطبيعة ، رجالاً «مدمرین» . وإذا هم يقحمون أنفسهم في الدعوة إلى «القول الجديد» ، صادفين مخلصين من جهة أخرى . وكثيراً ما يحدث لهم في الوقت نفسه أن لا يلاحظوا ولا يعترفوا بأولئك الذين هم مجددون حقاً ، حتى لقد يعدونهم أناساً منحطين ، رجعيين ، جديرين بالاحتقار . ولكنني أعتقد أن هذا ليس فيه خطر كبير ، فما ينبغي لك أن تقلق ، وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً في يوم من الأيام ، وفي وسرك طبعاً ، من أجل أن تعاقبهم على حماستهم الطائشة ، وأن تردهم إلى مواقعهم ، في وسرك أن تجلدهم أحياناً . ولكن هذا كل شيء؛ بل إنه لا حاجة إلى أن يتولى أحد هذه المهمة ، فإنهم يجعلون أنفسهم بأنفسهم ، لأنهم أناس أخلاقيون جداً ، وبعضهم يجعلون أنفسهم بأيديهم ، وبعضهم يطلبون إلى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة . ثم إنهم يفرضون على أنفسهم أنواعاً من الكفارات على رؤوس الأشهاد فيكون هذا درساً مفيداً وعبرة جميلة .

الخلاصة: ليس عليك أن تقلق . ذلك هو القانون!

- حسناً! لقد طمأنتني من هذه الناحية قليلاً على كل حال . ولكنني أرى خطراً آخر . قل لي من فضلك: هل هم كثيرون أولئك الأفراد الذين يحق لهم أن يذبحوا غيرهم ، هل هم كثيرون أولئك «الخارقون»؟ إني مستعد طبعاً لأن أنحنى احتراماً لهم ، ولكن لا بد أن توافقني على أن المرء لا بد أن يشعر برعدة تسرى في ظهره إذا هم كانوا كثيرين؟

أليس كذلك؟

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها:

- لا تقلق من هذا أيضاً. فعلى وجه العموم، لا تولد إلا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكرةً جديدةً حقاً، أو يقدرون ولو قليلاً على أن يعبروا عن شيء ما جديد. هنالك شيء واحد محقق، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون في هذه الفتنة أو تلك لا بد أن يحدّدها قانون طبيعي ما تحديداً دقيقاً. وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهولاً، ولكنني أعتقد أنه موجود، وأنه سيمكن إكتشافه في المستقبل. ولشن وُجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الصخامة، فما ذلك إلا لمحاولة خلق إنسان مستقل بعض الاستقلال، ولو بنسبة واحد إلى ألف، وذلك بتطور ما يزال سرياً مجهولاً، وبواسطة أنواع شتى من إختلاط عرق وأنواع، إلخ. أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فإن نسبتهم أصغر من ذلك: هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلم على وجه التقريب). وأما الأفراد الذين يملكون درجةً علياً من الاستقلال فإن نسبتهم أصغر من ذلك أيضاً: هم واحد بين مائة ألف. وأما العباقرة فلا يوجد منهم إلا واحد بين مليون. وأما كبار العباقرة، الذين هم قمة النوع الإنساني، فلا بد أن ننتظر أن تمر على الأرض ألف مليونيّن الأفراد حتى يظهر منهم واحد. أنا لم أقم طبعاً بجولة في البوتقة التي يتم فيها هذا كلّه، ولكن القانون موجود، ولا بد أن يكون هناك قانون من هذا النوع. فلا مصادفة هنا!

صاح رازوميixin يقول أخيراً:

- قولالي: أنتما تمزحان؟ أنتما بسييل أن يخدع كل منكم الآخر؟ إن كلامهما جالس أمام صاحبه يستهزئ به ويضحك عليه! أنت تتكلم جاداً يا روديا؟

رفع راسكولنيكوف وجهه الشاحب نحو رازوميixin صامتاً، حزيناً، ولم يعجب بشيء. فلما رأى رازوميixin هذا الوجه الهادئ المتألم،

استغرب تلك اللهجة اللاذعة الفظة الوقحة الملحة التي استعملها بورفيرى . قال رازوميixin :

- طيب يا صاحبى ، إذا كنت تتكلم جاداً . . . فمن حقك طبعاً أن تقول إن هذا كله ليس فيه جديد ، فهو يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة . ولكن الشيء الجديد حقاً في الأمر ، الشيء الذي تنفرد به - وهذا ما أشعر منه بهول ورعب - هو أنك تجد أن من الطبيعي أن يسفح إنسان دماً وهو واع كل الوعي ، وأنك تدافع عن هذا الرأي بمثل هذا التعصب كله . . . سأمحنني . معنى ذلك أن هذه هي الفكرة الأساسية التي تتضمنها مقالتك . وأنا أرى أن هذا السماح الأخلاقي بسفح الدم ، أقطع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً أو شرعاً . . .

قال بورفيرى :

- صحيح تماماً . هو أقطع منه .

وقال رازوميixin يخاطب راسكولنيكوف :

- لا ، لا ، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع في مزالق الخطأ . هناك خطأ . سوف أقرأ المقالة . حقاً لقد أسرفت في الغلو . لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك . سوف أقرأ المقالة . . .

قال راسكولنيكوف :

- ليس في المقالة شيء من هذا كله . المقالة لا تتضمن إلا إشارة .

قال بورفيرى وقد أصبح لا يستطيع أن يستقر في مكانه :

- نعم ، نعم ، الآن أصبحت أدرك رأيك في الجريمة بشيء من الوضوح . اغفر لي إلحادي (أنا أعرف أنني أضايقك مما يشعرني بالحرج) . لقد طمأنتني منذ قليل في موضوع الإختلاط الذي يمكن أن يحدث بين الفتتى من باب الخطأ . ولكن . . . هناك حالات تظل تقلقني من وجهة النظر العملية . لنفرض أن رجلاً أو شاباً يعُذ نفسه مثل ليكورجوس أو مثل محمد - في المستقبل طبعاً . إنه سوف يشرع فوراً

في «إزاحة» جميع العوائق. سوف يقول: إن على عاتقي أن أقوم بحملة بعيدة؛ ومن أجل القيام بحملة لا بد لي مال. ولذلك سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته. واضح؟

هنا انفجر زاميتوف ضاحكاً في ركته ضحكاً قوياً على حين فجأة. ولكن راسكولنيكوف ظل ساكناً، حتى إنه لم يرفع نحوه عينيه. وأجاب يقول بلهجة هادئة:

- أعترف بأن حالات كهذه لا بد أن تقع فعلًا. إن الحمقى والمغرورين يقعون في هذا الفخ، ولا سيما إذا كانوا شباباً.

- أرأيت؟ فماذا إذن؟

أجاب راسكولنيكوف مبتسمًا ابتسامة ساخرة:

- هذا لا يغير من الأمر. أنا لا دخل لي! هكذا أئمًا جرت الأمور دائمًا. قال هو منذ قليل ( هنا أو ما راسكولنيكوف إلى رازوميixin) أنني أبيح سفح الدم. ما قيمة ذلك؟ إن المجتمع تحميء المنافي والسجون وقضاء التحقيق والمعتقلات. فعلام القلق؟ طاردوا السارق!

- وإذا قبضنا عليه؟

- هذا ما يستحقه ويجب أن يُتيح لكم أن تقبضوا عليه.

- أنت منطقى. ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقي؟

- فيم يعنيكم ضميره الأخلاقي؟

- مسألة إنسانية.

- من كان له ضمير أخلاقي فليس له إلا أن يتذنب إذا هو اعترف لنفسه بخطيئته. سيكون هذا عقاباً له، بالإضافة إلى السجن.

سأل رازوميixin وهو يقطب حاجبيه:

- والأشخاص الذين يملكون العبرية حقاً، الأشخاص الذين أعطوا حق القتل، هل يجب عليهم أن لا يتأنموا البتة ولو سفحو دماً؟

- لماذا تستعمل تعبير يجب عليهم؟ ليس هنا لا إذن ولا مَنْعَ . إلا فليتألم من تأخذه بضحية شفقة! لا بد أن يتألم من كان واسع الوجودان عميق الشعور.

ثم أضاف راسكولنيكوف يقول فجأة وقد شرد فكره واختلفت لهجته عما كانت عليه أثناء الحديث :

- يخيل إليّ أن الرجال العظام حقاً لا بد أن يشعروا على هذه الأرض بحزن عظيم.

ورفع راسكولنيكوف عينيه ونظر إلى الجميع مفكراً، وابتسم ، وتناول قبعته . كان هادئاً هدوءاً كبيراً بالقياس إلى الحالة التي كان عليها حين دخل ؛ وكان يحس هو بذلك .

نهض الجميع .

واستأنف بورفيرى بتروفتشر كلامه فقال :

- لك أن تشنمني ولك أن تغضب أن شئت؛ ولكنني لا أستطيع أن أغالب رغبتي في أن أقى عليك سؤالاً آخر صغيراً . أنا أعلم أنني أرهقتك إرهاقاً شديداً، ولكنني أحب أن أُعبر لك عن فكرة صغيرة راودتني وأخشى أن أنساها ...

- هات فكرتك الصغيرة .

فذلك قال له راسكولنيكوف جاداً، شاحب الوجه، وهو واقف أمامه ينتظر .

- إليك فكريتي... ولكنني لا أعرف حقاً كيف أُعبر عنها تعبيراً مناسباً... أن فكري الصغيرة قد تكون تافهة قليلاً... هي فكرة سيكولوجية... إسمع : إنه لمن المستحيل عليك أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون... هي هي هي... أن لا تكون قد عدلت نفسك... إنساناً خارقاً بعض الشيء... إنساناً يحمل القول الجديد، بالمعنى الذي قصدته، أليس هذا صحيحاً؟

قال راسكولنيكوف باحتقار:

- جائز جداً.

وتحرك رازوميixin.

وعاد بورفيري بترؤفتش يتكلم فقال:

- فإذا كان الأمر كذلك، أفلأ يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك، في أعقاب إخفاق شخصي ما، أو للخلاص من الفقر، أو أيضاً لتعجيز سير الإنسانية إلى أمام، لا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك أن تتخطى الحاجز... ف... فقتل مثلاً أو تسرق؟..

قال بورفيري بترؤفتش هذا وغمز عينيه اليسرى وأخذ يضحك ضحكاً صامتاً، كما فعل منذ قليل.

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متهدية:

- إذا كنت قد تخطيت الحاجز فلن أقول لك إنني تخطيته.

- أسألك لأن أمراً واحداً يهمني، هو أن أحسن تأويل مقالتك، وأن أحسن ذلك من الناحية الأدبية وحدها... .

قال راسكولنيكوف لنفسه باشمئزاز: «هوه! يا لنيته الواضحة الورقة!»

وقال يجيب مخاطبه ببرود:

- اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنني لا أعد نفسي لا مثل محمد ولا مثل نابوليون... ولا مثل أي شخص من هذا النوع!.. وإذاً أنني لست واحداً من هؤلاء الأشخاص، فإبني لا أستطيع أن أقدم إليك جواباً مرضياً، فأقول لك ما الذي يمكن أن أفعله.

قال بورفيري بترؤفتش فجأة باليفة مخيفة:

- دعك من هذا الكلام! أي واحد منا، في روسيا، لا يعد نفسه اليوم مثل نابوليون؟

وكان في نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً.

ورشق زاميتوف من ركته هذا السؤال:

- ألا يمكن أن يكون واحد ممن يدعون أنفسهم مثل نابوليون في المستقبل هو الذي قتل آليونا إيفانوفنا في الأسبوع الماضي؟

صمت راسكولنيكوف وحذق إلى بورفيرى بنظرة ثابتة قاسية. واكتفى وجه رازوميختين. كان رازوميختين قد بدأ يشتبه منذ برهة. ونظر حواليه غاضباً. وانقضت دقيقة في صمت قاتم. وتحرك راسكولنيكوف يريد أن ينصرف.

قال بورفيرى بلهجة رقيقة عذبة:

- أتنصرف؟

ومد إلية يده بكثير من التحبب والتودد. وتتابع يقول له:

- سعيد جداً، سعيد جداً بمعرفتك. أما عن مطالباتك برهنيك، فكن مطمئناً: يكفي أن تكتب عريضة بالمعنى الذي أشرت به عليك. نعم، بل ربما كان الأفضل من ذلك أيضاً أن تأتي إليّ، في يوم قريب... في الغد مثلاً... سأكون بمكتبي حتماً في نحو الساعة... الحادية عشرة. سترتب الأمر كله، وستنشرث قليلاً... بما أنك واحد من أولئك من ذهبوا إلى هناك، فإنك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما (هذا ما أضاف قوله وهو يصطمع كل الطيبة وكل البساطة).

سؤال راسكولنيكوف بلهجة خشنة:

- أتريد أن تستجوبني رسمياً، وفقاً للأصول؟

- فيم أستجوبك على هذا النحو؟ لا يدفعني إلى هذا أية ضرورة حتى الآن. طبعاً... أنا لا أدع لآية فرصة أن تفلت مني... وقد تحدثت إلى جميع الذين أودعوا رهوناً لدى العجوز. حتى لقد استطعت أن أحصل على بعض الدلائل. ولما كنت أنت آخر هؤلاء... ولكن

بالمناسبة (هتف يقول ذلك فجأة في غمرة من الفرح) بالمناسبة... الآن تذكرت... كيف نسيت هذا؟ (هنا التفت يخاطب رازوميixin)... نعم يا رازوميixin، إن الفتى نيكولاشكا ذاك الذي صدّعْت به رأسي... قد ثبت لي اليوم... على وجه اليقين (وهنا عاد يلتفت إلى راسكولنيكوف) أنه برىء... ولكن ما حيلتي؟ لقد كان لا بد لي أيضاً من إزعاج ميتكا... والآن إليك ما كنت أريد أن أسألك عنه: حين صعدت السلم، كانت الساعة بين السابعة والثامنة، أليس كذلك؟

أجاب راسكولنيكوف:

- نعم، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة.

وسرعان ما أدرك راسكولنيكوف ممتعضاً أنه كان في وسعه أن لا يذكر هذا.

- ألم تَرَ، وأنت تصعد السلم، بعد الساعة السابعة، في شقة كان بابها مفتوحاً هل تذكر؟ - ألم تَرَ عملاً كانوا يعملون في تلك الشقة، أو عملاً منهم على الأقل؟ هم دهانون كانوا يدهنون الشقة، ألم تلاحظهم؟ هذا أمر هام جداً، هام جداً جداً بالنسبة إليهم.

أجاب راسكولنيكوف يقول ببطء، كأنه ينبش ذاكرته، وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذي ينصبه له مخاطبه ليتحاشى الواقع فيه:

- دهانون؟ لا، لم أر دهانين. لا، لم أرهم. ثم، لا أذكر أني رأيت شقة كان بابها مفتوحاً. ولكنني في مقابل ذلك (لقد اكتشف الآن الفخ وهو فرح بذلك) أذكر أن موظفاً كان ينتقل في الطابق الثالث من الشقة التي تقع أمام شقة آليونا إيفانوفنا. إني أذكر هذا، بل أذكره واضحاً كل الوضوح... كان هناك جنود يحملون أريكة، فاضطررت أن ألتقط بالحائط. ولكنني لم أر دهانين، لا، لا أذكر أني رأيت دهانين. ويخيل إلى أنه لم يكن أي باب من الأبواب مفتوحاً. لا، لم يكن هناك باب مفتوح...

صاحب رازوميخين يقول فجأة كأنه ثاب إلى رشده أخيراً وفهم في هذه اللحظة نفسها، صاح يقول مخاطباً بورفيري:

- ولكن ما هذا الذي تقوله؟ أنت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون يوم مقتل العجوز، أما هو فقد ذهب إلى العجوز قبل ذلك بيومين. فما هذا السؤال الذي تلقيه عليه؟

فهتف بورفيري قائلاً وهو يلطم جبينه:

- آآآ... نعم... إختلط علي كل شيء. تبالي. اللعنة! إن هذه القضية قد أفقدتني صوابي.

والتفت يقول لراسكولنيكوف كأنما ليعتذر:

- إنني من فرط اهتمامي بأن أعرف هل رأى أحد أولئك الدهانين بعد الساعة السابعة في الشقة، قد تخيلت أنك تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال... نعم، لقد اختلط علي كل شيء...

قال رازوميخين غاضباً:

- يجب عليك أن تتبه!

وقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا إلى حجرة المدخل. لقد شيعهما بورفيري بتروفتش إلى الباب بتودد كبير ولطف بالغ. فلما صارا في الشارع كان كل منهما مظلوم النفس متوجه الوجه. وسارا بعض خطوات لا ينطقان بكلمة واحدة. وتنفس راسكولنيكوف تنفساً عميقاً...

## الفصل السادس

رازوميخين يردد قائلاً في حيرة واضطراب وهو يحاول أن **كان** يدحض حجج راسكولنيكوف بكل ما أوتي من قوة:

- أنا لا أصدق هذا! لا أستطيع أن أصدقه! كانا قد اقتربا من عمارة باكالايف، حيث تنتظرهما بولخيريا الكسندروفنا ودونيا منذ مدة طويلة. وفي غمرة المناقشة الحامية، كان الفتى يتوقف في كل لحظة مضطرباً قليلاً، على الأقل لأن هذه هي المرة الأولى التي يتحدثان فيها صراحة عن ذلك الأمر.

أجاب راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة باردة جافة:  
- لا تصدق! أنت على عادتك لم تلاحظ شيئاً، أما أنا فقد كنت أزن كل كلمة.

- أنت شكاك ريب، لذلك كنت تزن كل كلمة. هم... أوففك على أن لهجة بورفيرى كانت غريبة بعض الغرابة... وأن ذلك الوغد زاميتوف خاصّة... أنت على حق... لقد كان فيه شيء ما، ولكن لماذا؟ لماذا؟

- جاءت له فكرة أثناء الليل!

- ولكن لا، بالعكس، بالعكس! لو كانت تدور في ذهنيهما فكرة بهذه الفكرة الغبية، لحاولا، على العكس، أن يخفياها بجميع

الوسائل، لحاولاً أن يكتمها ليواجهنا بها فيما بعد، أما ما فعله فقد كان... كان وقاحةً لا حذر فيها...

- لو كانا يملكان وقائع، أقصد وقائع حقيقة، أو شبكات تقوم على أي أساس من وقائع، لحاولاً أن يخفيا ما يدور في ذهنينا أملاً في أن يكتشفوا مزيداً من الواقع (ولقاماً من جهة أخرى بتفتيش مسكنى منذ مدة طويلة). ولكنهما لا يملكان وقائع، لا يملكان أية واقعة. ليس هذا كله إلا سراباً!.. هذا كله لا رأس له ولا ذنب!.. هذا كله لا يقوم على شيء ولا يستند إلى شيء، لذلك يعمدان إلى الوقاحة. لعله هو نفسه غاضب من أنه لا يملك أية واقعة. لعل هذا هو السبب في حنقه وغضبه. وربما كان كذلك يبيت نية خفية خبيثة. هذا رجل ذكي، كما يبدو لي أنا على الأقل... لعله أراد تخويفي بإظهار أنه يعرف أشياء... يا صاحبي، الأمر هنا أمر سيكولوجيا شخصية. على كل حال... فإن جميع هذه التفسيرات والتأنيات تثير اشمئزازي. هلاً تركنا هذا الحديث كله!

- ثم إن في كلامه إهانة، إهانة! أنا أفهمك. ولكن ما دمنا قد بدأنا التحدث بصرامة (وإنه لحسن جداً أنها وصلنا إلى ذلك، وأننا مرتبط بهذا أشد الاغتباط)، فأحب أن أعترف لك دون لف أو دوران أنني قد لاحظت منذ مدة طويلة أن هذه الفكرة تدور في ذهنيهما. ولكن لا شك أنها لم تكن قد تجسدت بعد، وأنها لم يكن لها إلا وجود كامن. على أن وجودها في ذهنيهما حتى في هذه الصورة أمر لا يطاق. كيف يجرؤان؟ أين، في أي جزء من نفسيهما استطاعت هذه الفكرة أن تجد لها عشاً؟ ليتك تعلم كم أحنتني هذا وكم أثار جنوني! طالب فقير دمرته أنواع البؤس وصنوف الهواجس والمخاوف... على وشك الإصابة بمرض مصحوب بهذيان... بل لعل المرض كان قد ألمَ به منذ ذلك الحين (لاحظ هذا)... شاب مفرط في الشك والحذر، شديد الكبراء شاعر بقيمه، ظل مدفوناً في ركته ستة أشهر لا يرى في أثنائه أحداً...

قد بللت ثيابه حتى أصبحت خرقاً رثة لا تستر ظهره، وبللي حذاءه حتى اهترأ فكأنه حافي القدمين... شاب هذا شأنه يجد نفسه واقفاً على حين فجأة أمام رجال من الشرطة تافهين يصبون عليه وقاحتهم، ويطالبوه بأن يبادر إلى سداد قيمة سند باطل فاجأه به المستشار الاعتباري تشيباروف... ورائحة الدهان الطري تزكم أنفه... والحرارة ثلاثون درجة في غرفة غاصة بالناس، فلا يكاد يستطيع أن يتنفس... وهو هو ذا يسمع حدثاً عن مقتل امرأة كان قد رآها بالأمس... وهو فوق ذلك خاوي المعدة... أفعجib أن يغمى على هذا الشاب حينذاك؟ كيف يبنون كل تلك الافتراضات السخيفية على إغمانه ذاك؟ شيطان يأخذهم!... اسمع يا روديا! أنا أدرك أن هذا أمر يشير الغيط. ولكنني لو كنت في مكانك لما زدت على أن أضحك منه... لما زدت على أن أضحك عليهم، أمام أنوفهم، بل وأن أبصق في وجوههم... أن أرمي وجوههم بسيول من البصاق، وأن أكيل لهم صفعات يحسون بها إحساساً قوياً... أبصق عليهم! أقول لك أبصق عليهم، لا تكتشب! من المخزي أنك تهتم بالأمر!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «تكلم فأحسن الكلام على كل حال!»

ثم قال لرازوميixin بمراة:

- أبصق عليهم؟ ولكنني سأشفع في غير لاستجواب جديد. هل يجب عليّ حقاً أن أصل إلى حد تقديم شروح وتعليلات، بينما أنا ساخط على نفسي منذ الآن لأنني أهنت نفسي إذ ارتضيت أن أكلم زاميوتوف بالأمس في الحانة... .

- شيطان يأخذهم. سأذهب إلى بورفيرى بنفسي. ولا تصرف معه تصرف قريب من أقربائه. لا بد أن يفرغ جعبته. أما زاميوتوف... .

قال راسكولنيكوف لنفسه: «أخيراً فهم».

وصاح رازوميغين قائلاً وهو يمسكه من كتفه:

- انتظر! انتظر! لقد قلت حماقة من الحماقات. نعم، فكّرت في الأمر، فأيقنت أنك قلت حماقة من الحماقات. ما هذا الذي تذكره عن فخ نصب لك؟ أين الفخ في هذا؟ أنت تزعم أن مسألة العمال هذه فخ. ولكن فكر قليلاً: لو كنت فعلت ذلك الأمر، أفكنت تستسلم فتذكرة أن الشقة كانت تذهبن... وأنك فوق ذلك قد رأيت العمال؟ بالعكس. ما كنت لتذكرة أنك رأيت عمالاً، حتى ولو كنت قد رأيتهم. من ذا الذي يشهد على نفسه؟

أجاب راسكولنيكوف يقول على مضض، مشمتزاً اشمتزاً واضحاً:

- لو كنت قد فعلت ذلك الأمر، لذكرة حتماً أنني رأيت العمال والشقة.

- ولكن لماذا يشهد المرء على نفسه؟

- لأنه ما من أحد غير الفلاحين السُّدُج أو الأغرار الذين ليس لهم خبرة ينكر كل شيء على الإطلاق حين يُستجوب. أما الإنسان الذي يملك ولو أقل قدر من الذكاء والخبرة، فإنه لا يفوته أبداً، في حدود الإمكان، أن يعترف بالواقعية الخارجية التي لا سبيل إلى إنكارها، وإنما هو يحاول أن يؤولها تأويلاً آخر، أن يرتبها على النحو الذي يريد، أن يضفي عليها دلالة غير متوقعة، فإذا هي تفسّر تفسيراً جديداً وتُرى في ضوء جديد. ولقد كان بورفيرى يأمل أن أجيب قطعاً بهذه الطريقة، أي أن أذكر له أنني رأيت العمال، من باب إضفاء مزيد من مظهر الصدق على أقوالي، ثم أضيف إلى ذلك تفسيراً ما.

- ولكن لو فعلت ذلك لأجابك فوراً بأنه لم يكن هناك عمال قبل مقتل العجوز بيومين، فلا بد إذن أنك كنت هنا لك يوم مقتل العجوز بعد الساعة السابعة... ولضياعك هذا الأمر التافه!

- ذلك بعينه هو ما كان يعوّل عليه ويأمل فيه. كان يأمل أن لا يتسع

وقتي لتفكير، فإذا أنا أسارع إلى تقديم الجواب الذي يضفي على أقوالي مظهر الصدق، ناسيًا أن العمال لم يكونوا هناك قبل وقوع الجريمة بيومين.

- وكيف تنسى هذا؟

- لا أسهل من نسيانه! وفي مثل هذه التفاصيل التافهة أنما يرتكب أمكر الناس بأكبر سهولة. لا يصدق الرجل الماكر أن الأمور التافهة قد توقعه في الفخ. فكلما كان مكر المرأة أكبر كانت الأمور الأبسط هي التي توقعه في الفخ. ليس بورفيرى غياباً إلى الحد الذي تصوره.

- هو وغد كبير على كل حال!

لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الضحك. ولكنه في الوقت نفسه قد استغرب هذه الحماسة وهذا التلذذ اللذين سيطرا عليه وهو يقدم هذا الشرح، ألم يكن قد أجرى ذلك الحديث كله مشتمزاً، مكرهاً، مستجبياً لدعاعي الحساب وحده. قال لنفسه: «لا شك أن بعض نقاط هذه القضية تجد هوى في نفسي؟».

ولكنه في تلك الدقيقة نفسها بدا عليه القلق فجأة، لأن فكرة غير متوقعة، فكرةً تبعث على الخوف قد ساورته على حين بغتة. وازداد قلقه. وكانا قد وصلنا إلى باب عمارة باكالايف.

قال راسكولنيكوف فجأة:

- ادخل وحدك، وسأرجع حالاً.

- ولكن إلى أين تذهب؟ لقد وصلنا!

- يجب عليَّ أن... يجب عليَّ أن... هناك عمل ينبغي أن أقوم به. سأعود بعد نصف ساعة. قل لهم هذا.

- لك ما تشاء، ولكنتني أذهب معك.

فهتف راسكولنيكوف يقول بحنق يبلغ من المرارة والكره أن رازوميخين شعر بحيرة وارتباك:

- أأنت أيضاً ت يريد إذن أن تعذبني؟

وظل رازوميixin بعض الوقت واقفاً على درجات المدخل، مظليم الهيئة، ينظر إلى راسكولنيكوف الذي كان يمضي بخطى مد IDEA في اتجاه الزقاق المؤدي إلى بيته. وأخيراً كرَّ أستانه، وشَّجَ قبضته، وحلَّ ليُعصرَ بورفيرى في ذلك اليوم نفسه؛ وصعد يهديه روع بولخيريا الكسندروفنا التي كانت قلقة من تأخيرهما الطويل منذ ذلك الحين.

وصل راسكولنيكوف أمام بيته مبلل الصدغين بالعرق، لا هثاً يتنفس تنفساً شاقاً. وصعد السلم مسرعاً ودخل غرفته التي لم يكن قد أغلق بابها، وأسرع يوصى عليه من الداخل بالكلابة. ثم هرع، وقد جُنِّ جنونه رعباً وذرعاً، أسرع نحو الركن الذي كان فيه الثقب الذي يخفيه ورق الجدار، والذي كان قد خَلَّ فيه الأشياء المسروقة في ذلك اليوم. دسَ يده في الثقب، وظل ينبشه بكثير من العناية خلال عدة دقائق، سابراً جميع الشقوق وجميع ثنيات الورق. فلما لم يعثر على شيءٍ نهض فتنفس تنفساً عميقاً. لقد تخيل منذ قليل، حين وصل مع رفيقه إلى عمارة باكالايف، تخيل فجأةً أن من الممكن أن يكون أحد الأشياء التي أودعها في هذا الثقب، كسلسلة صغيرة أو زرَّ كم أو حتى الورقة التي لفَتْ بها هذه الأشياء وعليها كتابة بخط العجوز، أن يكون أحد هذه الأشياء قد اندرس في شق من الشقوق على نحو من الأنحاء، فإذا هو يظهر بعد ذلك قرينة قاطعة أو دليلاً ثابتاً لم يكن متوقعاً ولا يمكن إنكاره.

لبث راسكولنيكوف واقفاً هناك كالمشدوه، ثم إذا بابتسمة غريبة ذليلة تدور على شفتيه. وأخيراً تناول قبعته وخرج من الغرفة صامتاً. كانت أفكاره مشوشة مضطربة. ومرة تحت باب المدخل الكبير شارد الفكر حالماً.

صاحب صوت ضخم قائلاً:

- هذا هو!

فرفع راسكولنيكوف رأسه.

كان الباب واقفاً على عتبة حجرته، يومئذ إلى راسكولنيكوف لرجل قصير القامة يبدو عليه أنه بائع صغير، يرتدي معطفاً أشهب بثوب من ثياب المنزل وفوقه صديرة، إذا رأه الرائي من بعيد ظنه امرأة، وعلى رأسه قبعة متسخة، ورأسه مائل على صدره؛ وبدا كأنه محدودب، ويدل وجهه الرخو المتغضن على أنه في نحو الخمسين من عمره على أقل تقدير، وتعبر عيناه الصغيرتان المترمتان عن قسوة وتجهم واستياء.

سؤال راسكولنيكوف الباب وهو يقترب:

- ماذا هنالك؟

فرشقه البائع الصغير بنظرة من تحت، وحدق إليه يتفحصه بانتباه ودون تعجل، ثم استدار ببطء وابتعد عن باب المدخل وسار في الشارع دون تعجل ودون أن يقول كلمة واحدة.

هتف راسكولنيكوف يقول:

- ولكن ماذا هنالك؟

فأجابه الباب:

- هو رجل سألني هل يسكن في هذه العمارة طالب. وقد ذكر اسمك، وسأل كذلك عن الشخص الذي تقيم عنده. فلما نزلت أنت في تلك اللحظة نفسها دللته عليك، فإذا هو ينصرف... على التحو الذيرأيت.

كان الباب مدھوشًا هو أيضاً، لكن دهشته لم تكن قوية كثيراً. وقد فكر لحظة، ثم استدار وعاد يدخل حجرته.

هرع راسكولنيكوف يجري في أثر البائع الصغير، فسرعان ما لممحه سائراً في الجهة الأخرى من الشارع، بخطى متزاوية بطيئة، مطرقاً إلى الأرض، كأنه يفكر في شيء ما. ولم يلبث راسكولنيكوف أن لحق به،

ولكنه اكتفى في أول الأمر بأن يسير وراءه. ثم أدركه أخيراً، فألقى على وجهه نظرة مواربة. فلاحظه الرجل فوراً، فألقى عليه نظرة سريعة لكنه عاد يخفي عينيه. وسار الرجالان على هذا النحو جنباً إلى جنب مدة دقيقة دون أن يقول أحد منهم شيئاً.

وأخيراً قال راسكولنيكوف بصوت غير عال لسبب ما:

- سأله عنـي ... الـبـواب ...

فلم يجـبه الرـجل، حتى إنـه لم يـرفع إلـيـه بـصـرـه. وـسـادـ صـمـتـ جـدـيدـ. عـادـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ يـقـولـ بـصـوـتـ مـخـتـنـقـ، فـلاـ تـخـرـجـ الـأـلـفـاظـ منـ صـدـرـهـ إـلـاـ بـعـنـاءـ كـبـيرـ:

- إنـكـ قدـ جـثـتـ تـسـأـلـ عـنـيـ ... وـهـاـ أـنـتـ ذـاـ تـصـمـتـ الـآنـ ... فـماـ معـنـيـ هـذـاـ؟

فرـفـعـ الرـجـلـ عـيـنـيـ فـيـ هـذـهـ المـرـةـ، وـحـدـقـ إـلـىـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ بـنـظـرةـ قـاتـمـةـ مشـئـومـةـ، وـقـالـ لـهـ بـصـوـتـ خـافـتـ لـكـهـ وـاضـحـ مـتـمـيزـ:

- قـاتـلـ!

كان رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ يـسـيرـ إـلـىـ جـانـبـهـ. فـلـمـ سـمعـ مـنـهـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ، ضـعـفتـ سـاقـاهـ ضـعـفاـ رـهـيـاـ، وـسـرـتـ فـيـ ظـهـرـهـ رـعدـةـ بـارـدـةـ، وـتـوقـفـ قـلـبـهـ عنـ الـخـفـقـانـ لـحـظـةـ، ثـمـ أـخـذـ يـخـفـ خـفـقـانـاـ شـدـيدـاـ كـأـنـهـ قـدـ انـهـارـ اـنـهـيـارـ كـامـلـاـ عـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ. وـسـارـاـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ مـسـافـةـ مـائـةـ خطـوةـ، جـنـبـاـ إـلـىـ جـنـبـ، فـيـ صـمـتـ مـطـلـقـ. وـكـانـ الرـجـلـ لـاـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ.

تمـمـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ يـقـولـ أـخـيرـاـ بـصـوـتـ لـاـ يـكـادـ يـسـمعـ:

- ولـكـنـ مـاـذـاـ تـرـيـدـ أـنـ ... مـنـ ... مـنـ هوـ القـاتـلـ؟

فـقـالـ الرـجـلـ بـصـوـتـ فـيـهـ مـزـيدـ مـنـ الـوـضـوحـ، وـفـيـهـ مـزـيدـ مـنـ الـجـزـمـ أـيـضاـ:

- القـاتـلـ أـنـتـ!

وبنوع من ابتسامة تعبّر عن كره وانتصار، نظر إلى راسكولنيكوف من جديد، متفرساً في وجهه الشاحب وعينيه المنظفتين. وكان قد وصل إلى مفترق، فسار الرجل يسرّه، وابتعد دون أن يلتفت. وظل راسكولنيكوف مسّمراً في مكانه يتبعه بنظراته مدة طويلة. حتى إذا قطع الرجل المجهول مسافة خمسين خطوة، رأه راسكولنيكوف الذي ما يزال جامداً في مكانه، رأه يلتفت وينظر إليه. رغم أن الرؤية كانت غير واضحة فقد بدا لراسكولنيكوف أن الرجل يبتسم من جديد ابتسامة فيها برودة، وانتصار، وكره.

فقبل راسكولنيكوف راجعاً إلى بيته، يسير بخطى مترنحة، مصطك الساقين، في جسمه قشعريرة. فلما وصل إلى غرفته خلع قبعته فوضعها على المائدة، ولبث واقفاً خلال عشر دقائق كاملة لا يستطيع حراكاً. ثم استلقى على أريكته مهدود القوى، ومدّ ساقيه وذراعيه وهو يئن أنيناً واهناً شاكياً. وانطبقت أجنفانه. وظل راقداً على هذه الحال قرابة نصف ساعة.

لم يكن يفكر في شيء. لا شيء إلا بضع خطرات، أو قل بضع شذرات من خطرات كانت تتلاحق في فكره فوضى بغير نظام ولا اتصال ولا اتساق: وجوه أفراد كان قد رأهم في ماضيات الأيام، أثناء طفولته، وجوه صادفها مرّة واحدة ثم لم يتذكرها في أحواله العادبة بعد ذلك قط؛ برج أجراس الكنيسة . . .؛ بلياردو في خماره وضابط يقف قرب هذا البلياردو؛ رائحة سجائر في محل لبيع التبغ في قبو؛ سلم خماره من الخمارات، مظلم جداً يؤدي إلى الفناء، مملوء بالقادورات، قد تناثرت على درجاته قشور بيض، بينما يترامي إلى المكان رنين النواقيس في يوم الأحد . . . وهذه الأشياء تتلاحق سريعةً كأنما يحملها إعصار. ومنها أشياء ممتعة يتثبت بها راسكولنيكوف ويتسلى عليها، ولكنها تغيب وتزول؛ ويظل في نفسه شيء ما يشتعل على قلبه، ولكنه لا يسرف في إيلامه . . . حتى لقد يحس أحياناً بارتياح وهناء. وثمة رعدة خفيفة لا تبارحه. وهذه أيضاً لذيدة . . .

سمع راسكولنيكوف وقع أقدام متوجلة، وسمع صوت رازوميixin، فأغمض عينيه متظاهراً بالنوم. فتح رازوميixin الباب، ولبث على العتبة متربداً لحظة. ثم دخل الغرفة بهدوء ورفق، واقترب من الأريكة محاذراً، وسمعت وشوشة ناستاسيا قائلةً:

- لا تزعجه. ليهم ما شاء أن ينام! سأأكل فيما بعد.

ويجيئها رازوميixin:

- أنت على حق.

ويخرج رازوميixin وناستاسيا بهدوء، ويغلقان الباب. انقضى على هذه الحال نصف ساعة. وفتح راسكولنيكوف عينيه، ثم تهالك على ظهره من جديد، مصالباً يديه وراء رأسه...

«من كان ذلك الرجل؟ ما هو ذلك الرجل الذي خرج من تحت الأرض؟ أين كان وماذارأى؟ لا ريب في أنهرأى كل شيء. ولكن أين كان يتوارى؟ من أين كان يراقب ويرصد؟ ولماذا لم يخرج من تحت الأرض إلا الآن؟ كيف استطاع أن يرى؟ هل هذا ممكن؟ هنم...»

كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف، ثم تابع تساؤلاته وقد اعتبرته رعدة باردة سرت في ظهره فارتعش: «والعلبة التي وجدها نيكولي وراء الباب؟ هل كان يمكن أن يتصور المرء شيئاً كهذا؟.. قرائن قاطعة؟ أدلة ثابتة؟ أيكفي إغفال شيء صغير كحبة رمل حتى يظهر دليلاً ضخماً كأهرام مصر! ذبابة طارت، فرأأت الذبابة كل شيء... هل يتصور أحد هذا؟» وبأشمئزاز عميق أدرك راسكولنيكوف ضعفه، أحسن وهن جسمه.

قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرأة: «كان ينبغي لي أن أتصور هذا! كيف تجرأت، وأنا أعرف نفسي، وأنا أتنبأ بقدرتي وطاقتني، كيف تجرأت وتناولت فأساً ولطخت يدي بالدم؟ كان يجب عليَّ أن أعرف هذا سلفاً... آ... ولقد كنت أعرفه سلفاً بالفعل!».

هكذا دمدم يقول وقد بلغ غاية الكرب واليأس.

وكانت تدور في رأسه أحياناً فكرة تسله شلاً. قال يحدث نفسه:

«لا، لا، إن أولئك الرجال هم من طينة أخرى غير طينتي! إن المسيطر<sup>(66)</sup> الحقيقي، الذي يجوز له كل شيء، يقصف طولون بالمدافع، ويقوم بمذبحة في باريس، وينسى جيشه بمصر، وينفق نصف مليون من الرجال في حملة موسكو، ثم يتملص من القضية في فلنو بجملة تشتمل على تلاعب بالألفاظ ثم تقام له التماشيل بعد موته. كل شيء مباح إذا له! لا، إن أولئك الرجال ليسوا من لحم بل من برونز».

وومضت في فكر راسكولنيكوف فكرة مفاجئة فكاد يضحك. قال يحدث نفسه: «نابوليون، أهرامات مصر، واترلو، ثم عجوز مرأبة ناحلة سافلة هي أرملة موظف صغير، تخفي تحت سريرها صندوقاً من جلد أحمر... كيف يمكن تشبيه هذا بذلك، كيف يستطيع إنسان أن يبلغ هذا حتى ولو كان بورفيرى بتروفتش؟ كيف يمكنهم أن يهضموا هذا؟ إلا أن الجمال الفني نفسه يرفض ذلك: «هل كان يمكن أن يندس نابوليون تحت سرير عجوز حقيرة؟ يا للصغراء!»

وكان راسكولنيكوف يحس في بعض اللحظات بأنه يهذى، وكان يحس باندفاعات فيها حمى! ..

قال يحدث نفسه بحمى مسحورة: «ليست العجوز شيئاً ذا بال. العجوز ليست إلا خطأ. ولكن القضية ليست قضية العجوز. العجوز ليست إلا مرضًا... وقد أردت أن أقفز فوق الحاجز وأن أتخطاه بسرعة. أنا لم أقتل كائناً إنسانياً، وإنما قتلت مبدأ. ولكن لئن قتلت المبدأ، فإنني لم أستطيع أن أتخطاه، بل بقيت في الجهة التي كنت فيها. كل ما استطعت أن أفعله هو أنني قتلت. حتى إنني كما تبين، لم أعرف كيف أقتل... هو المبدأ؟ لماذا كان هذا الغبي رازوميixin يهاجم الاشتراكيين منذ قليل؟ هؤلاء أناس عاملون، جادون، يهتمون «بسعادة البشر العامة الشاملة»<sup>(67)</sup>. لا، لا، لقد وُهبت لي الحياة مرة واحدة إلى الأبد، ولن أعرف حياة أخرى ولا أريد أن انتظر «السعادة الشاملة».

أريد أن أحيا شخصياً، وإنما فالأفضل أن لا أحيا البتة. أي عيب في هذا؟ أنا لم أزد على أن رفضت أن أمر بأم جائعة، قابضاً على قروشني في جيبي، متظراً لتحقيق «السعادة العامة الشاملة»، «لقد حملت حجري إلى المبني الذي يُشاد لتحقيق السعادة العامة الشاملة، ومن ذلك أستمد طمأنينة القلب وسكونية النفس!» ها ها! لماذا نسيتمني؟ أنا ليس لي إلا حياة واحدة، وإنني لأريد أن أحياها! آه... ما أنا إلا قملة محشوة بأفكار فنية. ذلك أنا. ولست شيئاً آخر. (كذلك أضاف يقول فجأة وهو ينفجر في ضحك كضحك المجانين). نعم، أنا قملة فعلاً (هكذا تابع يقول بفرح خبيث وهو يتثبت بفكرته متلذذاً بها): أولاً لأنني أفكر كما أفكر في هذه اللحظة مستدلاً على أنني قملة؛ ثانياً لأنني لبشت شهراً بكامله أزعج العناية الإلهية، وأشهدها على أنني لم أقرر أن أفعل ما فعلت عن هوئي مني بل في سبيل غاية عظيمة وهدف كبير... ها ها، وثالثاً لأنني قررت أن أسلك إلى فعلتي كل العدالة الممكنة، فراعيت في تنفيذها الوزن والقياس والحساب: ألم أختر من بين جميع قمل الكون قملة هي أقل القمل جدو؟ وحين قتلتها، ألم أكن أنوي أن لا أخذ منها إلا ما كنت في حاجة إليه لأخطو خطوتي الأولى (ثم يذهب الباقى إلى الدبر تنفيذاً لوصيتها، ها ها!). نعم، أنا قملة قطعاً (هذا ما أضافه إلى قوله وهو يضغط على أسنانه)، بل لعلني أحق وأسوأ من قملة مسحوقه، لأنني كنت أعلم سلفاً، كنت أتبأ سلفاً بأنني بعد قتلها سأقول لنفسي هذا الكلام! هل في العالم كله شيء يمكن أن يقارن بفظاعة بهذه الفظاعة؟ يا للوضاعة! يا للحقارة! إلا أنني لأفهم أعمق الفهم ذلك «النبي» الممتنع صهوة جواهه، المشهور سيفه، القائل: الله يريده هذا، فأطعه واحضر أيها المخلوق «المرتعش»<sup>(68)</sup>! لقد كان على حق، كان على حق تماماً، ذلك النبي، الذي صفت المدافع في عرض الشارع وأمر بإطلاق القذائف على الأبرياء والجناة على السواء، ولم يرض حتى أن يشرح سلوكه وأن يسوّغه. أطع أيها المخلوق المرتجف، وحذار أن ترغب في أي شيء، فليس هذا شأنك أنت!..

آه... لن أغفر لهذه العجوز في يوم من الأيام، في يوم من الأيام،  
بحال من الأحوال!»

كان شعره مبتلاً بالعرق، وكانت شفاته المختلجنان مصوّحتين، وكان  
بصره يحدُق إلى السقف بنظرة ثابتة.

«أمي، أختي، لشد ما كنت أحبهما! فلماذا صرت أكرههما الآن؟  
أجل، أنتي أكرههما، أكرههما جسماً، لا أطيق أن أحتمل وجودهما  
إلى جانبي!.. منذ قليل، اقتربت من أمي وقبلتها... أنتي أتذكر  
هذا... عانقتها وتساءلت: تُرى لو كانت تعلم... أقول لها إذن?  
هذا ما أستطيعه... هُنَّ لا شك في أنها مثلي (كذلك أضاف يقول  
بجهد، كأنه يقاوم الهديان الذي يجتاحه). أوه! لشد ما أكرهها الآن،  
تلك العجوز! أعتقد أنتي مستعد لأن أقتلها مرة أخرى لو بعثت حية!  
مسكينة اليزافيتا! لماذا وجدت هناك؟.. ومع ذلك لا تخطر ببالِي إلا  
قليلًا، فكأنني لم أقتلها! ما أغرب هذا! اليزافيتا، صونيا! يا للبنتين  
المسكيتين، المتواضعتين، الوديعتين... الراخمة أعينهما رقة وعدوية!  
يا هذه المخلوقات العزيزة، لماذا لا تبكين؟ لماذا لا تثنين؟ إنها تعطي  
كل شيء، وتنظر إليك نظرة تفيض رقة وهدوء وسكينة!.. صونيا!  
صونيا! يا صونيا الوادعة!»

وأغمي على راسكولنيكوف. واستغرب كيف أمكن أن لا يتذكر كيف  
وجد نفسه مرة أخرى في الشارع. الوقت متاخر. الظلمات تتکائف.  
البدر يسطع وما ينفك يقوى. ولكن الجو خانق. أناس كثيرون يسيرون  
في الشوارع. في بعضهم من الحرفيين والعمال يعودون إلى بيوتهم،  
وبعضهم يتنتزهون. وفي الهواء رائحة كلس وغبار ومياه مستنقعة.  
وراسكولنيكوف يمشي حزيناً مهوماً. وهو يتذكر أنه خرج على نية  
معينة محددة؛ هو يعرف أن عليه أن يتوجه القِيام بأمر من الأمور،  
ولكنه أصبح لا يدرِّي ما هو ذلك الأمر على وجه الدقة. وها هو ذا  
يتوقف فجأة، فيرى في الجهة الأخرى من الشارع، على الرصيف،

رجلًا يومئ له بيده. أخذ يقطع الشارع ليمضي إليه، ولكن الرجل استدار وابتعد فجأة مطرق الرأس، كأن شيئاً لم يكن، حتى دون أن يلتفت وكأنه لم يناديه. تساءل راسكولنيكوف وقد أخذ يلاحقه: «هل ناداني حقاً؟». ولكنه وعن مسافة عشر خطوات تعرف إليه بفتحة فاستولى عليه رعب: إنه ذلك البائع الصغير نفسه، بمعطفه الذي يشبه ثوباً من ثواب المنزل، وبظهره المحدودب. تبعه راسكولنيكوف من بعد، خافق القلب. ودخل الاثنين في شارع صغير. ما زال الرجل لا يلتفت. تساءل راسكولنيكوف: «هل يعرف أنني أمشي وراءه؟». عبر البائع الصغير مدخل عمارة من العمارات. اقترب راسكولنيكوف من الباب بسرعة كبيرة، ونظر: ثُرى ألن ينظر إليه هذا الرجل، ألن يناديه؟ وها هو ذا الرجل يلتفت على حين فجأة فعلاً، حين صار في فناء المنزل، في يومئ له بفتحة من جديد. ولจ راسكولنيكوف مدخل العمارة، ولكن ما أمن مرّ تحت الباب حتى اختفى الرجل من الفناء. لا يمكن إلا أن يكون الرجل قد دخل السلم الأول الذي يقع هنا. اندفع راسكولنيكوف يلاحقه. وكانت ما تزال تسمع، فعلاً، بعد طابقين، أصوات وقع أقدام تسير بخطى منتظمة بطيئة. شيءٌ غريب: إن السلم لا يبدو لراسكولنيكوف مجهولاً. هذه نافذة الطابق الأول. إن ضياء القمر، الحزين السري، يتسلل من خلال الزجاج. وهذا هو الطابق الأول. عجيب: إنها الشقة التي كان يعمل فيها الدهانون!.. كيف لم يتعرّف ذلك فوراً؟ سكتت أصوات خطوات الرجل الذي كان يتقدمه: «لقد توقف إذاً، أو اختباً في مكان ما». وهذا هو الطابق الثاني. هل يجب على راسكولنيكوف أن يصعد إلى أعلى؟ إن الصمت رهيب جداً! وظل راسكولنيكوف يصعد رغم ذلك. إن أصوات وقع أقدامه هو نفسه تقلقها، ترعبه. رباء! ما أحلك هذا الظلام! لا شك في أن الرجل المجهول قد اختباً في مكان ما، في ركن ما. آه... إن باب الشقة مفتوح على سعته كلها! فكر راسكولنيكوف لحظة، ثم دخل. الدهليز مظلم خال، والأثاث يبدو أنه نقل. تقدم راسكولنيكوف إلى الصالون سائراً على رؤوس الأصابع في

رفق وهدوء: إن ضوء القمر الساطع يغمر الغرفة. كل شيء في الصالون ما يزال كما كان: الكراسي، المرأة، الديوان الأصفر، الصور في أطراها. وهذا قمر ضخم، أحمر بلون النحاس، مدور تماماً، يُطل من النافذة رأساً. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «عن القمر إنما يصدر هذا الصمت... لا شك في أن القمر يحاول الآن أن يفصح سرًا من الأسرار، أن يكشف لغزاً من الألغاز!» ظل راسكولنيكوف ساكتاً جامداً ينتظر، فكلما ازداد القمر صمتاً ازداد خفقان قلبه شدة وعنفاً حتى أصبح يؤلمه. وما يزال الصمت مخيماً! وفجأة تطلق قرقعة جافة كقرقة غصن ينكسر، ثم يصمت كل شيء من جديد. وهذه ذيابة تستيقظ وتتطير فتصدم الزجاج، وتتدنن بصوت كأنه شكرة وأنين. وفي تلك اللحظة نفسها يميز راسكولنيكوف، في الركن، بين الخزانة الصغيرة والنافذة، شيئاً يشبه معطف معطف امرأة، يتدلّى على الحائط: تساؤل راسكولنيكوف: «لماذا يوجد معطف هنا؟ لم يكن في هذا المكان معطف من قبل!». واقترب سائراً بخطى بطيئة، وحذر أن أحداً لا بد أنه يختبئ وراء هذا المعطف. وأزاح المعطف محاذراً، فرأى كرسيًا، ورأى العجوز جالسة على الكرسي، متكومة على نفسها، خافضة رأسها بحيث لم يستطع أن يرى وجهها. لكنها هي العجوز ما في ذلك ريب. ليث واقفاً إلى جانبها لحظة. قال لنفسه: «إنها خائفة» ثم أخرج الفأس من العلاقة برفق وهدوء، فهو يها على قمة جمجمة العجوز، مرة أولى، فمرة ثانية. ولكن الشيء الغريب أن العجوز لم تترنح تحت الضربات. لكانها من خشب. خاف راسكولنيكوف، ومال على العجوز يتفحصها عن كثب. كل ما هنالك أن رأسها قد انخفض مزيداً من الانخفاض. أنحني راسكولنيكوف عندئذٍ انحناة كاملاً حتى الأرض، ونظر إليها. نظر إليها فتجمد من الرعب. كانت العجوز تضحك وهي جالسة على كرسيها، تضحك ضحكاً كبيراً يهزُ جسمها كله، ولكنه ضحك لا يكاد يدرك، فهي تخنقه حتى لا يكاد يسمعه راسكولنيكوف. وبدأ له فجأة أن باب غرفة النوم يُشق، وأن وراء الباب أيضاً أناساً

يضحكون ويتهامسون. استولى عليه الغضب. فأخذ يضرب العجوز على رأسها بكل ما يملك من قوة، ولكن الضحك والتهامس الصادرين عن غرفة النوم يزدادان وضوحاً وقوة كلما هو على رأس العجوز بضربيه جديدة. والعجوز نفسها قد أصبح جسمها يهتز الآن كله من شدة الضحك. أراد راسكولنيكوف أن يهرب. ولكن الدهليل كان قد امتلاه الناس. وكان الباب الذي يفضي إلى السلم مفتوحاً على سعته كلها. وكان السلم ممتنعاً بالناس كذلك من أسفله إلى أعلىه. جمهور كبير. حشد هائل. رؤوس ثم رؤوس. والجميع ينظرون إليه، ولكنهم في الوقت نفسه يختبئون، ويتظرون، ويصمتون! .. انقبض قلبه، ورفضت ساقاه أن تتحرك، فكانهما قد أصبحتا لهما جذور في الأرض. أراد أن يصرخ. وأفاق من إغمائه.

استرد أنفاسه في جهد وعناء. ولكن الشيء الغريب أنه تراءى له أنه ما يزال يحلم. كان باب غرفته ما يزال مفتوحاً على سعته كلها. وكان يقف على عتبة الباب رجل لا يعرفه راسكولنيكوف إطلاقاً، رجلٌ كان يتفرس فيه بالاحاح.

ما كاد راسكولنيكوف يفتح عينيه تماماً حتى عاد يغمضهما فوراً. كان مستلقياً على ظهره لا يقوم بأية حركة. قال يسأل نفسه: «أهو الحلم ما يزال مستمراً أم لا؟» وفتح جفنيه قليلاً ونظر: كان الرجل المجهول ما يزال واقفاً في المكان نفسه يحدق إليه. ثم ها هو ذا يجتاز العتبة محاذراً، ويغلق الباب وراءه إغلاقاً محكماً. ويقترب من المائدة، وينتظر دقيقة دون أن يحول بصره عن راسكولنيكوف، ثم يجلس على الكرسي قرب الديوان هادئاً صامتاً. وضع الرجل المجهول قبعته على الأرض إلى جانبه، ثم أنسد يديه إلى مقبض عصاه، وألقى بذقنه على يديه. كان واضحاً أنه يتھيأ لانتظار طويل. إذا صحَّ ما استطاع راسكولنيكوف أن يلاحظه من خلال أجنفاته التي كانت أشبه بالمغمضة، فإن هذا الرجل كان قد تجاوز الشباب، وكان قوي البنية، عريض

المنكبين، كثيف اللحية، زاهي الشقرة حتى لتكاد تكون شقرته  
بياضاً . . .

انقضت عشر دقائق. لم يكن الظلام قد هبط بعد، ولكن المساء  
يقرب. إن صمتاً كاملاً يسود الغرفة. حتى السلم لا تصل منه أية  
ضجة. ليس يسمع شيء إلا دندنة ذبابة ضخمة كانت قد صدمت الزجاج  
أثناء طيرانها. نفذ صبر راسكولنيكوف فنهض فجأة وجلس على  
الديوان، وقال يخاطب الزائر المجهول:

- هيء . . . تكلم . . . ماذا تريد؟

فأجابه الزائر المجهول بلهجة غريبة عجيبة، وهو يطلق ضحكة  
هادئة:

- كنت أعلم أنك لست نائماً، وأنك تتوهّر بالنوم تظاهراً. اسمح  
لي أن أعرّفك بنفسي: آركادي إيفانوفتش سفدريجايلوف.

## الهوامش

- (1) الأمير ميشكين بطل رواية «الأبله»، وايفان كارامازووف أحد أبطال رواية «الأخوة كارامازووف» وستافروجين أحد أبطال رواية «الأبالسة».
- (2) «زفاف س...»: هو زفاف ستوليارني بريتولوك، أي «زفاف النجارين»، القريب من «سوق العلف»، حيث أقام دوستويفسكي من سنة 1864 إلى سنة 1867.
- (3) «سوق العلف»، هو ميدان محاط بحانات وخمارات وفنادق رخيصة.
- (4) «تسيرمان»: رجل ألماني كان يملك محلًا لأزياء القبعات.
- (5) «راسكولنيكوف»: أشتقت المؤلف اسم راسكولنيكوف من الكلمة الروسية «راسكولنيك» ومعناها المنشق، ليشير بذلك إلى انشقاق بطل الرواية عن آراء المجتمع. وفي الصياغة الأولى لهذه الرواية، أي الصياغة التي جعل دوستويفسكي عنوانها: «يوميات راسكولنيكوف»، أطلق المؤلف على بطله اسم «فاسيا». ولعله لاحظ بعد ذلك أن اسم «فاسيا» ألطف وأرق من أن يطلق على هذا البطل فجعل اسمه ونسبته إلى أبيه: «روديون رومانوفتش».
- (6) «أليونا» تلطيف شعبي لاسم إيلينا (هيلانة).
- (7) «بودياتشسكايا»: أي شارع القسس، وهو أحد شوارع وسط مدينة بطرسبرج، قرب «سوق العلف».
- (8) ... ولقبى مستشار اعتباري... كان «جدول الرتب»، أي لائحة الرتب ونظام الوظائف المدنية المعمول بها في روسيا منذ عام 1722 حتى 1917، يقسم الرتب المدنية كلها إلى 14 طبقه (درجة) (أعلى درجة هي الأولى وأدنى درجة هي الرابعة عشرة). وكان لكل رتبة وظيفة معينة. والمستشار الاعتباري رتبة من الدرجة التاسعة تعادل رتبة النقيب في الجيش.
- (9) «بطاقتها الصفراء»: هي بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالموسمات.
- (10) «كل خبيء مآل إلى ظهور»: إشارة إلى النص الوارد في إنجيل متى (الإصحاح

- (العاشر: 26): «ليس مكتوم لن يستعلن، ولا خفي لن يعرف».
- (11) إنجليل يوحنا. الإصحاح التاسع عشر: 5.
- (12) «إبني أشبه الوحش كل الشبه»: إشارة إلى الوحش الذي جاء ذكره في رؤيا يوحنا.
- (13) «نالت ميدالية ذهبية»: في المدارس الثانوية والمعاهد في روسيا كان نجاء التلاميذ ينالون عند حصولهم على شهادة البكالوريا ميدالية ذهبية.
- (14) «ليويس»: ج. ه. ليويس (1817 - 1848)، فيلسوف إنجليزي. ألف كتاباً بعنوان «فزيولوجية الحياة العامة» ترجم إلى اللغة الروسية 1861 وراج رواجاً كبيراً في روسيا، ولا سيما في أوساط الشباب الديمقراطية.
- (15) «صونينا»، «دونيشكا»: تصغير اسم صونينا، تحبباً وملائفة.
- (16) «مستشار الدولة»: موظف من الدرجة الخامسة.
- (17) كاربناؤوف: نسبة إلى كفرناحوم التي ورد ذكرها في الانجيل.
- (18) «زاخارتش»: تخفيف اسم زاخاروفتش، والشعب يعتمد إلى هذا التخفيف مستغناً عن «فتتش» بـ«اتش». ولسوف نقع في النص على راسكولينيكوف تارة باسم روبيون رومانوفتش وتارة باسم روبيون رومانتش، وكذلك سنقع على بروكوفتش وبروكوفييفوش اسمان لشخص واحد، وهكذا دواليك.
- (19) «كلص الليل»: يستعمل مارميلاروف هنا التعبير الوارد في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي (الإصحاح الخامس، 2).
- (20) «الجسر المصري»: جسر مزين بتماثيل فرعونية على قناة فونتانكا، غير بعيد عن «سوق العلف».
- (21) ... هي تزن لوتين... لوت مقياس روسي قديم للوزن يساوي 8.12 غرام يستعمل لتحديد وزن الطرود البريدية.
- (22) «روديا»: مصرف اسم روبيون.
- (23) «دونينا»، «دونيشكا»: تصغير اسم آفدوتيا، من باب المحبة والتدليل.
- (24) «سفيدريجايروف»: إشتق المؤلف هذا الإسم من اسم سفیدریچایلو، وهو دوق كبير من ليتوانيا في القرن الخامس عشر، إشارة إلى نبلة محتد هذه الشخصية من شخصيات روايته.
- (25) «باخوس»: إله الخمر عند قدماء الإغريق.
- (26) «مستشار قضائي»: موظف من الدرجة السابعة.
- (27) ... كان مجلس الشيخ أعلى هيئة قضائية في روسيا ما قبل الثورة وكان يراقب عمل جميع المؤسسات القضائية ويعتبر في نفس الوقت محكمة الاستئناف العليا.
- (28) مائة كيلو متر تقريباً.
- (29) أي بورقتين صغيرتين قيمة كل منها روبل واحد.
- (30) ... هكذا حال نفوس شيللر الطيبة... الإشارة هنا إلى أبطال مسرحيات الشاعر

والكاتب المسرحي الألماني العظيم يوهان فريدریش شبلر (1759 - 1805) الذي تغنى بالحرية وأشاد بالمشاعر النبيلة.

(31) وسام القديسة آنا: يمنع تقديرًا لخدمة الدولة وله أربع درجات.

(32) إن الحرب التي شنتها بروسيا على الدنمارك (سنة 1864) وعلى النمسا (سنة 1866) لامتلاك دوقية شفلفسبيج وهولشتاين. وقد نشرت الجرائد والمجلات الروسية الأنباء الكثيرة عنها في الستينات من القرن التاسع عشر.

(33) كانت الصحف الروسية تتحدث كثيراً آنذاك عن سوء معاملة الزنوج في أمريكا بسبب حرب الانفصال (1861 - 1865); وكان معروفاً أن البارونات الألمان في مقاطعات البلطيق يسمون الليتوانيين سوء العذاب.

(34) يقال إن هناك نسبة مثوية لا بد أن يُضخّى بها كل عام... الحديث عن «النسبة المثلوية» الدائمة من الضحايا الذين تدفع بهم المقادير حتماً إلى طريق الجريمة والدعاية، ظهر في الصحافة الروسية في عامي 1865 - 1866 بمناسبة إصدار الترجمات الروسية لكتب العالم الرياضي والاقتصادي البلجيكي أ. كتلي وكذلك كتب الاقتصادي الألماني أ. فاجنر الذي روج لأنكار كتلي.

(35) ... فعبر الجسر واستدار إلى جهة الجزر... المقصد الجزر الواقع في نهر النيفا في ضواحي بطرسبرغ، حيث أقيمت الحدائق العامة وشيد الكثير من الفيلات الصيفية الفخمة (جزر أبيتكارسكي، يلاجين، كاميني وغيرها). وهناك كانت توجد أيضاً شتي دور اللهو.

(36) «ميكلكا»: تصغير ميكولاي (نيقولايو).

(37) «ميتكا»: تصغير دمترى، ديمترى.

(38) ... لقد أخذ هو أيضاً يجارى التيار ويتبع الاتجاهات الجديدة... كان وصف «الكتاب ذوو الاتجاهات» يطلق في ستينات القرن الماضي على الكتاب الذين يطروحون في مؤلفاتهم أفكاراً اجتماعية - سياسية تتسم بالتقدمية في غالب الأحوال.

(39) رادتشيف: كاتب من القرن الثامن عشر، نشر سنة 1870 كتابه الشهير "رحلة من سان بطرسبرج إلى موسكو" وهو كتاب عاطفي ثوري، تأثر بالأدب رانفال أكثر مما تأثر بجان جاك روسو. وقد صادرت الرقابة الكتاب، وُنفي المؤلف إلى سiberيا حيث قضى ست سنين.

(40) "جسر نيكولا": الجسر الذي يوصل من جزيرة فاسيلفسكي إلى المدينة، قرب قصر الشتاء.

(41) هي كاتدرائية القديس إسحاق الكبرى، الواقعة في وسط المدينة.

(42) تقع الجامعة في أولى جزيرة فاسيلفسكي.

(43) «باشنكا» و«باشا»: تصغير اسم باراسكينا، براسكوفيا، تحبباً؛ وبراسكوفيا هذه هي صاحبة البيت الذي يسكن فيه راسكونيكوف.

- (44) كان اللورد بالمرستون قد مات منذ مدة قصيرة، سنة 1865، وقد سُميَّ باسمه معطف ذو شكل خاص، كما يوجد معطف سُميَّ باسم لورد رجلان.
- (45) الولايات المتحدة الأمريكية، تعني هنا السراويل (البنطلون)، وهذا قائم على لعب بالتجانس اللغظي بين الكلمة «شناطي» الروسية ومعناها الدولة أو الولاية، وبين الكلمة «شناطي» ومعناها السروال.
- (46) «شارمر» خطاط على الموضة بطرسبرج في الستينات من القرن الماضي.
- (47) «قصر الكريستال»: حانة تقع غير بعيد عن مركز بطرسبرج وقد أطلق عليها دوستويفסקי اسم قصر الكريستال من باب التهمم، تشبيهاً لها «بقصر الكريستال» الذي رأه في لندن وتحدث عنه في «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف».
- (48) حي الرمال وهي كولومنا - حيان في بطرسبرج يقعان في طرفين مختلفين من المدينة. ومعنى هذا أن نيكولاي قد خلط الأمور في جوابه.
- (49) المقصود هنا هو الإصلاحات الكبرى التي تمت بين عامي 1861 و1864، أي إلغاء القنانة، والإصلاح القضائي والجزائي، وإدخال نظام «الحكم الذاتي»، إلخ.
- (50) إن لوجين يعرض هنا عرضاً عامياً نظرياً «الأناجنة العاقلة»، تلك النظرية المبسوطة في كتاب تشيرنيشففسكي: «ما العمل؟»
- (51) «هنا، طالب سابق يهاجم عربة...»: يشير دوستويف斯基 إلى هذه الواقعية في رسالة بعث بها إلى كاتكوف في شهر أيلول (سبتمبر) 1865.
- (52) «...أستاذ من أساتذة التاريخ العام»: نظر القضاء في هذه القضية وفصل فيها في شهر أيار (مايو) 1865.
- (53) لا شك في أن هذه التأملات التي تمزّ بذهن رجل محكوم عليه بالإعدام إنما احتفظ بها دوستويف斯基 من الدقائق التي عاشها قرب المقصلة في 22 كانون الأول (ديسمبر) 1849.
- (54) كان رجل اسمه إيسترل قد افتتح في ضواحي بطرسبرج حانة على الطراز الريفي فكان ينشر إعلانات كثيرة عنها في الجرائد. أما الإعلانات التي يقرأ راسكونيني코ف عنوانها «مامسيمو - بارتولا - الأزيتيكاني» فهي عن رجل أمريكي اسمه موريس كان يعرض في صيف 1865 بمدينة سان بطرسبرج «آخر شخصين من آزتيكبي المكسيك»، أحدهما بنت اسمها بارتولا، والثاني صبي اسمه مامسيمو. وكان الرجل الأمريكي ينشر إعلانات في الصحف كل يوم عن هذا العرض لاجتذاب المشاهدين.
- وأما «حريق في... وحريق آخر في...»، فهي أنباء حرائق كثيرة شبّت بمدينة سان بطرسبرج في ذلك الصيف نفسه من عام 1865، لذلك كتبت جريدة «الصوت» في عددها 166 تقول: «جميع الصحف ملأى بوصف حرائق خطيرة كثيراً أو قليلاً».

- (55) «- أرأيت؟ أوراق حمراء وأوراق زرقاء!»: الأوراق المالية الحمراء هي أوراق العشرة روبلات، أما الزرقاء فهي أوراق الخمسة روبلات.
- (56) «جسر ص...»: هو جسر «الصعود» على قناة كاترينا.
- (57) «بيوت»: اختصار شعبي لاسم مدينة بطرسبرج.
- (58) «بولي» و«بولينكا»: تصغير إسم آبوليناريا.
- (59) «ليدا» و«ليدوتشكا»: تصغير اسم ليديا.
- (60) ... كاهن يحمل الأعراض السرية... هي الخبز والخمر المقدسان وللذان يرمزان إلى لحم المسيح ودمه، ويستخدمان في المناولة وعند الاعتراف (بما في ذلك اعتراف ما قبل الموت) لدى المسيحيين. وهذه الأعراض السرية يضعها الكاهن في صندوق خاص حينما يأتي إلى المحتضر.
- (61) كان عازف البيانو روبنشتاين (1829 - 1894) عندئذ في قمة مجده.
- (62) ... إن تلك الملكة التي كانت ترقع جوريها... هي ماريا أنطروانيت (1792 - 1795) قرينة الملك لويس السادس عشر التي سُجنـت ثم أعدمت في عهد الثورة الفرنسية الكبرى.
- (63) «مقبرة متروفان»: مقبرة فقيرة تقع في جنوب العاصمة، بعد محطات القطار.
- (64) «... إلى تلك المجموعة من الأجر المقسمة مرات وغرا، التي يسمونها فالانتيريا...» تلميح إلى أحد فصول رواية «ما العمل؟» (1863) للكاتب الاجتماعي تشيرنيشيفסקי، وهو الفصل الذي يرسم صورة الحياة القادمة المشيدة على أسس اشتراكية. والفالانتيرات هي قصور ضخمة تستخدم كمساكن جماعية لأفراد المجتمع الاشتراكي القادم (حسب نظرية الاشتراكيين الطوباوين).
- (65) الساجين قياس طول روسي قديم يساوي 13.2 متراً.
- (66) المقصود نابوليون بونابرت الذي قصف طولون بالمدافع فعلاً سنة 1793 ، ورمى الملكين بالرصاص بباريس في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1795 ، وترك جشه بمصر سنة 1799 ، ويقال إنه بعد أن فقد «الجيش الكبير» قال في فلنا سنة 1812 : «ليس بين الرائع والمضحك إلا خطوة واحدة. فلتفصل الأجيال القادمة في هذا».
- (67) ... لقد حملت حجري إلى المبنى الذي يشاد لتحقيق السعادة العامة الشاملة... تهكم على الرواية «ما العمل؟» التي أعجب أبطالها بالمثل العليا للاشتراكيين الطوباوين. وتعبر «حملت حجري إلى المبنى الذي يشاد للمجتمع المقبل» كثيراً ما يتعدد في مؤلفات الاشتراكيين الطوباوين.
- (68) إشارة إلى بيت من الشعر في قصيدة بوشكين «محاكاة القرآن».

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشد القارئ، وبتعبيرها القوي عن دوافع النفس الإنسانية، وقد عبر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر - المراهق - مذلون مهانون - الجريمة والعقاب - الأباء ...

وتعتبر رواية "الجريمة والعقاب" إحدى قمم الأعمال الإنسانية، إنها ذلك اللغز المفتوح على النفس الإنسانية، وما يدور في أعماقها. والمفتوح على قضايا الوجود، والعذاب، والخير، والشر، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة، والمرض ...

إن شخصية راسكولنيكوف هي محاولة لفهم تعقيدات الشخصية الإنسانية مقدماً عدداً من التفسيرات، مناقشاً الدوافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حدّت براسكولينيكوف للتصرف بما يخالف المنطق.

يطرح دوستويفسكي فكرة استحالة معرفة الإنسان، ويجبرنا على أن نتطلع إلى ما يكمن في نفوسنا، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف ببطله، وكيف أن النفس الإنسانية تحمل في آن أسمى المثل إلى جانب أحط الذناءات..كيف أن الإنسان يحمل في داخله قوة تنفيذ الجريمة ورغبة تحقيق العدالة.

ISBN 978-9953-68-462-6



9 789953 684628

المركز الثقافي العربي

cca@ccaedition.com





6.1.2015



دوستوفیسکی

# الجیمة والعقاب

الجزء الثاني

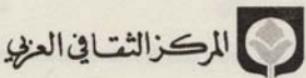
ترجمة: سامي الدروني

دُوْسْتُوِيفْسْكِي

الجِيَمةُ وَالْعَقَابُ

2

ترجمة: سامي الدروني



دوستويفسكي

# الجريمة والعقاب

2

ترجمة: سامي الدروبي



لقد طبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.  
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي  
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

الكتاب: الجريمة والعقاب (2) (رواية)  
المؤلف: دوستويفسكي  
المترجم: سامي الدروبي  
الطبعة الأولى: 2010  
ISBN 978-9953-68-462-6

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ:  
الناشر: **المركز الثقافي العربي**  
بيروت والدار البيضاء

### **الدار البيضاء - المغرب**

ص.ب. : 4006 (سيدنا)  
42 الشارع الملكي (الأحاس)  
هاتف: 522307651 - 522303339  
فاكس: +212 522 2305726

### **بيروت - لبنان**

ص.ب. 5158 - 113 الحمرا  
شارع جاندارك - بناء المقدسي  
هاتف: 01352826 - 01750507  
فاكس: 01343701 - +961

الجَنْبُونُ الْمَلِئُ

## الفصل الأول

راسكولنيكوف مرأة أخرى: «هل يمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمي؟» وأخذ يتفرّس في الزائر غير المتوقع، أخذ يتفرّس فيه محاذراً مرتاتباً. ثم قال أخيراً، بصوت عالٍ، وقد استولت عليه حيرة شديدة:

- سفديريجايروف! ولكن هذا مستحيل ، مستحيل .  
ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر .

- جئت إليك لسبعين ، أولهما رغبتي في أن أتعرف إليك شخصياً ، لأنني أسمع عنك مدحياً كثيراً منذ مدة طويلة . والثاني أنني أتجراً فآمل أن لا ترفض مساعدتي في أمر يتصل رأساً بأختك آفدوتيا رومانوفنا . فإنني إذا لم اعتمد إلا على نفسي ، ولم يوص بي أحد ، لا يكون لي أمل كبير في أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلني ، لأنها تسيء الظن بي . أما إذا عاونتني أنت ...

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً:

- لا تعوّل على معاونتي ...  
- إنهم لم تصلا إلا أمس ، أليس كذلك؟  
لم يجب راسكولنيكوف .

- وصلتا أمس. أعرف ذلك. وأنا نفسي لم أصل إلا أمس الأول.  
إليك ما أريد أن أقوله لك في هذا الصدد يا روبيون رومانوفتش. إنني لا  
أرى داعياً إلى تبرئة نفسي، ولكن أرجو أن تأذن لي بإلقاء هذا السؤال:  
ما هو الذنب العظيم الذي اقترفته أنا، إذا نحن أردنا أن نحكم في الأمر  
حكماً سليماً مبراً من الغرض؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت.

- أليس ذنبي هو أنني لاحقت في بيتي فتاة لا تملك عن نفسها  
دفاعاً، وأنني «أسأت إليها بعرض ذئنة»؟ هذا هو ذنبي! أليس كذلك?  
(هانت ذا ترى أنني أسبق غيري إلى وصف ذنبي)، ولكن أرجو أن تسلم  
معي بأنني أنا أيضاً إنسان، وأنه ما من إنسان<sup>(١)</sup>، أقصد أنني أنا أيضاً  
يمكن أن أفتن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون إرادتنا). فمتي  
سلمت معني بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شيء تفسيراً طبيعياً إلى أبعد  
الحدود. إن السؤال الوحيد الذي يجب طرحه هو السؤال التالي: أنا  
شيطان أم ضحية؟ فماذا لو كنت ضحية؟ لعلني حين عرضت على الفتاة  
التي ألهبت هواي أن ت safar معي إلى أمريكا أو إلى سويسرا كنتأشعر  
نحوها بأسمى عواطف الاحترام، وأنني كنت فوق ذلك أظن أنني أحق  
السعادة لنا كلينا! ما العقل إلا خادم الأهواء! وهكذا كنت أسيء إلى  
نفسي أكثر مما كنت أسيء إليها... .

فاطعه راسكولنيكوف يقول باشمئزاز:

- ليست هذه هي المسألة. فسواء أكنت مخطئاً أم كنت مصيبة، فأنت  
تشير الاشمئزاز. لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك، بل أطردك، وما  
عليك إلا أن تصرف!

انفجر سفديريجايروف يقهقه على حين فجأة، ثم قال وهو يضحك  
ضحكاً صريحاً:

- يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل. كنت أريد أن أعمد في

معاملتك إلى الحيلة والمكر؛ أما وأنك وضعت إصبعك على النقطة الحساسة، فسوف...

- دعك من هذا الكلام! إنك لتمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة!  
فقال سفديريجايروف مردداً وهو يقهق:

- ماذا؟ ماذا؟ ماذا تقول؟ ولكن أليست هذه «حرباً مشروعة»<sup>(2)</sup>؟  
أليس هذا مكرأً «مسموحاً به»؟.. لكنك قطعت عليّ طريق الكلام مع ذلك. مهما يكن من أمر، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد، لولا حادث الحديقة. ان مارفا بتروفنا...

- مارفا بتروفنا! قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة -. يقال إنك أرسلتها إلى العالم الآخر...

هكذا قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة .  
فأجاب سفديريجايروف قائلاً:

- أسمعت عن هذا أيضاً؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال؟ أما سؤالك فإنني لا أدرى حقاً بم أجيبك عنه، رغم أن ضميري مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية. ولا يذهبن بك الظن خاصة إلى أن هناك أي أمر أخشاه. إن كل شيء قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق: لقد ثبتت الفحص الطبي أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت المتفوحة أثناءها ما يقرب من زجاجة خمر كاملة!.. ولم يمكن اكتشاف أي شيء آخر... لا، ليس هذا ما يقلقني. ولكنني قد تساءلت طوال الرحلة في القطار: ألم أسهم في هذه النازلة مع ذلك بعض المساهمة، بإحداث اضطراب نفسي أو شيء من هذا القبيل؟ على أنني انتهيت إلى أن هذا أيضاً مستحيل.

أخذ راسكولنيكوف يوضح، وقال له:

- هناك ما يدعوك إلى القلق حقاً.

- ولكن لماذا تضحك؟ فـكـر قليلاً: إنني لم أضر بها بالسوط إلا ضربتين اثنتين... ضربتين لم تخلفا أثراً. لا تحسبني رجلاً مستخفًا مستهترًا، أرجوك! أنا أعرف أن سلوكى كان دينيًا، ألغى. ولكنني أعلم أيضاً أن دلائل «الاهتمام» هذه لم تكن توسيع مارفا بتروفنا. كانت مارفا بتروفنا قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطربة إلى أن تقع في البيت. لقد انتهت قصة اختك تماماً ولم يكن قد بقي أي سبب يدعوها إلى الظهور في المدينة، بعد أن أغرتت جميع الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة أيضاً). وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها وكأنهما من السماء. فكان أول هم لها أن تقرن الخيل بالعربة... لست في حاجة إلى أن ألتف نظرك إلى أن بعض النساء يشنرن بلذة قوية حين تتحقق بهن إهانة، مهما يكن غضبهن الظاهر منها. بل إن جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف: فالتنوع الإنساني يحب الإهانات كثيراً، هل لاحظت هذا؟ ولكن النساء يحببنها حباً خاصاً، حتى ليتمكن أن يقال أنهن لا يمكن أن يعشن بغير إهانات أو إساءات.

خطر ببال راسكولنيكوف في لحظة من اللحظات أن ينهض وأن ينصرف ليختتم الحديث. ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب قد صدأه عن ذلك للحظة، فسأل في ذهول:

- هل تحب الضرب كثيراً؟

فأجابه سفديريجايروف بهدوء:

- لا، ليس كثيراً جداً. فأنا ومارفا بتروفنا، مثلاً، لم نكن نتضارب قط. كنا نعيش دائماً في وفاق ووثان، وكانت راضية عنى في جميع الأحيان. ولم أعمد إلى استعمال السوط طوال السبعين السبع التي عشناها معاً، إلا مرتين اثنتين (هذا إذا استثنينا مرة ثالثة مشتبهة): فاما المرة الأولى وبعد زواجهنا بشهرين، أي منذ وصولنا إلى الريف، وأما المرة الثانية والأخيرة فمنذ مدة قصيرة كما تعلم. وأنت تظن مع ذلك

أني شيطان رجيم، أني رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية! .. هيء هيء! .. بالمناسبة: هل تتذكر يا روبيون رومانوفتش ذلك الرجل النبيل - لقد نسيت أنا اسمه! - الذي لُطخ بالوحل على مرأى من الناس، منذ بضع سنين، في عهد «النقد المفید»<sup>(3)</sup>، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية في قطار؟ هل تتذكر؟ أظن أن ذلك حدث في نفس السنة التي وقعت فيها الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة «العصر»<sup>(4)</sup> (لا شك في أنك تتذكر المحاضرة العامة عن «ليالي مصر»، ألا تتذكرها؟ آه ...) العيون السوداء! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية؟) فإليكرأيي: أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذي ضرب المرأة الألمانية بالسوط، ولا مجال هنا للإحسان حقاً... ولكنني لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصرير بأن المرء يصادف في بعض الأحيان «المانيات» يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من «تقدمي»، فيما يخيل إلي، يستطيع أن يسيطر على نفسه إزاءهن سيطرة كاملة وأن يكون مسؤولاً عن سلوكه معهن. إن أحداً لم يعالج المسألة عندئذ من هذه الزاوية. ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد الذي يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجة تتصف بالإنصاف.

قال سفديجايروف هذه الكلمات، وعاد يضحك فجأة. واتضح لراسكولنيكوف أن الرجل ليس بالبسيط والساذج وأنه يبیت مشروعاً ثابتاً.

قال له راسكولنيكوف:

- أغلبظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام، هه؟
- هذا صحيح تقريباً. ماذا؟ هل يدهشك أن تراني لين الطبع؟
- بل يدهشني أن أراك مسرفاً في لين الطبع.
- لأنني لم أستأ من فظاظة أسئلتك؟ وهذا هو السبب؟ ولكن علام أستاء؟

ثم أضاف سفديجايروف يقول بسذاجة تثير الاستغراب:

- أنت سألتني ، وأنا أجيبتك !

ثم تابع وقد لاح في وجهه التأمل :

- أنا لا أكاد أهتم بشيء ، والله . وفي هذه اللحظة خاصة ، لا يشغلني أي شاغل . لك أن تظن أنني أسعى إلى خطب وذك لا سيما وأن لي شأنًا مع أختك ، كما سبق أن أعلنت لك ذلك . ولكنني أقول لك بصرامة إنني أشعر بضجر شديد وسأم قوي ، ولا سيما منذ ثلاثة أيام ، حتى لقد أحسست من لفائفك ببهجة ... لا تزعل يا روديون رومانوفتش إذا أنا صارت حنك بأنك تبدو لي غريبًا غرابة رهيبة . لك أن تزعم ما تشاء ، ولكن فيك شيئاً ما ، ولا سيما في هذه اللحظة ، ليس في هذه اللحظة نفسها ، بل الآن على وجه عام ... هيا ! سأكف عن الكلام ، سأكف عن الكلام ، لا تقطب حاجبيك هكذا ... لست دبًا إلى الحد الذي تظن ...

نظر إليه راسكولنيكوف نظرة عابسة ثم قال :

- قد لا تكون دبًا البتة ! بل إنه ليبدو لي أنك تنتمي إلى مجتمع راق جداً ، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل راق .

أجاب سفديريجايروف يقول بلهجة جافة ، بل بلهجة فيها شيء من التعالي :

- لا يهمني رأي أحد ، لذلك لا يقلقني أن أسلك سلوك رجل سافل . ولعل هذا هو الثوب الذي يسهل ارتداؤه أكثر من أي ثوب آخر في أجواننا ومنا خنا ... ولا سيما إذا كان لدى المرأة ميل طبيعي إلى ذلك ... أضاف سفديريجايروف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من جديد .

قال راسكولنيكوف :

- سمعت أنك تعرف أناساً كثيرين هنا . فلستَ بمن يمكن أن يسمى

رجالاً «بغير علاقات»، كما يقال، فما مجئك إلى إذا لم يكن لك هدف محدداً؟

استأنف سفديريجايروف كلامه، فقال دون أن يجيب عن السؤال الرئيسي:

- صدقـتـ . إنـنيـ أـعـرـفـ أـنـاسـاـ كـثـيرـينـ . وـقـدـ التـقـيـتـ حـتـىـ الـآنـ بـعـدـ أـشـخـاصـ أـثـنـاءـ هـذـهـ الأـيـامـ الـثـلـاثـةـ التـيـ قـضـيـتـهاـ هـنـاـ ، فـتـعـرـفـتـ إـلـيـهـمـ ، وـتـعـرـفـواـ إـلـيـ فـيـمـاـ يـخـيـلـ إـلـيـ . إنـنيـ أـرـتـدـيـ ثـيـابـاـ حـسـنـةـ ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ وـأـبـدـوـ رـجـلـاـ لـاـ يـعـوـزـهـ شـيـءـ . أـنـتـ تـعـلـمـ أـنـ قـوـانـيـنـ الإـصـلاحـ الزـرـاعـيـ لـمـ تـمـسـسـنـاـ بـسـوءـ<sup>(5)</sup>ـ وـلـمـ كـانـتـ أـمـلاـكـيـ غـابـاتـ وـمـرـاعـيـ فـيـ الـدـرـجـةـ الـأـوـلـىـ ، فـالـمـوـارـدـ مـسـتـمـرـةـ . . . وـلـكـنـيـ لـنـ أـذـهـبـ إـلـىـ . . . أـولـثـكـ النـاسـ . لـقـدـ كـنـتـ أـضـجـرـ مـنـهـمـ حـتـىـ فـيـ الـمـاضـيـ . . . وـأـنـاـ مـنـذـ الـأـيـامـ الـثـلـاثـةـ التـيـ أـخـذـتـ أـطـوـفـ فـيـهـاـ هـنـاـ ، لـمـ أـعـقـدـ صـلـةـ بـأـحـدـ . . . أـهـذـهـ مـدـيـنـةـ؟ـ كـيـفـ أـمـكـنـ أـنـ تـنـشـأـ مـدـيـنـةـ كـهـذـهـ المـدـيـنـةـ؟ـ هـلـأـ شـرـحـتـ لـيـ هـذـاـ ، مـنـ فـضـلـكـ!ـ هـيـ مـدـيـنـةـ مـوـظـفـيـنـ وـطـلـابـ مـنـ جـمـيعـ الـأـنـوـاعـ!ـ حـقـاـ أـنـ أـشـيـاءـ كـثـيرـةـ قـدـ فـاتـتـنـيـ حـيـنـ كـنـتـ أـتـسـكـعـ هـنـاـ مـنـذـ ثـمـانـيـ سـنـيـنـ . وـقـدـ أـصـبـحـتـ الـآنـ لـاـ أـعـوـلـ إـلـاـ عـلـىـ التـشـرـيـعـ ، شـهـدـ اللهـ . . .

- أي تشريح؟

- أما هذه النوادي، وهذه المطاعم التي تسمى مطاعم دوسو<sup>(6)</sup> ، وهذه الحلقات . . . أما جميع مشاريع التقدم هذه . . . ففي وسعها أن تستغني عنـيـ . - وتابع سفديريجايروف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذي ألقـيـ عـلـيـهـ . - ثـمـ أـيـ لـذـةـ يـمـكـنـ أـنـ يـجـدـهـاـ الـمـرـءـ فـيـ الغـشـ؟ـ

- هل كنت تغش أيضاً؟

- كيف لا أغش؟ـ كـنـاـ مـنـذـ ثـمـانـيـ سـنـيـنـ جـمـاعـةـ مـنـ أـنـاسـ مـحـتـرـمـينـ نـحاـولـ أـنـ نـقـتـلـ الـوقـتـ ، وـكـنـاـ - لـاحـظـ هـذـاـ!ـ - عـلـىـ جـانـبـ عـظـيمـ مـنـ رـقـيـ الـآـدـابـ . وـكـانـ بـيـنـنـاـ شـعـراءـ ، وـرـأـسـمـالـيـوـنـ . . . إـنـ النـاسـ الـذـينـ هـمـ

على جانب عظيم من رقيِّ الآداب هم على وجه العموم، عندنا، في مجتمعنا الروسي، أوغاد... لا شك أنك لاحظت ذلك، هه؟ ومنذ أقمت في الريف إنما عزفت عن هذا. غير أنني قد أوشكت، قبل ذلك الأولان، أن أودع في السجن، لديون عليٍّ، وذلك بسبب يوناني حقير من نبيجين<sup>(7)</sup>، وفي ذلك الوقت إنما ظهرت مارفا بتروفنا، فساومت، ثم فدتني بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التي عليَّ سبعين ألف روبل). وتزوجنا زواجاً شرعياً. وسرعان ما أخذتني إلى عندها في الريف، كما يؤخذ كنز من الكنوز. كانت أكبر مني سناً بخمسة أعوام. وكانت تحبني كثيراً. ولم أغادر الريف سبع سنين. هذا، ولاحظ أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالي الذي وقعته باسم شخص آخر، من أجل أن تستخدمه ضدي عند اللزوم، بحيث تدمرني متى حاولت أن أتحرك من تحت النير. أوه! ما كانت لتتردد في أن تفعل ذلك! إن تناقضات كثيرة تجتمع لدى النساء، أليس كذلك؟

- ولو لا ذلك السند لكنت هربت، هه؟

- لا أعرف بماذا أجيبك. كان السند لا يضايقني كثيراً. لم أكن أشتتهي أن أذهب إلى أي مكان. ومارفا بتروفنا قد اقترحت عليَّ السفر إلى الخارج مرتين، حين لاحظت ضجري. ولكن علام السفر؟ كنت قد سافرت إلى الخارج قبل ذلك، فلم أشعر هنالك بارتياح. ليس هذا هو الأمر تماماً... ولكن كان ثمة شمس شرق، وكان ثمة خليج نابولي، وكان ثمة البحر... فكنت أنظر، فأشعر بحزن. والأنكى من هذا أن المرء يجد هناك سبباً للحزن حقاً. لا، لا، إن البقاء في الوطن أفضل. هنا على الأقل يستطيع المرء أن يتهم الآخرين بكل شيء، وأن يبرئ بذلك نفسه. قد أحب أن أسافر الآن راضياً إلى القطب الشمالي، لأن خمرتي فسدت<sup>(8)</sup>، فأصبحت أكره أن أشرب، بينما الشيء الوحيد الذي يبقى لي أن أفعله هو أن أشرب... لقد جربت هذا... بالمناسبة: يقال إن بيرج<sup>(9)</sup> سيسافر يوم الأحد القادم من حدائق يوسوبوف على منطاد،

وأنه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر، هل هذا صحيح؟

- لماذا؟ تaffer في منطاد؟

- أنا؟ لا... وإنما قلت هذا هكذا... - جمجم يقول سفديجايلوف، كما لو كان يفكر في السؤال الملقي فعلاً.

قال راسكولنيكوف بحدّث نفسه: «إلى أين يريد أن يصل من هذا كله؟»

وتابع سفديجايلوف كلامه فقال حالماً شارد الفكر:

- لا، كان السند لا يزعجني. فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف. ثم إن مارفا بتروفنا قد ردت إلى السند منذ سنة تقريباً، بمناسبة عيد شفيعي، حتى لقد أضافت إليه مبلغاً محترماً. كانت تملك ثروة، هه؟ قالت لي: «هاأنت ذا ترى مدى ثقتي بك يا آركادي إيفانوفتش». أؤكد لك أن هذا ما قالته لي. لا شك في أنك لا تصدق أن هذا ما قالته لي. اعترف بأنك لا تصدق! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترماً في القرية. و كنت معروفاً جداً في المنطقة. وكانت أستحضر كتاباً أيضاً. شجعني مارفا بتروفنا على ذلك في أول الأمر، ولكنها خشيت بعدها أن تجهذني القراءة.

- يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارفا بتروفنا، أليس كذلك؟

- أنا؟ ربما! هذا جائز جداً. قل لي بالمناسبة: هل تؤمن بعودة الأرواح؟

- أي أرواح؟

- الأرواح العائدة. ما هذا السؤال؟

- وأنت، هل تؤمن بذلك؟

- نعم ولا «إذا شئت»: أقصد أنني لا أؤمن بها تماماً... .

- هل رأيت أرواحاً عائدة؟

ألقى سفدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة غريبة. ثم قال له وقد انعطف فمه بابتسامة غامضة:

- إن مارفا بتروفنا لا يفوتها أن تزورني.

- كيف؟ تزورك؟

- نعم، زارتني حتى الآن ثلاث مرات. فأما المرة الأولى ففي يوم دفتها نفسها، بعد العودة من المقبرة بساعة، عشية رحيلي إلى هنا. وأاما المرة الثانية فأمس الأول، أثناء السفر، قبيل طلوع الصباح، في محطة مالايا فيشيرا<sup>(10)</sup>. وأما المرة الثالثة، فمنذ ساعتين، في مسكنى، في الغرفة التي أقيمت بها. كنت وحدى.

- وكنت... يقطأ؟

- يقطأ كل اليقظة... ولقد كنت يقطأ في المرات الثلاث جميعاً. تأتي، فتكلمني دقيقة، ثم تنصرف خارجة من الباب، دائمًا من الباب. حتى ليخيل إليّ أنني أسمع خطواتها.

قال راسكولنيكوف فجأة:

- لماذا كنت أقدر أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شيء من هذا القبيل؟!

ثم دُهش من أنه قال هذا الكلام. كان راسكولنيكوف منفعلاً اندفاعاً شديداً. سأله سفدريجايلوف مذهولاً:

- حـ.. قـ؟ كنت تقدر ذلك؟ حقـ؟ ألم أقل لك أن بيننا شيئاً مشتركـ؟

أجابه راسكولنيكوف بحماس وبلهجة قاطعة:

- لم تقل لي شيئاً من ذلك قـطـ!

- ألم أقل لك ذلك؟

- لاـ!

- غريب. خـيـلـ إـلـيـ أـنـيـ قـلـتـهـ لـكـ. مـنـذـ قـلـيلـ حـينـ دـخـلتـ عـلـيـكـ،

فرأيتك مضطجعاً مغمضاً عينيك متظاهراً بالنوم، قلت لنفسي فوراً:  
«هذا هو! هذا هو بعينه».

صاحب راسكولنيكوف يسأل:

- ماذا تقصد بقولك: «هذا هو بعينه»؟

- ماذا أقصد؟ بصراحة: لا أدرى! أجاب سفيديريجايلوف متممماً،  
مرتباً ارتباكاً صادقاً. وساد الصمت دقيقة. وكان كل من الرجلين ينظر  
في عيني الآخر باهتمام كبير.

هتف راسكولنيكوف يقول غاضباً:

- ذلك كله سخف. وماذا تقول لك حين تزورك؟

- هي؟ تصور أنها تكلمني في أنفه السفاسف. والإنسان يبلغ من  
غرابة الطبع أن هذا بعينه هو ما يغضبني. حين زارتني في المرة الأولى،  
كنت متعباً كما تعلم: القدس، صلاة الجنائز، الموكب، المأدبة. وفي  
آخر الأمر كنت وحيداً في حجرة مكتبي، وكنت أدخن سيجاراً. ها هي  
ذى تدخل، فتقول لي: «أبسبب هذه المشاكل كلها إذا إنما نسيت يا  
آركادي إيفانوفتش أن تعنى اليوم ساعة الجدار؟» وكنت أنا الذي أتولى  
تعينة ساعة الجدار تلك في كل أسبوع فعلاً، منذ سبع سنين، فإذا نسيت  
أن أفعل ذلك، ذكرتني به. وفي الغد، كنت في طريقى إلى هنا. ودخل  
القطار، عند الفجر، إلى محطة من المحطات. كنت محظماً من  
التعب. وكانت عيناي محتقتين من شدة النعاس، لأنني لم أكن قد نمت  
تقريباً طوال الليل. أمرت لنفسي بفتحان من القهوة. وهأنذا ذا أرى مارفا  
بتروفنا تجلس إلى جانبي وفي يديها ورق لعب. قالت لي: «هل تحب،  
يا آركادي إيفانوفتش، أن تعرف ما يقوله ورق اللعب في أمر سفرك؟»  
كانت مارفا بتروفنا خبيئة جداً في فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب. لن  
أغفر لنفسي ما حبست أنني لم أقبل اقتراحها. لقد هربت مذعوراً.  
والحمد لله أن الجرس قد رن في تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار.

والاليوم ، بينما كنت جالساً أشعر بثقل في معدتي بعد غداء رديء جيء إليّ به من المطعم ، وفيما أنا أدخن سيجاراً دخلت عليّ مارفا بتروفنا على حين بعثة ، متزينة بأجمل زينة ، مرتدية ثوباً جديداً من حرير أحضر طوبل الذيل جداً ، وقالت لي : « يومك سعيد يا آركادي إيفانوفتش ! هل ثوبك الجديد يوافق ذوقك ؟ ما كان لأنيسكا<sup>(11)</sup> أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب ». (أنيسكا خياطة في القرية كانت في الماضي من الأقنان وقد تعلمت الخياطة بموسكو ، فتاة حلوة جداً) . وأخذت مارفا بتروفنا تتذكر أمامي . أنعمت النظر في ثوبها ، وتفرست فيها بانتباه ، وجهاً لوجه ، ثم قلت لها : « حقاً لا داعي يا مارفا بتروفنا ، إلى أن تتكلفي نفسك عناء المجيء إليّ لتحديثني في مثل هذه الترهات ! » فقالت لي : « آه ! .. رباه ! .. هل صار حراماً عليّ حتى أن أزعجك ؟ » ، قالت لها عندئذ لأخيظها : « أريد يا مارفا بتروفنا أن أتزوج مرة ثانية » ، فقالت لي : « لمأتوقع منك غير ذلك يا آركادي إيفانوفتش . ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانية بعد دفن زوجتك فوراً . وهبك اخترت اختياراً موفقاً ، فإن الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هي ، وستصيران مضغة في أفواه الناس ، هذا كل شيء ! » قالت ذلك ثم خرجت حتى لكانني كنت أسمع حفيض ذيل ثوبها . سخف ، أليس كذلك ؟

سأله راسكولنيكوف :

- قل لي : أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً ؟

فأجابه سفيدير يجايروف شارد الفكر بأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال :

- يندر أن أكذب .

- وقبل ذلك ، هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

- أي نـ . . . عم ، مرة واحدة في حياتي ، منذ ست سنين . كان عندي خادم اسمه فيلوكا<sup>(12)</sup> . فما أن تم دفنه حتى صحت أقوال ذاهلاً : « يا فيلوكا ، هات غليوني ! » فإذا هو يدخل ، فيمضي قُدماً إلى الخزانة التي كانت

تصف فيها غلاياني . كنت جالساً فقلت لنفسي : « هو يفعل ذلك لينتقم مني ». إن مشاجرة عنيفة كانت قد شبّت بيني وبينه قبل موته بقليل . قلت له : « كيف تجرؤ أن تمثل أمامي بكم مثقوبة عند الكوع ؟ أخرج من هنا أيها الحقير ! » فاستدار على عقيبه ، وخرج ، ثم لم يرجع بعد ذلك قط ! لم أقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لمارفا بتروفنا . أردت في لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه ، ولكنني ترددت بعد ذلك .

- هلم استشر طيباً !

- لست في حاجة إليك حتى أعلم أنني مريض ، وأن أكن لا أعرف ما هو مرضي حقاً . وفي رأيي أن صحتي خير من صحتك خمس مرات . أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وإنما سألتاك هل تؤمن أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة .

صاحب راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب :

- لا ، لا يمكن أن أؤمن بوجودها في حال من الأحوال !

جمجم سفيديريجايروف يقول كمن يخاطب نفسه ، وهو ينظر إلى جانب ، مائل الرأس قليلاً :

- ماذا يقال لك عادة ؟ يقال لك : « أنت مريض ، وكل ما تراه إذاً ليس إلا نتيجة هذيانك ». ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم . أنا أسلم بأن الرؤى لا تظهر إلا للمرضى ، ولكن هذا يبرهن على أن الرؤى لا يمكن أن تظهر إلا للمرضى ، دون أن يبرهن على أن الرؤى لا وجود لها في ذاتها .

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاباً :

- لا وجود لها حتماً !

فتتابع سفيديريجايروف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو راسكولنيكوف بيطره :

- لا؟ أنت تعتقد بأن لا وجود لها؟ ولكن إذا فكرنا في الأمر على النحو التالي (ساعدني، من فضلك) : «الأرواح العائدة أجزاء من عوالم أخرى هي بداية هذه العوالم إن صح التعبير. والإنسان السليم المعافي ليس في حاجة بطبيعته إلى أن يراها، لأن الإنسان السليم المعافي يتمنى إلى هذه الحياة الدنيا قبل كل شيء، وعليه إذاً أن يحيا هذه الحياة الأرضية وحدها، في سبيل النظام والانسجام. ولكن ما إن يمرض هذا الإنسان، ما إن يختل النظام الأرضي والطبيعي في جسمه حتى تتجلّى على الفور إمكانية عالم آخر، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك العالم الآخر، فإذا مات انتقل إلى ذلك العالم الآخر رأساً». إنني أفكر بذلك منذ زمان طويل. فإذا كنت تؤمن بالحياة الآخرة، كان في إمكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذي أجريه.

قال راسكولنيكوف :

- أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة.

وظل سفيديريجايروف حالماً شارد الفكر. ثم قال فجأة:

- هه! .. ماذا إذا لم يكن في الحياة الآخرة إلا عناكب أو أشياء من هذا القبيل؟! ..

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنه مجنون!»

وتتابع سفيديريجايروف كلامه:

- نحن نتصور الأبدية دائمًا على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها، على أنها شيء ضخم، ضخم! ولكن لماذا تكون شيئاً ضخماً بالضرورة؟ تصور فجأة أنه ليس هناك، بدلاً من هذا كله، إلا حجرة صغيرة، إلا شيء يشبه حماماً في قرية، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب في جميع أركانه، وتصور أن هذا هو الأبدية كلها. أنا مثلاً إنما تبدو لي الأبدية في هذه الصورة أحياناً.

صاحب راسكولنيكوف يقول متزعجاً:

- هل يمكن، هل يمكن حقاً أن لا يكون في ذهنك تصور أبعد على العزاء وأقرب إلى الصدق؟

أجاب سفيديريجايلوف وهو يتسم ببسامة غامضة:

- أقرب إلى الصدق! ومن يدري: لعله أكثر صدقًا؟ لو كان الأمر يidi لصنعت الأمور على هذا النحو نفسه! ..

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مقاجع يسري في جسمه.

ورفع سفيديريجايلوف رأسه، وحدق إليه بنظرة ثابتة، ثم انفجر ضاحكاً، وهتف يقول:

- لا، لا، إن أمرنا لعجب حقاً! منذ نصف ساعة فقط، لم نكن قد التقينا بعد، وكنا نعد نفسينا عدوين. وبينما، عدا ذلك، مسألة لم نخرجها إلى النور بعد، ومع هذا تركناها واسترسلنا في هذا النوع الغريب من القضايا. هل كذبت عليك حين قلت لك إننا ثمرتا أرض واحدة؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة:

- من فضلك: قل ما تريد أن تقوله بغير إبطاء، واذكر لي السبب الذي دفعك إلى تشريفي بهذه الزيارة... ذلك أنتي... مستعجل... يجب أن أخرج...

- طيب، طيب... إن أختك آفدوتيا رومانوفنا ستتزوج السيد لوجين، السيد بيوتر بتروفتش لوجين، أليس كذلك؟

- ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختي، وأن لا تذكر اسمها؟ إبني لا أفهم كيف تجرو أن تذكر اسمها بحضورى، إذا صحة أنك أنت سفيديريجايلوف حقاً!

- ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث في أمرها؟

- طيب. تكلم. ولكن أسرع!

- أنا على يقين من أنك كونت رأياً في السيد لوجين (الذى يمت إلى بقري مصاهرة)، إذا كنت قد رأيته ولو مدة نصف ساعة، أو كنت قد سمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة. هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيا رومانوفنا. فيرأيي أن آفدوتيا رومانوفنا إنما تضحي في هذا الأمر تضحية كبيرة وطائشة في سبيل... في سبيل أسرتها. لقد بدا لي، بعد كل ما سمعته عنك، أنك من جهتك، سيسرك كثيراً بأن لا يتم هذا الزواج، شريطة أن لا يُسأء إلى اختك. وأنا الآن، بعد أن عرفتك شخصياً، مقتنع بهذا أكثر من افتتاعي به في أي وقت مضى.

قال راسكونيكوف:

- هذا كله سذاجة من جانبك... معدرة... أردت أن أقول إن هذا كله وقاحة من جانبك.

- هل تقصد بذلك أنني أدفع عن مصلحتي؟ لا تقلق يا روبيون رومانوفتش! لو كنت أتكلم في سبيل مصلحتي، لما كنت صريحاً بهذه الصراحة، فما أنا غبي غباؤه كاملة على كل حال. بالمناسبة: سأكشف لك عن أمر سيكولوجي غريب! منذ قليل، حين كنت أبُرّ الحب الذي أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن نفسي إنني أنا ضحية. ألا فاعلم أنني لاأشعر الآن بأي حب، لا أشعر الآن بأي حب البتة، حتى أنني أستغرب أنا نفسي كيف شعرت في الماضي فعلاً...

قاطعه راسكونيكوف قائلاً:

- مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ، وما فطرت عليه من فسق وعهر...

- حقاً! أنا رجل عاطل داعر. ولكن اختك، من جهة أخرى، لها من المزايا والحسنات ما جعلني لا أستطيع أنا نفسي أن أمتتنع عن أن أتأثر بعض التأثير... ولكن ذلك كله لم يكن إلا لغواً وعبثاً... أنا أدرك هذا الآن.

- وهل تدركه منذ مدة طويلة؟

- بدأت أدرake منذ بعض الوقت، ولكنني لم اقنع به اقتناعاً مطلقاً إلا أمس الأول، تقريباً في نفس الدقيقة التي وصلت فيها إلى بطرسبرج. وحتى في موسكو كنت ما أزال أتصور أنني آت من أجل أن أخطب آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسي منافساً للسيد لوجين.

- اغفر لي مقاطعتك... ولكن أرجوك... رحماك... لا تستطيع أن توجز وأن تنتقل رأساً إلى الكلام عن الغرض من زيارتك؟ إنني مستعجل... يجب أن أخرج.

- بكل سرور. حين وصلت إلى هنا عازماً على القيام... برحله، أردت أولاً أن أتخذ بعض الإجراءات التحضيرية المطلوبة. لقد أبقيت أولادي عند خالتهم. وهم أغنياء لا حاجة بهم إلى. وأي أب أنا لهم على كل حال؟ لم أحمل معى إلا المال الذي أهدته إلى مارفا بتروفنا منذ سنة. هذا يكفيوني. معدرة، إنني أصل إلى الواقع مباشرة. إنني قبل سفري الذي قد يتم على كل حال، أريد أن أفرغ من السيد لوجين. ليس يعني هذا أنني أكرهه كرهاً يبلغ هذا المبلغ من القوة، ولكنه هو السبب في الشجار الذي وقع بيني وبين مارفا بتروفنا، حين علمت أنها دبرت أمر هذا الزواج. إنني أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا بواسطتك، وبحضورك إذا شئت، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين، بل وإن هناك شرورة كبيرة يجب أن تتوقعها منه؛ وأن أطلب منها ثانية، بعد التماس غفرانها عن المتاعب الأخيرة التي سببتها لها، أن تأذن لي أن أقدم إليها عشرة آلاف روبل في سبيل أن أسهل لها القطيعة مع السيد لوجين، وهي قطيعة تستفيد آفدوتيا رومانوفنا منها إذا هي تصورت إمكانها.

صاحب راسكونيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه:

- ألا أنك لمجنون فعلاً، فعلاً! كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام؟

- كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة. ولكنني أحب أن أقول لك أولاً إنني على كوني لا أملك ثراءً كبيراً، أستطيع التصرف في هذه العشرة آلاف روبل. بعبير آخر: إن هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذي لا غنى لي عنه، فإذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنا، فسأدفعه إنفاقاً أشد غباءً وحمقاً. هذه أولى. وأما الثانية فهي أن ضميري مرتاح كل الارتياح: إنني أقدم هذا المال دون أي حساب. صدق أو لا تصدق، ولكنكم، أنت آفدوتيا رومانوفنا، ستدركان هذا فيما بعد. الحقيقة أنني سببت بعض المتاعب وبعض الإزعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة، وإذا كنت أشعر بندرامة صادقة وأعاني من عذاب الضمير، فإنني أرغب من كل قلبي لا أن أكفر عن خطئتي، فأقدم لأختك تعويضاً مالياً، بل أن أكون، بكل بساطة، نافعاً لها في أمر من الأمور على نحو من الأنجاء، لأنني على كل حال لست بالإنسان الذي لا يمتاز إلا باقتراف الشر. ولو كان في عرضي هذا جزء من مليون جزء من حساب، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها. ثم إنني ما كان لي أن أقدم إليها عشرة آلاف روبل فحسب، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع. أضف إلى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج إحدى الفتيات في وقت قريب كل القرب، وهذا يعني كل شبهة في إضمamar أي شر لآفدوتيا رومانوفنا. وأقول في الختام إن آفدوتيا رومانوفنا، إذا هي تزوجت السيد لوجين، ستتقاضى هذا المبلغ نفسه ولكن من حيث آخر... لا تزعل يا روديون رومانوفتش... بل احکم على الأمر بنفسك في هدوء وسکينة.

وكان سفيديرجايلوف نفسه، وهو ينطق بهذه الكلمات، هادئاً كل الهدوء، ساكناً كل السکينة.

قال راسكولنيكوف:

- أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام، لأن ما قلته حتى الآن هو

على كل حال زاخر بوقاحة لا تغفر.

- أبداً. من يسمعك يظن أن الإنسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الإنسان إلا شرًا في هذا العالم الأرضي، وأنه لا يجوز أن يفعل له أي خير، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة. ألا إن هذا المضحك حقاً. هل إذا مت مثلاً، فأورثت أختك الصغيرة في وصيتي هذا المبلغ نفسه، هل ترفض أختك قبوله حتى في هذه الحالة؟

- جائز جداً أن ترفضه.

- لا! ودعنا من هذا على كل حال. المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جميل! ومهما يكن من أمر، فإني أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث.

- لا! لن أطلعها عليه.

- في هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفتش أن أسعي بنفسى إلى الحصول على موعد منها، وقد يزعجها هذا.

- وإذا أطلعتها على هذا الحديث، ألن تسعي بنفسك إلى الحصول على هذا الموعد؟

- لا أدرى بماذا أجيك. أني أود كثيراً أن أراها مرة.

- لا تعول على هذا!

- خسارة. على أنك لا تعرفني. أفلبس من الجائز أن تتوثق العلاقات بيننا؟

- أنت تظن حقاً أن العلاقات بيننا قد تتوثق؟

أجاب سفيدير بجايلوف وهو ينهض ويتناول قبته:

- لم لا؟ ليس معنى هذا أنني أحرص هذا الحرص كله على أن أزعجك هنا... حتى أنتي لم أكن أعوّل على أن... رغم أن هيستك قد أذهلتني كثيراً في هذا الصباح...

سأله راسكولنيكوف في قلق:

- أين رأيتني في هذا الصباح؟

- رأيتك بمحض مصادفة! ما يزال يخيل إلي أن فيك شيئاً قريباً مني كل القرب. ولكن لا تقلق، ما أنا بالرجل المزعج: لقد استطعت أن أتفاهم مع غشاشين؛ ولم أضجر الأمير سفرياي الذي يمت إلى بقربى بعيدة والذى هو سيد من كبار السادة؛ وتسنى لي أن أكتب في «الألبوم» مدام برييلوكوفا بضعة أسطر عن «مادونا» رافائيل<sup>(13)</sup>، وعشت سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارفا بتروفنا؛ وقضيت قبل ذلك ليالي بكاملها في عمارة فيازمسكى<sup>(14)</sup> بميدان «سوق العلف»؛ وقد أطير بالمنطاد مع بيرج . . .

- رائع. فاسمح لي الآن أن أسألك أنت تزمع القيام برحلتك قريباً؟

- أي رحلة؟

- عجيب! الرحلة التي حدثني عنها منها منذ قليل.

- رحلة؟ آه . . . نعم . . . رحلة . . . فعلاً . . . لقد حدثتك عن رحلة . . . ولكن هذه مسألة واسعة جداً . . . ليتك تعرف عن أي شيء تسألني!

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة.

ثم أردف:

- قد أتزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة: هناك خطيبة تُقترح عليَّ.

- هنا؟

- نعم.

- متى اتسع وقتك لأن . . .

- أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيما رومانوفنا. إنني أسألك جاداً أن تؤدي لي هذه الخدمة. هيئا . . . إلى اللقاء مرة أخرى. آه . . .

نسيت... قل لأختك اللطيفة يا روديون رومانوفتش أن مارفا بتروفنا قد أورثتها في وصيتها ثلاثة آلاف روبل. هذه هي الحقيقة دقيقة. لقد اتخذت مارفا بتروفنا هذه الإجراءات قبل موتها بأسبوع، اتخذتها بحضورى. وفي وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ في غضون أسبوعين أو ثلاثة.

- تقول... هذه هي الحقيقة؟

- نعم هذه هي الحقيقة. أرجوك أن تبلغها إياها. هئا... إلى اللقاء مرة أخرى. هل تعلم أنني أسكن قريباً جداً منك؟

قال سفيديرجايلوف ذلك واتجه نحو الباب؛ وفيما هو يجتاز العتبة، التقى برزاوميixin.

## الفصل الثاني

كانت الساعة تقارب الثامنة: أسرع الاثنان نحو عمارة باكالايف ليصلان قبل لوجين.

وسائل رازوميخين صاحبه منذ أصبحا في الشارع:

- قل لي: من ذلك الرجل؟

- هو سفيديريجايبلوف، ذلك الملاك الذي أهينت اختي في منزله حين كانت تعمل عنده مربية. وقد اضطرت أن تنصرف بسبب ملاحظاته الغرامية: طردتها زوجته مارفا بتروفنا. ومارفا بتروفنا هذه قد اعتذرت لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة؛ وعنها إنما كان يجري الحديث منذ قليل. لا أدرى لماذا، ولكنتني خائف من هذا الرجل. لقد وصل إلى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً. هو رجل غريب جداً، يخيل إليّ أنه عازم أمره على تدمير مكيدة خبيثة. لكنه يعرف شيئاً ما... يجب أن نحمي دونيا منه، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك، هل تسمع؟

- نحميها منه؟ ولكن أي أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل بأفدوتيا رومانوفنا؟ على كل حال، أشكر لك يا روديا أنك تقول لي هذا الكلام. لسوف نحميها. أين يسكن؟

- لا أدرى.

- لماذا لم تسأله؟ خسارة! لا بأس، سأعرف ذلك على كل حال.

سأله راسكولنيكوف بعد فترة صمت:

- هل رأيته؟

- طبعاً. لاحظته، لاحظته جيداً.

وألح راسكولنيكوف سائلاً:

- هل رأيته رؤية واضحة، مميزة؟

- نعم، وأتذكره تذكرة واضحاً مميزاً. لو رأيته بين ألف شخص  
لعرفته. إنني أملك ذاكرة الوجوه.

وصمتا من جديد.

وجمجم راسكولنيكوف يقول:

- هم... ذلك أبني... ذلك أبني... هل تعلم؟ لو لا ذلك...  
لكان يمكن أن أظن... ما أزال أظن... إن ذلك لم يكن إلا أضغاث  
أحلام.

- عمَّ تتكلم؟ لست أفهمك بوضوح.

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوى فمه بابتسامة:

- اسمع: لما كتتم تقولون جميعاً إبني مجنون، فقد تصورت منذ  
قليل أبني قد أكون مجنوناً بالفعل، وأن ما رأيته لم يكن إلا شبحاً.  
- ما هذا الذي تقوله؟

- من يدرى؟ لعلّي مجنون مع ذلك، ولعل كل ما جرى في الآونة  
الأخيرة إنما جرى في خيالي وحده!

- روديا! هل شوشوا عقلك من جديد؟ ولكن ماذا قال لك هذا  
الرجل؟ لماذا جاء؟

لم يجب راسكولنيكوف. وفكَّر رازوميixin لحظة. ثم بدأ يتكلم  
 فقال:

- طيب، اسمع تقريري: لقد جئت إليك، فوجدتك نائماً. ثم  
تغدينا، ثم ذهبت إلى بورفيري. كان زاميتوف عنده. أردت أن أبدأ

ال الحديث ، ولكن ذلك لم يشعر . لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي أن أتكلم ، كأنهما لم يفهموا شيئاً ؛ ولم يستطعا أن يفهموا شيئاً ؛ ولكنهما لم يظهرا أي ارتباك . جذبت بورفيرى إلى النافذة وأخذت أتكلم ، ولكن هذا لم يشعر أيضاً لسبب ما . كنت انظر إلى جهة ، وكان هو ينظر إلى جهة أخرى . وأخيراً وضعت قبضة يدي تحت بوزه ، وقلت له إنني سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية . فلم يزد على أن نظر إلى . عندئذ بصقت على الأرض ، وانصرفت . هذا كل شيء . ما أغبى هذا كله ! أما زاميتوف فلم أبادله كلمة واحدة . ومع ذلك اعتقدت أنني أفسدت الأمر كله ، إلى أن تراءت لي فجأة ، وأنا أهبط السلم ، فكرة وضعت بلسماً على قلبي . قلت لنفسي : لماذا نصدّع رأسينا ، أنا وأنت ؟ لو كان هناك خطر يهددك ، لو كان هناك شيء حقاً ، لما قلت كلمة واحدة . ولكنك لا ضلّع لك في هذا الأمر كله . ما شأنك أنت وهذا الأمر ؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر . فما عليك إذا إلا أن تستخف بهم ، أن تبصق عليهم . ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزء بهم . لو كنت في مكانك لأخذت أصلّهم وأغّرّ بهم ! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيما بعد ! أبصق على هذا الأمر كله ! قد نستطيع في المستقبل أن نضربهم أيضاً . ولكن فلنضحك إلى أن يحين ذلك العين !

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- طبعاً ، طبعاً !

ولكنه قال بينه وبين نفسه : «ما عساك قائلاً في الغد؟»

شيء غريب : أن راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى الآن «ما عسى يفكّر فيه رازوميixin حين يعلم الحقيقة؟» فلما خطرت هذه الفكرة بباله الآن حدّق إلى صديقه بنظرة ثابتة . أما ما رواه له رازوميixin عن زيارته لبورفيرى ، فإنه لم يكدر يهتم به . إن أموراً كثيرة قد جرت بعد تلك الزيارة ! ..

وفيما كانا يعبران الدهليز إلى القيا بلوجين. لقد وصل لوجين في الساعة الثامنة تماماً، ولكنه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتدى إلى الغرفة، وهو هم أولاء الثلاثة يدخلون معاً، ولكن دون أن ينظر أحد منهم إلى أحد، ودون أن يحيي أحد منهم أحداً. دخل الشابان أولاً، وتوقف بيوتر بترورفتش في حجرة المدخل قليلاً من باب اللباقه، وخلع هنالك معطفه. وتقدمت بولخيريا الكسندروفنا إلى لقائه عند عتبة الغرفة فوراً. وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحبي أخاه.

دخل بيوتر بترورفتش، وسلم على السيدتين بلطف ومودة، رغم أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبرياء. على أنه كان يبدو مرتبكاً بعض الارتباك، لم يسيطر على نفسه سيطرة تامة بعد. وأسرعت بولخيريا الكسندروفنا التي كانت تبدو مرتبكة هي أيضاً، أسرعت تجلس الجميع كله حول المائدة المستديرة التي كان عليها سماور يغلي ماؤه. فكان مكاناً دونيا ولوجين متقابلين، وكان مكاناً رازوميخين وراسكولنيكوف أمام بولخيريا الكسندروفنا، فأما رازوميخين فإلى جانب لوجين، وأما راسكولنيكوف فإلى جانب أخيه.

خيّم الصمت برها من الوقت. وأخرج بيوتر بترورفتش من جيده، بغير تعجل، منديلاً من قماش الباتيسته تفوح منه روائح عطر، وتمخط كما يمتحن طفل محترم، بل ورجل يحس أن كرامته قد أهينت بعض الشيء، فهو عازم لذلك على أن يطالب بإيضاحات. كان قد خطر بباله وهو في حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه، وأن ينصرف فوراً ليعقوب السيدتين معاقبة قاسية، وليفهمهما الوضع كله. ولكنه لم يعزّم أمره على إنفاذ هذه الفكرة التي خطرت بباله. ثم إن هذا الرجل يكره الأمور التي يعوزها اليقين الثابت، وهناك نقطة لا بد من إيضاحها: لئن خالفت هاتان السيدتان أوامرها صراحةً، فلا بد أن هناك سبباً دعا إلى ذلك، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة، وفي وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب.

قال يخاطب بولخيريا الكسندروفنا بلهجة رسمية:

- أرجو أن تكونا قد قمتما برحلة مريحة..

- نحمد الله يا بيوتر بتروفتش!

- يسرني أن أعرف هذا. ألم تتعب آفدوتيما رومانوفنا أيضاً؟

أجبت دونيا قائلة:

- أنا شابة وقوية فلا أتعب. أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة.

- ما العمل؟ إن طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة. إن «أمنا روسيا» كما يقال، واسعة كثيراً... أما أنا فأتنى، رغم رغبتي القوية، لم أستطع أن آتي إلى المحطة لاستقبالكما. آمل مع ذلك أن يكون كل شيء قد تم بدون مزعجات.

فأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تقول بنبرة خاصة:

- لا يا بيوتر بترفتش! لقد لقينا مزعجات كثيرة، وشعرنا بضيق شديد. ولولا أن الله أرسل إلينا دمtri بروكوفتش بالأمس، إذن لضعننا.

ثم أضافت تعرّف لوجين بدمtri بروكوفتش:

- هذا دمtri بروكوفتش رازوميixin.

فدمدم لوجين يقول وهو يلقي على رازوميixin نظرة موارة خالية من المودة:

- ولكن... سبق لي أن سُرت... أمس...

ثم قطب حاجبيه وصمت.

نستطيع أن نصف بيوتر بترفتش على وجه العموم بقولنا إنه ينتمي إلى تلك الفئة من الناس التي تبدو في المجتمع لطيفة ودودة، أو تبدو متطلعة إلى اللطف والمودة، ولكن ما إن يسوءها شيء حتى تفقد على الفور لباقتها، فإذا هي تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه فرساناً مرحين منطلقين يلاطفون الناس حولهم ويحظون باعتبارهم.

وساد صمت شامل من جديد. فراسكولنيكوف مصر على السكت  
إصراراً عنيداً، وأفدوتها رومانوفنا لا ت يريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة  
المناسبة، ورازوميخين ليس عنده ما يقوله. وهكذا شعرت بولخيريا  
ألكسندروفنا بنذر الخطر. فلجمأت إلى آخر ما تملك من موارد، فبادرت  
تقول:

- ماتت مارفا بتروفنا، هل تعرف هذا؟

- أعرفه طبعاً. علمت به منذ أخذت تسري الشائعة... وأزيدك  
علماً فأقول إن آركادي إيفانوفتش سفيديرجايلوف قد أسرع بجيء إلى  
بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً. هذه هي على كل حال الأخبار الدقيقة  
التي وصلتني.

قالت دونيا تأسأل بصوت خائف قلق، وهي تبادل أمها نظرة سريعة:

- إلى بطرسبرج؟ إلى هنا؟

- نعم. ولا شك في أن له نيات يضمّرها، إذا نحن نظرنا إلى  
استعجاله السفر إلى الأحداث التي سبقت هذا السفر.

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا تقول:

- رياه! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحه هنا أيضاً؟

- يخيل إليّ أنكم يجب أن لا تبالغوا في القلق، لا أنت ولا آفدوتها  
رومانيوفنا، على شرط أن ترغبا أنتما طبعاً في أن تتحاشيا كل صلة به.  
أما أنا فما أزال يقظاً ساهراً، وأعمل على استطلاع محل سكناه.

وتابعت بولخيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت:

- آه يا بيوتر بتروفتش! إنك لا تعرف مدى ما أحدثه في نفسي من  
خوف ورعب! إنني لم أره في حياتي إلا مرتين، ولكنه بدا لي مريعاً،  
مريعاً! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارفا بتروفنا!

- يصعب القطع برأي فيما يتعلق بهذه النقطة. أنا أملك معلومات

حقيقة محددة. لست أنكر أنه قد عجل مجرى الأمور بما أحدثه الإهانة فيها من أثر نفسي إن صع التعبير. أما عن سلوك الرجل وعن أخلاقه عامة فأنا أواافقك على رأيك كل الموافقة. لا أدرى هل أصبح الآن غنياً، ولا أدرى كم أورثته مارفا بتروفنا على وجه الدقة، ولكنني سأعرف هذا بعد مدة لن تطول. ومهما يكن من أمر، فمما لا شك فيه أنه، وقد أصبح يملك مالاً، سوف يستأنف فوراً، هنا ببطرسبرج، طراز الحياة التي كان يعيشها في الماضي. هذا إنسان هو أكثر أشباهه انحلال خلق، وفساد طبع. وهناك أسباب قوية تدعوني إلى الاعتقاد بأن مارفا بتروفنا التي شاء سوء حظها أن تُفتَّن به وأن تحرره من ديوونه منذ ثمانين سنين، قد خدمته في ميادين أخرى: فبفضل جهودها وحدها، وبفضل تضحياتها إنما استطاعت أن تخنق في المهد قضية إجرامية وحشية فظيعة كان يمكن أن تؤدي به إلى سiberيا. ذلك هو هذا الرجل إذا كنت تحرصين على معرفته!

صاحت بولغريا ألكسندروفنا تقول:

- آه! رباه!

وكان راسكولنيكوف يصغي بانتباه:

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة:

- هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك؟

- أنا إنما أكرر ما سمعته بنفسي من فم المرحومة مارفا بتروفنا مختوماً بخاتم السر. يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً. في ذلك الوقت كانت تعيش هنا - ويظهر أنها ما تزال تعيش إلى الآن - سيدة أجنبية اسمها رسليخ، وهي مرابية صغيرة لها أعمال أخرى. ولقد كان السيد سفيديريجايلوف على صلات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل. وكانت تعيش معها فتاة تمت إليها بقرابة بعيدة، فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها أو في الرابعة عشرة، كانت صماء خرساء، وكانت السيدة

رسليخ تمحضها كرهاً لا حدود له، وتلومها على كل لقمة خبز تأكلها، حتى لقد كانت تضربها ضرباً لا رحمة فيه ولا شفقة. وفي ذات يوم وُجدت الفتاة مشنوفة في الطابق الذي يقع تحت سقف المنزل. وقد انتهى التحقيق إلى أن الفتاة ماتت منتحرة، فطروي القضية بعد إتمام الإجراءات المعتادة. غير أن وشایة جاءت بعد ذلك تقول إن الطفلة قد اعتدى عليها السيد سفيديريجايروف اعتداءً مشيناً قاسياً. صحيح أن هذا كله ظلًّا يكتنفه الغموض، فالوشایة قد صدرت عن ألمانية أخرى هي امرأة سيئة السمعة لا توحى بأية ثقة. ولم تتبع ذلك أية إجراءات: بفضل جهود مارفا بتروفنا وبفضل مالها بقي كل شيء في حدود الشائعة. غير أن هذه الشائعة كانت بلية الدلاله. ولا شك أنك سمعت يا آفدوتي رومانوفنا، حين كنت عندهم، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات منذ ست سنين على أثر تعذيب، في العهد الذي كانت فيه القناة ما تزال قائمة.

- بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات متخرجاً.

- تماماً، ولكنه أجبر على الانتحار، أو قوله دفع إليه، بتأثير الإزعاجات والاضطهادات التي كان يمارسها السيد سفيديريجايروف.

قالت دونيا بخشونة:

- لم أكن أعرف ذلك. ولكنني سمعت قصة غريبة جداً تروي أن فيليب هذا كان رجلاً مصاباً بمرض الوسواس، وأنه كان نوعاً من فيلسوف قابع في البيت. كان الناس يقولون عنه أن قراءاته هي التي ذهبت بعقله، وأنه انتحر هريراً من سخريات السيد سفيديريجايروف، لا من ضرباته. ومهما يكن من أمر فإن السيد سفيديريجايروف، كان طوال مدة إقامتي عندهم، يعامل الخدم بحضوره معاملة حسنة، حتى لقد كان هؤلاء يحبونه، رغم أنهم يتهمونه في الواقع بأنه كان السبب في موت فيليب.

قال لوجين وهو يلوى فمه بابتسامة ملتبسة المعنى :

- أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تميلين فجأة إلى تبرئته . هذا رجل ماكر فعلاً، وهو إلى ذلك مغواً داعر . أليست مارفا بتروفنا ، التي ماتت تلك الميّة الغريبة ، دليلاً محزناً على ذلك؟ أنا إنما أردت أن أساعدكم بنصائحٍ ، أنت وأمك ، لأنني أتبأّ بمحاولات جديدة سيقوم بها بلا شك . وأنا من جهتي على اقتناعٍ جازم بأن هذا الرجل سيود في السجن يوماً من الأيام بسبب ديون . أن مارفا بتروفنا التي كانت لا تفكِّر إلا في أولادها لم يكن في نيتها حتماً ، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها ، وإذا أورثته شيئاً مع ذلك ، فإن هذا الميراث لا يمكن أن يكون إلا مبلغاً زهيداً «عارضًا» ، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفي صاحبه الذي عُرف بعادات خاصة إلا سنة واحدة في أكثر تقدير .

قالت دونيا :

- بيوتر بتروفتش ، أرجوك ، لا تتكلمن عن السيد سفيديريجايلوف ! إن الكلام عنه يؤلمني .

وقال راسكولنيكوف فجأة ، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة :

- جاء إلىي منذ قليل .

فإذا بصيحات التعجب تتعالى في جميع الجهات ، وإذا بجميع الوجوه تلتفت إليه . وانفعل حتى بيوتر بتروفتش .

وتتابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

- جاء إلىي منذ ساعة ونصف ، بينما كنت ما أزال نائماً . دخل ، فأيقظني ، وعرفني بنفسه . كان منطلاقاً مرحباً ، وكان يأمل جازماً أن تتعقد بياني وبينه صلات . وقد ألحَّ خاصّة على أن يلقاك يا دونيا ، وطلب مني أن أكون وسيطاً له في تهيئته لهذا اللقاء . هناك عرض يريده أن يسطه لك . وقد ذكر لي ما هو هذا العرض . ومن جهة أخرى أبلغني رسمياً أن مارفا بتروفنا قد اتسع وقتها ، قبل وفاتها بأسبوع ، أن تورثك في وصيتها ثلاثة

آلاف روبل، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا في أقرب فرصة.

هفت بولخيريا ألكسندروفنا تقول وهي ترسم إشارة الصليب:

- الحمد لله! صلي لها يا دونيا، صلي لها!

قال لوجين فجأة:

- هذا صحيح.

وقالت دونيا مستطلعة:

- هيء، وبعد ذلك؟

- بعد ذلك قال إنه هو نفسه ليس غنياً، وأن الثروة كلها قد آلت إلى أولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم. ثم أضاف أنه قد نزل في مكان ما، غير بعيد عن بيتي، ولكنني لا أدرى أين يقع مسكنه على وجه الدقة، ولم أسأله . . .

سألت بولخيريا ألكسندروفنا مرتابعة:

- ولكن ماذا يريد، ماذا يريد أن يعرض على دونيا؟ هل قال لك ماذا يريد أن يعرض عليها؟

- نعم، قال لي.

- فما الذي يريد أن يعرضه عليها؟

- سأذكر عرضه فيما بعد. قال راسكولنيكوف ذلك، ثم صمت وعاد يشرب الشاي.

فأخرج بيوتر بتروفتش ساعته ونظر فيها، ثم قال:

- إنني مضطر إلى أن أترككم حتماً، فهناك عمل ملح مستعجل يناديني.

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهراً بعض الانزعاج:

- وبذلك لن أضايقكم.

قالت دونيا :

- إيق يا بيوتر بتروفتش ! ألم تكن تنوي أن تقضي السهرة معنا ؟ ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش ماما ؟

فقال بيوتر بتروفتش بوقار شديد :

- هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا .

وجلس ، لكنه ظل ممسكاً قبعته بيده ، وتابع يقول :

- كنت أريد فعلاً أن أناقشك وأناقش أمك المحترمة في أمور خطيرة جداً . ولكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أمامي شيئاً عن عروض السيد سفيديريجايلوف ، كذلك لا أريد أنا ولا أستطيع أن أشرح شيئاً أمام ... أشخاص آخرين ... في أمور هي على درجة عظيمة جداً من خطورة الشأن ! ... ثم إن أحداً لم يكتثر إطلاقاً برجائي الملح ...

واكتسى وجه لوجين تعبيراً عن المرارة ، وصمت في وقار ورمانة .

قالت دونيا :

- أنا وحدى السبب في عدم تحقيق رغبتك في أن لا يحضر أخي حديثنا . لقد كتبت تقول إن أخي أهانك ، وأنا أرى أنه يجب إيضاح الأمور بأقصى بسرعة ، وأن عليكما أن تصالحا . إذا كان روديا قد أهانك حقاً ، فإنه يكون من واجبه أن يعتذر لك ، وسوف يفعل ذلك ...

وقد استرد بيوتر بتروفتش كبريهاء ، فقال :

- يا آفدوتيا رومانوفنا ، هناك إهانات لا يمكن أن ينساها المرء مهما يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة . أن لكل شيء حدوداً لا يمكن أن يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها ، ومتى تجاوزها كانت العودة إلى الوراء مستحيلة استحالة كاملة .

قطعته دونيا تقول بشيء من نفاد الصبر :

- ليس هذا تماماً ما كنت أكلمك فيه . أفهم جيداً أن مستقبلنا يتوقف

الآن على نقطة واحدة: هل يمكن إيضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا؟ إنني أنبهك بصرامة، منذ البداية، إلى أنني لا أرى أي مخرج آخر، فإذا كنت تحرص على أي حرص فيجب أن تنتهي هذه القصة في هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر. أعود فأكرر أن أخي سيعتذر لك إذا كان هو مخطئاً.

قال لوجين وقد ازداد اهتمامه شيئاً بعد شيء:

- يدهشني يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحي المسألة هذا الطرح. إنني على ما أكنه لك من اعتبار عظيم، ومن حب كبير إن صح التعبير، أستطيع أن لا أحب في الوقت ذاته فرداً من أفراد أسرتك. وإنني على تطلع إلى أن أسعد بزواجك أستطيع في نفس الوقت أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع . . .

قاطعته دونيا تقول متذكرة:

- مهلاً مهلاً! دعك من فرط الحساسية هذا يا بيوتر بتروفتش. ولتكن ذلك الرجل الذكي النبيل الذي رأيته فيك دائماً والذي أحب أن أراه فيك. لقد وعدتك وعداً صريحاً، وأنا خطيبتك. فلتثق بي إذاً في هذه القضية، ولتكن على يقين من أنني أستطيع أن أقضي في الأمر محايدة غير متحيزة. إن وقوفي موقف الحكم يدهش أخي مثلما يدهشك. وحين دعوته اليوم، بعد تلقي رسالتك، إلى حضور لقائنا هذا حتماً، فإنني لم أقل له شيئاً عما أنويه. ألا فافهم أنني سأكون مضطرة إلى أن أختار أحدكم وأترك الثاني إذا أنتما لم تتصالحا. إن المسألة مطروحة على هذا النحو، من جهتك ومن جهته على السواء. فلا أستطيع ولا ينبغي لي أن أخدع في أمر اختياري. أنت ترى أن عليّ أن أقطع صلتي بأخي، وهو يرى أن عليّ أن أقطع صلتي بك. فأنا أريد وأستطيع أن أعرف في هذه اللحظة أهبو أخ لي حقاً، وأستطيع أن أعرف أيضاً أنا عزيزة عليك حقاً، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمني، هل أنت زوج لي حقاً؟

قال لوجين متزوجاً:

- يا آفدوتيا رومانوفنا، إن أقوالك هذه زاخرة بالمعاني في نظري، بل في وسعي أن أقول إنها جارحة جداً إذا نحن نظرنا إلى الوضع الذي يشرفني أن أحتجله بالنسبة إليك. بغضّ النظر عن طريقتك الغريبة المثيرة هذه في الموازنة بيني أنا وبين... شاب مغرور، فأنتي أرى من كلماتك أنك تتصرّفين بإمكان تراجعك عن الوعد الذي قطعته لي. فأنت تقولين «أنت أو هو»، مبرهنة بذلك على ضعف شأنك عندك، وقلة قيمتي في نظرك. ألا فاعلمي أنني لا أستطيع أن أقبل هذا، نظراً للعلاقات التي بيننا،... الالتزامات التي تربطنا.

صرخت دونيا وقد احمرّ وجهها من الغضب احمراراً شديداً:

- كيف تقول هذا الكلام؟ لقد وضعْت مصلحتك في منزلة أثمن ما ملكت حتى الآن، وضعتها في منزلة كل ما كان حتى الآن حياتي «كلها»، وهانت ذا تشكوك فجأة من ضعف شأنك عندي وقلة قيمتك في نظري!... ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة حاقدة، وتحرك رازوميخين في مكانه معبرأً عن اشمئزاز وغضب.

ولكن بيوتر بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض، حتى لقد كان يغدو أشدّ شراسة وأميل إلى المشاجرة عند كل كلمة جديدة، فكانه يجد لذة في أن الأمور قد صارت إلى هذه الحال.

قال متغخماً:

- إن حب رفيق الحياة، إن حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الآخر. ومهما يكن من أمر، فأنا لا أرضي أن أوضع في ميزان واحد مع... وعلى كل حال، ورغم أنني قد أعلنت صراحة منذ لحظة أني لا أستطيع ولا أريد أن أعرض، بحضور أخيك، جميع الموضوعات التي تشغّل بي، فإنني أحب أن أحاسب أمك المحترمة على نقطة أساسية تجرّعني كثيراً.

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولخيريا الكسندروفنا :

- إن ابنك قد أهانني أمس بحضور السيد راسودكين<sup>(15)</sup> (أو السيد... هذا اسمك، أليس كذلك؟ معذرة... لقد نسيت اسمك - كذلك قال لرازوميixin وهو يحييه تحية متلطفة -)، أقول إن ابنك قد أهانني أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرة سبق أن عبرت لك عنها في حديث خاص جرى بيني وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة، إذ قلت إبني أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاة ذات مباهج اليسر والرخاء والدعة، لأن ذلك يكفل السعادة وأنفع من الناحية الأخلاقية. ولكن ابنك قد تعمد أن يضخم دلالة هذه الأقوال تضخيماً جعلها سخيفة، فاتهمني بأبغض التهم، ونسب إلىَّ أسوأ الأهداف والخطط، مستنداً في ذلك إلى رسالتك أنت فيما أظن. لسوف يسعدني كثيراً يا بولخيريا ألكسندروفنا أن تقنعني بأن الأمر لم يكن كذلك، فيحمل إلىَّ هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة. اذكر لي الكلمات التي عمدت إلى استعمالها لنقل أقوالي والتعبير عن آرائي في الرسالة التي بعثت بها إلى روديون رومانوفتش !

قالت بولخيريا ألكسندروفنا مجتمحة :

- لا أتذكر. لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسي. لا أدرى كيف أعادها لك روبيا... لعله باللغ قليلاً...  
- ما كان ليستطيع أن يبالغ لولا ما أوحيت به إليه.

قالت بولخيريا ألكسندروفنا في وقار :

- يا بيوتر بتروفتش، الدليل على أننا، أنا ودونيا، لم نؤُلْ أقوالك تأويلاً سيناً جداً، هو وجودنا كلتبا هنا.

قالت دونيا مؤيدة محبدة :

- أحسنت يا ماما!

فقال لوجين مسناً :

- إذا أنا المخطئ !

فبادرت بولخيريا ألكسندروفنا تضييف قولها متشرجة :

- اسمع يا بيوتر بتروفتش ، إنك لا تبرح تهم روبيون ، بينما كتبت أنت نفسك في حقه أشياء غير صحيحة .
- لا أذكر أني كتبت أي شيء غير صحيح .

قال راسكونيكوف بلهجة لاذعة ، حتى دون أن يلتفت نحو لوجين :

- كتبت أني وهبت بالأمس مالاً لا لأرملة الموظف الذي داسته الخيل - وهذه هي الحقيقة - بل لابنته (التي لم أكن قد رأيتها في الواقع قبل الأمس يوماً). كتبت ذلك لتوقع بيني وبين أهلي ، ولتزرع في قلوبنا الشقاوة ؛ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنية تقدح في سلوك فتاة لا تعرفها . فهذا كله ليس فيه إلا نميمة وحقارة .

أخذ لوجين يرتجف من فرط الغيط ارتجافاً شديداً وقال :

- معذرة أيها السيد ، لئن أفضت في الكلام ، في رسالتي ، عن أعمالك وصفاتك ، فإنما فعلت ذلك تلبية لطلب أمك وأختك اللتين رجتاني أن أعلمهما عن أحوالك وعن الآخر الذي تحدثه في نفسي . أما رسالتي فإني أتحداك أن تجد فيها سطراً واحداً يشتمل على غير الصدق ، أي بتعبير آخر أن تبرهن لي على أنك لم تبدد مالك ، وأن تبرهن لي على أن تلك الأسرة ، مهما تكن فقيرة بائسة ، ليس بين أفرادها أحد ساقط .

- أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوي إاصبع تلك الفتاة المسكينة التي ترميها بالحجر . . .

- معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأمرك وأختك ؟

- فعلت هذا ، إن كنت تحرص على أن تعلم ذلك . أجلستها إلى جانب أمي ودونيا في هذا اليوم نفسه .

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا تنادي ابنها:

- روديا!

واحمرت دونيتشكا. وقطب رازوميخين حاجبيه. وابتسم لوجين ابتسامة مسمومة فيها احتقار. وقال يخاطب دونيا:

- احكمي بنفسك يا آفدوتيا رومانوفنا: هل من سبيل إلى تفاهم؟ آمل أن تُحل هذه القضية الآن، وأن توضّح مرة واحدة إلى الأبد. أما أنا فإني أنسحب حتى لا أعكر عليكم صفو هذا المجتمع العائلي اللطيف، وحتى تتناقلوا أسراركم بحرية.

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبته. ثم واصل كلامه قائلاً:

ولكتني أسمع لنفسي وأنا أنصرف بأن ألفت نظركم إلى أنني آمل أن لا أجبر في المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح. وإليك أنت خاصة يا بولخيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً إنما أتقدم بهذا الطلب، لا سيما وأن رسالتي قد بعثت بها إليك أنت، لا إلى أي شخص غيرك.

انزعجت بولخيريا ألكسندروفنا وقالت:

- أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بيوتر بتروفتش؟ لقد شرحت لك دونيا، مع ذلك، الأسباب التي جعلتنا لا نلبي رغبتك. لقد كانت نياتها حسنة. ثم إنك حين تكتب إلى إنما تكتب بلهجة من يلقى أوامر. فهل يجب أن نعد كل رغبة من رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ؟ ألا عكس هذا هو ما ينبغي أن يكون. فأنت، أنت الآن من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللطف في معاملتنا، لأننا محضنا ثقة كاملة فتركنا كل شيء في سبيل أن نجيء إلى هنا، حتى صرنا منذ الآن خاضعين لمشيئتك، واقعين تحت سلطانك.

- ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولخيريا ألكسندروفنا، لا سيما وأنكم ستقبضون، كما أبلغتم ذلك منذ قليل، مبلغ ثلاثة آلاف روبل

أورثتكم إياها مارفا بتروفنا في وصيتها. يبدو لي أن هذا المبلغ قد جاء في أوانه، كما يدل على ذلك ما تصطمعينه من لهجة جديدة في مخاطبتي.

هذا ما أضافه لوجين بصوت حانق.

قالت دونيا مهتاجة غاضبة:

- في وسع المرء حقاً، حين يسمع قولك هذا، أن يفترض أنك كنت تعول على عوزنا...

- على كل حال، لم يبق في إمكاني الآن أن أعول على هذا العوز؛ وأنا خاصة لا أريد أن أغرقكم اطلاقكم على العروض السرية التي عرضها آركادي إيفانوفتش سفيديريجايلوف على أخيك، والتي أرى أن لها عندك شأنًا كبيراً، حتى لقد تسرك كثيراً.

صاحت بولغرييا ألكسندروفنا:

- آه! يا رب!

وأصبح رازوميخين لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه.

سأل راسكونييكوف أخته:

- ألا تشعرين الآن بالخجل يا أختي؟

قالت دونيا:

- نعم،أشعر بالخجل.

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً، صرخت تقول لبيوتر بتروفتش:

- بيوتر بتروفتش! اذهب من هنا!

لم يكن يبدو على بيوتر بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الخاتمة. لقد أسرف في الاعتزاز بنفسه، وبقوته، وأسرف في الاعتماد على ضعف صحيته. وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه.

شحب وجهه، وتشنجت شفتيه. ثم قال:

- إذا اجترثت الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا، مودعاً بكلمات كهذه الكلمات، فاعلمي أنني لن أرجع قط. يجب أن تفكري في هذا. وليس من عادتي أن أنكل عن أقوالي.

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها بوئية واحدة:

- يا لللوقاحة! ألا تعلم أنني لا أريد أن ترجع قط؟

- ماذا؟ أهكذا إذا؟

بهذا هتف لوجين الذي لا شك في أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة، فإذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه، ويتبع كلامه قائلاً:

- هكذا إذا؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن في وسعي أن أحتج؟

فتدخلت بولخيريا ألكسندروفنا تقول:

- ما الذي يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة؟ ثم كيف يكون في وسعك أن تحتاج؟ أتظن أنني أرضى أن أزوج بنتي رجلاً مثلك؟ هيأ ذهب! اتركتنا إلى الأبد! ألا إننا نحن الذين أثمنا حين تورطنا في قضية غير شريفة؛ وأنا الآئمة أكثر من أي شخص آخر . . .

- ولكنك، يا بولخيريا ألكسندروفنا، قد ربطتني بالوعد الذي قطعه لي، وتنكيلين عنه الآن. ثم . . . ثم . . . ثم إنني قد جررت إلى تكبد نفقات . . .

إن هذا الادعاء الذي يدعوه بيوتر بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذي كان قد شحب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهد التي كان يبذلها لکبح جماح نفسه،

لم يطق عندئذ صبراً، فانفجر يضحك ضحكة صاحبة معربدة.  
وخرجت بولخيريا ألكسندروفنا عن طورها، فأخذت تصرخ  
سائلة:

- نفقات؟ أي نفقات؟ أتراءك تقصد نفقات شحن حقيبتنا؟ ولكن  
موظف القطار قد شحنها لك بالمجان! ثم ما هذا الكلام الذي  
تقوله عن الارتباط؟ أنحن الذين ربطناك إذن؟ ألا فلتذكرة يا بيوتر  
بتروفتش أنت أنت الذي ربطتنا، بل أنت الذي كُلّتنا تكبيلاً، كُلّت  
أيدينا وأرجلنا...

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأمها متسللة:

- كفى، يا أماه، كفى! أرجوك!

والتفتت إلى بيوتر بتروفتش فقالت له:

- هلاً ذهبت، من فضلك، يا بيوتر بتروفتش!

قال بيوتر بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه:

- أنا ذاهب، غير أن هناك كلمة أخيرة أحب أن أقولها: يبدو أن أمك  
نسيت نسياناً تماماً أنني قررت أن أتخذك زوجة لي حين كانت سمعتك  
مضافة في جميع الأفواه. وأحسب أنني إذ خالفت رأي الناس ورددت  
إليك حسن السمعة كان في وعيي أن انتظر تعويضاً في أقل تقدير، بل  
وأن أطالب بمكافأة. آه... لقد كانت عيناي مغمضتين حتى هذه  
اللحظة! إنني لأدرك الآن أنني قد تصرفت تصرفاً طائشاً حين لم أقم أي  
وزن للشائعات التي كانت تلوّكها الألسن عنك...

صرخ رازوميixin يقول وهو يشب عن كرسيه ويستعد للعراك:

- إنه يريد أن أنهشم رأسه!

وقالت دونيا:

- أنت/رجل دنيء سافل!

وهتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميixin:

- لا كلمة، ولا حركة!

ثم اقترب من لوجين، وقال له تحت أنفه بصوت أحش لكنه

واضح:

- هياً أغرب من هنا! إياك أن تقول كلمة واحدة، وإلا . . .

فتأمله بيوتر بتروفتش بضع لحظات شاحب الوجه منقبض القسمات من الكره، ثم استدار وخرج.

قلّما حمل قلب إنسان من الحقد على إنسان مثلما حمل قلب هذا الرجل من الحقد على راسكولنيكوف. لقد عدّه، هو وحده، مسؤولاً عن كل شيء.

ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن، أثناء هبوطه السلم، كان ما يزال يتخيّل أنه لم يخسر القضية، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين ما يزال يمكن تدبيرها.

## الفصل الثالث

النقطة الأساسية هي أن بيوتر بتروفتش كان حتى آخر دقيقة لا يصدق أن الأمور ستنتهي بهذه النهاية. لقد تفاخر وتعاظم وتبجح إلى أبعد حدود التفاخر والتعاظم والتبرج، وكان لا يتصور حتى إمكانية أن تستطيع امرأتان بائستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه. إن غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبرياته، إن هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه. هو رجل بدأ من الصفر، وتعود أن يعجب بنفسه إعجاباً شديداً، وأن يقدر ذكاءه وكفاءاته قدرأ عظيماً، حتى لقد كان في بعض الأحيان، حين يخلو إلى نفسه، يتأمل وجهه في المرأة مدة طويلة، فرحاً كل الفرج. على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى، وينزله في المقام الأول من الاحترام، إنما هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله ويفضل وسائل أخرى أيضاً. ألم يكن هذا المال يتبع له أن يتعامل تعامل الند بالند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة؟

وحين ذُكر دونيا، بمرارة، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقها، فإنما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستحياء من نكرانها هذا الجميل. على أنه حين خطب دونيا كان مقتنعاً كل الاقتناع بسخف

جميع تلك الشائعات، التي حرصت مارفا بتروفنا نفسها على أن تدحضها أمام الملا، والتي أصبحت لا تتناقلها الألسن في المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة، بعد أن أعاد الناس إلى دونيا اعتبارها، وأصبحوا يحبونها جبأ شديداً. وما كان له على كل حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة. ومع ذلك كان يحس أنه قد من على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها إلى مستوىه، حتى لقد كان يعد هذا عملاً بطولياً من جانبه. وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه إنسان محسن، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخير، وأن يسمع من راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات الثناء والمديح. لذلك كان بيوتر بتروفتش، أثناء هبوطه السلم، يشعر بأنه إنسان لم يفهم حق فهمه ولم يقدر حق قدره، وأنه أهين إهانة بالغة.

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته. حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصور إمكان العدول عنها. لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة، منذ بضع سنين، وكان حين يحلم بهذا الزواج ينتشى سكرأ، ويعده العدة ويجمع من أجله المال. كان يتخيل، في قراره قلبه، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة)، فتاة في ريعان الصبا ونضارة الشباب، على جانب عظيم من الحسن والجمال، تنتهي إلى أسرة كريمة، وتنعم بتربية حسنة، ولكنها مروعة خائفة بسبب نوازل كثيرة المأتم بها، فلا بد أن تخضع له خضوعاً كاملاً، وأن تذعن لمشيته إذاعاناً تماماً، وأن تظل ترى فيه، طوال حياتها، الرجل الذي أحسن إليها وأنعم عليها، فتقديسه تقديساً، وتمحضه نفسها مخلصة، ولا يعجبها أحد سواه. ما أكثر المشاهد الجميلة والصورة اللذيدة التي تراءت لخياله حول هذا الموضوع المغربي الممتع، في اللحظات التي كانت تهدأ فيها نفسه قليلاً حين يخلد إلى الراحة من أعماله!وها قد أوشك هذا الحلم الذي هدد خياله طوال تلك السنين، ها قد أوشك أن يتحقق: إن

جمال آفدوتيا رومانوفنا وحسن تربيتها قد أذهلاه، وإن وضعها السيء وحالتها البائسة يحضانه عليها ويشدانه إليها كثيراً؛ بل إن فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله: إن الفتاة على جانب عظيم من الكبراء والشهم، والنشاط والقوة، والغفوة والفضيلة، وهي أوسع منه ثقافة وأغزر علمًا (كان هو يشعر بهذا)، وأن إنسانة كهذه الإنسانة هي التي ستتحفظ له طول حياتها بشعور الامتنان وعاطفة العرفان، وهي التي ستتحمّي أمامه من فرط احترامها له وتقديسها إياه، فليس عليه إلا أن يأمر حتى تطيع!.. وقد شاءت المصادرات بما يشبه العمد والقصد، أن يقرر صاحبنا، قبيل لقياها بقليل، وبعد تأجيلات كثيرة، أن يغيّر ميدان عمله وأن يقتصر في مجالاً أوسع، وأن يشق لنفسه طريقاً في ذلك المجتمع الراقى الذي طالما شدته إليه أحلامه. كان صاحبنا قد قرر أن يجرّب حظه في بطرسبرج. وهو يعلم حق العلم أن للنساء «دوراً عظيماً» في هذا المجال، وأن فيهن نفعاً كبيراً. أن الفتنة التي تشغّل من امرأة أخاذة فاضلة متقدفة يمكن أن تجمّل حياته، وأن تجذب إليه مودة الناس، وأن تحشه بهالة من المهابة والسرور..

ولكنها هو ذاك كل شيء ينهر الآن دفعة واحدة! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة والكريهة نزول الصاعقة. هذه مهزلة فظيعة، هذا سخف رهيب! إنه لم يزد على أن «تبجح» قليلاً، إن وقته لم يتسع لأن يقول كل ما في نفسه؛ لقد كان يمزح، لقد اندفع بعض الاندفاع... هذا كل شيء... فكيف ينتهي الأمر هذه النهاية الخطيرة؟!.. حتى لقد كان يحب دونيا، يحبها بطريقته الخاصة ويسلط على روحها في أحلامه... لا، لا، يجب إصلاح كل شيء غداً، غداً... لا بد من معالجة الأمور، لا بد من مداواة الأمور، ولا بد خاصةً من إحباط أعمال ذلك الغر الواقع الذي كان سبب البلاء كله.

وتذكر رازوميixin وهو يشعر بالضيق والانزعاج أيضاً، لكنه لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية. قال يحدث نفسه ساخراً:

«لا ينقصني إلا هذا... لا ينقصني إلا أن أوازن بيني وبينه، أن أضع نفسي في مستواه!».

إن الشخص الذي كان لوجين يخشاه حقاً إنما هو سفيديريجايروف... الخلاصة: أن هموماً كثيرة كانت تنتظره.

.....

قالت دونيا وهي تعانق أمها وتقبلها:

- لا بل أنا المذنبة، أنا المذنبة! لقد استسلمت لإغراء ماله؛ ولكنني أقسم لك يا أخي أنني لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً إلى هذا الحد من الدناءة. ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لإغراء أي شيء في هذا العالم! لا تتهمني يا أخي!

فتممت بولخيريا ألكسندروفنا تقول دون شعور، كأنها لاما تدرك ما

جري بعد:

- الله خلّصنا منه! إن الله خلّصنا منه!

وكانوا جميعاً مبهجين مغبظين، حتى لقد انطلقوا بعد خمس دقائق يضحكون. غير أن دونيا كان يشجب لونها من حين إلى حين، وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عانته في هذه الآونة الأخيرة. ما كان لبولخيريا ألكسندروفنا أن تعتقد في يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسرّ لحادث كهذا الحادث. كانت في ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن القطيعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة! أما رازوميخين فكان يشعر بسعادة قصوى. إنه لا يجرؤ بعد أن يظهر فرحته إظهاراً كاملاً، ولكنه كان يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كمن انتابته حمى. لكان قلبه قد تخلص من عباء ضخم وحمل ثقيل. سيكون في وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته، وأن يضع نفسه في خدمتها. وما أكثر ما يستطيع أن يفعله منذ الآن! على أن رازوميخين كان يطرد من ذهنه مشاريع المستقبل خائفاً من خياله.

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً في مكانه متجمهم الوجه تقرباً، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شارد الفكر. إنه وهو الذي ألح أكثر منهم جميعاً على أن يُطرد لوجين، يبدو الآن أقلهم اهتماماً بما جرى. وقدرت دونيا، رغم إرادتها، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها، وكانت بولخيريا ألكسندروفنا تتأمله خائفة وجلة. سأله دونيا وهي تقترب منه:

- ماذا قال لك سفيديريجايلوف؟

وصاحت بولخيريا ألكسندروفنا:

- آ... نعم... نعم... ماذا...

فرفع راسكولنيكوف رأسه، وقال:

- إنه يصر على أن يهدى إليك عشرة آلاف روبل، وقد أعرب عن رغبته في أن يراك مرة أخرى بحضورى.

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا:

- أن يراها؟ مستحيل!... لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال! وكيف يجرؤ أن يقدم لها مالاً؟!

عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه وبين سفيديريجايلوف من حديث، مغفلًا ذكر ما قصّه عليه سفيديريجايلوف من أن مارفا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها، وذلك حتى لا يتعد عن الموضوع، ولاشمئزازه من قول أي كلمة زائدة.

سأله دونيا:

- بماذا أجتبه؟

- قلت له أولاً إنني لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه. فأعلن لي عندئذ أنه سيسعى بجميع الوسائل إلى أن يحصل على موعد. وقد أكد لي أن العاطفة الجامحة التي كان يشعر بها نحوك لم تكن إلا هو طارئاً، وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوك بأي عاطفة. كل ما يريد هو أن

لا تتزوجي لوجين. على أن أقواله كلها كانت غامضة مضطربة مبهمة .  
- ما رأيك في هذا الرجل يا روديا؟ ما هو الانطباع الذي أحدهه في  
نفسك؟

- أعترف بأنني لم أفهم حق الفهم. إنه يقدم عشرة آلاف روبل، ثم  
هو يزعم أنه ليس غنياً. يصرّح بأنه سيسافر إلى مكان لا أدري أين هو،  
ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسي ما قاله. وفجأة يذكر أيضاً أنه  
سيتزوج، وأنهم قد وجدوا له خطيبة... أغلب الظن أنه يخفي خططاً  
معينة قد تكون سوداء. ولكن لا محل لأن نفترض أنه يبيّن لك نيات  
سيئة، وإلا لما عمد إلى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحمافة. ولقد  
تكلمت باسمك ففرضت ما عرضه من مال رفضاً قاطعاً باتاً بطبيعة  
الحال.مهما يكن من أمر، فقد بدا لي إنساناً غريباً للأطوار... حتى  
لقد رأيت فيه أعراض جنون. ولكن ربما أكون مخطئاً. على أن موت  
مارفا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلف في نفسه أثراً كبيراً.

- رحمة الله عليها! لسوف أظل أصلي لها دائماً، دائماً. ما الذي كان  
يمكن أن نصير إليه، أنا ودونيا، لو لا هذه الثلاثة آلاف روبل؟ رياه! لقد  
هبطت علينا هذه الأموال من السماء! آه يا روديا! في هذا الصباح كان  
كل ما بقي لنا من مال هو ثلاثة روبلات، ولم يكن قد بقي علينا إلا أن  
نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل  
أن يخطر بياله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه.

بدا على دونيا أن عرض سفيديريجايلوف قد أدهشها وأذهلها. فبقيت  
واقفة، ساكنةً مفكرةً.

قالت مدمدة وهي ترتعش:

- إن في ذهنه أمراً رهيباً!

ولاحظ راسكولينيكوف هذا الرعب الشديد. فقال لدونيا:

- أظن أنه سيتاح لي أن ألقاه أكثر من مرة.

و هتف رازوميixin قائلاً بلهجة قوية :

- لا تخافوا، سوف نراقبه مراقبة دقيقة. سأراقبه أنا! لن يغيب عن بصري. لقد أذن لي روبيا بذلك. قال لي هو نفسه منذ قليل: «عليك أن تحمي دونيا». هل تأذنين لي بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا؟

ابتسمت دونيا، ومدّت إليه يدها، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق. وكانت بولخيريا ألكسندروفنا تنظر إليها وجلة مرتابة. غير أن الأمل في الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدا روعها وطمأن نفسها.

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا في محادثة حامية. وحتى راسكونيكوف، الذي لزم الصمت، كان يصغي بعض الوقت بانتباه. كان رازوميixin يتكلم في إسهاب وحرارة كأنه يلقي خطاباً:

- لماذا، لماذا تسافران؟ ما عساكم تعملان في مدینتكم الصغيرة الكريهة تلك؟ أنتم هنا قد اجتمع شملکم، وكل واحد منکم يحتاج إلى الآخر، يحتاج إليه أشد الاحتياج، إيقاعاً بعض الوقت على الأقل. أما أنا فاقبلوني صديقاً، إقبلوني شريكاً. وأني لأؤكّد لكم أننا سنتشّع مشروعًا ممتازاً. اسمعوا: سأعرض عليکم مشروعٍ يُدقّق تفاصيله. لقد وافتنى هذه الفكرة منذ الصباح، قبل أن يحدث شيء مما حدث الآن... إليکم الموضوع: إن لي عمماً (سأعرّفكم به)، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً... وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل، ويعيش من راتب تقاعدي يفي بحاجاته. وهو ما برح منذ ستين يلح علىي أن أفترض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة في المائة. إني أدرك حيلته: فكل ما يريده هو أن يساعدني. في العام الماضي لم أكن محتاجاً إلى هذا المبلغ، أما في السنة الحالية فإني لا انتظر إلا وصول عمي لأطلب منه. فإذا أضفت ألف روبل من عندکم كان معنا ما يكفيانا لبدء المشروع، فنكون شركاء. فما هو ذلك المشروع؟

هنا طفق رازوميixin يشرح مشروعه، فأفاض في الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً، وأكَّد أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة، وأنها ربما درَّت أرباحاً طائلة. كان رازوميixin يحلم أن يصبح ناشراً، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته لثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة أيام أنه إلا ليشجعه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدق ترجمته، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفةً: لقد كذب، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف).

وتابع رازوميixin كلامه قائلاً بحرارة وحماسة:

- فلماذا، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع أنها نملك لها أحسن وسيلة للنجاح، أعني رأس المال؟ صحيح أنه سيكون علينا أن نعمل كثيراً، ولكننا سوف نعمل، تعملين أنت يا آفدوتييا رومانوفنا ويعمل روبيون وأعمل أنا. إن نشر بعض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة، وما سيكون مصدر قوتنا، هو أنها سنحسن اختيار الكتب التي يجب أن تُترجم. سوف نترجم، ونشر، ونتابع في الوقت نفسه دراستنا. إبني أستطيع أن أكون الآن نافعاً، لأنني حصلت خبرة واسعة. لقد سلخت سنتين كاملتين في العمل مع الناشرين، فأصبحت أعرف شؤون النشر معرفة تامة. صدقوني إذا قلت لكم إن الأمر أيسر مما تظنو. فلماذا، لماذا لا نتهاز الفرصة التي تعرض لنا؟ إبني أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحذث عنها أحداً قط، ويكفي أن أعرض فكرة نشرها حتى أجيء من ذلك مائة روبل عن كل كتاب؛ بل هنالك كتاب آخر لا أبيع فكرة ترجمته حتى بخمسمائة روبل! ولا يمكن أن يتعدد هؤلاء الناشرون الحمقى أيًّا تردد إذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب! أما الجانب المادي من المشروع، أعني الطباعة والورق والبيع وما إلى ذلك، فإنكم تستطيعون أن تعتمدوا

علىَّ فيه كل الاعتماد. إنني أعرف هذه الأمور معرفة عميقة. وسوف نبدأ ببداية متواضعة، ولكننا سنوسّع المشروع في المستقبل. ومهما يكن من أمر فسوف نجني ما يسُد حاجاتنا ويكتفي نفقاتنا.

كانت عينا دونيا تسطعان. قالت:

- إن ما تقوله يعجبني كثيراً يا دميتري بروكوفتش!

وتدخلت بولخيريا ألكسندروفنا فقالت:

- أنا لا أفهم في هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال. قد يكون هذا كله حسناً جداً، الله أعلم... ولكن... من جهة أخرى... طبعاً... حين يشرع المرء في شيء ما، فإنه يسير قليلاً في المجهول!... على كل حال سيكون علينا حتماً، إذا نحن قررنا المشاركة في المشروع، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت. ونظرت إلى راسكولنيكوف.

سألته دونيا:

- ما رأيك أنت يا أخي؟

فأجاب راسكولنيكوف:

-رأيي أن فكرته ممتازة. ولكن لا ينبغي لنا، بعد، أن نفكِّر في إنشاء دار نشر كبيرة. يجب علينا أن نكتفي بأن ننشر في البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح. أنا نفسي أعرف كتاباً سبعة حتماً. أما عن كفاءة رازوميixin، فيجب أن تكونوا مطمئنين. لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح. على كل حال، سيتسع وقتنا للكلام في هذا الموضوع مرة أخرى...

صاح رازوميixin يقول:

- مرحي! والآن اسمعوا: توجد هنا، في هذا المنزل نفسه، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذي أجّر وكم هذه الغرفة. إنها شقة مستقلة لا تتصل بباقي الغرف. هي مفروشة. وليس أجراها باهظاً. فيها ثلاثة

حجرات. خذوها مؤقتاً. سأمضي أرهن ساعتك غداً، فأجيئكم بالمال، ثم يُدبر كل شيء. الأمر الأساسي هو أن تستطعوا أن تعيشوا كلتاكم هنا، ومعكم روديا... ولكن إلى أين أنت ذاهب يا روديا؟

سألت بولخيريا ألكسندروفنا ابنها مرتاعة:

- كيف يا روديا؟ أنت ذاهب؟

وصاح رازوميixin يسأله مستنكراً:

- أفي مثل هذه اللحظة تذهب؟

وكانت دونيا تنظر إلى أخيها بدهشة تمازجها ريبة. كان راسكولنيكوف ممسكاً بقعته يتهيأ للخروج. وقال بلهجة غريبة:

- لكانكم حقاً ستدعونوني، أو لكانكم تودعونني إلى الأبد على الأقل.

وكان يبتسم، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام في شيء. وأضاف يقول:

- ومن يدري على كل حال؟ لعلنا نلتقي الآن آخر لقاء فعلاً!

كان راسكولنيكوف قد تصوّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه، فإذا هي تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير إرادة منه.

صاحت بولخيريا ألكسندروفنا تقول:

- ماذا أصابك يا روديا؟

وسألت دونيا أخاها بلهجة غريبة:

- إلى أين أنت ذاهب يا روديا؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق مما يريد أن يقوله:

- نعم، لا بد أن أذهب...

غير أن قراراً وحشياً ضارياً كان يُقرأ في وجهه الشاحب. وتتابع كلامه:

- أقصد... حين جئت إلى هنا... كنت أريد أن أقول لك يا أماه،  
ولك أنت أيضاً يا دونيا، أن من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت. أنا  
أحس بأنني مريض، أنا لست هادئ البال، سأرجع في المستقبل،  
حين... حين يصبح ذلك في الإمكان. لن أنساكم، وسأظل  
أحبكم... دعوني، دعوني وحيداً! ذلك ما كنت قد قررته. وقد قررته  
واعياً كل الوعي، مدركاً كل الإدراك!.. أريد أن أكون وحيداً مهما  
يحدث لي، سواء أهلكت أم لم أهلك! انسوني نسياناً تماماً، ذلكم  
أفضل... لا تسألوا عنّي، لا تستطعوا أخباري. سوف أجيء من تلقاء  
نفسِي متى وجب أن أجيء... أو سوف أدعوكم إلى. ولعلَ كل شيء  
سيُبعث بعثاً جديداً حينذاك. أما الآن فاعدلوا عن رؤيتي وتنازلوا عن  
لقائي إذا كنتم تحبونني، وإلا شعرت نحوكم بكره وبغض. إنني أحسن  
بهذا... وداعاً!

هتفت بولخيريا ألكسندروفنا: رباه! يا رب!  
كانت الأم والأخت مرتعتين ارتياعاً لا سبيل إلى مغالبتها. وكذلك  
كان رازوميixin.

قالت الأم المسكينة تتسلل إلى ابنها:

- روديا، روديا! فلتتصالح يا روديا! فلنعد كما كنا!  
استدار راسكولنيكوف ببطء، واتجه نحو الباب، فأدركته دونيا،  
وهمست تقول له مشتعلة العينين استياء واستنكاراً:

- أخي، ماذا تفعل بأمنا!

فألقى عليها نظرة ثقيلة. وتمتم يقول بصوت خافت كأنه لا يعي ما  
أراد أن يقول وعياماً تماماً:

- ما هذا بشيء، سأرجع، سوف أزوركم...  
وخرج.

هفت دونيا تقول :

- إنسان خالٍ من الإحساس ! أناي فظيع !

- بل هو مجنون ، لا خالٍ من الإحساس ! لقد فقد عقله ، كيف لا ترين هذا ؟ أنت الخالية من الإحساس . . .

كذلك دمدم رازوميخين هامساً في أذن الفتاة بعاطفة قوية وهو يضغط يدها ضغطاً عنيفاً . ثم هتف يقول لبولخيريا ألكسندروفنا التي أصبحت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة : سأرجع حالاً وأسرع يخرج من الغرفة .

كان راسكولنيكوف يتنتظره في آخر الدهلiz . وقال له :

- كنت أعرف أنك ستهرع إلى لتلحق بي . عد إليهما ، وابق معهما .  
وكن عندهما غداً . . . ودائماً . . . قد أرجع إذا استطعت . . . وداعاً !  
وابعد دون أن يمد إليه يده مصافحاً .

غمغم رازوميخين يقول مرتبكاً أشد الارتباك ، حائراً أبلغ الحيرة :

- ولكن إلى أين تذهب ! ماذا بك ؟ ما الذي أصابك ؟  
توقف راسكولنيكوف مرة أخرى .

- أقول لك مرة أخيرة إلى الأبد : لا تسألني عن شيء ، فليس عندي ما أجبيك به . . . ولا تأتِ إلى ! قد أرجع أنا إلى هنا . . . اتركني . . . أما هما . . . فلا تتركهما . . . هل تفهم ؟

كان الظلام يسود الدهلiz . وكان الشابان قريبيين من مصباح . لبنا قربة دقيقة ينظر كل منهما إلى صاحبه صامتاً . سوف يتذكر راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حياته . إن النظرة الحارة الثابتة التي تصدر عن عيني راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنةً وقوه في كل لحظة ، وكانت تنفذ إلى أغماق نفس رازوميخين ، وتغوص في قراره وجданه . ارتعش رازوميخين فجأة . كأن شيئاً غريباً قد مر بينهما . . .

كأن فكرة تتسلل خفية، تندس خلسة، ولكنها فظيعة، رهيبة، جهنمية، سرعان ما فهمها هذا وذاك! .. اصفر وجه رازوميخين اصفار الموت!  
قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً أليماً:

- هل فهمت الآن؟

ثم أضاف:

- ارجع إلى هناك. عد إليهما.

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة، ومضى ...

لن أصف ما جرى في ذلك المساء عند بولخيريا ألكسندروفنا. لن أصف كيف رجع رازوميخين إلى المرأةين، كيف هذأ روعهما، كيف أكد لهما أن من الواجب أن يترك روديا للراحة بعد المرض، وكيف حلف لهما أن روديا سيرجع لا محالة، وأنه سيأتي يزورهما، بل وأنه سيجيء إليهما كل يوم، وإنما يجب أن لا يُزعج الآن لأنه في حالة عصبية شديدة، وأنه، هو رازوميخين، سيمضي إليه، ليسهر عليه، ويعتنى به، ويجهنه بطبيب حاذق، بأحسن طبيب في المدينة، بل بعدد من الأطباء يفحصونه في آن واحد.

الخلاصة أن رازوميخين قد أصبح للمرأةين، منذ ذلك المساء، ابنًا وأخًا.

## الفصل الرابع

راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذي تسكن فيه صونيا قرب القناة. هو منزل من طابقين، قديم مطلٍّ بلون أخضر.

استطاع أن يعثر على الباب وأن يحصل منه على معلومات موجزة غير واضحة أتاحت له مع ذلك أن يصل إلى مسكن الخياط كابرناوموف. لمح في ركن من الفناء مدخل سلم ضيق مظلم، فصعد أخيراً إلى الطابق الأول، ودخل الرواق الذي يدور حوله. وفيما هو يطوف في الظلام متسللاً أين عسى يكون باب كابرناوموف، فُتح على حين فجأة بابٌ يقع على مسافة ثلاثة خطوات منه، فتشبث بهذا الباب على غير إرادة منه.

- من هنا؟ - سأله صوت امرأة مضطرب.

فأجاب راسكولنيكوف:

- هذا... هذا أنا... جئت لأراك!

واجتاز الباب إلى حجرة المدخل الصغيرة. كان في الحجرة كرسٍ خاسفٍ وضعَتْ عليه شمعة صغيرة في شمعدان متعلق من نحاس.

هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف:

- أهذا أنت؟ رياه!

ووقفت في مكانها كالمتسمرة.

- من أين الدخول إلى غرفتك؟ من هنا؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال، ثم مضى يتنقل إلى الغرفة محاولاً أن لا ينظر إلى صونيا.

وبعدها صونيا بالشمعة بعد دقيقة، فوضعتها في مكانها، ووقفت أمامه شديدة القلق والرعب لهذه الزيارة التي لم تكن متوقعة. إن الاضطراب الذي اجتاح نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه. واحمر وجهها الشاحب فجأة، حتى لقد صعدت إلى عينيها دموع. كانت تشعر بخجل وخزي وسعادة في آن واحد...

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة، وجلس على كرسي موضوع قرب المائدة. لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفتش الغرفة كلها.

هي غرفة واسعة سعة كافية، لكن سقفها واطئ جداً. إنها الغرفة الوحيدة التي أجرها كابريناً موف. وهي تتصل بمسكته بباب في الجدار الأيسر. وعلى الجهة اليمنى، يوجد في الجدار باب آخر، يظل مفلاً بالمفتاح دائماً، ويفضي إلى شقة أخرى. إن الغرفة تشبه أن تكون سقيفة، لها شكل مضلل رباعي غير منتظم، فمنظرها لهذا السبب يؤذى البصر. إن حائطاً ذا نوافذ ثلاثة تطل على القناة، يقطعها قطعاً موارباً، فإحدى الزوايا، وهي زاوية حادة جداً، تغور في آخر الغرفة، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً في ضوء الشمعة الضئيل الضعيف. أما الزاوية الأخرى فهي منفرجة انفراجاً كبيراً. ولا يكاد يوجد في الغرفة أثاث. هناك سرير في الركن الأيمن، وإلى جانب السرير كرسي أقرب إلى الباب. وعلى طول الحائط نفسه، قبالة الباب المؤدي إلى الشقة الثانية، توجد مائدة من خشب أبيض، يغطيها غطاء رخيص أزرق، وبقربها كرسيان من قش. وفي حذاء الحائط المقابل، على مقربة من الزاوية الحادة، تقع منضدة صغيرة غير مدهونة، وكأنها تائهة في

الفضاء. ذلك كل ما تضمه الغرفة. أما ورق الجدران فأصفر مهترئ مدخن مسود في الأركان. لا بد أن جو الغرفة يكون رطباً جداً وخانقاً في الشتاء. إن الفقر يخطف البصر، حتى أن السرير لم يكن له ستارة.

كانت صونيا تنظر صامتة إلى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة بانتباه يبلغ من الشدة وبهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر الأمر، لأنها واقفة أمام قاضٍ سيتوقف عليه مصيرها كله . . .

قال لها دون أن يرفع عينيه :

- إبني أصل في ساعة متأخرة جداً . . . أليست هي الحادية عشرة؟

فدمدمت صونيا تقول :

- نعم.

ثم أسرعتت تضييف، لأن ذلك خروج لها من المأزق:

- نعم نعم، هي الحادية عشرة . . . منذ قليل دقت ساعة أصحاب البيت. سمعتها بنفسي . . . هي الحادية عشرة فعلاً . . .

قال راسكولنيكوف متوجه الوجه :

- أجيء إليك الآن آخر مرة. مع أن هذه هي المرة الأولى التي أزورك فيها. وقد لا أراك بعد اليوم قط.

سألته :

- أنت . . . مسافر؟

- لا أدرى . . . سيتقرر كل شيء غداً.

- إذاً لن تذهب غداً إلى عند كاترينا إيفانوفنا؟

وكان صوت صونيا يختلّ.

- لا أدرى . . . كل شيء رهن بالغد . . . بصبح الغد. ثم إن المسألة ليست هذه: لقد جئت لأقول لك إذاً . . .

ورفع إليها نظرة حالمه، فأدرك فجأة أنه جالس، على حين أنها ما  
نزلت واقفة أمامه.

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة، فأصبح فيه رقة وعدوية  
ومودة:

- لماذا تبدين واقفة؟ اجلسـيـ.

فجلست. وظل يتأملها قرابة دقيقة، ظل يتأملها بمحبة، بعاطفة، بما  
يشبه أن يكون شفقة. ثم قال لها:

- ما أشد نحولك! ما هذه الـيد؟ إنـهـ لـتكـادـ تكونـ منـ هـزـالـهاـ شـفـافـةـ!  
أصابـعـكـ أـصـابـعـ مـيـتـ . . .

فأجابـهـ قـائـلـةـ:

- هـكـذـاـ كـنـتـ دـائـمـاـ.

- حتىـ حـينـ كـنـتـ تـقـيـمـينـ معـ أـهـلـكـ؟

- نـعـمـ.

- نـعـمـ نـعـمـ . . . هـذـاـ طـبـيعـيـ . . .

كـذـلـكـ قالـ بـلـهـجـةـ مـتـقـطـعـةـ. إـنـ تـعـبـيرـ وـجـهـهـ وـنـبـرـهـ صـوـتـهـ قدـ تـبـدـلـاـ منـ  
جـدـيدـ فـجـأـةـ. وـنـظـرـ مـرـةـ أـخـرىـ حـوـالـيـهـ.

- أـمـنـ أـسـرـةـ كـاـبـرـنـاؤـمـوـفـ اـسـتـأـجـرـتـ هـذـاـ؟

- نـعـمـ.

- هلـ يـقـطـنـونـ وـرـاءـ هـذـاـ الـبـابـ؟

- نـعـمـ . . . لـهـمـ غـرـفـةـ كـهـذـهـ.

- هلـ يـعـيـشـونـ جـمـيـعـاـ فيـ غـرـفـةـ وـاحـدـةـ؟

- نـعـمـ، فيـ غـرـفـةـ وـاحـدـةـ.

قالـ رـاسـكـولـنـيـكـوفـ مـتـجـهـمـ الـهـيـثـةـ:

- لو كنت أعيش في مثل هذه الغرفة لشعرت في الليل بخوف .  
فأجبت صونيا ، وكأنها لم تب إلى رشدها بعد ، ولا جمعت شتات  
أفكارها :

- أصحاب البيت لطاف جداً . وجميع الأثاث ، جميع الأثاث وكل  
شيء لهم هم . إنهم طيبون جداً ، وكثيراً ما يأتي أولادهم إلى عندي .  
- هم ثائرون ، أليس كذلك ؟

- نعم . . . وهو يثنى ويعرج . وامرأته أيضاً . بل قل إنها لا تثنى ،  
ولكن كأن بعض الكلمات لا ت يريد أن تخرج من فمها . إنها طيبة جداً .  
كان هو قناعاً . ولهم أولاد . الابن البكر وحده يثنى . . . أما الآخرون  
فهم عليلون فحسب . . . لكنهم لا يثنون .

ثم أضافت سؤاله مدهوسة بعض الدهشة :

- كيف عرفت أنت هذا ؟

- أبوك قصّ على كل شيء . قال لي كل شيء عنك . . . وحكى لي  
أيضاً كيف خرجت في الساعة السادسة من الصباح لتعودي بعد الساعة  
الثانية ، وكيف ركعت كاترينا إيفانوفنا أمام سريرك .

اضطربت صونيا . ثم دمدمت تقول متعددة :

- رأيته اليوم رؤية واضحة مميزة .

- من ؟

- أبي . كنت سائرة في الشارع ، غير بعيد عن هنا ، عند الناصية ، في  
نحو الساعة العاشرة ، فتراءى لي أنه يسير أمامي . لكنه هو حقاً . حتى  
لقد خطر بيالي أن أسرع إلى كاترينا إيفانوفنا . . .

- كنت تتجولين ؟

فقالت صونيا بصوت متقطع ، وقد اضطربت من جديد ، وخففت  
عينيها :

- نعم .

- هل كانت كاترينا إيفانوفنا تسيء معاملتك حتى لتكاد تضربك حين كنت تعيشين معهم؟

صاحت صونيا تقول وهي تنظر إلى راسكولنيكوف نظرة فيها ما يشبه الذعر :

- لا ، لا ، ما هذا الذي تقوله؟

- ألمت تحببنها إذا؟

- هي ؟ أظن ...

كذلك قالت صونيا بلهجة شاكية ، وصوت بطيء ، ضامة يديها بحركة تنم على الألم . وواصلت كلامها تقول :

- ليتك ... ليتك تعرفها ! إنها كالطفلة تماماً . عقلها مضطرب اضطراباً تماماً ... لقد قاست في حياتها آلاماً كثيرة ... ومع ذلك ، ما أذكاها ! ما أكرمها ! إنها طيبة جداً ! أنت لا تعرف ، أنت لا تستطيع أن تعرف ! آه ! ..

قالت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد . كان الألم يهصر قلبها ، فكانت تلوي يديها من فرط الكمد ، واحمرأ خداها من جديد ، حتى صارا بلون الأرجوان . كان العذاب يُقرأ في عينيها . واضح أن وترأ حساساً جداً قد مسَّ الآن في نفسها ، وأنها ترغب رغبة قوية في أن تعبر عن شيء ، في أن تتكلم ، في أن تدافع عن كاترينا إيفانوفنا . أن نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفئ أوارها يرتسם الآن على قسمات وجهها .

وتابعت كلامها تقول :

- تضربني ؟ هي تضربني ؟ ما هذا الكلام الذي تقوله ؟ وهبها ضربتي ! أي ضير في ذلك ؟ إنك لا تعرف شيئاً ، لا تعرف شيئاً البتة ! هذه إنسانة تعيسة شقية بائسة ... وهي مريضة ... إنها تندش العدالة ... تسعى

إلى العدالة... هي طاهرة نقية. ومن شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد في كل شيء، إنما تطلب العدالة في كل شيء. قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هي لا تقرف أي ظلم يجافي العدالة. إنها لا تفهم أن لا يسود العدل حياة البشر، وهي لذلك تخضب كما يغضب طفل، كما يغضب طفل! هي امرأة عادلة، عادلة...

- وما الذي ستتصيرين عليه؟ - سألها راسكولنيكوف.  
فألفت عليه نظرة مستفهمة.

قال لها:

- سيبقون على ذراعيك. صحيح أنك كنت قبل الآن تحملين كل شيء على ذراعيك، وأن أباك كان يجيء إليك أنت ليطلب مالاً. ولكن ما الذي سيحدث الآن؟

قالت صوينا بحزن:

- لا أدرى.

- هل يبقون هناك؟

- لا أدرى. إن أجر المسكن لم يدفع، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم؛ فأعلنت كاترينا إيفانوفنا أنها لن تمكث دقيقة واحدة.

- لماذا تتصرف بتلك هكذا؟ أعليك تعتمد؟

- لا تتكلم هكذا، لا...

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد، أو قل اهتاجت من جديد، كما يفعل طائر من طيور الكناري أو غيره من الطيور:

- نحن نشتراك في كل شيء، أنا وهي...

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة:

- ماذا ت يريد لها أن تكون؟ ماذا؟ آه... ما أكثر ما ذرفت من دموع،

ما أكثر ما ذرفت من دموع في هذا اليوم! إن عقلها مضطرب، ألم تلاحظ أنت هذا إذن؟ نعم، عقلها مضطرب، عقلها مختل: تارةً تقلق كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شيء على ما يرام غداً، من أجل أن يكون على المائدة مقبلات... ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغي أن تضمها من أطعمة؛ وتارةً تلوى يديها كمداً وحسرة، وتبصق دماً، وتذرف دموعاً، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس. ثم ما تلبث أن تتعزي من جديد، واسعةً أملها فيك، قائلة إنك الآن سندها، وأنها ستفترض مالاً من أحد الناس، لتعود بي إلى مسقط رأسنا، فتنشئ هناك مدرسةً لبنات الأسر النبيلة أكون أنا مشرفة عليها، ونبأ عنده حياة جديدة كل الجدة. وهي في هذه الحالة تأخذ تقبلي وتضمني إلى صدرها وتتواسياني وتعزيزي. آه، ما أقوى إيمانها بأحلامها هذه، ما أقوى إيمانها بهذه الأحلام! هل يمكننا أن نعارضها؟ مستحيل!.. اليوم قضت النهار كله في مسح الأرض وغسل الملابس وترقيع الشباب. ورغم ضعفها الشديد صعدت إلى غرفتها ببطشت، فما إن وصلت حتى كانت أنفاسها قد تقطعت، وحتى خارت قواها فلم تملك إلا أن تهادى على سريرها مهدودة. وفي هذا الصباح ذهبنا كلتنا إلى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليتشكا ولينيا<sup>(17)</sup>، لأن أحذيتهم قد تمزقت تماماً، ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال، رغم جميع حساباتنا، لم يكفنا المال، لأنها اختارت أحذية جميلة لطيفة، فهي صاحبة ذوق كما تعلم، فما كان منها إلا أن أجهشت بكى، هنالك، في وسط الدكان، أمام الباعة. لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً. حقاً كان منظرها يثير أعمق الألم...

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مرّة:

- يفهم المرء بعد هذا أن تعيشي هذه الحياة التي تعيشينها...

فهفت صونيا تقول:

- ولكن هي، هي، ألا ترثي لحالها؟ ألا تشفق عليها؟ أنا أعلم أنك

و هبت لها آخر قرش تملكه، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد. فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء؟ آه! يا رب! كم من مرة، كم من مرة أبكيتها. في الأسبوع الماضي، مثلاً... ألا أنتي لأشعر بالخزي والعار! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبي بأسبوع! نعم، كنت قاسية، قاسية! كم من مرة تصرفت هذا التصرف! آه... ما أشد ما أشعر به اليوم من ألم حين أتذكر هذا!

كانت صونيا تلوي يديها حسرة وهي تتكلم، من فرط ما كانت تحس به من ألم.

قال لها راسكونيكوف:

- أنت القاسية إذا؟

- نعم أنا القاسية، أنا...

وعادت تتابع كلامها وهي تبكي، فقالت:

- جئت أزورهم في ذلك اليوم، فقال لي المرحوم: «اقرئي لي يا صونيا، فإنني أحس صداعاً في رأسي...». اقرئي لي هذا الكتاب». هو كتاب أعاره إيهاندريل سيميونوفتش لبيزياتينيكوف الذي يسكن في هذا المنزل ويقتني كتاباً عجيبة! قلت له: «آن لي أن أذهب»، ولم أشأ أن أقرأ له، لأنني قدأتيت إلى عندهم خاصةً من أجل أن أري كاترينا إيفانوفنا ياقات صغيرة: كانت البزافيتا السمسارة قد جاءتني بياقات وأكمام جميلة جداً، جديدة كل الجدة، تزيينها رسوم حلوة، مع أنها بخسة الثمن، وقد أعجبت كاترينا إيفانوفنا بها كثيراً، فجربتها على نفسها ونظرت في المرأة فوجدتها جميلة، جميلة جداً. فقالت لي: «صونيا، أهديتها إليّ، أرجوك». نعم هذا ما قالته لي: «أرجوك»، لأنها هامت بها هياماً جنونياً. ولكن ما عساها تصنع بها؟ ما حاجتها إليها، وأين ترتديها؟ المهم أنها أخذت بها، هكذا، لأنها تذكرة بالعهود الجميلة الماضية! إن كاترينا إيفانوفنا تنظر في المرأة، فتعجب بنفسها، وليس عندها ثوب تلبسه، ليس

عندما ثوب واحد، ليس عندها شيء البتة، منذ سنين عدة! وهي لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً في يوم من الأيام، لأنها شديدة الإباء وال الكبراء، وتؤثر على ذلك أن تعطي ما بقي عندها. ومع ذلك طلبت مني أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة. لأنها وجدتها جميلة جداً. ولم أشأ أنا أن أحزم نفسي منها، فقلت لها: «فيما تنفعك هذه الياقات يا كاترينا إيفانوفنا؟» نعم، ذلك ما قلته لها. آه... ما كان ينبغي أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال! ألمت علىَّ عندئذ نظرة ينفترط لها القلب... عبر وجهها عن حزن فظيع... لأنني رفضت أن أعطيها الياقات... وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال... ليست الياقات هي التي أحزنتها، وإنما أحزنها رفضي أنا... لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح. آه... ليتنى أستطيع أن أرجع إلى الوراء، وأن أسترد كل ما أفلت من لسانى! آه... إننى... ولكن ماذا؟ لا بد أن هذا كله لا يعنيك في شيء!

سألها راسكونيكوف:

- ألمت عرفت اليزافيتا السمسارة؟

فأجابته مدحوشة بعض الدهشة:

- نعم... هل عرفتها أنت أيضاً؟

قال راسكونيكوف بعد صمت، دون أن يجيب عن سؤال صونيا:

- كاترينا إيفانوفنا في آخر درجات مرض السل، وستموت قريباً...

- لا، لا، لا تقل هذا الكلام.

قالت صونيا ذلك، وتناولت يديه على غير شعور منها، كأنها توسل إليه أن يمنع هذا الأمر.

قال راسكونيكوف:

- ولكن الأفضل أن تموت!

فأخذت صونيا تردد مرؤعةً تائهة العقل زائفة النظرات:

- لا، ليس هذا أفضل، ليس هذا أفضل...

- والأولاد، ما أنت صانعة بهم عندئذ، لا مكان لهم إلا في بيتك.  
وأنت لا تستطيعين ضمّهم إليك؟  
- آه... لا أدرى... .

بذلك هتفت صونيا يائسة وهي تمسك رأسها بيديها. كان واضحًا أن هذه الفكرة قد وافتها غير مرّة، وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن أيقظها.

وعاد يلع في السؤال بغير رحمة فيقول:  
- وماذا إذا مرضت أنت فنقلت إلى المستشفى قبل موت كاترينا إيفانوفنا؟ ما الذي سيحدث عندئذ؟

- آه... ما هذا الذي تقوله؟ لا، لا... ذلك مستحيل.  
وتقبّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب.

وابتع راسكولنيكوف إلى القاء أسئلته وهو يبتسم ابتسامة لا رحمة فيها:  
- مستحيل؟ كيف؟ لا شيء يكفل لك أن لا تمرضي. فما الذي سيحدث لهم حين تمرضين؟ سيصيرون في الشارع، وستمضي هي تسعل وتستجدي وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يبكون. ثم تنهاوي، فتُنقل إلى قسم الشرطة، ثم إلى المستشفى، فتموت. أما الأولاد... .

- لا، لا، لن يأذن الله بهذا.

ذلك ما أفلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت مختنق. كانت قد استمعت لكلامه صامتة تنظر إليه مروعة، ضامنة بيديها في ضراعة خرساء كأن كل شيء متوقف عليه.

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وانقضت دقيقة. كانت صونيا واقفة، متهدلة الذراعين، خافضة الرأس، تعاني ألمًا شديداً وعذاباً رهيباً.

سألها وهو يتوقف أمامها فجأة:

- وما من وسيلة لادخار أي مال للأيام السود، أليس كذلك؟

فندمت تجبيه:

- طبعاً... لا...

ثم أضاف ساخراً:

- ولكن هل حاولت؟

- حاولت.

- ولم تفلح المحاولة؟ طبعاً لم تفلح! لا داعي إلى السؤال...

وعاد يسير في الغرفة. وانقضت دقيقة أخرى. قال:

- أظن أنك تحصلين على النقود، لكن ليس كل يوم؟

واضطربت صونيا أكثر من السابق، وتصرخ وجهها مرة أخرى،

وهي تهمس بجهد مؤلم: - لا.

قال علي حين غرة:

- وسيكون مصير بوليشكا كمصيرك حتماً.

فهتفت صونيا تقول بصوت قوي، طائش، كأنها طُعنت بخنجر:

- لا، لا، هذا مستحيل. إن الله، إن الله لن يسمح بمثل هذا السقوط!

- دعكِ من هذا الكلام! إنه يسمح بمثله وأكثر.

فردَّدت صونيا تقول خارجةً عن طورها:

- لا، لا، إن الله سيحميها!

أجاب راسكولينيكوف بفرح خبيث:

- ولكن قد لا يكون هناك إله! ثم ضحك ونظر إليها.

عندئذ تشهَّ ووجه صونيا تشوهاً فظيعاً، وسرت في قسماتها رعدة من

تشنج . وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعتب قوي ولوم شديد، وأرادت أن تقول شيئاً، ولكن لم توافها كلمة واحدة، وفجأة انفجرت تشنح نشيجاً مراً، نشيجاً مراً جداً، وهي تغطي وجهها بيديها.

قال راسكولنيكوف بعد صمت:

- تقولين إن كاترينا ايفانوفنا قد فقدت عقلها، ولكنني أرى أنك أنت نفسك قد فقدت عقلك.

وانقضت خمس دقائق. كان راسكولنيكوف يذرع الغرفة طولاً وعرضأً، دون أن يتكلم، ودون أن ينظر إليها. واقترب منهاأخيراً. كانت عيناه تستطعان. أمسك كتفيها بيديه. وأنعم النظر إلى وجهها الغارق في الدمع. كانت نظرته جافة، ملتهبة، حادة. وكانت شفتها تختلجان اختلاجاً قوياً جداً... وانحنى فجأة بحركة سريعة، فسجد أمامها، وقبل قدميها. تراجعت صونيا مروعة كأنها ترى مجنوناً. والحق أن هيئته كانت هيئة مجنون.

تمتمت تقول شاحبة الوجه، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً:

- ماذا تفعل؟ ما هذا الذي تفعله؟ أمامي أنا، تسجد؟

نهض، وقال لها بلهجة وحشية:

- أنا لا أسجد أمامك أنت... بل أمام معاناة البشرية كلها...

ثم ابتعد نحو النافذة. وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود إلى قربها:

- اسمعي: لقد قلتُ منذ قليل لرجل كان يهينك إنه لا يساوي طرف إصبعك... وأنني قد شرفت أخي حين أتحت لها اليوم أن تجلس إلى جانبك.

هفت صونيا تقول مرتابعة:

- آه... ما هذا الذي قلته؟ هل قلتَ أمامها؟ جلوسها إلى جنبي يشرفها؟ ولكنني... ولكنني أعيش في العار! إنني خاطئة، خاطئة! آه... ما هذا الذي قلته؟

- أنا لم أقل ذلك مفكراً في العار والخطيئة، وإنما قلته مفكراً في عذابك العظيم . . .

ثم أضاف يقول في حماسة:

- أما إنك خاطئة فهذا صحيح. وخطيتك الكبرى هي أنك ضحيت بنفسك وأهلكت نفسك وخنت نفسك سدى. نعم، إنه لأمر فظيع، إنه لأمر فظيع أن تعيشني كما تعيشين، في الوحل الذي تكرهين، عالمةً أنت نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً، ولا تستطعين أن تنقدي أحداً (يكفي المرأة أن يفتح عينيه).

ثم قال خارجاً عن طوره:

- ولكن قول لي أخيراً: كيف يمكن أن يجتمع في نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع أنساب العواطف وأقدس المشاعر؟ إلا أنه ليكون أقرب إلى العدل كثيراً، وأقرب إلى العقل كثيراً، أن تلقى بنفسك في الماء منكسة الرأس وان تنتهي من هذا الوضع مرة واحدة إلى الأبد! ..

سألته صوينا بصوت ضعيف، وهي ترفع نحوه نظرتها الأليمة:

- وما عسى يصيرون إليه، هم، إذا أنا فعلت ذلك؟

غير أن هذه الفكرة لم يبدُ أنها أدهشتها. وألقى عليها راسكولنيكوف نظرة غريبة غامضة.

لقد قرأ راسكولنيكوف في نظرة الفتاة كل شيء. إن تلك الفكرة كانت تراودها إذاً. لعلها من يأسها قد فكرت تفكيراً جاداً، مرات كثيرة، في إمكان وضع حد لحياتها آخر الأمر، وبلغت من جد التفكير في هذا أن النصيحة التي أسدتها إليها راسكولنيكوف لم تثر في نفسها أي دهشة تقريباً. حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التي قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقي، ولم تدرك الزاوية التي كان راسكولنيكوف ينظر منها إلى موضع العار، وقد لاحظ هو ذلك). ولكن راسكولنيكوف أدرك

إدراكاً تماماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب وضعها الشائن، وأدرك إدراكاً تماماً أنها تعاني هذا العذاب منذ مدة طويلة.

وتساءل راسكولنيكوف: «ما الذي أمكن أن يمنعها حتى الآن من إنفاذ عزمهَا على إنهاء حياتها؟». وعندئذ فقط إنما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامي في نظر صونيا، وقيمة هذه المسكينة كاترينا ايفانوفنا المصدورة، شبه المجنونة، التي تدق رأسها بالحيطان.

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك إدراكاً واضحاً كذلك أن صونيا، بحكم طبعها وبحكم تربيتها، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيا هذه الحياة؛ حتى أنه ليحيّره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى في هذا الوضع طوال هذه المدة دون أن تُجئ هي أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعتها فتنتحر غرقاً في الماء. صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس إلا حادثة طارئة في المجتمع، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة وأسفاه! ليست وحيدة البتة، ولا هي استثنائية! غير أن كون هذه الحادثة طارئة، بالإضافة إلى ما بقي للفتاة من تربيتها الماضية، وبالإضافة إلى ماضيها كله، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التي قطعتها على هذا الطريق الدنيء الذي سلكته. فما الذي كان يبقيها على هذا الطريق إذاً؟ ليس هو حب الدعاارة قطعاً، فإن هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسئها مسأآلها بحكم طبيعة الأشياء، أما قلبها فلم تتسلل إليه قطرة واحدة من رذيلة. إن راسكولنيكوف يرى هذا كله، لقد كانت صونيا واقفة أمامه على حقيقتها . . .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «هناك ثلاثة طرق تنتفتح أمامها: أن تلقي بنفسها في القناة، أن تصير إلى ملجاً للمجانين . . . أن تندفع في الدعاارة التي تخبل العقل وتجمد القلب». إن هذه الفكرة الأخيرة هي التي ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأوليين، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً ريباً منذ الآن، وهو إلى

ذلك شاب، وهو إلى ذلك ذو فكر مجرد، والفكر المجرد قاسٍ، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث، أعني افتراض الدعاة هو أقرب الافتراضات إلى الصدق... .

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه: «ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرة نقية، هل يمكن أن تغوص في هذا المستنقع النتن واعيةً شاعرة؟ هل بدأ هذا الغوص في المستنقع القذر فعلاً؟ هل من الجائز أنها استطاعت أن تحتمل حياة بهذه الحياة حتى الآن لأن الرذيلة لا تبدو لها كريهة حقيرة إلى هذا الحد؟» فلما وصل راسكولنيكوف في تساؤله إلى هنا، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل: «لا، لا، إن الشيء الذي صدّها عن إغراق نفسها في القناة حتى الآن إنما هو فكرة الخطيئة، وكذلك هم، أولئك... ولتن لم تجن حتى الآن... ولكن من ذا الذي يزعم أنها لم تجن حتى الآن؟ أصحيح أنها ما تزال تملك عقلها؟ هل يمكن أن يتكلم أحد كما تتكلم هي، وأن تفكّر كما تفكّر، إذا كان ما يزال سليم العقل؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع النتن الذي أخذ يغوص فيه، وان يحرك يده في الوقت نفسه بإشارة تنم على العجز، وأن يسدّ أذنيه كلما حدث عن الخطر؟ أليس معجزةً من المعجزات أنها تنتظر؟ نعم، لا شك في ذلك. ولكن أليست هذه علامات جنون؟»

وتلبيت راسكولنيكوف على هذه الفكرة في إصرار وعناد. إن حلاً كهذا يرضيه أكثر من أي حل آخر. وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد.

سألها:

- إذن أنت تصلين الله كثيراً يا صونيا؟

لم تجب صونيا، وكان واقفاً أمامها يتظاهر جوابها.

وبدلة مت صونيا تقول مسرعةً بقوة عنيفة، وهي تلقي عليه نظرة مختلسة، نظرة سطعت على حين غرة:

- ما الذي يمكن أن أصير إليه إن لم أؤمن بالله؟

وتناولت يده، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً.

قال يحدث نفسه: «نعم، تلك هي الحقيقة».

وسألها ليجبرها على الكلام:

- وماذا يفعل الله من أجلك؟

فثبتت صونيا صامتةً مدة طويلة، كأنها لا تستطيع أن تجيب. وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف. وهتفت تقول له أخيراً وهي تنظر إليه بقسوة وغضب:

- اسكت، لا تسألني عن شيء بعد الآن. أنت لا تستحق أن... .

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً في عناد وإصرار: «تلك هي الحقيقة، تلك هي الحقيقة».

ودمدمت صونيا تقول بسرعة وهي تخفض عينيها من جديد:

- الله يفعل كل شيء!

وبعاطفة جديدة كل الجدة، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مريضاً، كان راسكولنيكوف يتفرس في هذا الوجه الصغير، التحيل، الشاحب، غير المتسق، المتكسر الزوايا، ويترفس في هاتين العينين الزرقاويين الرقيقتين العذبتين الحلوتين اللتين تستطيان مع ذلك أن تسطعاً بلهيب قوي وأن تعبراً عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القسوة والقوة والعنف؛ ويترفس في هذا الجسم الضاوي الهزيل الذي ما يزال يرتجف استياءً وغضباً... فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد شيء، حتى ليقاد يكون مستحيلاً. وكان يردد لنفسه: «هذه مخلوقة ضعيفة، إنها ضعيفة العقل».

وكان على المنضدة كتاب لاحظه راسكولنيكوف عدة مرات حين مروره أمام المنضدة. فها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه. أنه الإنجيل باللغة الروسية: كتاب مجلد، عتيق مهترئ.

صاحب يسأل صونيا من آخر الغرفة:

- من أين هذا الكتاب؟

وكانـت ما تزال واقفة في مكانها نفسه على بعد ثلاث خطوات من المائدة.

فأجابـته صونـيا على مضـض دون أن تـنظر إـلـيـه:

- جـيءـ إـلـيـ بهـ.

- من جاءـكـ بهـ؟

- الـيزـافـيتـاـ. كـنـتـ قد طـلـبـتـهـ مـنـهــ.

قال راسـكـولـنيـكـوفـ بيـنـهـ وـبـيـنـ نـفـسـهـ: «الـيزـافـيتـاـ! ما أـغـربـ هـذـاـ!» إنـ كلـ شـيـءـ هـنـاـ يـبـدـوـ لـهـ غـرـبـاـ عـجـيـباـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ، منـ لـحـظـةـ إـلـىـ أـخـرـىـ. وـقـرـبـ الـكـتـابـ مـنـ الشـمـعـةـ وـأـخـذـ يـتـفـحـصـهـ.

وـسـأـلـهـ فـجـأـةـ:

- أـينـ يـجـيءـ ذـكـرـ لـعـازـرـ؟

فـظـلـتـ صـونـياـ مـطـرـقـةـ إـلـىـ الـأـرـضـ بـعـنـادـ وـلـمـ تـجـبـهـ. وـكـانـتـ وـاقـفـةـ غـيرـ بعيدـ مـنـ المـائـدةـ وـقـفـةـ موـارـبـةـ.

- أـينـ الـحـدـيـثـ عـنـ قـيـامـ لـعـازـرـ؟<sup>(18)</sup> أـرـيـنـيـهـ يـاـ صـونـياـ.

فـأـلـقـتـ عـلـيـهـ نـظـرـةـ موـارـبـةـ. وـدـمـدـمـتـ تـقـولـ لـهـ بـقـسـوةـ مـنـ دـونـ أـنـ تـقـرـبـ مـنـهـ:

- لـسـتـ تـبـحـثـ عـنـهـ فـيـ مـوـضـعـهـ. إـنـهـ فـيـ الإـنـجـيلـ الـرـابـعـ.

قـالـ لـهـ:

- اـبـحـثـيـ عـنـهـ وـاقـرـئـهـ لـيـ يـاـ صـونـياـ.

شـمـ جـلـسـ، وـوـضـعـ كـوـعـيـهـ عـلـىـ الـمـائـدةـ، وـأـسـنـدـ رـأـسـهـ إـلـىـ يـدـهـ، نـاظـرـاـ إـلـيـهـ، مـتـجـهمـ الـهـيـثـةـ، مـتـهـيـنـاـ لـلـإـصـغـاءـ، قـاتـلـاـ لـنـفـسـهـ: «بـعـدـ ثـلـاثـةـ أـسـابـيعـ،

سأكون في الفرسخ السابع<sup>(19)</sup>، فيما أظن، اللهم إلا أن يحدث لي ما هو  
شر من ذلك».

دنت صونيا من المائدة متربدةً، بعد أن استمعت لطلب  
راسكولنيكوف في شك وريب. وتناولت الكتاب مع ذلك.

سألته وهي تنظر إليه من فوق المائدة بطرف عينها:  
- ألم تقرأ إذاً من قبل؟

وكان صوتها يزداد قسوة شيئاً بعد شيء. أجابها راسكولنيكوف:  
- قرأته منذ زمن طويل... في أيام الدراسة.

- وفي الكنيسة، ألم تسمعه؟

- لا أذهب إلى الكنيسة. هل تذهبين أنت كثيراً إلى الكنيسة؟

تمتمت صونيا تقول:

- لـ... لا.

فابتسم راسكولنيكوف.

- فهمت. وأغلب الظن أنك لن تحضري دفن أبيك في الغد أيضاً،  
اليس كذلك؟

- بل سأحضر... لقد ذهبت إلى الكنيسة في الأسبوع الماضي  
أيضاً. وأقمت قداساً.

- من؟

- لاليزافيتا. لقد قتلت بفأس.

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر. وأخذ يشعر  
بدوار.

- هل كنت صديقة لاليزافيتا؟

- نعم... كانت اليزافيتا امرأة صالحة... وكانت تجيء إليء... .

نادرًا... لم يكن في وسعها أن تزورني أكثر من ذلك. وكنا نقرأ معاً... وكنا نتحدث... سترى الله<sup>(20)</sup>...

ترجعت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجعاً غريباً في نفس راسكولنيكوف. وقال لنفسه: «وهذه معلومات جديدة! أحاديث سرية بين اليزافيتا وصونيا... بين مخلوقتين كلتاهم ضعيفة العقل! هنا يصبح المرء نفسه ضعيف العقل... بالعدوى!..»

وهتف يقول لها بالاحاج وحق:

- اقرئي!

ولكن صونيا ما تزال متربدة. كان قلبها يخفق خفقاتاً شديدة. لكانها لا تجرؤ أن تقرأ له. وكان هو ينظر إليها معذبأ، قائلاً لنفسه: «يا للمجنونة المسكونة!».

تمتت تقول له بصوت خافت، كأنها مقطوعة الأنفاس:

- ما حاجتك إلى ذلك وأنت لا تؤمن؟

فأجابها يقول مصراً:

- بل اقرئي! أريد أن تقرئي! أما كنت تقرئين لاليزافيتا؟..

فتحت صونيا الكتاب، ووجدت السطور المطلوبة. كانت يداها ترتجفان، وكان صوتها مختنقأ. حاولت مرتين أن تبدأ القراءة، ولكنها لم تفلح في نطق الكلمة الأولى. ثم قرأت أخيراً:

«وكان إنسان مريضاً، وهو لعاذر، من بيت عنيا...»<sup>(21)</sup>.

ولكن صوتها اختلط وتكسر منذ الكلمة الثالثة، كما يتحطم وترمشدود. لقد انقطع تنفسها. وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً.

أدرك راسكولنيكوف بعض الإدراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له، فكان كلما ازداد إدراكاً لهذا، ازداد إلحااحاً في طلب القراءة بفظاظة وغضب. كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحز في

نفسها أن تكشف عما يخصها «هي»، وأن تبوح به. أدرك أن هذه العواطف هي «سرّها» فعلاً، سرها الحقيقي والقديم، منذ زمن، ربما منذ مراهقتها، منذ الوقت الذي كانت تعيش فيه مع أسرتها بين أب شقي وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة، قرب أطفال جياع، في بيئة لا ترتفع فيها إلا صرخات مسحورة وملامات متصلة لا تقطع. ولكنه كان يعلم في الوقت نفسه - هو واثق من هذا - أنها على تألمها الشديد وخوفها القوي تحس رغم حزنها وخشيتها برغبة جارفة مؤلمة في أن تقرأ، وفي أن تقرأ له «هو»، من أجل أن يسمع، ومن أجل أن يسمع «الآن» خاصة، «مهما يحدث بعد ذلك». كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة في عيني الفتاة، وكان يدركها من اهتياج أعصابها.

تحاملت صونيا على نفسها، وبذلت جهداً كبيراً، فكبحت التشنج الذي ألم بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى، وتابعت قراءة الإصلاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا، ووصلت إلى الآية التاسعة عشرة:

«وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزّوهما عن أخيهما. فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقته. وأما مريم فاستمرت جالسة في البيت. فقالت مرثا ليسوع : يا سيد، لو كنت هنا لم يمُت أخي. لكتني الآن أيضاً أعلم أن كلَّ ما تطلب من الله يعطيك الله إياه».

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرة أخرى، وهي تشعر بالخجل من أن صوتها يختلجم وأنه سيكتسر من جديد... ثم تابعت القراءة:

«قال لها يسوع : سيقوم أخوك. قالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة، في اليوم الأخير. قال لها يسوع : أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي فسيحيا ولو مات. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد».

- أتؤمنين بهذا؟

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد، وأخذت تقرأ

بصوت واضح ولهجـة قوية كأنـها تعرف بإيمـانـها هي نفسـها على رؤوس الأشـهـاد:

«قالـت لهـ: نـعـمـ يا سـيـدـ. قدـ آـمـنـتـ أـنـكـ أـنـتـ المـسـيـحـ ابنـ اللهـ، الآـتـيـ إلىـ العـالـمـ».

وأـوشـكـتـ صـوـنـيـاـ أـنـ تـوقـفـ عنـ القرـاءـةـ، وـلـكـنـهاـ رـفـعـتـ عـيـنـيـهاـ «إـلـيـهـ» بـحـرـكـةـ قـوـيـةـ، فـسـرـعـانـ ماـ ثـابـتـ إـلـىـ نـفـسـهـاـ، وـاسـتـمـرـتـ تـقـرـأـ. كـانـ رـاـسـكـولـنيـكـوفـ يـصـغـيـ إـلـىـ القرـاءـةـ سـاـكـنـاـ جـامـداـ، دـونـ أـنـ يـلـتفـتـ، وـاضـعـاـ كـوـعيـهـ عـلـىـ الـمـائـدـةـ، نـاظـرـاـ إـلـىـ جـانـبـ. وـبـلـغـتـ صـوـنـيـاـ الآـيـةـ الثـانـيـةـ وـالـثـلـاثـيـنـ:

«فـلـمـاـ أـتـتـ مـرـيـمـ إـلـىـ حـيـثـ كـانـ يـسـوـعـ وـرـأـتـهـ، خـرـتـ عـنـ دـرـجـلـيهـ قـائلـةـ: يـاـ سـيـدـ، لـوـ كـنـتـ هـنـاـ لـمـ يـمـتـ أـخـيـ. فـلـمـاـ رـأـهـاـ يـسـوـعـ تـبـكـيـ وـالـيـهـودـ الـذـيـنـ جـاءـوـاـ مـعـهـاـ يـبـكـونـ اـنـزـعـجـ بـالـرـوـحـ وـاضـطـرـبـ. وـقـالـ: أـينـ وـضـعـتـمـوهـ؟ قـالـواـ لـهـ: يـاـ سـيـدـ، تـعـالـ وـانـظـرـ. بـكـىـ يـسـوـعـ. فـقـالـ الـيـهـودـ: اـنـظـرـوـاـ كـيـفـ كـانـ يـحـبـهـ. وـقـالـ بـعـضـ مـنـهـمـ: أـلـمـ يـكـنـ يـقـدـرـ هـذـاـ الـذـيـ فـتـحـ عـيـنـيـ الـأـعـمـىـ أـنـ يـجـعـلـ هـذـاـ أـيـضاـ لـاـ يـمـوـتـ؟ـ»

كـانـ رـاـسـكـولـنيـكـوفـ قـدـ تـلـفـتـ نـحـوـهـاـ وـأـخـذـ يـنـظـرـ إـلـيـهـاـ مـنـفـعاـ مـضـطـرـباـ. نـعـمـ، صـدـقـ ظـنـهـ! لـقـدـ كـانـتـ تـرـتـعـشـ اـرـتـاعـاـ قـوـيـاـ وـتـعـانـيـ منـ حـمـىـ حـقـيقـيـةـ. لـقـدـ تـوـقـعـ ذـلـكـ. وـكـانـتـ تـقـرـبـ مـنـ الآـيـاتـ الـتـيـ تـرـوـيـ الـمـعـجزـةـ الـعـظـيـمـ الـكـبـرـىـ، فـكـانـ شـعـورـ بـالـانتـصـارـ الـعـظـيـمـ يـجـتـاحـ نـفـسـهـاـ. إـنـ صـوـتـهـاـ يـرـنـ رـنـيـنـ مـعـدـنـ. إـنـ الفـرـحـ وـالـظـفـرـ يـتـرـجـعـانـ فـيـ نـفـسـهـاـ وـيـشـدـانـ أـزـرـهـاـ. وـاـخـتـلـطـتـ الـأـسـطـرـ أـمـامـ عـيـنـيـهاـ، وـاضـطـرـبـ بـصـرـهـاـ، لـكـنـهـاـ كـانـتـ تـعـرـفـ مـاـ تـقـرـرـهـ عـلـىـ ظـهـرـ الـقـلـبـ. إـنـهـاـ حـيـنـ قـرـأـتـ الآـيـةـ الـأـخـيـرـةـ: «أـلـمـ يـكـنـ يـقـدـرـ هـذـاـ الـذـيـ فـتـحـ عـيـنـيـ الـأـعـمـىـ أـنـ يـجـعـلـ هـذـاـ أـيـضاـ لـاـ يـمـوـتـ؟ـ»، قـدـ خـفـضـتـ صـوـتـهـاـ، مـعـبـرـةـ بـحـمـاسـةـ مـلـتـهـبـةـ عـنـ شـكـ وـاسـتـيـاءـ أـولـئـكـ الـيـهـودـ الـعـمـيـ الـذـيـنـ لـاـ يـؤـمـنـونـ وـالـذـيـنـ سـيـرـكـعـونـ بـعـدـ قـلـيلـ كـمـنـ نـزـلتـ عـلـيـهـمـ صـاعـقةـ، وـسـيـجـهـشـونـ بـاـكـيـنـ، وـسـيـؤـمـنـونـ. قـالـتـ لـنـفـسـهـاـ: وـهـوـ،

هو أيضاً، الأعمى، الذي لا يؤمن، هو أيضاً سيسمع، وهو أيضاً سيؤمن، نعم، سيمؤمن، سيمؤمن فوراً، حالاً. فكان هذا التوقع يجعلها ترتعش فرحاً. وتابعت قراءتها:

«فانزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء إلى القبر. وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر. قال يسوع: ارفعوا الحجر. قالت له مرثا أخت الميت: يا سيد، قد أتنن لأنه هنا منذ أربعة أيام».

أبرزت صونيا في قراءتها الكلمة «أربعة». وتابعت تقرأ:

«قال لها يسوع: ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله. فرفعوا الحجر، ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الأب، أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا علمت أنك تسمع لي في كل حين. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت هذا، ليؤمنوا أنك أرسلتني. ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم: لعاذر هلم خارجاً. فخرج الميت...»

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوي ظافر، وكانت ترتجف وترتعش كأنها ترى المشهد بعينيها.

«... ويداه ورجلاه مربوطة بأقمعة وجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم يسوع: حلّوه ودعوه يذهب».

«فكثيرون من اليهود الذي جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به».

لم تمض صونيا في القراءة إلى أبعد من هذا. لقد عجزت عن ذلك. فطوطت الكتاب ونهضت بحركة قوية نشيطة، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع:

- هذا كل ما يُروى عن قيام لعاذر.

وتجمدت في مكانها مشيحة وجهها، كأنها تستحي أن ترفع عينيها نحو راسكولنيكوف، وكانت ما تزال ترتجف من الحمى.

كان عقب الشمعة التي ذابت في الشمعدان المتعرّف منذ مدة، يلقي

ضياء ضعيفاً على القاتل والمومس وقد ضمّتهما بطريقة غريبة قراءة «الكتاب الخالد» في هذه الغرفة البائسة.  
وانقضت خمس دقائق أو تزيد.

ونهض راسكولنيكوف، واقترب من صونيا، وقال لها فجأة بصوت قوي وقد اكفر وجهه:

- إنما جئت لأحدثك في أمر بعينه.

فنظرت إليه صونيا صامتة. وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية.  
قال:

- تركت اليوم أهلي: أمي وأختي. فلن أذهب إليهما بعد الآن. لقد قطعت صلتي بهما قطيعة تامة.

فسألته صونيا مصغقة:

- لماذا؟

إن اللقاء الذي تم بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل قد ترك في نفسها أثراً قوياً جداً، رغم أنها لم تستطع أن تحددده. فلما سمعت بها هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذرعاً.

أضاف راسكولنيكوف يقول:

- لم يبق لي سواك. هلمي نسافر معاً. لقد جئت إليك. نحن ملعونان كلانا، فلننسافر معاً!

وكانت عيناها تسطعان. قالت صونيا لنفسها هي أيضاً: «إن هيئته تدل على أنه مجرتون».

وسألته مرتابة:

- نسافر إلى أين؟

وتراجعت متقدمة على غير إرادة منها.

قال لها :

- أئن لي أن أعرف! كل ما أعرفه أن الطريق الذي سقطعه واحد. أنا واثق بهذا، ولا أعرف شيئاً سواه. وأن هدفنا واحد أيضاً.

كانت تنظر إليه ولا تفهم. كل ما كانت تدركه هو أنه إنسان شقي شقاء رهيباً، شقي إلى غير نهاية.

وأضاف راسكولنيكوف يقول:

- ما من أحد منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه. أما أنا فقد فهمتك. أنا في حاجة إليك. ولهذا السبب إنما جئت.

تمتت صونيا قائلة:

- لست أفهم . . .

- ستفهمين في المستقبل. ألم تفعلني مثل الذي فعلت أنا؟ أنت أيضاً خرقت القانون، أنت أيضاً . . . أنت أيضاً دمرت حياءً . . . هي حياتك أنت . . . ولكن ما الفرق؟! كان يمكنك أن تعيشي بروحك وعقلك. ولسوف ينتهي بك المطاف في المستقبل إلى قرب سوق العلف . . . ولكنك لن تستطيعي أن تحتملي ذلك، فإن بقيت وحيدة فسوف تفقدين عقلك مثلثي. إنك منذ الآن أشبه بمحنة. فلماذا لا نسافر إذن معاً، لماذا لا نتبع طريقاً واحداً؟ فلننسافر!

تمتت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً قوياً:

- لماذا، لماذا تقول هذا الكلام . . .

- لماذا؟ لأن بقائي على هذه الحال أصبح مستحيلاً. هذا هو السبب. لا بد للمرء آخر الأمر أن يقف وجهاً لوجه أمام متابعيه وينظر إليها بجرأة وجذب، بدلاً من أن يبكي، بدلاً من أن يصرخ فائلاً كطفل صغير: «الله لن يسمح بهذا». قولي لي: ما الذي سيحدث إذا اقتادوك

غداً إلى المستشفى؟ إن الأخرى قد فقدت عقلها، وهي مصابة بداء السل، وستموت قريباً. والأولاد؟ هل يمكن أن لا تضيع بوليتشكا هي أيضاً؟ ألم ترى هنا، في نواصي الشوارع، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم في طلب الصدقات؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات، وفي أي ظروف يعيشن. إن الأطفال لا يمكن أن يبقوا في أمثال تلك الأماكن أطفالاً. في أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذي عمره سبع سنين، داعراً أو لصاً. والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح، «لهم ملکوت الرب»<sup>(22)</sup>؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم. هم إنسانية المستقبل... رددت صونيا تقول وهي تلوى يديها ألمًا وتجهش باكية بكاء هستيرياً:

- ما العمل إذاً؟ ما العمل؟

- ما العمل؟ نحطّم مرةً واحدة كلَّ ما يجب تحطيمه، ولا شيء غير ذلك. نتحمل العذاب! ماذا؟ ألا تفهمين؟ سوف تفهمين في المستقبل! الحرية والسيطرة، السيطرة خاصة! السيطرة على جميع المخلوقات المرتجفة، على كل هؤلاء النمل... ذلك هو الهدف! تذكري هذا! تلك هي وصيتي لك. لعلَّ هذا آخر مرة أكلمك فيها. إذا لم أجِيء غداً، فستعلمين كل شيء بنفسك، فاذكري حينئذ كلماتي. قد تفهمين معناها في يوم من الأيام، بعد سنة، ولكن إذا جئت غداً، فسأقول لك من الذي قتل اليزافيتا. وداعاً!

ارتعدت صونيا ذعراً. وسألته وهي ترمي بنظرة متوجحة:

- أنت تعرف حقاً... من الذي قتلها؟

- أعرف ذلك، وسأقوله لك... لك وحدك! لقد وقع اختياري عليك. لن أجِيء إليك لاستغفرك، وإنما لأحدثك ببساطة. لقد اخترتكم، منذ مدة طويلة لأحدثكم، اخترتكم منذ اللحظة التي كلامني

فيها أبوك عنك، وكانت إليزافيتا ما تزال حية... وداعاً! لا تناوليني  
يدك! إلى الغدا!

وخرج. كانت صونيا تنظر إليه وكأنها تنظر إلى مجنون، ولكنها كانت هي نفسها أشبه بمجونة، وكانت تشعر بذلك. وكانت تحس بدوار.

تساءلت: «رباه! كيف يعرف من الذي قتل إليزافيتا؟ ما معنى هذه الأقوال؟ فظيع، فظيع!...» ولكن في الوقت نفسه لم تخطر لها فكرة أن... لم يخطر ببالها هذا في لحظة من اللحظات، لم يخطر ببالها في أية لحظة من اللحظات! وقالت تحدث نفسها: «لا بد أنه شقي، لا بد أنه شقي شقاء رهيباً! ترك أمه وأخته. لماذا؟ ماذا جرى؟ ما نياته؟ ماذا قال لي؟ لقد لثم قدمي وقال لي... قال لي... (نعم...) قال لي ذلك بوضوح...) قال لي إنه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدوني... آه... رباه!...»

قضت صونيا الليل كله في حمى وهذيان. فتارة تنهض بوئبة واحدة فتأخذ تبكي وتلوى يديها ألمًا، وتارة تهوي إلى نوم محموم فترى في الحلم بوليتشكا وكاثرين إيفانوفنا وإليزافيتا وقراءة الإنجيل... وتزاه هو... هو... بوجهه الشاحب، وعينيه المتقدتين، يلثم قدميها، ويبكي... آه... يا رب!..

وراء الباب، وراء ذلك الباب نفسه الذي يفصل غرفة صونيا عن شقة جرترود كارلوفنا ريسليخ، كانت توجد غرفة وسيطة، خالية منذ مدة طويلة، هي جزء من شقة السيدة ريسليخ، وكانت السيدة ريسليخ تريد أن تؤجرها، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعة على باب مدخل العمارة، والأوراق الصغيرة الملصقة على زجاج النوافذ التي تطل على القناة. وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خاليةً غير مسكونة. غير

أن السيد سفيديريجايلوف كان قد التصدق طوال هذا الوقت كله بالباب في هذه الغرفة الخالية، فأصغى إلى كل الحديث الذي جرى بين صونيا وراسكولنيكوف، حتى إذا خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظة يفكر، ثم رجع سائراً على رؤوس الأصابع إلى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الخالية، فتناول كرسياً وجاء يضعه برفق وهدوء على الباب المؤدي إلى غرفة صونيا. لقد شاقه الحديث الذي جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً، ورأى أنه جدير بأن يسمع وأن يحفظ؛ وبلغ من شدة إعجابه بهذا الحديث ورضاه عنه وابتهاجه به حد أنه حمل الكرسي وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر في المرة القادمة التي قد يكون الغد موعدها - من يدرى؟ - أن يزعج نفسه بالبقاء واقفاً طوال ساعة كاملة. هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة، فتكون متعته من جميع النواحي كاملة.

## الفصل الخامس

اليوم التالي، في الساعة الحادية عشرة تماماً، حين وصل راسكولنيكوف إلى قسم الشرطة، ودخل على مكاتب مفروض التحقيقات<sup>(23)</sup>، وطلب مقابلة بورفيري بترروفتش، أدهشه أنه طلب إليه أن ينتظر. لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى، وكان يتباً أن يُستقبل فوراً، وأنهم لا بد أن ينقضوا عليه حالاً.

ظل واقفاً في وسط قاعة الانتظار، بينما كان يذهب ويجيء من حوله أناس لا يبدو عليهم أنهم يكترون به أي اكتراث. وفي الغرفة المجاورة التي يدل مظهرها على أنها غرفة مكتب، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذي يعمله هناك.

وكان راسكولنيكوف يُجill على ما حوله نظرة قلقة فيها ارتياخ، متسائلاً: ثري ألا يوجد هنا، على مقربة منه، شخص سري ما، جاسوسٌ ما، مكلف بمراقبته، ويمنعه من الخروج إذا هو أراد أن يخرج؟ ولكن لا... لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل. لم يكن ثمة إلا مستخدمون صغار، غارقون في أعمالهم الصغيرة، وأشخاص آخرون، لكن هؤلاء الأشخاص جميعاً كانوا هم أيضاً لا يهتمون به، ويدعون له أن يتنقل حراً على ما يشاء له هواء.وها هي ذي فكرة تنبت في ذهنه

وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً: لو كان ذلك الشخص اللغز الذي لقيه بالأمس، لو كان ذلك الشبح الذي ظهر له من تحت الأرض، لو كان يعلم كل شيء، لو كان قد رأى كل شيء، أفكان يُترك له، هو راسكولنيكوف، أن يتنتظر هذا الانتظار هادئاً؟ أفكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة، حتى الساعة التي ارتأى فيها أن يجيء من تلقاء نفسه ليدللي بإفادته؟ إذن لم يش به ذلك الرجل بعد... أو أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وكيف كان يمكن أن يرى أي شيء على كل حال؟). وإذا لم يكن كل ما حدث له بالأمس، هو راسكولنيكوف، إلا سرابة، إلا رؤياً ضحّمها خياله المهاج المريض. إن هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسه على راسكولنيكوف منذ أمس، في لحظة هي من أعنف لحظات شعوره بالخطر ومن أقوى لحظات إحساسه باليأس.

وفيما كان راسكولنيكوف يفكر في هذا كله مرة أخرى، وفيما كان يتهياً لکفاح جديد، شعر فجأة بارتعاش، فغلت نفسه غلياناً شديداً إذ تصور أنه إنما يرتعش خوفاً، لأنه سيقف أمام بورفيري بتروفتش الكريه. إن أفعع شيء هو أن يلقى هذا الرجل من جديد. أنه يكرهه كرهاً لا حدود له، كرهاً ليس له نهاية. وكان يخشى أن يؤدي به هذا الكره، على نحو من الأنحاء، إلى أن يفضح نفسه. وبلغ غضبه من القوة أنه أوقف ارتعشه فوراً. وأعد راسكولنيكوف نفسه لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء، وحلف ليقين صامتاً إلى أبعد حدود الصمت، يفتح عينيه وأذنيه ويسيطر في هذه المرة، على الأقل، على مزاجه المهاج المريض، مهما يحدث من أمر...

وفي اللحظة التي اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار، دُعي إلى الدخول على بورفيري بتروفتش.

كان بورفيري بتروفتش عندئذ وحيداً في غرفته. إنها حجرة لا هي بالكبيرة ولا هي بالصغرى، تضم مكتباً كبيراً موضوعاً أمام ديوان مغطى

بكماش مشمع، وتضم منضدة، وخزانة في ركن من الأرکان، وعدة كراسی من خشب أصفر تقشر طلاوة؛ وهذا كلہ من أثاث الإداره. وفي الجدار الذي يقع في آخر الغرفة، أو قل في الحاجز الذي يقع في آخر الغرفة، يوجد باب مغلق: فلا بد إذاً أن وراء هذا الحاجز حجرات أخرى.

فما أن دخل راسكولنيکوف حتى أغلق بورفيری بتروفتش ذلك الباب الذي كان قد دخل منه، وبقي الرجلان وحيدین.

استقبل مفوّض الشرطة زائره طلق المھيأ متودداً متحبباً في ظاهر الأمر، ولم يستطع راسكولنيکوف إلا بعد عدة دقائق أن يدرك من بعض العلامات أن بورفيری بترورفتش مرتبك بعض الارتكاب، فكانه أزعج أثناء قيامه بمهمة سرية.

بدأ بورفيری بترورفتش يتكلم وهو يمد إلى راسكولنيکوف يديه قائلاً:  
- آ... عزيزي... هأنت ذا إذا... في نواحينا... تفضل...  
جلس يا عزيزي! ولكن لعلك لا تحب أن أخاطبك بقولي يا عزيزي،  
وعدم التحرج، أرجوك... ولكن لماذا لا تجلس؟ جلس هنا، على  
الديوان... .

جلس راسكولنيکوف دون أن يحوّل عنه عينيه.

وقال يحدث نفسه مرتابة: «في نواحينا... اعتذارات عن رفع الكلفة  
وعدم التحرج... هذا التعبير الفرنسي tout court <sup>(24)</sup> هكذا!... لا تحسب هذا نوعاً من رفع الكلفة  
صحيح أنه مدّ إلى يديه، لكنه لم ينأولي لا هذه ولا تلك منهمما، بل  
سجّبهما في الوقت المناسب...».

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصدّه، ولكن ما أن تلتقي  
نظراتهما حتى يحوّلاها بسرعة كومض البرق.

قال راسكولنيکوف:

- جئتك بالعرضة الصغيرة... في موضوع الساعة... إليك هي.  
أهكذا يجب أن تحرر أم علي أن أعيد كتابتها؟

- ماذا؟ أي عرضة؟ آ... نعم، نعم، اطمئن، هذا هو المطلوب تماماً.

فذلك قال بورفيري بتروفتsh بسرعة كأن أمراً ما كان يستحثه، ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة. وواصل كلامه بذلك التعجل نفسه فقال مؤكداً:

- ذلك هو المطلوب تماماً. لا يجب أكثر من هذا...

ووضع الورقة على مكتبه. ثم بعد دقيقة، بينما كان يتكلّم في أمر آخر، تناول الورقة من جديد ووضعها على منضدة الكتابة.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال:

- قلت لي بالأمس، فيما يخيّل إلى... أنك توّد... أن تستجوبني... رسميأ... عن علاقاتي... بالمرأة القتيل... وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه مؤنباً: «عجب... لماذا أضفت جملة «يخيّل إلى» هذه؟»

ثم ومضت في ذهنه على الفور فكرة جديدة كومض البرق: «ولكن لماذا أفلق هذا القلق كله من قوله يخيّل إلى؟؟؟

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفيري بتروفتsh، وهذه الكلمات وهذه النظارات المتبادلة وحدها كانت كافية لأن تحدث في نفسه ارتياحاً فطيعاً... وأن هذا كله خطر، خطير خطيراً رهيباً، وأعصابه تتوتّر، واضطرابه يزداد ازدياداً شديداً. فقال لنفسه مقرعاً: «غلط، غلط، سأفضح أمري من جديد».

جمجم بورفيري بتروفتsh يقول:

- نعم، نعم، اطمئن... ليس الأمر بمستعجل... ليس الأمر بمستعجل البتة...

وكان بورفيري بتروفيتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً، ولكن دون ما هدف فيما يبدو، كأنه لا يعرف ما الذي كان يجذبه نحو النافذة، ثم يجذبه نحو مكتبه، ثم يجذبه نحو النافذة فالمكتب من جديد. وكان، وهو يسير، يتحاشى نظر راسكولنيكوف الريابة ولكن كان في بعض الأحيان يتوقف فجأة، فيتحقق إلى محدثه وجهاً لوجه. أنه لمشهد غريب، مشهد هذا الرجل القصير السمين، المدور ككرة، الذي كان كأنه يتدرج من هنا وهناك، ثم يعود يثبت على الفور من جميع الجدران، وجميع الأركان.

- أمامنا متسع من الوقت، أمامنا متسع من الوقت... هل تدخن؟ هل تملك ما... إليك سيجارة (قال ذلك وهو يمد سيجارة إلى ضيفه)... إنني أستقبلك هنا، ولكن شقتي هناك، وراء هذا الحاجز. أنا أسكن على نفقة الدولة، ولكنني أسكن مؤقتاً في خارج الدائرة كما تعلم... نعم، ذلك أن هناك إصلاحات صغيرة وجب إجراؤها هنا، وقد أشكت الآن أن تنتهي. شيء عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة، هه؟ شيء عظيم جداً. ما رأيك؟ هه؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقي عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

- نعم، شيء عظيم جداً!

فرد بورفيري بتروفيتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكر فجأة في شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف:

- شيء عظيم جداً، شيء عظيم جداً...

وأضاف بما يشبه أن يكون صرخاً، وهو يتحقق إلى راسكولنيكوف متوقعاً أمامه:

- نعم، شيء عظيم جداً.

إن هذه الطريقة الحمقاء السخيفة في ترداد هذه العبارة (إن السكن على نفقة الدولة شيء عظيم جداً) تناقض ما كان قاضي التحقيق يرمي به

راسكولنيكوف من نظرة جادة، متأملة، ملغزة. ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولنيكوف، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فإذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش، فيسأل بورفيري بتروفتش فجأة، وهو يلقي عليه نظرة تكاد تكون وقحة، حتى لكانه يجد في وقاحته هذه لذة ومتعة:

- هل تعلم أن هناك، فيما يقال، قاعدة قضائية، أسلوبياً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق، هو أن يتحدث أحدهم أولاً في أمور تافهة سخيفة أو حتى في أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذي يستجوه، أو قل من أجل أن يسهّله، من أجل أن ينوم انتباهه، ثم إذا هو يهوي على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب؟ أليس هذا صحيحاً؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طُبِّق حتى الآن تطبيقاً دقيقاً، وروعي مراعاة تامة، أليس كذلك؟

- إذاً أنت تظن... إذاً، أني إنما حدثتك عن المساكن التي تقدمها الدولة على نفقتها، من أجل أن... هـ؟

قال بورفيري بتروفتش ذلك، وغضّن جفنيه وطرف عينيه وبيان في وجهه تعبير عن مرح ومكر، وأمحى تجاعيد جبينه الدقيقة، وتضيق عيناه الصغيرتان، وتمددت أخيراً قسماته، فحدق إلى عيني راسكولنيكوف وانفجر يضحك ضحكاً عصبياً طويلاً يهزُ جسمه كله. وأراد راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته في الضحك، فهمّ أن يضحك هو أيضاً، ولكن بورفيري بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف يوشك أن يشاركه ضحكة، انتابته نوبة مسحورة من ضحك بلغ من القوة أن وجهه احمرأً شديداً، فتغلب اشمئزاز راسكولنيكوف عندئذ على تعقله، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر إلى بورفيري بتروفتش طويلاً، نظرة كارهة حاقدة، وظلَّ لا يحول عنه بصره أثناء

ضحكه المفتعل الطويل بلا نهاية، كأنما عن قصد وعمد. والحق أن الرجلين كليهما لم يلتزما جانب الحكم والتبصر والتعقل: فأماما بورفيري فكان كمن يسخر من زائره صراحةً، وأماما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره شديد، وهو كره لم يظهر على القاضي أنه ضاق به أو ازعج منه على كل حال. وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف: لقد أدرك راسكولنيكوف أن بورفيري لم يكن مرتبكاً أي ارتباك منذ قليل، بل بالعكس إنه هو، الذي وقع في الفخ، وأن هناك أمراً يجعله ولا شك، أمراً مدبراً منذ زمن بعيد سينكشف بعد لحظة وسينصب على رأسه.

لذلك انتقل إلى الجد قُدْمًا، فنهض متناولاً قبعته، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها اهتياجاً قوياً:

- يا بورفيري بتروفتش، لقد أعرّبت أمس عن رغبتك في أن تراني من أجل أن تستجوبني (أبرز راسكولنيكوف الكلمة «تستجوبني» هذه)، وهأناذا قد جئت، فإن كنت في حاجة إلى أن تعرف شيئاً ما، فاستجوبني، وإنما فاسمح لي أن أنصرف. ليس في وقتي متسع. هناك أمور تناديني... يجب علي أن أحضر دفن ذلك الموظف الذي داسته الخيل أمس... وأضاف يقول: وقد سمعت أنت عن الحادثة التي وقعت له... .

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فازداد من ذلك غضبه، وتتابع كلامه فقال:

- لقد تعبت من هذا كله، تعبت، هل تفهم؟ تعبت منذ زمن طويـل... ولعل ذلك أحد الأسباب التي جعلتني مريضاً... .

وشعر مرة أخرى بأن الجملة التي أضافها عن مرضه ليست في محلها أيضاً، فتابع يقول رافعاً صوته:

- الخلاصة... استجوبني من فضلك... أو دعني أنصرف فوراً. ولكن إذا استجوبتني فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول المطلوبة

والقواعد المتبعة، ويغير ذلك لا أسمح لك به. لذلك أوذعك الآن  
فليس علينا أن نجلس هنا وحدنا.

صات بورفيري بتروفيتش يقول مغيّراً لهجته ووضعه على حين فجأة،  
متقطعاً عن الضحك دفعة واحدة:

- عجيب! ماذا جرى لك؟

ثم أردف يقول:

- اطمئن، أرجوك...

وكان يذهب ويجيء مهموم البال. وفجأة طلب إلى راسكولنيكوف  
أن يجلس، وقال له:

- لدينا متسع من الوقت، متسع من الوقت، وهذا كله لا قيمة له  
البطة. بالعكس: أنا مسرور جداً من أنك جئت إليناأخيراً! إنني أستقبلك  
كما يستقبل ضيف. أما عن ذلك الضحك اللعين، فاعذرني يا عزيزي  
روديون رومانوفتش... هذا هو اسمك، أليس كذلك؟ روبيون  
رومانيتش... إن ملاحظتك المرهفة قد أثارت في نفسي مرحاً  
شديداً... حقاً أنه ليتفق لي أحياناً أن أتواثب ككرة من المطاط بسبب  
الضحك طوال نصف ساعة. إنني سريع إلى الضحك. حتى إنني أخشى  
أن أصاب بنوبة قلبية، وأنا بدين. ولكن لماذا لا تجلس؟ هلاً جلست!  
أرجوك أن تجلس يا عزيزي، وإلا اعتقدت أنك زعلان!

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغي ويلاحظ، وما يزال مقطّب  
الحاجبين من الغضب. وقد جلس، لكنه ظلّ ممسكاً بقعته بيده.

وابع بورفيري بتروفيتش كلامه وهو ما يزال يتتجول في الغرفة،  
ويتحاشى نظرة ضيفه، فقال:

- سأذكر لك شيئاً يا عزيزي روبيون رومانوفتش، لأعطيك فكرةً عن  
طبيعتي. أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى، فأنا إذا لا أعاشر الناس ولا  
أختلف إلى المجتمع كثيراً، وأنا إذاً رجل غامض، مجهول. وأنا عدا

ذلك إنسان مكتمل التكوين، متعظم الجسم، متاخر الإحساس، و... . هل لاحظت يا روبيون رومانوفتش أنه عندنا، أقصد عندنا في روسيا، ولا سيما في أوساطنا البطرسبرجية، ما أن يلتقي شخصان ذكيان لا يعرف أحدهما الآخر بعد معرفة جيدة، ولكنهما بالمناسبة يحترمان بعضهما البعض احتراماً تماماً مثلنا نحن، أنا وأنت، إن صح التعبير حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها أحدهما للأخر؟ أن كلاً منهما ينظر إلى صاحبه ككلبين من خزف، وأن كلاً منها يجلس قبالة الآخر ويخشى صاحبه ويختلف منه. أن لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه، السيدات مثلاً... أو أفراد المجتمع الرافي... أفراد الطبقة العليا... نعم، أن لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه *c'est de rigueur* «ذلك واجب لا مفرز منه»<sup>(25)</sup> ولكن أفراد الطبقة المتوسطة... الأفراد الذين هم مثلنا... يكونون دائماً مرتباً صوتين... أعني منهم أولئك الذين يفكرون. فما سبب هذا يا عزيزي؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هي التي تعوزنا، أم نحن أناس شرفاء جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه؟ لا أدرى... فما رأيك أنت؟ ولكن هلاً تركت قبعتك! لكأنك تريد أن تنصرف فوراً. هذا مؤسف. أما أنا فمسرور حقاً... .

ترك راسكونيکوف قبعته، ولكنه ظل صامتاً متوجه الوجه يصغي بجدٍ ورصانة إلى ثرثرات بورفيري بتروفتش المفككة، متسائلاً بينه وبين نفسه: «أ يريد حقاً أن ينوم انتباхи بهذا السيل المتدفق من اللغو النافع السخيف؟»

وواصل بورفيري بتروفتش كلامه يقول:

- لست أقدم لك قهوة، فليس هذا بالمكان المناسب. ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق... لتسلية قليلاً... هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم... وأرجوك خاصة يا عزيزي أن لا

تزعل إذا رأيتني على هذه الحال أسيير في الغرفة طولاً وعرضًا...  
معدنة يا عزيزي... أبني أخشى كثيراً أن أزعلك... ولكن لا بد لي  
من شيء من الرياضة... أبني جالس دائمًا... ويسريني كثيراً أن يتابع  
لي الآن أن أمشي قليلاً خلال خمس دقائق... هي البواسير يا  
عزيزي... وأنا أريد دائمًا أن أعالجها بالتمارين الرياضية... يقال إن  
رجالاً من مستشاري الدولة، رجالاً من كبار موظفي الدولة<sup>(26)</sup>، يقفزون  
على الحبل كل يوم على نظام مطرد، ويجدون في ذلك لذة. نعم، ها  
هو معنى العلم في أيامنا... أما التزاماتي هنا، أما هذه الاستجوابات  
وهذه الشكليات كلها التي جئت على ذكرها، فعليك أن تعلم حقاً يا  
عزيزي روبيون رومانوفتش أن هذه الاستجوابات كثيراً ما تحير القاضي  
أكثر مما تحير المتهم... كما ألمحت أنت إلى ذلك بكثير من رهافة  
الملاحظة ونفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمح إلى شيء من  
هذا البتة). نعم، إن المرء ليربك، ليربك حقاً، وتحتلط عليه الأمور.  
وهذا يتكرر هو نفسه دائمًا، يتكرر مراراً وتكراراً، على وتيرة واحدة،  
كقرع الطبل... نغمة واحدة... على أننا موعدون الآن بإصلاحات،  
فستتغير أسماؤنا<sup>(27)</sup> على الأقل. هي هي هي!.. أما عن أساليبنا  
القضائية - على حد تعبيرك الظريف الفكه - فأنا أوفقك على رأيك كل  
الموافقة. قل لي من فضلك: أي متهم لا يعرف، ولو كان أحجهم فلاح،  
أن المحقق إنما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حد تعبيرك المناسب  
الموقن)، بأن يلقى عليه أسئلة لا تمت إلى الموضوع بصلة، ثم يهوي  
على رأسه بالموضوع كأنه يهوي عليه بفأس... هي هي هي... على  
رأسه بالذات... بتعبيرك الموقن أيضاً... هي هي هي!.. إذن لقد ظنت  
فعلاً أنني حين حدثتك عن مسألة السكن على نفقة الدولة إنما كنت  
أريد... هي هي! يا لك من مازح! لا، لن أستمر في ثرثري، إذن...  
آ... بالنسبة... أن كلمة تستدعي كلمة أخرى، وأن فكرة تستحضر  
فكرة ثانية... لقد أشرت، منذ قليل، إلى أصول الاستجواب

وقواعد، كما تذكر... أشرت إلى الشكل الذي يجب التقييد به في الاستجواب. ولكن قل لي: ما هو الشكل؟ أن الشكل، في كثير من الأحيان، لا يكون له أي معنى. ورب حديث ودي أنفع كثيراً من استجواب يتقييد فيه المحقق بالشكل، ويلتزم فيه القواعد والأصول. طبعاً... أما الشكل فلا مفرّ منه في آية حال، وفي وسعك أن تطمئن من هذه الناحية. ولكن اسمح لي بالسؤال ما هو الشكل في حقيقة الأمر؟ ليس ينبغي للشكل أن يعرقل عمل قاضي التحقيق في كل لحظة. أن مهنة قاضي التحقيق فنٌ حر إن صح التعبير... أو هي شيء من هذا القبيل... هي هي هي!..

توقف بورفيري بتروفتش ليسترد أنفاسه. كان يتكلم متذوقاً كالسيل، فتارةً يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل، وتارةً يدس كلمة صغيرة غامضة وغريبة، ليعود بعد ذلك فوراً إلى هذره التافه ولغوه السخيف. وكان كمن يركض في الغرفة ركضاً، هازأ ساقيه القصيرتين السمينتين مزيداً من الهز، واضعاً يده اليمنى وراء ظهره، وهو يحنى رأسه محركاً باستمرار يده اليسرى بإشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً.

ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو ثلاثة أمام الباب، وبدأ عليه أنه يصيخ بسمعه لحظة. تساؤل راسكولنيكوف «أهو يتظر شيئاً؟»

واستأنف بورفيري بتروفتش كلامه فقال مرحباً وهو يلقي نظرة ساذجة إلى درجة عجيبة، أزعشت الشاب وجعلته يتحفز فوراً:

- الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من إجراءاتنا القضائية بمثل هذه الطريقة الظرفية... هي هي... إن أساليبنا - بعضها لا كلها طبعاً - توهم بأنها مستوحاة من سيكولوجيا عميقة، مع أنها في حقيقة الأمر مضحكة تماماً، بل هي في كثير من الأحيان عقيمة، ولا سيما عند التقييد

بالشكل تقيداً دقيقاً. ولكن... فلنعد إلى مسألة الشكل هذه نفسها:  
لنفرض أنني مكلف بالتحقيق في قضية، وأنني أعرف أو قل أعتقد أنني  
أعرف أن الجاني هو فلان أو فلان... أنت تتهيأ لمهنة القضاء يا  
روديون رومانوفتش، أليس كذلك؟

- نعم، كنت أدرس القانون.

- طيب، هذا إذاً مثال صغير يمكن أن يفيدهك في المستقبل، إن صح التعبير. آه... لا يذهبين بك الظن إلى أني أريد أن ألقنك دروساً أنت الذي تكتب مثل هذه المقالات الجدية عن الإجرام. لا، أبداً، فإنما أجزئ على أن أضررك لك هذا المثال من حيث هو واقعه. لنفرض أني ظننت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو الجاني. فعلام أطلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة، حتى ولو ملكت أدلة عليه؟ صحيح أني قد أضطرر أن اعتقل فلاناً بأقصى سرعة، ولكن فلاناً الآخر الذي ليس له ذلك الطبع نفسه، قد أتركه يتتجول في المدينة، هه؟ أحسب أنك لا تفهمعني تماماً، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد منوضوح. لنفرض أني قبضت عليه قبل الأولان، أفلست أمنحة بذلك نوعاً من عون نفسي؟ هه؟ أياضحك هذا الكلام؟ (أن راسكولنيكوف لم يخطر بباله قط أن يضحك). كان جالساً، كازاً شفتيه، لا يحول عن عيني بورفيرى بتروفتش نظرته المتقدة الملتهبة). هذا هو الأمر رغم ذلك، ولا سيما مع بعض الأفراد. نعم نعم، الأفراد متتنوعون تنوعاً كبيراً، ولا بد من تنوع الأسلوب بتتنوع هؤلاء الأفراد. قد تقول لي أن هناك أدلة... طيب: لتسسلم بأن هناك أدلة! ولكن الأدلة يا عزيزي تكون في أكثر الأحيان ذات حدئين، وأنا قاضي تحقيق، فعندي إذاً نواحي ضعف، أعترف لك بذلك. أنا أتمنى أن يكون دليلي قاطعاً صارماً كاستدلال رياضي، كبرهان رياضي. أنا في حاجة إلى برهان بدائي كقولك أن اثنين واثنين أربعة، أو إلى شيء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً في وضوحاً وجلاه. فإذا اعتقلتُ الشخص قبل الأولان، فإنهن، مهما يكن

افتتاعي قوياً بأنه هو الجاني، أحرم نفسي بذلك من الوسائل التي ستحمله على الكشف عن نفسه كشفاً أتم. لماذا؟ لأنني أكون قد ألمته بوضع معين إن صح التعبير، أي أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية فيفلت مني ويدخل في قواعته، لعلمه بأنه اعتقل وانتهى الأمر. يقال إن الناس الأذكياء في سبياستوبول، بعد معركة ألما<sup>(28)</sup> رأساً، قد خافوا كثيراً في أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولي على سبياستوبول في الحال. فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بمحصار على الأصول، فبدأ يحفر الخندق الأول، سرروا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً. فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت. ما بالك تضحك أيضاً؟ أما تزال لا تصدقني؟ أنت على حق، من وجهة نظرك، على ح.. . .ق! هذه حالات خاصة، وأنا أواقفك كل الموافقة. أن الحالة التي أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً. ولكن يجب علينا يا عزيزي روديون رومانوفتش أن نعلم حق العلم أن الحالة العامة التي تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة، والتي على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وتُسجل في الكتب، لا وجود لها على الإطلاق، وذلك لسبب بسيط هو أن كل فعل، ولنفترض أنه جريمة، سرعان ما يتحول إلى حالة خاصة، بل إلى حالة خاصة جداً لا تشبه في شيء أي فعل آخر. وفي بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة في نوعها. ففي تلك الحالات أدع الشخص وحيداً، لا أزعجه، لا أعتقله، ولكنه إذا علم أنني في كل ساعة، بل في كل دقيقة، أعرف كل شيء، وأنني أراقبه ولا تغمض عيني عنه؛ إذا أصبح فريسة ارتياح مستمر وخوف متصل، فيميأنا ليأخذنه عندئذ دوار، ولبيائين من تلقاء نفسه. وقد يحدث أيضاً أن ينساق إلى اعتراف شيء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة، شيء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضي. وتلك هي المتعة واللذة في الأمر. يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط، ويمكن أن يحدث لرجل من

أشباهنا، لرجل ذكي عصري مثقف. ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزي أن نعرف الاتجاه الذي تطور فيه شخص من الأشخاص. ثم إن هناك الأعصاب، الأعصاب، أتراك نسيت الأعصاب؟ الأعصاب هي الضعفية الآن، هي المريضة، هي المستثارة. وما قولك في الاهتمام؟ أن اهتماجاً كثيراً قد تجمع وتراكم في الناس! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب! فهل يضرني إذاً أن أترك الجاني يتتجول في المدينة حراً طليقاً؟ لا فليس تمر على التجول. إنني لا أعتراض على هذا أي اعتراض. فأنا أعلم، مهما يحدث، أنه «فريستي العزيزة» وأنه لن يفلت مني! إلى أين عساه يهرب؟ إلى الخارج؟ قد يهرب بولندي إلى الخارج، أما هو فلن يهرب، لا سيما وأنه تحت بصري وسمعي، وأنني اتخذت الاحتياطات الالزمة. أتراه يفر إلى آخر البلاد؟ ولكن في آخر البلاد لا يعيش إلا فلاانون، لا يعيش إلا روس حقيقيون، أما هو الذي تثقف ثقافة حديثة، فإنه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاحينا... هي هي... على أن هذا كله أمازيع على الهاشم. ما الهرب؟ أمر شكلي صرف. ليس هذا هو الشيء الأساسي. فالرجل لن يهرب، لا لأنه لن يعرف إلى أين يذهب فحسب، بل هو لن يهرب لأسباب سيكولوجية أيضاً... هي هي... هي هي... تعبر موفق جداً، هي لا، لا، أنه لن يهرب، وذلك بفعل قانون طبيعي، حتى ولو عرف إلى أين يذهب! أمارأيت فراشة تحوم حول شمعة؟ لا أنه سيدور حولي دوران الفراشة حول الشمعة. ستأخذ تثقل عليه الحرية، وسيأخذ يفك، وسيرتبك؛ سيقع في شباك ينسجها هو نفسه، سيخلق لنفسه خوفاً رهيباً. بل أنه سيهبي لي مهزلة رياضية يدعها هو، مهزلة من نوع «اثنين زائد اثنين يساوي أربعة»، شريطة أن أدع له فرصة بطبعية الحال. وسيظل، بغير انقطاع، يحوم حولي على دوائر ما تنفك تضيق، ثم إذا هو يسقط في فمي دفعه واحدة، فأبلغه، وما أللّ هذا! هي هي، ما رأيك؟

لم يجب راسكولنيكوف. ظل جالساً، شاحب الوجه، جامداً، ما ينفك يحدق إلى وجه بورفيري بترورفتش بانتباه ثابت.

حدث نفسه يقول متجمداً من الرعب: «هذا درس رائع... ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تعبث بالفأرة كما كانت بالأمس. لا، ليست قوته هي ما يريده اليوم أن يظهره لي في غير طائل، أو أن يوحى إليّ به... هو أذكي من أن يفعل ذلك. إن له الآن هدفاً آخر، فما هو هذا الهدف؟ دعك يا صاحبي، غباءً ما تفعل، سخافات... أنت تحاول أن تخيفني... أنت تمكر وتحتال... ليس لديك أي دليل. ورجل الأمس لا وجود له. أنت تحاول أن تربكني وأن تشوشني وأن تثير أعصابي سلفاً حتى تهوي عليّ بالضربة المفاجئة متى انهدت قواي... ولكن خاب فألك، ولوسوف تطيش ضربتك فما تصيب هدفاً، نعم، سوف تطيش ضربتك... ولكن ما باله يوحى إليّ بما يجب أن أعمله! إلى هذا الحد، ليس الأمر طبيعياً!... فهو يعول على أعصابي المريضة؟ لا، لا يا صاحبي، لقد أخطأ ظنك، وعمي بصرك... ومهما تكن قد أعددت من شيء... طيب، سنرى ماذا ما أعددت!...»

واستجتمع راسكولنيكوف قواه كلها، يستعد لمواجهة نازلة رهيبة مجهولة. وَدَ في بعض اللحظات لو ينقض على بورفيري بترورفتش فيخنقه في الحال. أنه منذ دخوله قد خشي أن يشعر بمثل هذا الغضب. وهو يشعر الآن بأن فمه جاف، وبأن قلبه يخفق خفقاتاً شديداً، وبأن الزبد يتقططر على شفتيه. ومع ذلك قرر أن يصمت، وأن لا يقول كلمة واحدة قبل أن يحيين الحين. أدرك أن هذه هي الخطة المثلثي في ظرف كظرفة، فهو بذلك يتتجنب فضح نفسه بكلامه، وهو بذلك أيضاً يشير أعصاب محدثه بصمته، فلعل محدثه هو الذي سيفضح نفسه ويكشف عن نياته إذ يتكلم. ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل.

استأنف بورفيري كلامه بمزيد من المرح، حتى لقد كان ينفقن تلذذاً، فقال وهو ما يزال يدور في الغرفة:

- لا، أنت لا تصدقني. أرى أنك لا تصدقني. تظن أنني أمطرك بأمازيع صغيرة تافهة. وأنك لعلى حق طبعاً. فإن الله نفسه قد وهب لي مظهراً جسمياً لا يمكن أن يشير لدى الآخرين إلا خواطر مضحكة. أنا! «مهرج!»<sup>(29)</sup> ولكن إليك ما أريد أن أقوله لك، بل أن أكرره على مسامعك، يا عزيزي روبيون رومانوفتش: يجب عليك أن تعذر الشيخ الذي يكلمك. أنت شاب، أنت في زهرة العمر إن صح التعبير، وانت لذلك تقدر الذكاء الإنساني أكثر من أي شيء آخر، كسائر الشباب. أن حدة الفكر وحجج العقل المجردة تفتتك. أنت على وجه العموم تشبه «المجلس العربي الأعلى»<sup>(30)</sup> الذي كان بالنمسا في الماضي، هذا إذا صدق حكمي في الشؤون العسكرية: أن أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابليون وأسروه، في خططهم التي وضعوها على الورق. نعم، إنهم في مكاتبهم، قد هيئوا كل شيء، ورتبوا كل شيء، بدقة كاملة، ونظام رائع. ذلك ما فعلوه على الورق. أما في الواقع فإن قائدتهم الجنرال ماك هو الذي استسلم مع جيشه كله<sup>(31)</sup>... هن هن هن... أني أرى، يا عزيزي روبيون رومانوفتش أنك تسخر مني، لأنني أنا المدني المحضر أضرب أمثلة مستمدة من التاريخ العربي. ولكن ما حيلتي؟ هذه نقطة الضعف فيّ، أني أحب فن الحرب، وأبلغ من حبه أني أقرأ جميع ما يتصل بالحرب من قريب أو بعيد. لا شك أني أخطأت في اختيار مهنتي في هذه الحياة. كان عليّ أن أعمل في الجيش. هذا حق. لو عملت في الجيش، فلعلني لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابوليون، ولكنني أصبح «ميجر» ناجحاً... هن هن... الخلاصة... ما دمت الآن بسبيل أن أقول لك الحقيقة عن هذه الحالة الخاصة، فإن الواقع والطبيعة، يا سيدي العزيز، هما من الأمور الهامة جداً وفي بعض الأحيان فإنهما يدحضان أكثر الحسابات حكمة! نعم، صدق شيئاً مثلـي. أني أنكلم جاداً لا هازلاً يا روبيون رومانوفتش (حين قال بورفيري بتروفتش هذا الكلام، فإنه وهو الذي لا يكاد يصل إلى الخامسة والثلاثين من عمره، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً؛ حتى

أن صوته تغير، وظهره تحدب). ثم أني رجل صريح. ألسن رجلاً صريحاً؟ ما رأيك؟ أظن أن هذا واضح. أعتقد أني صريح أكثر من اللازم: أنا أقول لك هذا كله مجاناً، لا أطلب جزاء ولا شكوراً، هي... فلأكمل كلامي: أن يكون المرء ذكيًّا فتلك ميزة لامعة فيرأيي. أن الفكر زينة الطبيعة إن صح التعبير، وهو عزاء الحياة. وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكي أن يعمد إليه من حيل. فكيف تريد لقاضي تحقيق مسكيٍّ أن لا يتوه وأن لا يضل في شعاب هذه الحيل، ولا سيما إذا كان خياله نفسه يضلُّه لأنَّ إنسان كسائر البشر، أليس كذلك؟ ولكن الطبيعة نفسها تهب إلى نجدة قاضي التحقيق المسكين، فتخرجه من الارتباك وتنقذه من المأزق. وذلك هو البلاء، وذلك هو ما ينساه شبابنا «الذكي» الذي «يتخطى جميع الحواجز» (على حد التعبير الذي استعملته أنت بالأمس في كثير من الرهافة والمكر). قد يعمد صاحبنا إلى الكذب - أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعين، عن حالة خاصة عن incognito «رجل مجهول»<sup>(32)</sup> - وقد يكذب كذباً فيه غاية البراعة والمكر. وقد يظن عندئذ أنه سينتصر، أنه سيقطف ثمرات مكره، ولكنها هو ذا يغمى عليه فجأة في اللحظة الحرجة الخطيرة! لنسلم بأن علينا أن نحسب حساب مرضه. فكثيراً ما يشعر المرء باختناق حين يوجد في غرفة فاسدة الهواء. ولكن صاحبنا يكون مع ذلك قد قدم إلىينا قرينة من القرآن. صحيح أنه ذر الرماد في العيون بكثير من الحدق والبراعة، ولكنه لم يحسب حساب الطبيعة إلى درجة كافية. وذلك هو الفخ! وفي مرة أخرى ينساق مع ذكائه المتوقّد، فيأخذ يبعث بالشخص الذي يشبه فيه؛ فيُشحب لونه عمداً كأنما ليتسلى، ولكن شحوبه لا يخلو عندئذ من عنصر طبيعي فكانه شحوب حقيقي، غير أنه شحوب زائد، وهذه قرينة أخرى يقدمها. وبه استطاع أن يخدع محدثه في تلك اللحظة، فإن محدثه، إن لم يكن غبياً، لا بد أن يرجع عن خطئه في الليل. نعم، هكذا تجري الأمور في كل خطوة. ثم أنه يبادر هو نفسه إلى السبق، فيأخذ يتدخل في أمور لا يسأله أحد عنها، ويثير دون

انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه، ويترسل في تلميحات وإلماعات. نعم... يجيء من تلقاء نفسه ويأخذ يطرح أسئلة: «لماذا لم يُعقل حتى الآن؟» ألغ. هي هي... وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكي رجل، يمكن أن يقع لعالم نفسي، يمكن أن يقع للأديب. أن الطبيعة مرأة، أن الطبيعة أصفى مرأة، فيكفي المرأة أن ينظر فيها. نعم، هذا هو الأمر. ولكن ما بالك تصفر اصفاراً شديداً يا رواديون رومانوفتش؟ هل ينقصك هواء؟ أفتح النافذة؟

- لا، لا تزعج نفسك! - ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله:

- أرجوك، لا تزعج نفسك!

وقف بورفيرى أمامه، وانتظر قليلاً، ثم انطلق يضحك هو نفسه ضاحكاً مجلجلأً. فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكه الهاستيرى فجأة، وقال بصوت قوى متميز، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه المصطكبتين:

- يا بورفيري بتروفتش، إنني أرى أخيراً بوضوح أنك تشتبه فيَ  
وتنسب إلىَ مقتل هذه العجوز وأختها إليزافيتا. وأنني لأعترف لك من  
جهتي بأنني قد سئمت هذا الأمر وضفت به منذ مدة طويلة. فإن كنت  
تعتقد أن من واجبك أن تلاحقني ملاحقة قانونية فلاحقني، وإن كنت  
تعتقد أن من واجبك أن تعقلي فاعتقلي، ولكنني لا أسمح لأحد أبداً  
بأن يضحك علىَ وأن يعذبني هذا التعذيب.

وأخذت شفته ترتجفان، وسطعت عيناه غضباً، ودوى صوته دوياً قوياً بعد أن كان حتى ذلك الحين مكتوماً. قال يصرخ بكل قواه، وهو يضرب المكتب بقضمه يده:

- لا، لن أسمح بهذا أبداً، هل تسمع يا بروفيري بتروفتش؟ لن  
أسمح بهذا أبداً!

فصاح بورفيري بتروفتش يقول مرتاع الهيئه:

- آه.. يا رب! .. ماذا هنالك؟ عزيزي روديون رومانوفتش،  
صديقي، ماذا أصابك؟

فصرخ راسكولنيكوف يردد مرة أخرى قوله:

- لن أسمح بهذا أبداً!

فدمدم بورفيري بتروفتش يقول بارتياع ويقاد يلصق وجهه بوجه  
راسكولنيكوف:

- طيب، طيب، أخفض صوتك! وإنما قد يسمعون فيجيئون، فما  
عسى نقول لهم إذا جاءوا؟ هلاً فكرت في هذا!

فكان راسكولنيكوف يردد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً:  
- لن أسمح بهذا أبداً، لن أسمح بهذا أبداً!

فاستدار بورفيري وهرع إلى النافذة يفتحها بسرعة شديدة، قائلاً:

- ليدخل شيء من هواء. وأنت تحسن صنعاً يا عزيزي إذا شربت  
قليلًا من الماء، فهذه نوبة...

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء، غير أن إبريقاً ملآن كان  
يوجد هناك، في محله، في ركن من أركان الغرفة، فدمدم يقول وهو  
يركض نحو الإبريق:

- اشرب يا صديقي العزيز، فعسى أن يحسن إليك شرب قليل من  
الماء...

دُهش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا العطف  
اللذين اظهرهما له بورفيري بتروفتش، واللذين كانوا طبيعيين إلى درجة  
أنه سكت ووقف فاغر الفم يلاحظ صاحبه باستطلاع شديد. لكنه رفض  
الماء.

قال بورفيري بتروفتش:

- روديون رومانوفتش، عزيزي! لسوف تفقد صوابك إن أنت أصررت هذا الإصرار، أؤكد لك... خذ... إشرب... اشرب ولو جرعة واحدة.

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس. وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس إلى شفتيه بطريقة آلية، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمئاز.

قال بورفيري بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاطفة والمراعاة، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب:

- نعم، هذه نوبة حقا!.. هانت ذا قد عدت إلى مرضك القديم. رياه! هل يمكن أن لا يداري المرء نفسه إلى هذا الحد؟ لقد جاءني دمترى بروكوفتش أيضاً، أمس... أنا أافق... أافق على أن لي طبعاً شيئاً... أتكلم... وأتكلم... وهذه هي النتائج التي تستخرجها أنت من كلامي! رياه! نعم، جاءني أمس، مساء، بعذر، وتعشينا، وتكلم، وتكلم، فلم أفعل إلا أن أرفع ذراعي إلى السماء! بالمناسبة يخطر بيالى الآن هذا السؤال: أتراك أنت أرسلته؟ ولكن اجلس يا عزيزي! هلاً جلست! إجلس، ناشدتك الله!..

أجاب راسكولنيكوف بلهجة قاطعة:

- لا، لم أرسله أنا... ولكنني علمت أنه جاء إليك، وكنت أعرف سبب مجiente أيضاً...

- كنت تعرف سبب مجiente؟

- نعم، كنت أعرف سبب مجiente، فماذا تستنتج من ذلك؟

- يا عزيزي روديون رومانوفتش، هل تظن أنني أجهل أي عمل من أعمالك؟ أنني أعرف كل شيء، إنني مطلع على كل شيء! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت تستأجر تلك الشقة عند هبوط الليل، وأنك شددت جبل الجرس، وأنك ألقيت أسنانه عن الدم، وأنك حيرت العمال والبواطن.

أنتي أفهم حق الفهم الحالة النفسية التي كنت عليها... ولكنني أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتماً، أحلف لك!.. سوف يستولي عليك الجنون. فالغضب الذي أثارته فيك الإساءات، إساءات القدر أولاً وإساءات رجال الشرطة بعد ذلك، هذا الغضب، مهما يكن غضباً نبيلاً، يغلي غلياناً شديداً في نفسك، وأنت لذلك تندفع إلى هنا وهناك، لتجبر الناس، إن صح التعبير، على أن يصغوا إليك، ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدةً إلى الأبد. نعم، لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات، وستمتن جميع هذه الشبهات. أليس هذا صحيحاً؟ ألم أدرك حالتك النفسية؟.. ولكنني أقول لك: أنك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك، وإنما ستجعل صديقنا رازوميixin يفقد عقله أيضاً. أنه أطيب كثيراً من أن يُقْحَم في مثل هذه الأمور، وأنت تعلم ذلك حق العلم. إنك أنت مريض، أما هو فإنسان طيب، وسيلتتصق مرضك به... سأقصُّ عليك هذا حين تهدأ يا عزيزي... ولكن ما بالك لا تجلس؟ اجلس يا عزيزي، ناشدتك الله! أرجوك، استرح، إن وجهك منقلب... هلاً جلست!..

جلس راسكونيكوف. لقد انقطع ارتجافه، ولكن جسمه كله كان يحترق من الحمى. وكان يصغي إلى بورفيرى بتروفتش الذى يتحرك حوله بكثير من المودة والصداقة، كان يصغي إليه بدهشة ذاهلة وانتباه شديد، لكنه كان لا يصدق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضي التحقيق، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً إلى التصديق. إن الأقوال المفاجئة، غير المتوقعة، التى قالها بورفيرى عن الشقة قد صعقته صعقاً، «كيف؟ أهو يعرف حتى حكاية الشقة هذه؟ ويتحدث عنها هو نفسه؟»

تابع بورفيرى كلامه فقال بسرعة:

- نعم، في حلباتنا القضائية مررت حالة تشبه هذه الحالة تقريراً، حالة سيكولوجية مرضية، كالحالة الراهنة. اتهم رجل نفسه بارتكاب

جريمة قتل. يا لها من قصة! لقد اخترع عالماً بكماله من الأوهام، وقدم وقائع، ووصف ظروفًا... شابك بعضها ببعض! لماذا؟ لأنه، على غير إرادة منه إطلاقاً، كان مسؤولاً بعض المسؤولية عن جريمة القتل تلك - بعض المسؤولية فقط - فلما عرف أنه قد أمدّ الفاعلين بسبب دفعهم إلى ارتكاب جريمة القتل، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب، وأخذ يرتكب حماقات، وأخذت تتراءى له أخيلة وأوهام، واختلطت في عقله الأمور، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل. ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً<sup>(33)</sup>، فبرئ المسكين، وجعل تحت الوصاية. شakra لمحكمة النقض! آ... آ... طبعاً يا عزيزي... من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جانحة إلى الاهتياج هذا الجنوح، وحين يذهب في الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء... إن هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية. حتى لقد يحدث لإنسان في مثل هذه الحالات أن يرغب في إلقاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس. هذا إحساس له إغراء شديد. هو المرض يا روبيون رومانوفتش، هو المرض! أنت قد أسرفت في إهمال معالجة مرضك! كان عليك أن تستشير طبيباً خيراً، لا صاحبك السمين البسيط ذاك! هو الهدىيان يا صاحبي! كل شيء مردٌ عندك إلى الهدىيان!

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عيني راسكولنيكوف، لحظة.

«هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن؟ مستحيل، مستحيل!» ومضت في ذهنه هذه الفكرة، وهو يطردتها عنه لأنه كان يحس مدى ما تدفعه إليه من حنق مسعور، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله.

صاحب يقول وهو يركّز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ إلى لعبة بورفيري:

- أنا لم أكن أهذى! كنت أملك نفسي تماماً، أملك نفسي تماماً، أملك نفسي تماماً، هل تسمع؟

- نعم، أسمع وأفهم. أمس أيضاً قلت أنك لم تكن تهذى، حتى لقد  
الحقت على هذه النقطة. كل ما يمكن أن تقوله، أنا أفهمه. هي  
هي!.. ولكن أصح إلى قليلاً يا عزيزي الشهم، يا عزيزي الطيب  
روديون رومانوفتش. هبنا سلمنا بهذا... لو كنت أنت الجاني حقاً، لو  
كنت أنت الجاني فعلاً، أو لو كان لك أي شأن في هذه القضية  
المشؤومة، أكنت تلح هذا الإلحاح على أنك لم تكن تهذى، وعلى أنك  
فعلت ما فعلت واعياً كل الوعي؟ لهذا ممكن؟ أسألك: هل هذا ممكن؟  
في رأيي أنك كنت ستعمد عندئذ إلى نقىض ذلك تماماً! لو كنت تشعر  
بأنك الجاني، أفما يكون الأفضل عندئذ أن تلح، خلافاً لذلك، على  
أنك إنما فعلت ما فعلت وأنت في حالة هذيان؟ أليس كذلك؟

شعر راسكولنيكوف في هذا السؤال بشيء من المكر. وارتدى إلى  
الوراء مستندًا إلى ظهر الأريكة حينما مال بورفيري بتروفتش نحوه  
صامتاً، فأخذ راسكولنيكوف يحدق إليه مدهشاً مت習راً.

واستأنف بورفيري بتروفتش كلامه فقال:

- كلمة أخرى عن السيد رازوميixin، أقصد عن مسألة كونه أتى إلى  
من تلقاء نفسه أو بتحريض منك. لقد كان من الأفضل لك أن تقول إنه  
جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك، ومع ذلك  
أراك تلح على أن تذكر أنه جاء إلى بتحريض منك.

لم يكن راسكولنيكوف قد ألحَّ على هذا في وقت من الأوقات.  
وشعر بقشعريرة تسري في ظهره. ثم قال بصوت ضعيف بطيء وقد  
تقبضت شفتيه على ابتسامة أليمة:

- إن ما تقوله كذب!

ثم أضاف يقول شاعراً هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلماته كما يجب  
أن يزنها:

- أنت تريد أن تبيّن لي من جديد أنك ترى مكري رؤية واضحة،

وأنك تعرف كل أجوبتي سلفاً. أنت تحاول أن تخيفني، أو أنت تستغل  
مني لا أكثر.

وفيما كان يقول له هذا الكلام، ظل يحدّق إليه، ثم إذا بعداوة لا  
حدود لها تسطع في عينيه، فهتف يقول:

- أنت لا تقول شيئاً غير الكذب! أنت تعلم حق العلم أن خير خطة  
يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق في حدود الإمكان، وأن لا  
يخفي ما لا حاجة إلى إخفائه. أنا لا أصدقك!

قال بورفيري ضاحكاً ساخراً:

- ما أحذقك! إن المرء لا يعرف حقاً من أي طرف يمسك. هذه  
إذاً فكرة ثابتة عندك! أنت إذن لا تصدقني؟ ولكنني أؤكّد لك أنك  
تصدقني، وأنك صدّقني حتى الآن بعض التصديق، وسأفعل ما يجعلك  
تصدقني تصديقاً كاملاً، لأنني أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً، ولأنني  
أتمنى لك الخبر مخلصاً.

أخذت شفنا راسكولنيكوف ترتجفان.

وابع بورفيري بتروفيتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف  
إمساكاً رقيقاً، بمودة وصداقة، فوق الكوع قليلاً:

- نعم، أتمنى لك الخير، ثق بهذا... وأقول لك مرةًأخيرة إن  
عليك أن تعتنى بصحتك. من أجلك إنما جاءت أسرتك، فكُّر في هذا  
ولا تنسه! يجب عليك أن تهدئ روع أهلك، وأن تظهر لهم عاطفة  
ومحبة، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروعهم...

- ما شأنك أنت وهذا؟ ثم من أين علمت ذلك؟ وفيم يهمك  
ويعنيك؟ أنت إذن تراقبني، وتحرص على أن أعرف هذا!

- اسمع يا عزيزي، أنا إنما حصلت على هذه المعلومات كلها منك  
أنت، منك أنت! ألسْت تلاحظ أنك من شدة ثورة أعصابك أول من  
يقصُّ كل شيء، على الآخرين؟ ولقد عرفت أيضاً، في مساء

أمس ، تفاصيل شائقة جداً ، من السيد رازوميخين ، دمترى بروكوفتش رازوميخين . لقد قاطعني الآن ، ولكنني أقول لك أنك رغم رهافة فكرك قد أفقدك شكك وحدرك القدرة على إدراك الأشياء إدراكاً سليماً . انظر مثلاً في مسألة الجرس تلك التي أتينا على ذكرها منذ قليل ، والتي هي واقعة هامة جداً ، ثمينة جداً (هي كذلك بلا جدال) : طيب ، لقد أطلعتك بنيسي على هذه الواقعـة ، أفلـا تستخرجـ أنتـ منـ هـذاـ شـيـئـاً؟ هلـ كـنـتـ أـفـعـلـ ذـلـكـ لـوـ كـنـتـ أـرـتـابـ فـيـكـ أـيـ اـرـتـيـابـ؟ بالـعـكـسـ ، فـلـوـ كـنـتـ أـرـتـابـ فـيـكـ حقـاًـ ، لـكـانـ عـلـيـ أـنـ أـنـوـمـ مـخـاـوـفـكـ ، وـأـنـ لـاـ أـدـعـكـ تـرـىـ أـنـيـ عـلـىـ عـلـمـ بـهـذـهـ الـوـاقـعـةـ ، وـأـنـ أـوـجـهـكـ فـيـ اـتـجـاهـ آـخـرـ تـامـاًـ ثـمـ أـهـوـيـ عـلـيـكـ بـهـاـ فـجـأـةـ كـأـنـهـ ضـرـبـةـ فـأـسـ (عـلـىـ حـدـ تـعـبـيرـكـ) . لـوـ كـنـتـ أـرـتـابـ فـيـكـ أـقـلـ اـرـتـيـابـ لـأـخـذـتـ أـلـقـيـ عـلـيـكـ أـسـتـلـةـ كـهـذـهـ الـأـسـتـلـةـ: «ـقـلـ لـيـ أـيـهـاـ السـيـدـ: مـاـ الـذـيـ ذـهـبـ بـكـ إـلـىـ شـقـةـ الـمـجـنـيـ عـلـيـهـاـ ، فـيـ السـاعـةـ الـعـاـشـرـةـ مـنـ الـمـسـاءـ ، بـلـ فـيـ السـاعـةـ الـحـادـيـةـ عـشـرـةـ تـقـرـيـباًـ؟ لـمـاـ شـدـدـتـ حـبـلـ الـجـرـسـ؟ وـلـمـاـ أـلـقـيـتـ أـسـتـلـةـ عـنـ الدـمـ؟ لـمـاـ حـاـوـلـتـ بـعـدـ ذـلـكـ أـنـ تـحـيـرـ الـبـوـاـيـنـ ، وـأـرـدـتـ أـنـ تـقـادـ إـلـىـ قـسـ الشـرـطـةـ؟» كـانـ يـنـبـغـيـ لـيـ ، وـفـقـاًـ لـلـأـصـوـلـ الـمـتـبـعـةـ ، أـنـ أـنـتـرـعـ مـنـكـ إـفـادـةـ ، ثـمـ إـنـ أـفـشـ مـنـزـلـكـ ، وـرـبـماـ أـنـ أـعـتـقـلـكـ . وـلـكـنـيـ فـعـلـتـ خـلـافـ ذـلـكـ تـامـاًـ . إـذـنـ فـأـنـ لـاـ أـشـتـبـهـ فـيـكـ أـيـ اـشـتـبـاهـ . حقـاًـ لـقـدـ فـقـدـتـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ إـدـرـاكـ الـأـشـيـاءـ إـدـرـاكـاًـ سـلـيـماًـ ، فـأـنـتـ لـاـ تـرـىـ شـيـئـاًـ . . أـكـرـرـ لـكـ هـذـاـ! . .

ارتـجـفـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ مـنـ قـمـةـ الرـأـسـ إـلـىـ أـخـمـصـ الـقـدـمـيـنـ ، وـبـلـغـ مـنـ قـوـةـ الـارـتـجـافـ أـنـ بـورـفـيـريـ بـتـرـوـفـتـشـ قـدـ اـضـطـرـ أـنـ يـلـاحـظـ ذـلـكـ .

وـصـاحـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ يـقـولـ بـمـزـيدـ مـنـ الـقـوـةـ:

- أـنـتـ لـاـ تـقـولـ شـيـئـاًـ غـيـرـ الـكـذـبـ! لـسـتـ أـفـهـمـ نـيـاتـكـ ، وـلـكـنـكـ تـكـذـبـ ، تـكـذـبـ . مـنـذـ قـلـيلـ لـمـ تـكـنـ تـكـلـمـنـيـ بـهـذـاـ الـمـعـنـىـ . لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـخـطـنـيـ ظـنـيـ . أـنـتـ تـكـذـبـ!

استأنف بورفيري بتروفتشر كلامه فقال متھمساً، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية، دون أن يبدو عليه أي اكتراث بما قد يكون رأي راسكولنيكوف فيه:

- أنا أكذب؟ أنا أكذب؟ عجيب كلامك! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل، أنا قاضي التحقيق؟ لقد أوحيت إليك أنا نفسي بالوسائل التي تستطيع أن تدافع بها عن نفسك؟ لقد عرضت عليك أنا نفسي تلك السيكولوجيا كلها: «المرض، الهذيان، قسوة الإهانات، الكآبة، رجال الشرطة...»، الخ الخ. هي هي! ومع ذلك أسارع فأقول لك أن جميع حجج الدفاع السيكولوجية هذه، وجميع أساليب التملص هذه، وجميع هذه الأعذار والتعليلات والمراوغات ليست قوية متنية، حتى أنها ذات حدين. فإذا أنت تعللت «بالمرض والهذيان» وإذا أنت قلت «إنك قد راودتك هلوسات، وأنك أصبحت لا تتذكر شيئاً»، فإن كلامك هذا كله يكون صحيحاً، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عنديه: لماذا تراودك هذه الأحلام وهذه الهلوسات وحدها دون غيرها؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلامك وهلوساتك غير هذه تماماً، أليس كذلك؟ مارأيك؟ هي هي هي!

رشقه راسكولنيكوف بنظره فيها كبراء واحترار. ثم قال بصوت قوي وهو ينهض فيصدم بورفيري قليلاً:

- باختصار يا بورفيري بتروفتشر: أريد أن أعرف أنت تعدني مبراً من كل شبهة أم لا؟ تكلم يا بورفيري بتروفتشر، تكلم كلاماً واضحاً، سرعة، حالاً!

هتف بورفيري بتروفتشر يقول بمرح وسخرية ودون أي ارتباك:

- حقاً إنك لمتعب!.. ما حاجتك إلى أن تعرف هذا، إلى أن تعرف هذا كله. مع أن أحداً لم يبدأ حتى في أن يقلق راحتك أي إلقاء؟ يا لك من طفل! وتقول كالطفل: «أريد أن ألعب بالنار!» فلماذا، لماذا تعذب

نفسك هذا التعذيب كله؟ هلاً شرحت لي الأسباب التي تدفعك إلى أن  
تلفت نظرنا إليك؟ ما هي هذه الأسباب؟ هـ؟

صاح راسكولنيكوف حانقاً:

- أكرر لك أنني أصبحت لا أطيق أن أحتمل . . .

- أن تحتمل ماذ؟ عدم اليقين؟ - كذلك قاطعه بورفيري.

فصرخ راسكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من  
جديد:

- كفى سخرية! لا أستطيع! هل تفهم؟ أقول لك: لا أريد! لا  
أستطيع ولا أريد! .. هل تسمع؟ هل تسمع؟ ..

- اخفض صوتك، اخفض صوتك، وإلا سمعوك! إنني أنبهك إلى  
هذا جاداً. حذار! لست أمزح!

كذلك قال بورفيري متممماً، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن عما  
كان عليه منذ قليل، حين كان أشبه بتعبير وجه امرأة مرؤعة. بالعكس:  
هو الآن يلقي أوامر. أنه قاسي الهيئة، مقطب الحاجبين، فكأنه عدل  
دفعه واحدة عن جميع الأسرار وجميع الالاماعات الملتبسة. ولكن ذلك  
لم يدم إلا لحظة.

اضطرب راسكولنيكوف، وأوشك أن يندفع في نوبة غضب جديدة،  
ولكن الشيء الغريب أنه خضع في هذه المرة أيضاً للأمر الذي صدر  
إليه، فخفض صوته.

وهمس يقول من جديد:

- لن أرضى بأن أُعذب هذا التعذيب . . .

لقد أدرك، وهو يشعر بألم يمازجه كره، أنه لا يستطيع إلا أن يخضع  
لهذا الأمر القاطع. ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحنقاً. وأضاف يقول  
هاماً:

- اعتقلني! فتش بيتي! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من أن  
تعبث بي هذا العبث! .. ليس من حluckك أن . . .

فقطاعه بورفيري قاتلاً وهو يتسم تلك الابتسامة الساخرة نفسها، مع  
ظهوره بالسرور من التمتع برؤية راسكولنيكوف:

- لا تقلق بشأن الشكل والقواعد يا عزيزي! أنا إنما دعوتك بغير  
تكلفة، دعوتك كما يدعو صديق صديقه.

- لا أريد صداقتك، لا أريدها، أنا أبصق عليها، هل تسمع؟ انظر:  
هأنا ذا أتناول قبعتي وأنصرف. فما عساك تقول الآن إذا كان في نيتك أن  
تعتقلني؟

وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب.

فقال بورفيري ممهقاً وهو يمسك ذراعه من جديد، فوق الكوع  
قليلاً، ويوقفه قرب الباب:

- ولكن ألا ت يريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة؟

كان مرح بورفيري يزداد ازدياداً واضحاً، وكان مزاجه يظهر ظهوراً  
أقوى، فانتهى ذلك إلى إخراج راسكولنيكوف عن طوره. فقال وهو  
يتجمد في مكانه فجأة، وينظر إلى بورفيري مذعوراً:

- أي مفاجأة صغيرة؟ ماذا تعني؟

- المفاجأة الصغيرة قابعة هناك، وراء هذا الباب، هي هي هي! حتى  
لقد أقتلت عليها بالمفتاح، مخافة أن تهرب. - قال بورفيري ذلك وهو  
يومئ بيده إلى الباب المغلق في الحاجز، الباب المفضي إلى شقته.

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه:

- ماذا؟ أين؟ ..

ولكن الباب كان مغللاً بالمفتاح فعلاً.

قال بورفيري:

- الباب مغلٌ . إِلَيْكَ الْمَفْتَاحُ !

وَنَأْوِلَهُ مَفْتَاحًا أَخْرَجَهُ مِنْ جِيَهِ .

زار راسكولينيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه :

- أنت تكذب ! أنت لا تفعل غير أن تكذب ! أنت تكذب أيها المهرّج اللعين ! - زعف راسكولينيكوف وهجم على بورفيري ، فتراجع بورفيري نحو الباب ، ولكن دون أن يظهر عليه أي رعب .

- أفهم كل شيء ، كل شيء ! - صرخ راسكولينيكوف وهو يقبل مهرولاً على بورفيري . - أنت تكذب وتعبث بي لأفضح نفسي ...

- ولكن يا عزيزي روبيون رومانوفتش ، لستَ تستطيع أن تفضح نفسك أكثر مما تفضح نفسك بهذا . لقد خرجنَ عن طورك . لا تصرخ ،  
وَلَا استدعِي رجالي !

- أنت تكذب ! لن يحدث شيء ! استدع رجالك ! لقد كنت تعلم أنني مريض ، فأردت أن تهيج أعصابي وترهقني إرهاقاً يدفعني إلى أن أفضح نفسي ! تلك كانت غايتها . لا ... لا بد لك من وقائع ! أريد وقائع ! لقد فهمت الآن كل شيء . أنت لا تملك وقائع ، أنت لا تملك إلا افتراضات تافهة سخيفة حقيقة ، هي افتراضات زاميوتوف ! كنت تعرف طبيعي ، فأردت أن تخرجني عن طوري لتفقدني بعد ذلك صوابي بقساوسة ونواب<sup>(34)</sup> ... ألمست تنتظرونهم ... هم ؟ ماذا تنتظرون ؟ أين هم ؟ أنت بهم !

- أي نواب تعني يا عزيزي ؟ ما هذا الكلام العجيب ؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها ! ليس في وعي ، من باب «التقييد بالشكل ومراعاة الأصول» ، على حد تعبيرك ، ليس في وعي أن ... إنك تجهل أصول الإجراءات القانونية يا عزيزي ! ولكنك سترى ... سوف تقييد بالشكل ونراعي الأصول .

بهذا جمجم بورفيري ، وكان أثناء ذلك يصيح بسمعه صوب الباب .

وفعلاً، سمعت في تلك اللحظة ضجة في الغرفة المجاورة.  
هتف راسكولنيكوف يقول:

- آ... ها هم أولاء يجيئون! لقد استدعيتهم، لقد كنت تنتظروهم،  
لقد كنت تعُول عليهم... طيب... ائت بهم جميعاً إلى هنا... ائت  
بالنواب، وبالشهود، وبجميع من تشاء... ائت بهم! أنا مستعد،  
مستعد!

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينذاك، حادثاً يبلغ من البعد عن التوقع  
والتنبؤ به في سياق الأمور أنه لا راسكولنيكوف ولا بورفيري بتروفتش  
كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه العاتمة.

## الفصل السادس

إِلَيْهِمْ كيف تصور راسكونيكوف المشهد حين تذكره في المستقبل:  
إن الضجة التي سمعت من وراء الباب قد ازدادت بسرعة  
شديدة، ثم شق الباب قليلاً. فصاح بورفيري بتروفتش يسأل غاضباً:

- ماذا هنالك؟ ألم أنبهكم مع ذلك؟

فلم يحصل على جواب، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين  
كانوا يقفون وراء الباب يحاولون، أن يصدُّوا أحد الناس عن اقتحامه.  
فسأل بورفيري بتروفتش متوجساً:

- ماذا هنالك؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً:

- جيء بالمعتقل نيكولاي.

فصرخ بورفيري قائلاً وهو يهرع نحو الباب:

- لا داعي إلى ذلك! اذهبوا! يمكن الانتظار! من الذي جاء به إلى  
هنا؟ ما هذه الفوضى؟

فيبدأ ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال:

- ولكنه . . .

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة.

إن صراعاً حقيقياً قد نشب في ثانيتين، وبدأ أن أحداً من الناس كان يُصد بالقوة عن الدخول، ثم إذا ب الرجل شاحب الوجه جداً يفتح غرفة بورفيري بتروفتش.

إن مظهر هذا الرجل كان في أول الأمر غريباً كل الغرابة. كان شاخضاً ببصره إلى أمام، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً. وفي عينيه يسطع عزم وحشى، ولكن شحوب الموتى يغشى وجهه في الوقت نفسه، كأنه قد اقتيد إلى المقصلة. وشفاته بيضاوان بياضاً تاماً، وهمما تخلجان قليلاً.

هو رجل ما يزال شاباً، يرتدي ثياب عامة الناس، متوسط الطول، نحيل الجسم، قد قُصَّ شعره على صورة صحن، وقسمات وجهه دقيقة قاسية.

وكان الرجل الذي دفعه نيقولاي عنه فجأة أول من وثب راكضاً إلى الغرفة وراءه واستطاع أن يمسكه من كتفه - كان هو حارساً، لكن نيقولاي شد ذراعه وأفلت من بين يدي الحارس مرة ثانية.

وكان يحتشد على الباب مستطلعون كثiron، وكان بعضهم يحاول أن يدخل.

ان هذا المشهد الذي وصفناه الآن لم يدم إلا دقيقة واحدة.

قال بورفيري بتروفتش مدمداً من بين أسنانه، منزعجاً أشد الإنزعاج، خارجاً عن طوره:

- اذهب! لم يحن الحين بعد! انتظر حتى أستدعيك! لماذا أسرعتم في المجيء به هذا الإسراع كله؟

ولكن نيقولاي جثا على ركبتيه. فهتف بورفيري بتروفتش يقول مذهولاً:

- ماذا دهاك؟

فقال نيكولاي فجأة، بصوت مختنق لكنه قوي:

- أنا الجاني! هذه جريمتى! أنا القاتل!

فخيئم صمت مطبق خلال عشر ثوان، حتى لكان جميع الحضور قد  
جمدوا. وحتى العارس سقطت يداه، وتراجع نحو الباب تراجعاً آلياً،  
ولبث هناك ساكناً لا يتحرك.

وهتف بورفيرى بتروفتى يسأل نيكولاي بعد أن خرج من ذهوله  
القصير:

- ماذا هنالك؟

فكرب نيكولاي بعد صمت قصير:

- أنا... القاتل!

- كيف... أنت؟ كيف؟ من ذا قلت؟

وارتبك بورفيرى بتروفتى، كما يبدو، ارتباكاً تماماً. وصمت نيكولاي  
برهة قصيرة.

- آليونا إيفانوفنا وأختها إليزافيتا إيفانوفنا. قتلتهما بفأس...  
وأضاف يقول فجأة:

- كنت قد فقدت عقلي...

وصمت مرة أخرى، وكان ما يزال راكعاً.

بدت علامات التفكير على بورفيرى بتروفتى بضع لحظات، ولكنه استرد نشاطه وحماسته فجأة، فأومأ للحضور بحركة من يده أن يخرجوا. فأسرعوا يطيعون أمره؛ وأغلق الباب من جديد. وبعد ذلك، نظر بورفيرى بتروفتى إلى راسكولنيكوف الذى كان واقفاً في ركن من الغرفة يتأمل نيكولاي زائغ الهيئة. واتجه إليه وهم أن يكلمه، ولكنه أمسك فجأة، وتفرس فيه، ثم أسرع ينقل بصره إلى نيكولاي، ثم إلى راسكولنيكوف، ثم إلى نيكولاي مرة أخرى.

لا يدرى المرء ما هو ذلك الغضب الذى استبد ببورفيرى بتروفتش على حين فجأة، فإذا هو يهجم على نيكولاى فيقول له بلهجة تشبه أن يكون فيها كره:

- لماذا تجيء تقول لي منذ الآن أنك كنت قد فقدت عقلك؟ أنا لم أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم لا؟ قل: أأنت الذى قتلت؟

قال نيكولاى:

- نعم، أنا الذى قتلت. أصرّح بذلك.

- هيه... وبماذا قتلت؟

- بفأس كنت قد حملتها.

- ألا أنك لمتعجل حقاً! وحدك؟

لم يفهم نيكولاى السؤال.

- هل قتلتهما وحدك؟

- نعم. لكن ميتكا بريء. لم يشارك في الجريمة أية مشاركة.

- لا تعجل هذا التعجل كله في الكلام عن ميتكا! هيه... ولكن كيف فعلت... كيف فعلت لتنزل السلم؟ لقد رأكما البوابون كليكما.

أجاب نيكولاى متراجلاً، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى سرعة:

- إنما ركضت عندئذ... مع ميتكا... دفعاً للشبهات...

هتف بورفيرى بتروفتش يقول بحنق:

- هذا هو الأمر! إذن هذا هو الأمر!

وجمجم يقول بينه وبين نفسه:

- إنه يكرر ما لُقِنَ من كلام.

وإذا به يلمح راسكولنيكوف فجأة من جديد. أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بنيكولاى أنه كان قد نسي وجود راسكولنيكوف لحظة

من الزمان. وها هو ذا قد تذكره الآن فجأة، حتى لقد تحير... .

قال لراسكولنيكوف وهو يرتمي نحوه:

- روديون رومانوفتش، عزيزي، معدنة. ليس في إمكانك أن تبقى هنا، أرجوك... . حقيقة لم يبق لك هنا شأن... . وأنا نفسي... . هل ترى هذه المفاجأة؟!... أرجوك... .

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه، ويشير له إلى الباب.

طبعي أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعد ماذا جرى، ولكنه قد استرد ثقته. فقال يخاطب بورفيري بتروفتش:

- لكأنك لم تكن تتوقع هذا.

فأجابه بورفيري:

- ولا كنت تتوقعه أنت يا عزيزي! انظر كيف ترتجف يدك!

- وأنت أيضاً ترتجف يا بورفيري بتروفتش!

- نعم، أنا أيضاً أرتجف... . لأنني لم أكن أتوقع هذا.

وكان قد وصلا إلى الباب. وكان بورفيري ينتظر خروج راسكولنيكوف نافذ الصبر.

قال راسكولنيكوف فجأة:

- وأين المفاجأة الصغيرة؟ لماذا لم تطلعني عليها؟

قال بورفيري بتروفتش مقهقاً:

- إنه يتكلم ويتكلّم وما تزال أسنانه تصطرك! هيه! إنك لا تخلو من سخرية. هيا، إلى اللقاء!

- أحسب أن من الأفضل أن تقول: الوداع!

غمغم بورفيري بتروفتش يقول متقبّض الشفتين كأنه يبتسم:

- كل شيء مرهون بإرادة الله، كل شيء مرهون بإرادة الله وحده.

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت تحدّق إليه. وفي حجرة المدخل أتيح له أن يرى في وسط الجمهور بوابي تلك العمارة اللذين اقترح عليهما في ذلك المساء أن يقتاداه إلى قسم الشرطة. كانا واقفين، وكأنهما ينتظران شيئاً ما. لكنه ما إن صار على السلم حتى سمع وراءه صوت بورفيري بتروفتش من جديد. فلما التفت رأه قد أدركه وهو يلهث لهاياً قوياً.

- كلمة، كلمة لا أكثر يا روبيون رومانوفتش. فيما يتعلق بكل ما حدث ستجري الأمور على مشيئة الله، ولكن ما يزال على، من باب التقيد بالشكل ومراعاة الأصول، أن ألقى عليك بعض الأسئلة. لهذا سئلتني مرة أخرى، أليس كذلك؟

قال بورفيري بتروفتش ذلك ووقف أمامه مبتسمًا. ثم أردد يقول مرة أخرى:

- أليس كذلك؟

في وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما، ولكن من الواضح أنه لم يستطع ذلك.

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً، وأصبح يشعر برغبة قوية في التفاحر:

- وأنت أيضاً، يا بورفيري بتروفتش، لا تؤاخذني على ما بدر مني منذ قليل. لقد اندفعت بعض الاندفاع . . .

فعاد بورفيري بتروفتش يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح:

- لا قيمة لهذا . . . لا قيمة لهذا . . . أنا أيضاً سبي الطبيع . . . أعرف بذلك، أعرف بذلك. ولكننا سئلتني من جديد، إن شاء الله. سئلتني أكثر من مرة.

قال راسكولنيكوف:

- وستتعارف تعارفاً نهائياً. أليس كذلك؟

فقال بورفيري بترофتش مؤيداً:

- نعم، ستعارف تعارفاً نهائياً.

قال ذلك وهو ينظر إلى راسكولنيكوف في جد ورصانة، رغم أنه يغمر عينيه. وأضاف يسأله:

- أأنت ذاهب الآن إلى عشاء عيد ميلاد؟

- بل إلى عشاء جنازة.

- نعم نعم، عشاء جنازة! راع صحتك... الصحة أهم شيء، هه؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم:

- لا أدرى حقاً يا بورفيري بتروفتش ما الذي يجب أن أتمناه لك.

ولكنه التفت فجأة، فأضاف يقول وهو يقابل بورفيري وجهها لوجه:

- أردت أن أتمني لك نجاحاً أكثر. ولكن ما أسف وظيفتك!

وكان بورفيري يهم أن ينصرف، ولكنه ما أن سمع هذا الكلام حتى سأل ناصباً أذنيه:

- وظيفتي سخيفة؟ لماذا؟

- لا شك في أنك عذبت هذا المسكين نيقولاي عذاباً شديداً، عذاباً سيكولوجياً... على طريقتك... إلى أن اعترف. لا شك في أنك ظللت تحقنه ليلاً نهاراً بقولك: «أنت القاتل، أنت القاتل». والآن وقد اعترف ستمضي تحقنه بنغمة أخرى قائلًا له: «أنت تكذب. لست أنت القاتل. لا يمكن أن تكون أنت القاتل. لقد دفعت إلى التظاهر بأنك أنت القاتل، ولكن...» فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة والحالة هذه؟

- هي هي هي!.. إذن لقد لاحظت منذ قليل ما قلته أنا لنيقولاي من أنه «يردد ما لقُن»؟

- كيف لا لا أحظ ذلك؟!

- ها... إنك لحاضر الذهن حقاً! إنك تلاحظ كل شيء! إن لك

فكرةً فكهاً حاداً! لقد عرفت كيف تضرب على وتر السخرية. هيه . . .  
يقال إن جوجول كان، بين سائر الكتاب، هو الذي يملك هذه الموهبة  
إلى أقصى درجة<sup>(35)</sup>، أليس كذلك؟

- نعم، جوجول.

- صحيح. هو جوجول. إلى اللقاء!

عاد راسكولنيكوف إلى بيته رأساً. وكان قد بلغ من شدة الإرهاق والإعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتمى على ديوانه. فمكث عليه ربع ساعة لا شيء إلا لاستريح ويستجمع شتات أفكاره. لم يحاول حتى أن يعلّل سلوك نيكولاي. كان مذهولاً مشدوهاً. كان يرى في اعتراف نيكولاي شيئاً يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب. شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه الآن وأن ينفذ إلى كنهه. ولكن النتائج لم تثبت أن تبدت له واضحة جلية: أن كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ولا بد أن يعودوا إليه ويتسبّلوا به من جديد. على أنه سيبقى حراً إلى أن يحين ذلك الحين. فينبغي له حتماً أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه!

لا يمكن تفاديه؟ إلى أي حد؟ وأخذ الموقف يتضح. فحين تذكر راسكولنيكوف، على وجه الإجمال، المشهد الذي جرى بينه وبين بورفيري، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً. صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفيري بعد، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته. ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من اللعبة التي حاولها بورفيري. لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تماماً بأن يقدم لبورفيري وقائع ثابتة. كان بورفيري يعرف ما يتصرف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضي، وقد نفذ إلى حقيقة طبعه منذ أول نظرة، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة، وإن يكن قد أسرف التعجل بعض الإسراف. صحيح أن

راسكولنيكوف قد تورّط في كلامه مع بورفيري، ولكنَّه لِمَا يقدُّم له وقائع ثابتة. فليس هناك حتَّى الآن إلا ظنون وتخمينات. ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته؟ ألم يكن مخطئاً البتة؟ ما هي النتيجة المعينة المحددة التي كان بورفيري يسعى إليها اليوم؟ هل كان قد دَبَّر شيئاً لهذا اليوم نفسه؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجه الدقة؟ أكان يتوقع شيئاً ما؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لو لا أن نزلت، بفضل نيقولاي، تلك النازلة التي لم تكن في الحسبان؟

كان بورفيري قد كشف كل لعبته تقريباً. صحيح أنه قد أسرف في التعلج بعض الإسراف، ولكنه قد كشف لعبته على كل حال. ولو كان يملك معلومات أخرى (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقل تقدير) لما قصر في إظهارها والاستناد إليها. ثم ما هي تلك «المفاجأة» التي ألمع إليها؟ أكانت هذه مزاحمة؟ وهل لهذه المزاحمة من معنى أم هي ليست بذات معنى؟ هل في باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة؟ هل يرتبط هذا برجل الأمس؟ وأين اختفى ذلك الرجل؟ أين هو اليوم؟ ذلك أنه إذا صدق أن بورفيري يملك شيئاً إثباتياً، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذا علاقة برجل الأمس.

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره، مائلاً إلى الأمام، واضعاً كوعيه على ركبتيه، دافناً وجهه في يديه. وما يزال ارتعاش عصبي يهز جسمه كله. ونهض أخيراً، فتناول قبعته، ولبث يحلم خلال لحظة، ثم اتجه نحو الباب.

إن نوعاً من إحساس تبؤي كان يقول له إنه في هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه في أمان. وشعر فجأة بشيء من فرح: أراد أن يذهب إلى كاترينـا إيفانوفنا بأقصى سرعة. كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً، ولكنه يستطيع أن يصل إلى المأدبة في حينها، فيرى هنالك صونيا فوراً.

توقف، وفَكَرَ، وظهرت على شفتيه ابتسامة مريضة. وقال يردد بينه وبين نفسه:

- اليوم! اليوم! في هذا اليوم نفسه! لا بد!

وفي اللحظة التي هم فيها أن يفتح الباب، فتح الباب من تلقاء نفسه فجأة. ارتعش راسكولنيكوف، وتراجع إلى الوراء بوثبة. كان الباب ينفتح ببطء ورفق. وظهر شكل إنساني، هو شكل الرجل الذي خرج بالأمس من تحت الأرض.

وقف الرجل على العتبة، ونظر إلى راسكولنيكوف صامتاً، ثم تقدم في الغرفة خطوة. هو اليوم كما كان بالأمس: نفس الهيئة واللباس، لكن وجهه ونظرته تغيراً شديداً: كانت عيناه حزینتين وهو ذو يزفر زفراً كبيراً بعد لحظة قصيرة. ليس يعوزه إلا أن يستند خده على راحة يده، وأن يميل برأسه إلى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه.

سأله راسكولنيكوف كالمجنون:

- ماذا تريد؟

فلزم الرجل الصمت لحظة أخرى، ثم انحنى أمامه فجأة حتى كاد يلامس الأرض، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال.

صاح راسكولنيكوف يسأله:

- ماذا تفعل؟

فقال الرجل بصوت خافت:

- أنا مذنب!

- ما ذنبك؟

- إنني راودتني أفكار شريرة خبيثة!

ونظر كل منهما إلى الآخر. وتتابع الرجل كلامه فقال:

- كنت متزعجاً. فلما جئت أنت في ذلك اليوم، ولعلك كنت عندئذ في حالة سكر، فطلبت من البوابين أن يقتادوك إلى قسم الشرطة، وألقيت أسئلة عن الدم، آلمني أن أرى أنهم لم يكتثروا بالأمر، وعدوك سكران لا أكثر، وبلغت من شدة الألم أنني أرقت فلم أستطع إلى النوم سبيلاً. وإذا حفظت عنوانك، فقد جئت مساء أمس أسألك... .

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك:

- من الذي جاء؟

- أنا، أنا الذي أسأت إليك.

- أنت إذاً من تلك العمارة؟

- نعم، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين، ألا تذكر؟ لي هنالك دكان صغيرة، منذ زمن طويل. أنا أعمل في إصلاح الفراء، وأقوم بعملي في بيتي. والأمر الذي آلمني خاصة... .

تذكر راسكولنيكوف تذكرها واضحاً، على حين فجأة، كل المشهد الذي جرى تحت الباب الكبير. فقال لنفسه: حقاً كان هنالك، عدا البوابين، أشخاص عدة بينهم نساء. وتذكر أيضاً أن صوتاً من الأصوات قد اقترح اقتياده إلى قسم الشرطة. أنه لم ير وجه الرجل الذي تكلم حينذاك؛ ولو قد رأه لما كان في وسعه أن يتعرفه على كل حال. ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه.

هذا هو إذاً تفسير ليلة أمس تلك المروعة! وأفطع ما في الأمر أنه كاد يضيع نفسه فعلاً بسبب حادثة تافهة إلى هذا الحد من التفاهة. إن هذا الرجل لا يستطيع إذاً أن يروي شيئاً آخر غير ذهابه إلى الشقة وسؤاله عن الدم. معنى هذا أن بورفيرى أيضاً لا يملك أي دليل قاطع، لا يملك أية واقعة ثابتة، عدا ذلك الهذيان، عدا تلك السيكولوجيا ذات الحدين. هو لا يتصور إذاً واقعة أخرى (ولا يجب عليه أن يتصور، لا يجب عليه، لا يجب عليه)... ما الذي كان يمكن أن يصنعه به إذاً؟ كيف كان

يمكن أن يرتكبوه وأن يورّطوه في الاعتراف ولو اعتقلوه؟ ويتبع عن هذا إذاً أن حادثة ذهابه إلى الشقة لم يعلم بها بورفيري بتروفيتش إلا منذ قليل، وكان قبل ذلك يجهلها.

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد ومضت في ذهنه فكرة مياغة:

- أنت بنفسك قلت اليوم لبورفيري . . . أني ذهبت إلى هناك؟

- بورفيري؟ أي بورفيري؟

- نعم، قاضي التحقيق.

- صحيح. قلت له ذلك. فلأن البوابين لم يذهبوا إليه في ذلك اليوم، ذهبت إليه أنا.

- اليوم؟

- قبل أن تصل بدقيقة واحدة. وقد سمعت كل شيء، كل شيء، سمعت كيف كان يعذبك.

- أين؟ كيف؟ متى؟

-منذ قليل، هناك، عنده، وراء الحاجز. بقيت هنالك طوال الوقت.

- كيف؟ أنت «المفاجأة الصغيرة» إذاً؟ ولكن كيف تم هذا؟ قل!

بدأ الرجل يتكلّم فقال:

- حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطعنوني، ويرفضون أن يذهبوا إلى قسم الشرطة بحجّة أن الوقت متأخر، وأن قاضي التحقيق سيأخذهم على أنهم لم يجيئوا إليه بسرعة أكبر، تضيّقت كثيراً، وأرقت طوال الليل، وأخذت أسأل الناس، وحصلت على معلوماتي. فلما حصلت عليها، ذهبت إلى قسم الشرطة في هذا الصباح. في المرة الأولى لم يكن القاضي هناك، فرجعت بعد ساعة، فلم أستقبل. وفي

المرة الثالثة قبلوني. رويت للقاضي الأشياء كما وقعت، فأخذ يركض في الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يده، ويقول: «ماذا تفعلون معي يا عصابة من قطاع الطرق؟ لو قد عرفت هذا لأرسلت جنوداً يجি�ئونني به!». وبعد ذلك خرج راكضاً، ونادى أحداً، فأخذ يكلمه في ركن. ثم عاد نحوي، وأخذ يلقي عليّ أسئلة ويشتمني. لامني كثيراً. وقصصت أنا عليه كل شيء، وذكرت له أيضاً أنك بالأمس لم تجرؤ أن تجيئني، وقلت له إنك لم تتعزفني. عندئذ عاد يجري في الغرفة ويلطم صدره. كان يركض راكضاً، وهو غاضب.. يركض.. ويركض.. . ومنذ ذكر له أنك أتيت، قال لي: «أسرع، اختبئ وراء الحاجز، وابق هنالك بدون حراك، مهما تسمع». وحمل إلى بنفسه كرسياً، وأغلق عليّ الباب قائلاً: «قد استدعيك». ولكن حين جيء بنينقولاي، صرفي بعد أن صرفاً فوراً. وقال لي: «سأستدعيك مرة أخرى لاستجوبك».

- وهل استجوب نينقولاي أمامك؟

- صرفي بعد أن صرفاً فوراً، وأخذ يستجوب نينقولاي.

توقف الرجل عن الكلام، وانحنى مرة أخرى، ولامست إحدى أصابعه الأرض مرة أخرى، وقال:

- أغفر لي وشأطي والإساءة التي ألحقتها بك.

فأجابه راسكولنيكوف:

- الله يغفر لك!

وبعد أن نطق راسكولنيكوف بذلك الكلام انحنى الرجل له مرة ثالثة، ولكنه لم ينحني في هذه المرة حتى الأرض، بل حتى الحزام فقط، ثم استدار على عقيبه ببطء وخرج من الغرفة.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «كل شيء ذو حدين، كل شيء هو الآن ذو حدين». ثم غادر الغرفة هو أيضاً، وقد أصبح واثقاً بنفسه أكثر من أي وقت مضى.

قال وهو يهبط السلم ويتسم ابتسامة ساخرة: «الآن ستتابع الصراع»، وكانت الابتسامة الساخرة موجهة ضدّ نفسه في هذه المرة: كان يتذكر عندئذ «جبنه»، بكره واحتقار.

الْجَزِئُ الْخَامِسُ



## خداة

اليوم المشؤوم الذي جرت فيه المناقشة الحادة بين بيوتر بتروفتش وبين دونيا وبيولخيريا ألسكندروفنا، استيقظ بيوتر بتروفتش من نومه وثاب إلى صوابه، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض، أنه مضطر أن يقبل، قبولة لواقع راهن حاسم، الأمر الذي كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدوثها فعلاً. إن الأفعى السوداء، أفعى الأنانية الجريحة المهانة، قد ظلت تعض قلبه طوال الليل. فما أن نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر إلى وجهه في المرأة. لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد في إفراز الصفراء الصغيرة. غير أن كل خطر من هذه الناحية كان، حتى الآن على الأقل، قد تَم تفاديه. فلما تأمل في المرأة وجهه النبيل الأبيض المتعجن قليلاً منذ بعض الوقت، عزّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد واجد في مكان ما خطيبة في بيت قد يكون مناسباً أكثر من الناحية الأخلاقية. ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه، فبصق بصقة قوية من شدة غضبه، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة في شفتي صديقه الشاب أندريه سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذي يسكن معه. ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بيوتر بتروفتش الذي أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينهما في الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسُجلها له. وتضاعف غضبه وحنقه حين قدر فجأة أنه ما كان ينبغي له أن

يطلع أندريه سيميونوفتش على نتائج المقابلة.. هذه خطيئة ثانية يرتكبها منذ الأمس بشدة الاندفاع، وفورة الغضب، وتسرع البوح ...

وشاءت المصادرات طوال ذلك الصباح، كأنما عن عمد، أن تنصب عليه المزعجات تلو المزعجات، فحتى في مجلس الشيوخ كان يتنتظره إخفاق في القضية التي كان يعالجها وقد أحنته خاصةً مالك الشقة التي استأجرها بيوتر بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب، وأصلاحها على نفقته هو. فمالك الشقة هذا، وهو رجل من رجال الحرف أصحاب بعض الغنى، وأصله ألماني، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بندًا واحداً من بنود عقد الإيجار، وأصرّ على أن يدفع له بيوتر بتروفتش كامل الغرامات المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد، رغم أن بيوتر بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جددت تجديداً شبه تام. وهذا نفسه حدث في متجر الأناث، إذ إن صاحب المتجر لم يشاً إطلاقاً أن يرده إليه روبلً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأناث، رغم أن قطعة واحدةً من قطع الأناث لم تكن قد وصلت الشقة بعد. قال بيوتر بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه: «هل أتزوج يا ترى، خصيصاً من أجل أناث؟». وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد، فتساءل: «أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً؟ لا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة؟» وتراءت له صورة دونيتشكا الفاتنة الأخاذة، فتمزق قلبه حسرة ولوغةً من جديد، وعاني عذاباً أليماً خلال دقيقة، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافيةً لقتله، لرغم تلك الرغبة على الفور.

وقال لنفسه وهو يعود إلى ليفزياتنيكوف كاسف البال مكتتب النفس حزيناً: «من أخطائي أيضاً أنني لم أعطهم مالاً! شيطان يأخذني! ما بالي تصرفت تصرف يهودي بخيل؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح، وإنما أنا أردت أن أبقيهم في حالة الحاجة والعوز، حتى أجعلهم

يعدونني منقذًا ومخلصاً... آه... لو أنني أعطيتهم خلال هذه المدة... ألفاً وخمسمائة روبل مثلاً، لإعداد جهاز العرس... لو أنني قدمت هدايا صغيرة، لو أنني قدمت أنواعاً من تلك العلب الصغيرة واللوازم الضرورية والمجوهرات والأقمشة وسائر تلك الأشياء التافهة التي يجدها المرء في متجر كنوب أو في المتجر الإنجليزي<sup>(36)</sup> بأثمان بخسة، لو أنني فعلت ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح، ولقامت المسألة على أسس أقوى وأوطد. ما كان لدينا عندي أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف. ذلك شأن هذا النوع من الناس: يعتقدون أنهم مضطرون حتماً عند فسخ الخطوبة إلى رد الهدايا والمال جميعاً. فلو كنت قد قدمت إليهم هدايا وما لا لعَّ عليهم ولشق عليهم أن يرددوا... ثم إن ضميرها كان سيعذبها إذا هي فكرت في فسخ الخطوبة: كانت ستقول لنفسها: كيف؟ أطُرد على حين فجأة رجلاً كان كريماً لطيفاً في جميع الأوقات؟ هم... لقد ارتكبت خطأً فاحشاً. ثم أسرع بيوتر بتروفتش ينعت نفسه بأنه غبي - بينه وبين نفسه طبعاً - وهو يصرف بأستانه من جديد.

فلما وصل إلى هذه النتيجة عاد إلى بيته وقد ازداد الشر والحنق في نفسه أضعاف ما كان عليه عند خروجه منه. وقد لفتت انتباذه الاستعدادات التي كانت قائمة في غرفة كاترينا إيفانوفنا لمأدبة الجنائز. كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ الأمس كلاماً غامضاً، حتى لقد كان يخيّل إليه أنه يتذكر أنه هو نفسه دُعي إلى هذه المأدبة، ولكنه لاستغراقه في همومه الخاصة لم يتبه إلى أي شيء عداها. وأسرع يستطلع مدام ليفكسل التي كانت أثناء غياب كاترينا إيفانوفنا في المقبرة منهمكةً حول المائدة، وكانت تهمُّ أن تنھض، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع المستأجرين مدعوون إليها، حتى أولئك الذين لم يعرفوا المتوفى، بل وحتى أندرية سيميونوفتش ليبيزياتينيكوف، رغم استجاره حديثاً مع كاترينا إيفانوفنا، وأنه هو نفسه، بيوتر بتروفتش، ليس مدعواً

فحسب، بل هو إلى ذلك يُنتظر حضوره بفارغ صبر، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأنًا وأعظمهم قدرًا. وقد دُعيت أيضًا آمالياً إيفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال، رغم ما وقع بينها وبين كاترينا إيفانوفنا في الماضي من حوادث طارئة مؤسفة، وهي الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت، ولا يخلو ذلك من أن يُحدث لها لذة ومسرة. وهي فوق هذا كلّه، رغم ارتدائها ثياب الحداد، تتباخر بثوب من حرير، جديد أنيق رشيق، مزدان بزخارف كثيرة، وتبدو فخورة به متباهية معترزة.

هذه الواقع والمعلومات كلها أوحت إلى بيوتر بتروفتش بفكرة ما، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندريه سيميونوفتش ليزياتينيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة، ذاهلاً بها عما عدّها. ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المدعويين.

لسبب من الأسباب قضى آندريه سيميونوفتش ذلك الصباح كلّه في غرفته. وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بيوتر بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال: كان بيوتر بتروفتش يحترم ليزياتينيكوف ويكرهه أشد الكره، تقريراً منذ اليوم الذي أقام فيه عنده؛ ومع ذلك كان يبدو عليه في الوقت نفسه أنه يخشى بعض الخشية. لقد نزل عند آندريه سيميونوفتش منذ وصوله إلى بطرسبرج، لا بسبب البخل الشديد فحسب — رغم أن هذا هو الدافع الرئيسي في حقيقة الأمر — بل لسبب آخر أيضاً. أنه، وهو في الريف، قد سمع عن ربّيه اليتيم آندريه سيميونوفتش، سمع أنه شاب تقدمي متطور، بل إنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التي أصبحت أشبه بالأساطير. فتأثر بيوتر بتروفتش بهذه الصورة التي قامت في ذهنه عن صاحبه. إن هذه الفئات القوية، العالمة بكل شيء، التي تحترق جميع الناس، وتفضح جميع الناس، كانت توحّي إليه منذ مدة طويلة برهبة خاصة هي رهبة غامضة على كل حال. لا شك أنه لإقامةه بالأقاليم لم يستطع أن يكون لنفسه

فكرة دقيقة (حتى ولا تقريرية) عن شيء من هذا النوع. كل ما هنالك أنه سمع، كسائر الناس، أنه يوجد، في بطرسبرج خاصةً، أناس يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين<sup>(37)</sup>، الخ، ولكنه كان، ككثير من الناس، يضخم دلالة هذه الألفاظ ومعناها، حتى ليشوّهها تشويهاً عجيباً. وهو منذ بضع سنين إنما يخشى التشهير أكثر مما يخشى أي شيء آخر. نعم، ذلك هو الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة، ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه وأعماله إلى بطرسبرج. بهذا المعنى نستطيع أن نقول أنه كان مرؤعاً حقاً كما يرُوَّع الأطفال الصغار في بعض الأحيان. إنه قبل هذه الآونة ببضع سنين، قد شهد في الريف، وكان ما يزال في بداية مزاولته مهنته، حالة رجلين من أصحاب التأثير والنفوذ أصابتهما تلك التشهيرات فنالت منهما بقسوة شديدة، وقد دافع هو عن ذينك الرجلين فكانا يحميانه ويرعيانه بعد ذلك. فاما إحدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذي ناله التشهير إلى الفضيحة والجرعة، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من المتابعة والنكد. ذلكم هو السبب الذي جعل بيوتر بتروفتش يحرص منذ وصوله إلى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء، وان يفهم الأحوال، وأن لا تفوته المبادرة إذا اقتضى الأمر ذلك، في سبيل أن ينال الحظوة لدى «أجيالنا الشابة». وكان يعوّل في هذا على آندريه سيميونوفتش. وعلى هذا النحو إنما استطاع، مثلاً، حين التقى براسكوليوكوف، أن يقول بضم عبارات منمقة جاهزة مستمدّة من غيره . . .

وهو لم يلبث، بطبيعة الحال، أن اكتشف في آندريه سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غرّاً إلى أبعد الحدود. ولكن ذلك لم يغيّر رأيه، ولبث قليلاً غير مطمئن. إنه على وجه الإجمال لا شأن له بهذه الأفكار والتعاليم والاعتقادات كلها (التي كان آندريه سيميونوفتش يقرّع بها أذنيه، ويصدّع بها رأسه)، وإنما كانت له غاية معينة وهدف محدد: كان يريد أن يعرف، بأقصى سرعة، ماذا حدث هنا وكيف؟ هل هؤلاء الناس

أقواء لهم حول وطول، وسلطان ونفوذ؟ هل عليه هو أن يخشى شيئاً ما؟ أتراه يوشى به إذا هو شرع في هذا الأمر أو ذاك؟ وإذا وُشي به، فما هي، على وجه التحديد، النقاط التي ستكون الآن محل الوشاية وموضع التنديد والتشهير؟ بل أكثر من ذلك: ألا يستطيع المرء، إذا هم كانوا أقواء ذوي سلطان، أن يتسلل إليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشهم ويضلّلهم؟ أهذا ضروري حقاً أم لا؟ أليس في وسع المرء، بواسطتهم، أن يهبي لنفسه نجاحاً في عمله وتقدماً في مهنته مثلاً؟ بإيجاز: كانت مئات من الأسئلة تلقى نفسها عليه.

وكان آندريه سيميونوفتش هذا، وهو مستخدم في مكان ما بمثابة موظف، كان رجلاً هزيلًا بائساً علياً؛ وهو قصير القامة، أشقر شقراء غريبة، له على جانبي خديه سالفان يبدو مزهوأً بهما زهواً شديداً. وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع في عينيه دائماً على وجه التقرّب. وإذا كان طبعه رخواً فإن أحاديثه تدل على غرور يبلغ في بعض الأحيان حد الغطرسة الظاهرة، وذلك يتنافى مع شكله الهزيل تنافياً مضحكاً. على أنه كان عند آماليا إيفانوفنا يُعدُّ من أحسن المستأجرين، لأنه كان لا يشرب، ويدفع أجر غرفته في موعده على نظام مطرد لا يتخلّف. غير أن آندريه سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا رجلاً غبياً في حقيقة الأمر. إن العاطفة الهاوجاء هي التي ربطته بالأراء التقدمية وأجيالنا الصاعدة». وهو واحد من تلك الفتنة الكبيرة المتعددة الأنواع من الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التي يعرفون أنها رائحة رواج «الموضة»، والذين يفسدون ويشوهون لتوهم كل ما يستعملونه هم أنفسهم، ولو كان تعليقهم به صادقاً مخلصاً في بعض الأحيان.

ثم أن ليزياتنيكوف، رغم أنه مسالم إلى أبعد حدود المسالمة، قد أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحب بيوتر بتروفتش الذي كان في الماضي ولئ أمره والوصي عليه، حتى أصبح لا يطيق احتمال مساكته في غرفته. ونشأ بين الرجلين كليهما نفورٌ متبادل من تلقاء نفسه. لقد أخذ

آندريه سيميونوفتش يلاحظ، رغم غبائه، أن بيوتر بتروفتش يسخر منه ويضحك عليه ويحتقره، وأنه «ليس في حقيقته ما يحب أن يجدوا». وكان آندريه سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه وداروين<sup>(38)</sup>، ولكن بيوتر بتروفتش أصبح يحلوه، ولا سيما في الأيام الأخيرة، أن يصفع إلى كلامه ساخراً مستهزئاً، حتى لقد أصبح يمضي في ذلك إلى حد إهانته. وإنما نشأ عن ذلك أن بيوتر بتروفتش قد اكتشف بغرائزه أن ليزياتنيكوف ليس رجلاً غبياً فحسب، بل إنه أيضاً متبرج ليس له أية علاقات هامة حتى في بيته، وأنه لم يسمع ببعض الأفكار إلا على نحو غير مباشر، وأنه فوق ذلك كله ليس على شيء من المقدرة في مجال الدعاية، لأنه يضطرب في الكلام ويرتكب في الحديث، فأئن له أن يشهر بأحد أو بشيء! وفي هذه المناسبة يجب أن نشير عابرين إلى أن بيوتر بتروفتش كان خلال تلك الأيام العشرة (ولا سيما في البداية) قد استقبل، برضى وارتياح، الأمadiع التي كان يكيلها له آندريه سيميونوفتش، حتى ولو كانت غريبة جداً، أو قل على الأقل أنه لم يكن يرفضها أو يعرض عليها. كان يصمت مثلاً حين ينسب إليه آندريه سيميونوفتش أنه ينوي أن يعاون قريباً، بل قريباً جداً، في إنشاء كومونة جديدة في مكان ما بشارع ميشيانتسكايا<sup>(39)</sup> أو حين ينسب إليه أنه ينوي أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هوها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج؛ أو حين ينسب إليه أنه لن يعمد الأولاد الذي سيولدون له، الخ. كان بيوتر بتروفتش، على عادته، لا يُنكر المزايا التي تُنسب إليه، حتى لقد كان يسمع بأن تkal له أمadiع من ذلك النوع، فإلى هذا الحد كان يحب أن يُمدح.

إن بيوتر بتروفتش الذي بدأ هذا الصباح عدداً من السنّدات لبعض الأسباب، جالس الآن إلى المنضدة يراجع عدّ حزم الأوراق المالية. وهذا آندريه سيميونوفتش الذي لم يكدر يملك مالاً في يوم من الأيام يتجلو في الغرفة ويتظاهر بأنه ينظر إلى حزم الأوراق المالية بغير

اكترا ث، بل وباحتقار. ولكن بيوتر بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدق أن آندريه سيميونوفتش ينظر إلى هذه الحزم بغير اكترا ث حقاً. وكان آندريه سيميونوفتش من جهته يتصور بكثير من المراة أن بيوتر بتروفتش ربما كانت تدور في رأسه تلك الفكرة، وربما كان يجد فيها لذة، وربما كان يريد أيضاً، بعرض هذه الأوراق المالية، أن يسخر من صديقه الشاب، وأن يذكره على هذا النحو بكل تفاهته، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التي تفصلهما.

وقد وجده في ذلك اليوم أكثر حدة، وأقل انتباهاً منه في أي وقت مضى، رغم أنه هو آندريه سيميونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضلة في ضرورة إقامة «كومونة» جديدة من نوع خاص. إن الملاحظات القصيرة التي كان يرسلها بيوتر بتروفتش مع انشغاله بتنقيل الكرات على أسلالها في جهاز العد، كانت تتسم بسخريّة واضحة وتتصف بقلة الكياسة. ولكن آندريه سيميونوفتش، هذا الداعية من دعاة «الأفكار الإنسانية»، كان ينسب اعتقاد مزاج بيوتر بتروفتش إلى الأثر الذي أحدث في نفسه فنسخ الخطبة؛ وكان يحترق شوقاً إلى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة، لأنه يريد أن يدلي في هذا الصدد ببعض الآراء التقديمة التي قد تواسي صديقه المحترم، والتي «لا بد» أن تكون نافعة في تطوره المُقبل. قاطع بيوتر بتروفتش صاحبه في أهمّ موضع من حديثه سائلاً على حين فجأة:

- ما مأدبة الجنازة هذه التي تُهيأ عند تلك... الأرملة؟

فأجابه آندريه سيميونوفتش باستغراب قائلاً:

- كأنك لا تعلم! لقد حدثتك عن أمر هذه المأدبة أمس، حتى لقد شرحت لك آرائي في هذا النوع من الاحتفالات. ثم إنني قد سمعت أنها دعتك أنت أيضاً، وقد كلّمتها أنت نفسك بالأمس...

- ما كنت أتوقع أن تبدي هذه الغيبة في سبيل حفلة عشاء، كل المال الذي أخذته من ذلك الغبي الآخر... اقصد راسكولنيكوف! لقد

دُهشت منذ قليل حين مرت بمسكنها. استعدادات عظيمة! حتى الخمر  
لا ينقص هذه المأدبة!

وابع بيوتر بتروفتش كلامه ي يريد أن يجرّ الحديث إلى غاية لا يعرف  
المرء ما هي :

- دُعي أشخاص كثيرون... الشيطان وحده يعلم...

ثم أضاف يسأل فجأة وهو يرفع رأسه :

- ماذ؟ تقول إنني مدعو أيضاً؟ متى دعيت؟ أذكر أنني دعيت! على  
أنني لن أحضر. ما عسانى فاعلاً هناك؟ كل ما في الأمر أنني قلت لها  
بالأمس، عابراً، أن في وسعها أن تحصل، لأنها أرملة موظف معوزة،  
على معونة يساوي مقدارها مرتبات سنة. أترتها دعتني لهذا السبب  
وحده؟ هي هي! ..

قال ليزياتينيكوف :

- أنا أيضاً لا أنوي أن أحضر.

- آمل ذلك. فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك، فمن الطبيعي جداً أن  
يعذبك ضميرك إذا أنت فكرت في الذهاب إلى عندها.

سأله ليزياتينيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه :

- من ذا ضربت ضرباً مبرحاً؟ عمن تتكلم؟

- عن كاترينا إيفانوفنا طبعاً. لقد ضربت كاترينا إيفانوفنا منذ شهر،  
أو هذا ما سمعته أمس على الأقل. انظروا إلى رجال المبادئ والعقائد  
هؤلاء! هذه طريقتهم في حل قضية المرأة! هي هي!

وكأنما خفت هذه الكلمات عن بيوتر بتروفتش، فعاد ينهمك في  
حساباته.

وصاح ليزياتينيكوف يقول بلهجة حانقة مغتاظة، وكان لا يطيق أن  
يذكره أحد بتلك القصة :

- ما هذه إلا حماقات ونمائم. ما هكذا جرت الأمور، وإنما جرت الأمور على نحو آخر تماماً! لم يطليعوك على الواقع كما حدث. هذه أقاويل، هذه أقاويل لا أكثر! أنا إنما دافعت عن نفسي فحسب! فهي التي هجمت على مكشّرة عن أنبيابها منشبة مخالبها، فما زالت بي حتى نتفت لي سالفاً بكماله! أحسب أن من حق كل إنسان أن يدافع عن نفسه. ثم إنني لا أسمح لأي مخلوق أن يعمد في معاملتي إلى العنف، وذلك إيماناً مني بمبدأ لا أحيد عنه، لأن العنف استبداد. فماذا كان يجب عليّ أن أفعل؟ أبقي أمامها مبسوط الذراعين؟ كل ما فعلته هو أنني دفعتها عنـي.

كان لوجين ما يزال يقهقه بوحشية :

- هي هي هي! ..

- أنت تسعى إلى مشاجرتى، لأنك متذكر المزاج. وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة إطلاقاً، إطلاقاً. لقد فهمت الأمر مقلوباً. إنني لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مساويات للرجال في كل شيء<sup>(40)</sup>، حتى في باب القوة (كما يؤكّد هذا منذ الآن)، فقد وجب الإبقاء على المساواة في هذه الحالة أيضاً. طبعاً... أنا قلت لنفسي بعد ذلك أن أمثال هذه المسائل ينبغي أن لا تُطرح أصلاً، لأن المنازعات ما ينبغي أن توجد، حتى أنها ستكون في مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها، وأنه لشيء غريب، تبعاً لذلك، أن ننشد المساواة في مشاجرة. أنا لست غبياً إلى الحد الذي... رغم أن المشاجرات ما تزال قائمة طبعاً بانتظار ذلك... أعني أن المشاجرات ستزول في المستقبل، لكنها ما تزال إلى اليوم موجودة... هوه! أن المرء ليرتبك حين يكلمك، وتخلط عليه الأمور... مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب في أنني لن أحضر العشاء. وإنما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالمبـدأ، حتى لا أشارك في هذه العادة السخيفـة من العادات الاجتماعية،

أعني مأدبة الجنازة. نعم، ذلك هو السبب. على أنني قد أحضر المأدبة، ولو لأضحك منها، واستهزئ بها... من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس، وإلا لما فوت على نفسي فرصة الحضور.

- أي أنك كنت ستجلس إلى مائدة الناس لتتصدق بعد ذلك في الأطباق، ولتصدق أيضاً في قلوب أولئك الذين دعوك؟ أليس كذلك؟

- ليس الأمر أمر بصاق بل أمر احتجاج. أنا إن فعلت ذلك فإنما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة. ففي وعي بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعاً غير مباشر. أن على كل إنسان أن يساهم في تنمية الدعاية، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى. أن في إمكانني أن أذر الفكرة، أن ألقى البذرة. ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة. فيما أسيء إليهم إذا أنا فعلت ذلك؟ قد يشعرون في أول الأمر طبعاً بأن إساءة لحقتهم، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أنني كنت نافعاً لهم. انظر إلى قضية المرأة تيربييفا عندنا (المرأة التي تنتمي الآن إلى الكومونة)... لقد تركت أهلها... واستسلمت لرجل، فأخذوا عليها أنها كتبت إلى أبيها قائلة إنها أصبحت لا تريد أن تعيش في الأوهام الاجتماعية، وأنها تؤثر الزواج الحر. لقد قال الناس عندئذ إن تصرفها إزاء أبيها كان فيه كثير من الغلظة، وأنها كانت تستطيع أن تراعيهم وتداريهم، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل في رسالتها أسلوباً أرق. أما أنا فأرى أن هذه الكلام كله سخف، وأن على المرأة أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً. بالعكس: لا بد من الاحتجاج... وانظر إلى المرأة فارنتس: لقد عاشت مع زوجها سبع سنين، ثم تركته وتركت ولديها؛ وفي الرسالة التي بعثت بها إليه لم تتحرج من شرح رأيها بوضوح تام، فقالت: «أدركت أنني لن أستطيع أن أكون سعيدة معك. ولن أغفر لك، بما حيبت، أنك أخفيت عنِّي أن هناك تنظيمياً آخر للمجتمع على أساس الكومونة. لقد عرفت ذلك حديثاً من رجل عظيم استسلمت له وسانشى معه كومونة. أقول لك هذا بصرامة، لأنني أعتقد

أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف في شيء أن أكذب عليك وأن أخدعك. دبر أمرك على النحو الذي يرضيك، ولا تأمل أن تراني عائدة إليك... إنك متخلف مسرف في التخلف. أتمنى لك أن تكون سعيداً». هكذا إنما ينبغي أن تكتب أمثل هذه الرسائل!

- أليست تيربيفها هذه هي تلك التي قلت لي إنها الآن في زواجهما  
الحر الثالث؟

- لا، بل هي في زواجهما الحر الثاني إذا نحن أحسنا النظر في الأمور. وهبها في زواجهما الحر الرابع عشر أو الخامس عشر، فأي ضير في هذا؟ لتن أسفت يوماً على موت أبي فإنما أسفت على ذلك في هذا اليوم. حتى لقد اتفق لي مراراً أن قلت لنفسي: لو كان أبواي حيين لعرفت كيف أحتج عليهم! نعم، لو كانا حيين لفعلت ذلك عامداً، فأظهرتهما على آرائي، وأدهشتهم أيماناً إدهاش! حقاً أتمنى لو أراهما حيين... حقاً أنه ليؤسفني أنهما ماتا!

قاطعه بيوتر بتروفتش قائلاً:

- لستستطيع أن تدهشهما؟ هى!.. طيب... افعل ما يحلو لك... ولكن قل لي: أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً، تلك الفتاة الصغيرة النحيلة، فهل صحيح ما يقال عنها؟

- ما قيمة هذا؟ في رأيي، أعني في قناعتي الشخصية أن وضعها هو الوضع الطبيعي للمرأة. لم لا؟ أقصد *distinguons!*<sup>(41)</sup> لا شك أن وضعها هذا ليس في المجتمع الحالي وضعاً طبيعياً، لأنه ناشئ عن اضطرار وإكراه، أما في المجتمع المقبل، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً، لأنه سينشاً عن اختيار حر. ثم إن هذه الفتاة من حقها، الآن أيضاً، أن تعيش كما تعيش. أنها تتألم، وجسدها هو رأس مالها إن صدّ التعبير، ففي وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذي تشاء. صحيح أن رؤوس الأموال هذه لن يبقى لها في مجتمع المستقبل علة وجود، ولكن دور

البغي سيتخذ دلالة أخرى، وسيتم تنظيمه تنظيماً عقلياً. ولنرجع الآن إلى شخص صونيا سيميونوفنا: أنتي أرى أن سلوكها هو في هذه الأزمة احتجاج قوي مجسّد على نظام المجتمع؛ وأنا لهذا السبب أحترمها احتراماً عميقاً، بل أكثر من ذلك أنتي أغبط لرؤيتها على هذه الحال.

- لكنني سمعت أنك شخصياً قد طردتها من هذا البيت.

اعتَرَثْ ليزياتينيكوف حالة غضب شديد عنيف، وزار يقول:

- هذه أيضاً نمائماً! إن الأمور لم تجر على هذا النحو، لم تجر على هذا النحو فقط! حقاً إنها لم تجر على هذا النحو! إن كاترينا إيفانوفنا هي التي اخترت كل شيء، لأنها لم تفهم شيئاً. أنا لم أحاول في يوم من الأيام أن أحظى بصونيا سيميونوفنا: كنت أكتفي بتحقيفها بعيداً عن كل مصلحة، بريئاً من كل غاية؛ كنت أحاول أن أنمّي فيها روح الاحتجاج. لم أكن في حاجة إلا إلى احتجاجها وحده. ثم إن صونيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الإدراك أنها أصبحت لا تستطيع أن تقيم هنا في مسكن مفروش.

- هل كنت تدعوها إلى الاشتراك في الكومونة؟

- أنت لا تجيد إلا السخرية، ولكنك تخطئ هنا خطأ فادحاً... اسمح لي أن أقول لك ذلك!.. إنك لا تفهم من أمر الكومونة شيئاً. في الكومونة، لا وجود لهذا الدور. وإنما نظمت الكومونة من أجل أن لا يكون لهذا الدور وجود. في الكومونة سيتغير هذا الدور تغيراً تاماً، فما هو غبي هنا سيصبح ذكياً هنالك، وما يبدو هنا في الظروف الحالية مخالفًا للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً. كل شيء مرهون بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان. كل شيء تحدده البيئة، والإنسان في ذاته لا شأن له. أما صونيا سيميونوفنا فإن علاقتي بها ما تزال طيبة حتى الآن، وهذا دليل على أنها لم تعددني في يوم من الأيام عدواً أو مسيئاً. نعم، إنتي أحاوّل الآن أن أجذبها إلى الكومونة، ولكن لأسباب أخرى تماماً.

لماذا تضحك؟ إننا نريد أن ننشيء كومونة خاصة بنا، ولكننا نريد أن ننشيء هذه الكومونة على أساس أوسع من الأسس السابقة. لقد مضينا في اعتقادتنا إلى مدى أبعد<sup>(42)</sup>، وأنكرنا أشياء أكثر، فلو خرج دوبروليبوف من قبره لتشاجر معه حتماً، ثق بذلك! أما بيلنسكي فلو خرج من قبره لأبدته إبادة! وأنا الآن مستمر في تنشئة صونيا سيميونوفنا. إن لها طبيعة طيبة حسنة، حسنة جداً!

- هيئا! إنك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة! هي هي! ..

- أنا؟ لا، لا! بالعكس ..

- بالعكس؟ أنت تقول هذا الكلام؟

- في وسعتك مع ذلك أن تصدقني. ما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعني إلى إخفاء الحقيقة عنك؟ هلاً أجبتني من فضلك؟ نعم، هناك ظاهرة غريبة، بل غريبة بالنسبة إليَّ أيضاً: لأنها معي متحرجـة، وجلة، بل وخجلة!

- وأنت أثناء ذلك مستمر في تنشئتـها! هي! .. تبرهن لها على أن أنواع الحياة هذه كلها ما هي إلا غباوات وبلاهـات! ..

- لا، لا! .. آه.. ما أغلفظ وما أغبـي تأويـلك هذا الكلمة «التنشـة»، اعذرـني! ألا إنك إذاً لا تفهم شيئاً على الإطلاق! آه.. يا رب! .. ما أشد تخلفـك حتى الآن! .. نحن ننشـد حرية المرأة، وأنت ليسـ في رأسـك إلا.. إذا تركـنا جانـباً مسألـة العـفة بوجهـ عامـ، وهي شيءـ لا جدوـي منهـ في ذاتـهـ، بل هي شيءـ سخـيفـ أيضاً، فإـنـي أـقبلـ تحـفـظـها مـعـيـ كلـ القـبـولـ: فـماـ دـامـتـ هـذـهـ إـرـادـتهاـ فـمـنـ حقـهاـ أنـ.. طـبعـاًـ، إـذـاـ قـالـتـ ليـ فيـ ذاتـ يـومـ: «أـنـاـ أـريـدـكـ»ـ، فـسـاعـدـ ذـلـكـ حـظـاًـ سـعـيدـاًـ، لأنـ هـذـهـ الفتـاةـ تعـجـبـنـيـ كـثـيرـاًـ.ـ أـمـاـ الآـنـ،ـ الآـنـ عـلـىـ الأـقـلـ،ـ فـرـبـمـاـ كانـ لاـ يـوجـدـ أحدـ يـعـاملـهـ بـمـثـلـ ماـ أـعـاملـهـ أـنـاـ بـهـ مـنـ لـطـفـ وـمـدارـةـ وـمـراـعاـةـ.ـ إـنـيـ اـنـتـظـرـ وـأـمـلـ،ـ هـذـاـ كـلـ شـيـءـ.

- الأفضل أن تقدم إليها هدية صغيرة. أراهن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالك، أليس كذلك؟

- أنت لا تفهم شيئاً، سبق أن قلت لك ذلك! صحيح أنها موسم، ولكن المسألة ليست هنا، ليست هنا البتة! أنت تحقرها، لا أكثر ولا أقل. إنك بالاستناد إلى واقعة مخلة بالشرف في رأيك، تأبى على كائن إنساني أن ينظر إليها نظرة فيها روح إنسانية. ألا إنك تجهل حتى طبيعتها! إن هناك شيئاً واحداً آسف له، أنها منذ زمن قد انقطعت عن القراءة اقطاعاً تماماً، وأصبحت لا تستثير مني أي كتاب. كانت قبل ذلك تستثير مني كتاباً. وما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم كل ما تملكه من طاقة كبيرة، ورغم كل ما تتصف به من عزم على الاحتجاج لقد سبق أن برهنت على ذلك مرّة على أنه لا يبدو فيها قدر كافٍ من الاستقلال، قدر كافٍ من . . . من الرفض، قدر كافٍ من التأهب للتحرر نهائياً من رواسبها الاجتماعية . . . وسخافاتها. ومع ذلك فهي تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً. لقد أدركت أكمل الإدراك مسألة تقبيل اليد، مثلاً. لقد أدركت أحسن الإدراك أن الرجل حين يقبل يد المرأة إنما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدراً. لقد ناقشتنا هذه المسألة عندنا، وناقشتها معها. وقد أصفت إلى بانتباه شديد أيضاً حين كلمتها عن النقابات العمالية في فرنسا. وأنا الآن بسبيل أن أشرح لها مسألة حرية دخول الغرف على نحو ما سُتطرح هذه المسألة في المستقبل.

- ما هذه المسألة أيضاً؟

- لقد أثيرت في الآونة الأخيرة هذه المسألة: هل من حق عضو الكومونة، رجلاً كان أو امرأة، أن يدخل غرفة عضو آخر، رجلاً كان أو امرأة، في أية ساعة من الساعات . . . وقد تقرر أن له هذا الحق.

- غريب! ماذا لو كان العضو، الرجل أو المرأة، مشغولاً في تلك الساعة بتلية حاجة طبيعية؟ هي هي؟!

غضب آندريه سيميونوفتش، وصاح يقول:

- آه... هانت ذا تعود إلى هذه المسألة! إن الأمر الهام في نظرك إنما هو هذه «الحاجات» اللعينة! ألا إبني لأحد على نفسي لأنني تكلمت أمامك عن هذه الحاجات اللعينة! شيطان يأخذك! هذه عثرتك وعثرة جميع أشياحك. وأنكى ما في الأمر أنهم يلقون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هي المسألة. كأن ذلك من حقهم! وكأن في ذلك ما يدعوا إلى الفخر والاعتزاز! آ... لقد سبق أن قلت غير مرة إن هذه المسألة ما ينبغي أن تُعرض أمام أغرار مبتدئين إلا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم إلى المذهب. بتعبير آخر: ما ينبغي أن يعالج هذه المسألة إلا إنسان تطور تطوراً كافياً وتحققت له تنشئة مناسبة. ثم قل لي: ما الذي تراه في المرأحيض من شيء مخجل إلى هذا الحد محقر إلى هذه الدرجة؟ إبني مستعد لأن أنظف ما تشاء من مرأحيض. وصدقني إذا قلت لك إن هذا لا ينطوي على أي تضحية من جهتي. ذلك عمل كغيره من الأعمال، بل أنه لأكبر كثيراً من عمل رافائيل أو بوشكين، لسبب بسيط هو أنه أكثر نفعاً<sup>(43)</sup>.

- وأكثر نبلأ، أكثر نبلأ، هي، هي؟!

- ما معنى كلمة «النبيل» هذه؟ إبني لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط إنساني. «أكثر نبلأ! أكثر سماحة»! هذه ترهة، هذه سخافة، هذه رواسب اجتماعية بالية أرفضها وأحتقرها. الشيء النبيل هو الشيء النافع للإنسانية. ذلك هو الشيء النبيل حقاً. أنا لا أفهم إلا الكلمة واحدة، وهذه الكلمة هي النافع. اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك، فذلك هو اعتقادي!

ضحك بيوتر بتروفيتش ضحكاً شديداً. لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتب ماله. ولكنه أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة، لا يدرى أحد لماذا.

إن «مسألة المراحيض هذه» كانت، رغم تفاهتها، سبباً لمشاجرات عدّة بين بيوتر بتروفتش وصديقه الشاب. والغباء في الأمر أن آندريله سيميونوفتش كان يغضب فعلاً، أما لوجين فما كان يرى في هذا إلا فرصة للتسلية والاسترخاء. وكان في تلك اللحظة خاصة يشتتهي أن يُغيط ليزياتنيكوف.

- بسبب إخفاقك مساء أمس إنما أنت معتكر المزاج إلى هذا الحد اليوم.

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليزياتنيكوف الذي كان رغم كل «استقلاله» ورغم كل روح «الاحتجاج» لديه، لا يجرؤ في العادة أن يعارض بيوتر بتروفتش معارضة صريحة، وكان على وجه العموم يتلزم في معاملته ما ألف أن يتزمه في معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام.

وقد قاطعه بيوتر بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتعاض:

- قل لي: هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتي إلى هنا، إلى هذه الغرفة، حالاً؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جمِيعاً من المقبرة. لقد سمعت وقع أقدام، و... . أود لو أرى هذه الفتاة.

سؤاله ليزياتنيكوف مدهوشًا:

- ولكن لماذا؟

فأجابه:

- هكذا... يجب أن أكلمها. أنني سأرحل بين يوم ويوم، وأحب أن أنقل إليها... في وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال، بل ذلك أفضل، وإلا فقد تخيل ما لا يعلمه إلا الله! ..

- لن أتخيل شيئاً ثبتة... وإنما أنا ألقىت سؤالي هكذا... فإذا

كنت في حاجة إلى أن تراها فلا أسهل من إحضارها. أنا ذاهب لأجئتك بها. وثق أنني لن أزعجك.

وعاد ليزياتنيكوف مع صونيا فعلاً بعد خمس دقائق. دخلت صونيا مدهوسة أشدّ الدهشة، خجلةً وجلةً إلى أقصى حد، على عادتها. إنها خجلةٌ وجلةٌ دائمًا في مثل هذه الأحوال. كانت منذ طفولتها تخشى التعرف إلى أناسٍ جدد، وتخاف من الوجوه الجديدة، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن.

استقبلها بيوتر بترورفتش استقبالاً «لطيفاً مهذباً»، ولكنَّه أضاف إلى هذا الاستقبال، والحق يقال، نوعاً من المرح والألفة يليقان، في رأيه، برجل يبلغ ما يبلغه هو من جد ووقار وإحترام، حين يعامل مخلوقة شابة إلى هذا الحد، شائقة إلى هذه الدرجة، بمعنى من المعاني.

وأسرع بيوتر بترورفتش «يطمئن» صونيا، ويُجلسها أمام المائدة قبالتها. جلست صونيا وألقت نظرة حولها - على ليزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة، ثم على بيوتر بترورفتش فجأةً من جديد. ومنذ تلك اللحظة لم تحول بصرها عنه، كأن شيئاً ما كان يشدّها إليه.

اتجه ليزياتنيكوف نحو الباب، فنهض بيوتر بترورفتش، وأوقفه عند الباب وهو يدعو صونيا بإشارة من يده إلى أن تبقى جالسة. وقال يسأل صاحبه همساً:

- هل راسكولنيكوف ذاك هناك؟ هل جاء؟

فأجابه ليزياتنيكوف:

- راسكولنيكوف؟ نعم، هو هناك. وماذا يعني ذلك؟ نعم، هو هناك. وصل منذ قليل، رأيته. ما الأمر؟

- إذاً، أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا، أن لا تتركني في خلوة مع هذه... الفتاة. هذه قضية لا قيمة لها، ولا يعلم إلا الله ما عسى يستنتاج منها إذاً... لا أريد أن يمضي راسكولنيكوف يتقول هناك... هل تفهم إلى ماذا أشير؟

أجاب ليزياتنيكوف وقد أدرك الأمر:

- أفهم، أفهم. نعم، أنت على حق. في قناعتي الشخصية إنك تضخم الأخطار تضخيمًا كبيراً.. ولكنك مع ذلك على حق. طيب. سأبقى. سأمكث هنا، قرب النافذة، حتى لا أضايقك... في رأيي أنك على حق... .

عاد بيوتر بترورفتش نحو الأريكة، وجلس قبالة صونيا، ونظر إليها بانتباه، ثم لم يلبث أن اصطمع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية، وهو يقول لها بينه وبين نفسه «لا تخطرُ بيالك الخواطر يا جميلة!»

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها. وبدأ بيوتر بترورفتش كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد، ولكنها لهجة متعددة في الوقت نفسه:

- أرجوك أولاً أن تتذكرمي يا صونيا سيميونوفنا، فتعذرلي عنِي لأمرك المحترمة... أليست كاترينا إيفانوفنا بمثابة الأم لك؟ أليس هذا صحيحًا؟

كان يبدو على بيوتر بترورفتش أنه يضمِّر أحسن نيات الصداقة.

فأسرعت صونيا تجييه مروعة:

- نعم، حقاً، هي لي بمثابة الأم.

- فاعتذرلي لها عنِي لا أستطيع، بسبب ظروف مستقلة عنِي إرادتي، أن أجيء عندكم فاكيل... أقصد أن أشارك في مأدبة الجنازة، رغم الدعوة اللطيفة التي وجهتها إليَّ.

- سأقول لها هذا، فوراً... .

قالت صونيا ذلك ونهضت مسرعة.

فقال بيوتر بترورفتش وهو يمنعها من القيام، ويبتسم لسذاجة الفتاة

- ليس هذا كل شيء بعد. أنك لتجهليتي إذن، يا صونيا سيميونوفنا العزيزة، إذا كنت تصورين أنني لسبب يبلغ هذا المبلغ من التفاهة ولا يتعلق إلا بي أنا، يمكن أن أسمح لنفسي بأن أزعج شخصاً مثلك. إن لي هدفاً آخر تماماً.

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة. وأخذت الأوراق المالية وأنواع العملة الباقية على المائدة تترافق أمام عينيها من جديد، فسرعان ما أشاحت وجهها عنها بقوة، ونظرت إلى بيوتر بتروفتش. لقد لاح لها فجأة أنه عار رهيب عليها أن تنظر إلى مال ليس مالها، لا سيما وهي ما هي. توقف بصرها في أول الأمر على المونوكل ذي الإطار الذهبي، الذي كان بيوتر بتروفتش يمسكه بيده اليسرى، وعلى الخاتم الجميل جداً، الضخم جداً، المزدان بحجر أصفر، الساطع في الإصبع الوسطى من تلك اليد نفسها. ولكنها حولت بصرها فجأة، وإذا لم تعرف إلى أين توجه عينيها، حدقت بهما إلى عيني بيوتر بتروفتش لا تحرکهما يمنة ولا يسرة.

وبعد فترة من صمت تابع بيوتر بتروفتش كلامه بلهجته فيها مزيد من الجد أيضاً:

- أتيحت لي أمس فرصة تبادل بعض الكلمات مع المسكينة كاترينا إيفانوفنا؛ فأدركت من تلك الكلمات القليلة وحدتها أنها تعيش في حالة منافية للطبيعة، إن صحي التعبير.

فقالت صونيا مؤيدة:

- نعم... في حالة منافية للطبيعة.

- أو في حالة مرضية إذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح.

- نعم، إذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح... نعم... هي مريضة.

- هذه هي المسألة... وقد هزتني مشاعر إنسانية ومشاعر عطف إن صح التعبير، فوددت لو أنفعها في شيء ما، لأنني أتبأ بال المصير الشفقي البائس الذي ستؤول إليه لا محالة. يُخيّل إليّ أن الأسرة التعيسة كلها قد أصبحت تعتمد عليك وحدك.

سألته صونيا فجأة وهي تنهض:

- اسمح لي أن أسألك... هل صحيح أنك كلمتها أمس عن إمكان الحصول على معاش تقاعدي؟.. لقد قالت لي أمس أنك مستعد لأن تتولى القيام بالمساعي الالزمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش. فهل هذا صحيح؟

- غير صحيح البتة، بل هو أيضاً سخفاً. كل ما فعلته هو أنني أشرت إلى جواز الحصول على نجدة مؤقتة يمكن أن تدفع لأرملة موظف مات أثناء الخدمة - وهذا لا يتحقق طبعاً إلا إذا كان هنالك أناس يرعون هذه الأرملة ويحمونها - ولكنني أعتقد أن أبيك لم يستوف عدد السنين المطلوبة في الوظيفة، حتى أنه في الآونة الأخيرة لم يعمل إطلاقاً. ومعنى ذلك، باختصار، أن الأمل الصغير الذي كان يمكن أن يراودنا يضعف في هذه الأحوال مزيداً من الضعف، لأن حق أبيك في التعويض في مثل هذه الأحوال لا وجود له... بالعكس... فما أغرب أن تفكّر أمك منذ الآن في معاش!.. هي هي! يا للسيدة المتعجلة!..

- نعم... هي... معاش... لأنها سريعة التصديق... وطيبة... وهي لأنها طيبة، تظن أن... وتصدق... ثم إن فكرها قد خلق هكذا. نعم... معاذرة... .

كذلك قالت صونيا مشوّشة وهي تنهض من جديد لتنصرف.

قال بيوتر بتروفتش:

- اسمحي لي!.. إنك لم تسمعي بعد كل شيء.

فجمجمت صونيا تقول:

- نعم، لم أسمع بعد كل شيء.

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك والاضطراب.

وتتابع بيوتر بتروفتش كلامه فقال:

- إنني، وقد رأيت الحالة التي هي فيها مع ولدين باشيين، رغبت، كما سبق أن قلت لك ذلك، في أن أكون نافعاً لها بمقدار ما تتيحه لي وسائلي، نعم، بمقدار ما تتيحه لي وسائلي، لا أكثر من ذلك. فمن الممكن مثلاً أن ننظم اكتتاب تبرعات، أو حتى أن ننظم سحب يانصيب، أو أي شيء آخر من هذا القبيل... كما يحدث هذا في حالة بهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجانب يريدون أن يهبوا إلى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر. فعن هذا المشروع إنما أردت أن أحذثك. أنه مشروع ممكن التحقيق.

تمتت صونيا تقول محدقةً إلى بيوتر بتروفتش في عناد وإصرار:

- نعم، ذلك شيء حسن جداً... جزاك الله خيراً...

- الأمر ممكن، ولكن... ستكلم عن ذلك فيما بعد... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم. على كل حال سنلتقي في هذا المساء، وستتفق. سترسي الأسس، كما يقال. تعالى إلى هنا في نحو الساعة السابعة... وسيحضر آندريله سيميونوفتش حديثنا فيما آمل... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه إبرازاً خاصاً منذ الآن. ومن أجل هذا الأمر يا صونيا سيميونوفنا إنما أبغض لنفسي أن أزعجك باستدعائك إلى هنا. فيرأيي أن المال الذي سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدي كاترينا إيفانوفنا نفسها، حتى أن في ذلك خطراً. ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك: إن كاترينا إيفانوفنا وهي لا تملك لقمة تضعها تحت ضرسها غداً، ولا تملك حذاءين تتعلهما فتقى نفسها السير حافية، لا تحجم

اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكي بل والنبيذ الماديري . . . والقهوة، إذا لم يخطئ ظني. لقد رأيت هذا كله عابراً. وغداً يقع كل شيء على عاتقك أنت، ويكون عليك أن تقدمي لهم حتى خبزهم اليومي، وذلك أمر لا يعقل! لهذا أرى أن ينظم اكتتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرمدة المسكينة من أن ترى حتى لون المال إن صع التعبير، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت. ألسن على حق؟

- لا أدرى! . . في هذا اليوم وحده إنما هي . . ذلك لا يحدث إلا مرة واحدة في الحياة . . إنها شديدة الرغبة في أن تكرم ذكرى الراحل . . وهي ذكية جداً. على كل حال، افعل ما تراه مناسباً . . وسأكون . . وسيكونون جميعاً . . وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء . . .

لم تكمل صونيا جملتها، وأجهشت باكية.

قال بيوتر بتروفتش:

- فكُري جيداً في ما قلته لك. والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبلني عن أمك هذا المبلغ، بمقدار ما تتيحه لي وسائلي مشاركةً مني في اكتتاب التبرعات. وأنني لأأمل خاصةً أن لا يُذكر اسمي في هذه المناسبة. يؤسفني أن أعبائي الكثيرة لا تسمح لي بالترع بأكثر من هذا المبلغ . . .

قال بيوتر بتروفتش ذلك ومد إلى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات غُنِي بطيئها طيأ دقيقاً. فتناولت صونيا الورقة المالية محمرة الوجه خجلاً، ثم نهضت بوثبة واحدة، ودمدمت ببعض كلمات، واستأنفت بالانصراف مسرعةً إسراعاً شديداً. فشيعها بيوتر بتروفتش حتى الباب بأبهة وجلال. وخرجت آخر الأمر من الغرفة متوجلةً عصبيةً مرهقةً، وعادت إلى كاترينا إيفانوفنا وهي على حال من الاضطراب الشديد.

طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد كان آندريه سيميونوفتش، الذي لم يشاً أن يقطع عليهما الحديث، كان يبقى ساكناً قرب النافذة

تارة، أو يسير في الغرفة تارةً أخرى. فلما خرجت صونيا اقترب من بيوتر بتروفتش فجأة، ومدَّ إليه يده يصافحه برصانة ووقار، قائلاً له:

- لقد سمعت كل شيء ورأيت كل شيء (الله آندريله سيميونوفتش على كلمة «رأيت» هذه إلحااحاً خاصاً). هذا عمل نبيل، أقصد هذا عمل إنساني! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان، لاحظت أنا ذلك. صحيح أنني من ناحية المبدأ أعارض كل إحسان أو بُرٍّ، لأن الإحسان أو البر لا يستأهل الشر استئصالاً قاطعاً، بل يبقيه ويعزذه بمزيد من التغذية، ولكنني لا أملك مع ذلك إلا أن أعترف بأنني تأملت عملك بشيء من الرضى والمسرة واللذة. نعم، نعم، أعجبني عملك. جمجم بيوتر بتروفتش يقول متأثراً بعض التأثر، متأنلاً ليزياتينيكوف

في شيء من الحذر والريب:

- هذه كلها أمور تافهة!

- لا، ليست أموراً تافهة! إن رجلاً حرج جرح حاداً كما جُرحت أنت بإساءة الأمس، ثم هو قادر في الوقت نفسه على أن يفكر في شقاء الآخرين وبؤسهم، إن رجلاً كهذا الرجل - رغم أنه يتصرف على هذا النحو يرتكب خطأً من الناحية الاجتماعية - جدير بالتقدير وخلق وبالاحترام. الحق أنني لم أكن أتوقع هذا منك يا بيوتر بتروفتش، لا سيما وأن آراءك... آه... ما أشد الحرج الذي ما تزال تسببه لك هذه الآراء! ما أشد تأثيرك مثلاً بقضية الأمس تلك! (بهذا هتف آندريله سيميونوفتش الساذج، وقد شعر نحو بيوتر بتروفتش بمودة ومحبة على حين فجأة) ولكن لماذا، لماذا حرست هذا الحرص كله على ذلك الزواج الشرعي، يا بيوتر بتروفتش، النبيل جداً، اللطيف جداً، ما حاجتك إلى هذه الشرعية في الزواج؟ أضربني إن شئت، ولكنني أشعر بسعادة حين أتذكر أن هذا الزواج لم يتم، وأنك حر، وأنك لم تمت بعدً موتاً تماماً بالنسبة إلى الإنسانية. نعم، أشعر بسعادة حين أتذكر ذلك. هانت ذا ترى أنني أصارحك بما في قلبي.

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما :

- إذا كنت أحرص على الزواج، فلأنني لا أريد أن ينبت لي قرنان، وأن أرببي أولاد الآخرين، كما يحدث في الزواج الحر الذي تدعوه إليه.

جفل آندريه سيميونوفتش كحصان المعركة الذي سمع صوت البوّق، وسأل صاحبه متحمّساً :

- الأولاد؟ قلت الأولاد؟ إنني أسلّم بأن الأولاد يشرون مشكلة اجتماعية هامة حداً، ولكن مسألة الأولاد ستُحل بطريقة أخرى تماماً. إن بعضهم يمضي إلى حد إنكار الأولاد إنكاراً تاماً، كما ينكر كل إشارة إلى الأسرة على كل حال. وستتحدث عن مشكلة الأولاد فيما بعد. أما الآن فلنقف على مسألة القرنين هذه، لأنني أحبها جبًا خاصًا. ألا فاعلم أن هذا التعبير السيء المستمد من لغة الفرسان، المستعار من كلام رجال مثل بوشكين، سوف يُنبذ من معاجم المستقبل نبدأ تاماً. ما هذه القرون التي تتحدثون عنها؟ هه! كم أنت مخطئ! لماذا تتحدثون عن قرون؟ نعم، هناك قرون. ولكن الزواج الحر هو الذي لن تكون فيه قرون؟ ليست القرون إلا نتيجة طبيعية للزواج الشرعي. إنها تعديل له إن صح التعبير. إنها الاحتجاج عليه. وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى شيء من مذلة. فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زوجاً شرعياً وهذا افتراض مستحيل لكان يسرني ويسعدني أن ينبت لي قرنان من تلك القرون الملعونة التي تتحدثون عنها. سوف أقول عندئذ لزوجتي: «يا صديقتي، أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحببتك، أما الآن فأنني أضيف إلى الحب احتراماً، لأنك عرفت كيف ترفعين احتجاجاً». أتضحك؟ أنت تضحك لأنك لا تملك من القوة ما يمكنك من التحرر من الرواسب الاجتماعية. أنا أفهم أن يمتعض الزوج من خيانة زوجته في الزواج الشرعي، ولكن هذا بعine إنما هو النتيجة البائسة لواقعه هي أيضاً بائسة، بالنسبة إلى الطرفين كليهما. أما حين يحمل

الرجل قرنين صراحةً، كما هي الحال في الزواج الحر، فإن القرنين ينعدم عندئذ وجودهما إن صح التعبير، ويصبح من غير الممكن تصورهما، ويفقدان حتى اسم القرنين؛ بل إن في وسعي أن أقول إن امرأتك تبرهن لك بذلك على مدى احترامها لك، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها وبين سعادتها، وبأنك متطور متقدم إلى الحد الذي يمنعك من الانتقام منها بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً. يميناً أنه ليخطر ببالي أحياناً أنني إذا تزوجت زواجاً حرّاً أو زواجاً شرعياً، سيان فلربما أجيء لامرأتي بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها. ولأقولن لها عندئذ: «يا صديقتي، أنا أحبك، ولكنني أريد بالإضافة إلى ذلك أن تتحترميوني. إنني أحرص على هذا. إليك عشيقاً!». ألمست على حق؟ ألمست على حق؟

كان بيوتر بتروفتش يصغي إليه ضاحكاً، ولكن دون أن يبدي كثيراً من الاهتمام، حتى أنه لم ينتبه إلى الكلام إلا قليلاً، لأنه كان يفكر في شيء آخر تماماً، وقد لاحظ ليزياتينيكوف ذلك آخر الأمر.

لقد كان بيوتر بتروفتش يعاني اضطراباً شديداً، فكان يفرك يديه ويععن في التفكير.

ذلك كله تذكره آندريله سيميونوفتش فيما بعد، وفهمه . . .

## يلعب

علينا أن تحدّد، على وجه الدقة، الأسباب التي أبْتَت في دماغ كاترينا ايفانوفنا المختل فكره مأدبة الجنازة هذه. لا بد أنها أنفقت على هذه المأدبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلًا التي أخذتها من راسكولنيكوف لإنفاقها على احتفالات دفن مارميلاروف. لعل كاترينا ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضططرة إلى تكريم ذكرى الراحل تكريماً «لائقاً»، حتى يعلم جميع المستأجرين، ولا سيما أماليها ايفانوفنا، أن الراحل لم يكن أدنى قيمة منهم، بل ربما كان أعلى كثيراً، وأنه ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن «يُدلّ بنفسه» حين يفكّر فيه. ولعلها كانت تنقاد «لزهو الفقراء» الخاص بهم الذي يدفع كثيراً من البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب عاداتنا المتّصلة، إلى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى وأخر ما يملكون من مال، حتى لا يكونوا «دون الآخرين» وحتى لا «يحكم عليهم» أولئك الآخرون. ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترينا ايفانوفنا في ذلك الظرف بعينه، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها، قد أرادت أن تبرهن لجميع أولئك «المعوزين الحقراء» الذين هم المستأجرون، أنها امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل، وأنها نشأت لتحيا طرازاً من الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف، وأنها تربت في «منزل نبيل، بل ومنزل

أرستقراطي، منزل كولونيل»، وأنها إذاً لم تُخلق لتتولى بنفسها كنـس الأرض وغسل أسمـال الأولاد في اللـيل. إن اندفاعـات الزـهو والـصلـف والـغـرـور هذه تستـبد أحيـاناً بأشـد النـاس فـقرـاً، وتـستـبد بـأنـاس بـؤـسـاء، ولا يـنـدر أن نـرى هـذه الـانـدـفاعـات تستـحـيل في بعض الـلحـظـات إلى حاجـات حـقـيقـية، حاجـات مـاسـة قـوـية. ثم إن كـاتـريـنا إـيفـانـوفـنا لـيـسـتـ منـ تلكـ النـسـاء الـلـوـاتـي يـجـنـدـلـنـ بـسـهـولـةـ: فقدـ كانـ منـ المـمـكـنـ أنـ تـسـحقـهاـ الـظـرـوفـ الـرـهـيـةـ، غـيرـ أنـ لاـ شـيءـ يـمـكـنـ أنـ يـجـهزـ عـلـىـ عـزـيمـتهاـ وـأـنـ يـهـدـمـ إـرـادـتهاـ. ثم إنـ صـوـنيـاـ كـانـتـ عـلـىـ حـقـ حـينـ قـالـتـ إنـ دـمـاغـ أـمـهـاـ قدـ أـخـذـ يـخـتلـ قـلـيلـاًـ. الـوـاقـعـ أـنـ الـأـمـرـ لـمـ يـتـضـحـ بـعـدـ، وـلـكـنـ لـاـ شـكـ أنـ كـاتـريـناـ إـيفـانـوفـناـ قدـ تـحـمـلـتـ مـنـ الـمـحـنـ مـنـذـ بـعـضـ الـوقـتـ، وـلـاـ سـيـماـ فيـ السـنـةـ الـأـخـيـرـةـ، مـاـ لـاـ بـدـ أـنـ يـكـوـنـ لـهـ أـثـرـ فـيـ عـقـلـهـاـ. ثمـ إنـ مـرـضـ السـلـ يـهـيـيـ المصـابـ بـهـ لـاـ ضـطـرـابـ الـمـلـكـاتـ الـعـقـلـيـةـ مـتـىـ بـلـغـ مـرـحـلـةـ مـعـيـنـةـ.

لمـ تـكـنـ الـخـمـورـ كـثـيرـ جـداـ وـلـاـ مـتـنـوـعـ جـداـ، وـلـمـ يـكـنـ هـنـاكـ خـمـرـةـ مـاـدـيـرـيـةـ، فـتـلـكـ مـبـالـغـةـ. وـمـعـ ذـلـكـ كـانـ ثـمـةـ خـمـرـةـ: نـبـيـذـ وـفـودـكـاـ وـرـوـمـ وـبـورـتوـ. وـكـانـ هـذـاـ كـلـهـ مـنـ أـنـوـاعـ رـدـيـثـةـ طـبـعاـ، وـلـكـنـ مـقـادـيرـهـ كـانـتـ كـافـيـةـ. وـقـدـ هـيـقـواـ، بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ حـلـوـيـ الـأـرـزـ التـقـليـدـيـةـ، ثـلـاثـةـ أـصـنـافـ أـوـ أـربـعـةـ مـنـ الـطـعـامـ (مـنـهـاـ فـطـائـرـ)ـ أـعـدـتـ فـيـ مـطـبـخـ آـمـالـياـ إـيفـانـوفـناـ. وـخـضـرـ سـمـاـوـارـانـ لـمـ يـرـيدـونـ أـنـ يـشـرـبـواـ الشـايـ أـوـ يـحـتـسـواـ «ـالـبـنـشـ»ـ بـعـدـ الـوـجـةـ.

إنـ كـاتـريـناـ إـيفـانـوفـناـ هيـ التـيـ تـوـلتـ بـنـفـسـهـاـ شـرـاءـ الـأـشـيـاءـ، يـسـاعـدـهـاـ فـيـ ذـلـكـ أـحـدـ الـمـسـتـأـجـرـيـنـ وـهـوـ بـولـنـديـ رـثـ مـسـكـيـنـ لـاـ يـعـلـمـ إـلاـ اللهـ لـمـاـذـاـ يـسـكـنـ عـنـدـ السـيـدـةـ لـيـفـسـكـلـ. إـنـ هـذـاـ الـبـولـنـديـ لـاـ يـكـفـ عـنـ السـعـيـ هـنـاـ وـهـنـاكـ مـادـاـ لـسانـهـ (كـأـنـهـ كـانـ يـحاـوـلـ أـنـ يـلـفـتـ الـانتـباـهـ خـاصـةـ إـلـىـ هـذـاـ الـأـمـرـ)ـ؛ وـهـوـ فـيـ كـلـ لـحـظـةـ، بـأـيـ مـنـاسـبـةـ وـبـغـيرـ مـنـاسـبـةـ، يـخـفـ إـلـىـ كـاتـريـناـ إـيفـانـوفـناـ، بـلـ يـشـبـ رـكـضـاـ إـلـىـ السـوقـ المـشـهـورـ باـحـثـاـ عـنـهـاـ، وـيـغـدـقـ عـلـيـهـاـ لـقـبـ «ـالـسـيـدـةـ الـلـيـوـتـنـانـةـ»ـ بـغـيرـ حـسـابـ، إـلـىـ أـنـ ضـاقـتـ بـهـ وـنـفـدـ صـبـرـهـ عـلـيـهـ، مـعـ أـنـهـاـ كـانـتـ قـدـ أـعـلـنـتـ فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ أـنـهـاـ لـوـلـاـ هـذـاـ الرـجـلـ

«الخدمون الكرييم» لضاعت. لقد كان من طبع كاترينا ايفانوفنا أن تضفي أجمل الألوان على أول شخص تلقاء، وأن تغرقه بالمدح إلى أن يشعر بحرج وخجل، وأن تنسب إليه مزايا لا وجود لها في الواقع ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقة غير مرائية ثم إذا بأوهامها تتبدل، وإذا هي تخاشه وتغلظ له القول، وإذا هي آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسه الذي كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة. إن لها طبعاً مرحأً ميالاً إلى التسامح، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الإخفاق التي تلاحت عليها أخذت تطالب في كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح، وأن لا يجرؤ أحد أن يعيش على غير هذا النحو؛ فإذا حدث أيسر نشاز أو أقل فشل خرجت عن طورها في الحال. فهي بعد أن تكون قد هدئت نفسها بأقوى الآمال وأجمل الأماني وأسطع الأخيلة وأبهى الأوهام تأخذ، في لحظة واحدة، تلعن الأقدار وتشتم الدهر، وترغى وتزبد، وتعصف وترعد، وتخرب كل ما يقع تحت يدها، وتضرب برأسها الجدران.

وقد اكتسبت آماليها ايفانوفنا، هي أيضاً، على حين فجأة، قيمة عظيمة و شأنها كبيراً في نظر كاترينا ايفانوفنا، لا يدرى أحد لماذا... فأصبحت كاترينا تقدر آمالياً قدرأً عظيماً وتحترمها احتراماً هائلاً... ولكن لعل مرداً ذلك إلى المأدبة التي تريد كاترينا أن تقييمها، وإلى أن آمالياً قد عرضت من تلقاء نفسها أن تشارك في إعداد هذه المأدبة: لقد تعهدت بنصب المائدة، وتقديم المفرش، وتأمين الصحون، الخ، وتعهدت بإعداد الطعام في مطبخها. حتى إن كاترينا ايفانوفنا نفسها، حين ذهبت إلى المقبرة، قد خولتها كل السلطات، وفوضتها في كل أمر؛ والحق أن كل شيء قد أعد على أحسن وجه، وهيئت المائدة تهيئه لا مأخذ عليها. صحيح أن الصحون والشوكت والسكاكين والكؤوس الكبيرة والصغيرة، والفناجين، كانت غير متجانسة، من مصادر شتى وأنواع متباعدة، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين، ولكن كل شيء كان في

الساعة المحددة قد وضع في مكانه، حتى إن آماليا ايفانوفنا التي كانت تشعر بأنها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خير وجه، والتي كانت تتحلى بشوبها الأسود وتضع على راسها قبعة تزينها أشرطة صغيرة جديدة، قد أخذت تستقبل المدعوين، عند عودتهم من المقبرة، بشيء من الافتخار والاعتزاز. وهذا الاعتزاز، رغم أنه مشروع، قد ساء كاترينا ايفانوفنا، لا يدرى المرء لماذا! فكانت كاترينا تقول لنفسها: «لأننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا!». وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة. فكانت تقول لنفسها: «ترى أن تباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والإحسان؟ إن المائدة، في منزل والد كاترينا ايفانوفنا الذي كان عقيداً وكاد يكون محافظاً، كانت تُعدُّ أحياناً لأربعين ضيفاً، وما كان لامرأة مثل آماليا ايفانوفنا أو قولوا آماليا لودفيجوفنا أن تُقبل هنالك في المطبخ!..» واشتد أزر كاترينا ايفانوفنا بهذه الحاطرة، وقررت في دخلة نفسها، أنه لا بد من تغير همة آماليا ايفانوفنا بعد المأدبة رأساً وبلا تردد أو إمهال، ووضعها في مكانها الحقيقي لأنها تباهى وتبختر أكثر من اللازم، أما الآن فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شيئاً من الفتور والبرود. وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المساهمة في إحناق كاترينا ايفانوفنا: وهو أن المستأجرين الذين دعوا إلى الجنازة لم يكدر يشترك أحد منهم في الموكب، عدا البولندي الذي شيع جثمان المتوفى إلى المقبرة. أما المأدبة أو قل وجبة الطعام الخفيفة فإن الفقراء والتافهين وحدهم هم الذين حضروها، حتى إن بعضهم قد جاء إليها بشباب هي خرق رثة وأسمال بالية: أي أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الإجمال شيء من أبهة. لكن المتقدمين في السن وأهل الجد والوقار من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور. من ذلك مثلاً أن بيوتر بتروفتش لوجين، وهو الذي يمكن أن يقال إنه أعلاهم قدرًا وأرفعهم

شأنًا، لم يحضر المأدبة، مع أن كاترينا ايفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ العشية للجمعـيـع (الـأـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـنـاـ وـبـولـيـتـشـكـاـ وـصـونـيـاـ وـبـولـنـدـيـ)ـ أن بـيوـترـ بـتـرـوـفـشـ رـجـلـ مـنـ أـنـبـلـ النـاسـ وـأـكـرـمـهـ،ـ وـأـنـهـ ذـوـ صـلـاتـ عـالـيـةـ،ـ وـأـنـهـ غـنـيـ جـداـ،ـ وـأـنـهـ كـانـ صـدـيقـاـ لـزـوـجـهـ الـأـوـلـ،ـ وـأـنـهـ قـدـ سـبـقـ أـنـ استـقـبـلـ فـيـ مـنـزـلـ أـبـيـهـ،ـ وـأـنـهـ لـذـلـكـ قـدـ وـعـدـ بـيـذـلـ جـمـيعـ الـمـسـاعـيـ منـ أـجـلـ أـنـ تـحـصـلـ عـلـىـ مـعـاشـ تـقـاعـدـيـ كـبـيرـ.

يـجبـ أـنـ نـذـكـرـ هـنـاـ أـنـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـفـنـاـ إـذـ اـتـفـقـ لـهـاـ أـنـ أـطـرـتـ شـيـئـاـ مـنـ الـأـشـيـاءـ،ـ كـعـلـاقـاتـ عـالـيـةـ أوـ ثـرـوـةـ طـائـلـةـ،ـ فـإـنـهـاـ تـفـعـلـ ذـلـكـ دـائـمـاـ مـبـرـأـةـ مـنـ الـمـصـلـحـةـ مـُـنـزـهـةـ عـنـ الـمـنـفـعـةـ،ـ لـاـ يـدـفعـهـاـ إـلـىـ ذـلـكـ أـيـ حـسـابـ شـخـصـيـ،ـ وـإـنـمـاـ هـيـ تـفـعـلـهـ بـنـوـعـ مـنـ كـرـمـ فـيـاضـ وـحـمـاسـةـ دـافـقـةـ،ـ لـاـ تـرـجـوـ إـلـاـ لـذـةـ مـدـحـ أـحـدـ النـاسـ إـضـفـاءـ قـيـمـةـ كـبـيرـةـ عـلـيـهـ.

وـكـمـ اـمـتـنـعـ لـوـجـيـنـ عـنـ حـضـورـ الـمـأدـبـةـ،ـ اـمـتـنـعـ كـذـلـكـ عـنـ حـضـورـهـاـ رـبـماـ مـنـ بـابـ «ـالـاـقـتـداءـ بـهـ»ــ ذـلـكـ الـوـغـدـ الـمـشـؤـومـ لـبـيـزـيـاتـيـكـوـفــ.ـ «ـمـاـذـاـ يـظـنـ نـفـسـهـ؟ـ نـحـنـ مـاـ دـعـونـاهـ إـلـاـ شـفـقـةـ عـلـيـهـ وـبـرـأـ بـهـ،ـ وـلـأـنـهـ يـسـكـنـ فـيـ نـفـسـ الـغـرـفـةـ الـتـيـ يـسـكـنـ فـيـهـاـ بـيـوـترـ بـتـرـوـفـشـ الـذـيـ هـوـ مـنـ مـعـارـفـهـ،ـ فـكـانـ مـنـ الـمـحـرـجـ لـنـاـ أـنـ لـاـ نـدـعـوـهـ...ـ».ـ وـهـنـاكـ سـيـدـةـ وـابـتـهـاـ (ـوـالـابـتـةـ مـتـقـدـمـةـ قـلـيلـاـ فـيـ السـنـ)ـ لـمـ تـلـبـيـ الدـعـوـةـ أـيـضاـ.ـ إـنـ هـاتـيـنـ الـمـرـأـتـيـنـ،ـ رـغـمـ أـنـهـمـاـ لـاـ تـسـكـنـعـ عـنـدـ آـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـنـاـ إـلـاـ مـنـذـ أـسـبـوعـيـنـ،ـ قـدـ شـكـتـاـ عـدـةـ مـرـاتـ مـنـ الـضـجـةـ وـالـصـرـخـاتـ الـآـتـيـةـ مـنـ غـرـفـةـ أـسـرـةـ مـارـمـيـلـادـوـفـ،ـ وـلـاـ سـيـمـاـ حـينـ كـانـ الـمـتـوـفـىـ يـعـودـ إـلـىـ الـبـيـتـ سـكـرـانـ،ـ وـهـذـاـ أـمـرـ قـدـ وـصـلـ إـلـىـ مـسـامـعـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـفـنـاـ طـبـعـاـ عـنـ طـرـيقـ آـمـالـيـاـ اـيـفـانـوـفـنـاـ،ـ وـذـلـكـ حـينـ هـدـدـتـهـاـ هـذـهـ،ـ أـثـنـاءـ تـشـاجـرـهـاـ مـعـهـاـ،ـ بـأـنـهـاـ سـتـطـرـدـهـاـ مـنـ الـبـيـتـ هـيـ وـأـسـرـتـهـاـ،ـ صـارـخـةـ بـأـعـلـىـ صـوـتـهـاـ أـنـهـمـ «ـيـزـعـجـونـ جـيـرـانـاـ نـبـلـاءـ لـاـ يـرـقـونـ هـمـ إـلـىـ مـسـتـوـىـ نـعـالـهـمـ»ـ.ـ وـلـقـدـ قـرـرـتـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـفـنـاـ،ـ عـامـدـةـ،ـ أـنـ تـدـعـوـ هـاتـيـنـ الـمـرـأـتـيـنـ الـلـتـيـنـ «ـلـاـ تـرـقـىـ هـيـ إـلـىـ مـسـتـوـىـ نـعـلـيـهـمـ!ـ»ـ،ـ وـكـانـتـ تـحرـصـ عـلـىـ دـعـوـتـهـمـ حـرـصـاـ خـاصـاـ لـأـنـهـاـ كـانـتـ إـذـ اـتـفـقـ أـنـ التـقـتـ بـإـحـدـىـ هـاتـيـنـ

المرأتين تراها تشيح عنها وجهها باحتقار. قالت كاترينا ايفانوفنا لنفسها: «بهذا تعرفان أننا نمضي بالنبل إلى حد نسيان الإساءات والإهانات، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترينا ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش في ظروف كهذه الظروف». وكانت تنوي أن تشرح لهما هذه الحقيقة على المائدة، وأن تحدثهما كذلك عن منصب «المحافظ» الذي كان يحتله المرحوم أبوها، وربما استطاعت كذلك أن تسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعي لأن تشياحا بوجهيهما حين تلقيانها، وأن هذه الحركة حركة غبية.

وقد غاب عن المأدبة أيضاً رجلٌ ضخم الجسم يقولون إنه مقدم (وهو في حقيقته نقيب محال على التقاعد)؛ ولكن علم أنه «طريح الفراش» من فrotein السكر منذ الليلة البارحة.

الخلاصة أنه لم يحضر المأدبة إلا هؤلاء: البولندي؛ وموظف هزيل قمي؛ وعلى وجهه بشور، يرتدي فراكاً وسخاً وينشر رائحة كريهة؛ ورجل آخر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى، كان في الماضي يشغل وظيفة في إدارة البريد لا يدرى أحد ما هي، وهناك مجھول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ مدة طويلة لا يدرى أحد لماذا؛ وقد جاء إلى المأدبة ملازم متلازم سكران لم يكن في حقيقة أمره إلا موظفاً في إدارة التموين، وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً سفيهاً في كل لحظة، ولا يرتدي صديرة «فتتصوروا قلة الحياة وفرط الوقاحة، يا للعار»! وقد جاء رجل آخر فجلس إلى المائدة رأساً حتى دون أن يحيي كاترينا ايفانوفنا، وجاءت في النهاية «شخصية» أخرى تلبس روب المنزل لأنها لا تملك غيره رداء. ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن إخراج الرجل بجهود متضاغفة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندي. ثم إن البولندي قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهم سكنا عند آماليا ايفانوفنا في يوم من الأيام، ولا لقيهما أحد في هذا المنزل يوماً على الأقل.

ذلك كله أزعج كاترينا ايفانوفنا ازعاجاً شديداً فتساءلت تقول : «أمن أجل هؤلاء» إذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها؟

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا إلى العدول عن إجلال الأولاد إلى المائدة ، التي كانت تكاد تشغّل وحدها كل الغرفة . لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة في ركن بآخر الغرفة على صندوق ، وأجلس الولدان الأصغران على دكة ، وعُهد إلى بوليتشكا ، بصفتها الكبرى ، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما ، «كما يفعل بأولاد أسر راقية».

الخلاصة أن كاترينا ايفانوفنا قد اضطرت ، راضية أو كارهة ، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس ، فاستقبلتهم بمزيد من الوقار والرصانة ، بل وبشيء من التعالي والعجرفة ، حتى لقد ألت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة ، ثم دعتهم أن يجلسوا إلى المائدة وقد ظهرت في هيئتها معاني الاحتقار والازدراء . وقد اعتتقدت ، لسبب أو لآخر ، أن آماليا ايفانوفنا هي المسؤولة عن غياب المدعوين المرموقين ، فكانت تخاطبها بلهجة بلغت من الوقاحة أن آماليا ايفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك ، فاستاءت أشد الاستياء ، وأضمرت أكبر الضغفون . إن بداية كهذه البداية لا تبشر بخير .

وجلس الجميع أخيراً إلى المائدة .

كان راسكولنيكوف قد وصل في لحظة العودة من المقبرة تقرباً . فسعدت كاترينا ايفانوفنا أقصى السعادة ، أولاً لأنه بين سائر المدعوين «الرجل المثقف الوحيد» الذي «سيحتل بعد ستين ، كما يعرف الجميع ، كرسي أستاذ جامعتنا»؛ ثانياً لأنه ما إن وصل حتى بادر يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك في الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير .

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترينا ايفانوفنا؛ فقد أجلسته إلى يسارها (وكانت آماليا ايفانوفنا قد جلست إلى اليمين) ، ورغم مشاغلها المتصلة

من حيث هي ربة البيت، ورغم السعال الرهيب الذي كان يقطع كلامها ويختنقها في كل لحظة، والذي كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين، فإنها لم تنقطع عن التحدث إلى راسكولنيكوف، وعن أن تفضي إليه همساً بكل ما كان يعتلج في قلبها، ولا سيما باستيائها الشديد من إخفاق المأدبة. على أن ضحكاً مجلجلأً كان يعقب ذلك الاستياء في كثير من الأحيان، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه، وهو ضحك على المدعوين وعلى صاحبة البيت خاصة.

- ذلك كله إنما سببه هذه البومة! (كانت كاترينا ايفانوفنا تقول ذلك وتومى لراسكولنيكوف بحركة من رأسها إلى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا). انظر إليها! أنها تحملق بعينيها؛ هي تعلم أننا نتكلم عنها، ولكنها لا تستطيع أن تفهم، أن عينيها تخرجان من رأسها! هؤ... هؤ! .. بومة حقاً! ها ها! هي هي! وما الذي تريد أن تبرهن لنا عليه بقبيتها هذه؟ هي هي! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرني أمام الملاً جميعاً بمظهر محميتها، وأن تبيّن أنها إنما تشرّفني إذ تحضر هذا العشاء؟ لقد طلبت منها، لاعتقادي بأنها إنسانة لائقة، أن تدعوا أناساً محترمين، وأن تدعوا خاصة أولئك الذين عرفوا زوجي الراحل. فانظر بمن جاءتنى: لقد جاءتنى بمهرّجين وصعاليك قذرين! انظر إلى ذاك الرجل الذي على وجهه بشور! حقاً أنه مخاطب يمشي على قدمين لا أكثر! وما قولك بهؤلاء البولنديين الحقراء؟ ها ها! هي هي! ما من أحد سبق أن رآهم هنا، لا ولا رأيتهم أنا، في يوم من الأيام! فلماذا إذن جاؤوا؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا جاؤوا؟ ما أعظم وقارهم في جلوسهم واحداً إلى جانب واحد! ما أظرفهم! هي، يا «بان»! - كذلك نادت أحدهم فجأة ناطقة باللغة البولندية - هل أخذت فطائر؟ خذ مزيداً، واشرب بيرة، اشرب بيرة! واشرب فودكا! ألا تريد أن تشرب فودكا؟ - انظر إليه، لقد نهض بوثبة واحدة، وهو هو ذا ينحني انحناء شديداً... انظر... انظر! مساكين... لا بد أنهم جائعون جداً! لا

بأنس! فليأكلوا! هم لا يحذون ضجة على الأقل.. ولكن.. ولكن... لا أكتنك أخشي أن يأخذوا ملاعق الفضة وهي لصاحبة البيت. يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادت صاحبة البيت فجأة بصوت عالٍ تقريباً)... إنني أنبهك منذ الآن إلى أنني غير مسؤولة إذا هم سرقوا ملاعقك!

وسررت كاترينا ايفانوفنا من قولتها هذه، فأخذت تصحّح ضحكتها جنونياً، ثم عادت تومي برأسها إلى صاحبة البيت قائلة لراسكوليوكوف:

- إنها لم تفهم! في هذه المرة أيضاً لم تفهم! ما تزال فاغرة الفم، محمّلة العينين، جوالة الطرف! انظر إليها، انظر! هي بومة حقاً، بومة... قلت لك إنها بومة... ولكن بأشرطة جديدة! ها ها ها! ..

وهنا استحال ضحكتها إلى سعال لا يطاق، استمر خمس دقائق. تلطخ منديلها بالدم، وظهر العرق على جبينها كحبات اللؤلؤ؛ أررت راسكوليوكوف بقعة الدم في صمت، وما أن استردت أنفاسها حتى دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتها بحمرة قانية وبلغت أقصى الاضطراب.

- انظر مثلاً: لقد عهدت إليها بمهمة دقيقة جداً هي أن تدعو تلك السيدة وابنتها. هل تعرف من أعني؟ فكان عليها في مثل هذه الحالة أن تتصرف بكثير من الكياسة والفن والصدق، ولكنها لم تحسن التصرف، فإذا بتلك الحمقاء المتغطرسة، إذا بتلك المخلوقة القروية... ذلك أنها ليست في الواقع إلا أرملة رائدة جاءت إلى هنا تسعى إلى الحصول على معاش تقاعدي، فهي تنتظر في حجرات الدخول متتنقلة متسلكة هنا وهناك، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والكحل والأصباغ رغم أنها في الخمسين من عمرها (هذا معروف)... إذا بتلك المخلوقة لا تتنازل أن تجيء، بل ولا ترسل كلمة اعتذار، كما يليق بالمرء أن يفعل في مثل هذه الأحوال إذا كان على شيء من الأدب والتهذيب! وبيوتر بتروفتش، إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجيء هو أيضاً! ولكن أين صونيا؟ أين ذهبت؟ آ... ها هي ذي أخيراً! أين كنت يا صونيا؟ غريب منك أن

تكوني قليلة التقييد بالمواعيد حتى في يوم جنازة أبيك. أفسح لها مكاناً إلى جانبك يا روبيون رومانوفتش. هذا مكانك يا صونيتشكا! أغرف في لك طعاماً! خذى سماكة، فهذا أحسن الطعام. سنجيئك ببطائر فوراً. والأولاد، هل غُرف لهم طعام؟ هل أصبتم من كل شيء يا بوليتشكا؟ هي هي هي! طيب، عظيم! كوني هادئة عاقلة يا لينيا! وأنت يا كوليلا تهزز ساقيك هكذا! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة. ماذا تقولين يا صونيتشكا؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بيوتر بتروفتش، محاولةً أن تتكلم بصوت قوي حتى يسمع جميع الضيوف كلامها، ومستعملةً أرقى التعبير، حتى تلك التي كان يصطمعن استعمالها بيوتر بتروفتش، بعد أن تجملها مزيداً من التجميل أيضاً. وأضافت إلى ذلك قولها إن بيوتر بتروفتش قد رجاهما أن تبلغ أنها سيجيء متى أتيحت له الفرصة ليتحدث في الأعمال على انفراد، ولি�تفق على الإجراءات الواجب اتخاذها في المستقبل، ألغ، ألغ . . .

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدئ كاترينا إيفانوفنا، ويدغدغ غرورها، ويرضي كبرياتها خاصة. وجلست إلى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيّته بسرعة، ونظرت إليه نظرة مستطلعة. على أنها طوال ما بقي من وقت كان يلوح عليها أنها تحاشي أن تنظر إليه وأن تكلمه. كانت تبدو ذاهلة، رغم أنها لم تحول عينيها عن كاترينا إيفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتنبأ برغباتها. ولم تكن صونيا ولا كاترينا إيفانوفنا تلبسان ثياب الحداد، لأنهما لا تملكانها، كانت صونيا ترتدي ثوباً بنياً قاتماً، وكانت كاترينا إيفانوفنا ترتدي ثوباً كستنائياً ذي خطوط داكنة، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه.

وقد أحذثت اعتذارات بيوتر بتروفتش أحسن الأثر. وبعد أن أصفت كاترينا إيفانوفنا إلى كلام صونيا برصانة ووقار، سألت عن صحة بيوتر بتروفتش بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه. ثم لم

تبطئ، فأسرعت «توشوش» راسكولنيكوف قائلة بصوت قوي إن رجالاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بيوتر بتروفتش لا يليق أن يقع بين أفراد قطيع كهذا «القطيع العجيب من الناس»، مهما يكن إخلاصه للأسرة، ومهما تكن روابط الصدقة التي كانت تربطه بالمرحوم أبيها.

ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً:

- من أجل ذلك تراني، يا روديون رومانوفتش، أشكر لك شكرأ خاصاً أنك لم تحقر دعوتي ولم ترفض حضور مأدبي رغم هذه البيئة وهذا الجو. وإنني لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجي هي التي حملتك وحدها على أن تفي بالوعد.

وهنا شملت المدعويين مرة أخرى بنظرة فيها كبراءة ووقار، ثم رفعت صوتها فجأة تسأل الشيخ الأصم الجالس إلى الطرف الآخر من المائدة: «هل تزيد مزيداً من الشوأ وهل سكبوا له شيئاً من خمرة البورتو؟». فلم يجب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يُسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين. كان فاغر الفم ينظر حواليه في كل جهة، فكان ذلك يثير مزيداً من الضحك والمرح.

- يا للغبي الأبله! انظر! ولماذا جيء به إلى هنا؟

وتابعت كاترينا ايفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف:

- أما بيوتر بتروفتش فقد كنت دائماً أحضره ثقة كاملة.

والتفت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروعة، وأردفت تقول صارخة:

- هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتي ما كنَّ ليُقبلن عند أبي حتى خدامات في المطبخ، واللواتي إذا ارتضى زوجي الراحل أن يشرّفهن باستقبالهن فإنه ما كان ليفعل ذلك إلا من فرط طيبة قلبه.

صاحب موظف التموين قائلاً وهو يفرغ في جوفه كأس الفودكا الثانية عشرة:

- نعم، كان يحب أن يشرب... هذا صحيح... كان يحب مجالسة الزجاجة حباً كثيراً! ..

أجبت كاترينا ايفانوفنا باندفاع شديد:

- نعم، كان لزوجي هذا الضعف، وهذا معروف، لكنه كان رجلاً طيباً نبيلاً، يحب أسرته ويحترمها. إن عيبه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت تدفعه إلى أن يشق بأناس فاسدين وأن يركن إليهم... الله يعلم مع من كان يعاور الخمرة... مع رجال لا يساونن نعلي حذاءيه! تصور يا روبيون رومانوفتش أننا وجدنا في جيبيه ديكاً صغيراً من حلوى! كان لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كلَّ مأخذ!

صرخ موظف التموين السابق يسأل:

- ديكاً صغيراً؟ هل قلت ديكاً صغيراً؟

أبْت كاترينا ايفانوفنا أن تتنازل فتجيء، وها هي ذي تغرق في نوع من أحلام اليقظة، وتنهض. ثم استأنفت كلامها مخاطبة راسكولنيكوف:

- لعلك تظن، كما يظن جميع الناس، أنني أسرفت في القسوة عليه. ولكن هذا غير صحيح. لقد كان يعتبرني، كان يعتبرني كثيراً، كثيراً. ما كان أبل روحه وأطيب نفسه! ولكم كنت أشفق عليه، في بعض الأحيان! كان يتافق له أن يجلس في ركن من الأركان، ويأخذ ينظر إلى من ركته ذاك، فأبلغ من الشفقة عليه عندئذ أنني أود لو ألاعبه، ولكني كنت أقول لنفسي: «لو دللت فسوف يسخر من جديد». لم يكن يمكن صدُّه عن الشراب وردعه عنه إلا بإظهار شيء من القسوة.

رأى موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديدة من الفودكا:

- نعم، كان يُشُدُّ له شعره! حدث هذا مراراً!

أجبت كاترينا ايفانوفنا تقول بلهجة قاطعة، وهي تتجه إلى موظف التموين:

- إن أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدَّ لهم شعرهم فحسب، بل يستحقون أيضاً أن يستقبلوا بضربيات مقتشة! ولست أتكلم الآن عن الراحل ...

والتهب البقع الحمر في وجنتيها مزيداً من الالتهاب، وارتفع صدرها، ولم يبق إلا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترينا ايفانوفنا شجاراً فاضحاً. وكان كثيرون يضحكون مقهقحين، يجدون في ذلك لذة ومتعة. أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه، هامسين له بأشياء في ذنه. كان واضحاً أنهم يريدون أن يصبوا على النار زيتاً.

بدأ الموظف كلامه فسألها:

- اسمحي لي أن أسألك عمن كنت تتكلمين إذن... على كل حال، لا بأس... فما هذه كلها إلا ترهات! أرملة، أرملة مسكينة! أنا أغفر وأغفو وأصفح! دعونا...

قال ذلك وجرع كأساً آخرى من الفودكا.

ظل راسكونيكوف جالساً يصغي بصمت واشمئزاز. لم يكد يلمس الطعام الذي كانت كاترينا ايفانوفنا لا تقطع عن ملء صحنـه به، بل إنه لم يتظاهر بأنه يأكل إلا من أجل أن لا يزعجها. وكان يحدُّق إلى صونيا ولا يحول عنها بصره. ولكن صونيا كانت تزداد قلقاً وهماً. إنها توجس، هي أيضاً، أن المأدبة لن تنتهي بسلام، فكانت ترقب الاهتمام المتزايد عند كاترينا ايفانوفنا، خائفةً وجلة. وكانت تعلم، فيما تعلم، أنها، هي صونيا، السبب الرئيسي للاحتقار الذي حمل المرأتين الجديدين على أن ترفضا دعوة كاترينا ايفانوفنا. لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت إلى حد الاستيء من توجيه الدعوة إليهما، وتساءلت: «كيف يمكنني أن أجلس ابنتي إلى جانب تلك الآنسة؟ وكانت صونيا تقدر أن كاترينا ايفانوفنا قد وصل إلى مسامعها شيءٌ من هذا الكلام؛ وأن إهانة يلحقها أحد بصونيا لهي أشد وقعاً في نفس كاترينا ايفانوفنا من إهانة تلحق بها هي أو بأولادها أو بأبيها، فهذه

إهانة قاتمة، وصونيا تعلم أن كاترينا ايفانوفنا لن يهدأ لها بال قبل أن «تبرهن لهاتين المرأةتين التافهتين على أنهما كلتيهما...»، الخ الخ! وشاءت المصادات، بما يشبه العمد، أن ينقل أحدهم إلى صونيا صحناً فيه قلبان من لب خبز أسود يخترقهما سهم. فاحمرت كاترينا ايفانوفنا غضباً، وأسرعت بقول بصوت عال إن المسؤول عن إرسال هذا الصحن ليس إلا «حماراً سكران»، لا أكثر ولا أقل.

وكانت آماليا ايفانوفنا، من جهتها، توجس أن نازلة ستقع، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترينا ايفانوفنا يهينها إلى أعمق قلبها، فمن أجل أن تغير الجو السيء الذي يسود الحفل، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها في نظر الناس في الوقت ذاته، أخذت على حين فجأة تروي أن شخصاً من معارفها اسمه «كارل، وهو مساعد صيدلاني»، قد استأجر عربة في الليل، فأراد الحوذى أن «يقتله»، فأخذ كارل يتسلل إليه أن لا يفعل، وضم يديه باكيأ، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يشب من مكانه». وكان في نطق آماليا لكنة ألمانية واضحة، فقالت لها كاترينا ايفانوفنا، وهي تبتسم، أن عليها أن لا تروي نوادر باللغة الروسية. فازداد استحياء آماليا ايفانوفنا، فرددت عليها تقول بلغة تحالفتها ألفاظ ألمانية، وتسودها لكنة ألمانية، إن أباها البرليني كان «رجلًا خطير الشأن جداً، وأنه كان يتتجول واضعاً يديه في جيوبه دائمًا». ولم تطق كاترينا ايفانوفنا الساخرة صبراً، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً، فكان على آماليا ايفانوفنا التي نفذ صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر.

وعادت كاترينا ايفانوفنا توشوش راسكولينكوف بما يشبه المرح  
فائلة :

- يا للبومة العجوز! أرادت أن تقول إن أباها كان يتتجول واضعاً يديه في جيوبه، فإذا هي تقول إن أباها كان ينش جيوبه دائمًا! هي هي هي! هل لاحظت يا روبيون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب في بطرسبرج، ولا سيما الألمان، الذي يتقاررون علينا من كل حدب

وصوب، هم جميعاً أغبى منا. انظر بنفسك: هل يمكن أن يروي أحد أن «كارل، مساعد الصيدلاني، كاد يثب قلبه من مكانه»، وأن هذا الأبله قد «ضمَّ يديه باكيًّا» (ذلك الجبان!)، بدلاً من أن يوثق الحوذى؟ آه! يا للغبية الحمقاء! هي تخيل أن قصتها مؤثرة جداً. إنها لا تدرك مدى ما في هذه القصة من سخافة وبلاهة! فيرأيي أن هذا الموظف السُّكير أذكى منها كثيراً! إن المرء يرى على الأقل أنه ترك البقية الباقية من عقله في قاع كأسه، أما الآخرون فهم جاؤون وقورون!.. انظر كيف تُجَيل عينيها وتديرهما! أنها غاضبة، أنها غاضبة! ها ها ها! هى هى هى!

وإذ اشرحت كاترينا ايفانوفنا هذا الانسراح، أسرعت تندفع في سرد طائفة من التفاصيل، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذي ستحصل عليه، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النبيلات في مدينة «ت...». التي ولدت فيها. ولم تكن كاترينا ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا. لذلك أخذت تشرح هذا النبا شرحاً مستفيضاً، وأخذت تصف الحياة الرائعة التي ستعيشها وصفاً مسهباً. ولا يدري أحد كيف وُجدت بين يديها، على حين فجأة «شهادة التقدير» تلك التي سبق أن تحدث عنها المرحوم مارميلادور إلى راسكولنيكوف حين ذكر له في أول لقاء بالخمارة أن زوجته كاترينا ايفانوفنا قد رقت، في يوم تخرجها من المدرسة الداخلية، رقصة وعلى كتفيها شال، «أمام المحافظ وشخصيات رسمية أخرى». كان واضحاً أن الغرض من إبراز هذه الشهادة هو أن تثبت أن كاترينا ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية؛ ولكن كان الغرض الرئيسي من إبرازها أيضاً هو أن تخرس تينك المرأةين الفاسدين إذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترينا ايفانوفنا تنتمي إلى أسرة نبيلة، بل يمكن القول أسرة أرستقراطية، فهي ابنة عقيد، وهي أفضل كثيراً من «أولئك النساء المغامرات التافهات اللواتي ازداد عددهن ازدياداً كبيراً في الآونة الأخيرة». وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدي المدعويين السكارى،

وذلك أمر حاذرت كاترينا ايفانوفنا أن تعترض عليه أي اعتراض، لأن الشهادة<sup>(44)</sup> كانت تنص en toutes lettres على أن كاترينا ايفانوفنا هي فعلاً بنت مستشار قضائي، أي بنت عقيد تقريباً. وقد تحمست كاترينا ايفانوفنا فأفاضت في الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهدامة التي تنتظرها في مدينة «ت...»، وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهم إلى التدريس في مدرستها، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذي علّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة في المدرسة الداخلية، والذي ينهي الآن أيامه في مدينة «ت...»، ولا شك أنه سيقبل أن يدرس في مدرستها بأجور معقولة. وجاءت أخيراً على ذكر صونيا، فقالت أن «صونيا ستذهب هي أيضاً إلى مدينة ت...، وأنها ستتفعلها هنالك في أمور كثيرة». ولكن حين قالت كاترينا ايفانوفنا هذا الكلام، خنق أحدهم ضحكةً عند الطرف الآخر من المائدة. فتظاهرت كاترينا ايفانوفنا بأنها لم تسمع الضحكة، ورفعت صوتها لتعدد المزایا الأكيدة التي تتحلى بها صونيا سيميونوفنا، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا «جدية بأن تساعدها، لما تمتاز به من رقة وعدوبة، وصبر ودأب، وتضحية وبذل، ونبذ نفس وحسن تربية». ثم ربتت على خدي صونيا، ونهضت تقبلها بحرارة مرة أولى فمرة ثانية. واحمر وجه صونيا أحمراراً شديداً. ثم ما لبثت كاترينا ايفانوفنا أن أجهشت باكية على حين فجأة وهي تقول «أنها ليست مخلوقة بلهاه بائسة محطمة الأعصاب، وأنها قد نفذ صبرها وبارحتها قواها... وأن الطعام قد انتهى فليصبوا الشاي!» وكانت آماليا ايفانوفنا قد أضناها وأهلكها أنها لم تستطع أن تشارك في الحديث، حتى أن أحداً لم يستمع لها ولم يصح إلى كلامها، فقامت في تلك اللحظة بمحاولةأخيرة. استجمعت شجاعتها ووجهت إلى كاترينا ايفانوفنا، رغم ما توجسه في قراره نفسها من قلق وخيبة، ملاحظة هي من أعمق الملاحظات وأشدتها جرأة، إذ قالت لها أنه سيكون عليها في المدرسة الداخلية أن تعنى عنابة خاصة بالملاءات

النظيفة للبنات (قالت كلمة الملاءات بالألمانية)، «وأن تستخدم لهذا الغرض سيدة محترمة»، وأن عليها كذلك أن لا «تدع لآية فتاة أن تقرأ روايات في الليل سراً». وكانت كاترينا ايفانوفنا ثائرة الأعصاب مهدودة القوى، ناهيك عن إزعاجات المأدبة، فسرعان ما انفجرت تهجم على آماليا ايفانوفنا قائلة لها إنها تقول «سخافات وحماقات» وإنها لا تفهم شيئاً من شيء: «فالاهتمام بالملاءات في المدرسة الداخلية النبيلة لا يقع على عاتق المديرة بل هو من اختصاص الفراشة. أما قراءة الروايات فإن الإشارة إليها هي في حد ذاتها أمر غير لائق، لذلك يحسن بأماليا ايفانوفنا أن تصمت فلا تقول شيئاً.

اصطيغ وجه آماليا ايفانوفنا بحمرة شديدة من فرط الاستيء، فقالت غاضبة إن «نياتها حسنة» وإنها لا تريد لها إلا «خيراً كثيراً» رغم أنها منذ مدة طويلة لم تقبض منها أي مال (قالتها بالألمانية) من أجرا المسكن. فسرعان ما ردّتها كاترينا ايفانوفنا إلى مكانها، إذ قالت لها إنها تكذب في إدعائها أنها «تريد لها الخير»، لأنها في الليلة البارحة نفسها، بينما كان المتوفى ما يزال راقداً على المائدة، جاءت تعذيبها بمسألة أجرا المسكن هذه. وحالف التوفيق آماليا ايفانوفنا في الرد فقالت لها إنها «دعت السيدات، ولكن تلك السيدات لم يجئن، لأن تلك السيدات سيدات محترمات لا يمكن أن يلبين دعوة سيدة غير محترمة». فأسرعت كاترينا ايفانوفنا تلح فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم، لأنها هي نفسها غير محترمة وغبية. ولم تحتمل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة، فسرعان ما أعلنت أن «أباها البرليني» (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً، جداً، وأنه كان يمشي واضعاً يديه في جيبيه، وأنه كان دائماً يزفر هكذا: بوف... بوف!.. ومن أجل أن تعطي عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك، نهضت عن مكانها وذلت يديها في جيبيها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمة لكنها تشبه «بوف، بوف»، فكان جميع

المستأجرين يضجون بضحك صاحب، وكان يحلو لهم، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين، أن يحرضوا آماليا إيفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحرير.

طفح الكيل بالنسبة إلى كاترينا إيفانوفنا، فسرعان ما أعلنت بصوت واضح وقوي يسمعه الجميع أن آماليا إيفانوفنا قد لا يكون لها «أب» أصلاً، وأنها ليست إلا سكيرة فنلندية من بطرسبرج، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طباخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً.

احمرت آماليا إيفانوفنا أحمراراً شديداً وزعت تقول: «إن كاترينا إيفانوفنا هي التي قد لا يكون لها أب، أما أبوها هي فقد كان يعيش ببرلين، وكان يرتدي ردنجوتاً طويلاً، وكان ينفخ دائماً: «بوف، بوف».

قالت كاترينا إيفانوفنا باحتقار «إن أصلها هي يعرفه الجميع وإن الشهادة التي قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هي نفسها بكلام مطبوع أن أبيها كان عقيداً. أما أبو آماليا إيفانوفنا (إذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندي من بطرسبرج كان باائع حليب، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً، والدليل على ذلك أنها لا ندرى حتى الآن هل الاسم الذي ينسبها إلى أبيها هو إيفانوفنا أو لودفيجوفنا».

هنا بلغ حنق آماليا إيفانوفنا ذروته، فضررت المائدة بقبضه يدها وأعولت تقول: «إن اسمها هو آماليا إيفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا، وأن أبيها كان اسمه يوحنا، وأنه كان عمدة مدينة، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترينا إيفانوفنا في يوم من الأيام».

اصفر وجه كاترينا إيفانوفنا اصفراراً شديداً، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاس ظاهره الهدوء: إذا تجرأت آماليا إيفانوفنا ولو مرة واحدة أخرى «فقارنت بين أبيها التافه الذي لا قيمة له، وبين أبيها هي، فلتنتزع عنّ عنها قبعتها ولتدوسّها بقدميها». فلما سمعت آماليا إيفانوفنا هذه الكلمات أخذت تركض في

الغرفة طولاً وعرضًا، وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت، وأن على كاترينا ايفانوفنا أن «تخلي المسكن فوراً». ثم أسرعت تجمع لغرض ما ملاعقها الفضية من على المائدة. وأعقبت ذلك جلبة لا توصف، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك، والأولاد أخذوا يبكون؛ واندفعت صونيا ت يريد أن تصد كاترينا ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا صرخت تقول شيئاً عن البطاقة الصفراء، فما كان من كاترينا ايفانوفنا إلا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لإنفاذ التهديد الذي أعلنته بقصد القبعة.

وفي تلك اللحظة فتح الباب، وظهر في العتبة بيوتر بتروفتش لوجين فجأة.

توقف لوجين لحظة، وألقى على الحضور جميعهم نظرة صارمة فاحصة، فهرعت كاترينا ايفانوفنا نحوه.

### الفصل الثالث

ـ كاترينا ايفانوفنا تقول:

ـ **هذه حلت**

ـ بيوتر بتروفتش! أنت على الأقل، أنجدني، أغثني! أفهم هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيدة من أسرة كريمة أخرى عليها الدهر، وأن هناك محاكم لهذا الأمر... سوف أشتكي إلى المحافظ بشخصه... سوف تحاسب على ما فعلت!... تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلتك به أبي... كن حانياً للبيتامي...

قال بيوتر بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعد كاترينا ايفانوفنا بحركة من يده:

ـ اسمحي لي يا سيدتي، اسمحي لي، اسمحي لي يا سيدتي. أنا لم أشرف بمعونة أبيك في يوم من الأيام، وأنت تعلمين هذا حق العلم... اسمحي لي يا سيدتي! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً). ولست أنوي أن أشارك في مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا... أنا إنما جئت لأمر... شخصي، أنا إنما جئت أطلب على الفور إيضاحاً من ابنة زوجك صونيا ايفانوفنا... هذا هو اسمها، أليس كذلك؟ فاسمحي لي أن أمر...

قال بيوتر بتروفتش ذلك وترك كاترينا ايفانوفنا واتجه إلى الركن المقابل من الغرفة، حيث كانت صونيا.

تجمدت كاترينا ايفانوفنا كأنما نزلت عليها صاعقة. لم تستطع أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بيوتر بترورفتش أن أباها قد أكرم ضيافته. إنها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدقها وتؤمن بها هي نفسها. وهذه اللهجة التي تكلم بها بيوتر بترورفتش، هذه اللهجة الخشنة، الرسمية، التي فيها احتقار وتهديد، قد أدهشتها أيضاً. على أن الجميع قد صمتوا منذ دخل بيوتر بترورفتش. إن «رجل الأعمال الجاد» هذا يفوق سائر الحضور شأنأ، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه إنما جاء لأمر خطير، فلا بد أن يكون هناك سبب خارق دفعه إلى المجيء إلى هذه البيئة، ولا بد إذن أن يقع حادث ما بعد قليل. وكان راسكولنيكوف إلى جانب صونيا فتحى حتى يدع له أن يمر. وبدأ على راسكولنيكوف أن بيوتر بترورفتش لم يلاحظه. وبعد دقيقة ظهر ليزياتينيكوف في عتبة الباب هو أيضاً. لم يدخل الغرفة، غير أنه وقف مستطلعاً كذلك، حتى ليكاد يكون مدهشاً. وقد أصاخ بسمعه مصغياً، لكنه ظل مدة طويلة يبدو عليه أنه لا يفهم الأمر الذي يدور عليه الكلام.

قال بيوتر بترورفتش يخاطب الجميع:

- اغفروا لي إزعاجكم، غير أن القضية هامة خطيرة، بل إنني يهمني أن تنجلبي الأمور على رؤوس الأشهاد. يا آماليا ايفانوفنا، أرجوك وألح في الرجاء أن تستمعي إلى الحديث الذي سأجريه مع صونيا ايفانوفنا، بصفتك صاحبة البيت.

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التي كانت مذهولة وكانت مرؤعة مذعورة سلفاً:

- يا صونيا ايفانوفنا، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقة نقدية قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة في غرفة صديقي آندريه سيميونوفتش

ليبيزياتنيكوف. فإذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة المالية الآن، وقلت لنا أين توجد، فإن لك على عهد الشرف - وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول - أن تقف القضية عند هذا الحد؛ وإن كنت مضطراً أن الجأ إلى إجراءات أخطر... وليس لك عندئذ أن تلومي إلا نفسك!..

خيّم على الغرفة صمت مطلق. حتى الأطفال الذين كانوا يبكون سكتوا. وكانت صونيا واقفة، شاحبة كأنها ميتة، تنظر إلى لوجين ولا تجد كلاماً تجييه به. كان يبدو عليها أنها لا تفهم. وانقضت بضع ثوان.

سألها لوجين وهو يحدق إليها:

- هي؟ ما قولك؟

فقالت صونيا أخيراً بصوت واهن:

- لا أعلم... لا أعلم شيئاً...

- حقاً؟ لا تعلمين؟ لا تعلمين شيئاً؟

كذلك سألها لوجين مكرراً، ولزم الصمت بضع ثوانٍ أخرى، ثم استأنف كلامه فكانه ينذر وينصح:

- فكري يا آنسة، فكري في الأمر. أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكيرِي. اسمعي: لو لا أبني واثق بما أقول، مومن منه، فإبني بحكم تجربتي ما كنت لأجازف فأواجه إليك اتهاماً مباشرأً إلى هذا الحد، لأنني سأحاسب أنا نفسي عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رؤوس الأشهاد إذا ظهر أنه خطأ فحسب. ذلك أمر أعرفه. إنني في هذا الصباح قد بدلت، لقضاء حاجات شخصية، بضعة سندات ذات ريع، قيمتها الاسمية ثلاثة آلاف روبل. ذلك هو الرقم المسجل في دفترِي. فلما عدت إلى مسكنِي - وإن آندريه سيميونوفتش شاهد على ذلك - أخذت أعدُّ المال من باب التثبت والتحقق، حتى إذا عدلت ألفين وثلاثمائة روبل، رتبتها في محفظتي ووضعت المحفظة في الجيب الداخلي من

ريدنجوتى. وبقي على المائدة نحو خمسمائه روبل أوراقاً نقدية، منها ثلاثة قيمة الواحدة مائة روبل. وفي تلك اللحظة دخلت أنت (تلبيةً لدعوتي)، وطوال المدة التي قضيتها عندي، كان يبدو عليك اضطراب شديد، حتى أنك قد نهضت أثناء الحديث ثلاثة مرات. كنت تريدين أن تخرجى - لا أدرى لماذا! - رغم أن محادثي معك لم تكن قد انتهت. إن آندرىه سيميونوفتش يستطيع أن يؤكّد هذا كلّه. وأغلبظن أنك لن ترفضي أنت نفسك، يا آنسة، أن تعترفي بأنّنى أرسلت آندرىه سيميونوفتش في طلبك لهدف واحد هو أن أتكلّم معك في الوضع المحزن الذي آلت إليه قريبتك كاترينا إيفانوفنا (التي لم أستطع أن أشارك في مأدبتها)، وفي وسائل مساعدتها بتنظيم اكتتاب تبرعات أو إقامة يانصيب أو شيء من هذا القبيل. وقد شكرتني، حتى أن الدموع ترققت من عينيك (إنّي أروي الأشياء كما وقعت، أولاً لأذّرك بها، وثانياً لأبّين لك أنه ما من تفصيل من التفاصيل قد مُحي من ذاكرتي). ثم تناولت من على المائدة ورقة بعشرة روبلات وأعطيتك إياها، دليلاً على اهتمامي بقريبتك، ومشاركة أولى مني في مساعدتها. وهذا أيضاً قد رأه آندرىه سيميونوفتش. ثم شَيَّعتك حتى الباب - وأنت في نفس الاضطراب والارتباك. وخلوت بعد ذلك إلى آندرىه سيميونوفتش. وتحدثت معه قرابة عشر دقائق. حتى إذا خرج عدت إلى المائدة أتّوي أن أرتّب، على حدة، المال الذي كان موضوعاً عليها، وذلك بعد أن أعدّه مرة أخرى (كنت قد قررت ذلك من قبل). فما كان أشد دهشتي حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فقدت. أفصلي في الأمر بنفسك: لا يمكنني بأي حال من الأحوال أنأشك في آندرىه سيميونوفتش، حتى أن هذه الفكرة وحدها تُشعرني بالخجل والعار. ولا يمكن أن أكون قد أخطأ في حساباتي، لأنّي قبل وصولك بدقيقة واحدة كنت قد تثبتت من صحة المجموع. لذلك، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة، ونظرأ لاستعجالك الخروج، ونظراً لكونك قد

ظللت واسعةً يديك على المائدة بضم لحظات، ونظرًا لوضعك الاجتماعي وما يخلقه من عادات، فقد أكرهت إن صح التعبير، أكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا شك أنها قاسية لكنها في محلها ولها ما يسُوغها. أضيف وأكرر أنني رغم يقيني البديهي الكامل أدرك أن إلقاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أ تعرض لها. ولكنني لم أتردد دقيقة واحدة، كما ترين، بل ثارت ثائرتي واستعر حنقني، وسأقول لك الآن لماذا ثارت ثائرتي واستعر حنقني: إن سبب ذلك هو نكرانك الفظيع للجميل يا آنسة؟ كيف؟ أدعوك إلى مسكنى، وأهتم بقريبتك المسكينة، وأعطيك عشرة روبلات مساهمة مني في مساعدتها، فتكافشيني هذه المكافأة في تلك الدقيقة نفسها! لا، حقاً ليس هذا حسناً! ولا بد أن القنُك درساً! فكُري في الأمر! ثم إنني أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون لك في هذه اللحظة صديق خير مني): تذكري هذا، وإن أصبحت بغير رحمة أو شفقة. هل تعرفين بأنك . . .

دمدمت صونيا تقول مذعورة:

- أنا لم أسألك شيئاً. أنت أعطيتني عشرة روبلات. ها هي ذي.  
إنني أردها إليك.

واستلت صونيا من جيبها منديلاً، واهتدت إلى العقدة التي عقدتها فيه ففضتها وسحبت منها ورقة العشرة روبلات ومدتها إلى لوجين. قال لوجين ملحاً، بلهجة اللوم والتقرير، دون أن يتناول الورقة المالية:

- ألا تعرفين إذن بالمائة روبل؟

أجالت صونيا بصرها فيما حولها. كان الجميع ينظرون إليها بعيون قاسية، ساخرة، مبغضة! . . . وألقت نظرة على راسكولينيكوف.

كان راسكولينيكوف واقفاً، مستندأً ظهره إلى الجدار، عاكداً ذراعيه على صدره، يحدّق إليها بعينين ملتمعتين.

وأفلت من صونيا هذه الاستغاثة:

- يا رب!

قال لوجين في رفق، بل بصوت عذب:

- يا آماليا ايفانوفنا، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة، فأرجوك بانتظار ذلك أن ترسلني أحداً ينادي البابا . . .

قالت آماليا ايفانوفنا وهي تضرب كفأ بكاف:

- غوت دير بارمغيرتسيني<sup>(45)</sup>! كنت أعرف أنها لصة!

قال لوجين:

- ها . . . كنت تعرفين ذلك؟ لا بد أن يكون هنالك إذاً سبب دعاك إلى استخلاص هذه النتيجة، واستخراج هذا الرأي في الماضي! فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا، المحترمة جداً، أن تتذكري هذه الكلمات التي قلتها الآن، وقد قلتها أمام شهود على كل حال.

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية دفعه واحدة في كل جهة من الجهات، وشمل الحفل كله اضطراب كبير.

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول فجأة وقد ثابتت إلى رشدها:

- كيف؟

واندفعت مسرعة نحو لوجين مرددة:

- كيف؟ أتهمها بالسرقة؟ أتهمها هي؟ هي، صونيا؟ آه . . . يا للأوغاد! يا للأوغاد!

وارتمت على صونيا، فاحتضنتها بذراعيها المعروقتين الهزيلتين.

وتابعت كلامها تقول:

- صونيا! كيف تجرأت أن تقلبي عشرة روبلات من هذا الرجل؟ يا لك من حمقاء! يا لك من حمقاء! ردّيها إليه حالاً، ردّيها إليه حالاً، روبلاته العشرة! خذ . . .

انتزعت كاتrina ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا، فدعكتها بيديها، ورمتها في وجه لوجين، فأصابت كرتها عينه ثم تدحرجت على أرض الغرفة. فأسرعت آماليا ايفانوفنا تشيلها، وغضب بيوتر بتروفتش، وصرخ قائلاً:

- أمسكوا هذه المجنونة!

وفي تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم، عدا ليزياتنيكوف، السيدتين القادمتين من الأقاليم، اللتين تسكنان هنا منذ مدة قصيرة.

**زعمت كاترينا إيفانوفنا تقول:**

- كيف؟ المجنونة؟ أنا المجنونة؟ يا للأبله! يا للوغد الشقي! يا للرجل الذيء! صونيا، صونيا، تسرق منه مالاً؟ صونيا، سارقة؟ ولكنها قادرة على أن تعطيك أنت مالاً يا أبله!

صرخت كاترينا ايفانوفنا ذلك وانفجرت تصحّك ضحكه هستيرية ،  
وهفت تقول وهي تركض إلى اليمين وإلى اليسار مشيرة لجميع الناس  
إلي لوجين :

- أرأيتم إلى هذا الأبله؟

ولمحت صاحبة الست فجأة فقالت:

- كيف؟ أفانت أيضاً تدعين أنها سارقة؟ يا للدجاجة الألمانية! انظروا أيها الناس ، انظروا!

وعادت تخطّط بيوتر بــروفتشر، فقالت:

- آه... أنت... أنت... أجهل أنها لم تترك هذه الغرفة لحظة واحدة أيها النذل، فما أن خرجمت من عنده حتى جاءت تجلس إلى جانب روبيون رومانوفتش! فتشها إذا! فما دامت لم تذهب إلى أي مكان، فلا بد أن يكون المال معها. ابحث إذا! ابحث! ولكن

إذا لم تجد شيئاً يا عزيزي فلتحاسبن على افترائك! إلى الإمبراطور سأشكوك، إلى الإمبراطور، إلى القيصر الرحيم! لأرتميّن على قدميه حالاً، في هذا اليوم نفسه! أنا يتيمة! سيسمحون لي بالدخول! ماذا؟ أتظن أنهم لن يسمحوا لي بالدخول؟ أنت إذاً مخطئ! لسوف أصل إليه، لسوف أصل إليه! آ... كنت تعوّل على خجلها وحيائها، على رقتها وخفرها، أليس كذلك؟ على هذا إنما كنت تبني أمّك! ولكنني، أنا، لا أستحي يا عزيزي! أنا عيناي ماء! هيا فتش! فتش!

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك خارجة عن طورها وقد أخذت تهتز لوجين بكل قواها وتجره نحو صونيا.

تمتم لوجين:

- أنا مستعد... أنا مستعد لأن أحاسب... ولكن هدئي روتك يا سيدتي، هدئي روتك! أني لا لاحظ حقاً أنك لا تستحين... أمام الشرطة إنما يحسن في الواقع أن... رغم أن هنا شهوداً يكفي عددهم ويزيدي... أنا مستعد... ولكن هذه مهمة محرجة بالنسبة إلى رجل... وذلك بسبب... بسبب الجنس طبعاً... ليتنى أستطيع أن أطلب إلى آماليا ايفانوفنا أن تساعدنى... رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه الطريقة... ليست هذه الطريقة... ما العمل؟

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- اختر من تشاء! فليفتحها من يريد أن يفتحها! صونيا! اقلبي جيوبك أمامهم! انظر، انظر أيها الشيطان! وكان ثمة هناك منديل... هانت ذا ترى أن جيبها خال. أرأيت؟ واقلبني الجيب الآخر الآن! انظر! انظر! أرأيت؟ أرأيت؟

ولم تكتف كاترينا ايفانوفنا بقلب جيبي صونيا، بل شدّتها شدّاً عنيفاً لتظهرهما إظهاراً أوضحاً. فإذا بورقة صغيرة تثبت عندئذ من الجيب الثاني، وهو الجيب الأيمن، فترسم في الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند قدمي لوجين.

جميع الحضور رأوا الورقة، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات. ومال بيوتر بترورفتشر على الأرض، فتناول الورقة بإصبعين، وفضّلها على مرأى من الشهود كافة. أنها ورقة مائة روبل قد طُويت ثمانية طيّات. أجال بيوتر بترورفتشر يده في جميع الاتجاهات حتى يتمكن الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة.

أعولت آماليا إيفانوفنا تقول:

- سارقة! لصة! أغريبي عن وجهي! نادوا الشرطة، الشرطة! يجب إرسالهم إلى سبيريا! أخرجوا من هنا!

وارتفعت صيحات من كل صوب. وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يحول بصره عن صونيا، مع إلقاء نظرة سريعة على لوجين من حين إلى حين. وما تزال صونيا واقفة في مكانها كأنها أصيبت بخبار، حتى أنها لا تبدو عليها دهشة. وفجأة أحمر خداها أحمراراً شديداً، وأطلقت صرخة خفيفة، وأخذت وجهها في يديها، ثم صرخت بصوت ممزق يقطعه نشيج البكاء، وهي تندفع نحو كاترينا إيفانوفنا، صرخت تقول:

- لا، لست أنا!.. أنا لم آخذها! لا أعلم! فاحتضنتها كاترينا إيفانوفنا بذراعيها، وضمتها إليها بقوة كأنها تريد أن تجعل من صدرها متراساً يحميها.

وصرخت كاترينا إيفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع، وهي تهددها في ذراعيها كما يهدّد طفل صغير، وتقبلّها طائشة العقل، وتمسك يديها فتغرقهما لثماً:

- صونيا! صونيا! لست أصدق! هاؤنت ذي ترين أبني لا أصدق!  
أنت تسرقين؟ أهم أغبياء حتى يصدقو أنك تسرقين؟ يا رب!..  
ثم صرخت تخاطبهم جميعاً:

- أنتم أغبياء! انتم بلهاء! انتم إذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبيل النفس! انتم إذن لا تعرفون أية فتاة هي!

أهي تسرق؟ هي؟ ألا إنها لمستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه، ألا إنها لمستعدة أن تسير حافية القدمين لتبيع آخر قميص تملكه، إذا كنتم في حاجة إليه! نعم، هذه هي طبيعتها! ولشن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة صفراء، فلأن أولادي كانوا يتضورون جوعاً! لقد باعوها في سبيلنا! آه... يا زوجي الراحل... يا زوجي المسكين الراحل، هل ترى هذا؟ هل ترى؟ انظر إلى مأدبة الجنازة هذه التي نقام لك! رياه! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أنتم؟ ما بالكم تبكون جامدين كالموميوات؟ لماذا لا تدافعوا عنها أنت يا روديون رومانوفتش؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً؟... إنكم جميعاً لا تساوون خنصرها، جميعاً، جميعاً، جميعاً! هلاً دافعتم عنها أخيراً يا رياه!..

كان لشهقات كاترينا ايفانوفنا المسكينة، المصدورة، التي هجرها جميع الناس أثر قوي في الحضور. إن هذا الوجه الحزين المخرب الضاوي من وجوه المصابين بداء السل، وإن هاتين الشفتين اليابستين المدمتين، وإن هذا الصوت الأخش الصافر، وإن هذا النشيج المتتشنج الذي يشبه نشيج الأطفال؛ وإن هذه الضراعة التي فيها ثقة كثافة الأطفال رغم ما فيها من يأس، إن ذلك كله كان يبلغ من إثارة الشفقة وإيلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثى لحال المرأة الشقية من أعماق نفسه. وسرعان ما رثى لحالها بيوتر بتروفتش على كل حال. قال يهتف بصوت يعبر عن الحمامة والرعاية:

- سيدتي، سيدتي! ليس لك في هذا الأمر ضلعاً! ما من أحد يخطر بياله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ، لا سيما وأنك توليت بنفسك قلب جيوبها، فهذا دليل على أنك لم تراودك أية شبهة. إنني مستعد أتم الاستعداد، نعم، أتم الاستعداد، لأن أتسامح إذا كان المؤس هو الذي دفع صونيا سيميونوفنا إن صع التعبير. ولكن لماذا لم تشأني أن تعرفي يا آنسة؟ لعلك كنت تخشين العار؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى في هذا الطريق؟ لعلك كنت قد فقدت صوابك؟ ذلك

أمر يفهم تماماً. ولكن لماذا، لماذا وضعت نفسك في موقف كهذا الموقف؟

وأردد بيوتر بتروفتش يُشهد الحضور قائلاً:

- أيها السيدات والساسة، إنني، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة، ما أزال مستعداً لأن أغفر وأصفح، رغم الإهانات والشتائم الشخصية التي وجهت إليَّ!

والتفت إلى صونيا، فقال لها:

- نعم يا آنسة، ليكن الخزي الذي أصابك الآن درساً يفيدك في المستقبل. لن أتابع هذه القضية. أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد. يكفي هذا.

وبطرف العين نظر بيوتر بتروفتش إلى راسكولنيكوف، فالتفت نظرهما. كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة الملتهبة تهمَّ أن تسحق لوجين سحقاً.

ولم يبد على كاترينا إيفانوفنا أنها سمعت شيئاً. كانت تعانق صونيا وتقبلها كمحنة. وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة، وقد أجهشت بوليتشكا باكية، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذي يدور عليه المشهد فهماً واضحاً)، وألقت وجهها الجميل المنتفخ على كتف صونيا، مهترة الجسم من النشيج.

- أندل هذا! قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب.  
التفت بيوتر بتروفتش. فكرر ليبزياتنيكوف قوله محدقاً إليه متفرساً فيه:

- يا للنذالة!

أصاب بيوتر بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة. لقد لاحظ الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد). تقدم ليبزياتنيكوف بضع خطوات. وقال مخاطباً بيوتر بتروفتش وهو يقترب منه:

- وتجرؤ أن تُشهدني أيضاً؟

- ما معنى هذا... يا آندريه سيميونوفتش؟ عم... تتكلّم؟ - ددم لوجين متشر اللسان.

أجابه ليزياتنيكوف بعنف، وهو ما يزال يحدّق إليه تحديقاً قاسياً بعينين عمساويين:

- معناه أنت كاذب مفتر... نعم... هذا ما يعنيه كلامي!

كان ليزياتنيكوف في حالة غضب رهيب. ونظر إليه راسكولنيكوف هو أيضاً، كأنما ليتلقّف كلماته ويزنها محاولاً أن يفهم معناها الغامض المكتوم. وساد صمت جديد. كان بيوتر بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقريباً، ولا سيما في الوهلة الأولى.

وبدأ يتكلّم فقال متلعثماً:

- إذا كنت تخاطبني أنا... ولكن ماذا دهاك؟ أنت في تمام عقلك؟

- نعم... أنا في تمام عقلي... ولكنك أنت... نذل! آه... ما أندل هذا! لقد كنت أستمع إلى كل شيء، وتعتمدت أن انتظر لأفهم كل شيء، ذلك أنني حتى هذه الساعة... لا تزال الأمور غير منطقية تماماً، أعترف بذلك!... نعم، لماذا فعلت هذا؟.. إنني لا أفهم!

- ولكن ما الذي فعلته؟ هلا كففت عن الكلام بالغاز غبية؟ لعلك سكران؟ لعلك شربت؟

- بل لعلك أنت الذي شربت، لا أنا، أيها الرجل الدنئ! ثم إنني لا أشرب فودكا أبداً، لأن هذا يخالف مبادئي. هل تتصورون أنه هو نفسه، هو الذي أعطى صونيا سيميونوفنا، بيديه، ورقة المائة روبل هذه؟ لقد رأيته بعيني رأسياً، أنا شاهد، وفي وسعي أن أحلف على ذلك بأغلظ الأيمان!

وردد ليزياتنيكوف يقول متوجهاً إلى الجميع وإلى كل واحد:

- هو! هو!

أعول لوجين يقول:

- أأنت مجنون أيها الغر؟ لقد أقرت هي نفسها، هي الواقفة هناك، بقريبك، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ مني إلا عشرة روبلات. وكيف كان يمكنني أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك؟

ردد ليزياتينيكوف يقول صارخاً:

-رأيت ما فعلته! رأيت بعيني! وأنا مستعد، رغم أن ذلك يخالف مبادئي، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم... لأنني رأيتك تدنس لها هذه الورقة خلسة. ولكنني، لغبائي، اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب البر والإحسان. قرب الباب، لحظة كانت تودعك، حين التفتت ومددت لها يدك اليمنى، ودستَ ورقة المائة روبل باليد اليسرى في جيبها خلسة. رأيت ذلك! رأيته!

شحب لون لوجين. وصرخ يقول بوقاحة:

- ما هذه السخافات التي تقولها؟ كيف كنت تستطيع، وأنت واقف قرب النافذة، أن تتعرف على هذه الورقة؟ ما هذا إلا وهم!.. ما هذا إلا وهم خلقته عيناك العمشاوان! أنت تهذي!

- لا، ليس هذا وهمًا! ورغم أنني وقفت بعيداً، والحق يقال، فقد رأيت كل شيء، كل شيء! صحيح أن من الصعب على المرء أن يميز ورقة من بعيد وهو واقف قرب النافذة. ولكنني بفضل ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة إنما كانت ورقة مالية بمائة روبل، إذ في اللحظة التي أعطيت صونيا سيميونوفنا عشرة روبلات، رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأنني كنت عندئذ بالقرب منك)؛ ولأن فكرة ما قد ومضت في ذهني حينذاك، فإبني لم أنس أن هذه الورقة كانت بيديك. لقد طويتها واحتفظت بها في يدك طوال الوقت. ثم لم أنكر أنا بعد ذلك في هذا الأمر التفصيلي، ولكنك حين

نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى إلى يدك اليسرى؛ وحين فعلت ذلك كدت تُسقطها على الأرض. فتذكرة ذلك الأمر التفصيلي من جديد، لأن تلك الفكرة نفسها قد مضت في ذهني مرة أخرى: وهي أنك ت يريد أن تمنَّ على صونيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك. لهذا أخذت أرقبك وأرصد حركاتك، فرأيت أنك أفلحت في أن تدسَّ تلك الورقة في جيبيا! رأيت ذلك! رأيت! وأنني مستعد لأن أحلف يميناً!

كان ليزياتينيكوف كمن يختنق. وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب. غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً. واقترب الجميع من بيوتر بتروفتش، واندفعت كاترينا ايفانوفنا نحو ليزياتينيكوف.

- آندريه سيميونوفتش! لقد أخطأت الظن فيك! دافع عنها! أنت الوحيد الذي يدافع عنها! هذه يتيمة! إن الله هو الذي أرسلك لتساعدنا! آندريه سيميونوفتش، يا عزيزي الطيب الشهم آندريه سيميونوفتش!  
قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك، وارتمت ترکع أمامه، وهي لا تكاد تدرك ماذا تصنع!

زار لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب:

- سخافات! هذا كل ما تستطيع أن تمضيغه من كلام: «نسيت، تذكرة، تذكرة، نسيت!». ما معنى هذا؟ في زعمك إذن أنني دسست لها الورقة عمداً... ولكن لماذا؟ ما عسى يكون هدفي من ذلك؟ أي شيء يجمع بيني وبين هذه ال... .

- لماذا؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسي، ولكن هذا لا ينفي أنني أقول الحقيقة! إنني لم أخطئ في شيء أيها الحقير النذل، إنني أذكر أن فكرة قد راودتني في تلك المناسبة، حين كنتأشكرك مصافحاً. لقد قلت لنفسي عندئذ: «لماذا دسَّ لها هذه الورقة خلسة؟»؟ أيمكن أن لا يكون غرضه من ذلك إلا أن يخفى عني عمله، لعلمه بأن مبادئي

تتعارض مع فكرة الإحسان الفردي، الإحسان الذي لن يخفف إطلاقاً عن أحد تخفيفاً جذرياً في يوم من الأيام؟». ثم خطر ببالي أنك ربما كنت تشعر بحرج من إهداء مثل هذا المبلغ الكبير بحضوري؛ ثم اعتقدت أنك إنما أردت أن تحدث لها دهشة حين ستعثر في جيبيها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو المسؤول). ولكنني قلت لنفسي بعد ذلك أيضاً أنك ت يريد أن تختبرها وأن تمحنها، أي أن تعلم هل تجيء إليك شاكرة بعد أن تجد الورقة. وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك إنما أردت أن تتتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان، عملاً بالमبدأ القائل إن اليد اليمنى يجب أن تجهل...<sup>(46)</sup> الخ... آه... ما أكثر الأفكار التي راودت ذهني حينذاك!.. وقد قررت أن أفكر في هذه المسألة على مهل، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين أنني عارف بسرّك. وقد راودتني عندئذ فكرة أخرى. تسألت: «ماذا لو أضاعت صونيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده؟» وذلك هو السبب الذي دفعني أن أجيء إلى هنا فإذا ذكرها أو أعلمتها أنك وضعتم مائة روبل في جيبيها. ولكنني، أثناء الطريق، دخلت على السيدتين كوبيلياتينيكوف، لأعطيهما كتاب «العرض العام للمنهج الوضعي»<sup>(47)</sup>، وأوصيهمما خاصة بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً)، ثم جئت إلى هنا، فانظر في وسط أية قصة وقعت! هل كان يمكن أن تخطر ببالي تلك الأفكار كلها، وهل كان يمكن أن أجري تلك الاستدلالات جميعها، لو لا أنني رأيتك تدس المائة روبل في جيب صونيا سيميونوفنا فعلاً؟

حين أنهى آندريه سيميونوفتش أقواله المفحة وختمتها بهذه التبيجة المنطقية شعر بتعب رهيب، فكان العرق يقطر من جيبيه. إنه لا يجيد التعبير باللغة الروسية وأسفاه (وإن كان لا يعرف أية لغة أخرى)، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية إرهاق شديد، حتى لكيه أصبح بنحول وهزال. لكن حديثه أثر تأثيراً خارقاً. لقد تكلم بدون تصنع أو افتعال،

وكان كلامه مقنعاً مفهماً، فصدقه الجميع. وشعر بيوتر بتروفتش أن الأمور لا تجري على ما يحب. فهتف يقول:

- أنا لا تهمني المسائل السخيفة التي خطرت ببالك في قليل ولا كثير! ليس هذا ببرهان. من الجائز جداً أن تكون قد رأيت ذلك كله في حلم. وأنا أقول لك إنك تكذب يا سيد! أنت تكذب، وأنت تفترى علىَّ، يدفعك إلى ذلك حقدٌ شخصيٌّ، فأنت تصمر لي الضعينة لأنني لا أشاركك آراءك الاشتراكية الملحدة. ذلك كل شيء!

ولكن هذه المراوغة لم تعد على بيوتر بتروفتش بأي نفع. بالعكس: ارتفعت الدمدمات من كل جهة.

وصاح ليزياتينيكوف يقول:

- آ... هذا ما ت يريد أن تصل إليه! أنت تكذب! استدعا الشرطة، وأسأخلف اليمين. ليس هناك إلا شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه: ما الذي دفعه إلى أن يتصرف هذا التصرف الدنيء؟ يا للحقير! يا للنذل!

- أنا أستطيع أن أشرح السبب الذي دفعه إلى التورط في مثل هذا الفعل. وأنني لمستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً إذا لزم ذلك. قال راسكولنيكوف بصوت قاس وهو يتقدم إلى أمها. كان يبدو حازماً. وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقواها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً، وأن الخاتمة قد اقتربت.

وقال راسكولنيكوف متوجهًا بالكلام إلى ليزياتينيكوف رأساً:

- الآن فهمت كل شيء! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكاية أن في الأمر مكيدة ما، مكيدة قذرة، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها أحد غيري وساكشف عنها لكم الآن، لأنها أصل كل شيء. وأنت الذي أضافت لي الحقيقة نهائياً بشهادتك الشمينة يا أندريله سيميونوفتش. أرجوكم نجحيناً، جميعاً، أن تصغوا إليَّ. إن هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً إلى لوجين) قد خطب في الآونة

الأخيرة فتاة... هي أختي آفدوتيا رومانوفنا راسكولنيкова.  
لكنه منذ وصوله إلى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بيني وبينه شجار  
أثناء أول لقاء بينما فطرته من مسكنى، وذلك بحضور شاهدين اثنين.  
إن هذا الرجل مفتاظ جداً وشريرو... لم أكن أعرف أمس الأول أنه  
يسكن في غرفة مفروشة عندك يا آندريه سيميونوفتش، ولم أكن أعرف  
إذاً أنه في يوم تшاجرنا نفسه، أي أمس الأول بعينه، قد رأى أختي  
بصفتي صديقاً للمرحوم السيد مارميلادوف قد أعطيت زوجته كاترينا  
ایفانوفنا مالاً تتفقه على الاحتفال بالجنازة. ولكنه قد رأى ذلك فسرعان  
ما كتب إلى أمي رسالة يبلغها فيها أختي قد وهبت كل ما أملك من مال،  
لا لكاترينا ايفانوفنا بل لصونيا سيميونوفنا، واصفاً هذه الفتاة بأحط  
النعوت... أقصد... واصفاً طبيعة علاقاتي بها بأحط النعوت. وهو  
يهدف من ذلك طبعاً إلى أن يحدث شقاقاً بيني وبين أمي وأختي، عن  
طريق إقناعهما بأنني أتلف في وجوه غير شريفة آخر مال يحرمان  
نفسهما منه في سبيل سد حاجاتي. وفي مساء أمس، أثناء مقابلة تمت  
بيني وبين أمي وأختي، وقد حضر هذه المقابلة، أظهرت الحقيقة مبرهناً  
على أنني إنما أعطيت المال لكاترينا ايفانوفنا، لإنفاقه على الاحتفال  
بالجنازة، ولم أعطه لصونيا سيميونوفنا، التي كنت منذ ثلاثة أيام لا  
أعرفها على كل حال... ولكنني أضفت إلى ذلك أنه، هو بيوتر  
بتروفتش، بكل مزاياه، لا يساوي خنصر صونيا سيميونوفنا التي يقول  
في حقها ذلك الكلام الدنيء! ثم سألني هل أنا مستعد لأن أجلس صونيا  
سيميونوفنا إلى جانب أختي، فأجبته بأنني قد فعلت هذا في ذلك اليوم  
نفسه. وأغضبه أشد الغضب لأن يلاحظ أن أمي وأختي لا تريдан أن  
تشاجراً معى تصديقاً لنمائمه وافتراءاته، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقايات  
لا تُغفر. ونشأت عن ذلك قطيعة حاسمة بينه وبيني وأختي، وطُرد شرّ  
طربة. ذلك كله حدث أمس. والآن انتبهوا: لو قد أفلح في أن يبرهن  
اليوم على أن صونيا سيميونوفنا سارقة، لاستطاع أن يظهر لأمي وأختي  
أولاً أنه كان على حق حين اشتبه في أمرها، وثانياً أنه كان على حق حين

غضب إذ علم أنني ساويت بينها وبين اختي، وأنه إذ هجم على دافع بذلك عن شرف اختي وخطيبته وحافظ عليه. جملة القول إنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل في أن يحدث شقاوةً بيني وبين أسرتي وفي أن يسترد حظوظه لديها. ناهيك عن أنه بذلك ينتقم مني شخصياً لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صونيا سيميونوفنا يهمانني كثيراً. ذلکم هو حسابه كله! هكذا أفهم أنا القضية! هذا هو دافعه ولا دافع سواه!

بهذه الكلمات، أو بهذه الكلمات تقريباً، ختم راسكولنيكوف كلامه الذي كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه. ولكن راسكولنيكوف، رغم المقاطعات، تكلم بلهجـة جازمة هادئة ثابتـة، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشاها شيء. وكان لصوته المختلـج ونبرته المقنـعة وهـيثـته القـاسـية أثر شـدـيد في جميع الناس.

قال ليزياتنيكوف مؤيداً بحماسة:

- هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! هذا هو الأمر يقيناً، لأنه سألكي، منذ دخلت صونيا سيميونوفنا الغرفة، هل «أنت موجود، وهـل رأيـتك في عـدادـ الذين دعـتهمـ كـاتـريـناـ ايـفـانـوفـنا؟». لقد جذبني إلى شـقـ النـافـذـةـ ليـلـقـيـ علىـيـ هذاـ السـؤـالـ هـمـساًـ.ـ معـنىـ ذـلـكـ أـنـ كـانـ يـحرـصـ حرـصـاًـ مـطـلقـاًـ عـلـىـ أـنـ تـكـونـ مـوـجـودـاًـ!ـ هـذـاـ هـوـ الـأـمـرـ تـامـاًـ!

كان لوجين صامتاً يبتسم باحتقار. لكنه كان شديد الشحوب. كأنه يفكـرـ فيـ الوـسـيـلةـ التيـ يـخـرـجـ بهاـ منـ المـأـزـقـ.ـ لـعلـهـ كـانـ يـتـمنـىـ لوـ يـدـعـ كـلـ شيءـ ويـخـرـجـ،ـ لـكـنـ ذـلـكـ لـمـ يـكـنـ بـالـأـمـرـ المـمـكـنـ كـثـيرـاًـ فـيـ تـلـكـ اللـحـظـةـ:ـ فـلـوـ خـرـجـ لـكـانـ معـنىـ خـرـوجـهـ صـراـحةـ أـنـ يـعـتـرـفـ بـصـحـةـ الـاتـهـامـاتـ المـوـجـهـةـ إـلـيـهـ،ـ وـأـنـهـ قـدـ اـفـتـرـىـ عـلـىـ صـونـياـ سـيمـيـونـوفـناـ فـعـلاًـ.ـ ثـمـ إـنـ الـحـضـورـ،ـ وـقـدـ سـكـرـواـ،ـ أـخـذـوـاـ يـضـطـرـبـوـنـ اـضـطـرـابـاًـ شـدـيدـاًـ.ـ وـهـذـاـ موـظـفـ

التموين يصرخ صراخاً أعلى من صراغ سائر الناس، رغم أنه لم يفهم كل شيء، مقترباً اتخاذ إجراءات تسيء إلى لوجين كثيراً. هذا إلى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى: لقد هرع أناس من جميع الغرف. البولنديون الحقراء الثلاثة اهتاجوا اهتاجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية: «سيد حقير»، ويجمجمون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً.

كانت صونيا تصغي في جهد، ولكن كان لا يبدو عليها أنها تفهم كل شيء هي الأخرى. لكتها خارجة من غيوبه. كانت لا تحول عينيها عن راسكولينيكوف، شاعرة أنه سندها الوحيد. وكانت كاترينا ايفانوفنا تنفس في مشقة، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشاء، وكانت تبدو مرهقة إلى أبعد حدود الإرهاق. إلا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أغبى الأوضاع، فهي فاغرة الفم يبدو عليها أنها لا تفهم شيئاً البتة. كل ما هنا لك أنها كانت تحس أن بيوتر بتروفتش في مأزق. وأراد راسكولنيكوف مرة أخرى أن يتكلم، ولكنهم لم يدعوه أن يفعل، فالحضور جميعاً يصرخون في آن واحد ويحتشدون حول لوجين بالشتائم والتهديدات. ومع ذلك لم يفت هذا في عضد لوجين. وإذا رأى أن حملته على صونيا سيميونوفيا خاسرة، لجأ إلى الوقاحة عاماً. قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور:

- اسمحوا لي أيها السادة، اسمحوا لي! أرجوكم لا تهددوني! أؤكد لكم أن هذا لا يجدي، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً! لست بالصبي الغر... بالعكس: أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن أنكم استعملتم العنف لتعطية جرم. لقد انفضحت السارقة، وسأشكوها إلى القضاء. والقضاء ليسوا عمياً، ولا هم سكارى!.. القضاة لن يثقوا بأقوال ملحدين زنديقيين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين، ويتهمانني حقداً وانتقاماً، وذلك ما اعترفا به بلسانهما لغبائهما! نعم، اسمحوا لي!

قال آندريل سميونوفتش :

- ألا فليختف كل أثر لوجودك عندي على الفور! هيئاً غادر غرفتي حالاً، ولينته كل شيء بيننا... آه... حين أتذكر كم أرهقت نفسي في أن أشرح له... طوال خمسة عشر يوماً!

- ولكنني قلت لك أنا نفسي منذ قليل، بينما كنت تلئُّ أنت على بقائي عندك، إبني مبارح غرفتك حتماً. هناك شيء واحد أضيفه الآن: هو أنك غبي أبله! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك الحسير. اسمحوا لي يا سادة!

وأستطيع أن يشق لنفسه ممراً. لكن موظف التموين لم يكن يسمعه بهذه الأذن، ولم يشأ أن يخلع سبيله بهذه السهولة، فتناول كأساً عن المائدة فلرّوح بها ثم قذفها إلى جهة بيوتر بتروفتش بكل ما أوتي من قوة. غير أن الكأس طارت نحو أماليا ايفانوفنا رأساً، فأطلقت هذه صرخات حادة، بينما أخذ موظف التموين يتدرج بخراقة تحت المائدة بعد أن أفقدته هذه الحركة توازنه.

انسحب بيوتر بتروفتش إلى غرفته، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل.

كانت صونيا، الوجلة بطبعتها، لا تجهل أن من السهل على أي إنسان أن يسبب ضياعها وهلاكها هي أكثر من أي شخص آخر. وكانت تعرف كذلك أن أي إنسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذيها دون أن تصيبه من ذلك أية إساءة تقرباً. ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن في وسعها، بطريقة أو بأخرى، أن تتجنب نمائم كبيرة وافتراءات ضخمة إذا هي عاملت جميع الناس وكل إنسان بالتأني والحذر، والتواضع والمذلة، والرقابة واللطف. فخاب الآن ظنها، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الواقع في نفسها. صحيح أنها كانت تستطيع، مذعنة مستسلمة، ودون دمدة تقرباً، أن تحتمل كل شيء، وأن تحتمل حتى

هذا. غير أن هذا قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها، في الوهلة الأولى، درجة لا تطاق. فهي، رغم انتصارها وبرتها، ما أن زال رعبها الأول وما أن أفاقت من ذهولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور إدراكاً صحيحاً، حتى كان شعورها بأنها مهجورة وإحساسها بالإهانة التي ألمحت بها يقظان صدرها قبضاً أليماً، فإذا هي تصاب بنوبة عصبية. ثم إذا هي تفقد صبرها فتولى هاربةً من الغرفة راكضةً إلى مسكنها. حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً.

وأماليَا ايفانوفنا التي أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور، فاستعر غضبها، وأخذت تطلق صرخات مجونة، ثم اتجهت نحو كاترينا ايفانوفنا تحملها تبعة كل شيء، وتقول لها:

- ارحلِي من بيتي! اخرجِي حالاً! هيا، أغربِي عن وجهِي!

كانت أماليَا ايفانوفنا تقول ذلك وهي تقُبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترينا ايفانوفنا فتلقيه على الأرض.

وكانت كاترينا ايفانوفنا قد تهالكت على السرير مهدودة القوى، شاحبة الوجه، مهدمة، محطمَة، فلما رأت صاحبة البيت تفعل ذلك بأمتعتها وثبت عن السرير وهجمت عليها. ولكن الصراع لم يكن فيه أي تكافؤ، فكانت الألمانية تهُزْ كاترينا وترجحها لأنها ريشة طائر.

- ماذا؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنها افترت على صونيا افتراءات شيطانية، فهي تهجم علىي أنا أيضاً؟ كيف؟ هل أرمي إلى الشارع في يوم وفاة زوجي؟ أبعد أن تُقبل ضيافتي ألقى إلى الشارع مع اليتامي؟ فإلى أين يمكنني أن أذهب؟

بهذا كانت تعول كاترينا ايفانوفنا مختنقةً من خلال الشيج. وصرخت تقول على حين فجأة وقد اشتعلت عيناهَا:

- هل يمكن أن لا يكون هناك عدالة يا إله السماء؟ عَمَّ عساك تدافع ومن عساك تحمي إذا لم تدافع عنا نحن اليتامى؟.. لسوف نرى! أن

على الأرض قضاة ومحاكم! نعم، هناك قضاة ومحاكم! سأتجه إلى المحاكم، سأجد المحاكم! حالاً فوراً! انتظري قليلاً أيتها المخلوقة الدينية! ثم أضافت: يا بوليتشكا، ابقي مع الأولاد! سأعود! انتظري في الشارع إذا لزم الأمر! سوف نرى هل في هذا العالم عدالة وحقيقة!

وألقت كاترينا ايفانوفنا على رأسها ذلك الشال المصنوع من الجوخ الخفيف، الذي تحدث عنه المرحوم مارميلاروف، وشققت لنفسها طريقاً بين جمهرة السكان السكارى المبعثرين فوضى، الذين كانوا لا يزالون محشدين في الغرفة. واندفعت في الشارع باكية ناشجة، وهي تنوي على نحو غامض أن تمضي باحثة عن العدالة فوراً مهما كلف الأمر.

واستولى الرعب على بوليا، فلطت في ركن من الأركان قرب الصندوق، مع الصغار المرتجفين المرتعدين، وقد أحاطتهم بذراعيها متطرفةً عودة أمها.

وكانت آماليا ايفانوفنا تضطرب في الغرفة، وتطلق الصراخ بعد الصراخ، وترعد، وتلقى على الأرض كل ما تجده ثم تدوسه. وكان المستأجرون يصرخون كلّ من جهته: بعضهم يعلقون على الأحداث بطريقتهم، وبعضهم يتشارجون ويتشارمون، وبعضهم يغنوون.

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «والآن حان حيني أنا أيضاً.

سوف نرى يا صونيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن!»

واتجه نحو مسكن صونيا.

## الفصل الرابع

### ودافع

راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متحمماً قوياً ضد لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً شديداً وعدباً أليماً. ولكنه شعر بعد تباريع الصباح برضى صادق وارتياح حقيقي لتغير مشاعره التي كان قد أصبح لا يطيق احتمالها، بصرف النظر عن العاطفة التي دفعته إلى التدخل مدافعاً عن صونيا. ثم إنه لم ينس أنه على موعد وشيك مع الفتاة، وهو موعد كانت فكرته تحدث له في بعض الأحيان أشد أنواع القلق. كان عليه أن يلغها بأنّه هو الذي قتل اليزافيتا، وكان يحس منذ الآن أنه سيشعر بعذاب شديد وألم مضى، وكأنه بحركة من يده، أبعد هذه الفكرة عن ذهنه. لذلك فإنه حين هتف يقول لحظة خروجه من عند كاترينا إيفانوفنا: «سوف نرى يا صونيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن» كان ما يزال خاضعاً لحالة الاضطراب الظاهري والتحدي وللأثر الذي أحدثه فيه انتصاره منذ هنีهة على لوجين. غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك: فإنه حين وصل إلى مسكن كابرناوموف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة، وشعر بخوف يستولي عليه، فاحتار واضطرب، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال العجيب: «هل يجب أن يقول لها من الذي قتل اليزافيتا؟». وإنما كان هذا السؤال عجيباً لأن راسكولنيكوف كان يشعر في الوقت نفسه أنه عاجز عن كتمان هذا الأمر بل شعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن

يؤخر اعترافه هذا أي تأخير. كان لا يعرف، بعد، لماذا يستحيل عليه ذلك. وإنما هو يحس تلك الاستحالة إحساساً فحسب، وكان هذا الإحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً. ومن أجل أن يضع حداً لخواطره وتأملاته، وهمه وقلقه، فتح الباب بغتةً ولاحظ صونيا من مكانه في العتبة.

كانت صونيا جالسةً، واضعةً كوعيها على مائدها الصغيرة، دافنة وجهها في يديها. فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبّت إلى لقائه كأنها كانت تتظره.

- لولا وجودك لما عرفت ما عسى كان يحدث لي حينذاك! قالت بسرعة وهي تدنو منه. من البديهي أن هذا الكلام كان الكلام الوحيد الذي أرادت أن تقوله له بأسرع وقت ممكن، والذي كانت بسببه في انتظاره.

اقترب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسي الذي تركه صونيا. كانت صونيا واقفةً على بعد خطوتين منه، كالبارحة تماماً.

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأةً بأن صوته يرتجف:

- هيه صونيا! أرأيت؟ أن أساس الأمر كله إنما «وضعك الاجتماعي والعادات التي يخلقها». هل فهمت؟

ارتسم الألم على وجه صونيا. وقاطعته تقول: ولكن لا تكلمني كما كلمنتني أمس. أرجوك، لا تفعل ما فعلته أمس. كفى تعذيباً!

وأسرعت بتسمم، مخافة أن يسوءه هذا اللوم. وأردفت تقول:

- كانت حماقةً مني أن انصرفت. فما الذي يجري الآن هناك؟ لقد أردت أن أعود، لكنني كنت أقدر طوال الوقت أنك... قد تجيء.

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت وأن كاترينا ايفانوفنا مضت «تبث عن العدالة» في مكان ما.

هفت صونيا تقول:

- آه! رباه! هيا بنا حالاً، فوراً!

وتناولت خمارها.

صاحب راسكولنيكوف يقول بلهجة حانقة:

- ما زلت كما كنت! لا تفكرين إلا فيهم! هلاً بقيت معي قليلاً!

- لكن... وكاترينا ايفانوفنا؟

- كاترينا ايفانوفنا سترى كيف تهتدى إليك.

قال راسكولنيكوف ذلك، ثم أضاف يقول بحزن:

- ستجدينك بنفسها ما دامت قد خرجت. فإن لم تجده هنا كنت أنت المذنبة.

جلست صونيا وهي فريسة تردد أليم. وصمت راسكولنيكوف مطرقاً إلى الأرض يجتر فكرة ثابتة.

ثم بدأ يتكلم فقال دون أن ينظر إلى صونيا:

- لنسلم بأن لوجين لم يشاً أن يتبع الأمر... ولكن لو شاء ذلك، لو كان ذلك داخلاً في حساباته، لاستطاع أن يرسلك إلى السجن لولا وجودي وجود ليزياتنيكوف، أليس كذلك؟

أجبت صونيا تقول بصوت ضعيف:

- نعم!

ثم كررت تقول قلقةً وكأنها غائبة عن نفسها:

- نعم!

قال راسكولنيكوف:

- ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك. أما ليزياتينيكوف فإنه لم يكن قد رجع إلا مصادفة.  
صمت صونيا ولم تجب بشيء.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال:

- فماذا لو أودعت في السجن؟ ما عسى يحدث حينذاك؟ هل تذكرين ما قلته لك أمس؟

ظللت صونيا صامتة. وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام:

- كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلةً مرة أخرى: «آه... لا تقل هذا الكلام! اسكت!»

ولم تجب صونيا أيضاً، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة:

- هيه! أتعودين إلى الصمت؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما على كل حال! إنني ليهمني كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تحلّي مسألة من المسائل... على حد تعبير ليزياتينيكوف (لكان راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتكب) - وتابع كلامه: لا، لا، أنا لا أتكلّم جاداً. تخيلي يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً (يعني لو كنت تعرفي بالضبط) جميع نيات لوجين، وأنك كنت تعرفي معرفة اليقين الكامل أن كاترينا ايفانوفنا سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تماماً، هي والأولاد أيضاً، وأنك ستضيعين أنت أيضاً زيادةً عليهم (لأنك لا تعتبرين نفسك إنساناً، زيادة عليهم)، وكذلك بوليا... من جهة أخرى... لأن هذا الطريق هو طريقها هي أيضاً... تخيلي هذا كله ثم تخيلي أنه يتوقف عليك أنت أن يبقى على قيد الحياة إما هذا وإما أولئك، أي إما لوجين مع كل الدناءات التي يرتكبها وإما كاترينا ايفانوفنا، فماذا تقررين؟ أتختررين موته أم تختارين موتها؟ إنني ألقى عليك هذا السؤال.

نظرت إليه صونيا في قلق. إنها تحذر وراء هذه الكلمات الملتبسة فكرة مخبأة تُقرّبها من شيء ما.

قالت وهي تثبت عليه نظرة فاحصة :

- كنت أوجس أنك ستلقي علي سؤالاً من هذا النوع .

قال راسكولنيكوف :

- طيب ، ليكن ذلك . فماذا تختارين ؟

سألته صونيا بنفور :

- لماذا تسألني عن شيء لا يمكن أن يحدث ؟

- الأفضل إذاً أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر في ارتكاب حقاراته ! هذا مع ذلكرأي لا تجسررين أيضاً أن ترتئيه ؟

- ليس يخصني أنا أن أنفذ إلى أغراض «العناية الإلهية» . . . ولماذا تسأل عما لا نملك حق السؤال عنه ؟ ما جدوى هذه الأسئلة الباطلة ؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قراري أنا ؟ من الذي نصبني قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن يجب أن لا يحيا ؟

جمجم راسكولنيكوف يقول بلهجة عابسة :

- متى تدخلت «العناية الإلهية» في الأمر ، لم يبق ما نقوله !

فهتفت صونيا تقول في ألم :

- الأولى أن تقول لي ما ت يريد أن تقوله ، بغير لفب ولا دوران ! إنك ما تزال تجتر شيئاً ما . هل من الممكن أن لا تكون قد جئت إلا لتعدبني ؟ ولم تطق صونيا صبراً ، فأخذت تبكي بكاء مراً . فكان ينظر إليها مكفهر الوجه حزيناً . وانقضت على ذلك خمس دقائق .

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب :

- نعم ، أنت على حق .

لقد تبدل راسكولنيكوف فجأة . إن لهجته التي كان فيها وقاحة مقصودة وتحدي متعمد قد اختفت . حتى لقد ضعف صوته . وتتابع كلامه :

قال :

- لقد قلت لك أمس إنني لن أجئك اليوم مستغفراً، ومع ذلك فإنني بدأت كلامي بالاستغفار تقريراً. فحين تكلمت عن لوجين وعن العناية الإلهية كنت لا أتكلم إلا عن نفسي، وكنت أستغفر يا صونيا... وأراد راسكولنيكوف أن يبتسם، لكن تعبيراً عن العجز والتعب تجلّى في تلك الابتسامة الضعيفة. وخفض رأسه وغطى وجهه بيديه.

ووجأة، اجتاز قلبه إحساس غريب غير متوقع، إحساس بكره عنيف نحو صونيا. فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روعه هذا الاكتشاف، فرفع رأسه بغتة ونظر إليها محدقاً. ولكن نظرته لم تلتقي إلا بنظرة الفتاة التي كانت نظرة قلقة زاخرة بضراوة أليمة. لقد كان في تلك النظرة حب. وتبدل من نفس راسكولنيكوف كل إحساس بالكره، كما يتبدل حلم. لا، لم يكن الأمر كما تصور، لقد أخطأ في فهم طبيعة العاطفة التي شعر بها. ذلك يعني أن اللحظة الحاسمة قد وافت.

ومرة أخرى دفن وجهه في يديه، وخفض رأسه. واصفر وجهه على حين بغتة، ونهض عن كرسيه ونظر إلى صونيا، ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية، دون أن يقول كلمة واحدة.

كانت هذه الدقيقة، من ناحية الإحساس الذي شعر به، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التي كان فيها واقفاً وراء العجوز، بعد أن أخرج الفاس من العلاقة، وأحس أنه «لم يبق ثمة لحظة يضيعها». سأله صونيا مرؤعة:

- ماذا بك؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة. لم يكن يقدر أنه على هذا النحو سينبهها بالأمر. ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم ما يحدث في نفسه في تلك اللحظة.

اقتربت صونيا منه برفق، وجلست على السرير بقربه، وانتظرت دون أن تحول عينيها عنه. وكان قلب صونيا يخفق خفاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر.

أصبح الموقف لا يُحتمل. أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبه بصفة كصفرة الموت. وتبقى شفاته فلم يستطع أن ينطق أية كلمة. استولى الرعب على صونيا. فقالت مرددة وهي تبتعد عنه قليلاً:

- ماذا بك؟

فدمدم يقول كإنسان استولى عليه الهذيان وأصبح لا يدرى ماذا يقول:

- لا شيء يا صونيا. لا تخافي. حقاً، متى فكر المرء في هذه الأمور أدرك أنها سفاسف وترهات وحماقات! وأضاف يقول فجأة وهو ينظر إليها:

- لماذا جئت أعزبك أنت؟ حقاً، لماذا؟ إبني لا أنفك ألقى على نفسي هذا السؤال يا صونيا...

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة، ولكنه يعبر عنه الآن وهو في حالة ضعف كامل، فما يكاد يشعر بنفسه، وما برح جسمه يرتجف بارتعاش متصل.

قالت صونيا متأنمةً وهي تتحচّصه بنظرها:

- آه... لشد ما تعذب نفسك!

- ما هذه كلها إلا سخافات! اسمعي يا صونيا: (إن فكرة من الأفكار قد جعلت شفتيه تلم بهما ابتسامة ضعيفة عاجزة كثانيتين لا أكثر) هل تتذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس؟

انتظرت صونيا قلقة.

- لقد قلت لك عند انصرافي أنني ربما كنت أودعك إلى الأبد، ولكنني إن جئت فسأقول لك... من الذي قتل اليزافيتا.

أخذت صونيا ترتعش من الرأس إلى القدمين.

- فهاأنذا أجيء لأقول لك من الذي قتل اليزافيتا.

تمتت تقول في جهد ومشقة :

- كنت تتكلّم جاداً إذا حين قلت لي أمس ...

لكنها أسرعت تسأله كأنها ثابت إلى رشدها فجأة :

- فكيف عرفت من الذي قتلها؟

كانت صونيا تتنفس تنفساً شاقاً. وكان وجهها يزداد شحوباً. قال راسكولنيكوف :

- أنا أعرف.

فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة. ثم سأله خائفة :

- وهل وجدوه؟

- لا، لم يجدوه.

- إذن كيف عرفت من هو؟

قالت ذلك بصوت مختنق، بعد صمت جديد.

التفت راسكولنيكوف إليها، وأمعن في النظر إليها. ثم قال لها وهو يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المصنوعة العاجزة نفسها :

- احذري !

وكان تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كلها.

قالت وهي تبتسم كطفلة :

- ولكنك ... ولكنك تخبي ... تخيفني بهذا الكلام !

تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر إليها ويتفرس فيها لأن عينيه مشدودتان إليها شدأ لا فكاك منه، وكأنه لا يستطيع أن يحول بصره عنها.

- هذا يبرهن على أن بيني وبينه هو صدقة حميّة. ولقد كان لا يزيد

قتل اليزافيتا تلك، وإنما هو قتلها... مصادفة... لقد كان ي يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة في البيت... وجاء... فإذا باليزافيتا... وعندئذ... قتلها هي أيضاً.

وانقضت دقة أخرى مروعة. كان كل منهما ينظر في الآخر.

سألها بفترة وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس:

- ألم تحزري إذا؟

همست صونيا تقول بصوت لا يكاد يُدرك:

- لـ... لا... لـ...

- انظري فيّ وفكري!

فما كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غزاه إحساس مألف جمد قلبه. نظر إليها فكأنما هو يرى في وجهها ملامح وجه اليزافيتا. وتذكر تذكرةً واضحاً متميزةً تعبر وجه اليزافيتا في اللحظة التي اقترب فيها منها مشهراً فأسه، فتراجع عن الحائط واضعة يديها أمامها، كالأطفال الصغار حين يخافون فيثبتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكون. كذلك كان شأن صونيا في تلك اللحظة. لقد تأملته بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها، وبذلك العجز نفسه، وبذلك الارتياح ذاته، ثم رفعت يدها اليسرى فلمست صدره بأطراف أصابعها في رفق، ونهضت عن السرير ببطء، وابتعدت عنه رويداً رويداً، وهي تحدق إليه مزيداً من التحديق. وارتسم هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف، ارتسم هو نفسه تماماً. وأخذ ينظر إليها وهو يبتسم ابتسامة «الأطفال» تلك نفسها تقريباً.

وهمس يسألها أخيراً:

- هل حزرت؟

قالت صونيا مرتابةً وهي تشقق شهقة رهيبة:

- يا رب!

وخارت قواها، فسقطت على السرير دافنة وجهها في الوسادة. ولكنها عادت تنهض بعد لحظة، واقتربت منه، وتناولت يديه، وضغطتهما بأصابعها النحيلة بقوة. ثم استأنفت التحديق إليه. كانت تريد بهذه النظرة الأخيرة اليائسة أن تلتقط شيئاً من أمل ولو أمل ضعيف. ولكن توقعها كان باطلأ. لم يبق أي شك. نعم، ذلك هو الأمر! وحتى في المستقبل، حين ستنتحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة، سيبدو لها غريباً عجيباً: لماذا رأت على هذا النحو، دفعة واحدة، أنه لم يبق مجال لأي شك؟ ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل، ومع ذلك فإنها ما إن قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست هذا الأمر نفسه حقاً.

قال لها راسكولنيكوف متسللاً في ألم:

- كفى يا صونيا، كفى! لا تعذبني!

لم يكن قد قدر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها، ولكن على هذا النحو إنما تم الاعتراف.

وكأنما خرجت صونيا عن طورها، ووثبت، ولوت يديها، ومضت إلى وسط الغرفة. ولكنها سرعان ما عادت إلى قربه، فجلست بجانبه حتى ليكاد كتفها يلتصق بكتفه. وكان فكرة مباغتها قد ومضت في ذهنها، فإذا هي ترتعش فجأة، وتطلق صرخة، وترتمي راكعة أمام راسكولنيكوف، لا تدري هي نفسها لماذا!

قالت بصوت يائس:

- ماذا فعلت؟ ماذا فعلت بنفسك؟

وثبت وارتمت على عنقه وضمته إليها ضمًّا قوياً.

بدرت من راسكولنيكوف حركة تهقر، ونظر إليها وهو يبتسم ابتسامة حزينة.

- ما أغربك يا صونيا! أتعانقيني بعد أن قلت لك ذلك الأمر؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين!

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته»

- لا، لا، ليس في العالم كله الآن رجل أشقي منك.  
وأجهشت تبكي فجأة.

إن عاطفة يجهلها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة تفرقه الآن كموجة غامرة، وتملاً قلبه رقة وحناناً. لم يحاول راسكولنيكوف أن يقاوم هذه العاطفة. وانجست من عينيه دمعتان ظلتا معلقتين بأهدابه.

سألها وهو ينظر إليها في أمل تقريرًا:

- ألن تركيني إذاً يا صونيا؟

فصاحت صونيا تجيئه:

- لا، لن، لن أتركك أينما تذهب! سأتبعك، سأتبعك إلى أي مكان! آه... يا رب!... آه... ما أشقاني!... لماذا، لماذا لم أعرفك من قبل؟ لماذا لم تأتِ قبل هذا الأوان؟ آه... يا رب!...  
- لكنني أتيت مع ذلك.

- الآن أتيت! ولكن ما العمل الآن؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهي تعانقه من جديد:

- معاً، معاً! سوف أذهب معك إلى الأشغال الشاقة!

أصابت هذه الكلمات قلبه، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التي تشتمل على كره وتکاد تشتمل على تعالي وكبراءة.  
- ربما كنت يا صونيا لا أحب أن أذهب إلى الأشغال الشاقة.

ألقت عليه صونيا نظرة سريعة. وبعد العاطفة الأولى التي غزت نفسها وهي عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الإنسان الشقي المعذب، عادت تستولي عليها فكرة القتل الرهيبة المروعة. إن لهجة كلماته

الأخيرة، وهي لهجة تبدلت على حين فجأة، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح. ونظرت إليه مشدوهة. كانت لا تعرف، بعدُ، شيئاً. كانت لا تعرف لماذا حصل هذا أو كيف حصل. والآن تنبجس هذه الأسئلة جميعها في شعورها دفعة واحدة. ومرة أخرى عادت تشكي: «أيكون هو قاتلاً؟ مستحيل... مستحيل!» ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول، كأنها لم تعد إلى رشدتها:

- ولكن ما هذا؟ أين أنا؟ كيف، كيف أمكنك وأنت ما أنت... أن تعزم أمرك على تلك الفعلة؟ لماذا؟  
أجاب بلهجة مرهقة، وكأنها ملتاعة:  
- لأسرق. كفى يا صونيا!

لبثت صونيا متجمدة خلال لحظة، ولكنها هتفت تقول فجأة:  
- كنت جائعاً! فعلت ذلك لتساعد أمك، أليس كذلك؟  
تمتم يقول وهو يشيح وجهه ويخفض رأسه:  
- لا يا صونيا، لا... لم أكن جائعاً إلى ذلك الحد. الواقع أنني كنت أريد أن أساعد أمي... ولكن... هذا أيضاً ليس صحيحاً كل الصحة... لا تعذبني يا صونيا.

ضمت صونيا يديها إحداهما إلى الأخرى. وقالت:  
- ولكن هل يمكن، هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً؟ رباه!  
أهذه هي الحقيقة؟ من ذا الذي يمكن أن يصدقها؟ وكيف، كيف يعقل أن تقتل لتسرق، أنت الذي تعطي آخر ما تملك؟  
ثم صاحت تقول فجأة:

- وذلك المال الذي قدمته إلى كاترينا ايفانوفنا... وذلك المال...  
يا رب! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً...  
قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً:

- لا يا صونيا... اطمئني! ذلك المال إنما أرسلته إلى أمي بواسطة تاجر، وقد تلقيته أثناء مرضي، في ذلك اليوم نفسه الذي أعطيته أمك... رازوميخين يعرف هذا... هو الذي قبضه نيابةً عنِي... كان ذلك المال مالي أنا، مالي أنا حقاً.

كانت صونيا تصغي إليه حائرةً، جاهدةً بكل قواها أن تفهم.

وابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حالمه:

- أما المال الآخر... فإنني لا أعلم هل له وجود. لقد انتزعت من عنقها... محفظة نقود من جلد... محفظة نقود ملأى، ممحشوة، لكنني لم أفتحها... أما الأشياء الأخرى... أزرار الأكمام وسلسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود في آن واحد، ومضيت أدفن ذلك كله في فناء منزل بشارع ف... ودفتها تحت صخرة... في الصباح التالي وما يزال كل شيء هناك...

كانت صونيا تصغي بانتباه.

- ولكن كيف تقول إنك قتلت «التسرق»، في حين أنك لم تستول على شيء؟

كذلك سأله صونيا بسرعة شديدة، محاولةً أن تشتبث بهذه القصة.

قال راسكولنيكوف شارد الذهن:

- لا أدرى... إنني لم أقرر بعدُ أستولي على ذلك المال أم لا... ثم أضاف فجأة وكأنه قد عاد إلى وعيه، بينما ظهرت على شفتيه ابتسامة سريعة ضعيفة:

- يا له من سخف، هذا الكلام الذي قلته الآن، هه؟

ووأوضت في ذهن صونيا فكره: «ألا يمكن أن يكون مجنوناً»، ولكنها أسرعت تبذر تلك الفكرة. لا، إن في الأمر شيئاً آخر، ولكنها لا تفهمه، لا تفهمه البتة.

قال راسكولنيكوف فجأة بما يشبه الإلهام:

- هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن؟

وأردف يقول مشدداً على كل كلمة من كلماته، ملقياً نظرات ملغزة

رغم أنها صادقة:

- لو أتني لم أقتلها إلا بداعف الجوع، فلربما كنت الآن... سعيداً!

اعلمي هذا!

وهتف يقول بعد لحظة بشيء من اليأس في صوته:

- ولكن فيم يعنيك أن أعترف بأنني أخطأت؟ فيم يفيدك أن تنتصرني

عليَّ هذا الانتصار الأبله؟ آه يا صونيا... أمن أجل هذا سعيت إليك؟!

أرادت صونيا مرة أخرى أن تقول شيئاً، ولكنها لزالت الصمت.

قال راسكولنيكوف:

- إذا كنت قد ناديتك أمس فلأنه لم يبق لدى أحد غيرك.

سألته صونيا: - ناديتني إلى أين؟

- ما ناديتك لتقتلي أو لتسرقي. اطمئني. ما ناديتك من أجل هذا

(كذلك ردَّ وهو يبتسم ابتسامة مرة)، فنحن مختلفان أحدهنا عن الآخر

اختلافاً كبيراً. هل تعلمين يا صونيا أنني لم أدرك إلا الآن إلى أين

ناديتك أمس. حين ناديتك أمس، لم أكن أعرف إلى أين أنا ناديك.

والحقيقة أنني ناديتك لتحقيق هدف واحد، الحقيقة أنني سعيت إليك

لغرض واحد: هو أن لا تتركيني. قولي: أترضين أن لا تتركييني يا

صونيا؟

شدت صونيا على يديه.

وهتف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية اليأس:

«المَاذَا، لِمَاذَا ذَكَرْتُ لَهَا الْأَمْرَ؟ لِمَاذَا كَشَفْتُ لَهَا عَنِ الْحَقِيقَةِ؟».

قال ذلك ونظر إليها شاعراً بعذاب لا نهاية له. وتتابع كلامه يقول:

- هاًنت ذى تنتظرين مني شروحاً وتفسيرات يا صونيا. أنت هنا تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات. إنني أرى ذلك. ولكن ما عسانى أقول لك؟ إنك لن تفهمي من الأمر شيئاً. ولن تزیدي على أن تتألمى بسبي! وأنت الآن تبكين، وتعانقيني من جديد. لماذا تعانقيني؟ لأنني لم أستطع أن أحتمل العباء، فجئت أتخفف منه باللقائه على غيري؟ «تألمى، تألمى أنت أيضاً، فذلك يخفف عنى أنا»، ذلك هو لسان حالى. أفتستطيعين أن تحبى وغداً كهذا الوغد؟

هفت صونيا تسأله:

- ولكن ألسنت تتألم أنت أيضاً؟

ومرة أخرى غمرته تلك العاطفة نفسها فرق قلبها لحظة قال:

- صونيا، إن لي قلباً شريراً، انتبهي إلى هذا، فيضيء لك أموراً كثيرة. ولأنني شرير إنما جئت أيضاً. هناك أشخاص كان يمكن أن لا يجيئوا. أما أنا فجبان... جبان!.. ولكن... لا ضير!.. ليس هذا هو الأمر الهام. وإنما على الآن أن أتكلم، ولست أدرى بمبدأ.

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً. ثم هتف يقول من جديد:

- هيه! نحن مختلفان أحدهنا عن الآخر اختلافاً تماماً! مستحيل أن نتفاهم! لماذا، لماذا جئت؟ لن أغفر هذا النفسي أبداً!

صاحت صونيا تقول:

- بل لقد أحسنت إذ جئت! الأفضل أن أعرف! ذلك أفضل كثيراً.

نظر إليها راسكولنيكوف بآلم. ثم قال كمن يتبع فكرة:

- نعم، هكذا جرت الأمور، هكذا جرت حقاً. اسمعي كيف جرت: لقد أردت أن أصبح نابوليون، ومن أجل ذلك إنما قلت. فهل فهمت الآن؟..

دمدت صونيا تقول بصوت خجول وسذاجة واضحة:

- لا... ولكن تكلم، تكلم، فسوف أفهم، فسوف أفهم كل شيء في أعماق نفسي...  
 بذلك طالبته صونيا ضارعةً متولدة.  
 قال راسكولنيكوف:  
 - سوف تفهمين؟ طيب... سترى.  
 وصمت، وفكّر ملياً. ثم قال:

- إليك الأمر! لقد أقيمت على نفسي في ذات يوم هذا السؤال: ما عسى كان يحدث لو أن نابوليـون مثلاً قد وجد في مكانـي ، ولم يكن أمامـه في بداية حـيـاة المـجـد الذي حقـقه لا تـولـون ولا مـصـر ولا مـمـر مـونـبلـان<sup>(48)</sup> ، وإنـما كان أمـامـهـ بـدـلـاًـ من جـمـيعـ هـذـهـ الأـشـيـاءـ العـظـيمـةـ الفـخـمـةـ الضـخـمـةـ عـجـوزـ حـقـيرـةـ شـرـيرـةـ تـافـهـةـ مـرـابـيـةـ يـحـبـ أـنـ يـقـتـلـهاـ لـيـسـتـوـلـيـ عـلـىـ المـالـ الـذـيـ تـخـبـئـهـ فـيـ صـنـدـوقـهـ (ـفـيـ سـبـيلـ تـحـقـيقـ رـسـالـتـهـ طـبـعـاًـ،ـ هـلـ تـفـهـمـينـ؟ـ نـعـمـ،ـ أـكـانـ يـعـزـمـ أـمـرـهـ عـلـىـ أـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ إـذـاـ لـمـ يـعـرـضـ لـهـ أـيـ مـخـرـجـ آـخـرـ؟ـ أـمـاـ كـانـ سـيـشـعـرـ بـشـيـءـ مـنـ الـحـيـاءـ وـالـخـجلـ لـأـنـ فـعـلـاًـ كـهـذـاـ فـعـلـ خـالـ حـقـاًـ مـنـ الـفـخـامـةـ وـالـضـخـامـةـ...ـ نـاهـيـكـ عـنـ الـخـطـيـئـةـ؟ـ أـوـكـدـ لـكـ أـنـ هـذـاـ «ـالـسـؤـالـ»ـ قـدـ أـفـضـلـ مـضـجـعـيـ مـدـ طـوـيـلـةـ،ـ إـلـىـ أـنـ أـدـرـكـتـ أـخـيـراًـ (ـعـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ)ـ وـقـدـ أـشـعـرـنـيـ هـذـاـ الإـدـرـاكـ بـالـخـزـيـ أـنـ نـابـولـيـونـ مـاـ كـانـ لـهـ أـنـ يـحـسـ بـأـيـسـرـ خـجـلـ مـنـ هـذـاـ فـعـلـ،ـ بـلـ وـمـاـ كـانـ لـيـخـطـرـ بـيـالـهـ فـيـ أـيـةـ لـحظـةـ مـنـ الـلحـظـاتـ أـنـ هـذـاـ فـعـلـ قـدـ تـعـوزـهـ الـعـظـمـةـ وـالـرـفـعـةـ،ـ بـلـ وـمـاـ كـانـ لـهـ أـنـ يـرـىـ مـاـ نـوـعـ الـعـارـ الـذـيـ يـمـكـنـ أـنـ يـشـتـملـ عـلـيـهـ هـذـاـ فـعـلـ...ـ وـلـاشـكـ فـيـ أـنـهـ،ـ إـذـاـ لـمـ يـعـرـضـ لـهـ أـيـ حلـ آـخـرـ،ـ كـانـ سـيـقـتـلـ الـعـجـوزـ دـوـنـ تـرـدـدـ وـدـوـنـ تـفـكـيرـ.ـ هـكـذـاـ خـرـجـتـ أـنـاـ مـنـ التـرـدـدـ بـيـنـ الـإـقـادـ وـالـإـحـجـامـ،ـ فـقـتـلـتـ...ـ مـقـتـدـيـاًـ بـذـلـكـ الرـجـلـ الـذـيـ هوـ «ـحـجـةـ»ـ.ـ نـعـمـ،ـ عـلـىـ ذـلـكـ النـحـوـ إـنـمـاـ جـرـتـ الـأـمـورـ.ـ أـيـبـدـوـ لـكـ هـذـاـ سـخـيفـاًـ مـضـحـكـاًـ؟ـ نـعـمـ يـاـ صـوـنـياـ،ـ لـعـلـ أـسـخـفـ مـاـ فـيـ الـقـضـيـةـ أـنـ الـأـمـورـ قـدـ جـرـتـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ فـعـلـاًـ!

ولكن صونيا لم ترى في هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً.وها هي ذي  
تسأله بصوت فيه مزيد من الخجل والوجل، بصوت لا يكاد يُسمع:  
- بل حدثني... رأساً... مباشرة... دون أن تضرب أمثلة!

فالتفت راسكولنيكوف نحوها، ونظر إليها بحزن، وتناول يديها، ثم  
قال لها:

- أنت على حق يا صونيا. ما ذلك كله إلا غباء وثرة! فاسمعي:  
أنت تعرفين أن أمي كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً. وأختي التي  
نالت قسطاً حسناً من التعليم بالمصادفة اضطررت أن تعيش حياة خاملة  
كمربية فكنت أنا أملهم الوحيد. وكنت أتمم دراستي، لكنني وقد  
أصبحت لا أستطيع سد حاجاتي اضطررت أن أترك الجامعة. وهبّيني  
كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنين عشرة سنة (في  
أحسن الظنون) فكل ما كان يجوز لي أن آمله هو أن أصبح أستاذًا أو  
موظفاً من الموظفين يتتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان  
راسكولنيكوف كمن يلقى درساً محفوظاً). وفي أثناء ذلك تكون أمي قد  
أذابتها الهموم والأحزان، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها.  
أما أختي فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً. ولماذا أخفق  
في حياتي هذا الإخفاق، وأمر بكل شيء مروراً عابراً، وأنسى أمي،  
واحتمل الإهانات التي تنزل بأختي؟ لماذا؟ في سبيل ماذا؟ في سبيل أن  
أبني أسرة جديدة بعد أن أدفن أمي وأختي، فتكون لي زوجة ويكون لي  
أولاد، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال، بلا لقمة خبز؟ لذلك قررت أن  
أقف على المال الذي سأستولى عليه من العجوز، قررت أن أنفقه على  
دراستي، وعلى خطواتي الأولى في الحياة عند التخرج من الجامعة  
(دون أن أعدّ أمي). وكنت أريد أن أفعل كل شيء بمقاييس ضخم،  
أن أفعل كل شيء بطريقة جذرية، فأدخل حياة جديدة، وأضمن لنفسي  
وضعاً مستقلأً كل الاستقلال... هذا كل شيء!.. ولقد أساءت صنعاً إذ  
قتلت العجوز طبعاً. ولكن هيا، كفى هذا!

أتم راسكولنيكوف شروحه هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد. كان يبدو مرهقاً، وكان خافضاً رأسه.

صاحت صونيا تقول حزينة:

- لا، ليس هذا هو الأمر، ليس هذا هو الأمر، لا، هل هذا معقول؟.. ليس هذا، ليس هذا...

- أرأيت؟ تقولين بنفسك إن الأمر ليس هو هذا. ومع ذلك فقد قلت لك كل شيء، وحدثتك صادقاً مخلصاً. تلك هي الحقيقة!

- ولكن أيّ حقيقة هنا؟ رباه!..

- إنني لم أقتل إلا قملة يا صونيا، قملة قذرة، لا فائدة منها، ضارّ، مسيئة!

- أنت قملة وهي مخلوقة إنسانية؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي على صونيا نظرة غريبة:

- ولكنني أعرف أنها ليست قملة!

ثم أضاف:

- ثم إنني أكذب يا صونيا، إنني أكذب منذ زمن طويل. أيضاً ليس هذا هو الأمر! أنت على حق! لقد كان لفعالي بواعث غير هذه البواعث، غيرها تماماً. إنني لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا... أنا أشعر الآن بصداع شديد.

كانت عينا راسكولنيكوف تحرقان بحرارة محمومة. كان كمن يهزمي. وكانت تطوف بشفتيه ابتسامة قلقة. ومن خلال اهتياجه، كان يلوح إعياء رهيب. أدركت صونيا مدى ما كان يقتاسي من عذاب. وأخذ الدوار يستولي عليها هي أيضاً. ثم إنه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً: صحيح أن المرء يستطيع أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء المفهومة، ولكن: «كيف؟ كيف؟ يا رب!» ولوت صونيا يديها حزناً ويأساً.

واستأنف راسكولينيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة كأن أفكاره قد جرت في مجرى آخر على حين بعثة فصدمته وأيقظت نشاطه. فقال:

- لا يا صونيا، ليس هذا هو الأمر. ليس هو هذا... وإنما عليك أن تفترضي (نعم افترضي هذا، فهو أصح) أنني إنسان غيور، حسود، منحط، شرير، حقدود، يحب الانتقام، مهياً... للجنون (أقول كل شيء دفعه واحدة ما دمت قد بدأت؛ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن قالوا بذلك وأنا لاحظت...) لقد ذكرت لك منذ هنีهة أن مواردي كانت لا تتيح لي البقاء بالجامعة. ولكن هل تعلمين أنني ربما كان يمكنني مع ذلك أن أتابع دراستي؟ كان يمكن أن ترسل إليَّ أمي ما أنا في حاجة إليه، وكان يمكنني أيضاً أن أجني بالعمل ما يكفيني طعاماً وكساء. لا شك في أنني كنت أستطيع ذلك. كان يمكنني أن أعطى دروساً، فأتقاضى خمسين كوباكاً أجرأً عن كل درس. وهذا رازوميخين! لقد كان يجيء من العمل رزقاً طيباً! ولكنني شعرت بسخط ورفضت أن أعمل. نعم شعرت بسخط (هذه هي الكلمة الصحيحة). فلبدت في ركني كما يلبد عنكبوت. لقد جئت إلى مسكنى الحقير فرأيته. ولكن هل تعلمين يا صونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر؟ آه... لشدَّ ما كنت أكره ذلك المسكن الحقير! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه. عن عمد إنما كنت لا أريد أن أتركه. كنت أقضي فيه أياماً بكاملها، لا أريد أن أعمل، بل وحتى لا أريد أن آكل. كنت أظل راقداً طوال الوقت. فإن جاءتني ناستاسيا بطعم أكلته، وإن لم تجئني بشيء بقيت صائماً لا أطالب بطعم، غضاً وحنقاً! حتى إذا هبط الليل بقيت في ظلام دامس لأنني لا أملك ما استرضي به. كنت أؤثر أن أبقى في ذلك الظلام الحالك على أن أعمل في سبيل أن أتمكن من شراء شموع. وبعثت كتبي بدلاً من أن أدرس. ودفاتري على المائدة غطتها طبقة من الغبار سُمِّكها سُمِّك إصبع. وما يزال هذا الغبار موجوداً إلى الآن. كنت أؤثر أن أبقى راقداً أفكراً وأتأمل. كنت لا أزيد على أن أفك

وأن أسترسل في الأحلام. لا داعي إلى القول إن تلك الأحلام كانت غريبة عجيبة، وكانت متغيرةً متقلبةً! ولكن بدأ يبدو لي عندئذ أن... لا، لا، ليس هذا هو الأمر! إنني لا أحكي الأشياء كما حدثت. الواقع أنني كنت لا أنفك أتساءل حينذاك، لعلمي بأن الناس أغبياء، لماذا أنا غبي مثلهم لا أحاول أن أكون أذكي منهم؟ وأدركت بعد ذلك، يا صونيا، أنه إذا وجب انتظار اللحظة التي يصبح فيها الناس أذكياء، فلا بد من إضاعة وقت طويل. ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً، فالناس لن يتغيروا في يوم من الأيام، وما من أحدٍ يملك أن يغيرهم، فلا داعي إلى إضاعة الوقت في محاولة ذلك. نعم، تلك هي حالهم، وذلك هو قانونهم... نعم... القانون يا صونيا، القانون... وأنني لأعلم الآن يا صونيا أن من كان قوي النفس والعقل، فذلك هو سيدهم، ذلك هو مولاهم! من كان يملك جرأة كبيرة، فذلك هو الذي له الغلبة عليهم! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره، فذلك هو عندهم المشرع! من كان يتمتع بأكبر جسارة، فذلك هو الذي يهبون له جميع الحقوق! هذا ما كان من قديم الزمان، وهذا ما سيجيئ إلى آخر الدهر! الأعمى وحده لا يبصر هذه الحقيقة!

لم يهتم راسكولينيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا، رغم أنه كان لا ينفك ينظر إليها أثناء كلامه. لقد استولت عليه الحمى. وكان يحتاجه نوع من اهتياج مظلم قاتم (حقاً، أنه لم يتحدث إلى أي إنسان منذ مدة طويلة). وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة أصبحت إيمانه وأصبحت قانونه.

وتابع راسكولينيكوف يقول بحماسة:

- لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب إلا لمن يجرؤ أن يطأطئ ليتناولها. تكفي الجرأة: الجرأة كل شيء! ووافقتني عندئذ، لأول مرة في حياتي، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن في يوم

من الايام لا أحد! لقد بدا لي واضحًا وضوح النهار، على حين فجأة، أنه ما من أحد قد تجرأ ولا يتجرأ، حين رأى بطلان العالم، أن يمسك الشيطان من ذيله ببساطة، فيرسله إلى جهنم! أما أنا، أما أنا... فقد أردت أن أجرب فقتلت! إنني حين قتلت لم أرد يا صونيا إلا أن أجرب! ذلك هو السبب الذي جعلني أقتل!

صاحت صونيا تقول له متوللة وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

- اسكت، اسكت! لقد ابتعدت عن الله، فضربيك الله وأسلمك لإبليس... .

- قولي لي يا صونيا: حين كنت أبقي راقدًا في ظلام غرفتي أحذر أنواع الخواطر والأفكار، فهل كان إبليس هو الذي يغويوني حينذاك! قوله!

- اسكت! لا تضحك أيها المجدف! إنك لا تفهم شيئاً، لا تفهم شيئاً! رباه! إنه لا يفهم شيئاً!

- اسكتي يا صونيا، أنا لا أضحك البتة. أنا نفسي أعلم أن إبليس هو الذي كان يجرئني... .

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردد باللحاج عابس حزين:

- اسكتي يا صونيا، اسكتي! أنا أعلم كل شيء! لقد قلبت الأمر بعقلي مراراً وهمست لنفسي بهذا كله أثناء اضطجاعي في الظلام... . لقد ناقشت هذا كله في قرار نفسي قبل الآن بأدق التفاصيل! أنا أعلم كل شيء، كل شيء! وهذه الثرثرة قد ملأت نفسي بالسأم والضجر إلى حد أنني أردت أن أنسى، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا، وأن أكف عن الشرارة. هل تظنين حقاً أنني قد اندفعت إلى ذلك الأمر منكس الرأس كإنسان أبله؟ إن العقل هو الذي كان يقودني، وذلك بعينه هو ما ضيئعني! هل يمكن حقاً أن تظنين أنني كنت أجهل مثلاً أن مجرد إلقاءي

هذا السؤال : «هل لي حق في السلطة أم لا؟» كان يبرهن على أنني لا أملك ذلك الحق؟ أو هل تظنين أنني كنت أجهل أن إلقاء هذا السؤال : «هل الإنسان قملة؟» إنما يعني في الواقع أن الإنسان ليس قملة في نظري أنا ، وأنه ليس قملة إلا في نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقي على نفسه ذلك السؤال ، وإنما هو يمضي إلى هدفه قُدُّماً لا يلوى على شيء؟ لشن ظللت أعدُّب نفسي طوال تلك الأيام كلها بالتساؤل عن نابوليون : أكان يقتل العجوز أم لا ، فإن معنى ذلك أنني كنتأشعر شعوراً واضحاً بأنني لست نابوليون . ذلك هو العذاب الذي عانيته يا صونيا ، والذي أردت أن أتخلص منه دفعَةً واحدةً . لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية ، أردت القول لنفسي ، لنفسي أنا وحدي ! أنني حين فعلت ما فعلت لم أثأر حتى أن أكذب على نفسي : أنا لم أقتل في سبيل أن أساعد أمي ! لا ! لا . ولا في سبيل أن أصبح محسناً إلى الإنسانية بعد أن أملك وسائل الإحسان إليها . لا ، وإنما أنا قتلت لنفسي ، لنفسي وحدي ! وفي تلك اللحظة لم يكن يعنيني كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين إلى الإنسانية ، أم أنني سوف أقضي حياتي كالعنكبوت أصطاد غيري في نسيج خيوطي وأمتصن قواه الحياة ! ولا ولا كان المال هو ما أحتج إليه ذلك الاحتياج كله . . . وإنما كان احتياجي إلى شيء آخر . . . أنا أعرف هذا الآن ! افهميني يا صونيا : لو كان عليَّ أن أعيد السير في هذا الطريق نفسه ، فقد لا أقتل . غير أن هناك شيئاً كان يغريني بمعرفته . كان هناك شيء يرفع ذراعي . كان عليَّ أن أعرف عندهـ، بأقصى سرعة ممكنة ، أنا قملة كسائر الناس ، أم أنا إنسان ؟ أأنا أستطيع أن أتخطى الحاجز ، أم أنا لن أستطيع ذلك ؟ أأنا أجرؤ أن أطأطئ فأتناول هذه القدرة ، أم أنا لن أجرب ؟ أأنا مخلوق مرتعش أم أنا أملك الحق . . .

- الحق في القتل؟ تملك الحق في القتل؟

كذلك قالت صونيا وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى .

صاحب راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يعرض عليها:

- هيء! صونيا...

ولكنه عدل عن ذلك، ولزم صمتاً فيه احتقار. ثم أردف يقول:

- لا تقاطعني يا صونيا! لقد أردت أن أبرهن لك على شيء واحد: هو أن إبليس قد جرئني في أول الأمر، ثم لم يفهمني إلا بعد ذلك أنني لم يكن من حقي أن أقترف الفعل الذي اقترفته، لأنني أنا نفسي قملة كسائر الناس. لقد سخر مني واستهزأ بي، ولهذا السبب إنما جئت إليك الآن، فأحسني وفادة ضيفك يا صونيا! أكنت أجيء إليك لولا أنني قملة؟ اسمعي: إنني حين ذهبت إلى العجوز لم أكن أريد إلا أن أحارو  
تجربة... فاعلمي هذا!

- وقتلت! قتلتها!...

- لكن كيف قتلت؟ أهكذا يتذرّب المرء الأمور من أجل أن يقتل؟ سأروي لك في ذات يوم كيف ذهبت إلى هناك... هل العجوز قتلت؟ لا بل أنا قتلت نفسي! لقد أجهزت على نفسي، دفعه واحدة، وإلى الأبد! أما العجوز فإن إبليس هو الذي قتلها لا أنا!

كذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأة وقد أصبح فريسة قلق لا يغالب:

- كفى كفى يا صونيا، دعيني! دعيني!

وضع كوعيه على ركبتيه، وشدَّ رأسه بين يديه ككمasha.

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم، فأفلت من لسانها قولها:

- ما أشدُّ ألمك وعذابك!

فسألها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس:

- وما العمل الآن؟ قوله...

صاحت وهي تندفع من مكانها وقد سطعت عيناهَا فجأة بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممتلثتين بالدموع:

- ما العمل؟

ثم أضافت وهي تمسكه من كتفه، فينهض هو من مكانه وينظر إليها بما يشبه الذهول دهشة:

- أذهب فوراً، في هذه اللحظة نفسها، أذهب إلى مفرق طرق، فاسجد على الأرض أولاً، وقبلها هي التي قد دئستها، واتجه إلى جهات العالم الأربع جهةً بعد جهة، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك: «لقد قتلت!». عندئذ سيرد إليك الإله الحياة. أذهب؟ أذهب؟

كذلك سأله مرتعشة من رأسها إلى قدميها، لأن نوبة عصبية قد ألمت بها. وأمسكت يديه، فضغطتهما بيديها ضغطاً قوياً، وتأملته بنظرة حارة.

دخل راسكونيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة. وسألها مكفار الوجه:

- أتريددين إذاً أن أذهب إلى الأشغال الشاقة يا صونيا؟ يجب أن أشي بمنفي، أليس كذلك؟

- الشيء الذي يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتکفر عن خطيتك وتغدو نفسك. ذلك هو ما يجب!

- لا لن أذهب إليهم يا صونيا!  
صاحب صونيا تأسأله:

- فكيف يكون في وسعك أن تحيا إذاً؟ كيف يكون في وسعك أن تحيا؟ أما يزال هذا ممكناً؟ عجيب! كيف يكون في إمكانك أن تظل تكلم أمك وأختك؟ آه... (ما عسى تصيران إليه؟ ما عسى تصيران إليه كلتاهم؟) ولكن ماذا أقول؟ لقد تركت أمك وأختك وانتهى الأمر! لقد تركتهما، تركتهما! آه... يا رب! إذن أنت تدرك هذا كله بنفسك!

كيف، نعم، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر؟ ما عسى تصير إليه الآن؟

قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق:

- لا تكوني طفلة يا صونيا! ما ذنبي في حقهم؟ لماذا أشي بمنفسي إليهم؟ ما عسانى قاتلاً لهم؟ لس هذا كله إلا سراباً... هم أنفسهم يقتلون ملابين البشر، ثم يستمدون من ذلك مجدًا! هم أوغاد وجبناء يا صونيا! لا، لن أذهب! ثم لماذا أقول لهم؟ أأقول لهم إنني قتلت لكنني لم أجرب أن آخذ المال وإنما خبأته تحت صخرة؟ (كذلك أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة). ولكنهم سيضحكون عندئذ عليّ، وسيعدونني رجلاً أبله، لأنني لم أجن من فعلتي نفعاً... سيعدونني أبله وجباناً! لن يفهموا شيئاً يا صونيا، لن يفهموا شيئاً، إنهم غير جديرين بأن يفهموا شيئاً... فلماذا أذهب إليهم فأسلمهم نفسي؟ لا، لن أذهب! لا تكوني طفلة يا صونيا!

قالت صونيا مرددة متسللةً مادةً نحوه يديها:

- لن تكون حياتك بعد الآن إلا عذاباً متصلةً طويلاً، عذاباً متصلةً طويلاً!

قال راسكولنيكوف قاتم الوجه شارد الذهن:

- لعلني ظلمت نفسي. لعلني ما زلت إنساناً لا قملة. لعلني تسرعت في اتهام نفسي... سوف أكافح مزيداً من الكفاح...  
وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعاليٌ وكبرباء.

قالت صونيا:

- أتحمل ثقلاً كهذا التقل؟ طوال حياتك، طوال حياتك؟

فأجابها راسكولنيكوف كالوح الهيبة شارد اللب:

- سوف أعتاد ذلك!

ثم أضاف يقول بعد دقيقة :

- اسمعي ! كفى بكاء ! آن لي أن أصل من هذا كله إلى أن أذكر لك الواقع . لقد جئت لأقول لك إنني ملاحق ، إنني مطارد ! ..

صرخت صونيا مرؤعة :

- آه ...

فقال لها راسكولنيكوف :

- لماذا تصرخين ؟ ألم تريدي أنت نفسك أن أذهب إلى الأشغال الشاقة ؟ فما بالك تخافين الآن ؟ على أنني لن أستسلم لهم ، لن أدع لهم أن يقبحوا علي ! سأظل أقارعهم ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بي شيئاً ! إنهم لا يملكون قرائن واقعية . لقد تعرضت أمس لخطر كبير ، فحسبت أنني هلكت . ولكن يبدو أن الأمور قد سُويت اليوم . إن كل دليل من أدلةهم ذو حدين . أعني أن في وسعي أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فأجعله لي لا على ، هل تفهمين ؟ وسأفعل ذلك ... لأنني أصبحت الآن خيراً بمهنتهم ! لكنهم سيسجنوني حتماً ! ولو لا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أو دعوني في السجن منذ اليوم ؛ وما يزال من الجائز جداً أن أُسجن اليوم . ولكن لا ضير يا صونيا ! سأقضى في السجن بعض الوقت ثم يُطلق سراحي ... لأنهم لا يملكون ولن يملكون دليلاً حقيقياً واحداً ، أؤكد لك ذلك ! إن الأدلة التي يملكونها لا تكفي لأن «تلطخ» إنساناً ! ولكن كفى كلاماً الآن ! أنا إنما قلت لك هذا كله لا شيء إلا أن تعلمي ... أما أمي وأختي فسأحاول بطريقه أو بأخرى أن أهدئ رواعيهم وأن أطمئنهم . إن أختي تبدو الآن في منجى من الفاقة والعوز ، وكذلك أمي ... هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك .

ثم عليك بالحذر ! هل تزوريني حين أودع في السجن ؟

- سوف أزورك ، سوف أزورك !

كانا جالسين أحدهما إلى جانب الآخر ، حزينين مهدمين ، كغريقين

وَجَدْ كُلَّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَلَى شَاطِئِ مَقْفَرٍ بَعْدَ عَاصِفَةٍ. كَانَ رَاسْكُولِيْكُوف يَنْظَرُ إِلَى صُونِيَا وَهُوَ يَشْعُرُ شَعوراً وَاضْحَى بِالْحُبِّ الَّذِي تَغْمِرُهُ بِهِ. وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّهُ شَقَّ عَلَى نَفْسِهِ بِلَآلِمِ نَفْسِهِ فَجَأَةً أَنْ يَحْسُسَ بِأَنَّهُ مُحْبُوبٌ إِلَى هَذَا الْحَدِّ. آهٍ! كَمْ كَانَ هَذَا الشَّعُورُ غَامِضاً وَرَهِيْباً!

حِينَ ذَهَبَ إِلَى صُونِيَا كَانَ قَدْ شَعَرَ بِأَنَّهَا أَمْلَهُ الْوَحِيدُ، وَبِأَنَّهَا مَلَادُهُ الْوَحِيدُ. وَكَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَتَخَفَّفَ عَنْهَا مِنْ جُزْءٍ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْأَقْلَى. وَلَكِنَّهَا هُوَ ذَا الْآنِ يَحْسُسُ وَيَدْرُكُ فَجَأَةً، فِي حِينَ مَالَ قَلْبُهَا كَلْهَ إِلَيْهِ، أَنَّهُ أَشْفَى مَا كَانَ مِنْ قَبْلٍ. قَالَ:

- صُونِيَا، الْأَفْضَلُ أَنْ لَا تَجِئِي إِلَيَّ فِي السَّجْنِ.

لَمْ تَجِبْ صُونِيَا، وَكَانَتْ تَبْكِي. وَانْقَضَتْ بَضْعُ دَقَائِقٍ. فَإِذَا هِيَ تَسْأَلُ عَلَى غَيْرِ تَوْقُعٍ، كَانَهَا تَذَكَّرُ شَيْئاً مَا عَلَى حِينَ بَغْتَةٍ:

- هَلْ مَعَكَ صَلَبٌ؟

فَلَمْ يَفْهَمْ السُّؤَالُ فِي أُولَى الْأَمْرِ.

قَالَتْ:

- لَا، لَيْسَ مَعَكَ صَلَبٌ، أَلِيسَ كَذَلِكَ؟ خَذْ، إِلَيْكَ هَذَا الصَّلَبُ، إِنَّهُ مِنْ خَشْبِ السَّرْوِ. مَعِي صَلَبٌ آخَرُ، صَلَبٌ مِنْ نَحْاسٍ، بَقِيَ لِي مِنَ الْبِيزَافِيتَا. لَقَدْ قَمْنَا بِمُبَادِلَةِ، أَنَا وَالْبِيزَافِيتَا: أَعْطَتْنِي صَلَبِيهَا، وَأَعْطَيْتُهَا أَنَا أَيْقُونَتِي الصَّغِيرَةَ. سَأَحْمَلُ الْآنَ صَلَبَ الْبِيزَافِيتَا، وَسَتَحْمِلُ أَنْتَ هَذَا الصَّلَبَ. خَذْهُ... إِنَّهُ صَلَبِيَّ أَنَا! صَلَبِيَّ أَنَا! سَتَأْتِلُمُ مَعًا، فَلنَحْمِلَ إِذْنَ صَلَبِنَا مَعًا!

قَالَ رَاسْكُولِيْكُوف:

- هَاتِي! لَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْعَى إِلَيْهَا.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يُلْبِثْ أَنْ سَحَبَ يَدَهُ.

ثُمَّ أَضَافَ يَقُولُ لِيَهْدِهَا:

- ليس الآن يا صونيا! فيما بعد! ذلك أفضل!

فقالت صونيا تردد بحماسة:

- نعم، نعم، ذلك أفضل، أفضل! سوف نضع الصليب في عنقك حين تساور للتکفير. تجيء إلي، فأضعه في عنقك، ونصلّي معاً، ونسافر معاً... .

في تلك اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات. ونادى صوت مهذب مألهف يسأل:

- هل أستطيع أن أدخل يا صونيا سيميونوفنا؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مذعورة. وظهر في فرجة الباب وجه ليزياتنيكوف الأشقر.

## الفصل الخامس

ليزياتيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحتة .

كان

قال يكلم صونيا :

- جشت لأراك يا صونيا سيميونوفنا .

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة :

- معدنة . كنت أتوقع أن أجده هنا . أقصد لم يخطر بيالي شيء ...  
ما قد تظن ، وإنما أنا قدّرت أن ...

وعاد يكلم صونيا ناسيَا وجود راسكولنيكوف فقال دفعه واحدة :

- جئت كاترينا إيفانوفنا !

أطلقت صونيا صرخة . وتتابع ليزياتيكوف كلامه :

- أو على الأقل ذلك ما يبدو . أصبحنا هناك لا ندرى ماذا يجب أن نعمل . أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذي ذهبت إليه ، ولعلهم ضربوها أيضاً ... أو على الأقل ذلك ما يبدو ... لقد ركضت تسعى إلى الرئيس سيميون زاخارتش<sup>(49)</sup> ، فلم تجده في بيته : كان يتغدى عند جنرال آخر . فذهبت إلى حيث كان يتغدى ... تصوروا ... ذهبت إلى بيت ذلك الجنرال الآخر ... هل تصدقون هذا؟ واستطاعت أن تستدعي الرئيس سيميون زاخارتش ، نعم ، اضطرته أن ينهض عن المائدة ، أو

على الأقل ذلك ما يبدو. وفي وسعكم أن تخيلوا التتمة! لقد طردت طبعاً، لكنها تروي أنها شتمته وأنها رشقته بشيء على رأسه. ذلك جائز جداً. حتى أنتي أستغرب أنهم لم يعتقلاها. وهي الآن تروي هذه القصة لكل من يريدون أن يسمعوها، ومنهم آماليا إيفانوفنا. غير أن من الصعب أن يفهم المرء عليها، من فرط صراخها وتخبطها!.. آه... نعم... هي تقول... هي تصيح قائلة إنها ما دامت قد هجرها جميع الناس، فستأخذ أولادها، وستمضي في الشارع تعزف على أرغن يدوى، وأن أولادها سيعذبون ويرقصون، وأنها ستغنى وترقص هي أيضاً، وأنهم سيستطيعون الصدقات من المرأة، وأنها ستقود الأولاد كل يوم إلى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته، وهكذا «سيعرف الجنرال، على حد تعبيرها، كيف أن أولاداً نبلاء أبوهم موظف محترم يستجدون أكف الناس في الشوارع». وهي تضرب جميع أولادها، والأولاد يبكون. إنها تعلم لينيا أغنية «القرية الصغيرة»<sup>(50)</sup>، وتعلم الصبي الصغير الرقص، وكذلك تعلم الرقص بولينا ميخائيلوفنا. ولقد مزقت ملابسهم، وأخذت تخيط لهم طاقيات مهرجين. إنها تريد أن تحمل طشتاً تنظر عليه كما تنظر على آلة موسيقية. وهي ترفض أن تسمع شيئاً... تصوروا! هل يمكن أن نتركها تفعل هذا!

كان يمكن أن يستمر ليزياتينيكوف في الكلام، ولكن صونيا التي أصعدت إليه وهي تتنفس بمشقة كبيرة تناولت خمارها وقبعتها فجأة، واندفعت إلى خارج الغرفة تنهي ارتداء ثيابها في الطريق. وخرج راسكولنيكوف وراءها، وخرج ليزياتينيكوف وراء راسكولنيكوف.

قال ليزياتينيكوف لراسكولنيكوف عندما أصبحا في الشارع:

- لا شك في أنها فقدت عقلها. لم أرأها أروع صونيا سيميونوفنا، لذلك قلت: «ذلك ما يبدو»، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أي شك في أنها فقدت عقلها. يقال إن هناك درنات تنشأ في أدمة

المصابين بمرض السل ، فتورثهم هذا الجنون ! خسارة أني لا أعرف الطب . على أني حاولت إقناعها ، لكنها لا تريد أن تسمع شيئاً !

- كلمتها عن الدرنات ؟

- لا عن الدرنات تماماً ، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها . لكنني أقول إننا إذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعي إلى البكاء ، فإن هذا الشخص سيكف عن البكاء فوراً . هذا واضح . ماذ؟ أليس من رأيك أنه سيكف عن البكاء؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- ما أسهل الحياة إذا صدق قولك !

- اسمح لي ، اسمح لي ! صحيح أن كاترينا ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا . ولكن هل تعلم أن هناك تجارب جديدة قد أجريت في باريس عن إمكان شفاء المجانين بواسطة الإقناع المنطقي وحده؟ إن أستاذآ من الأساتذة هناك ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، وهو عالم من أكبر العلماء<sup>(51)</sup> ، قد رأى أن في الإمكان شفاء المجانين بهذه الطريقة . والفكرة الأساسية التي جاء بها هي أن المجانين ليس فيهم أي آفة عضوية ، فإنما الجنون ضلال منطقي إن صح التعبير ، أي خطأ في الحكم أو فساد في الرأي . لذلك أخذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج ، فإذا هو ينجح في شفائه شيئاً بعد شيء ، ولكن لا بد لنا أن نعرف بأن نتائج المعالجة يمكن أن تكون موضعأخذ ورد ، ما دام الطبيب قد استعمل في الوقت نفسه حمامات «دوش» ، أو ذلك ما يبدو على الأقل . . .

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الإصغاء منذ مدة . فلما وصل أمام المنزل الذي فيه بيته ، ودع ليبزياتنيكوف بإشارة من رأسه ، وانعطف يدخل بوابة المنزل . فتحير ليبزياتنيكوف ، ونظر حواليه ، ثم تابع طريقه . دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقير ، وهناك وقف يتساءل : «لماذا

جئت؟» وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذي يغطي الجدران، وعلى الغبار الذي يغشى كل مكان، وعلى سريره. وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل، كأن أحداً كان يغرس مسامير.

مضى راسكولنيكوف إلى النافذة، وارتفع على رؤوس أصابع قدميه، وظل يفتش فناء المنزل بانتباه شديد مدة طويلة. ولكن الفنان كان خالياً مقرضاً، وليس يرى المرء أحداً يغرس المسامير. وعلى اليسار، في جناح آخر، كان ثمة نوافذ مفتوحة، تُرى على أفاريزها أصص أزهار، ويرى من خلالها غسيل منشور في الداخل على حبال... لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب. فأشاح عنه، وعاد يجلس على سريره.

إنه لم يشعر في يوم من الأيام، في أيّ يوم من الأيام، بأنه وحيد إلى هذا الحد من الوحيدة. نعم، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا، لا شيء إلا لأنّه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء. تسأله: «لماذا ذهبت أستجديها صدقةً من دموعها؟ ما كانت حاجتي إلى تسميم حياتها؟ يا للدناءة! يا للحقارة!»

وقال فجأة بلهجة جازمة: «سابقى وحيداً. ولن تأتي لتراني في السجن!»

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه، وابتسم ابتسامة غريبة. لقد وافقه فكرة لم تكن في الحسبان، قال يسأل نفسه: «أليس من الجائز أن تكون حالياً في السجن أفضل حقاً؟»

لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف المدة التي قضتها في مسكنه يدير في رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والخواطر الغامضة. ولكنه يعرف أن الباب فتح فجأة، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا. توقفت في أول الأمر وتأملته واقفة في العتبة، كما تأمل هو صونيا منذ قليل. ثم تقدمت وجلست على كرسي أمامه في مكان الأمس

نفسه؛ ونظر إليها صامتاً بنظرة ليست فيها أية فكرة.

قالت دونيا:

- لا تزعل يا أخي، أنا ما جئت إلا لحقيقة!  
كان في وجهها وقار ورصانة، ولكن بغير تجهم أو قسوة. وكانت نظرتها رائقة، صافية، وادعة هادئة. فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت إليه هي أيضاً بحب.

وتابعت الأخت كلامها فقالت:

- روديا، أنا أعلم الآن كل شيء، كل شيء! لقد روی لي دمترى بروكوفتش كل شيء، وشرح لي كل شيء! إنهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غبية كريهة. لقد قال لي دمترى بروكوفتش إنك غير معرض لأى خطر، وقال إنك تخطئ إذ تضخم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة. ولست أشاطره رأيه، فأنا أنهم حق الفهم أن يشير هذا تمردك، وأن يخلف هذا التمرد آثاراً في حياتك كلها. وذلك ما أخشاه حقاً. ولست أحكم على أنك تركتنا، ولا أجرب أن أحكم، فأرجوك أن تغفر لي ما وجهته إليك من لوم. أناأشعر بأنني لو أصابني حزن كحزنك لا بتعذر عن جميع الناس كما تبتعد عنهم أنت. لن أقص هذا الأمر على أمنا، لكنني لن أنفك أحدهما عنك، وسأقول لها على لسانك إنك لن تتأخر في العودة إلينا. لا تقلق عليها، سوف أتولى أنا تهدئتها وطمأنيتها. ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها: زرها ولو مرة واحدة، تذكر أنها أمك. ولقد جئت الآن لأقول لك ( هنا نهضت دونيا): إذا احتجت إلى في أي أمر من الأمور، أو إذا احتجت إلى حياتي... كلها... نادني فاتي! أستودعك الله!

قالت دونيا ذلك، ثم استدارت واتجهت نحو الباب.

أوقفها راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها:

- دونيا! إن رازوميخين هذا، إن دمترى بروكوفتش رازوميخين شاب ممتاز!

احمر وجه دونيا قليلاً، وسألته بعد دقيقة:

- وبعد؟

- وبعد، هو فتى نشيط مجتهد شريف، قادر على أن يحب حباً جماً، حباً صادقاً... أستودعك الله يا دونيا!

احمر وجه دونيا احمراراً شديداً، ثم قالت وقد تنبهت إلى الخطر فجأة:

- ولكن لماذا توصي به هذا التوصيات كلها؟ أترانا نفترق إلى الأبد؟

- لا قيمة لهذا... أستودعك الله!..

قال ذلك، وابتعد عنها، ومضى إلى النافذة. فانتظرت لحظة، ونظرت إليه قلقة، ثم خرجت وقد استولى عليها همٌ وخوف.

لا، إنه لم يشعر نحوها ببرودة في العاطفة، حتى إنه في لحظة من اللحظات (هي اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية في أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها كل شيء، مودعاً إياها، لكنه لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمد إليها يده، وأضاف يحدث نفسه قائلاً: «في المستقبل، قد ترتعش حين تتذكر أنني احتضنتها بذراعي، وقد تقول لنفسها إنني سرت منها قبلتها» وأضاف يتساءل بعد لحظات: «ثم هل يمكنها أن تحتمل اعترافاً كهذا الاعتراف؟ لا،لن تستطيع أن تحتمله. هي من أولئك اللواتي لا يمكنهن أن يتحملن مثل هذه الأشياء».

وفكر في صونيا.

وكان هواء طري يهب من النافذة. وفي الخارج كان الضياء قد خبا سطوعه. فتناول راسكولينيكوف قبعته فجأة وخرج.

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصحية، لا ولا يريد أن يعبأ بها. ولكن جميع تلك الإنذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسية، كان لا بد أن يكون لها آثار. ولthen لم تصرعه الحمى حتى الآن، فلعل مرد

ذلك أن القلق المستمر كان يجعله في حالة تنبه وتيقظ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً.

لبيت يضرب في الأرض على غير هدى. أخذت الشمس تغرب. إنه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً. لم يكن في ذلك الحزن شيء من حدة، وإنما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبيدي، نوع من تنبؤ بجميع السنين التي سوف يقضيها في غم بارد كالصقيع، غم قاتل هو شيء كالأبدية على مساحة من الأرض ليست أكبر من «موطئ قدم». كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الإحساس أقوى ما يكون عند هبوط الليل خاصة.

دمدم يقول متذمراً: «هيأ امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات إن استطعت وأنت تعاني من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفية المرتبطة بغروب الشمس! إن في الإمكان أن تقدوك هذه الحالة لا إلى الاعتراف لصونيا فقط، بل الاعتراف لدونيا أيضاً!»

وسمع أحداً يناديه، فالتفت، فإذا ليزياتننكوف يهرع إليه.

قال ليزياتننكوف:

لقد كنت أبحث عنك! تخيل أنها وضعت مشروعها موضع التنفيذ مقتادة أولادها! ولقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا كثيراً من العناء والمشقة حتى وجدناهم! إنها تقر على مقلة، وتجرب الأولاد أن يغنووا ويرقصوا. والأولاد يبكون. إنهم يتوقفون عند مفارق الطرق وأمام الدكاكين، ووراءهم يجري جمهور كبير غبي. تعال!

سأل راسكولنيكوف قلقاً وهو يجري وراءه:

- وصونيا؟

- فقدت عقلها. لا أقصد أن صونيا سيميونوفنا هي التي فقدت عقلها بل كاترينا ايفانوفنا. وصونيا سيميونوفنا أيضاً على كل حال. ولكن كاترينا ايفانوفنا فقدت عقلها تماماً. نعم، لقد جئت جنوناً كاملاً نهائياً.

ستقاد مع الأولاد إلى الشرطة. هاًئنت ذا ترى الأثر الذي سوف يحدثه هذا. هم الآن على رصيف النهر، قرب جسر س...، غير بعيد عن مسكن صونيا سيميونوفنا، على مسافة خطوتين من هنا.

على الرصيف، غير بعيد عن الجسر، قبل منزل صونيا بعمارتين، كانت تحتشد جمّهرة من الناس فعلاً، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبنات يقفزون ويشبون... .

إن صوت كاترينا ايفانوفنا الأبعَج يُسمع حتى من الجسر. مشهد غريب فعلاً، لا بد أن يشوق المستطلعين المتتسكعين الذي يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء!

كانت كاترينا ايفانوفنا ترتدي ثوبها المهترئ وطالها المصنوع من الجوخ الخفيف، وتضع على رأسها قبعة من قش تستطح وتشوهت. وكانت في حالة جنون مطلق حقاً، وتلهث منهوكة مهدودة القوى. وكان وجهها، الشاحب الهزيل من مرض السل، يعبر عن ألم أقوى من الألم الذي يعبر عنه هذا الوجه عادةً (إن المصدورين يبدون في ضوء الشارع أشد مرضًا مما يبدون مرضى في منازلهم). وكان اهتماجها لا يهدأ، بل يقوى ويستعر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة. فهي تندفع نحو أولادها، فتصرخ فيهم وتقرّعهم وتعلّمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغي لهم أن يرقعوا وأن يغنو وترشح لهم ضرورة ذلك، حتى إذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تصرّبهم؛ ثم هي تهرع إلى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه. فإذا لمحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدي ثياباً لائقة بعض الشيء، أسرعت تشرح له الحالة التي آل إليها «أولاد أسرة نبيلة، بل أسرة أرستقراطية». وإذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوجهين فوراً وأخذت تشارجرهم. وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رؤوسهم، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من

الاستطلاع والفضول إلى المرأة المجنونة وأولادها المرؤعين. والمقالة التي تكلم عنها ليزياتينيكوف لم تكن موجودة، أو أن راسكولنيكوف لم يرها على الأقل، لكن كاترينا ايفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صفقاً بيديها اليابستين، مجبرةً كوليا ولينا على الرقص بينما تغنى بوليا. وكانت تحاول في الوقت نفسه أن تغنى هي أيضاً، ولكن نوبة رهيبة من السعال ما تلبث أن تقطع غناءها، فتحزن عندئذ حزناً شديداً، وتأخذ تشتم المرض وتلعنه، حتى لتبكي حسرة ولوعة. والشيء الذي كان يثير حنقها خاصة إنما هو بكاء كوليا ولينا وذعرهما. وكانت كاترينا ايفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغني الشوارع. فاما الصبي الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطة مع قطعة قماش أحمر فكانها طربوش وعمامة مما يضعه على رؤوسهم الآتراك. وأما لينا فإن كاترينا ايفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً حقيقياً من ثياب مغني الشوارع، قد اقتصرت على أن ألبست رأسها قلنسوة منسوجة بالإبرة من قماش أحمر (بل قل طافية المرحوم سيميون زاخارتش نفسها)، وغرست في القلنسوة بقية ريشة من ريش النعام الأبيض كانت تملكها في الماضي جدة كاترينا ايفانوفنا، وكانت كاترينا ايفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين في صندوق أكثر من تراث الأسرة. وأما بوليا فهي ترتدي ثوبها الذي كانت ترتديه كل يوم، وتدرك أن أمها قد جئت فتنتظر إليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن، ولا تبتعد عنها شبراً واحداً، مخفية دموعها، ملقية على ما حولها نظرات قلقة. كان الشارع والجمهور يثنان في نفسها رعباً هائلاً.

كانت صونيا تسير وراء كاترينا ايفانوفنا باكية، وما تنفك تضرع إليها في كل دقيقة أن ترجع إلى البيت. ولكن كاترينا ايفانوفنا لا تشنى عن عزمها، ولا تلين قناتها، فهي تقول لصونيا صارخةً بصوت متوجل وهي تسعل وتلهث:

- اتركيني يا صونيا، اتركيني! أنت نفسك لا تدررين ماذا تطلبين مني!

أنت طفلة، أنت طفلة! قلت لك إنني لن أرجع إلى تلك الألمانية السُّكِيرَة! ألا فليعلم جميع الناس وبطربسبرج كلها كيف صار إلى استجداء الأكف أولادُ أب نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف، حتى ليتمكن أن يقال إنه مات أثناء أداء واجب وظيفته (القد أفلحت كاترينا ايفانوفنا في أن تخلق لنفسها هذا الوهم وأن تؤمن به إيماناً أعمى)! ألا فلير ذلك الجنرال التافه كلَّ هذا، ألا فليره! أنت حمقاء يا صونيا! ما عسانا نفعل الآن من أجل أن نأكل؟ لقد استغللناك واستثمرناك بما فيه الكفاية! لا أريد هذا بعد الآن! .. روبيون رومانوفتش؟ أهذا أنت؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف، فهرعت إليه) أرجوك أن تُفهم هذه الحمقاء الصغيرة أننا لم يبق لنا أن نفعل شيئاً غير هذا! إن العازفين على أرغن يدوبي يتوصلون إلى جني رزقهم، ونحن سوف يتعرفنا جميع الناس، وسوف يرى جميع الناس أننا أسرة نبيلة مهجورة بائسة، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه، لترىَّن هذا! سذهب كل يوم إلى تحت نوافذه، حتى إذا مرَّ القيسِر جثوت عند قدميه، ودفعت هؤلاء إلى أمام ليراهِم، وهتفت أقول له: «إرحمهم يا أباًنا!». إنه أبو اليتامي، إنه رحيم... سوف يحميهم، لترىَّن أنه سوف يحميهم! أما ذلك الجنرال التافه فسوف... لينيا-tenez! vous droite<sup>(52)</sup>! وأنت يا كوليَا! ارقص من جديد! مالك تبكي! إنه ما يزال يبكي! عجيب! ممَّ أنت خائف أيها الأحمق الصغير؟ ماذا يجب أن أصنع بهم يا روبيون رومانوفتش؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم وبلاهتهم! ما عسانِي صانعة بأولاد كهؤلاء الأولاد؟

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكي هي نفسها (دون أن يوقف هذا سيلَ كلامها المتتدفق الذي لا ينضب) وهي ترىَّه الأولاد الذين كانوا يبكون.

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأن عليها أن ترجع إلى البيت، وقدر أنه يستطيع بكلامه أن يوقظ حَبَّها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال لها إنها

لا يليق بها أن تتجول في الشوارع تجول العازفين على أرغن يدوبي على حين أنها تتوق إلى إنشاء مدرسة داخلية للفتيات النبيلات!

فصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقةه :

- مدرسة داخلية! ها ها ها! .. اسمعوا هذا الكلام! ..

وأعقبت ضحكتها نوبة سعال . ثم تابعة كلامها قالت :

- لا يا روديون رومانوفتش! هذا الحلم قد تبدّد! لقد هجرنا جميع الناس ! وهذا الجنرال التافه... هل تعلم يا روديون رومانوفتش أنني رميته بمحبّرة على وجهه ، هي المحبّرة التي كانت توجد في حجرة المدخل على المنضدة قرب الورقة التي يسجّل فيها الزوار أسماءهم؟ لقد سجلت اسمي أنا أيضاً، ثم رميته بالمحبّرة ووليت هاربة! آه! يا للجبناء! يا للحقراء! ولكنني أصبحت الآن لا أهتم... فسوف أجني لهم رزقهم بنفسي ، سوف أجني للأولاد رزقهم بنفسي . لن أطأطئ رأسى لأحد! لقد عذبناها بما فيه الكفاية (كانت كاترينا ايفانوفنا تقصد صونيا). يا بوليشكا ، كم جمعنا إلى الآن؟ أربيني! كيف؟ ألم نجمع إلا كوبكين فقط؟ آه... يا للأوغاد! إنهم لا يعطوننا شيئاً! إنهم لا يزيدون على أن يركضوا وراءنا مادين لنا أستههم استهزاء! انظر إلى هذا المعتوه مثلاً: ممّ تراه يضحك؟ ( وأومات إلى واحد في الجمهور) ذلك كله بسبب كولي! فلان كولي غبي هذا الغباء كله إنما يسخر منا الناس جمِيعاً! مالك يا بوليشكا؟<sup>(53)</sup>Parlez-moi français! عجيباً ألم أعلمك الفرنسية؟ .. إنك تعرفي بضع جمل.. أتى لهم أن يعرفوا أنكم تتمنون إلى أسرة نبيلة وأنكم قد تُشتّتم تنشئة طيبة فلستم من أمثال العازفين في الشوارع ، أتى لهم أن أن يعرفوا بذلك إذا لم تكلمي باللغة الفرنسية يا بوليشكا؟ نحن لا نمثل «بيتروشكا»<sup>(54)</sup> المبتذل وإنما نحن نغنى أغانيات راقية! ها... نعم... ما الذي سوف نغنيه الآن؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا ، ونحن... اسمع يا روديون رومانوفتش ، لقد

توقفنا هنا قليلاً لنقرر ما الذي سنغنه: يجب أن نغني شيئاً يكون في وسع كوليا أن يراقهه برقصة، ذلك أنتا، كما تستطيع أن تقدر، قد أخذنا على غير تهيؤ أو استعداد. ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعباتنا حتى نرتب الأمور. وبعد ذلك سوف نذهب إلى شارع نيفسكي، حيث يكثر الناس الذين ينتمون إلى المجتمع الراقي فسرعان ما يلاحظوننا. إن لينيا لا تعرف إلا أغنية «القرية الصغيرة»، لا تعرف إلا «القرية الصغيرة» وحدها! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشار! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى. فماذا يا بوليا؟ هل عندك فكرة؟ ليتك تستطعين، أنت على الأقل، أن تساعدي أمك! آه من الذاكرة! إن الذاكرة هي التي تخونني، ولو لا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها، لو لا ذلك لتذكريت! لن نغنى مع ذلك أغنية «الفارس المتكئ على سيفه»<sup>(55)</sup>! الأولى أن نغنى بالفرنسية أغنية «خمسة قروش»<sup>(56)</sup>. لقد علمتكم إياها، تلك الأغنية! ثم إن الناس سرعان ما يدركون، لأننا سوف نغنى بالفرنسية، إنكم أولاد أسرة كريمة الأصل، فيؤثر ذلك في نفوسهم تأثيراً أكبر! حتى أن في وسعنا أن نغنى أغنية «Malborough s'en va-t-en guerre»<sup>(57)</sup> لا سيما وأنها أغنية صغيرة للأطفال وحدهم، نعم للأطفال وحدهم، تُستعمل في جميع البيوت aristocratique لهدده الأطفال. قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك وأخذت تغنى:

### مالبورو مسافر للحرب

<sup>(58)</sup> لا يدري متى يعود...

ثم استدركت تقول: بل الأفضل أن نغنى «خمسة قروش» يا كوليا، ضع يديك على خصرك! أسرع! وأنت يا لينيا، استديري في اتجاه معاكس! وسوف أرافقكما أنا وبوليا بصفق الأيدي:

خمسة قروش، خمسة قروش...

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً: كح كح كح! .. وقالت تخاطب بوليا من خلال السعال:

- اعدلي ثوبك يا بوليتشكا! إنه ينزلق عن كتفيك! علينا الآن أن نحافظ على أحسن مظهر، حتى يرى جميع الناس أنكم أولاد أسرة نبيلة! .. آه... ما أكثر ما قلت إن صدر هذا الفستان ينبغي أن يكون أطول... ولكن نصائحك أنت يا صونيا هي التي أفسدت كل شيء: «قصروا! قصروا!» فانظري الآن ماذا كانت النتيجة: لقد تشوّهت هذه الطفلة! ماذا؟ هأنتم أولاء تستأنفون البكاء؟ ما بالكم تعودون إلى البكاء أيها الأغبياء؟ هيا يا كوليما! غنْ! بسرعة أكبر! أكبر! أوه! يا لك من ولد لا يطاق

### خمسة قروش، خمسة قروش...

- ماذا؟ أجندى أيضاً؟ ماذا تريد أيها الجندي؟

كان شرطي من شرطة المدينة يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور بالفعل! ولكن سيداً يرتدي بزة رسمية ومعطف، هو موظف كبير في نحو الخمسين من عمره، وقرر المظهر مهيب الطلعة، يحمل عدا ذلك وساماً في عنقه (وهذا الأمر التفصيلي الأخير قد أبهج كاترينا ايفانوفنا كثيراً وأحدث في شرطي المدينة تأثيراً كبيراً)، قد ظهر في تلك اللحظة نفسها فاقترب من كاترينا ايفانوفنا ماداً إليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات. وكان وجهه يعبر عن شفقة صادقة. فتناولت كاترينا ايفانوفنا الورقة، وانحنى أمام الرجل بشيء من الأدب، بل وبشيء من الاحتفال. وبدأت تتكلم فقالت متعالية:

- أشكرك يا سيدي. إن الأسباب التي أهابت بنا إلى... خذني المال يا بوليتشكا. هأنت ذي ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بائسها أناخ عليها الدهر... إن أمامك يا سيدي

يتامى نباء، بل يتامى يمكن أن تقول إن لهم قربى بأعلى الأسر الاستقراطية. ولكن ذلك الجنرال التافه الذى كان بسبيل التهام دراريج . . آه . . لقد ضرب الأرض بقدمه لأننى أزعجه! قلت له: «يا صاحب السعادة، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش، أنت يا من عرفته حق معرفته، فإن إنساناً حقيراً من الحقراء قد افترى على بنته في يوم موته نفسه». أما يزال هذا الجندي هنا؟ كن حامياً لنا يا سيدي (كذلك صاحت كاترينا ايفانوفنا مخاطبة الموظف الذى أعطاها الروبلات الثلاثة). لماذا يلاحقنى هذا الجندي؟ ما باله يطاردنى دائماً؟ لقد سبق أن هربنا من جندي غيره في شارع ميشانسكايا . . . ماذا تريد أيها الغبي؟

- لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا في الشوارع! يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة!

- أنت الذي لا تلتزم حدود اللياقة! أنا أفعل ما يفعله العازفون على الأرغن اليدوى! فما شأنك أنت؟

- من أجل العزف على الأرغن، لا بد من ترخيص . . . أما أنت فإنك لم تحصلت على ترخيص . . . أنت تزعجين الناس! أين تسكنين؟

أعولت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- ماذا؟ ترخيص؟ لقد دفنت زوجي في هذا اليوم نفسه! أي ترخيص تريد؟

تدخل الموظف فقال:

- سيدتي، سيدتي، هدئي نفسك. تعالى. سأوصلك إلى بيتك! ليس هذا لائقاً هنا، أمام الناس! أنت مريضة!

فصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول:

- يا سيد، يا سيد، أنت لا تعرف شيئاً! سوف نذهب إلى شارع نيفسكي! صونيا، يا صونيا! ولكن أين ذهبت صونيا؟ إنها تبكي هي أيضاً! ولكن ماذا دهاكم جميعاً؟

وصرخت فجأة تسأل:

- كوليا، لينيا، إلى أين تذهبان؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟  
كان كوليا ولينيا، وقد رأيا الجندي الذي يريد أن يقبض عليهم وأن  
يقتادهما إلى مكان ما، وروعندهما هذه الجمهرة المحتشدة من الناس  
وهذه الحالات الجنونية في أمهمما، كانوا قد تمسكت يداهما وأخذوا  
يركضان كأنما على سابق اتفاق وتواطؤ. فلما رأتهما المسكينة كاترينا  
إيفانوفنا على هذه الحال أخذت تشن وتنشج، واندفعت تطاردهما. إنه  
منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض هذا الركض غارقة بدموعها  
منقطعة أنفاسها. وأسرع صونيا وبوليا تركضان وراءهما.

- أرجعيهما يا صونيا، أرجعيهما! آه! .. يا للأولاد الأغبياء! يا  
للأولاد العاقلين! .. يا بوليا! أدركيهما! اقضيهما! عليهم! من أجلكم إنما  
أنا... .

وترنحت كاترينا إيفانوفنا في ركضها وسقطت.

صاحت صونيا قائلةً وهي تميل عليها:

- أنها مغطاة بالدم! رباه! ..

هرع الجميع، وتحلقوا حول كاترينا إيفانوفنا. وكان راسكولنيكوف  
وليزياتينيكوف أول المسرعين. وقد أسرع الموظف أيضاً. ووراءه وصل  
شرطى المدينة قائلاً في تذمر: «أقصة جديدة؟» ثم حرك يده بإشارة  
انزعاج، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من المتاعب.

قال الشرطي وهو يصرف المستطلعين الذي تجمعوا ينظرون:

- انصرفا! انصرفا!

قال أحدهم:

- إنها تموت.

وقال آخر:

- لقد فقدت عقلها .

وقالت امرأة وهي ترسم على نفسها إشارة الصليب :

- رأف الله بها . هل أعيد الأولاد على الأقل ؟ ها هم أولاء يرجعون !  
إن الكبرى هي التي أدركتهم . يا للعفاريت ! ..

ولكن حين أنعم النظر في كاترينا ايفانوفنا عرف أنها لم تخرج  
لاصطدامها بحجر كما قدرت صونيا ، فإن الدم الذي صبغ بالحمرة  
أرض الشارع إنما تدفق من حلتها .

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف ولبيزياتنيكوف :

- أنا أعرف ، أنا أعرف ، هذا مرض السل ! هكذا ينبعس الدم من فم  
المريض ثم يخنقه . شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة :  
إحدى قريباتي سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً أو أكثر من دم  
على حين فجأة . ما العمل ؟ سوف تموت ...

تضرعت صونيا قائلة :

- هنا ! هنا ! إلى بيتي ! أنا أسكن هنا ، هنا ، في هذا المنزل ، العمارة  
الثانية ... فلشنقل إلى بيتي ، بسرعة ، بسرعة ! .. استقدموا طبيباً ...  
آه ... يا رب ! ..

كذلك كانت تقول صونيا متوجهة بكلامها إلى الحضور واحداً بعد  
واحد .

وذهبَت الأمور بفضل جهود الموظف . حتى لقد ساعده الشرطي  
نفسه في نقل كاترينا ايفانوفنا . صعدوا بها إلى مسكن صونيا وهي شبه  
ميتة ، واضطجعواها على السرير . كان الدم ما يزال ينزف ، ولكن كان يجدو  
على المريضة أنها تثوب إلى شعورها شيئاً بعد شيء . ولقد دخل إلى  
الغرفة ، عدا راسكولنيكوف ولبيزياتنيكوف ، دخل الموظف والشرطي .  
وكان الشرطي قد صرف الجمهور فلم يفلت منه إلا بضعة فضوليين  
صاحبوا كاترينا ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً . ووصلت بوليا

ممكة كوليا ولينيا اللذين كانا يرتجفان ويبكيان. وهُرِع من بيت كابرناوموف أيضاً عدة أشخاص: كابرناوموف نفسه، وهو رجل أعرج أعور يضفي عليه شعر رأسه وفوديه المجنَّد تجَّعَّد شعر الخنزير مظهراً غريباً جداً؛ وامرأته التي يعبر وجهها عن ذعر مستمر متصل؛ وعدة من أولادهما فغرت أفواههم وجَّهْتُهم الدهشة؛ وظهر بين المشاهدين أخيراً سفديجايلوف. فنظر إليه راسكولنيكوف في أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع، فهو لا يتذكر أنه رأه بين الجمهور المحتشد في الشارع.

وتكلم الحضور عن استقدام طبيب وكاهن. وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طبيب، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكولنيكوف إن مساعدات الطبيب أصبحت غير مجدية. وتعهد كابرناوموف أن يسعى إلى الطبيب لإحضاره.

وتحسنت حالة كاترينا ايفانوفنا قليلاً أثناء ذلك، فالتزيف قد انقطع مؤقتاً، وألقت نظرة موجعة، وإن تكون ثابتة نافذة، على صونيا التي كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها شاحبة الوجه مرتعشة اليدين. وطلبت كاترينا ايفانوفنا أخيراً إنهاضها، فأجلست على السرير مسنودة من الجهتين.

دمدمت تقول بصوت ضعيف:

- أين الأولاد؟ هل أرجعتم يا صونيا؟ آه... يا لهم من بلهاه!  
لماذا هربتم؟ آه...

ونطى الدم شفتتها من جديد. فأجالت عينيها على ما حولها.  
وقالت:

- آه... أهكذا تعيشين إذا يا صونيا! لم يتع لي أن آتي إليك قبل الآن مرة واحدة!

ونظرت إليها بألم.

- قد امتصصنا قواك يا صونيا... بوليا، كوليا ولينيا... تعالوا إلى... ها هم جمِيعاً أمامك، يا صونيا... أما أنا فيكفي... انتهى الأمر!.. ضعوني على الوسادة واتركوني لأموت هادئة...  
وضعوها على الوسادة من جديد.

- ماذا؟ كاهن؟ لا أريد!.. هل معكم روبل تضيئونه؟ أنا لا ذنب لي! لا بد أن يغفر الله لي. إن الله يعلمكم تالمت! فإذا لم يغفر لي، فلا يغفر!

واستولى على كاترينا إيفانوفنا هذيان ما فتئ يزداد اضطراباً، كانت في بعض اللحظات ترتعش، وتنظر حولها، فتتعرف جميع الأشخاص الذي يحيطون بها، تعرّفهم خلال دقيقة واحدة، ثم ما تلبث أن تفقد صحوها وترتد إلى هذيانها من جديد. وكان تنفسها أبَحْ أَجْسَحْ، وكان شافاً أليماً، وكان يُسمع نوع من القرقرة يخرج من حلتها.

وهفت تقول وهي تختنق لدى كل كلمة تنطق بها:

- قلت له: «يا صاحب السعادة...» آه... سحقاً لآمالها لودفيجوفنا هذه!.. لينيا، كوليا، ضعا يديكما على الخصرين، واجعلا رقصكما أسرع، أسرع... انزلقا... انزلقا!.. عليكما بخطوة «البسك»... إقرع كعيك! كن ولداً رشيقاً!  
لك ماس ولاكيء<sup>(60)</sup>

- ماذا بعد؟ ها... نعم... يعجب الغناء كما يلي:

لَكَ أَجْمَلُ عَيْنَيْنِ

فَمَاذَا تَرِيدِينَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ يَا فَتَاهَ؟<sup>(61)</sup>

نعم «ماذا تريدين أكثر»، يا للغبي ما أسف قوله! ها... نعم... وهذا شعر آخر:

تحت أشعة الشمس الحارة، بوادي داغستان...

- آه... لشد ما أحببت هذه الأغنية! أحببتها حتى العبادة، هذه

الأغنية! هل تعلمين يا بوليتشك؟ كان أبوك يغنيها أيام كنا خطبيين! ..  
ذلك ما يجب أن نغنه إذا أردنا الغناء! ولكن ماذا حدث؟ ماذا حدث?  
لقد نسيت! هلاً ذكرتمني! ذكرتوني!

كانت كاترينا ايفانوفنا في حالة اضطراب شديد، وكانت تحاول أن  
تنهض. وأخذت أخيراً تغنى بصوت رهيب أبشع مكسر، صارخةً مختنقةً  
عند كل كلمة تنطق بها، وكان وجهها يعبر عن رعب ما ينفك يزداد:

تحت أشعة الشمس الحارة! بوادي داغستان!...

وفي صدري رصاصة!..

وأعولت تقول فجأة بصياح ممزق وهي تجهش باكية:

- يا صاحب السعادة، كن حامياً للبيتامي ... تكريماً لذكرى  
الاستقبال الذي استقبلتك به سيميون زاخارتش ... والذى يمكن أن  
يوصف بأنه أرستقراطي ... .

وانتفضت كاترينا ايفانوفنا فجأة وقد ثاب إليها شعورها وأخذت  
تتفرس في الحضور مذعورة. لكنها لم تلبث أن تعرفت صونيا، فنطقت  
تقول في رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها:

- صونيا! صونيا! أنت أيضاً هنا يا عزيزتي؟

أنهضت كاترينا ايفانوفنا من جديد.

صرخت تقول في يأس وكره:

- كفى! آن الأوان! وداعاً! لقد أجهزوا على الحصان القديم! إنه  
يقطس!

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة.

واستولى عليها الهديان مرة ثانية، لكن ذلك لم يدم إلا مدة قصيرة.  
انقلب وجهها المصفر إلى وراء، وانفتح فمها، وامتدت ساقاها في  
تشنج، وزفرت زفراً عميقاً وماتت.

أسرعت صونيا إلى جثمانها، فطوقتها بذراعيها متألمة، وشدّت رأسها إلى صدرها الناحل. وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبلتهما باكيّة ناشجة. ولم يدرك كوليا ولينيا إدراكاً واضحاً ما الذي حدث، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع، فارتمنى كل منهما بين ذراعي الآخر، وفurer فماهما وأخذنا يصرخان. كانوا ما يزالان يرتديان ثياب المهرّجين، فأحدهما على رأسه عمامة، والأخرى على رأسها طاقية تزيّنها ريشة نعامة.

لا ندري كيف وُجدت «شهادة التقدير» موضوعة على الوسادة قرب كاترينينا ايفاتوفنا، غير أن راسكولنيكوف قد رأها على كل حال. ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة، وأسرع ليبيزياتنيكوف يلحق به. قال :

- ماتت !

قال سفديريجايروف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف :  
- روديون رومانوفتش، عندي كلمة أريد أن أقولها لك. أمر مستعجل !

فسرعان ما تنجي له ليبيزياتنيكوف عن مكانه مبتعداً، غير أن سفديريجايروف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد ي يريد أن يخلو إليه وأن يكلمه على انفراد. كان راسكولنيكوف متّحيراً. قال سفديريجايروف :

- سوف أتولى جميع هذه الأمور، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه. هذا يقتضي مالاً... هذان العصفوران الصغيران وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام، فتكون العناية بهم أحسن ما تكون العناية، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخمسمائة روبل، إلى أن يبلغوا سن الرشد، وذلك حتى يطمئن بالصونيا سيميونوفنا كل الاطمئنان. سوف أخرجها هي أيضاً من الحمأة التي تعيش فيها، لأنها فتاة طيبة،

الليس كذلك؟ فتستطيع أن تقول لأفدوتيا رومانوفنا في أي وجه من الوجوه استعملت العشرة آلاف روبل.

سأله راسكولنيكوف:

- لأي هدف من الأهداف تظهر هذا الكرم كله؟

فأجابه سفدريجايلوف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة:

- هيء! هيء! يا لك من رجل قليل الثقة سيء الظن! لقد قلت لك إنني في غير حاجة إلى هذا المال! لماذا ترفض أن تصدق أنني لا أتصرف إلا بداعي الأنانية؟ وكيف دار الأمر فإن هذه (قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى الركن الذي ترقد فيه المتفوقة) لم تكن قملة، لم تكن عجوزاً مرابيةً ما... هياً قل لي: «هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته، في حين تموت هي؟... ثم إنه بدون مساعدتي، فإن بوليتشكا مثلاً ستكون مضطرة أن تسير في هذه الطريق نفسها»...

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شيء من المكر المرح، دون أن يحول بصره عن راسكولنيكوف.

اصفر راسكولنيكوف وتجمد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التي قالها هو نفسه في حديثه مع صونيا. وتقهقر فجأة وألقى على سفدريجايلوف نظرة ضارية.

ودمدم يسأل بصوت مختنق:

- كيف... عرفت... هذا؟

- أنا أقطن هنا، في الجهة الأخرى من هذا الحاجز، عند السيدة رسليخ. هنا شقة كابرناوموف، وهناك شقة السيد رسليخ، وهي صديقة لي منذ عهد طويل، صديقة من أخلص الصديقات. أنا جار من الجيران. هذا هو الأمر!

- أنت؟!

فضحك سفديجايلوف واهتزَّ بدنَه كله من ضحكته الطويلة، وتَابَعَ  
كلامَه فقال:

- أنا، وأستطيع أن أؤكِّد لك صادقاً يا روبيون رومانوفتش العزيز أن  
أمرَك قد شاقني كثيراً. ألم أقل لك إننا سنكون متفاهمين! لقد تبأّت لك  
بذلك! نعم، لقد تفاهمنا! لسوف ترى أنني رجل موادع مجارٍ مريخ!  
لسوف ترى أنني أمرؤ ما تزال الحياة معِي ممكنةً.



لِكُلِّ مُجْتَهِدٍ أَلْسِانٌ



بلد

## الفصل الأول

عندئذ عهد جديد غريب في حياة راسكولنيكوف. لكان ضباباً قد سقط أمامه فجأة، فحبسه في عزلة ثقيلة كثيفة. حين تذكر راسكولنيكوف هذه الفترة، بعد زمن، بعد زمن طويل، قدر أن صحو ذهنه كان يغور في الظلام أحياناً، وأنه استمر على هذه الحال إلى أن نزلت النازلة النهاية، إلا في لحظات قليلة. وقد اقتناع تماماً بأنه قد ضلَّ حينذاك في أمور كثيرة، ولا سيما في مواقف بعض الأحداث وفي مدتها. على أنه حين استحضر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاتها وأن يوضحها، استعان بشهادة أشخاص آخرين، فعلم بذلك أموراً كثيرة عن نفسه. علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر، أو كان يظن هذا الحادث نتيجة لحادث ثالث لا وجود له في الواقع، وإنما هو من صنع خياله. وكان ينتابه في بعض الأحيان قلق أو خوف سرعان ما يستحيل إلى رعب هائل. ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة، فهو غارق في خدر يشبه عدم الاكتراث الذي يعانيه بعض المحتضرين. ويمكن أن نقول على وجه العموم أنه يكون في مثل تلك الأيام كمن يحاول أن يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأن يعي حاليه. وهناك وقائع أساسية معينة كانت تقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب توضيحاً مباشراً. ولكن ما

كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدي في حالته إلى نازلة رهيبة لم يمكن تحاشيها.

وكان يقلقه سفريجايروف خاصةً، حتى ليمكن القول إن انتباهه كله قد تركز على سفريجايروف. فمنذ اليوم الذي نطق فيه سفريجايروف بتلك الكلمات الصريحـة الرهيبة التي لا بد أن ترعب راسكولنيكوف، وذلك في غرفة صونيا، لحظة وفاة كاترينا ايفانوفنا، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعي لأفكار راسكولنيكوف. ولكن راسكولنيكوف لم يسارع إلى توضيح الأمور لنفسه، رغم القلق الشديد الذي أخذ يعانيه. كان يتافق له في بعض الأحيان، إذ يجد نفسه فجأة في حي ناء مفتر من أحياـء المدينة، جالساً وحده إلى مائدة منعزلة في أعماق حانة حقيرة، غارقاً في أفكاره، لا يكاد يتذكر ما الذي قاد خطاه إلى هذا المكان، كان يتافق له على حين بعثة أن يخطر بيـاله سفريجايروف، فإذا هو تجلـى لهحقيقة واضحة صارخـة، هي أن عليه أن يجري حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكـنة، وأن يفرغ من هذا الأمر، مرة واحدة. حتى لقد خـلـى إليه ذات يوم، في مكان وراء أسوار المدينة، أنه ينتظر سفريجايروف، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء في هذا المكان. وفي يوم آخر، استيقظ عند الفجر فرأـى نفسه راقداً على الأرض لا يدرـي أين، فلم يفهم ما الذي جاء به إلى هنا، ولا عرف كيف وصل إلى هذا الموضع. ثم إنه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي أعقبـت وفاة كاترينا ايفانوفنا قد أتيـح له أن يلقـى سفريجايروف مرتـين، وذلك كالعادة في غرفة صونيا التي ذهب إليها لا لهدف إلا أن يراها لحظـة. وقد تبـادـل الرجالـان بعض كلمـات مقتضبة جداً، ولكن تجنـباً أن يمسـأ النقطـة الأساسية، فـكـأنـ بينـهما اتفـاقـاً مضمـراً على أن يـلـزـما الصـمتـ فيـ هذا الموضوع إلى حينـ. كان تابـوتـ كـاتـريـناـ اـيفـانـوفـناـ عـندـئـذـ ماـ يـزالـ فيـ غـرـفةـ صـونـياـ. وـكـانـ سـفـريـجـايـروفـ يـنشـطـ فـيـ سـبـيلـ إـتـمامـ الدـفـنـ. وـكـانـتـ صـونـياـ منـشـغـلـةـ هـيـ أـيـضاـ. وـفـيـ اللـقـاءـ الـأـخـيرـ الـذـيـ تـمـ بـيـنـ الرـجـلـيـنـ شـرحـ

سفل راسكولنيكوف أن المساعي التي شرع في القيام بها من أجل أولاد المتوفاة قد أثمرت، فبفضل بعض العلاقات، استطاع أن يدخل الأيتام الثلاثة في مؤسسات مناسبة، وكان للمال الذي أودعه لهم فضل كبير في ذلك، لأن الأولاد الذي يملكون مالاً يسهل قبولهم في هذه المؤسسات أكثر من الأولاد الذين لا يملكون شيئاً. وتكلم سفل راسكولنيكوف قليلاً عن صونيا كذلك، ووعد بان يزور راسكولنيكوف في بيته قريباً، وأسمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصح « فهو في حاجة ملحة إلى أن يكلمه في بعض الأمور... »؛ وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين في حجرة المدخل، فكان سفل راسكولنيكوف يحدّق إلى راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته فجأة بعد فترة من صمت يسأله :

- ولكن مالك يا روبيون رومانوفتش؟ يبدو لي أنك لست في حالة طبيعية. صحيح أنك تصغي وتنظر، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم! هياً ينبغي أن نتحادث معاً بعض الشيء! يؤسفني أنني مشغول إلى هذا الحد!

ثم أضاف يقول فجأة:

- هيه! جميع البشر محتاجون إلى هواء، إلى هواء، إلى هواء قبل كل شيء!

وتنحى بفتحة حتى يفسح مجال المرور للكافن والفتيلفت اللذين كانوا يصعدان السلم. إنهما آتيان لإقامة صلاة الميت. لقد اتخذ سفل راسكولنيكوف الاستعدادات الازمة لإقامة صلاة الميت هذه مرتين في اليوم بغير انقطاع.

تردد راسكولنيكوف لحظة ثم تبع الكافن إلى عند صونيا. وكان سفل راسكولنيكوف قد ذهب في حال سبيله.

وقف راسكولنيكوف على العتبة. وابتدأ القدس هادئاً مهيباً حزيناً.

منذ نعومة أظفاره كان شعوره بالموت وإحساسه بحضور الموت يصطبغ عنده دائمًا بنوع من رعب صوفي. كما أنه منذ مدة طويلة لم يشهد قداس جنازة. وإلى هذا كله يُضاف الآن إحساسُ بالاضطراب والرعب أشد إيلاماً.

نظر إلى الأولاد. كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت. وكانت بوليتشكا تبكي. ووراءهم كانت صونيا تصلي وتبكي برفق. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنها لم تنظر إلى مرة واحدة في هذه الأيام الأخيرة. ولم تخاطبني بكلمة واحدة». كانت الشمس تغمر الغرفة بضياء قوي، ودخان البخور يتتصاعد إلى السقف، والكافن يرثل أدعيته. بقي راسكولنيكوف إلى آخر القداس فلما بارك الكافن ووَدَع منصراً، ألقى على ما حوله نظرة غريبة. واقترب راسكولنيكوف من صونيا بعد انتهاء القداس. فإذا هي تتناول يديه فجأة وتميل برأسها على كتفه. دُهش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة والمودة هذه. بدت له هذه الbadrَة غريبة. تساؤل: كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور، كيف لا تشمئز منه أي اشمئزار؟ وكيف لا ترتعش يدها أقل ارتعاش؟ يا للتضيحة! هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل. لم تقل صونيا كلمة واحدة. صافحها راسكولنيكوف وخرج. كان يشعر بإرهاق فظيع يحتاجه. فلو كان يستطيع في تلك اللحظة أن يذهب إلى مكان ما، إلى أي مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة، بعزلة مطلقة، ولو دامت مدى الحياة، إذن لعد نفسه سعيداً. ولكن راسكولنيكوف كان في هذه الآونة الأخيرة، رغم بقائه وحيداً في جميع الأحيان تقريباً، لا يفلح في الوصول إلى الشعور بالوحدة. كان يتافق له أن يخرج من المدينة، وأن يسير في الطريق الكبير. حتى لقد توغل ذات مرة في غابة. ولكن كلما كانت الأماكن أشد عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مقلق لا يرعبه فقط، وإنما يضايقه ويزعجه خاصةً. فكان يسرع عندئذ عائداً إلى المدينة فيختلط بالجمهور، ويذهب إلى «سوق المواد المستعملة»

و«سوق العلف»، فيشعر هنالك بشيء من الارتياح.

وكان ذات مساء في مطعم حقير فيه غنا، فبقي يصغي إلى الغناء ساعة كاملة، وقال لنفسه إنه مبهج به، ولكن قلقه عاد يجتاحه آخر الأمر، فإن شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهاش قلبه، وقال لنفسه فجأة: «هأنَا ذا جالس أستمع لغناء، فهل هذا هو ما يليق بي أن أفعله؟». على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا، وأن هناك مسألة يجب حلها بغير إبطاء، لكنه لا يستطيع أن يعبر عن هذه المسألة بكلام، أو أن يترجمها بأقوال. كان كل شيء تتشابك خيوطه: «لا... الصراع أولى! بروفيري... أو سفديريجايلوف... لأن أقوم بتحدى آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا... نعم، نعم!» قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً. وخطرت بياله دونيا وأمه، فإذا هو يشعر برعوب هائل، لا يدري لماذا! وفي تلك الليلة بالذات استيقظ قبل الفجر في غابة بجزيرة كريستوفسكي<sup>(62)</sup> مرتعداً من الحمى. فعاد إلى بيته قبل طلوع الشمس. وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات، ولكنه استيقظ متأخراً. كانت الساعة حين استيقظ الثانية والنصف بعد الظهر.

فتذكر عندئذ أن دفن كاترينا ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم، فسرّه أنه لم يشهد الدفن. وجاءته ناستاسيا بഗدائه، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهنة. وكان ذهنه أنضر، وكان يحس أنه أهدأ مما كان في الأيام السابقة، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر.

وفتح الباب في تلك اللحظة، ودخل رازوميixin.

قال رازوميixin وهو يتناول كرسياً ويجلس عليه قبالة راسكولنيكوف:

- هه! إنه يأكل. ما هو إذن بالمريض!

كان رازوميixin في حالة اهتياج شديد لا يحاول أن يخفيه. كان

يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح، ولكنه لا يتوجه ولا يرفع صوته. لكانه بيئت نية لها صفة استثنائية جداً. وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال:

- اسمع! لقد أسامتموني فاذهبوا جميعاً إلى جهنم! ذلك أنني أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أنني لا أفهم من الأمر شيئاً بالمرة! ولا يذهبن بك الخيال إلى أنني سأحاصرك بالأسئللة. فلقد أصبحت لا أعبأ بهذه الأمور كلها!.. ولست أريد قطُّ أن... قد تكشف لي بنفسك عن جميع أسرارك، فإذا أنا لا أصغي إليها. نعم، سوف أبصق استخفافاً ثم أمضي لشأنِي! وإنما جئت الآن لهدف واحد هو أن أعرف أولاً بمنفسي، معرفة حاسمة، أنت مجنون أم لا. ذلك أن هناك أناساً - ليس أمراً هاماً أن نسميهم - مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهَّل لأن تصبح مجنوناً. وإنني لأعترف لك بأنني كنت أنا نفسي مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأي، أولاً بسبب أفعالك السخيفة بل الخسيسة (لا سيما وأنها لا تعليل لها)، ثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمك وأختك، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه إلا إنسان شاذ أو ذيء أو مجنون. فأنت إذن مجنون.

- هل رأيتهما منذ مدة طويلة؟

- منذ لحظة. وأنت؟ أنت لم ترهما مرة أخرى منذ ذلك اليوم، أليس كذلك؟ فأين كنت تتسع طوال هذا الوقت؟ هلاً قلت لي، أرجوك! لقد جئت إلى بيتك ثلاثة مرات. وأمرك مريضة منذ الأمس مرضًا شديداً، قررت أن تجيء إليك، فحاولت آفدوتي رومانوفنا أن تمنعها من ذلك، لكنها لم تفلح. قالت: «إذا كان مريضاً، إذا كان قد أصاب عقله اختلال، فمن ذا ينجده إذا لم تنجده أمه؟» عندئذ جتنا إليك معاً، لأننا لم نشا أن نتركها وحدها. وفي الطريق، فعلنا كل شيء في سبيل أن نهدئها. ولكننا دخلنا فلم نجده! جلست هناك، ولبست جالسة عشر دقائق، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف إلى جانبها لا ننطق بكلمة

واحدة. بعدها نهضت وقالت: «ما دام يخرج فمعنى ذلك أن صحته حسنة، وأنه نسي أمره. يترب على هذا أنه لا يليق بأمه بل عارٌ عليها أن تقف في عتبة بابه تستجدي ملاظفاته استجداء الصدقات». وعادت إلى بيتها، ثم لم تلبث أن اضطرت إلى ملازمة الفراش. وهي الآن تعاني من الحمى، وتقول: «فهمت! إن وقته لا يتسم لغير حبيبه...» إنها تعتقد أن صونيا سيميونوفنا حبيبتك أو خطيبتك أو خليلتك، لا أدرى! فسرعان ما ذهبت إلى بيت صونيا سيميونوفنا، لأنني كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقي. دخلت على صونيا سيميونوفنا، فماذا رأيت؟ تابوتاً وأولاداً يبكون، وصونيا تجرب على الأولاد ملابس الحداد. أما أنت فلا وجود لك! عندئذ نظرت، واعتذررت، وخرجت، ومضيت إلى آفدوتيا رومانوفنا أروي لها ما شاهدت! القصة إذن باطلة: لا حبيبة هنالك ولا شيء من ذلك، ولعل كل ما في الأمر أنك مجنون! ولكن هأنذا أراك تلتهم لحم بقر مسلوقاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين! صحيح أن المجانين يأكلونهم أيضاً... ولكن لا... ما أنت بمجنون... رغم أنك لم تقل لي كلمة واحدة! ما أنت بمجنون قط! أنني لمستعد أن أقسم لك على ذلك! إذن... شيطان يأخذكم جميعاً... فلا بد أن في الأمر سرًا، لا بد أن في الأمر سرًا... وأنا لا أريد أن أصدّع رأسِي بأسراركم! إنني لم أجئ إلا لأزعجك تخفيفاً عن نفسي. وأنا أعلم ماذا بقي علىَ أن أفعل!

بهذا ختم رازوميخين كلامه وهو ينهض.

سأله راسكولنيكوف:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- أصبح يهمك الآن أن تعرف ما الذي سأفعله؟

- حذار! إنك تريد أن تقبل على شرب الخمر!

- كيف... كيف حزرت هذا؟

- لا يحتاج الأمر إلى كبير ذكاء!

بقي رازوميخين صامتاً بعض الوقت، ثم قال فجأة بحماسة:

- لقد كنت فتى ذكياً حصيف العقل على الدوام. لم تكن مجنوناً في يوم من الأيام! نعم، كلامك صحيح. سأقبل على شرب الخمر! أستودعك الله!

قال رازوميخين ذلك واتجه نحو الباب. فقال له راسكولنيكوف:

- كلمت أخي عنك يا رازوميخين، أمس الأول، فيما ذكر.

توقف رازوميخين فجأة، حتى لقد اصفر وجهه قليلاً وهو يسأله:

- عني أنا؟.. ولكن أين عساك رأيتها، أمس الأول؟ يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً.

قال راسكولنيكوف:

- جاءت إلى هنا! وجلست في هذا المكان! وتكلمنا!

- هي؟!

- نعم، هي!

- ماذا قلت لها؟ أقصد... ماذا قلت لها عني؟

- قلت لها إنك شاب ممتاز، شريف، مجتهد. لم أذكر لها أنك تحبها، فذلك أمر تعرفه هي.

- تعرفه... هي؟

- طبعاً... وعليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً، أينما حطت رحالك وكيفما كان حالك! أقول لك هذا لأنني أعرف مدى ما تحمله لها من حب، ولأنني مقتنع بطهرة عواطفك ونقاء مشاعرك. وإنني لأعلم أيضاً أنها، من جهتها، يمكن أن تحبك، هذا إذا لم تكن قد أحبتك وانتهى الأمر! والآن فرر: هل عليك أن تقبل على شرب الخمر!

- روديا... اسمع... طيب... آه... أنت، إلى أين تريد أن

تذهب؟ إذا كان ذلك سراً، فاكتمه إن شئت. ولكنني سأطلع على السر آخر الأمر! آآآ... إني لعلى يقين من أن المسألة لا تعود أن تكون سخافة من السخافات لا تُصدق! وأنك قد اخترعت هذا كله! مهما يكن من أمر، فأنت فتى رائع، أنت أروع الفتىان!

قال راسكونيکوف:

- ولقد أردت أن أقول لك أيضاً - لو لا أنك قاطعني - إنك كنت على حق تماماً حين ذهبت إلى أنه لا داعي إلى محاولة اكتشاف تلك الأسرار. دع هذا الأمر الآن ولا تقلق. سوف تعرف كل شيء في أوانه، حينما سيكون هذا ضرورياً. بالأمس قال لي أحدهم: إن المرأة في حاجة إلى هواء، إلى هواء! وأريد الآن أن أذهب إلى ذلك الرجل لأعرف ما الذي كان يعنيه بذلك الكلام!

كان رازوميخين واقفاً يفكر، وقد عاد يستولي عليه القلق. ثم قال يحدّث نفسه فجأة: «هو متامر سياسي. لا شك في ذلك وهو يوشك أن يقوم بعمل حاسم. نعم، هذا هو الأمر. لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا. ودونيا تعلم ذلك».

وقال وهو يقطع كلماته:

- إذن تجيء إليك آنفوتيا رومانوفنا، وأنت تريد أن ترى ذلك الرجل الذي قال لك إن المرأة في حاجة إلى هواء، إلى مزيد من الهواء دائماً... والرسالة... معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر... .

بهذه الجملة الأخيرة ختم رازوميخين كلامه وكأنه يكلّم نفسه.

سأله راسكونيکوف:

- أي رسالة؟

- لقد تلقت اليوم رسالة أفلقتها كثيراً، كثيراً جداً. أخذت أتكلّم عنك، فرجحتني أن أسكت. ثم... ثم قالت إن من الجائز أن نفترق

قريباً جداً... ثم شكرتني بكثير من الحرارة على أنني... لا أدرى  
ماذا، وأخيراً مضت إلى غرفتها فحبست نفسها فيها.

سأله راسكولنيكوف شارد الذهن:

- تلقت رسالة؟

- نعم، رسالة. ألم تكن تعرف ذلك؟  
وصمت الشابان كلاهما.

- أستودعك الله يا روبيون. أنا يا صاحبى... في وقت من  
الأوقات... ثم... أستودعك الله! نعم، في وقت من الأوقات...  
دعنا من هذا... أستودعك الله! آن لي أنا أيضاً أن... لن أشرب. ما  
الداعي الآن؟

كان متوجلاً، لكنه ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى فتح  
فجأة من جديد، وقال وهو يلقى نظرة متهربة إلى جانب:

- بالمناسبة... فيما يتعلق بتلك الجريمة... أنت تعلم حكاية  
بورفيرى... ومقتل المرأة العجوز... ألا تتذكر؟.. لقد اكتشفوا  
القاتل... اعترف القاتل وقدم جميع الأدلة. تصور أنه واحد من أولئك  
الدهانيين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسي أدفع عنهم... هل تتذكر؟  
وهناك شيء تفصيلي آخر: إن مشهد المشاجرة مع الرفيق، والقهقات  
على السلم بينما كان الآخرون يصعدون، ذلك كله إنما ابتكره القاتل  
ابتكاراً ليدفع عنه الشبهة! يا للتفكير! يا للبداهة الحاضرة والحيلة البارعة!  
لا يكاد المرء يصدق، ولكن الرجل أوضح هو نفسه كل شيء! لقد  
خدعني في أول الأمر عن نفسي! إنه يملك عقيرية المكر والحيلة،  
عقيرية التمويه القضائي. على كل حال، هذه أشياء موجودة، فلا داعي  
إلى الإسراف في الدهشة! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع؟  
وأما أنه لم يطق صبراً فاعترف أخيراً، فذلك أمر أصدقه مزيداً من  
التصديق. لقد خدعني على كل حال! تصوركم تحمست لهم ودافعت  
عنهم!

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح:

- كيف علمت بذلك؟ ولماذا يهمك هذا الأمر إلى هذا الحد؟
- لماذا يهمني هذا الأمر؟ يا له من سؤال! ..

إن بورفيري هو الذي أمندي بهذه المعلومات! ثم إنه هو الذي أطلعني على كل شيء تقريباً.

- بورفيري؟

- نعم، بورفيري.

سأله راسكولنيكوف مرتاتعاً:

- ماذا.. ماذا قال لك؟

- شرح لي الأمر شرعاً رائعاً، شرعاً «سيكولوجياً»، على نهجه في الشرح.

- هو نفسه... شرح لك؟

- نعم.. هو نفسه. استودعك الله! سأقصُّ عليك شيئاً فيما بعد، أما الآن فشمرة عمل يجب أن أقوم به، هناك. جاء وقت تصورت فيه أن... ولكن ما الداعي إلى هذا الكلام؟ سأقول لك فيما بعد!.. ما حاجتي إلى السكر الآن؟ لقد أسكرتني أنت بغير خمر! نعم، أنا سكران يا روديا، سكران من غير أن أشرب خمراً. هيا، استودعك الله. سأعود إليك بعد مدة قصيرة.

قال رازوميخن ذلك وخرج. وفيما كان يهبط السلالم بخطى بطئية كان يحدث نفسه بقوله: «هو متامر سياسي، حتماً. حتماً. ولقد أفحى أخته في الأمر. ذلك جائز، بل جائز جداً، إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار إلى طبع آفدوتيا رومانوفنا. هما الآن يتلقيان في مواعيد يضربانها! ألم تفهمني هي نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الغامضة والإشارات والملحوظات. نعم هذا كله يدل على أن تقديرني صحيح».

وإلا فكيف نعمل هذا التعقيد كله؟ هـ . . . وأنا ظنت أن . . . آه . . . يا رب! ما أكثر ما تخيلت أيضاً! نعم، كان ذلك ضلالاً، ولقد أثمت في حقه! غير أن ذلك خطوه هو أيضاً. لماذا شوش فكري، ذلك المساء، في الدهلiz، تحت المصباح؟ هـ . . . يا لها من فكرة دنيئة، خسيسة، تلك الفكرة التي راودتني! وما أعظم شهامة ذلك الفتى نيكولاي حين اعترف بكل شيء! هكذا يتضح الماضي كله دفعه واحدة: مرض روديا، وأطواره الغربية، وحتى ما سبق هذه الفترة، حين كان روديا ما يزال في الجامعة فكان مظلوم النفس، مكتتب المزاج. ولكن ماذا تعني الآن هذه الرسالة؟ لا بد أن وراءها شيئاً! من هو مرسلها؟ أظن أنها . . . هـ . . . سأخرج هذا كله إلى النور!»

ثم تذكر كل ما يتعلق بدنيا، فوجف قلبه حين تذكر ذلك. وتخلاص من جموده، وأخذ يمشي مشياً سريعاً يوشك أن يكون ركضاً.

ما إن خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف، فاقترب من النافذة، ومشى في الغرفة منتقلًا من ركن إلى ركن، كأنما هو قد نسي أبعادها . . . ثم عاد يجلس على السرير. لكانه قد تبدل تبدلاً تاماً: عاد الصراع . . . ما يزال هناك إذن مخرج. «نعم، هذا مخرج يظهر أخيراً!». حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً، مختوقاً، كأن قدرأ قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع نيكولاي عند بورفيري، حتى أن مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه، وقع عند صونيا ولم ينته، لم ينته البتة، كما لعله تخيل. ولقد ظهر ضعف راسكولنيكوف فانهار انهياراً تاماً، دفعه واحدة. ألم يعترف عندئذ، مع صونيا، من أعمق قلبه، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده عبئاً كهذا العبء؟ . . . وسفدريجايروف؟ إن سفدريجايروف لغز. إن سفدريجايروف يقلقه أيضاً، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى تماماً. لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفدريجايروف يمكن أن يكون مخرجاً كذلك؟ ولكن بورفيري؟ ذلك شيء آخر! . . .

«ها... هكذا إذن... بروفيري نفسه هو الذي شرح لرازو ميixin  
إذن كل شيء! شرح له كل شيء شرحاً «سيكولوجياً». إنه لا يتخلّى عن  
هذه السيكولوجيا اللعينة التي يتسلّح بها!.. ولكن كيف أمكنه، هو  
بورفيري، أن يصدق، ولو دقيقة واحدة، أن نيكولاي هو الجاني، بعد  
المشهد الذي قام بيّتنا قبل وصول نيكولاي هذا نفسه، وهو مشهد لا  
يمكن أن يكون له إلا تفسير واحد؟» كانت ذكرى هذا المشهد الذي وقع  
بيّنه وبين بروفيري قد عاودته مراراً كثيرة في هذه الأيام الأخيرة، ولكنها  
كانت تعاوده تفافاً صغيراً، فلو رأها كاملةً في جملتها لما استطاع أن  
يحتملها.

«إن ما قام بيّنا من أحاديث، وما جرى من حركات وإشارات، وما  
تبادلناه من نظرات، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة، قد تمّ على نحو لا  
يمكن معه أن يكون نيكولاي (الذي كشف بروفيري عن حقيقته منذ  
تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذي استطاع أن يرده عن اقتناعه.  
أضف إلى ذلك أن رازو ميixin قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات...  
معنى ذلك أن مشهد الدھليز تحت المصباح لم يفته تماماً! وهذا هو ذا  
يهرع عندئذ إلى منزل بروفيري! ولكن لماذا ضللَه بروفيري على ذلك  
النحو؟ ماذا كانت غايته من ذلك؟ ماذا كان هدفه؟ لا شك في أنه كان له  
هدف، ولكن ماذا كان ذلك الهدف؟ أية مصلحة له في أن يحوّل شبهات  
رازو ميixin نحو نيكولاي؟ لا شك في أنه كانت له مصلحة، ولكن ماذا  
كانت تلك المصلحة؟ إن زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح، زماناً  
طويلاً مسرفاً في الطول، لم نعرف خلاله أيّ أنباء عن بروفيري. إن  
ذلك لا ينبيء بخير...»

تناول راسكولنيكوف قبعته، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره. هذه  
أول مرة يشعر فيها بأنه في حالة طبيعية، طوال ذلك الوقت.

وقال يحدّث نفسه: «يجب الانتهاء من سفري إلى جايلوف، مهما كلف  
الأمر، وبأقصى سرعة ممكنة. أظن أنه، هو أيضاً، يتوقع أن أذهب إليه

بنفسي». وفي تلك اللحظة، انبعض في قلبه المعذب كره بلغ من القوة أن راسكولنيكوف كان يمكن في تلك اللحظة أن يقتل أحد اثنين: سفدريجايلوف أو بورفيري. ولقد شعر على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك، إن لم يكن فوراً فبعد حين. فكان يردد قائلاً لنفسه: «سوف نرى، سوف نرى».

ولكن ما إن اجتاز الباب المفضي إلى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفيري نفسه. كان بورفيري يهمُ أن يدخل عليه. دُهش دهشة شديدة، ولكن دهشته لم تدم إلا لحظة قصيرة. أمر غريب: إنه سرعان مارأى أن مجيء بورفيري إليه أمر طبيعي لا غرابة فيه، فلم تثر فيه رؤيته أي خوف تقريباً. ارتعش في البداية رعشة خفيفة، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه. «لعل هذه هي الخاتمة؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهرة، ولماذا لم أسمع وقع أقدامه؟ هل يمكن أن يكون قد تنصلَّ على الباب؟»

صاحب بورفيري يقول له ضاحكاً:

- لم تكن تتوقع زيارتي يا روبيون رومانوفتش! لقد كنت أتمنى أن أجِيء إليك منذ مدة طويلة. فلما مررت الآن عرضاً قلت لنفسي: لماذا لا أصعد إليه، فأزوره زيارة قصيرة، مدة خمس دقائق؟ هل كنت خارجاً، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج. إذا سمحت فسأدخن سيجارة واحدة، لا أكثر...

قال راسكولنيكوف وهو يقدم لزائره كرسيًا ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغرقه حقاً:

- تفضل بالجلوس يا بورفيري بتروفتش!

انمحت مشاعره السابقة دون أن تخلُّ وراءها أي ظل. إنه ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم من المجرمين قطاع الطرق، خلال نصف ساعة، حتى إذا وضع المجرم سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعةً واحدة.

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفيري تماماً، ونظر إليه محدقاً،  
فظرفت عين بروفيري، وأشعل سيجارة.  
وَدَ راسكولنيكوف لو تقفز الكلمات من أعماق قلبه: «هيا، تكلم،  
تكلّم! ما بالك لا تتكلّم؟».

## الفصل الثاني

**أخذنا** ببدأ بورفيري كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ من دخانها نفساً، فقال:

- تبا للسجائر، إنها سم، سم حقيقي، ولكنني لا أستطيع تركها. إنني أسلع، وأشعر بحراك في حلقي، وألهث، وأختنق. وإذا إني جبان فقد ذهبت منذ أيام أستشير الدكتور بـ ..<sup>(63)</sup> الذي يظل يفحص المريض مدة نصف ساعة minimum. فماذا قال الطبيب؟ سخر مني في أول الأمر ثم أخذ يمعن في جسأ وتسمعاً وتنصتاً، ثم قال: «أنت يؤذيك التدخين. رئتان متوسعتان». كلام جميل! ولكن كيف يمكنني أن أستغنی عن التدخين؟ وبماذا أستعيض عنه؟ إنني لا أشرب خمراً، وذلك مصدر البلاء كله. إن مصدر البلاء كله هو أنني لا أشرب خمراً. كل شيء نسيبي كما ترى يا روديون رومانوفتش. كل شيء نسيبي!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمئزاً: «أتراه يريد أن يستأنف شطارته؟» وعادت إلى خياله ذكرى لقائهما الأخير فجأة، فازدحمت في قلبه العواطف التي كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء.

وتابع بورفيري بتروفيتش حديثه وهو ما يزال يفتش بنظراته الغرفة:

- ثم إنني قد سبق أن جئت إليك مساء أمس الأول. كيف؟ أكنت لا تعرف ذلك؟ نعم، جئت إلى غرفتك، إلى هنا. فكما حدث لي اليوم،

كنت ماراً أمام المنزل، فقلت لنفسي: «ماذا لو زرته زيارة قصيرة؟» ثم صعدت، فرأيت الباب مفتوحاً على سعته. ونظرت، وانتظرت برهة، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمى. ألسنت تغلق بابك بالمفتاح أبداً؟

اكفهار وجه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهار. وبدا على بورفيري أنه حذر ما يجول في فكره. وتتابع كلامه فقال:

- أنا إنما جئت لأبرّ لك سلوكي يا عزيزي روديون رومانوفتش، لأبرّ لك سلوكي! نعم، ينبغي لي أن أبرّ لك سلوكي وأن أعتذر عنه! وتتابع يقول هو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- ذلك واجب يقع على عاتقي، ولا بد لي من الوفاء به.

قال ذلك وهو يضرب ركبة راسكولنيكوف بيده ضربة خفيفة تعبر عن الألفة والمودة. ولكنه اتّخذ هيئة الجد والهم في تلك اللحظة نفسها تقريباً، وحالط نظرته شيء من الحزن، وذلك أمر استغراه راسكولنيكوف كثيراً، فإنه لم يسبق له في يوم من الأيام أن لاحظ أو تصور أن يكون لبورفيري بتروفتش وجه كهذا الوجه.

وتتابع بورفيري كلامه:

- لقد وقع بيننا في المرة الأخيرة مشهد غريب يا روديون رومانوفتش! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا في المرة الأولى أيضاً، ولكن في ذلك الوقت... على كل حال، لا ضير!.. المهم أنك تعدني في أغلبظن آثماً جانياً في حشك. هل تتذكر كيف افترقا؟ كانت أعصابك ثائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان... وأنا أيضاً كانت أعصابي ثائرة جداً وكانت ساقاي تصطakan. الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على نحو يكاد يوصف بقلة الأدب، وكانت تعوزه اللباقة والكياسة على الأقل. ونحن مع ذلك من الناس المهدبين (الجنتلمن)، حتى ليتمكن أن أقول إننا من هؤلاء الناس قبل كل شيء، وذلك أمر ما

ينبغي أن ننساه! نذكر المدى الذي بلغته الأمور... لقد كان ذلك أمراً غير لائق بالبنته... يجب أن نعرف بهذه الحقيقة.

تساءل راسكولنيكوف مدهشاً وهو يرفع رأسه وينظر إلى بورفيري محملاً: «ماذا يريد مني؟ ماذا يظنه؟»

وتتابع بورفيري كلامه فقال وهو يحول رأسه ويغض بصره، كأنه لا يريد أن يدخل الاضطراب إلى نفس ضحيته القديمة، وكأنه يكره أن يستعمل أساليبه العتيقة وشباكه المألفة:

- أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعمد إلى الصراحة. نعم، إن أمثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تنتكر. لقد جاءنيقولاي منذ أيام فاتضح كل شيء، ولو لا ذلك لمضت الأمور إلى حدود لا أدرى مداها! وما قولك في ذلك البائع العقير اللعين الذي قبع وراء الحاجز يتضئ؟ هل تتصور ذلك؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلي، فأنا أعلم أن الرجل قد جاء بعدئذ إليك أيضاً. غير أن الشبهات والشكوك التي قامت في نفسك كانت خطأ في الواقع. فأنا لم أستدعي أحداً، ولا اتخذت أي إجراء بعد. تسألني لماذا لم أتخذ أي إجراء؟ فماذا أقول لك؟ إن الأمر كله كان قد قلب عقلي رأساً على عقب. كل ما فعلته هو أنني استدعيت البوابين (لا شك أنك رأيتهم عابراً). إن فكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت في ذهني. ذلك أن اقتناعي يا روبيون رومانوفتش كان قد تَمَّ. وكنت أقول لنفسي: «إذا فاتني أمر فمن الممكن في مقابل ذلك أن أقبض على أمر آخر قبضاً كاملاً. أنت يا روبيون رومانوفتش شديد الاهتمام، بل أنت مفرط في شدة الاهتمام. تلك سمة من سمات خلقك وقلبك، أعتز بأنني (حسب تصوري) أعرفها بعض المعرفة على الأقل». ولقد كنت أدرك طبعاً، حتى في ذلك الوقت، أن المرء لا يرى في كل يوم شخصاً يأتي فيفضي إليه بما في نفسه دفعه واحدة. صحيح أن هذا يحدث، ولا سيما حين يكون

ذلك الشخص مرهقاً مهدود القوى، ولكن هذه الحالة نادرة. لا، لم تفتني هذه الحقيقة. لكنني كنت أقول لنفسي: «السوف يكفيوني مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة، صغيرة إلى أبعد حدود الصغر، على شرط أن تكون واقعة محسوسة ملموسة تختلف عن تلك الاستنتاجات السيكولوجية! ذلك أنه إذا كان هذا الرجل جانياً فلا شك أن في إمكاننا أن نتظر منه شيئاً محسوساً ملموساً. فمن حقنا إذاً أن نأمل في الحصول على نتائج هي أبعد ما تكون عن التنبؤ!». كنت أعوّل على طبعك يا روديون رومانوفتش، على طبعك خاصةً. وكنت أعقد على ذلك آمالاً كباراً!

تمتم راسكولنيكوف أخيراً يسأله حتى دون أن يدرك أنه يلقي سؤالاً:

- لماذا... لماذا تقول لي هذا الكلام كله الآن؟

ثم تساءل تائهاً في ظنون وتخمينات: «عم يتكلّم؟ هل يمكن أن يقع في اعتقاده حقاً أنني بريء؟»

قال بورفيري يجيئه عن سؤاله:

- لماذا أقول لك هذا الكلام؟ أنا إنما جئت لأبرر لك سلوكِي، لأقوم بواجب مقدس. سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حصل، أي كل قصة الخلاف بيننا جملةً. إنك قد قاسيت بسببي أشياء كثيرة يا روديون رومانوفتش. ولكنني لست شيطاناً رجيناً، وإنني لأدرك حق الإدراك مدى الألم الذي لا بد أن يكون قد أحدهه هذا كله في نفس إنسان مثلك، إنسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء، محب لقوّة الشكيمة، نافذ الصبر... نعم... لا سيما نافذ الصبر! مهما يكن من أمر، فإننا أعدك أعظم إنسان شرفاً، رغم أنني لا أشاطرك جميع آرائك، وهذا ما أحرض على أن أقوله لك بصرامة تامة، دون لف أو دوران، لأنني يهمني كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشك. إنني ما أن عرفتك حتى شُغفت بك. لعلك ستضحك مما أقوله لك، ومن حرقك أن تضحك. أنا أعلم أنك كرهتني منذ أول نظرة أقيتها عليّ، فلماذا يجب

عليك أن تحبني؟ مهما يكن من أمر، فإبني أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذي تركته في نفسك، وأن أبرهن لك على أنني، أنا أيضاً، إنسان يفيض وجداناً وعاطفة. أقول لك هذا بصراحة تامة.

توقف بورفيري عن الكلام برهةً في وقار. وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه. فهو حين يتصور أن بورفيري يظنه الآن بريئاً، يحس فجأة بربع.

وتابع بورفيري كلامه قال:

- ربما لم يكن ثمة داع إلى أن أحكي لك كيف بدأ كلّ ما جرى، بالترتيب؛ حتى أنتي أعتقد أن هذا غير مفيد، وأنا أعتقد على الأقل أنني لن أفلح في ذلك. فكيف أشرح لك الأمور شرحاً يبرر ظروف المسألة؟ في الأصل سرت شائعات. من أين جاءت تلك الشائعات؟ ماذا كانت تلك الشائعات؟ من أي ناحية كانت تعنيك؟ إنني أعتقد أنه لا داعي أيضاً إلى أن أذكر لك ذلك. أما أنا شخصياً فإن صدفة هي التي نبهتني، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث. ما هي تلك الصدفة؟ أظن أن الأفضل، هنا أيضاً، أن ألزم الصمت. إن ذلك كله (أعني تلك الشائعات، وتلك المصادفات) قد ساهمت في تكوين فكرة في رأسي. أعترف لك صراحةً - وعلى الإنسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف، أليس كذلك؟ - أعترف لك صراحةً بأنني كنت أنا أول من وضعك موضع الاتهام. إن كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التي من هذا النوع، لا قيمة لها البطة وليس تدل على شيء! بإمكانني إيجاد الكثير من مثل هذه الأمور، فهي لا تُعد ولا تُحصى.

وقد أتيح لي أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذي وقع في قسم الشرطة، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات. والشخص الذي روى لي ذلك المشهد لم يكن أيّ شخص، وإنما كان شاهداً

رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً. وكان ذلك كله يشبه بعضاً وبيؤيد بعضاً بعضه بعضاً يا عزيزي روديون رومانوفتش . فكيف لا تقوم في ذهني فكرة ما ، وكيف لا أسير في اتجاه ما؟ يقول مثل إنجليزي : مائة أربن لا تصنع حصاناً، ومائة شبهة لا تصنع برهاناً. هذه هي الحكمة بعينها طبعاً! ولكن أتى للمرء أن يقاوم الأهواء! ذلك أن قاضي التحقيق ليس إلا إنساناً! .. وقد تذكرت أيضاً مقالتك الصغيرة تلك التي كنت قد نشرتها في مجلة ، والتي حدثني عنها تفصيلاً حين زرتني أول مرة. لقد سخرت منك عندئذ، لكنني فعلت ذلك لأحدثك على الإدلة بمزيد من الاعترافات . أعود فأقول إنك قليل الصبر ومريض جداً، يا روديون رومانوفتش . وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جامح الاندفاع كثير الجد. لقد شعرت أنت بأشياء كثيرة، نعم شعرت بأشياء كثيرة... . وكنت أنا أقدر ذلك منذ مدة طويلة . إنني أعرف جيداً مثل هذه الإحساسات ، فحيين قرأت مقالتك خيل إلى أنني سبق لي أن قرأتها. لا شك عندي في أنك في ليالي أرق وحمى ، في ليالٍ كان قلبك فيها يخفق حفقاتاً قوياً عنيناً ويزخر بحماسة كان ينبغي لك مع ذلك أن تلجمها ، إنما تصورت تلك المقالة ، أليس كذلك؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب في نفسه... . ولشن سخرت من مقالتك عندئذ، فإنني أستطيع أن أقول لك الآن إنني أحببت كثيراً، (حبٌ هوایة والحق يقال) تلك المقالة الأولى النصرة المتاجحة التي جرى بها قلم شاب . صحيح أنها كانت ملأى بدخان، بضباب ، غير أن وتراً كان يهتز في ذلك الضباب وفي ذلك الدخان . وصحيح أن مقالتك كانت ملأى بنزوات خيال وتناقضات منطق ، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق! صحيح أن فيها شيئاً من كبرباء شاب نزية ونوعاً من صلف لا مسوغ له ، ومن تهور يائس مستميت ، وصحيح أنها قاتمة ، قاتمة جداً، ولكن ذلك كله حسن... . كنت قد قرأت إذن مقالتك ، ثم وضعتها جانبًا؛ لكنني حين وضعتها جانبًا قلت لنفسي : «إن رجلاً كهذا الرجل لن يكتفي بهذا». فقل لي من

فضلك : كيف كان يمكنني بعد تلك المقدمات أن لا أندفع إلى تلك النتائج؟ أتراني في هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن...؟... أتراني أؤكد شيئاً؟.. إنني لم أزد حينذاك على أن سجلت ملاحظات . ما الذي كان يضممه ذلك كله؟ لا شيء ، لا شيء البتة ، ربما لا شيء قطعاً! على أنني لا أستطيع ، وأنا قاضي التحقيق ، أن أتباهى باندفاعاتي وحماساتي تلك ! وهذا نيكولاي على ذراعي ، وهذه وقائع ملموسة تتناوله... إنها وقائع رغم كل شيء ، هي وقائع شئت أم أبيت ! وعندئذ كان لا بد من العودة إلى السيكولوجيا . ذلك أنني لا بد لي من الاهتمام بالأمر ، إن القضية بالنسبة إليه قضية حياة أو موت ، أليس كذلك؟ ربما سألتني لماذا أشرح لك هذا كله؟ فاعلم إذاً أنني إنما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر ، ومن أجل أن تبرئني في قراره نفسك وضميرك فما تحكم عليّ أو تدينني إذ تتذكر ما بدر مني في ذلك اليوم من خبث وشر. هذا عدا أن ما بدر مني لم يكن خبئاً أو شرآ ، أؤكد لك ذلك . هي هي هي! .. وأنت تقول لنفسك : «المزاد لم يجيء إلى مسكنني يفتشه حينذاك؟» فاعلم أنني جئت! هي! .. جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً . ولم أجيء بصفة رسمية ، ولكنني جئت . وفتش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنفع منه أخفى زواياه وأركانه . حدث هذا منذ أولى الشبهات... ولكن «دون جدوى»<sup>(64)</sup> ، عندئذ قلت لنفسي : «الآن ، سيفجيء هذا الرجل ، سيفجيء من تلقاء نفسه ، وسيجيء في وقت قريب جداً . إذا كان هو الجاني فلا بد أن يجيء . لو كان الجاني شخصاً آخر غيره ، فإن ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء ، أما هو فلا بد أن يجيء إذا كان جانياً». هل تتذكر كيف أخذ السيد رازوميixin يطلعك على الأمر؟ نحن الذين دبرنا هذا لنبث في نفسك الاضطراب ، ونحن الذين رتبنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميixin عاجزاً عن كظم غضبه وكبت استيائه . ذلك أن السيد رازوميixin واحد من أولئك الناس الذي لا يستطيعون أن يكتموا غيظهم . أما زاميتووف فإن الشيء الذي أدهشه فجأة إنما هو غضبك

وتهورك الصريح. عجيب أمرك: كيف يستطيع إنسان أن يعول قائلاً في حانة على حين فجأة: «لقد قتلت»! حقاً إن في ذلك لإسرافاً. هذا تهور غريب! .. وعندئذ قلت لنفسي: «إذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال». نعم، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك. وانتظرت. انتظرتك بكل ما أملك من قوى، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زاميوتوف... والمصيبة كلها إنما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين. كنت إذاً أنتظرك، فأرسلك الله إلى في ذات يوم! لقد جئت! لشد ما خفق قلبي في ذلك اليوم! ما كانت حاجتك إلى المجيء؟ وذلك الضحك، ضحكت المجلجل الذي كنت تطلقه حين دخلت، هل تذكره؟

ذلك كله كان في نظري واضحاً وضوح الماء النابع من الصخر. لقد حزرتُ كل شيء! ولكن لو لا أنني انتظرتك وأنا في حالة نفسية خاصة، لما كان لضحكك في نظري عندئذ أي دلالة. فانظر إلى قيمة أن يتوقع المرء شيئاً! والسيد رازوميixin، في ذلك اليوم... آآآ... والصخرة التي خُبِّئت تحتها الأشياء! يخيل إليَّ أنني أرى تلك الصخرة، أراها في مكان ما، في بستان من البساتين... أليس عن بستان إنما تحدثت إلى زاميوتوف أولاً، وعندي بعد ذلك؟ وحين أخذنا نحلل مقالتك، حين قمت أنت بعرض ما تضمنته تلك المقالة من آراء، فإن كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج: فوراء كل قول من تلك الأقوال كان يختبئ في نظري معنى مضمر. نعم، يا روبيون رومانوفتش، بهذه الطريقة إنما وصلت إلى تلك النقطة القصوى، ولكنني حين وصلت إلى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسى، كان لا بد أن أثوب إلى رشدي. قلت لنفسي: «إلى أين أنا ذاهب؟» ذلك أنتا نستطيع، إذا نحن شئنا، أن نفترض جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفًا لهذا التفسير كل المخالفة، بل مناقضاً له تمام المناقضة، ولعل التفسير الجديد أن يكون أقرب إلى الاحتمال. نعم، قد يكون أقرب إلى الاحتمال، إنني أعترف بذلك. لشد ما

تعذبت! قلت لنفسي: «لا، لا، إن أية واقعة تفصيلية صغيرة تنفعني أكثر مما تنفعني هذه الاستنتاجات كلها!» لذلك حين سمعت عن تلك القصة، قصة جرس الباب،رأيتني أوشك أن أسقط ، وسرت في جسمي رعشة. وأقول في سريرة نفسي : «آ... هاؤنذا أقع أخيراً على الواقعه التفصيلية المنشودة! هي بذاتها! ولم أحاول عندئذ أن أعمل عقلي وأن أفکر. كنت لا أرغب في ذلك أية رغبة. وكنت مستعداً لأن أدفع في تلك اللحظة ألف روبل في سبيل أن أراك بعيني تسير مائة خطوة، جنباً إلى جنب، مع ذلك البائع الصغير الذي قذف وجهك بذلك اللقب، لقب القاتل، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة أن تسأله عن أي شيء! وتلك الرعدات التي كانت تسرى في ظهرك، وذلك الجرس الذي كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك؟ فلماذا تستغرب مني بعد هذا، يا رو狄ون رومانوفتش، أني لجأت إلى تلك الطريقة التي تعرفها؟ ثم لماذا جئت إلى في ذلك الأوان نفسه؟ يميناً أن هناك شيئاً كان يدفعك للمجيء إلى دفعاً... ولو لا أن نيكولاي قد تدخل في أمرنا... ف... هل تتذكر وصول نيكولاي؟ هل تتذكره جيداً؟ آه... كان ذلك أشبه ببرعد مفاجئ! نعم، كأن الصاعقة قد نزلت عند قدمي. ولكن كيف استقبلت أنا ذلك؟ لم يهزني الرعد... لم تهزمني الصاعقة... ولم أصدق أقواله، ولا كلمة واحدة! لا بد أنك لاحظت ذلك. وبعد انصرافك، حين أخذ يجيب عن أسئلتي حول عدد من النقاط إجابات محكمة متواقة تبلغ من الإحكام والتوافق أنها أدهشتني حقاً، لم أشأ أن أصدق أقواله حينذاك. انظر إلى مدى تأثير الفكرة التي تقوم في الذهن وتستقر فيه راسخة! قلت لنفسي: «لا، لا، مورغن فري! «إلى صباح الغد!»<sup>(65)</sup> إن نيكولاي لا شأن له في هذا الأمر كله!».

قال راسكولنيكوف :

- قال لي رازوميخين منذ قليل إن اتهامك ينصب الآن على نيكولاي ، وأنك أقنعت رازوميخين بأن... .

ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه، فإن أنفاسه قد اختنقت. كان يشعر بانفعال شديد واضطراب لا يغالب، أثناء إصغائه إلى حديث هذا الرجل الذي ينفذ إلى سريرته بمثل هذا النفاد العميق وفي نفس الوقت يرفض استنتاجاته رفضاً قاطعاً. وكان يخاف أن يصدق ما كان يقوله له هذا الرجل، بل كان يرفض أن يصدقه، ويحاول بشرارة قوية ونهم شديد أن يدرك في كلماته معاني محددة دقيقة.

وكأنما أفرح بورفيري بتروفتش أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت، فصاح يقول:

- السيد رازوميixin! هى هى! .. ذلك أن المسألة كانت هي التخلص من رازوميixin: حيثما يتسع المكان لاثنين، يكن الثالث زائداً! رازوميixin شيء آخر، هو غريب عن هذا كله! ثم إنه جاء إلى شاحب الوجه شحوباً ... ولكن دع السيد رازوميixin جانباً الآن، كان الله معه! أما عن نيقولاي فهل يهمك أن تعرف أي نوع من الناس هو، أو كيف أتصوره أنا على الأقل؟ هو قبل كل شيء طفل. إنه لما يبلغ سن الرشد. ولست أدعى أنه خواف جبان على وجه الدقة، ولكن في وسعي أن أشبهه... بفنان! نعم! ولكن لا تسخر مني ومن تصوراتي هذه! هو ساذج. أي شيء يؤثر فيه. له قلب رقيق، وله خيال أيضاً. ولقد تعلم في المدرسة. وهو يحسن الغناء والرقص. ويظهر أنه يجيد رواية الحكايات الشعبية يسعى الناس إليه من بعيد ليسمعواها. وهو يضحك من صميم قلبه في كل مناسبة، ويظل يشرب حتى يسقط كالموتى من فرط السكر. ولكنه لا يشرب لأنه ميال إلى السكر، وإنما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يغرون به كما يغرون بطفلي، فهم لا يبرحون يصبون له خمراً! لقد سرق منذ مدة، ولكنه لم يدرك أنه سرق. قال في تفسير فعله: «تناولت ما كان ملقى على الأرض، فأنا إذن لم أسرق». هل تعرف أنه من فئة: راسكولنيكي؟، بل ومن الطائفين<sup>(66)</sup>? على كل حال، كان عدد من أفراد أسرته قد انتما إلى ملة

«الجواليين»<sup>(67)</sup>؛ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ النساك في الأقاليم مدة ستين. ذلك كله قد عرفته من نيكولاي نفسه ومن أهل بلدته زارايسك. أكثر من ذلك أنه كان ي يريد أن يفر إلى الصحراء مصرًا إصراراً شديداً. لقد كان متھمساً للتقى حماسة لا تصدق، فكان يقضي لياليه مصلياً متھجداً، ويقرأ الكتب المقدسة ويعيد قراءتها... الكتب القديمة... الكتب «الحقيقة»!<sup>(68)</sup>... ثم أحدثت فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً. أصبح يحب الجنس الضعيف، بل وأصبح يحب الخمرة بعض الحب أيضاً. وإذا إنه شديد التأثر بالبيئة التي تحيط به، فسرعان ما نسي شيخه. وأنا أعلم أن فناناً رساماً قد أخذ يهتم به، وكان يزوره ويعطيه دروساً من حين لآخر. ولكن في تلك الآونة، وقع ذلك الحادث المؤسف. استولى الخوف على الفتى في أول الأمر، فأراد أن يشنق نفسه أو أن يهرب. ما حيلتنا إذا كان الشعب قد كون لنفسه مثل هذه الأفكار عن قضائنا؟ إن كلمة «المحكمة» وحدها ترهب وتلقي الذعر في النفوس. ذنب من هذا؟ من يدرى هل تستطيع المحاكم الجديدة رد الأمور إلى نصابها؟<sup>(69)</sup> نعم، أسأل الله أن... على كل حال، فقد وضع نيكولاي في السجن. ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت إلى خياله هناك، ولا شك أن الكتاب المقدس رجع يفعل فعله في نفسه! هل تعرف يا روذيون رومانوفتش مدى ما لفكرة «الألم» من تأثير في بعض الناس؟ إن هناك أناساً يحبون أن يتأنموا لا في سبيل شخص من الأشخاص فحسب، وإنما هم يحبون أن يتأنموا وكفى، لأن على المرء أن يتأنم، وأن يقبل الألم ويرتضيه، لا سيما حين تفرض هذا الألم سلطات ما. لقد عرفت في الماضي سجينًا موادعاً مسالماً إلى أبعد الحدود، ليث في السجن سنةً بكاملها يتربع فوق المدفأة ليقرأ الكتاب المقدس في كل ليلة من الليالي، حتى بلغ من ذلك أنه في ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزه أي

استفزاز. ولكن كيف رمى السجين آجرته؟ لقد رماها عمداً بحيث تسقط بعيدة عن هدفها مسافة متر على الأقل، فلا تستطيع أن تجرح الشخص الذي كان يجب أن تتجه إليه. وأنت تخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدبر السجن!<sup>(70)</sup> لقد ارتضى الرجل أن «يتحمل الألم»! لذلك أراني أميل إلى الاعتقاد بأن نيكولاي يستهدف شيئاً من هذا النوع! بل إنني من ذلك لعلى يقين. يكفي أن ندقق في الواقع! ولكن نيكولاي لا يعرف أنني أعرف. ماذا؟ أترأك لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كشعبنا أفراد خارقون إلى هذه الدرجة؟ أؤكد لك مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد كثيرون. إن تأثير الشيخ في نيكولاي قد عاد يظهر الآن من جديد، لا سيما في اللحظات التي يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه. على كل حال، سيجيء فيقصّ على كل شيء هو نفسه! هل تظن أنه سيصر على أقواله؟ لترى أنه متراجع عنها! نعم، إنني انتظر، من لحظة إلى أخرى، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى. لقد أخذتني بنيولاي هذا عاطفة، ففكفت على التعمق في دراسته. هل تتصور، لقد استطاع في بعض النقاط أن يضفي على أقواله مظهر المعقولية. واضح أنه كان قد فكر في الأمر وحصل، كما يبدو، على المعلومات اللازمة. ولكنه في نقاط أخرى كان يتناقض. إنه لا يعرف شيئاً بالبنة، بل ولا يدرك أنه لا يعرف!.. لا يا روبيون رومانوفتش، ليس نيكولاي هو الجاني! نحن إزاء قضية غامضة عجيبة كالخيال. إن هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذي نعيش فيه، إنها تحمل طابع عصر اضطراب فيه القلب الإنساني، عصر يقول فيه بعضهم، مستشهاداً بأقوال كتاب ومؤلفين، إن الدم «يظهر»، عصر لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعى إلى الرخاء. نحن إزاء حلم يطوف برأس شاب أسكرته الأوهام والأخيلة، وسمّمت قلبه للآراء والنظريات! إن الجاني قد استجمم للقيام بتجربته قدرأً كبيراً من الجسارة، ولكن جسارته هذه ذات طابع خاص، حتى لكانه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه. لقد نسي أن يغلق

الباب وراءه، ولكنها قتلت، قتلت شخصين، انقياداً لنظريتها. وقد قتلت، لكنه لم يعرف كيف يستولي على المال؛ وما استطاع أن يحمله معه، إنما مضى بعد ذلك يدفنه تحت صخرة. ولم يكتف بأنواع القلق والخوف التي كان قد عاناهما في حجرة المدخل بينما كان يسمع قرعآ قوياً على الباب، وبينما كان الجرس يرُنْ بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو في حالة تشبه الهذيان، فرجع إلى البيت الخالي ليشعر مرة أخرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التي سرت بين كتفيه أول مرة... لنسلم بأن ذلك نتيجة من نتائج المرض، غير أن هناك شيئاً آخر: لقد قتلت، ولكنها يعتقد أنه إنسان شريف، وهو يحتقر الناس، ويصطفع دور ملاك من الملائكة! لا يا روديون رومانوفتش، ليس نيقولا이 هو الجاني، لا يا عزيزي، ليس هو نيقولا이 أبداً!

تمتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مختنق وقد نفذت قدرته على الاحتمال:

- من... الذي... قتل... إذن؟

فارتد بيوتر بتروفتش إلى وراء مستندأ على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذله، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه:

- من قتل؟ سؤال عجيب... الذي قتل هو أنت يا روديون رومانوفتش...

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع:

- أنت الذي قتلت!

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً، ولبث واقفاً بضع ثوانٍ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة. وطافت بوجهه حركات تشنجية.

دمدم بورفيري بتروفتش يقول بنوع من العطف:

- ها هي ذي شفتوك ترجف كما ارتجفت في المرة السابقة.

ثم أضاف بعد صمت قصير:

- أحسب أنك لم تفهمني جيداً يا روديون رومانوفتش، وذلك هو السبب في أنك مدهوش إلى هذه الدرجة من الدهشة. أنا إنما جئت إليك لأقول لك كل شيء، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً.

ثانياً راسكولنيكوف يقول كطفل ضبط متلبساً بالجريمة:

- ما أنا الذي قتل!

فأجابه بورفيري بهمس وبلهجة رصينة فيها افتتاح:

- بل أنت الذي قتلت ولا أحد غيرك!

وسكطت الاثنين. وأعقب ذلك صمت، صمت غريب طويل، دام عشر دقائق على الأقل. كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة، وأخذ يبعثر شعر بأصابعه. وقد ظل بورفيري بتروفتش جالساً، هادئاً، يتظر. وفجأة نظر إليه راسكولنيكوف باحتقار وقال؟

- تستأنف أساليبك يا بورفيري بتروفتش؟ أتظل تستعمل أساليبك الأبدية هذه؟ ألا تشعر بملل وسام من هذا آخر الأمر؟

أجابه بورفيري:

- أوه! لا داعي الآن للأساليب! لو كان هنا شهود، لاختطف الأمر طبعاً، ولكننا نتحدث على انفراد في خلوة! أنت نفسك ترى أنني لا أجيء إليك لأنصب لك شباكاً وأصطادك كأرنب! إنه ليس توي عندي الآن أن تعرف وأن لا تعرف! فاقتناعي قائم على كل حال!

سأله راسكولنيكوف غاضباً:

- فلماذا جئت إذا كان الأمر كذلك؟ إبني أطرح عليك هذا السؤال من جديد: إذا كنت ترى أنني أنا الجاني، فلماذا لا تسجنني؟

- هذا سؤال معقول فعلاً، وسوف أجيبك عنه نقطة نقطة، فأقول أولاً: إنه ليس من مصلحتي أن أعتقلك منذ الآن...

- كيف لا يكون هذا في مصلحتك؟ إذا كنت مقتنعاً فيجب عليك  
أن . . .

- ما قيمة اقتناعي؟ إنه لا يقوم حتى الآن إلا على افتراضاتي. ثم فيم  
أضعلك هنالك فترتاح؟ لو سجنتك لأرحتك. إنك تعرف الجواب ما  
دمت قد أقيمت السؤال. ولنفرض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الحقير  
فقلت له: «أتراك ما تزال سكران؟ من ذا الذي رأني معك؟ أنا لم أزد  
على أن عدتك سُكِّيراً لأنك كنت سكران!»، فبماذا يمكنني عندئذ أن  
أعترض؟ لا سيما وأن روایتك ستكون أقرب إلى العقل من روایته هو،  
لأن أقواله لن تكون قائمة إلا على السيكلولوجيا وستكون أنت قد ضربت  
على وتر حساس لأن هذا الأبله سُكِّير مدمٌن حقاً، فما من أحد يجهل  
ذلك. ومن جهة أخرى، ألم أتعترف لك أنا نفسي، مراراً، بأن هذه  
السيكلولوجيا ذات حدين، وبأن الحد الثاني أهم من الحد الأول شأنها  
وأبلغ خطراً. هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أي دليل وضعفي عليك.  
طبعاً، سأمر باعتقالك؛ ورغم أنني، على خلاف السنن والأصول،  
جئت إليك لأعلن لك ذلك، فإنني على خلاف السنن والأصول أيضاً،  
أصرّح لك بأن اعتقالك ليس في مصلحتي. ذلك أولاً، وأما ثانياً، فإنني  
قد جئت من أجل أن . . .

- من أجل ماذا، ثانياً؟

كان راسكولنيكوف يلهث. فأجابه بورفيرى:

- سبق أن قلت لك! لقد جئت إليك من أجل أن أبرر سلوكي وأعتذر  
عنه! ذلك حق لك على. لا أريد أن تعدني شيطاناً رجيناً، لا سيما  
وأنني أضمر لك عاطفة طيبة صادقة، صدّقت أم لم تصدق! ينتفع عن  
ذلك - وهذه هي النقطة الثالثة - أنني جئت إليك لأقترح عليك اقتراحًا  
صريحاً بدون أية فكرة مبيبة: إنني أشجعك على أن تتفقاً هذه الدمل،  
فتمضي تعترف بأنك أنت الجاني. ذلك أفع لك، وأجدى عليك، وهو

أنفع لي أنا أيضاً، لأنه يخلصني من هذا العبء! ما قولك؟ أليس هذا  
الاقتراح صراحة مني؟

فَكَرْ راسكولنيكوف دقيقة، ثم قال:

- اسمع يا بورفيري بتروفتش، لقد قلت أنت نفسك إن كل ما تملكه  
من قرائن ضدّي لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً، وأنت مع ذلك  
تتوق إلى دليل رياضي. فما الذي يضمن لك أنك لست على خطأ؟

- لا، يا روديون رومانوفتش، لست على خطأ. أنا أملك الآن  
دليلًا، دليلاً اهتديت إليه منذ مدة. إن الله هو الذي أرسل إليّ هذا  
الدليل.

- أي دليل؟

- لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش. ثم إنني أصبحت لا أملك  
حق التأجيل، فسوف أعتقلك، ولكن أحكم على الأمر بنفسك: أنا الآن  
لا يهمني القرار الذي قد تتخذه، ومعنى هذا أنني إنما أكلمك في سبيل  
مصلحةك وحدها. شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك إلى  
السلطات للاعتراف بفعلتك خير لك.

ضحك راسكولنيكوف ساخراً، ثم قال:

- كلامك ليس مضحكاً فحسب، بل هو أحمق أيضاً. هبني أنا  
الجاني (وذلك ما لا أعلن له قط) ففيه أمضي أشي بيّنافي لكم وقد قلت  
لي أنت نفسك أنك ستستجني حتماً «للراحة»؟

- يا روديون رومانوفتش، لا تسرف في فهم ما أقوله لك فهماً  
حرفيًا. من العائز جداً أن لا تكون هي «الراحة» تماماً! وما هذا إلا  
نظيرية خاصة بي، وهل أنا في نظرك حجة؟.. ولعلني أنا نفسي أخفى  
عنك في هذه اللحظة شيئاً ما. إنك لا تستطيع أن تطمع في أن تتلقى  
مني جميع مساراتي وأن تستعملها على هواك! أما النقطة الثانية، أعني  
الفوائد التي ستتجنىها من الاعتراف، فهي واضحة وضوحاً تماماً فيما

أظن . فَكُرْ في تخفيف العقوبة التي يمكن أن تنالها ، فَكُرْ في هذا التخفيف وحده ! في لحظة قد نسب فيها شخص آخر إلى نفسه جريمة القتل ، وببلل القضية كلها . . . على كل حال ، فإن لك على عهداً أمام الله أنني سوف أعرف كيف ألف وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه ، حتى يكون مجئك كأنه مفاجئٌ مفاجأة تامة . سوف نخرُب كل ذلك الصرح السيكولوجي ، سوف أبدُّ جميع الشبهات التي قامت ضدك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية ، وهي في الحق كذلك . أنا رجل شريف يا روبيون رومانوفتش ، وسأحقق وعدِي وأفي بعهدي .

خفَض راسكولنيكوف رأسه . وبعد صمت طويل ، ابتسم من جديد ، ولكن ابتسامته كانت في هذه المرة رقيقة أسيانة .

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفي شيئاً أمام بورفيري :

- لست في حاجة إلى تسامحك !

فهتف بورفيري يقول متذمراً كأنما على غير علم منه :

- ذلك بعينه هو ما كنت أخشاه ! نعم ، أنا إنما كنت أخشى أن لا تكون في حاجة إلى تسامحنا !

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة ؛ وتابع بورفيري كلامه فقال :

- لا تحتقر الحياة هذا الاحتقار ! إن الحياة ما تزال طويلة أمامك .  
كيف لا تحتاج إلى التسامح ؟ كيف لا تحتاج إليه ؟ ألا إنك لصعب المراس حقاً !

- ما عسى يكون أمامي بعد الآن ؟

- أمامك الحياة ! أنتنبي ؟ ما أدراك ؟ ابحث تجد<sup>(71)</sup> ! لعل الله يجربك بهذا . . . ولن تكون القيود أبدية !

قال راسكولنيكوف هو يبتسم ابتسامة ساخرة :

- سوف يخففون عقوبتي!

- لعل خجلاً بورجوaziًا هو الذي يمنعك، على غير علم منك، من أن تعرف بأنك أنت الفاعل؛ لأنك شاب غرّاً ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا.

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار وفيها شيء من الاشمئزاز أيضاً، كأنه لا يريد أن يتكلم:

- لست أبالي بهذا كله!

ثم بدا عليه أنه يهم أن ينهض كمن يريد أن يخرج إلى مكان ما، ولكنه عاد يجلس، وهو ينوء تحت عباء يأس كبير لا يستطيع إخفاءه! قال بورفيري:

- لست تبالي؟ إنك إنسان كثير الشك والارتياح، فأنت تظن أنني أحاروأ أن أتملك فظاظاً ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة الواسعة العميقـة كلها؟ أنت تفهم هذا القدر كله من شؤون الحياة؟ لقد تخيلـ نظرية وهو يستحيـ أن يراها تتحقق وتسقط، أو أن يلاحظ على الأقلـ أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثيرـ من جدة وأصالـة؟ ألا إنـ ما خرج من نظريـك لهـ أقربـ إلى السـوء فـعلاً! ولكنـك لـست سـافـلاً ضـاعـ إلى الأـبدـ! أـنت لـست ذـلك السـافـلـ، لاـ! ولكنـك عـلـى كلـ حالـ، لم تـعنـ التـفكـيرـ فيـ الأـمـرـ كـثـيرـاً، بلـ تـطـرقـتـ فـمضـيـتـ إـلـى الحـدـ الأـقصـى عـلـى كلـ حالـ! هلـ تـعـرـفـ مـاـذـا أـعـدـكـ؟ أناـ أـعـدـكـ واحدـاـ منـ أولـثـكـ النـاسـ الـذـينـ لوـ كـانـواـ مـخـوزـقـينـ لـنـظـرـواـ إـلـى جـلـادـيـهـمـ مـبـتـسـمـينـ إـذـ كـانـواـ قدـ اـهـتـدـواـ إـلـى إـيمـانـ أـوـ إـلـهـ! فـاهـتـدـ إـلـى إـيمـانـ وـإـلـهـ فـتحـيـاـ! أـنتـ أـولـاـ فيـ حـاجـةـ إـلـى تـبـدـيلـ الـهـوـاءـ مـنـذـ زـمـنـ طـوـيلـ. أـنـ الـأـلـمـ شـيـءـ حـسـنـ هوـ أـيـضاـ. فـعـلـيكـ بـالـأـلـمـ! مـنـ يـدـرـيـنـاـ أـنـ نـيـقـولاـيـ لـيـسـ عـلـى حقـ إـذـ هـوـ يـنـشـدـ الـأـلـمـ وـيـبـحـثـ عـنـهـ وـيـسـعـيـ إـلـيـهـ! لـغـلـكـ لـاـ تـصـدـقـنـيـ - أـنـاـ أـعـرـفـ ذـلـكـ - وـلـكـ لـاـ تـحـاـولـ أـنـ تـسـرـفـ فـيـ التـحـلـيـلـ، بلـ اـسـتـسـلـمـ لـتـيـارـ الـحـيـاةـ دـوـنـ تـفـكـيرـ، وـدـعـ

عنك القلق، فإذا بتيار الحياة يضيعك على الشاطئ، فتقف على قدميك.  
لا أدرى ما هو الشاطئ الذي سيوصلك إليه التيار، ولكنني مقتنع بأن  
 أمامك حياة طويلة ستحياها. أنا أعرف أنك تعدّ أقوالى هذه خطبة  
 محفوظة ومكرورة، ولكن لعل هذه الأقوال ستنتفعك حين ستذكرها في  
 المستقبل، وذلك أيضاً سبب من الأسباب التي تحضني على مخاطبتك.  
 من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل إلا عجوزاً شمطاء شريرة.  
 فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا  
 مائة مليون مرة. لذلك ربما كان عليك أن تحمد الله وأن تشكره! وربما  
 كان الله، على كل حال، يدخرك لشيء ما، من يدريك! فارتفع بقلبك،  
 وارتق بعواطفك، ولا تكن صغيراً جباناً! هل العمل العظيم الذي يجب  
 القيام به هو الذي يخيفك حقاً؟ لا، لا! عازٌ أن تخاف من هذا! لقد  
 خطوت، فخذار أن تتراجع! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدل.  
 فافعل ما يوجبه العدل. أنا أعلم أنك لا تصدقني، ولكن أنا على ثقة أن  
 الحياة هي التي ستنتصر، وأنك سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد  
 ذلك. أما الآن فأنت لست في حاجة إلا إلى هواء، إلا إلى هواء! ..

سرت في جسم راسكولينيكوف رعدة. وهتف يقول:

- ولكن من أنت، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التي هي أوضاع  
نبي! من عليه أية ذرى هادئة تلقي إلى بهذه المواقع والحكم والعبور  
المزعومة؟

- من أنا؟ أنا إنسان محدود، لا أكثر من ذلك. إنسان لعله حساس  
 ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين، ولعله يعرف بعض الأشياء،  
 ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود. أما أنت فشأنك شأن آخر: إن الله  
 قد هيأك لحياة حقة (ولكن من يدرى؟ لعل ذلك أن لا يكون إلا ناراً كنار  
 الهشيم ما تثبت أن تنطفئ)، فما خوفك من التغيير الذي سيطرأ على  
 حياتك؟ هل يأسف على حياة الدعة والرخاء إنسان له قلب كقلبك؟

ماذا؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك أحد؟ إن الأمر ليس مرهوناً بالزمان، بل هو مرهون بك. كن شمساً فيراك جميع الناس. ليس على الشمس إلا أن توجد، إلا أن تكون عين ذاتها! ما الذي يجعلك تبتسم؟ هل الذي يحملك على الابتسام أنك تجذبني شاعراً؟ يميناً أنك لتظن أنني أمكر وأراوغ وأنني أريد أن أتملكك! وربما كنت على حق وأنا أتملك، هي هي؟ أنا لا أسألك أن تصدق كلامي يا روبيون رومانوفتش! ولعلك تحسن صنعاً إذا أنت لم تصدق كلامي تصديقاً كاملاً في يوم من الأيام. إن من عادتي أن لا أكون صادقاً صدقاً تماماً، أتعرف بهذا! ومع ذلك، إليك ما أريد أن أضيفه: سوف تُريك الأحداث أنا إنسان شرير أم أنا إنسان مستقيم شريف.

- في نيتك أن تعقلني متى؟

- أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخر أو يومين. ففَكِّر يا صديقي، وادع الله. هذا من مصلحتك. أقسم لك على أنه من مصلحتك... سأله راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

- فماذا لو هربت؟

- لن تهرب! قد يهرب فلاح، وقد يهرب واحد من أشياخ النظريات الرائجة في هذا الزمان، لأنه أمرؤ يمكن أن يغرسوا فيه عقيدتهم إلى الأبد؛ أما أنت فلا، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريةك. فعلام عساك تهرب؟ ما هي الفائدة التي يمكن أن تجنيها من الهرب؟ ما أفعض وما آلم الحياة التي يحياها هارب! فالمرء إذا أراد أن يحيا، لا بد له من وضع مستقر، ومركز محدد، ولا بد له من هواء يستطيع أن يستنشقه! لتعودنَّ ثانية إذا أنت هربت! إنك لا تستطيع أن تستغنى عنا. إذا أودعتك في السجن مدة شهر أو شهرين مثلاً، فلسوف تجيء في ذات يوم فجأة فتعترف. لسوف تندفع إلى هذا على غير علم منك تقريباً. تذكر هذا الكلام الذي أقوله لك. بل إنني لعلى يقين من أنك سوف تعزم أمرك

على التكبير. أنت لا تصدقني الآن. ولكنك سوف تجيء، لأن الألم شيء عظيم يا روبيون رومانوفتش. لا يُدهشك أن تسمعني أتكلم هذه اللغة أنا الرجل الذي أسمنته دعة العيش. إنني أقول الحق فلا تسخر! في الألم فكرة عظيمة! إن نيكولاي على حق. لا، لن تهرب يا روبيون رومانوفتش!

نهض راسكونيكوف وتناول قبعته. ففعل بورفيري بتروفتش الأمر نفسه.

- هل تريدين أن تقوم بجولة؟ إن المساء يبشر بليلة جميلة، إذا لم تهب عاصفة... على كل حال ربما كان ذلك أفضل، فإن الهواء سيزداد بهذا طراوة...

قال راسكونيكوف بلهجة جافة حازمة:

- لا يذهبن بك الظن إلى أنني أدليت لك اليوم باعترافات. أنت إنسان غريب، وأنا لم أصغ إليك إلا من باب الفضول، لكنني لم أتعرب لك بشيء... تذكري هذا!

- طيب طيب... دعك من هذا الكلام... هذه أمور معروفة... لا، لن أنسى! انظروا كم يرتعش! لا تقلق يا عزيزي. سنتزم رغبتك. تنزه قليلاً، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود.

قال بورفيري ذلك ثم أضاف خافضاً صوته:

- بالمناسبة: هناك رجاء آخر أود أن أتووجه به إليك. هو رجاء حرج بعض الشيء، ولكن لا بأس: إذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف، لأنني لا أصدق أنك قد تعمد إلى ذلك المخرج)، أقول إذا اتفق في غضون الساعات الثمانية والأربعين أو الخمسين أن تختتم الأمر على نحو آخر، أقصد على نحو خارق، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذني على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا كلمة موجزة، لكنها واضحة: سطرين، لا أكثر من سطرين، تقول لنا فيها أين توجد الصخرة. ذلك

أنبل... هيئا... إلى اللقاء... أسأل الله أن يلهمك الصواب!

قال بورفيري ذلك وانسحب حانياً رأسه، متحاشياً أن ينظر إلى الفتى. فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر، بصير نافد، اللحظة التي يقدر أن قاضي التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً. ثم غادر الغرفة مسرعاً.

### الفصل الثالث

**ذهب** يبحث عن سفديجايروف متوجلاً. إنه يجهل هو نفسه ماذا كان يتظر من هذا الرجل. غير أن هذا الرجل كان له عليه نوع من سلطان. ومنذ أدرك راسكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد إلى الهدوء سبيلاً، وقد آن له أن يخرج كل شيء إلى الضوء! وفيما كان يسير، كان يعذبه خاصة هذا السؤال: هل ذهب سفديجايروف إلى بورفيري؟

ولكن راسكولنيكوف كان يجيب عن هذا السؤال بقوله: إذا صدق ظني، فإن سفديجايروف لم يذهب إلى بورفيري بل إنني لمستعد أن أقطع يدي إذا كان سفديجايروف قد ذهب إلى بورفيري. وفكّر راسكولنيكوف مزيداً من التفكير، واستعرض بخياله زيارة بورفيري من جديد، فانتهى إلى هذه النتيجة: لا، لم يذهب إليه، لم يذهب إليه قطعاً!

ولكن إذا كان سفديجايروف لم يذهب إلى بورفيري حتى الآن، فهل سيذهب إليه، أم هو لن يذهب؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفديجايروف لن يقوم بهذه الزيارة، في هذه الفترة على الأقل. لماذا؟ ما كان لراسكولنيكوف أن يستطيع معرفة الأسباب التي تحمله على هذا الظن، وبه استطاع معرفتها، هبّ قادرأ

على تفسير كل شيء، فما كان له أن يصدّع رأسه منقباً عنها. صحيح أن ذلك كان يعذبه، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه أيسر همومه. شيء غريب، لا يكاد يصدق: إن مصيره الراهن، المباشر، كان لا يهمه إلا قليلاً، وكان هو لا يفكر فيه إلا ذاهلاً. أمّا ما كان يعذبه حقاً فهو شيء آخر، شيء أخطر شأنًا، شيء خارق، يخصه هو لا يخص أحداً سواه لكنه شيء آخر ومهם جداً. وكان إلى ذلك يحس بتعب روحي لا نهاية له، رغم أن دماغه كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام السابقة.

ثم هل يستحق الأمر، بعد كل ما حصل، عناء السعي إلى التغلب على المصاعب السخيفه وتذليل العقبات الكثيرة التي لن تثبت أن تظاهر في طريقه من جديد؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل أن لا يذهب سفديريجايلوف إلى بورفيري؟ هل من الضروري أخيراً أن يضيع وقته في دراسة رجل اسمه سفديريجايلوف والمداورة والمخاتلة معه؟

آه... ما كان أشد سأمه وضجره ومللـه من هذا كله! ..

ومع ذلك كان يبحث الخطى سعياً إلى سفديريجايلوف. أليس معنى هذا أنه كان ينتظر منه شيئاً جديداً، كان ينتظر منه توجيهات، أو مخرجاً؟ إن الغريق يتثبت أحياناً بقشة! ألم يكن القدر هو الذي يجمع بينهما؟ أم أن غريزة خفية هي التي تقرّب أحدهما من الآخر؟ أم أن الأمر كلـه لا يعلـو أن يكون إعياء وسأاماً ويسأماً؟ أم لعلـه كان في حاجة لا إلى سفديريجايلوف، بل إلى شخص آخر؟ أما سفديريجايلوف فقد عثر عليه راسـكولـنيـكـوف بمـحـضـ الصـدـفـةـ؟ إلى صـونـيـاـ؟ ولكن لماذا عـساـهـ يـذهـبـ في هذه اللـحظـةـ إلى صـونـيـاـ؟ ليـسـتـدرـ دـمـوعـهاـ؟ ثم إن صـونـيـاـ تـرـعـبـهـ: إن صـونـيـاـ تمـثـلـ الحـكـمـ المـبـرـمـ الذـيـ لاـ رـأـدـ لـهـ،ـ والـقـرـارـ الحـاسـمـ الذـيـ لاـ رـجـعـةـ عـنـهـ. لقدـ كانـ عـلـىـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ أـنـ يـخـتـارـ:ـ فـإـمـاـ أـنـ يـتـبعـ طـرـيقـهـ هـوـ وـإـمـاـ أـنـ يـتـبعـ الطـرـيقـ الذـيـ دـلـتـهـ عـلـيـهـ صـونـيـاـ.ـ لـاـ،ـ لـاـ،ـ إـنـهـ فـيـ هـذـهـ

اللحظة خاصةً لا يحس أنه قادر على أن يرى صونيا. أفلéis الأفضل أن يجرب حظه مع سفديريجايلوف؟ ولم لا؟ ثم إنه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف، في قرارة نفسه، أن سفديريجايلوف قد أصبح، منذ مدة طويلة، ضرورة له، بمعنى من المعاني.

ولكن الأمر غريب حقاً: ماذا يجمع بين الرجلين؟ ماذا فيهما من شبه؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحدة. ثم إن في ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفرأاً إلى أبعد الحدود: لا شك أبداً في أنه فاجر عاهر فاسق، ولا شك أبداً في أنه مراوغ مخالط ماكر، بل ربما كان كذلك شريراً إلى أبعد حدود الشر! .. صحيح أنه يعتني الآن اعتماد نشيطاً بأولاد كاترينا إيفانوفنا، ولكن من ذا الذي يعرف الأغراض التي يهدف إليها من وراء ذلك؟ إن لهذا الرجل دائمآ نيات خفية!

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام، رغم أنه حاول أن يطردتها من شدة ما كانت تؤلمه. كان يقول لنفسه: «إن سفديريجايلوف لا يربح يدور حولي، وهو يدور حولي حتى في هذه اللحظة. لقد اكتشف سفديريجايلوف سري. وأنه يبيت نيات لدونيا. ألا يزال يبيت لها هذه النيات؟ إن المرء ليكاد يجيب عن هذا السؤال بكلمة نعم على وجه اليقين. فماذا لو أراد سفديريجايلوف، بعد أن عرف سري وأصبح له سلطان على، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضد دونيا؟

كانت هذه الفكرة تعذّبه حتى في نومه، ولكنها لم تعرّض له بهذا الوضوح الصارخ في يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه إلى سفديريجايلوف، فتثير فيه غضباً شديداً قاتماً. هي أولآ تغيير كل شيء، حتى وضعه هو: إن عليه الآن أن يكشف عن سره لدونيا؛ وربما كان عليه أن يبادر إلى تسليم نفسه ليمعن دونيا من القيام بأي خطوة ليس فيها تعقل! الرسالة! إن دونيا قد تلقت رسالة في هذا الصباح نفسه. فمن ذا

الذى يمكن أن يكتب إليها من بطرسبرج؟ (أهو لوجين حقاً؟). صحيح أن رازوميixin يحرسها، ولكن رازوميixin لا يعرف من الأمر شيئاً. فهل يجب عليه أن يفضي بالحقيقة إلى رازوميixin أيضاً؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل! وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة.

وقال يحدث نفسه جازماً: «على كل حال، يجب أن أرى سفريجايروف بأقصى سرعة ممكنة. الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأناً وأهون خطراً من جوهر القضية. ولكن ماذا لو كان في وسع سفريجايروف أن يفعل شيئاً، أن يتآمر على دוני؟ في هذه الحالة . . .».

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب في أعقاب ذلك الشهر الطويل من المعارك والانفعالات إلى حد أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه المشكلات، والإجابة عن مثل هذه الأسئلة، اللهم إلا بكلمات باردة يائسة كهذه: «في هذه الحالة، سأقتله!»

إن شعوراً ثقيلاً كان يجثم على صدره ويرهقه من أمره. وقف في وسط الشارع، وأجال بصره في ما حوله. أي طريق سلك؟ أين هو الآن؟ كان في شارع س . . . على مسافة ثلاثين أوأربعين خطوة من «سوق العلف» التي تجاوزها منذ قليل. إن الطابق الأول من مبني يقع على يساره، هو حانة. جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها. ومن كثرة الوجوه التي ترى عند النوافذ، يقدّر المرء أن الحانة ملأى بالناس. وهذه أصوات أغان تصل من القاعة، وأصوات زمارة وكمان وطبل، وصرخات حادة تنطلق من حناجر النساء.

هم راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما الذي جاء به إلى هذا المكان، ما الذي أوصله إلى شارع س . . . ! ولكن ما إن هم يقفل راجعاً حتى لمح سفريجايروف عند إحدى نوافذ الحانة، جالساً

إلى مائدة صغيرة وغليونه بين أسنانه. إن الدهشة التي أحسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب. كان سفدريجايلوف يراقبه ويتحصله صامتاً، وكان يبدو عليه أنه يريد أن ينهض، كأنه يحاول أن يتوازي قبل أن يُرى، وذلك أمر فاجأ راسكولنيكوف أيضاً. وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه، وأخذ ينظر إلى الجهة الأخرى واجماً مفكراً، مع استمراره في النظر إليه، بطرف عينه طبعاً. كان قلبه يخفق قلقاً واضطراباً. الأمر كذلك حقاً: واضح أن سفدريجايلوف لا يريد أن يُرى. لقد نزع غليونه من فمه، وحاول أن يختبئ، ولكنه حين أبعد كرسيه ليneathض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه، وأنه يرقبه ويرصد़ه. عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذي جرى بينهما عند أول لقاء لهما في بيت راسكولنيكوف، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم. هذه ابتسامة ماكرة تظهر على شفتي سفدريجايلوف وما تنفك تتضح.

إن كلاً منها يعرف أن الآخر يتتجسس عليه. وانطلق سفدريجايلوف يضحك ضحكة صاحبة آخر الأمر، ثم يقول له من على نافذته:

- هيّا ادخل، ادخل إذا شئت! أنا هنا!

صعد راسكولنيكوف إلى العانة. فوجد سفدريجايلوف في حجرة ضيقة جداً، ذات نافذة واحدة، قرب قاعة كبيرة يتحلق فيها حول ما يقرب من عشرين مائدة صغيرة، باعةً وموظفو وأناس من كل نوع يحتسون الشاي وسط صخب رهيب يحدّثه المغنون الزاعقون بصوت واحد. وعلى مائدة سفدريجايلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا مفتوحة وكأس نصف ملائي. وكان في هذه الحجرة الصغيرة صبي يحمل آلة موسيقية هي أرغن يدووي، وفتاة سمينة في نحو الثامنة عشرة من عمرها حمراء الخدين ربطة الوجنتين ترتدي تنورة مخططة مشمورة، وتضع على رأسها قبعةٌ تيرولية (نسبةً إلى جبال التيرول) مزدانة بأشرطة، ويتصفح

صوتها الأبع بأغنية عامة مبتذلة، رغم صخب غناء الجوقة في القاعة المجاورة. وكان الصبي يرافق غناءها بالعزف على الأرغن . . .

قال سفدريجايروف يقاطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف :

- هيا . . . كفى ! . . .

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً، واتخذت وضع الاحترام، وكان وجهها، منذ قليل، حين كانت تغني سخافاتها المسجوعة، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال.

نادي سفدريجايروف :

- هيء ! فيليب ! هات كأساً !

فقال راسكولنيكوف :

- لن أشرب خمراً.

- كما تشاء. ولست أنا دي فيليب من أجلك أنت. اشربي يا كاتيا. لم أعد في حاجة إليك اليوم. تستطيعين أن تنصرفي .

قال لها ذلك وقد صب لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبل. فأفرغت كاتيا الكأس بجرعات صغيرة متتالية دون أن تفصل شفتيها عن الكأس، كما تشرب النساء. ثم تناولت الورقة النقدية، وقبّلت يد سفدريجايروف الذي سمح لها أن تقبّل يده وهو يُظهر أكبر الجد، وخرجت يتبعها الصبي جازأً أرغنه. كان الصبي والفتاة قد جيء بهما كلِيهما من الشارع. إن سفدريجايروف ما كاد يقضي في بطرسبرج هذه الأيام الشمانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجو من الصحبة والألفة والسيطرة. إن فيليب خادم القاعة هو أيضاً «صديق» حميم، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة. وباب الحجرة يُغلق بالمفتاح، فإذا كان سفدريجايروف فيها فكأنه في بيته. ولعله كان يقضي في هذه الحجرة أياماً بكمالها. أما الحانة القدرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية .

بدأ راسكونيكوف فقال:

- كنت ذاهباً إليك ، كنت أبحث عنك . ولكنني لا أدرى ما الذي جعلني أدور فجأة إلى شارع س... قادماً من «سوق العلف». إنني لا أمر أبداً من هنا . وإنما أنا أنعطف دائمًا إلى يمين «السوق». فما إن درت إلى هذه الجهة حتى لمحتك ! شيء غريب !

- لماذا لا تقول إنها معجزة؟

- لأن من الجائز أن لا تكون إلا مصادفة!

قال سفديجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

- غريب تفكير هؤلاء الناس ! مهما يكونوا مقتنيين بوجود المعجزات فإنهم لا يعترفون بذلك ! أنت نفسك تقول إن «من الجائز» أن لا تكون إلا مصادفة ! آه... ما أجبنهم جميعاً أزاء اعتقاداتهم نفسها ! لا تستطيع أن تخيل يا روبيون رومانوفتش... لست أقصدك أنت... فأنت لك آراؤك الشخصية ، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية . حتى إنك بهذا نفسه إنما أثرت اهتمامي وأيقظت فضولي .

- بهذا وحده؟

- هو كافٍ جداً.

كان واضحاً أن سفديجايلوف مهتاج بعض الاهتمام ، ولكن اهتمامه لم يكن شديداً جداً: إنه لم يشرب إلا نصف كأس من خمر.

قال راسكونيكوف :

- يخيل إليّ أنك جئت تزورني حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن يكون لي ما تسميه رأياً شخصياً.

- آ... نعم... حينذاك كان الأمر غير هذا تماماً! لكل امرئ طريقته في التصرف. أما عن المعجزة فأقول لك: لا بد أنك كنت نائماً في هذين اليومين أو في هذه الأيام الثلاثة! لقد حددت لك أنا نفسي هذه

الحانة فإذا جئت إليها الآن رأساً فليس في الأمر إذاً أية معجزة. لقد وصفت لك الطريق الذي يجب أن تسلكه، وذكرت لك الساعات التي تستطيع أن تجده فيها. ألا تذكر؟

أجاب راسكولنيكوف مدهوشاً:

- نسيت!

- أصدقك. ولكنني ذكرت لك ذلك مرتين. فلا بد أن العنوان قد انطبع في ذاكرتك على نحو آلي، فإذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق على نحو آلي أيضاً، دون علم منك. مهما يكن من أمر، فإنني حين كنت أكلمك في ذلك اليوم، لم أعتقد أبداً أنك كنت تفهمعني. إنك لا ترافق نفسك مراقبة كافية يا روبيون رومانوفتش. على أنني أعرف أن كثيراً من الناس في بطرسبرج يكلمون أنفسهم بصوت عالي أثناء سيرهم. هذه مدينة سكانها أنصاف مجانين. لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع الأطباء ورجال القضاء والفلسفه أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات ثمينة، كل في ميدان اختصاصه. يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثير النفس الإنسانية بمؤثرات غامضة مظلمة حادة غريبة إلى هذا الحد. أ يكون مرد هذا إلى مناخها؟ ولكن لما كانت هي المركز الإداري لروسيا كلها فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد. على أن هذا ليس ما يهمني الآن. وإنما أردت أن أقول لك إنني قد سبق أن راقبتك أكثر من مرة. فأنت حين تخرج من بيتك تخرج على الرأس بما أن تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعقد ذراعيك وراء ظهرك؛ وأنت حينئذ تنظر، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك، ثم تأخذ تحرك شفتوك وتتكلم نفسك؛ بل يتافق لك أحياناً أن تحرك يديك بإشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك؛ ثم إذا أنت تقف فجأة في وسط الشارع وترفع إحدى يديك وتتكلّم بصوت عالٍ، ثم تلبت وسط الطريق مدة طويلة. هذا غير مستحسن أبداً. فربما كان

هنا لك أناس غيري يلاحظونك ويراقبونك، وأنت بهذا تسيء إلى نفسك وتتعرض للخطر. أقول لك ذلك بصراحة. صحيح أن الأمر لا يهمني، وأنني لست من سيسفك، ولكن لعلك تفهم . . .

سأله راسكولينيكوف وهو ينظر إليه مستطلعاً:

- أتعرف إنهم يلاحظونني؟

قال سفدريجايلوف مدهشاً:

- لا، لم أكن أعرف ذلك!

دمدم راسكولينيكوف مقطباً حاجبيه:

- فلا نتحدثن بعد الآن عنـي!

- طيب! لا نتحدثن بعد الآن عنـك!

- قل لي: إذا كنت تجيء إلى هنا لشرب، وإذا كنت قد حددت لي هذا المكان مرتين لأوانيك فيه، فلماذا اختبأت عـني منذ قليل حين نظرت إليك من الشارع حتى لقد أردت أن تصرف؟ لقد لاحظت ذلك وكان واضحاً كل الوضوح.

- هـى هـى! بل قـل لي أـنت: لـمـاذا، في ذـلـكـ الـيـومـ، بـيـنـماـ كـنـتـ أـنـاـ وـاقـفـاـ عـلـىـ عـتـبةـ الـبـابـ، ظـلـلـتـ أـنـتـ رـاقـدـاـ عـلـىـ سـرـيرـكـ، مـغـمـضـاـ عـيـنـيـ، مـتـظـاهـراـ بـالـنـوـمـ، معـ أـنـكـ لـمـ تـكـنـ نـائـمـاـ الـبـتـةـ؟ لـقـدـ لـاحـظـتـ ذـلـكـ وـكـانـ وـاضـحـاـ كـلـ الـوـضـوحـ!

- لـعـلـ هـنـاكـ أـسـبـابـاـ . . . تـدـعـونـيـ إـلـىـ ذـلـكـ، وـأـنـتـ نـفـسـكـ تـعـرـفـ هـذـاـ.

- ولـعـلـ هـنـاكـ أـسـبـابـاـ تـدـعـونـيـ أـنـاـ أـيـضاـ، رـغـمـ أـنـكـ لـنـ تـعـرـفـ مـاـ هـيـ تـلـكـ الأـسـبـابـ.

وضع راسكولينيكوف كوعه الأيمن على المائدة، وأسند ذقنه إلى يده اليمنى، وحدق إلى سفدريجايلوف، وظل دقيقة طويلة يتأمل هذا الوجه الذي ما انفك يحيّره. إنه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً: هو وجه

أبيض، أحمر الخدين، له شفتان قرمزيتان ولحية شقراء وشعر أشقر غزير؛ والعينان زرقاءان جداً، والنظرتان ثقيلتان مسرفة في الشقل، ثابتة مسرفة في الثبات. إن في هذا الوجه الوسيم الذي ظل شاباً نضراً رغم السنين، شيئاً منفراً إلى أبعد الحدود. وكان سفديريجايلوف يرتدي بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف، ويتميز خاصةً بقميصه الناصع البياض. وكانت إحدى أصابعه يتلألأ فيها خاتم كبير مرصع بحجر ثمين.

قال راسكونيكوف فجأة يمضي إلى هدفه رأساً وقد نفذ صبره:

- هل على حقاً أن أتحملك أنت أيضاً؟ لعلك أنت أخطر البشر حين تقرر أن تلحق بأحد ضرراً أو أذى، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أحاول إكراه نفسي. سوف أظهر لك على الفور أنني لا أقيم وزناً لشخصي إلى الحد الذي تتصوره. اعلم أولاً أنني إنما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة أنك إذا كنت ما تزال تصر على لأختي تلك النيات نفسها، وكنت تعول في سبيلها على استخدام السر الذي اكتشفته مؤخراً، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعني في السجن. إنني إذا قلت فعلت. هذا وإذا كان هنالك شيء تريده أن تفضي به إلى - وأنا أحسن منذ مدة أنك تريد أن تقول لي شيئاً ما - فأشرع إذ قد يفوت الأولان بعد قليل!

سأله سفديريجايلوف وهو يتغرس فيه مستطلاً مستغرباً:

- ولكن ما الذي يحملك على هذا الإسراع كله؟

فأجاب راسكونيكوف نافذ الصبر مظلم الوجه:

- كل أمرٍ له طريقته.

قال سفديريجايلوف مبتسمًا:

- أنت نفسك تدعوني إلى الصراحة، ثم إذا بك ترفض أن تجيبي منذ أول سؤال ألقيه عليك. إنك ما تزال تتصور أنني أبيت مشاريع، وأضمم نيات، وهذا هو السبب في أنك تنظر إلى نظرة ريبة واشتباه. على أن هذا أمر يفهمه المرء فهماً تماماً في من كانت حالته كحالتك.

ولكن مهما تكن رغبتي في أن أحيا على تفاهم ووافق معك، فإنني لن أكلف نفسي عناء إزالة الغشاوة عن بصرك وتبييد أوهامك. ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء. ثم إنني لا أنوي البتة أن أتحدث معك في أمور خاصة جداً.

- فلماذا تحتاج إلى هذا الاحتياج كله إذا كان الأمر كما تقول؟ ذلك أنك ما تنفك تحوم حولي . . .

- لا لشيء إلا لأنك أمرت تشوق ملاحظته، وتحلو مراقبته. لقد فتنتني بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب. هذا كل شيء! ثم إنك أخو إنسانة اهتممت بها كثيراً؛ وطالما حدثتني عنك تلك الإنسانة مراراً وتكراراً، فاستنتجت من ذلك أن لك عليهما نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً، فهل هذا قليل؟ هي هي! على أنني أعترف لك بأن سؤالك يبدو لي معقداً تعقيداً شديداً، فيصعب علىي أن أجيب عنه. إليك هذا المثال: ألم تأت إلى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلم في أعمال؟ أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا صحيحاً؟

كذلك ألح سفديريجاييلوف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة خبيثة. ثم تابع كلامه :

- ألا فاعلم إذاً أنني، أنا أيضاً،منذ كنت في القطار الذي أفلني إلى بطرسبرج، كنت أعوّل عليك أنت نفسك، وأأمل أن تقول لي شيئاً جديداً... الخلاصة: كنت أأمل أن أفترض منك شيئاً. نعم! انظر إلى أي حد نحن أثرياء!

- أن تفترض مني ماذا؟

- ماذا أقول لك؟ أأنا أعلم؟ إنك لترى في آية حانة حقيرة موبوءة أقضى وقتى. إنني أجد في هذا اللذة. لذة؟ لا... هذه مبالغة. ولكن لا بد للمرء من أن يقضي وقته في مكان ما... حتى تلك المسكينة كاتيا... هل رأيتها؟ ويا ليتنى كنت على الأقل رجلاً شديد النهم

والشرابة أو رجلاً محبًا لأطابق الطعام! ولكن انظر قليلاً... هذا كل ما أستطيع أن أتتهمنه...

قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى ركن المائدة حيث يوجد طبق من معدن فيه بقايا شريحة كريهة من لحم البقر مع البطاطس. وتتابع كلامه :  
يُسأَل :

- بالمناسبة، هل تغدّيت؟ أما أنا فأنا ما كدت آكل قطعة حتى اكتفيت. وأنا لا أشرب الخمر أيضاً. لست أشرب إلا شمبانيا، ولست أشرب من الشمبانيا إلا كأساً واحدة تكفيوني السهرة كلها، عدا أن هذه الكأس تصدع رأسي. ولشن طلبت اليوم شمبانيا، فلكي أتعش قليلاً لأن عليّ أن أذهب إلى مكان ما بعد برهة؛ وهذا هو السبب في أنك تجدني على حالة نفسية خاصة جداً. منذ لحظة، اختبأت كتلميذ صغير، لأنني تخيلت أنك سوف تزعجني، ولكن أعتقد أن في وسعي ( هنا أخرج ساعتها) أن أبقى معك قرابة ساعة. الساعة الآن هي الرابعة والنصف. هل يمكنك أن تصدق؟ يا ليتني كنت شيئاً ما على الأقل... ليتني كنت مالك أرض مثلاً أو رب أسرة أو حتى جندياً، أو مصوراً، أو صحفيّاً، ولكن لا... لست شيئاً... لست شيئاً البتة... ليس لي أي اختصاص! حتى إنني أضجر بعض الأحيان. حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لي شيئاً جديداً.

- ولكن من أنت، ولماذا جئت إلى هنا؟

- من أنا؟ إنك تعلم من أنا: أنا نبيل، قضيت سنتين في سلاح الفرسان، ثم تسكت هنا ببطرسبرغ، ثم تزوجت مارفا بتروفنا وعشت في الريف. تلك سيرة حياتي!

- أنت، فيما أظن، مقامر. أليس كذلك؟

- مقامر؟ لا... أنا غشاش لا مقامر.

- كيف؟ هل غششت؟

- نعم، فعلت هذا أيضاً.
- فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً، أليس كذلك؟
- حدث هذا. وبعد؟
- كان في إمكانك على الأقل أن تقتل في مبارزة... ذلك أمر يفوت له الدم.
- لن أعارضك، لا سيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به وأجلّي فيه.  
أعترف لك بأنني إنما جئت إلى هنا من أجل النساء خاصة.
- أبعد دفن مارفا بتروفنا فوراً؟
- نعم. ثم ماذا؟ أي ضير تراه في أن أتكلم عن النساء هكذا؟  
بذلك أجاب سفديريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة صراحةً مفعمة.  
قال راسكولنيكوف:
- تسألني أي ضير أراه في أن يعيش المرء حياة دعارة؟
- حياة دعارة! آ... ذلك هو ما يحنقك. ولكن فلنمض في مناقشة الأمر على منهج سليم: سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة. أنني أميل اليوم إلى الشريرة كما ترى. قل لي: لماذا يجب عليَّ أن الجم اندفاعاتي وأكبُّت رغباتي؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن؟ إنهم شاغل على الأقل...
- فليست أمالك كلها إذا إلا آمالاً قائمة على الدعارة أو الفسق؟
- لنسلم بأنها الدعارة أو الفسق، ما دمت حريراً على ذلك. إنني أحب الأسئلة المباشرة على كل حال. إن للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الإنسانية ولا يخضع لنزوات الخيال، شيئاً باقياً مستمراً في الدم، كجذوة متوجحة، مستعدة في كل لحظة لأن تلتهب، لا تنطفئ في وقت مبكر، بل لا تقضي عليها السنون. ثم إن عليك أن تعرف أن الفسق شاغل من الشواغل...

- ليس في هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنيء نفسك به. هذا مرض، بل هو مرض خطير.

- آ... هذا ما ت يريد أن تنتهي إليه! إنني أواقفك على أنه مرض، كسائر الأشياء التي تتجاوز حدود الاعتدال. وحدود الإعتدال يتتجاوزها الناس، فبعضهم يتتجاوزها بطريقة، وببعضهم يتتجاوزها بطريقة أخرى. وينبغي للمرء طبعاً أن يعتدل، رغم أن هذا حساب دنيء. ولكن ما العمل؟ ما الحيلة؟ ذلك أن الإنسان إذا لم يتهيأ له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن ينتحر. إنني أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتماً، هذا عدا أن... .

- هل أنت قادر على أن تنتحر؟

أجاب سفدريجايروف متأففاً:

- يا له من سؤال!

ثم أضاف يقول متوجلاً، دون أن يصطعن مظهر التفاخر والادعاء ذلك الذي كان قد اصطنعه إلى ذلك العين، حتى أن وجهه قد تغير: - أرجوك لا تكلمني في هذا الموضوع!.. إنني أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر، ولكن ما حيلتي؟ إنني أخاف من الموت، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد. هل تعلم أنني أؤمن قليلاً بالغيبيات؟ - آه... هو شبح مارفا بتروفنا! أما يزال يظهر لك إذا؟

قال سفدريجايروف:

- لندع هذا الأمر! في بطرسبرج، لم يحدث هذا حتى الآن!  
ثم هتف يقول حانقاً:

- على كل حال، شيطان يأخذه... لا، لا، فلندع هذا الأمر، ولنتكلم في... هم... نعم... لم يبق لي إلا قليل من الوقت... لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً. خسارة! ذلك أن هناك أموراً كثيرة كان يمكنني أن أنقلها إليك.

- أهي أمور تتعلق بامرأة أيضاً؟

- نعم، بامرأة!.. حالة لا يتوقعها المرء أبداً... حالة ليست ما تظن... .

- أأنت لا تشعر إذاً بدناءة هذا الجو الذي تعيش فيه؟ أليس يؤثر فيك؟ هل فقدت القوة على... على أن تتوقف؟

- ماذَا؟ أأنت تكلمني عن القوة؟ هه... . أنك تذهلني دهشة الآن يا روبيون رومانوفتش، رغم أنني كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون هكذا! أأنت من يكلمني عن الفسق وعن جمال الفضيلة؟ إنك إنسان شاعر من نوع «شيللر»، إنسان مثالي! صحيح أن هذا كله طبيعي، حتى أن نقايصه هو ما يمكن أن يثير الدهشة... ولكن مع ذلك يبعث على الاستغراب... آه... خسارة أنتي لا أملك إلا وقتاً قصيراً! ذلك أنك من أكثر الناس إيقاظاً للاهتمام، وإثارة لحب الإطلاع. بالمناسبة: أنت تحب شيللر، أليس كذلك؟ أما أنا فأحبه جباً عظيماً.

قال راسكولنيكوف بشيء من الاشمئزاز:

- يا لك من مدعاً متفاخر!

فأجاب سفديريجايروف وهو يضحك مقهقاها:

- لا، أقسم لك!.. على أنتي لا أتفاني أقوالك. صحيح... أنا مدعاً متفاخر!.. لماذا لا أدعى وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذني أحداً؟ لقد قضيت سبع سنين في الريف، عند مارفا بتروفنا. لذلك فأنتي ما أن التقى برجل ذكي مثلك حتى أرتمي عليه. نعم... برجل ذكي، بل برجل يثير الاهتمام كثيراً كذلك. نعم، إنتي أسعد أكبر السعادة بالتحدث معي قليلاً، ناهيك عن أن نصف الكأس الذي شربته من الخمرة قد صعد إلى رأسي بعض الشيء، غير أن هناك أمراً كان له كثير من... ولكنني أؤثر أن اسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه. إلى أين أنت ذاهب؟

كذلك قال سفديريجايروف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأة مرتابعاً.

كان راسكولنيكوف قد نهض . لقد أزعجه أنه جاء إلى هذا المكان ، وأحس باختناق في صدره . إنه مقتنع الآن أنتم الاقتناع بأنه أمام أحقر وأدنى وغد حملته الأرض على ظهرها في يوم من الأيام .

قال سفديريجايروف ملحاً :

- ابق قليلاً ! لا تنصرف هكذا ! انتظر ! أطلب لنفسك ولو فنجان شاي ! هيئا اجلس ! أعدك بأن لا أكلمك في ترهات ، أقصد في ترهات عنني أنا ! اسمع ، هل تريد أن أروي لك كيف «أنقذتني» امرأة ، كما تقولون أنتم بلغتكم ؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول ، ذلك لأن تلك المرأة هي اختك . هل أستطيع أن أروي لك ... ثم إن هذا سيتيح لنا أن نرجي الوقت ...

- قل ما تشاء ، ولكن آمل أن ...

- لا تقلق ... اطمئن ... ثم إن آفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن توحى إلا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة والتفاهة !

**بدأ**

سفردريجاييلوف كلامه فقال:

- لعلك تعلم (ولقد ذكرت لك ذلك أنا نفسي على كل حال) أنتي قد أودعت في السجن لديون كانت عليّ . وكان المبلغ ضخماً لم يكن في وسعني أن أحاول سداده إطلاقاً. لا داعي إلى الإفاضة الآن في الكلام على الطريقة التي اشتربت بها مارفا بتروفنا حريري . هل تعرف مدى الجنون الذي يمكن أن تستسلم له امرأة تحب؟.. لقد كانت مارفا بتروفنا امرأة شريفة مستقيمة، ولم تكن بالغبية الحمقاء ، رغم أنها محرومة من أية ثقافة . فتصور أن هذه المرأة ، الشريفة الغيور ، قد ارتفست أخيراً، بعد مشاجرات وملامات كثيرة كريهة ، أن تعقد معها نوعاً من ميثاق ظلت متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة . يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر سنًا مني بكثير وبالإضافة إلى ذلك كانت تفوح منها رائحة قرنفل ، وقد بلغت أنا من الخسفة ومن الصدق في الوقت نفسه أنني أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيتحيل عليّ أن أظل وفيأً لها وفأة مطلقاً . فأغضبتها هذا الاعتراف وأخرجتها عن طورها ، رغم أن صراحتي قد أعجبتها بمعنى من المعاني فيما أعتقد . لقد قالت لنفسها : «معنى هذا أنه لا ينوي أن يخونني ما دام ينذرني سلفاً» ، وذلك هو الأمر الأساسي في نظر امرأة غيور . وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهي : أولاً على أنني لن أترك مارفا بتروفنا فقط ، بل أظل زوجها؛ وثانياً على

أني لن أتغيب أبداً إلا بإذنها؛ وثالثاً على أنني لن أتخذ خليلة ثابتة لها صفة الخليلة؛ ورابعاً على أن تسمع مارفا بتروفنا، مكافأة لي على ذلك، بأن أغازل الخادمات، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة، وخامساً أن أتحاشى، بمعونة الله، أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا؛ وسادساً أن أكاشف مارفا بتروفنا بالحقيقة إذا حدث، لا سمع الله، أن استولى على حب صادق وقوى. على أن مارفا بتروفنا سرعان ما اطمأنت في ما يتعلّق بهذه النقطة الأخيرة. إنها امرأة ذكية، فلم تستطع ان ترى في إلا رجلاً فاسقاً ماجناً، عاجزاً عن أي حب صادق وهو قوي. لكن الذكاء والغيرة شيئاً ثنان لا يتعارضان، ومن هنا يأتي البلاء. ثم إنك من أجل أن تحكم على أحد الناس حكماً حياديًّا، يحسن بك أن تخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية إزاء البشر والأشياء التي تحيط بك. إنني أعتمد على حسُك السليم أكثر مما أعتمد على أي ملكة أخرى. لعلك سمعت عن مارفا بتروفنا سخافات كثيرة. والحق أنها كانت تتصرف بكثير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً. ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك بأنني آسف أسفًا صادقاً على الأحزان الكثيرة التي سببتها لها، ولكن يكفي هذا، فيما أعتقد، «تألينا»<sup>(72)</sup> للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طرأ. لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت في أغلب الأحيان وأكظم كل غضب، وكان هذا الوضع المهدّب يبلغ هدفه ويتحقق الغاية منه في جميع الأحيان تقريباً. كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارفا بتروفنا، بل لقد كان يحظى برضاهَا وإعجابهَا، حتى إنها شعرت أحياناً باعتزاز بي. لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التي جرت لي مع أختك. والله وحده يعلم كيف رضيت أن تجاذف فتُدخل إلى منزلها فتاةً جميلةً هذا الجمال الرائع لتكون معلمة؟ إنني لا أنسّر هذا لنفسي إلا بأن مارفا بتروفنا كانت امرأة سريعة التأثير والانفعال، وأنها افتنت بأختك. نعم، لقد افتنت بها حقاً. ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجري مجرّى شيئاً بالنسبة إليّ، حتى إنني قررت هل تصدق ذلك؟ - أن لا أرفع عيني نحو

أختك . ولكن أختك ، آفدوتيا رومانوفنا ، قامت هي نفسها بالخطوة الأولى ، هل تصدق هذا؟ وهل تصدقني أيضاً إذا قلت لك إن مارفا بتروفنا قد مضت إلى حد الغضب حين لاحظت أنني لا أكلمها عن أختك أبداً ، وأنني أستقبل بغير اكتراث أو اهتمام الأحاديث المشبوهة التي كانت تسوقها لي عنها بغير إنقطاع . لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذي كانت تريد أن تصل إليه . وقد قصّت على أختك ، طبعاً ، كل ما أمكنها أن تعرفه عنني . لقد كانت لها هذه العادة السيئة ، وهي أن تروي أسرارنا العائلية لجميع الناس وأن تشكوني للملأ كافة ، فكيف يمكن أن لا تفعل ذلك مع صديقة جديدة فتاتنة كأختك؟ أغلب ظني أنهما كانتا لا تتحدثنان إلا عنني ؟ ولا شك في أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات القدرة السرية التي كان الناس يتناقلونها عنني . . . بل إنني لأراهن على أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت !

- فعلاً! حتى أن لوجين اتهمك بأنك كنت السبب في موت طفل .

هل هذا صحيح؟

أسرع سفدريجايلوف يجيب ممتعضاً :

- لا تحرّك هذا الوحل كله ، أرجوك! .. إذا كنت حريصاً حرضاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقارات ، فساقص علىك خبرها يوماً في الوقت المناسب ، أما الآن . . .

- وقد حدثوني أيضاً عن خادم لا أدرى ما هو ، كان عندك في الريف ، وقالوا إنك كنت أنت السبب أيضاً . . .

قاطعه سفدريجايلوف وقد فقد صبره فقداناً واضحاً :

- أرجوك! كفى! ..

وتتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحق متزايد :

- أتراء هو بعينه ذلك الخادم الذي كان بعد موته يعود يملأ غلينك؟  
لقد قصصت علىي أنت نفسك . . .

نظر إليه سفديجايلوف بانتباه، وخُيّل إلى راسكولنيكوف أنه يرى ابتسامة خبيثة تلم بتلك النظرة السريعة كالبرق. ولكن سفديجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهديف:

- نعم، هو بعينه. أرى أنك أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله؛ فلك علىّ، عند أول فرصة، أن أرضي فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك في جميع النقاط. شيطان يأخذني! أرى أنني سأنتهي إلى أن يعدني جميع الناس شخصاً رومانسياً خيالياً. فاحكم، بعد هذا، مدى ما أدين به لمارفا بتروفنا من شكر وامتنان لأنها قصت على أختك جميع هذه الأشياء السرية الشائقة! لا أستطيع أن أتبأ قطعاً بالأثر الذي شعرت به آفدوتيا رومانوفنا نحوه، وكل ما أعلمته هو أنني سأستفيد... فرغم الكره الذي أحست به آفدوتيا رومانوفنا إزائي، وهو كره طبيعي جداً على كل حال، ورغم هيئتي المظلمة المتوجهة الكالحة عامةً، فقد أشفقت علىّ أخيراً كما تشفع المرأة على إنسان ضائع! وحين يمتليء قلب فتاة بالشفقة، إنما تتعرض لأكبر خطر. فهي تريد حتماً أن «تنقذ»، أن ترد إلى الصواب، أن تدعوه إلى الأغراض السامية أن تحسي، أن تبعث حياة جديدة... إن تفعل كل ما يمكن تخيله على هذا النمط من المعاني. وسرعان ما أدركت أنا أن الطائر الصغير قد يطير إلى الشبكة من تلقاء نفسه، وسرعان ما بادرت من جهتي إلى اتخاذ الاحتياطات. يخیل إلى أنك تقطب حاجبيك يا روديون رومانوفتش. أنت مخطئ: إن القصة كما تعلم، قد اقتصرت على سفاسف (أو أنني أسرف في شرب الخمرة!) هل تعلم؟ لقد أسفت دائماً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك في القرن الثاني أو القرن الثالث، بمكان من الأمكنة يمكن أن تكون فيه بنت أمير أو حاكم أو والٍ في آسيا الصغرى فلو قد حدث ذلك إذاً لكانوا واحدة من أولئك النساء شهيدات التعذيب اللواتي كن يبتسمن حين كانت قضبان الحديد المُمحَّمَى بالنار تمزق أثداءهن، وكانت مضت تواجه التعذيب من تلقاء نفسها. ولو قد ولدت في القرن الرابع أو في القرن الخامس لاعتزلت الناس ومضت إلى صحراء مصر ثلاثة عاماً لا

تتغذى إلا بجذور النبات والرؤى ونشوة الوجود. إنها لا تنتظر إلا اللحظة التي ستتمكن فيها أخيراً من التضحية بنفسها في سبيل شخص ما؛ بل إنها لقادرة على أن تلقي نفسها من النافذة إذا منعت من تلك التضحية نفسها. لقد سمعت عن شخص اسمه السيد رازوميixin. إنه فيما يبدو، وكما يدل على ذلك اسمه<sup>(73)</sup>، فنى ذكي عاقل لعله طالب بمعهد ديني. فليس هر على أختك، ليحطها برعايته! الخلاصة: أحسب أنني فهمت آفدوتي رومانوفنا، وأنني بذلك لفخور. ولكن المرأة، عند تعرّفه إلى شخص من الأشخاص، يكون طائشاً بعض الطيش، غبياً بعض الغباوة، كما تعلم... فهو يرى الأشياء في ضوء... شخصي، ولا يراها كما هي. ولكن لماذا هي جميلة ذلك الجمال كلها؟ ليس الذنب في هذا ذنبي! الخلاصة... إنني سرعان ما افتنت بها افتاناً شهوانياً لم يكن لي حيلة في دفعه. إن آفدوتي رومانوفنا ذات خفر رهيب، خفر لا عهد للمرء بمثله، خفر لا يكاد يصدق العقل وجوده (لئن كنت أقول لك هذا عن أختك فلا أنه «واقع». نعم، إنها رغم ذكائها، ورغم فكرها المفتح جداً، فتاة ذات خفر شديد... وهذا أمر يسيء إليها ويلحق بها أذى). كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا<sup>(74)</sup>، هي باراشا السمراء ذات العينين السوداويين الجميلتين التي جيء بها من قرية أخرى منذ برهة قصيرة، والتي لم يسبق لي أن رأيتها في يوم من الأيام قبل ذلك. كانت حلوة جذابة حقاً، ولكنها كانت على جانب من الغباء لا يصدق. فما أقبلت عليها حتى أجهشت باكية وملأت فناء المنزل بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة. وفي ذات مساء، بعد العشاء، دبرت آفدوتي رومانوفنا الأمور بحيث تلقاني وحيدة في ممر بين الأشجار بالحديقة فإذا هي تطالبني جازمة، وعيناها تستطغان غضباً بأن أدع الفتاة المسكينة مرتاحه وأن لا أضايقها. ولعل ذلك كان أول حديث يجري بيني وبينها في خلوة. وقد أسرعت أقطع على نفسي عهد الشرف بان ألبى رغباتها وأنفذ إرادتها، وحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب المستحي الخجل، أي عرفت كيف أمثل الدور أحسن التمثيل. ومنذ

تلك اللحظة تمت بيننا لقاءات كثيرة في السر، وحدثت مشاهد متكررة كانت في أثنائها تمطرني بالمواعظ والنصائح والملامات، وتضُرِّع إلى أن أغْيِر حياتي، باكيةً، نعم باكية... تصور! هل تصدق هذا؟ انظر إلى أي مدى يمكن أن يمضي حب الوعظ والنصح عند بعض الفتيات! وطبعي أنني حملت القدر تبعه جميع أخطائي، وصُورت نفسي في صورة رجل ظامن إلى الضياء، ثم لجأت أخيراً إلى الوسيلة القصوى التي لا تخطئ هدفها من قلب المرأة فقط، ولا تخيب الظن فيها أبداً، بل تحقق غايتها وتؤثر في جميع النساء دون استثناء، أعني التملق بالمديح. لئن لم يكن في العالم شيء أصعب من الصدق والصراحة، فلا شيء في العالم أسهل من التملق. فالصدق إذا اندس فيه عشر معشار من كذب، سرعان ما يخالطه نشاز فتفقع فضيحة. أما التملق فإنه إذا كان كذباً من أوله إلى آخره، يظل ساراً وممتعاً، فالشخص يصفي إليه شاعراً بذلة إن لم تكن لذة سامية فهي لذة على كل حال. ومهما يكن التملق مفضواً وإن نصف المديح على الأقل ينطلي على الممدوح. يصدق هذا على جميع طبقات الناس في المجتمع وجميع المستويات العقلية. إن في وسعتك أن تغوي بالمديح أطهر فتاة فما بالك بغيرها! لا تستطيع أن أتذكر إلا ويعغلبني الضحك كيف أغويت في ذات يوم من الأيام امرأة مخلصة كل الإخلاص لزوجها وأولادها وفضائلها... لكم كان ذلك مسليناً، ولكم كان سهلاً! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة على طريقتها. وكان كل الأسلوب الذي اتبعته معها هو أنني أظهرت لها دائمًا انبهاري بفضائلها وعبادتي لعفتها! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ، وكانت إذا اتفق لي أن أحصل منها على مصادقة باليد أو نظرة من العين، ألوم نفسي أمامها على أنني انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة، حتى لأنظاھر بأنني أعتقد أنها عارضت في ذلك، وأنني ما كنت لأحصل منها على شيء إطلاقاً لو لا أنني فاسد الأخلاق، ولو لا أنها في براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف فساد خلقي فانقادت ببساطة وسذاجة دون أن تشتبه أو ترتاب، الخ الخ. الخلاصة إنني وصلت إلى

تحقيق غایاتي وتنفيذ مأربى ، وظلت السيدة مقتنعة بأنها عفيفة طاهرة وأنها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها وأنها لم تخطئ إلا عرضاً: لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك وكنت على اقتناع تام بما أقول أنها كانت تنشد اللذة مثلما كنت أنشدها أنا سواه . ولقد كانت المسكينة مارفا بتروفنا شديدة التأثر بالمديح ، عاجزة عن مقاومة سلطانه عليها ، ولو قد شئت لجعلتها تورثني جميع أموالها وأملاكها ، حتى أثناء حياتها (إنني أشرب كما تشرب بالوعة وأتيه في ثرثرات) . آمل أن لا تؤاخذني أو أن تحقد عليّ إذا قلت لك الآن أن تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا . ولكنني أفسدت الأمر كله بحمقائي وقلة صيري . لقد اتفق عدة مرات ، أثناء أحاديثي مع آفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا في إحدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عينيّ ، وشمازت اشمتازاً شديداً . هل تصدق هذا! الخلاصة أن لهيب الشهوة الذي كان يتوقد في عيني بمزيد من القوة يوماً بعد يوم ، مع مزيد من الوقاحة في الوقت ذاته ، قد أربعها وأصبح كريهاً في نفسها آخر الأمر . لا داعي إلى أن أقص عليك الأمر تفصيلاً . فاللهم أننا كفينا عن اللقاء . وارتكتب عندئذ غلطة جديدة . فقد طفت أسرخ أغاظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها ، وعادت باراتها تنان الحظوة ، ولم تكن باراتها في هذه المرة وحيدة . الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم . آ... آلو أنك رأيت ، مرّة واحدة ، يا روديون رومانوفتش ، كيف كانت تستطع علينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتغال والالتهاب ! صحيح أنني الآن سكران ، وأنني قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر ، ولكن ما أقوله لك إنما هو الحقيقة . أؤكد لك أن تلك النظارات كانت تلاحقني في نومي . وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سمع حفيظ ثوبها ، وصرت أتوقع حقاً أن توافييني نوبة صرع من لحظة إلى أخرى . ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام ، نعم ما كان لي أن أصدق في يوم من الأيام فقط أن من الممكن أن أصير إلى مثل تلك الحالة من الخروج عن طوري . وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه غير أنَّ هذا الأمر لم يعد

ممكناً. فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك؟ هل تخيل مدى السخف الذي يمكن أن يقود إليه الحنق! إياك أن تنسع في عمل شيء حين تكون حانقاً يا روبيون رومانوفتش! إنني وقد لاحظت أن آفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذني إذا أنا استعملت هذا التعبير...) . أي فرق بين التعبير إذا كان معناها واحداً؟، قصارى القول، أنها تعيش من عرق جبينها وكد يمينها، وأنها تقوم بإعالة أمها وإعالتك أنت (ما بالك تقطب حاجبيك من جديد؟)، قررت أن أقدم إليها كل ما أملك من مال، وكان في وسعي عندنذاك أن أجمع ثلاثين ألف روبل، على شرط أن تقبل الهروب معه، ولو إلى هنا، إلى بطرسبرج. فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أح悲ها ما حييت، متى وصلنا، ولو عدتها بالسعادة والهباء وهلم جراً أبد الدهر، فلقد بلغت من التحمس صدقني إن شئت! إنني لو أمرتني أن أذبح أو أن أسمم مارفا بتروفنا من أجل أن أصبح زوجها هي، لفعلت ذلك على الفور. ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التي تعرف. ففي وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذي شعرت به حين علمت أن مارفا بتروفنا قد جاءت بذلك الدعي الحقير لوجين تزيد أن تزوجه أختك، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعك أنا في الواقع. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أنت توافقني على هذا الرأي؟ أليس كذلك؟ إنني لاحظ على كل حال أنك أصبحت تصغي إلي بانتباه شديد... أيها الشاب المشوق...

قال سفديجايلوف هذا ثم ضرب المائدة بقبضة يده وقد نفذ صبره. فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التي شربها جرعات صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً، لذلك قرر أن يتنهز هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الظرف. لقد كان شديد الريب في سفديجايلوف، كثير الحذر منه.

قال فجأة ليحنقه مزيداً من الإحناق:

- فأستطيع أن أستتيج مما أفضي به إلى أنك بمجيئك إلى بطرسبرج إنما كنت تطمع في أخي وتبث لها شيئاً.

أجابه سفدريجايلوف وكأنه يتذكر شيئاً ما:

- دعنا من هذا، أرجوك... قلت لك... ثم إن أختك لا تستطيع أن تطبقني، فهي تكرهني كرهاً شديداً.
- أما إنها تكرهك فأنا واثق بهذا. ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هي المسألة.

- أنت واثق بهذا؟

- قال سفدريجايلوف ذلك وهو يغمز عينيه ويبتسم ابتسامة سخرية. ثم تابع كلامه:

- إنك على حق. إنها لا تحبني، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجري بين رجل وامرأته، أو بين خليل وخليلته. هناك دائماً ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين. هل في وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر إلى نظرة اشمئاز؟

- أستنتاج من بعض كلمات حديثك وتلميحاتك أنك ما زلت تضرر، إزاء دونيا، نيات ملحة وأهدافاً لست أصفها إلا بأنها دنيئة!

- كيف؟ أأنا أفلتت مني كلمات وتلميحات من هذا النوع؟

كذلك سأله سفدريجايلوف وقد ارتاع ارتياعاً ساذجاً جداً، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنعت الذي نعت به راسكولنيكوف أهدافه.

قال راسكولنيكوف:

- بل إنها ما تزال تفلت منك! فلماذا ارتعت هذا الارتياع كله مثلاً؟

نعم، ما الذي يخيفك إلى هذا الحد؟

- أنا مرتع؟ أنا خائف؟ خائف منك أنت؟ ألا إن الأولى أن تخاف أنت مني *cher ami*?<sup>(75)</sup> ما هذا الكلام الصبياني؟ على أنني سكران... أنا أدرك ذلك. إنني أسرف في الكلام، أسرف في الكلام كثيراً حتى أكاد... لعن الله الخمرة! هيه! أنت! أعطني ماء!

قال سفدريجايلوف هذا، وتناول الزجاجة فرمאה من النافذة بغير

تخرج . وجاءه فيليب بإبريق ماء ، ثم استأنف سفديجايلوف كلامه فقال  
وهو يبلُّ منشفة ويسعها على رأسه :

- وهذه سخافات على كل حال . . . إنني أستطيع أن أسقط شوكك  
كلها بكلمة واحدة . هل تعلم مثلاً أنني سأتزوج ؟

- سبق أن قلت لي هذا .

- سبق أن قلت لك هذا ؟ حقاً ؟ لست أتذكر . على كل حال ، لا شك  
أنني لم أقله جازماً ، لأنني لم أكن قد رأيت خطيبتي . وما كان الأمر حتى  
ذلك الحين إلا فكرة أو مشروعأ . أما الآن فإن لي خطيبة وقد أصبح الأمر  
واقعاً . ولو لا شؤون مستعجلة لدعوتك أن تصحبني إليها ، لأنني أريد أن  
أطلب منك بعض النصائح . آ . . . لم يبق لي إلا عشر دقائق ! خذ . . .  
انظر في ساعتي . ولكن يجب أن أحكي لك . . . ذلك أن زوجي حادثة  
مشوقة فريدة في نوعها . إلى أين تمضي ؟ أما تزال تrepid الانصراف ؟

- لا . . . الآن لن أنصرف .

- لن تنصرف ؟ سوف نرى ! نعم ، سأصطحبك إلى هناك لأعرفك  
بخطيبي ، ولكن ليس الآن ، فالآن لا بد أن نفترق ، تمضي أنت يمنة  
وأمضي أنا يسراً . إن تلك المرأة التي تسمى رسليخ والتي أقيمت عندها  
في هذه الفترة ، لا شك أنك سمعت عنها ، أليس كذلك ؟ عجيب . . .  
اللم تسمع عنها ؟ تلك المرأة التي يقال إنها هي السبب في أن فتاة صغيرة  
انتحرت غرقاً في وسط الشتاء . آ . . . إن تلك المرأة هي التي دبرت  
الأمر كله . قالت لي : « لا شك أنك تضجر وتسام وانت وحيد على هذه  
الحال ، فيجب أن تسرى عن نفسك قليلاً ». والحق أنني أمرؤ قاتم  
المزاج مكتتب الطبع حزين النفس . هل تظنني مرحأ ؟ أبداً . . . أنا  
سوداوي . لست أؤدي أحداً ، وأظل قابعاً في ركني ، ولكن يتفق لي أن  
أبقى ثلاثة أيام صامتاً لا أفتح فمي بكلمة . ولقد كانت تلك القوادة  
رسليخ تخفي خطة وتبثت فكرة : كانت تقول لنفسها أن امرأتي القادمة  
سوف تُضجرني آخر الأمر ، وأنني سوف أهجرها ، فتفعل عندئذ بين يديها

هي رسليخ، «فتدخلها في التداول» في بيتنا أو في بيته أرفع. قالت لي إن للفتاة أباً عجوزاً خرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا يبارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرك ساقيه. وأضافت إلى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف في الأقاليم ولكنه لا يساعد ذويه؛ وأن لها اختاً متزوجة لا توافقهم بشيء من أخبارها، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كافٍ من الأفواه تطعمه، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها؛ وعلى أثر ذلك أخرجت ابنتهما الصغرى من الكوليج قبل أن تتم دراستها. وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر، فيمكن عندئذ تزويجها، أي يمكن أن أتزوجها أنا. وقد ذهنا أنا ورسليخ إلى أهل الفتاة. مشهد مضحك. عرفتهم بمنفسي: ملاك، أرمل، أسرة نبيلة، علاقات عالية، ثروة طائلة. فما قيمة أن يكون عمري خمسين عاماً، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة؟ من ذا الذي يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيلي هو هذا الفرق في السن؟ أليس هذا أمراً مغرياً، أليس ظريفاً جداباً؟ ها ها ها! . . . لينكرأيتني وأنا أتحدث مع أبيها وأمها! إن المرء ليدفع مالاً كثيراً ثمن رؤيته لهذا المشهد! وظهرت الطفلة فجأة، فانحنى تحفي الضيوف كما يفعل الأطفال... تصور أنها ما تزال ترتدي الثوب القصير! إنها برعم ورد حقاً، يصطبغ خداها بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أطلعت على الأمر طبعاً). لا أدرى ما رأيك في الفتيات الصغيرات. أما أنا فرأيي أن هذه السنين الست عشرة، وتلك العيون الصغيرة التي ما تزال عيون أطفال، وذلك الخجل، وهذه الدموع التي تنسكب حباء وخفراً، أن هذا كله آية من آيات الجمال. ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة. شعر أشقر خفيف متموج، شفتان مكتنزنتان قرمزيتان، قدمان صغيرتان. عجيبة من العجائب! . . . ولقد تعارفنا. ثم أعلنتُ أنني في عجلة من أمري، لأسباب عائلية. لذلك تمت الخطبة في غداة ذلك اليوم، أي أمس الأول. ومنذئذ أصبحت أجلسها على ركبتي متى وصلت إليهم، ثم لا أتركها... فيحمر خداها من جديد

حتى تصبّح بلون الشفق عند الفجر، وأخذ أتّهمها بالقبل التهاماً! وأمّها تقنّعها طبعاً بأن الأمور يجب أن تجري على هذا النحو، لأنني سأصبح زوجها. الخلاصة: لذة ما بعدها لذة! ربما كانت حالة الخطيب هذه أحلى وأمتع من الحالة التي ستلوّها، أعني حالة الزوج. فها هنا نجد la nature et la verite<sup>(76)</sup> كما يقال! ها ها!... لقد تحدثت معها مرّة أو مرتين. إن الصبيّة ليست بالغبية البتّة، وأنّها في بعض الأحيان لتنظر إلى نظرة تشعل حريقاً في كياني كله. هل تعلم؟ أن لها وجهاً من نوع وجه «المادونا» التي صورّها رافائيل. إن «مادونا سكستين» لها وجه عجيب تماماً، وجه يعبر عن حزن يلُمُ به جنون غيبي، ألم يخطف هذا بصرك؟ فاعلم إذن أن وجه خطيبتي فيه شيء من هذا النوع. وما أن تمت خطبتي حتى حملت إليها هدايا بألف وخمسمائة روبل: حلية من الماس، وحلية أخرى من لؤلؤ، وعلبة فضية لأدوات الزينة، كبيرة بهذا الحجم، مع جميع لوازمها... فإذا بوجه «المادونا» الصغير يُشرق ويزدهر. ثم أجلسّتها بالأمس على ركبتي، ولعلني بلّغت في ذلك من قلة التحرّج أنها احمرّت أحمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها. ولكنها لم تشاً أن تفضح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتغال. وخرج الجميع لحظة، فأصبحنا وحيدين، أنا وهي، فإذا هي تبادر فجأة فتحيط عنقي بذراعيها الصغيرتين وتقبلني (من تلقاء نفسها هذه المرة). وتحلف لتكوين لي زوجة مطيعة طيبة وفية، ولتسعدني، ولتقفن على هذا حياتها كلها، كل لحظة من حياتها ولتضحي بكل شيء، بكل شيء، ولن تطالبني في مقابل ذلك إلا بشيء واحد: هو أن أحترّمها، أن أحترّمها فقط، فهي لا تريده إلا هذا، ولا تريدها! لا شك في أنك توافقني على أن سماع اعتراف كهذا الاعتراف، في خلوة، من ملاك صغيرة في السادسة عشرة من عمرها، وقد احمرت وجنتها من حياء العذارى وخفرهن، وأخذت دموع الحماسة تتلاّلأ في عينيها، أقول لا شك في أنك توافقني على أن ذلك كله جذاب مغري! جذاب مغري، هذا هو الوصف الصحيح، أليس كذلك؟ شيء يستحق أن يدفع المرء ثمنه،

هه؟... اسمع... سذهب إلى خططيتي... ولكن ليس الآن!

- الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب في السن وفي الشقاقة يثير رغبتك الشهوانية مزيداً من الإثارة! هل من الممكن أن تفكّر فعلاً في الإقدام على زواج كهذا الزواج؟

- لم لا؟ طبعاً أفكّر في ذلك! لكل امرئ أن يفكّر لنفسه، وأقدر الناس على خداع نفسه أنجحهم في قضاء أيام سعيدة! ها ها! ولكن ما بالك قد أصبحت رجلاً فاضلاً حميداً على حين فجأة؟ رأفة بي يا عزيزي، لأنني امرؤ خاطئ مذنب! هي هي هي!...

- ولكنك عنيت بأولاد كاترينا إيفانوفنا على كل حال... كانت هناك بواعث تدفعك إلى ذلك... الآن فهمت كل شيء!

قال سفديريجايروف وهو ينفجر ضاحكاً:

- أنا أحب الأطفال كثيراً، أحبهم كثيراً جداً، ويمكّنني بالمناسبة أن أروي لك حادثة غريبة ما تزال تجري حتى هذه الساعة. لقد طفت بمختلف الملاهي الموبوءة في العاصمة منذ وصولي أول يوم... أسرعت أطوف بها بعد فراق سبع سنين! لعلك لاحظت قلة حرصي على إعادة الصلة بيني وبين أصحابي وأصدقائي القدماء. حتى لمكّنني أن أقول إنني أفرّ منهم فرارياً من الطاعون. يجب أن أقول لك أنني حين كنت أعيش في الريف عند مارفا بتروفنا كان ينتابني ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية التي يستطيع الإنسان الخبير أن يجد فيها أشياء كثيرة! تباً لي! الشعب هنا يسترسل في السكر، والشبيبة المثقفة تذوب وتضيع في أحلام خيالية ونظريات عجيبة بسبب عدم النشاط، واليهود يهرعون من كل مكان ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم من مال، وسائر الناس يستسلمون في أثناء ذلك للفسق والمجون. إذاً لقد أرسلت إلى هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً. وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة: هو ملهي موبوء فظيع (ولمكّنني أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشمئزاز). كان الراقصون مندفعين

في رقص «الكانكان» اندفاعاً محموماً مسحوراً قلما يرى المرء مثله في هذه الأيام، ولم نكن نرى مثله في أيامنا أبداً. لقد تحقق تقدم في هذا المجال أيضاً. وفجأة لمحت صبية لعلها في الثالثة عشرة من عمرها، ترتدي ثياباً لطيفة وترقص سيداً جميلاً، وأمامهما شاب آخر. وكانت أمها جالسة قرب الحائط تنظر إليها. هل تخيل كيف كان الرقص؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد. وها هي ذي تحرر، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكي. فيمسكها الراقص الجميل، ويأخذ يدور بها، ويقوم بألف حركة وحركة بذينة، والناس من حوله تضج بضحك صاحب. إنني في مثل هذه اللحظات إنما أحب جمهورنا خاصة، حتى جمهور هذا النوع من ملاهي الليل. كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين: «مرحى! مرحى! لم يكن عليها إلا أن ترفض المجيء إلى هنا! ليس هذا مكاناً للأطفال!» أما أنا فلم أكتثر طبعاً. وسرعان ما حددت المكان الذي يناسبني، ومضيت أجلس قرب الأم. وبدأت أكلمها فقلت لها إنني أنا أيضاً ماز ببطرسبرج مروراً. وأضفت إلى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم فراسة تعرّفهم بمن يستحقون الرعاية والمداراة. وبعد أن أسمعتها أنني أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلهما هي وابنتها بعرية، فقبلت وأوصلتهما، فرأيت مسكنهما (إنه غرفة مؤثثة حقيقة كانتا قد نزلتا فيها منذ وقت قصير حين وفدت من الأقاليم). وقالتا لي إنهم تعدان زيارتي لهما شرفًا عظيماً. وعلمت بعد ذلك أنهما لا تملكان قرشاً، وأنهما جاءتا إلى بطرسبurg للقيام بمساع لدى إدارة من الإدارات. فعرضت عليهما خدماتي، وقدمت إليهما مالاً. وعلمت عدا ذلك إنهما بالصدفة إنما وقعا في ذلك الملهي تلك الليلة، فقد ظنت أن مكان لتعليم الرقص. وعرضت أن أساهم في إتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية، ويتعلمها الرقص خاصة. فسرعان ما قبل هذا العرض بفرح شديد، وسرعان ما قبل لي إن هذا شرف كبير... وما تزال علاقتنا قائمة، وما تزال زياراتي متالية... سذهب إليها معًا لتراها أن شئت... ولكن ليس الآن!

- كفاك! كفال حكايات حقيقة ففيه تبعث على الاشمنزار ، أيها  
الإنسان الفاسق ، المنحل ، المنحط !

- يالك من شاعر! يالك من شيللر انظروا أين تختبيء ،  
الفضيلة؟<sup>(77)</sup> ، هل تعلم أن صرخاتك هذه تغريني بأن أقصن عليك  
المزيد من أعنال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه  
الصرخات؟ هذه لذة حقيقة!

دمدم راسكولنيكوف يقول مبفضاً حادداً:

- نعم ، لا شك أنني أبدو سخيفاً مضحكاً ، فأنا كذلك في نظر  
نفسى .

ضحك سفديريجايروف ملء حلقه ، ثم نادى فيليب ، فدفع الحساب ،  
ونهض ليصرف وهو يقول :

- نعم... أنا سكران ، سكران جداً... كفى حديثاً!... إنها لذة  
حقيقة!....

صاحب راسكولنيكوف يقول وهو ينهض أيضاً :

- كيف لا تشعر بذلك... . كيف لا تكون لذة لرجل فاسق داعر من  
طبيتك أن يقصن مغامرات بهذه المغامرات وهو يحمل بمشاريع شيطانية  
أخرى من هذا النوع ، وأن يقصن ذلك على إنسان مثلـي وفي مثل هذه  
الظروف؟... . هذا يؤزعـج رغبتك ، ويـهـيج نفسك ، أليس كذلك؟

قال سفديريجايروف بشيء من الدهشة وهو يتفرس في  
راسكولنيكوف :

- إذا كنت ترى هذا الرأـي ، فإـنك إذاً لمـستـهـتر عـظـيم... . أوـأنـ فيـكـ  
لاـسـتـعـدـادـاـ لـهـذاـ . إنـكـ تستـطـيعـ أنـ تـدرـكـ كـثـيرـاـ منـ الأـشـيـاءـ... . وـأنـ تـصـنـعـ  
بـهـاـ كـذـلـكـ كـثـيرـاـ منـ... . ولـكـ كـفـىـ! يـؤـسـفـنـيـ حقـاـ أنـ حـدـيـثـنـاـ كانـ قـصـيرـاـ  
هـذـاـ القـصـرـ كـلـهـ ، ولـكـنـ لـنـ تـفـلـتـ مـنـ هـكـذـاـ... . اـصـبـرـ قـلـيلاـ....

خرج سفديريجايروف من العـحـانـةـ ، وـتـبعـهـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ.

الحق أن سفدريجايلوف لم ينل منه السكر كثيراً. إن الشراب لم يصعد إلى رأسه إلا لحظة قصيرة، وكان ثملاً يتبدّد شيئاً بعد شيء. كان هناك أمر هام جداً يشغل باله، يشغل باله كثيراً، فكان يقطب حاجبيه، وكان انتظار شيء ما يقلقه إقلاقاً واضحاً، ويشير أعصابه. ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدريجايلوف قد غير لهجته في مخاطبته منذ لحظات، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من الفظاظة والسخرية. وكان هذا الأمر يقلق راسكولنيكوف أيضاً.

واشتبه راسكولنيكوف في أمر سفدريجايلوف، فقرر أن يتبعه.  
وصلا إلى الرصيف.

- أنت تذهب يمنة وأنا أذهب يسراً، اللهم إلا أن يكون العكس!  
المهم أن نفترق *Adieu, mon plaisir* ..<sup>(78)</sup> سيسرني أن أراك مرة أخرى.

قال سفدريجايلوف ذلك وسار يمنة في اتجاه سوق العلف.

## الفصل الخامس

راسكولنيكوف وراءه، فصاح سفدريجايلوف يقول ملتفتاً إليه:

سار

- ما معنى هذا؟ أظن أنني قلت لك . . .

- معنى هذا أنني لن أتركك قيد أنملة . . .

- ماذا؟ ماذا؟

وتوقف الاثنين، وأخذ كل منهما يروز صاحبه بنظرة خلال دقيقة.

وقال راسكولنيكوف بلهجة قاطعة:

- بعد جميع الحكايات التي روتها لي وأنت في شبه سكر، يحق لي أن أتصور تصوراً تماماً أنك لم تهجر مشاريعك الدينية فيما يتعلق بأختي، بل إن هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك في أي وقت مضى. أنا أعلم أن أختي تلقت في هذا الصباح رسالة. ولقد كنت أنت قلقاً لا تستقر على حال. ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة جديدة، ولكن هذا لا يبرهن على شيء، فأنا أريد أن أتحقق من الأمر بنفسى.

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذي يريد أن يتحقق منه بنفسه لارتبك أشد الارتباك.

قال سفدريجايلوف:

- ها... هكذا؟ أتريد أن أنادي الشرطة؟

- نادها!

وتوقفا من جديد، ومن جديد أخذ كل منها يتفرّس في الآخر. وأخيراً تغيّر تعبير وجه سفريجايلوف، فإنه حين رأى أن راسكولنيكوف لم يخف من تهديده، أسرع يصطنع هيئة تنم عن مرح ومودة وصداقة، وقال:

- ما أغرب أمرك! لقد تعمدت أن لا أكلمك في قضيتك، رغم أن الفضول ينهاش قلبي نهشاً... إنها لقضية خيالية! لقد آثرت أن أرجع الكلام فيها إلى مرة أخرى... ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه يفقد صبره وثور أعصابه. تعال معـي إن شئت، ولكتنـي أتبـهـكـ: إنـ عـلـيـ أنـ أـرـجـعـ إـلـىـ الـبـيـتـ لـحـظـةـ لـآـخـذـ شـيـئـاـ مـنـ الـمـالـ، ثـمـ أـغـلـقـ الـبـابـ بـالـمـفـتـاحـ، ثـمـ أـفـزـ رـاكـباـ عـرـبةـ مـنـ الـعـربـاتـ لـأـمـضـيـ إـلـىـ قـضـاءـ السـهـرـةـ فـيـ الـجـزـرـ. فـكـيفـ تـسـطـعـ أـنـ تـتـبعـنـيـ وـالـحـالـةـ هـذـهـ؟

- إنـ عـلـيـ أـذـهـبـ إـلـىـ عـمـارـتـكـ أـنـاـ أـيـضاـ، لـاـ إـلـىـ بـيـتـكـ أـنـتـ، بلـ إـلـىـ بـيـتـ صـوـنـياـ سـيـمـيـونـوـفـناـ، لـأـعـتـذـرـ لـهـاـ عـنـ تـخـلـفـيـ عـنـ حـضـورـ الـجـنـازـةـ.

- لكـ ماـ تـشـاءـ. ولـكـ صـوـنـياـ سـيـمـيـونـوـفـناـ لـيـسـ فـيـ بـيـتـهاـ. فقدـ ذـهـبـتـ بالـأـوـلـادـ إـلـىـ بـيـتـ سـيـدـةـ عـجـوزـ مـحـترـمـةـ هيـ صـدـيقـةـ قـدـيمـةـ لـيـ تـدـيرـ مـلـجـأـ للـلـأـيـتـامـ. لـقـدـ فـتـنـتـ تـلـكـ السـيـدـةـ بـأـنـ دـفـعـتـ لـهـاـ مـبـلـغاـ مـنـ الـمـالـ لـصـغارـ كـاتـرـيـنـاـ اـيـفـانـوـنـفـاـ الـثـلـاثـةـ، كـماـ وـهـبـتـ مـبـلـغاـ آـخـرـ لـلـمـلـجـأـ الـذـيـ تـدـيرـهـ. وقدـ قـصـصـتـ عـلـيـهـاـ كـذـلـكـ قـصـةـ صـوـنـياـ سـيـمـيـونـوـفـناـ بـنـصـهاـ الـكـامـلـ دونـ أـنـ أـخـفـيـ شـيـئـاـ. فـكـانـ الـأـثـرـ الـذـيـ أـحـدـثـهـ فـيـ نـفـسـهـاـ هـذـهـ الـقـصـةـ أـثـرـأـ عـمـيقـاـ لـاـ يـوـصـفـ. وـذـلـكـ هوـ السـبـبـ فـيـ أـنـ صـوـنـياـ سـيـمـيـونـوـفـناـ قدـ دـعـيـتـ إـلـىـ أـنـ تـذـهـبـ فـيـ هـذـاـ الـيـوـمـ نـفـسـهـ إـلـىـ الـفـنـدقـ الـذـيـ نـزـلـتـهـ تـلـكـ السـيـدـةـ مـؤـقـتاـ حـينـ عـادـتـ مـنـ إـجازـتهاـ.

- سـأـذـهـبـ مـعـ ذـلـكـ إـلـىـ صـوـنـياـ سـيـمـيـونـوـفـناـ.

- افعل ما تشاء، لكنني لن أصحبك. ما ذهابي إلى هناك؟ ثم ها نحن قد أوشكنا أن نصل. قل لي : يخيل إلى انك إنما تنظر إلى نظرة الريبة هذه لأنني كنت مؤدياً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن أن... أنت تفهمعني! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً، أليس كذلك؟ فهلا أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب؟

- وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصل على الأبواب؟

قال سفديريجايلوف وهو يضحك :

- ها... إذاً ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه! على كل حال، كان سيدهشني أن لا تثير هذا الموضوع حتى الآن! ها ها ها! ولكن الواقع أثني لم أسمع إلا بعض شذرات من جميع تلك المهازل التي كنت تقصها على صونيا سيميونوفنا... وقد فاتتني خاتمة ذلك كله. قد أكون شخصاً مختلف الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أي شيء. ولهذا نفسه إنما أناشدك الله يا صديقي أن تشرح لي... أرجوك أن تنير عقلي على هدي مبادئ العصر...

- أنت تكذب! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً!

- عجيب! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أنني سمعت بعض الأشياء). لا، إن كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تشن وتتوزع. إن شيلлер الذي يشوي في نفسك يسبب لك اضطراباً في كل لحظة. ثم أنت تريد الآن أن لا يت遁ص أحد على الأبواب! فإذا كنت قاسياً إلى هذا الحد، فهلتم اعترف للسلطات وقل لها: «القد ألمت بي مصيبة، لقد وقع خطأ صغير في نظرياتي الفلسفية». أما إذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن يت遁ص على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رؤوس العجائز التافهات اللواتي تقع عليهن يده، فما عليك في هذه الحالة إلا أن تبادر فتهاجر إلى مكان ما، إلى أمريكا مثلاً... لا أدرى... وإنما يجب أن تفعل ذلك بأكبر سرعة. اهرب إليها الفتى! لعله لم يفت الأوان بعد. إنني

أكملت صادقاً وأخلص لك النصح. لماذا؟ هل يعوزك العمال اللازم للسفر؟ سأعطيك ما أنت في حاجة إليه.

قاطعه راسكونيكوف قائلاً باشمتراز:

- لا يخطر هذا بيالي على الإطلاق.

- أفهم ذلك. (بالمناسبة، لا تكلف نفسك عناء الكلام، فآن لك أن لا تقول شيئاً البة كما تشاء...). إنني أفهم المسائل التي تدور في رأسك... هي مسائل... من نوع أخلاقي، أليس كذلك؟ أنت تتساءل هل تصرفت التصرف الذي يليق بياusan، بمواطن؟ ولكن دع هذه المسائل، اتيذها! فيم يمكن أن تفيدك الآن؟ هي، هي، لأنك تبقى إنساناً ومواطناً بعد ذلك كله؟... وإلا، ما كان عليك أن ترجم نفسك في هذا الأمر وأن تشرع في عمل لست قادراً على المضي فيه إلى النهاية. هيا هشم دماغك! لا تحب ذلك؟

- لكأنك تحاول احتافي عامداً لأنصرف.

- غريب أمرك! لقد وصلنا، فما عليك إلا أن تكلّف نفسك عناء صعود السلم! ها هو ذا باب صونيا سيميونوفنا. انظر. ليس في بيتها أحد. لا تصدقني؟ أسأل إذن آل كابرناوموف. إنها ترك لهم المفتاح دائمًا. وهذه هي madame كابرناوموفا بنفسها على كل حال. لماذا؟ (إنها صماء قليلاً). هل خرجت صونيا سيميونوفنا؟ فالى أين ذهبت؟ ها قد سمعت أنها ليست في بيتها وأنها لن ترجع إلا في ساعة متأخرة من الليل. تعال إذن معي، إلى بيتي. كنت تريد أن تجيء إلى فعلاً، أليس كذلك؟ فها نحن في بيتي! ليست السيدة رسليخ هنا. إنها لا تنقطع عن الحركة، لكنها امرأة طيبة، أؤكد لك، وفي وسعها أن تفيدك كثيراً إذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل. انظر: هاؤنذا آخذ من مكتبي سندًا مالياً (وأنت ترى أنت أملك مسندات كثيرة أخرى)، غير أن السندي سيدل عند هذا المساء نقوداً رنانة. هل رأيت؟ لم يبق لدى وقت أضيعه. ها أنذا

أغلق مكتبي، وأغلق باب الشقة، وها نحن نهبط السلالم. هل تريد أن نركب عربة؟ إبني ذاهب إلى الجزر كما تعلم. هل يسرك أن تقوم بجولة صغيرة بالعربية؟ انظر: هأنذا آخذ هذه العربية، وأطلب من الحوذى أن يقودني إلى جزيرة إيلاجين. ماذا؟ أترفض؟ أنت منهوك القوى؟ هيـا... لنقم بجولة صغيرة معاً! أحسب أن المطر سيهطل، ولكن لا ضير، سترفع غطاء العربة.

كان سفديريجايلوف قد استقر في العربية. واعتقد راسكولنيكوف، في تلك اللحظة على الأقل، أن شبهاته ليس لها ما يسوّغها. فاستدار دون أن يجيب بشيء، وسار في اتجاه سوق العلف. ولو قد التفت إلى وراء لرأى سفديريجايلوف ينقد الحوذى أجره بعد مائة خطوة، ويعود يمشي على الرصيف. ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادرًا على أن يرى شيئاً، وكان قد انعطف يقطع ناصية الشارع. إن اشمئزازاً شديداً كان يدفعه بعيداً عن سفديريجايلوف. هتف يتساءل رغم إرادته: «كيف أمكنني، ولو خلال لحظة قصيرة، أن انتظر شيئاً من هذا الإنسان الذيء الحقير! من هذا الوغد السافل المنحط!». ولكن الحقيقة هي أن حكم راسكولنيكوف على سفديريجايلوف كان فيه شيء من تسرع وتعجل. ومهما يكن من أمر فإن الجو الذي خلقه سفديريجايلوف كان يضفي على سفديريجايلوف شيئاً من شذوذ، بل ويحيطه بشيء من السر. أما أخته فظل راسكولنيكوف مقتنعاً بأن سفديريجايلوف لن يدعها في سلام. ولكن التفكير وإعادة التفكير في هذا الأمر كانا قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولنيكوف.

فلما أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوة أن استرسل في أحلام عميقـة على عادته. حتى إذا وصل إلى الجسر توقف قرب الإفريز وأخذ يتأمل الماء، بينما كانت آفدوتيا رومانوفنا تتأمله هو. كان قد مر بها عند أول الجسر تماماً، ولكن دون أن يلاحظها. وهذه أول مرة تلتقي فيها دونيا بأخيها في الشارع على هذا النحو، وقد انقبض صدرها رعباً وذرعاً

حين رأته، وتوقفت لا تدري أتناديه أم لا. ثم لم تلبث أن لمحت سفديريجايلوف على حين فجأة، متوجهًا نحو سوق العلف بخطى سريعة، وكأنه يسير محاذيرًا متخفيًا؛ ولم يدخل الجسر، بل توقف على الرصيف، متنحياً بعض التنجي، حتى لا يراه راسكولنيكوف. كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة، وهو يحرك لها يديه بإشارات، فهمت دونيا منها أنه يحضرها على أن لا تنادي أخاها، وأن تتركه وشأنه، وأن تلحق به هو.

وذلك ما فعلته دونيا: فها هي ذا تتجاوز أخاها، دون أن تقول كلمة،وها هي تقترب من سفديريجايلوف.

دمدم سفديريجايلوف قائلاً لها:

- تعالى بسرعة! لا أريد أن يعلم روبيون رومانوفتش بموعدنا. اعلمي أنني خارج من حانة قريبة وافاني فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه إلا بكثير من المشقة والعناء! لا أدرى كيف سمع بأمر الرسالة التي بعثت بها إليك، وهو الآن يشتبه في أن هناك شيئاً ما. أرجو أن لا تكوني أنت التي بحث له ببعض الأسرار. ولكن إذا لم تكوني أنت، فمن عسى يكون؟ ...

قاطعته دونيا تقول:

- لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشارع، فأصبح أخي لا يستطيع أن يرانا. لن أتبعك إلى أبعد من هذا المكان. فقل لي كل شيء هنا. إننا نستطيع أن نتكلم في الشارع.

- أولاً: لا يمكن أن يقال هذا في عرض الشارع. ثانياً: ينبغي أن تسمعي أيضاً صونيا سيميونوفنا. ثالثاً: هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها. أخيراً: إذا كنت ترفضين أن تجيئي إلى بيتي فسوف أمتنع عن كل شرح، وسوف أنصرف فوراً. هذا وأرجوك أن لا تنسى أن سرأ شاقاً جداً، متعلقاً بأخيك الحبيب، يوجد بين يدي.

توقفت دونيا متربدة، ورشقت سفديجايلوف بنظرة نافذة، فسألها سفديجايلوف هادئاً:

- مم تخافين؟ ليست المدينة كالريف. ثم إنك في الريف قد أساءت إلى أكثر مما أساءت إليك. لذلك . . .

- هل أطلعت صونيا سيميونوفنا؟

- لا، لم أقل لها كلمة واحدة، حتى إنني لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن في بيتها. ولكن أغلب الظن أنها هناك. لقد دفنت اليوم قريبتها، فما هذا يوم زيارات تقوم بها. على كل حال، لن أحده أحداً في هذا الأمر الآن، حتى ليؤسفني أنني أطلعتك عليه، فإن أقل طيش يساوي هنا وشایة. انظري: هذا هو المتنزل الذي أقطن فيه، أمامنا. والباب يعرفي جيداً. ها هو يحييني كما ترين. إنه يلاحظ أن معه سيدة. وطبععي أن صورة وجهك قد نقشت الآن في ذاكرته. وينبغى لهذا أن يطمئنك إذا كنت تخافين مني وتشكين في. اغفرى لي هذه الفظاظة في مخاطبتك. أنا هنا مستأجر عند مستأجرين، وليس يفصلني عن صونيا سيميونوفنا إلا حائط، فهي أيضاً مستأجرة عند مستأجرين. الطابق كله مسكون، فمم خوفك؟  
الآن إن هذا الخوف خوف طفلة صغيرة! أنا مخيف إلى هذه الدرجة؟

قال سفديجايلوف ذلك وهو يصطمع ابتسامة أراد لها أن تعبر عن الطيبة والسماحة، ولكنه كان قد بلغ من الاختصار حدّاً لا يستطيع معه أن يحسن التمثيل. كان قلبه يخفق خفقاتاً قوية، وكانت أنفاسه مختنقة. وكان يتعمد أن يتكلّم بصوت قوي ليخفّي اضطرابه المتزايد، ولكن دونيا لم تلاحظ هذا الاختصار. لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذي يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة في نظرها.

قالت بلهجـة ظاهرـها هـادـيـ، وـكان وجـهـها شـاحـباـ شـحـوباـ شـدـيدـاـ:

- رغم أنـني أـعدـك رـجـلاـ لا شـرـفـ لهـ. . . . فإـنـني لا أـخـافـ منـكـ الـبـتـةـ.

تقدـمنـيـ!

توقف سفديجايلوف أمام بـابـ صـونـياـ.

- اسمحي لي أن أسألك هل هي في بيتها. لا، ليست في بيتها، يا لسوء الحظ! لكنني أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة. لتنغيب، فما ذلك إلا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام الذين ماتت أمهم. وكنت أنا أساعدهم أيضاً. فإذا لم ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها إليك في هذا اليوم إن رغبت في ذلك. هذا مسكنى، وهاتان الحجرتان اللتان أحتجلهما. وراء هذا الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة رسليخ. والآن انظري هنا، سوف أظهرك على وثائقى الأساسية. من غرفة نومي يفضى هذا الباب الذي ترين إلى غرفتين خاليتين كل الخلو، معدتين للتأجير. انظري... يجب أن تتتبهي إليهما أكثر الانتباه.

كان سفديجايروف يشغل غرفتين مؤثثتين واسعتين. أجالت دونيا بصرها فيما حولها مرتابة، لكنها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر، لا في أثاث الغرفتين ولا في ترتيبهما، رغم أنها كان يمكن أن تتبه إلى أن شقة سفديجايروف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً، يصل المرء إليهما لا من الممر رأساً، بل باجتياز غرفتين خاليتين تقريباً لصاحبة البيت. وفتح سفديجايروف باباً مقفلأً بالمفتاح، يقع في آخر غرفة نومه، فأرى دونيا المسكن الخالي المعد للتأجير.

وقفت دونيا عند العتبة لا تدري لماذا يدعوها سفديجايروف إلى أن تنظر، ولكن سفديجايروف أسرع يمدّها بالشرح فقال لها:

- انظري هنا، إلى هذه الغرفة الكبيرة الثانية. لاحظي هذا الباب. إنه مغلق بالمفتاح. وقرب هذا الباب يوجد كرسى. إنه الكرسى الوحيد الذي يمكن العثور عليه في هاتين الغرفتين. أنا الذي جئت به إلى هنا لأحسن التنصلّ بغير عناء ولا تعب. ووراء هذا الباب مباشرة، توجد مائدة صونيا سيميونوفنا. لقد كانت جالسة إلى هذه المائدة تتحدث مع روبيون رومانوفتش. فمن موضع جلوسي على هذا الكرسى، في هذا المكان نفسه، ظللت أنا أتنصل إلى حدثهما مساءين متتالين، خلال ساعتين في كل مرة. فعرفت بعض الأمور طبعاً. ما رأيك؟

- تتنصّت على الباب؟

- نعم، أتنصّت على الباب. والآن فلنذهب إلى غرفتي. هنا لا  
نستطيع أن نجلس.

قال سفديجاييلوف هذا وقد أفادوتيا رومانوفنا إلى الغرفة الأولى  
التي يتخذها صالوناً، ودعاهما إلى الجلوس. جلس هو إلى الطرف  
الآخر من المائدة، ولكن عينيه كانتا تستطعان بذلك اللهيّب نفسه الذي  
كان قد رؤي دونيا ترويعاً شديداً في ذات يوم. ارتعشت دونيا؛ ومرةٌ  
أخرى نظرت فيما حولها مرتابة. كانت لا تزيد أن تظهر ارتياها، غير أن  
حالة العزلة في شقة سفديجاييلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً،  
فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة في الدار على الأقل، ولكن  
كبرياءها صدّتها عن هذا السؤال. وكان قلبها على كل حال يعاني ألماً  
أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه في سبيل نفسها. وكان هذا الألم  
يعذبها عذاباً شديداً.

بدأت تتكلم فقالت وهي تضع رسالته على المائدة:

- هذه رسالتك. هل ما أوردته فيها ممكن؟ إنك تلمع إلى جريمة  
ارتكبها أخي. لا تحاول أن تنهب وأن تتملص الآن. إن المحاك  
أوضح من أن تنكره. واعلم أنني حتى قبل أن أتلقي رسالتك كنت  
سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التي لا أصدق منها حرفاً واحداً. إن  
افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف في آن واحد. إنني أعلم كيف  
ولماذا لفقت هذه الخراقة. لا تستطيع أن تقدم أي برهان على... لقد  
وعدتني أن تبرهن: فتكلم إذن! ولكن عليك أن تعلم سلفاً أنني لن  
أصدقك. لا، لن أصدقك!

قالت دونيا هذه الكلمات متدفعقة، واحمر وجهها أحمراراً شديداً من  
فرط الانفعال في لحظة.

قال سفديجايلوف :

- ولكن إذا كنت لا تصدقيني فلماذا جئت إلى بيتي وحيدة؟ نعم ،  
لماذا جئت إلى بيتي؟ هل بداع الفضول وحده؟  
- لا تعذبني ! تكلم ! تكلم !

- لا شك في أنك فتاة شجاعة . لقد ظننت أنك ستطلبين من السيد رازوميخين أن يصحبك إلى هنا . لكنه لم يظهر لا معك ، ولا حولك .  
لقد نظرت مليأ فلم أره . هذه شجاعة منك . أنت تريدين إذن أن تقذني  
أخاك روديون رومانوفتش ! على كل حال ، فإن كل ما فيك عظيم ،  
 رائع ! ... أما أخوك ، فماذا أقول لك عنه؟ لقد رأيته بنفسك ، فما رأيك  
في حالته؟

- أرجو أن لا تكون حالته هذه هي الأساس الذي بنيت عليك  
اتهامك إياه !

- لا ، لا ، لم أبن اتهامي على حالته فحسب ، بل على أقواله أيضاً .  
على كل حال ، لقد جاء إلى صونيا سيميونوفنا مساءين متاليين ، فجلسا  
في المكان الذي أریتك إياه . وهناك اعترف لها بكل شيء ، اعترافاً تاماً .  
إنه قاتل . قتل العجوز المراهبة التي كان قد رهن عندها أشياء ، وقتل  
اختها المتاجرة التي تسمى اليزافيتا والتي دخلت مصادفة بينما كان يقتل  
العجز . قتلهما كلتיהם بما فأس جاء بها لانفاذ جريمته . قتلهما ليسرق ،  
 وقد سرق . أخذ مالاً ، وأخذ أشياء ! ... أنا إنما أروي لك ما رواه هو  
نفسه ، كلمة كلمة ، لصونيا سيميونوفنا التي تعرف وحدها السر والتي لم  
تشارك في جريمة القتل أية مشاركة ، لا بالقول ولا بالفعل ، حتى لقد  
روعتها هذه القصة كما تروعك أنت الآن . لا تخافي ! لن تشي به !

تمتمت دونيا تقول وقد ابكيت شفاتها ، واحتنق صدرها :

- هذا مستحيل ! مستحيل ! ليس هناك أي سبب يدفعه إلى ذلك ! ليس  
هناك أي باعث يحضره على ذلك ! ... هذا كذب ! كذب فظيع ! ...

- لقد سرق. هذا هو الدافع الوحيد. أخذ مالاً وأشياء. صحيح أنه، كما قال، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك الأشياء، بل مضى يخبيء كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والأشياء جميراً. ولكن السبب في ذلك هو أنه لم يجرؤ... .

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها وائبة:

- ولكن هل يعقل أن يكون قد سرق؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً؟ إنك تعرفه، إنك رأيته، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً؟

لأنها كانت تتضرع إلى سفديجايلوف. كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها.

- هناك يا آفدوبيا رومانوفنا ألف وملفين من أصناف السارقين: ربُّ رجل يسرق وهو يدرك في قراره نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً. وقد سمعت مرةً عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد، فمن يدرى؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود؟ لو كنت في مكانك لدهشت دهشت هذه نفسها، ولو روى لي هذه القصة شخص آخر لما صدقته. ولكنني لا أستطيع أن أكذب أذنني. إن أخاك قد بسط لصونيا سيميونوفنا كافة الدوافع الذي حضرته على ارتكاب فعلته، فأبانت هي نفسها أول الأمر أن تصدق، ولكنها ما تملك أخيراً إلا أن تصدق، حين رأت هيته... . وهناك الآذان، وهناك الأعين أيضاً. روى لها هذه القصة، هو نفسه.

- وما هي تلك الدوافع؟

- تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوبيا رومانوفنا. كيف أشرح لك؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة، كما أعتمد عليها أنا أيضاً، التي تجيز الجريمة على شرط أن تكون تلك الجريمة ذات هدف عادل... . فعلة شر واحدة في مقابل مائة فعل من أفعال الخير! فعلة شر واحدة

ووحيدة... وبعدها مئة فعل من أفعال الخير! ثم... أليس يشق على نفس فتى موهوب جداً، زاخر بكبرياء لا حدود لها، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ؟ أضيفي إلى ذلك حالة الحنق المرضي الناشئ عن جوعه المزمن، وعن سكناه في حجرة ضيقة مسرفة في الضيق، وعن ارتدائه أسمالاً بالية وخرقاً ممزقة، وعن شعوره بكل ما في وضعه الاجتماعي من بؤس وشقاء، بالإضافة إلى وضع أمه وأخته. وهناك، فوق ذلك كله، الطموح، والأنفة، والغرور، ولكن ربما كانت له عواطف طيبة أيضاً... الله أعلم! صدقني أنتي لا أتهمه. ثم إن اتهامه ليس شأني أنا. وهناك أيضاً نظريته الصغيرة تلك - هي نظرية كافية نظرية أخرى - تلك التي تذهب إلى أن الإنسانية تنقسم إلى فتنتين، فئة الأفراد المواد وفئة الأفراد الأفذاذ الخارجين أي الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلي أن لا يصدّهم أي قانون من القوانين، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم، أي على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد المواد، الذين يتالف منهم القطيع، الذين هم الغبار! نظرية لطيفة une theorie comme une autre<sup>(79)</sup>، أليس كذلك؟ لقد فتنه نابليون كثيراً، أو قولي إنه انقاد لإغراء ذلك الرأي الذي يرى أن العباقة لا يكتثرن لحالات الظلم الفردية، بل يتحظونها فلا يرتكبون بأمور هينة بسيرة. ولقد تخيل، فيما يبدو، أنه هو نفسه عبقرى؛ أو قولي على الأقل إنه كان مقتنعاً بهذا خلل مدة من الزمن. وقد تعذّب كثيراً كذلك، وما يزال يتعذّب، فهو يدرك الآن أنه إن استطاع أن يضع نظرية، فلقد عجز عن التخطي، عن المضي قدماً بلا تردد؛ أي لقد أدرك أنه ليس عبقرياً. وهذا الإدراك أمر يشعر منه الفتى، إذ كانت نفسه زاخرة بالكبرياء، يشعر منه بمذلة كبيرة وإهانة عظيمة، ولا سيما في عصرنا هذا... .

- وعذاب الضمير؟ ألا تذكر عليه إذاً أي حسٍ أخلاقي؟ أهو... حقاً... كما تصف؟

- آه يا آفدوتيا رومانوفنا! إن كل شيء قد اضطرب الآن واحتفل... .  
ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد في هذا العالم يوماً. ثم إن الروس على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحيبة كأراضيهم، وهم مئالون كثيراً إلى الخيال والتزوة والفووضى. ولكن النفس الواسعة الرحيبة تكون خطيرة إذا لم يوهد لها شيء من عبقرية. تذكرى مناقشاتنا القديمة في هذا الموضوع، بعد العشاء، هناك، في الشرفة المطلة على الحديقة... .  
لقد كنت تعيبين عليّ سعة النظر هذه منذ ذلك الأوّان. من يدرى مع هذا؟ لعله، حينما كنا نحن نتكلّم، كان هو مستلقياً على فراشه يجتر مشروعيه. إن مجتمعنا المثقف لا يلمع بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا.  
بعض الناس يصنعون لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيّفما اتفق، من كتب قرؤوها، وبعضهم يستمدون أصياغ تقليل من بعض حكايات الماضي.  
ولكن هذا إنما يصدق على العلماء، وأكثرهم يصل إلى الحماقة أن رجالاً من رجال المجتمع الرّاقى يخجل من افتقاء أثراهم واتخاذهم قدوة له.  
على أنك تعرفين آرائي: أنا لا ألوم أحداً. كل ما هنالك أنني أتحاشى أن أفحّم نفسي في شيء. لقد سبق أن تحدثنا في هذا مراراً. حتى أن آرائي قد شرفها أن حظيت باهتمامك... . إنك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا.

- أنا أعرف نظرية أخي هذه. قرأت في مجلة من المجلات مقاليه عن الرجال الذين يباح لهم كل شيء. إن رازوميixin هو الذي جاءني بتلك المجلة.

- السيد رازوميixin؟ مقالة أخيك؟ ولكنني كنت أجهل وجود مقالة بهذه المقالة. لا بد أنها شائقة جداً!... إلى أين أنت ذاهبة يا آفدوتيا رومانوفنا؟

- أريد أن أرى صونيا سيميونوفنا. من أين يجب المرور للذهاب إليها؟ لعلها عادت! أريد أن أراها على الفور حتماً. يجب أن... .

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها، فقد انقطع تنفسها فعلاً.  
- لن تعود صونيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل. هذا ما افترضه على الأقل. كان يجب أن تعود في وقت مبكر جداً، وإذا لم تعد، فستأتي في وقت متاخر جداً...

- آه... الآن أرى أنك تكذب! أنت لم تزد على أن كذبت! إنني لا أصدق كلمة واحدة مما ذكرت... لا أصدق، لا أصدق!  
بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها.

ثم تهالكت على كرسي أسرع يقدمه إليها سفديريجايلوف وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها.

- ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا؟ عودي إلى نفسك! إليك ماء! اشربي جرعة!

قال سفديريجايلوف لها ذلك، ورش وجهها بالماء، فارتعدت وأفاقت.

فدمدم يقول بينه وبين نفسه مقطب الوجه:  
- ما أبلغ تأثير هذا الأمر في نفسها.  
ثم قال لها:

- هدئي روحك يا آفدوتيا رومانوفنا! اعلمي أن له أصدقاء. سوف ننقذه، سوف نخرجه من المأزق! هل تريدين أن أساعده على أن يجتاز الحدود؟ إنني أملك مالاً. وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت له جواز سفر. لقد قتل، نعم، ولكن هدئي نفسك. ما يزال في وقته متسع لأن يقوم بأعمال خيرية كثيرة. ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً عظيماً. ما بك؟ ألا تشعرين الآن بتحسن؟

- رجل شرير... ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزئ! دعني...  
- إلى أين أنت ذاهبة؟ إلى أين؟

- إليه! أين هو؟ هل تعلم أين هو؟ لماذا هذا الباب مغلق؟ من هذا الباب دخلنا، فما لي أراه الآن مغلقاً بالمفتاح؟ متى أتيح لك أن تتفله؟

- لم يكن في الإمكان أن نسمع جميع الغرف ما قلناه هنا! وأنا لا أسخر ولا استهزء بالبنته، غير أنني سئمت من الحديث بمثل هذه اللهجة. غريب! إلى أين تریدين أن تذهب؟ وأنت مهتاجة مضطربة؟ أتراك تریدين أن تزجيه في السجن؟ لو ذهبت إليه لاشتعل غضباً وحنقاً، ولمضي بشيء بنفسه! اعلمي أنه مراقب منذ الآن، وأنهم يتبعونه. لسوف تكشفين أمره مزيداً من الكشف! انتظري... لقد رأيته منذ قليل وكلمته. ما يزال في الإمكان إنقاذه. انتظري. اجلسي. ستفكر معاً. من أجل هذا إنما دعوتك، من أجل أن نتحدث في خلوة وأن نتعمق في درس المشكلة. ولكن هلا جلست!

- بأي طريقة تستطيع أن تنقذه؟ وهل يمكن إنقاذه؟

قالت دونيا ذلك وجلست، فجلس سفديريجايلوف إلى جانبها، وبدأ يتكلم فقال وقد اشتعلت عيناه، قال بما يشبه الدمدمة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات بسبب الانفعال:

- كل شيء متوقف عليك... عليك وحدك...

فتراجعت دونيا بضع خطوات، مذعورةً مرتجفة. وكان سفديريجايلوف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

- أنت... كلمة منك أنت وينفذ؟ أنا... أنا سوف أنقذه! عندي مال، ولدي أصدقاء! سأرحله فوراً، وسأحصل أنا نفسي على جواز سفر... سأحصل على جوازي سفر، واحد له وواحد لي. لي أصدقاء... رجال قانون... هل تریدين؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت، ولأمك... ما حاجتك إلى رازوميفيين؟ إنني أحبك مثلما يحبك. أحبك جباراً لا نهاية له. دعني أقبل حافة ثوبك! دعني أفعل هذا، دعني!... أصبحت لا أطيق سماع حفيظ ثوبك! مريني

بما يجب أن أفعل فأفعل . سأفعل كل شيء ، سأفعل المستحيل ! سوف أؤمن بكل ما تؤمنين به أنت ! أفعل كل شيء ، كل شيء ! لا تنظري إلى هكذا ، لا تنظري إلى هكذا ! هل تعلمين أنك تقتليني . . .

أخذ سفديجايلوف يهذي . إن شيئاً ما قد مسّه فجأة ، كأنه تلقى ضربة على رأسه . ونهضت دونيا بوثبة . واندفعت نحو الباب ، وصاحت تقول وهي تهز الباب بكلتا يديها :

- افتحوا ! افتحوا ! ألا فتحتم الباب ؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة أحد ؟

كان سفديجايلوف قد جلس ، وها هو ذا يشوب إلى رشه ، وقد ألمت ابتسامة خبيثة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان ترتعسان .

قال بصوت خافت متقطع :

- ليس ثمة أحد . صاحبة الدار خرجت . تصيبين وقتكم سدى بهذا الصراخ . ت Shirin أعصابك في غير طائل .

- أين المفتاح ؟ افتح الباب ! افتح الباب فورا ! فورا ! يا لك من نذل حقير !

- أضعت المفتاح ، ولا أعتبر عليه !

صاحت دونيا تقول وقد اصفر وجهها حتى لكانها ميتة :

- آ . . . هذا اغتصاب إدا !

وهرعت إلى ركن من الغرفة ، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة صغيرة كانت في متناولها .

أصبحت الآن لا تصبح ، لكنها كانت مثبتة بصرها في عدوها ترصد بنظرة يقطة أيسر حركة من حركاته . وقد أصبح سفديجايلوف لا يتحرك هو أيضاً ، ولبث واقفاً أمامها في الطرف الآخر من الغرفة . كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه ، في الظاهر على الأقل . لكن وجهه ظل

أصفر كما كان قبل ذلك، وما تزال ابتسامته الساخرة مرسمة على شفتيه. وقال أخيراً:

- لقد نطقت أنت بكلمة «الاغتصاب» يا آفدوتيا رومانوفنا. ولكن إذا كان في نيتِي أن أغتصبك، فلا بد أنني اتخذت احتياطاتي كما تقدرين. إن صونيا سيميونوفنا ليست في بيتها. ولكي تصلي إلى أسرة كابرناوموف، يجب أن تجتازي خمس غرف، هي الآن جميعاً مغلقة بالمفتاح. ثم إنني أقوى منك مرتين على الأقل، هذا عدا أنني لست أخشى على شيء البتة، فلن يكون في وسعك أن تذهبني لتشتكياني. لن تريدي أن تفضحني أخاك، أليس هذا صحيحاً؟ ثم إن أحداً لن يصدقك على كل حال، فلماذا تذهب فتاة منفردة إلى بيت رجل وحيد؟ فحتى لو ارتضيت أن تضحي بأخيك، فلن تستطعي أن تبرهنني على شيء. نعم، إنه لمن الصعب جداً أن ثبتي أن «اغتصاباً» قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا.

دمدمت دونيا تقول حانقة:

- وغداً

- قولي ما تشاءين، ولكن لاحظي أنني لم أقدم إلا افتراءات. وأنا شخصياً أوقفك في رأيك كل الموافقة: إن الاغتصاب دناءة وحطة. لكنني أردت أن أفهمك أن ضميرك لن يعذبك أي تعذيب إذا... إذا... أنت ارتضيت، بمحض إرادتك، أن تنقذني أخاك، كما أقترح عليك. فإنما أنت تخضعين عندئذ للظروف، أو تخضعين للقوة إذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة. فكري: إن مصير أخيك ومصير أمك بين يديك. أما أنا فسائل عبدك المطيع... ما حبيت... وسائل أنتظرك هنا...

جلس سفديريجايروف على الأريكة، على مسافة ثمانية خطوات من دونيا. لكن دونيا أصبحت لا يساورها أي شك في أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع. لقد كانت تعرفه حق المعرفة.

فها هي ذي تسل من جيبها مسدساً على حين فجأة، فتشد الزناد بسرعة، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخي المسدس، فيتفضس سفديريجايلوف وينهض عن مجلسه، ويصبح مدھوشًا، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً:

- آ... هكذا إذا! لا، لا، إن هذا يغير الموقف تغييرًا تاماً، ويقلبه رأساً على عقب. أنت بهذا تيسرين علي الأمور كثيراً يا آفدوتيا رومانوفنا! ولكن أين وجدت هذا المسدس؟ هل السيد رازوميixin هو الذي... ولكن... عجيب... هذا مسدسي أنا! لطالما بحثت عنه! إن دروس الرماية التي تشرفت باعطائك إياها في الريف لم تذهب إذن سدى!

- ليس هذا مسدسك أنت إليها الوغد، بل مسدس مارفا بتروفنا التي قتلتتها! لا شيء في منزلها كان ملكك أنت! لقد أخذت المسدس حين أخذت أشبهه في نياتك وأدرك سفالتك. يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوة واحدة لقتلتكم فوراً!

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدةً صوابها، وهي ممسكة بالمسدس متأهبة لإطلاق الرصاص.

قال سفديريجايلوف وهو ما يزال واقفاً في مكانه:

- وأخوك؟ إنما ألقى عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر!

- أخي؟ أبلغ عنه السلطات إن شئت! لا تتحرك، وإنما أطلقت الرصاص. لقد دسست لزوجتك السم في الطعام، أنا أعرف ذلك، أنت نفسك قاتل!

- هل أنت على يقين من أنني دسست السم لمارفا بتروفنا؟

- نعم، أنت! حتى لقد ألمحت إلى هذا السم أمامي. وإنني لأعلم أنك إنما سافرت لتجيء به... هيأت كل شيء... أنت القاتل!... لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أيها الشقي!

- حتى إذا صح هذا، فإنك تكونين أنت السبب.

- كاذب! أنا أبغضتك دائمًا، دائمًا!

- مهلاً مهلاً يا آفدوتيا رومانوفنا... أرى أنك نسيت كيف كنت، أثناء تمثيلك دور الواقع، تميلين على متلهفة النظرات. لقد قرأت شيئاً في عينيك... هل نسيت؟... ذلك المساء... والقمر... وأغنية العندليب؟...

- كاذب! كاذب! مفترِّ نمام!

كان الحنق يشتعل في عيني دونيا.

قال سفديريجايروف:

- كاذب... لنسلم بأنني كاذب! على كل حال، ما ينبغي للمرء أن يذكر النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة...

وابتسم، ثم أردف قائلاً:

- أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة... فماذا تنتظرين؟ أطلقني!

شهرت دونيا مسدسها على سفديريجايروف وقد اصفرَ لون وجهها حتى لكانه وجه ميت، وايضفت شفتها السفلية وأخذت تختلج اختلاجاً قوياً. كانت تنظر إليه بعينيها السوداويتين الواسعتين اللتين ترشقان شرراً، وقد عزمت أمرها فهي ترصد أيسر حركات الرجل.

لم يرها جميلةً هذا الجمال كله في يوم من الأيام. إن اللهب الذي كان ينبع من عيني الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه إحرقاً. وتشنج قلبه ألمًا.

وتقدم سفديريجايروف خطوة، فانطلقت الرصاصية، فلامست شعره ومضت تضرب الحائط وراءه. فتوقف، وأخذ يضحك في رفق وهدوء.

- وخزتني النحلة! إنها تسدد إلى الرأس... ما هذا؟ دم؟

وأخرج منديله ليمسح خيطاً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه الأيسر: لعل الرصاص قد خدشت جلد رأسه.

خفضت دونيا المسدس ونظرت إلى سفدريجايروف. إن نظرتها لا تعبّر عن الذعر بقدر ما تعبّر عن الانشاده. لكنها لم تدرك ماذا فعلت ولا ماذَا حدث!

قال سفدريجايروف بصوت خافت، مع ابتسامة عابسة:  
- طاشت الضربة. هلا أطلقت مرة أخرى! إني انتظر! وإلا كان في وقتٍ متسع لأن أقبض عليك قبل أن تُشدِّي الزناد مرة أخرى.  
ارتعشت دونيا، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية، وشهرته على سفدريجايروف من جديد. وقالت يائسة:  
- دعني! يميناً لأطلقنَّ مرَّةً أخرى إذا لم تتركني! يميناً...  
لأقتلنَّك... .

- وبعد ذلك؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد ثلاث خطوات... ولكن ماذا لو أخطأتني مرَّةً ثانية، ما عساك فاعلة حينذاك؟... .

قال ذلك وسطعت عيناه، وتقدم خطوتين آخرتين فضغطت دونيا على الزناد، ولكن الطلق لم تخرج.

- لم تحسني حشو المسدس! لا بأس! ما يزال عندك رصاصة. أحكمي وضعها! سوف انتظر.

كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها ينتظر، وينظر إليها بعينين يتوجّح فيها لهيب ثقيل شهوانِي، وتعبران عن عزيمة وحشية وتصميم جنوني.

ادركت دونيا أنه يؤثِّر أن يموت على أن يدعها تصرف. «طيب، طيب، في هذه المرة، وهو منها على بعد خطوتين فقط، ستقتله فعلاً». بهذا حدثت دونيا نفسها، ولكنها هي ذي ترمي المسدس فجأة.

قال سفدريجايلوف مدهوشًا وقد استرد أنفاسه:

- رميته؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل، حمل ليس مردّه إلى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة، وإنما هو أحس أنه تخلص من شيء آخر، من شعور أشد إيلاماً وأحلّك ظلاماً، شعور لا يستطيع هو نفسه أن يحدّه.

واقترب من دونيا، وضم إليه قامتها في رفق وهدوء، فلم تقاوم، ولكنها نظرت إليه بعيني ضارعتين وهي ترتعش كورقة في مهب الريح. وذلّ لو يقول شيئاً ولكن شفتّيه تقلصتا، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

قالت له متولّة بصيغة المخاطب المفرد:

- اتركني !

فاختلّج سفدريجايلوف. إن استعمالها بصيغة المخاطب المفرد تختلف لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل.

سألها بصوت خافت:

- أنت لا تحبّيني إذا؟

فحرّكت دونيا رأسها بإشارة النفي. فهمس يسألها يائساً:

- ولن . . . تستطيعي . . . أن تحبّيني في يوم من الأيام؟

فأجابته هامسة:

- لا، لن تستطيعي ذلك في يوم من الأيام!

نشبت في نفس سفدريجايلوف، خلال لحظة من الزمن، معركة خرساء رهيبة. كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبيل إلى وصفها. وفجأة سحب يده، واستدار، وأسرع يبتعد نحو النافذة، وليث هنالك جامداً لا يتحرك.

انقضت ببرهة أخرى .

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه الأيسر ، فيوضعه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا ، بل ودون أن يلقي عليها نظرة واحدة ، قائلًا لها :

- إليك المفتاح ! خذيه وانصرفي بسرعة !

كان ينظر إلى النافذة في عناد ، لا يحول بصره عنها يمنة ولا يسرا . اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح . فقال سفديجايلوف مكررًا ، دون أن يتحرك أو أن يلتفت :

- بسرعة ! بسرعة !

ولكن كلمة «سرعة» هذه كان لها جرس رهيب !

لاحظت دونيا ذلك . وتناولت المفتاح ، واندفعت نحو الباب ففتحته ، وهرعت تخرج من الغرفة . فما هي إلا دقيقة واحدة حتى كانت تجري كالمحنة على طول القناة في اتجاه جسر س . . . .

لبث سفديجايلوف أمام النافذة حوالي ثلات دقائق . ثم التفت ببطء ، ونظر حواليه ، ومرة بيده على جبينه في رفق . إن ابتسامة غريبة تعصف الآن شفتيه ، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة ، ابتسامة هي ابتسامة ألم كبير و Yas شديد . وكان الدم قد جف على يده ، فنظر إليه نظرة تفيف بغضًا ، ثم بلل خرقه بالماء فمسح بها صدغه . ووقع بصره على المسدس الذي كانت قد رمته دونيا فتدحرج على الأرض . إنه مسدس صغير للجيبي ، من طراز قديم ذي ثلات طلقات . إن فيه الآن طلقتين وكبسولة . ما يزال يمكن استعماله مرة . فكر سفديجايلوف لحظة ، ودس المسدس في جيبيه ، ثم تناول قبعته وخرج .

## الفصل السادس

السهرة حتى الساعة العاشرة في العانات والمحلات المشبوهة  
متقللاً بينها. وعثر في مكان ما على كاتيا. كانت كاتيا ما تزال  
تغنى أغنتها المألهفة التي تتحدث عن «الطاغية الحقير».  
الذي أخذ يقبل كاتيا.

فتقاها سفديريجاييلوف وسقى صاحبها الصغير، العازف على الأرغن  
اليدوي، وسقى الخدم والمعنين، واثنين من صغار الموظفين جذبه  
إليهما أنفيهما معوجين، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً إلى اليمين،  
وثانيهما كان أنفه منحرفاً إلى الشمال، فلفت هذا الأمر انتباه  
سفديريجاييلوف وخطف بصره. وقاده الموظفان أخيراً إلى حديقة ملاو،  
دفع عنهما رسم الدخول وثمن الشراب.

كان في الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر عمرها ثلاثة  
أعوام، وثلاث شجيرات صغيرة، وكان في الحديقة كذلك مبني أطلق  
عليه اسم «فوكسهول»<sup>(80)</sup> من باب التفحيم وما هو في حقيقته إلا خماره  
صغيرة يُشرب فيها الشاي أيضاً. إن في الخمارة عدة موائد صغيرة،  
وكراسي خضراء؛ وفيها جوقة هزيلة من المعنين، وألماني بلغ السكر  
منه كل مبلغ (هو نوع من ممثل مهرّج أحمر الأنف، لكن وجهه يظل

كالحال إلى أقصى حد، لا يدرى المرء كثيراً لماذا)، وكانت مهمة الجوقة والألماني تسلية الزبائن.

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك، حتى أوشك التشاجر أن يصير إلى تماسك بالأيدي. واحتكم المتشاجرون إلى سفديريجايلوف، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم موضوع التشاجر، ولكنه لم يفلح في ذلك من شدة صراخ هؤلاء وأولئك. أغلب الظن فيما أشارت إليه الدلائل أن واحداً منهم كان قد سرق شيئاً واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً، ولكن السارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه. واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاي من محل «فوكسهول»، وقد تم تعرفها، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة. فما كان من سفديريجايلوف إلا أن دفع ثمن الملعقة، ونهض، وغادر حديقة الملاهي.

كانت الساعة تقترب من العاشرة. لم يشرب سفديريجايلوف خمرة طوال تلك السهرة، وإنما كان يكتفي بطلب كأس من الشاي؛ وحتى هذا إنما كان يفعله من باب التقيد بالشكل. وكان الحر أثناء ذلك ثقيلاً والسماء مكفهرة. وفي نحو الساعة العاشرة تقدمت غيمون كبيرة من جميع أطراف الأفق، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل غزيراً كأنه السيول. كان الماء لا يتسلط قطرات، وإنما هو شلالات تضرب الأرض. وكان ومض البرق يتعاقب سريعاً، فلا يكاد يستطيع المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة وومضة. وابتلى سفديريجايلوف بالماء حتى العظام، ووصل أخيراً إلى بيته، فأغلق على نفسه الباب، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسنداته، ومزق بعض الأوراق، حتى إذا فرغ من دست أمواله كلها في جيبيه، بدا له أن يبدل ملابسه، لكنه بعد أن ألقى نظرة إلى النافذة وأصاخ بسمعه إلى هزيم الرعد وتساقط المطر، حرك يده بإشارة تنم على عدم الاكتثار، وتناول قبعته، وخرج دون أن

يغلق الباب وراءه، ومضى إلى صونيا رأساً، فوجدها في غرفتها.  
لم تكن صونيا وحدها، وإنما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربع. كانت صونيا سيميونوفنا تسقيهم شاياً. واستقبلت سفدريجايلوف بصمت واحترام، ونظرت مدهوشة إلى ثيابه المبتلة، لكنها لم تقل كلمة واحدة. أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالي.

جلس سفدريجايلوف إلى المائدة، ورجا صونيا أن تجلس قربه ففعلت، وتهيأت لأن تصغي إليه خجلة وجلة.  
قال سفدريجايلوف:

- صونيا سيميونوفنا، ربما سافرت إلى أمريكا، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا، لذلك جئت أأخذ بعض الإجراءات. لقد رأيت اليوم تلك السيدة، أليس كذلك؟ أنا أعرف ما قالته لك، فلا حاجة إلى أن ترويه لي ( هنا حركت صونيا يدها بإشارة وأحرم وجهها). إن لهؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً. على كل حال، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير، فإن مستقبليهم مؤمن، لقد توليت بنفسي دفع المال الذي يجب أن يؤول إليهم، وأخذت به إيصالات. خذني، إليك هذه الإيصالات. بهذا تُسوئ المسألة. وإليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل. هذه لك أنت. أرجو أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا لا يعلم به أحد، مهما تسمعي من كلام. سوف تحتاجين إلى هذا المال يا صونيا سيميونوفنا، فإن الحياة التي عشتها حتى الآن سيئة، ولن تضطري إليها بعد اليوم.

تمتّمت صونيا تقول:

- غمرتني بنعم كثيرة... أنا... والأيتام... والمرحومة أيضاً...  
وإذا لمأشكر لك جميلك شكرأ كافياً حتى الآن فلا يذهبن بك الظن خاصة إلى أن... .

- رحماك! رحماك!

وتابعت صونيا كلامها فقالت :

- أما هذا المال يا أركادي إيفانوفتش ، فإننيأشكره لك أجزل الشكر . . . لكنني لست في حاجة إليه . إنني وقد أصبحت وحدي أستطيع أن أجني رزقي . لا تحسن هذا عقوفاً . وما دمت إنساناً محسناً إلى هذا الحد ، فإن هذا المال يمكن دائمًا أن . . .

- بل هذا المال لك أنت يا صونيا سيميونوفنا ، وكفى كلاماً ، أرجوك ! ليس في وقتٍ متسع . لك أنت ، سيكون هذا المال مفيداً . لا يملك رواديون رومانوفتش إلا أن يختار أحد أمريرين : فِيما رصاصة في رأسه ، وإما طريق فلاديمير<sup>(81)</sup> .

نظرت إليه صونيا مروعة وأخذت ترتجف . وتابع هو كلامه يقول :

- لا تقلقي ! لتن كنت أعرف كل شيء ، فلأنه هو الذي روى لي كل شيء ! . . . وإذا كنت امرأة قليل الثرثرة ، فلن أذكر لأحد شيئاً . أنت أسديت له في ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً ، هي أن يشي بنفسه ويعرف بجرينته . وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله . وإذا كان مصيره هو الرجل إلى سيبيريا ، فسيرحل إليها ، وستتعينه أنت ، أليس كذلك ؟ فأنت إذا في حاجة إلى مال . سوف تحتاجين إلى هذا المال من أجله هو ، هل تفهمين ؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأنني أعطيه له . ثم إنك قد تعهدت لآماليا إيفانوفنا بأن تدفعي الديون التي لها على أسرتك . هذا سمعته بنفسي . ولكن لماذا يا صونيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأن أو ترو ؟ إن كاترينا إيفانوفنا هي المدينة للألمانية ، لا أنت . فكان ينبغي لك أن لا تحفلي بهذه الألمانية وأن لا تكتري لها . ما هذا أسلوب سليم في الحياة ! على كل حال ، إذا استجوبوك في يوم من الأيام جداً أو بعد غد مثلاً إذا استجوبوك عنـي ، أقصد عنـ أمري (وسيستجوبونك عنـ أمري حتماً) ، فإياك أن تذكري شيئاً عنـ زيارتي هذه خاصةً ، وإياك أن تتيحي لأحد أن

يفترض أنتي أعطيتك مالاً. والآن، إلى اللقاء!

قال سفديجايروف ذلك ونهض وهو يتبع كلامه قائلاً:

- تحياتي لروديون رومانوفتش... . بالمناسبة: أخزني المال عند السيد رازوميixin إلى حين الحاجة إليه. تعرفين السيد رازوميixin، أليس كذلك؟ تعرفينه حتماً إنه فتى طيب شهم! فاحملي إليه المال غداً، أو... . حين يأذن الوقت! وإلى أن يأذن الوقت، خبئيه عن الأنظار.

كانت صونيا قد نهضت هي أيضاً وشخصت ببصرها إليه مذعورة. ودَّت لو تقول شيئاً ما، ودَّت لو تطرح سؤالاً، لكنها لم تجرؤ في البداية، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تدبّر أمر إلقاء السؤال. وقالت أخيراً:

- لكن... . لكن... . هكذا... . هكذا... . تخرج... . تحت هذا المطر؟

- هه! هل يخشى المرء المطر إذا كان يتهيأ للسفر إلى أمريكا؟ استودعك الله يا صونيا سيميونوفنا العزيزة. أتمنى لك أن تعيشي طويلاً، فلسوف تكونين مفيدة نافعة للآخرين. بالمناسبة: أبلغي السيد رازوميixin تقديري. قولي له بالنص: إن أركادي ايفانوفتش سفديجايروف يبلغك تقديره. لا تنسي.

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا في جمود وذعر، وقد استولى عليها شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث.

وقد عُرف فيما بعد أن سفديجايروف، في ذلك المساء نفسه، بعد الساعة الحادية عشرة، قام بزيارة أخرى، زيارة بعيدة جداً، غير متوقعة أبداً. كان المطر ما يزال يهطل غزيراً. وها هو ذا، في الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين، يدخل البيت الصغير الذي يقطنه أهل خطيبته في الخط الثالث من فاسيليفسكي اوستروف في شارع ماليبي<sup>(82)</sup>. كان

مبلاً بالماء ابتلاً شديداً. لقد طرق الباب مدة طويلة، ففتحوا له آخر الأمر، فأحدث ظهوره في البداية اضطراباً كبيراً؛ لكن أركادي ايفانوفتش قد أوتي موهبة حُسن الحيلة ولباقة السلوك وجمال التصرف متى شاء، لذلك فإن القلن الأول الذي قام في وهم أهل خطيبته (وهو قلن لطيف، فقد اعتقدوا أنه سكر في مكان ما فأصبح لا يدري ماذا يفعل)، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه. وبادرت أم الخطيبة، المرأة الحنون الشفوف العاقلة، فجرّت مقعد الأب الهرم الخرف العاجز وسرعان ما أخذت تتحدث على عادتها بـاللقاء أسلمة ملتوية غير مباشرة (إن هذه المرأة لا تلقي في يوم من الأيام أسلمة مباشرة: إنها تبدأ بأن تبتسם وتأخذ تفرك يديها، فإذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادي ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذي ينوي تحديده للاحتفال بزواجه، طفت تساؤله بكثير من الشوق والشراهة عن باريس، وعن حياة المجتمع الرافي هناك، ثم لا تصل إلى فاسيليفسكي أوستروف وإلى ما يجب أن يحدث فيها إلا رويداً رويداً). ولقد كان يمكن، في ظروف غير هذه الظروف، أن يصفي سفديريجايلوف إلى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم، لكنه بدا في هذه المرة نافذ الصير جداً، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيبته فوراً (رغم أنه كان قد أعلم، منذ أولى الكلمات التي جرى بها الحديث، أنها قد نامت). فقال لها أركادي ايفانوفتش بدون لف أو دوران أن عليه، بسبب ظروف طارئة استثنائية، أن يغادر بطرسبرج إلى حين، وإنه إذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل، أوراقاً مالية وسندات، راجياً أن تقبلها هدية منه إليها، وإنه على كل حال كان ينوي منذ مدة طويلة أن يقدم إليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج.

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر، لا ولا أوضحت ضرورة المجيء في منتصف الليل تحت وايل المطر. ومع ذلك لم يعتراض أحد أهي اعتراض. وحتى الأسلمة وصيحات التعجب المعهودة كانت في هذه المرة معتدلة جداً، على

خلاف العادة. وتتدفق الشكر في مقابل ذلك حاراً عنيفاً، حتى أن الأم العاقلة ذرفت في سبيل الشكر دموعاً. ونهض أركادي ايفانوفتش، وابتسم وقبل خطيبته، وربت على خدتها في رفق ولين، وأكَدَ مرة أخرى أن غيابه لن يطول؛ وإذا لاحظ في عيني الخطيبة الصغيرة استطلاعاً طفلياً جدياً في آن واحد، وتساؤلاً أبكم، فتَكَرَ لحظة، وقبلها مرة أخرى، وشعر في الوقت نفسه بحسرة حقيقة لأنَّه قادر أن الأم العاقلة ستختبئ الهدية في الحال مقلدة عليها بالمفتأح. وخرج آخر الأمر، تاركاً جميعَ من في البيت في حالة اهتياج شديد خارق. وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرر بوشوشات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفديريجايلوف رجل ذو سلطان، رجل له أعمال وصلات، وأنه على جانب عظيم من الثراء الطائل، والله يعلم ما الذي خطر بياله لكنه قد عنَّ له أن يسافر فسافر، ثم عنَّ له أن يهب مالاً فوَهْبَ، فلا داعي إلى التعجب والدهشة والحالة هذه. صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحال أمر غريب، ولكن الإنجليز، مثلاً، أكثر شذوذًا من الآخرين وأغلب الظن أن هذه خصلة من خصالهم وعادة من عاداتهم. إنها الشذوذ والتفرد، أليس كذلك؟ ثم إن أبناء المجتمع الرافي لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم، فهم لذلك لا يتحرجون. حتى أن الممكن أن يكون أركادي ايفانوفتش قد تعمد المجيء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً. ولكن ينبغي خاصةً أن لا تقال كلمة واحدة لأي إنسان عن هذه «المغامرة»، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذي قد تنقلب إليه هذه الأمور كلها. ويجب إخفاء المال والإقبال عليه بالمفتأح بأقصى سرعة، والحمد لله على أن فيدوسيا قد بقيت في المطبخ ولم تر وتسمع شيئاً... نعم، يجب خاصةً أن لا يقال لأحد شيء... هست!... ما من كلمة إذاً، لا لتلك الذبابة الحقيرة رسليخ، ولا للآخرين، وهلم جرا، وهلم جرا... .

وظلوا يترثرون ويتهمسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح. لكن الخطيبة مضت تناول قبض ذلك بكثير، وهي تشعر بشيء من الدهشة وكثير من الحزن.

وفي أثناء ذلك، عندما دقت الساعة منتصف الليل، كان سفديريجاييلوف يجتاز جسر «... كوف» في اتجاه «حي بطرسبرجسكي». كان المطر قد انقطع عن الهطول، لكن الريح ما تزال تزephyر. أخذ سفديريجاييلوف يرتعش من البرد، ونظر خلال دقيقة من الزمن، بنوع من الاستطلاع الخاص، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم، نظر إلى المياه السوداء، مياه نهر «نيفا الصغير». لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو. فاستدار، واتجه نحو شارع «من....».

ظل سفديريجاييلوف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة، في ذلك الشارع الذي لا نهاية له، وتعثرت قدماه بالرصيف الخشبي مراراً في الظلام، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شيء ما كان يجب أن يوجد في الجهة اليمنى من الشارع. إنه حين مرّ هنا منذ مدة بالعربية قد لمح في مكان ما، على اليمين، فندقاً لا بد أن اسمه «فندق أندرلينوبيل» إذا صدقت ذاكرته. إن هذا الفندق هو في هذا الحي التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى في الظلام الدامس. هو مبني طويل من خشب، أسود من كثرة السنين التي تعاقبت عليه، كانت تستطيع فيه أصوات رغم تقدم الليل، وكانت تُلاحظ فيه حركة وجبلة.

دخل سفديريجاييلوف الفندق، فالتقى في الدهلizi بخادم بائس المظهر رث الثياب، فطلب منه غرفة. بعد أن ألقى عليه الخادم نظرة، عدل قامته، وقاده فوراً إلى حجرة نائية لا هواء فيها تقع في ركن تحت السلالم عند آخر الممر. لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية، فجميع الغرف مشغولة.

نظر الخادم إلى سفديجايلوف بهيئة مستطلعة مستفهمة. فسأله سفديجايلوف:

- هل عندكم شاي؟

- عندنا.

- ماذا عندكم أيضاً؟

- لحم عجل، فودكا، مقبلات.

- جثني بلحام عجل وشاي.

سأل الخادم متراجعاً بعض التردد:

- ولست في حاجة إلى أي شيء آخر؟

- لست في حاجة إلى أي شيء آخر.

فانصرف الخادم وقد خاب أمله:

حدث سفديجايلوف نفسه قائلاً: «لا بد أنه محل مريب. كيف لم يخطر هذا بيالي؟ آ... لا شك أن هيئتي أنا أيضاً هيئه رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة في الطريق. ليتنى أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل!»

وأشعل سفديجايلوف شمعة وفتح الغرفة تفتيشاً دقيقاً. هي حجرة صغيرة تضيقها نافذة واحدة، وتبلغ من الضيق أن رجلاً له قامة كقامة سفديجايلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قذر ومنضدة مدهونة وكرسي عتيق. أما الجدران فكأنها من ألواح خشبية انفكـت فيها المسامير التي تربط بعضها ببعض؛ وهي مغطاة بورق ملطخ مهترئ ممزق يملؤه الغبار فلا يكاد يستطيع البصر أن يميز فيه أي رسم، ولا يكاد يرى منه إلا لون أرضيته الصفراء. وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة، شأن جميع الحجرات التي تقع تحت الأرض، غير أن السلم يمر هنا فوق الزاوية المقطوعة.

وضع سفديريجاييلوف الشمعة، وجلس على السرير، وغرق في أفكاره وخواطره. غير أن مدمرة غريبة متصلة كانت تعلو في الغرفة المجاورة وتصل إلى حد الصراخ أحياناً، فما لبثت أن استرعت انتباذه. إن هذه الأصوات لم تنقطع في الواقع منذ دخل. أصاخ سفديريجاييلوف بسمعه: كان هناك شخص يقرّع شخصاً آخر ويصب عليه أنواع اللوم، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكي. ليس يميز المرء إلا صوتاً واحداً.

نهض سفديريجاييلوف، ووضع يده حاجزاً أمام لهب الشمعة، فسرعان ما أضاء شق صغير في الجدار، فاقترب سفديريجاييلوف منه ونظر. الغرفة أوسع قليلاً من غرفته، وفيها رجلان أحدهما أحجد الشعر محمر الوجه، بدون سترة، قد وقف متخدناً وضع الخطيب، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه، وأخذ يلطم صدره لائماً صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقي تافه ليس له أي رتبة، وليس له أي كرامة اجتماعية، مذكراً إياه بأنه هو الذي أخرجه من الماء، ففي وسعه أن يعود فيغطسه في الماء متى شاء، وأن عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله. وكان الرجل الثاني الذي ينصب عليه هذا التقرير وهذا التأنيب جالساً على كرسي، وهبته هيئة رجل يود لو يعطس لكنه لا يفلح في ذلك على أي نحو من الأ纽اء، وهو يلقى على الخطيب من حين إلى حين نظرة مضطربة بلهاء. كان واضحاً أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الإطلاق، بل لا يسمع، كما يبدو، من الأمر شيئاً.

وعلى المائدة، حيث كانت توجد شمعة ذاتية توشك أن تنطفئ، كان يوجد أيضاً إبريق فودكا يكاد يكون فارغاً، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة، وخبز، وخيار مخلل؛ ورغم أن الشاي قد شرب منذ مدة طويلة حتماً، فإن الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقاة كذلك على المائدة.

تأمل سفديريجاييلوف هذه اللوحة بانتباه، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراش، وعاد يجلس على السرير.

وحيث عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاي، لم يستطع أن يمتنع عن سؤال سفديريجاييلوف مرة أخرى أليس في حاجة إلى شيء آخر، فلما سمع جواب النفي من جديد انصرف أخيراً إلى غير رجعة. وانقض سفديريجاييلوف على الشاي التماساً للدفء، فاحتسى منه كأساً، لكنه لم يستطع أن يذوق اللحم، فقد كان لا يشتهي أن يتناول أي طعام.

واضح أن الحُمَى كانت قد ألمَت به. وخلع معطفه وسترته، واضطجع على السرير، وتذثر بالبطانية. كان مسأة ممتعضاً. «إن من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الظرف»، كذلك قال يحدث نفسه، وضحك ساخراً.

كان جو الغرفة خانقاً، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً، وكانت الريح في الخارج تز مجر، وكانت فأرة تخدش شيئاً من الأشياء في مكان بأحد أركان الغرفة، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة فثran وجلد.

لبث مضطجعاً غارقاً في أحلامه. كانت الخواطر تتعاقب في خياله، يطرد بعضها ببعضاً. كان كمن يرید أن يتثبت بشيء ما في الخيال بكل ما أوتي من قوة. قال يحدث نفسه: «لا شك أن تحت النافذة حدقة تهز الريح أشجارها فتهمهم! آه... لشد ما أكره همممة الأشجار أثناء العاصفة في الظلام! يا له من إحساس كريه!». وفي هذه المناسبة تذكر مروره بحديقة بتروفسكي، مشمئزاً. وتذكر عندئذ مروره بجسر «... كوف» على نهر «نيفا الصغير» أيضاً، فأحس بتلك البرودة نفسها التي أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر. «أنا لم أحب الماء يوماً، ولا مناظر الطبيعة»، بهذا حدث نفسه، ثم إذا بفكرة غريبة توافقه فتجعله يضحك ضحكة سخرية. قال يخاطب نفسه: «يخيل إليَّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغي أن لا تثير اهتمامي اليوم وأن تدعني غير مكترث بها أي اكتراش، فما بالي أُغنى بها أشد العناية؟ ألا أني لأشبه الحيوان الذي يهمه أشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً

المناسباً . . . في حالة كهذه الحالة! لقد كان الأفضل أن أعود إلى جزيرة بتروفسكي! لكنني وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة! هي هي! إنني لأكاد أنسد الأحاسيس اللذية والمشاعر الممتعة! بالمناسبة: لماذا لا أطفي الشمعة؟»

قال لنفسه ذلك ونفع على الشمعة فأطفأها، وإذا لم ير ضوءاً في شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال: «نام جيراني! هلمي يا مارفا بتروفنا! الآن، الآن إنما ينبغي لك أن تجئي، تفضلي، فالظلام دامس، والمكان مناسب، واللحظة فريدة. ومع ذلك لا تجيئين اليوم!»

وتدثر فجأة، دون سبب ظاهر، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا في حماية رازوميixin. قال يحدث نفسه: «حقاً . . . لا بد أنني قلت ذلك من باب التبعع، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً! إنه لماكر، هذا الفتى راسكولنيكوف! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته. ولكي يصبح المرء ماكرًا كبيراً لا بد له من وقت، لا بد له من أن يتظر انقضاء عهد السخافات. وهو الآن مسرف في حب الحياة. من هذه الناحية يتصرف جميع هؤلاء الناس بأنهم جبناء. ولكن ما بالي أهتم به! ليذهب إلى الشيطان! ألا فليفعل ما يشاء، فذلك لا يعنيني!»

وظل سفديجايلوف عاجزاً عن النوم. وشيناً فشيناً انبجست أمامه صورة دونيا كما رأها منذ قليل، فسرت في جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة. قال يخاطب نفسه وقد ثاب إلى صوابه: «لا، يجب عليّ الآن أن أتخلص من هذا كله. يجب أن أفكر في شيء آخر. مضحك أمري . . . مضحك: إنني لم أكره أحداً كرهاً شديداً في يوم من الأيام، بل إنني لم تراودني رغبة قوية في الانتقام فقط. هذه علامة سيئة! لا ولا أحببت يوماً أن أتشاجر، وأن أندفع وأتحمس! هذه أيضاً علامة سيئة . . . ولكن ما أكثر الوعود التي بذلتها لها منذ قليل! مع ذلك، كان يمكنها أن تصنع مني رجلاً آخر، من يدرى . . .»

وصمت سفديجايلوف وكَرْ أسنانه. وعرضت له صورة دونيا من جديد، تماماً كما رأها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب فأرخت المسدس وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين... حتى لكان يمكنه أن يمسكها مرتين لا مرة واحدة دون أن تستطيع إظهار أية مقاومة. لقد قصد هو نفسه أن يردها إلى إدراك الواقع! وتذكر أيضاً أنه شعر في تلك اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرأفة بها، وأن قلبه قد انقبض انقباضاً شديداً. «سحقاً لهذه الخواطر!... يجب التخلص من هذا كله! يجب التخلص!»

وأخذ النعاس يدب إلى جفنيه، وأخذت رعدة الحمى تهدأ. وتراءى له فجأة أن تحت البطانية شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه. فارتعش، وقال: «آ... لأنها فأرة! طبعاً... لأنني تركت اللحم على المائدة!» كره كره فظيعاً أن يكون عليه أن يكشف البطانية عن جسمه، وأن ينهض، وأن يتعرض للبرد. لكن شيئاً لامس قدمه مرّة أخرى ملامسة كريهة مزعجة، فرمى عنه البطانية وأشعل شمعة. ثم مال يتفحص السرير وهو يرتجف من الحمى، فلم يجد شيئاً. حتى إذا نفخ البطانية قفزت إلى السرير فأرة على حين بغة، فأسرع يربد القبض عليها، ولكن الفأرة أخذت، دون أن تغادر السرير، ترسم خطوطاً متعرجة في كل اتجاه، وتنملص من بين أصابعه، وترکض على ذراعه، ثم اندست تحت المخدة. فرمى المخدة على الأرض، ولكنه شعر في تلك اللحظة نفسها بشيء يثبت عليه، ويتنطط على طول قامته، ويصبح فوق ظهره، تحت قميصه. فارتعش سفديجايلوف ارتعاشة عصبية واستيقظ من نومه.

كان الظلام داماً وهو لا يزال راقداً على السرير، متكوناً تحت البطانية. وكانت الريح ما تزال تصفر تحت النافذة.

قال لنفسه غاضباً: «يا له من حلم وسخ!»

ونهض فجلس على حافة السرير مدبراً ظهره إلى النافذة. «الأفضل

أن لا أنام البتة». على هذا حزم أمره. وكان يهبّ من النافذة هواء رطب بارد، فشد سفديجايلوف البطانية وتذرّ بها دون أن يبارح مكانه. ولم يشعّل الشمعة. كان لا يفكّر في شيء، ولا يريد أن يفكّر في شيء على كل حال. لكن الصور كانت تلاحق الصور في خياله، وكانت شذرات أفكار تمرّ في ذهنه بفوضى، لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل. لقد أصبح في ما يشبه النوم. هل يرجع هذا إلى البرد والظلمات والرطوبة والرياح التي تز مجر تحت النافذة وتهز الأشجار؟ المهم أن أحلامه أخذت تأخذ أشكالاً غريبة، وأخذت توقف في نفسه رغبة، وكانت أزهار تتراءى له بغير انقطاع. هذا منظر رائع يتفتح أمام بصره. نهار مضيء، دافئ، يكاد يكون حاراً. هو يوم عيد العنصرة. منزل ريفي أنيق ثري، على الطراز الإنجليزي، ينتصب في وسط مروج مزهرة، وتحيط به أحواض موقفة على زراعة الأزهار. نباتات متسلقة تتلفّ فوق درجات مدخل المنزل غارقة تحت الورود. وعلى طول سلم كبير، مضيء نضير، مغطى بسجادة فخمة، ترتب أواني خزف صيني تضم أزهاراً نادرة. ولاحظ سفديجايلوف بوجه خاص، على حواف النوافذ، في أوان ملأى بالماء، باقات نرجسات بيضاء نصّرة تميل على سيقانها الخضر الطويلة القوية وتنشر عقباً نافذاً. كان سفديجايلوف يود أن لا يبتعد عن هذه الأزهار، ولكنه صعد السلم ودخل قاعة كبيرة عالية السقف. هناك أيضاً كانت الأزهار منتشرة في كل مكان: على النوافذ، قرب الباب الكبير الذي يطل على الشرفة، وفي الشرفة نفسها. أرض القاعة مفروشة بعشب فواح أخضر نضر. مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها إلى القاعة أنسام لطيفة. العصافير تغرّد تحت النوافذ. ولكن في وسط الغرفة، فوق منضدة فرشت بقطاء من قماش الساتان الأبيض الذي يُستعمل للموتى، كان هناك تابوت. إن التابوت منجد بنسيج من ساتان نابولي السميك، ومحفوّف بابزيم سميك، أبيض اللون أيضاً. إن جبالاً من أزهار تطوق التابوت من جميع الجهات. وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترتدي ثوباً من نسيج التول الأبيض، قد عقدت ذراعيها على

صدرها وشدت إحداهما إلى الأخرى حتى لكانهما منحوتان في المرمر. غير أن شعرها المبعثر، الأشقر، رطب مخضل. وعلى جبينها إكليل من الزهر يطوقه. إن وجهها الذي يظهر من جانب، ويعبر عن صرامة، ويبدو متجمداً منذ الآن يشبه أن يكون مقدوداً من مرمر أيضاً، ولكن ابتسامة شفتيها الشاحبتين مصطبغة بحزن لا نهاية له، حزن ليس من الطفولة، وشجن كبير. إن سفديريجايروف يعرف هذه البنية. لم يكن إلى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء، ولا شموع مشتعلة، وليس تثلي عليها صلوات. إن هذه البنية قد انحررت غرقاً. عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً، لكن قلبها قد تحطم وهي في تلك السن: لقد سعت إلى الموت، لأنها وقعت ضحية إهانة رؤعت ضميرها إلى الأبد، وملايات نفسها بعار لا يستحقه وجдан الطفلة، تلك النفس الملائكية الطاهرة، وانتزعت منها صرخة يأس هائلة، صرخة لم تُسمع، اختفت بوقاحة في الظلمات والبرد والجليد الذائب وز مجرات الريح . . .

استيقظ سفديريجايروف من نومه، فترك سريره واتجه نحو النافذة، وتلمس المزلاج ففتحها، فاندفعت إلى الحجرة الصغيرة هبةً ريح صفت خده وصدره الذي لا يغطيه إلا القميص، صفقهما بما يشبه رذاذ ثلج. وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل رواد الفندق يقضون فيها أوقات مبهجة ومسرة أحياناً، فتغنى فيها الأغانى ويُقدم فيها الشاي على موائد صغيرة نهاراً. أما الآن فإن قطرات ماء تسيل على النافذة آتيةً من الشجيرات المحيطة، وإن الظلام يبلغ من الحلكة أن المرء لا يميز إلا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمة.

لبث سفديريجايروف خمس دقائق، مائلاً إلى أمام، متكتئاً بكونعه على حافة النافذة، محدقًا إلى الظلام لا يستطيع أن يحول عنه بصره. وفجأة، في وسط الظلمات، دوت طلقة مدفع أولى، فثانية.

قال سفديريجايروف يحدث نفسه: «هذا هو الإنذار! المياه تعلو<sup>(83)</sup>»، فما أن يطلع الصبح حتى تتدفق في الشوارع فيضانات تغرق الأقبية.

الفتران ستطفو على سطح الماء ميتة. وتحت المطر والرياح سيأخذ الناس ينقلون متابعين إلى الطوابق العليا، وقد تبللت أجسامهم وانهارت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون... لكن كم الساعة الآن؟

وفيما كان سفدريجايلوف يفكّر في هذا، إذا بساعة جدارٍ في مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق.

قال سفدريجايلوف لنفسه: «آ... بعد ساعة يطلع الصبح. فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار؟ سأنصرف حالاً. سأمضي قدماً إلى جزيرة بتروفسكي، فأختار هناك، في مكان ما دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين قطرات...» وابتعد عن النافذة قليلاً، فأغلقها، ثم أشعل شمعة، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعة، ومضى إلى الممر حاملاً شمعته، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذي لا بد أنه نائم في ركن من الأركان التي تودع فيها الأشياء البالية وبقايا الشموع. كان سفدريجايلوف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق. وقال يحدّث نفسه: «هذه خير لحظة. لا يمكن اختيار لحظة أفضل!»

لبث يطوف في الدهلiz الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقي بأحد. فلما همّ أن ينادي اكتشف على حين فجأة، في ركن مظلم، بين خزانة قديمة وباب، شيئاً غريباً، شيئاً بدا له حيّاً. فمال على الشيء والشمعة بيده، فرأى طفلة عمرها خمس سنين في أكثر تقدير، ترتدي ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الخرق التي تغسل بها الأرض، وهي تترجف من البرد وتبكي. لم يظهر عليها ذعر حين رأت سفدريجايلوف، ولكنها حدّقت إليه بعينيها السوداويتين الكبیرتين مبهوتة. وكانت تشھق من حين إلى حين، كما يشهق طفل لبث يبكي مدة طويلة ثم انقطع عن البكاء وهدا آخر الأمر، لكنه ما يزال يشهق بين الفينة والفينية. كانت الطفلة شاحبة الوجه مرهقة الهيئة، وكان واضحاً أن البرد

قد بلغ منها العظام. «ولكن كيف أمكن أن تقع في هذا المكان؟ أغلب الظن أنها قد اختبأت في ركن ولم تنم طوال الليل!»

أخذ سفديجايلوف يستجوبها. فانتعشت الطفلة فجأة، وأسرعت تتدفق في الكلام فتروي بلغتها الطفولية قصة فحواها أن أمها كانت ستضربها لأنها كسرت فنجاناً.

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف؛ وفي وسع المرء أن يحضر مما روته وقصّته أنها ليست محبوبة، وأن أمها (وهي طباخة تظل دائماً سكري، ولعلها طباخة هذا المحل) تروعها وتضرّبها، وأن البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البارحة؛ وأنها اضطررت أن تخبيء مدة طويلة في مكان ما من الحوش، تحت المطر، ثم استطاعت أن تتسلل إلى هذا المكان خلسة، فاختبأت وراء الخزانة، وقضت الليلة هنالك مرتعنة من البرد والظلام مرتجفة باكية، خائفة من ضربات أمها.

أخذ سفديجايلوف الطفلة بين ذراعيه، وعاد إلى غرفته فوضعها على سريره وأخذ يخلع لها ملابسها. كان حذاءها مقطعين، مبتلين بالماء ابتلاولاً شديداً لكانهما قد نُقعا في غدير ليلة كاملة. ولم يكن لها جوربان.

فلما فرغ سفديجايلوف من خلع ملابسها عنها، أرقدها ودثّرها بالبطانية حتى العنق، فما لبثت أن نامت فوراً. وما أن انتهى من هذا حتى عاد يغرق في أحلامه المظلمة وخواطره القاتمة.

قال يحدّث نفسه في غضب وحنق: «هذا ما كنت في حاجة إليه أيضاً! أن أقحم نفسي في مثل هذه القصة! يا للحماقة!». وتناول الشمعة مغناطاً ليمضي باحثاً عن الخادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة. فلما همّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة، ومع ذلك عاد يلقي عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها. رفع البطانية

محاذيرأً. كانت البنية تنام نوماً عميقاً هادئاً سعيداً. لقد دفأتها البطانية، حتى أن خديها قد استردا لونهما منذ الآن. ولكن الشيء الغريب أن هذا اللون كان أسطع اتقاداً مما يلاحظ في الأطفال الآخرين. فقال سفديريجايروف لنفسه: «إن بها حمى». لكنها قد شربت، لأنها قد سُقيت من الخمر كأساً كبيرة متربعة. إن شفتيها الحمراوين تبدوان كالمحترقتين. «لكن ماذا؟ ما هذا؟». لقد رأى سفديريجايروف فجأة أن أهداب الصبية، الطويلة السوداء، تختلنج وترتعش لأنها تفتح، ورأى من تحت الأهداب نظرة ماكرة حادة ليست نظرة أطفال، تتسلل إليه، فكأن الطفلة غير نائمة لكنها تتظاهر بالنوم. نعم، ذلك ما كان... . وانفرجت شفتا الصبية عن ابتسامة، وكانت أطراف الشفتين تختلنج لأنها تحاولان كظم ضحكة. ولكن محاولة الكظم تنتهي، فتنطلق الضحكة. إنها ضحكة صريحة، وقحة، فيها تحدي واستفزاز، تفجر في وجه لم يبق فيه الآن شيء من طفولة. هو الآن وجه العهر والانحلال، وجه وقع زايله الحياة، وجه امرأة مثل «كاميليا»<sup>(84)</sup>، وجه موسم تعاطي البغاء في سبيل المال، موسم فرنسيّة. وها هي ذي البنت، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه، ها هي ذي تفتح عينيها، وتلفه بنظرة عنيفة محقة، في غير تحفظ أو احتشام. إن عينيها تناديانيه، وتضحكان... وإن هناك شيئاً دنساً مسيئاً مهيناً في هذه الضحكة، وفي هاتين العينين، وفي كل هذا الوجه الذي أصبح لا يعبر إلا عن الرجس والعار. «وكيف؟ أفي هذه السن؟ أفي الخامسة من العمر؟»، بهذا تتم سفديريجايروف مذعوراً. ولكنها هي ذي تدبر نحوه وجهها المتقد، وتمد إليه ذراعيها، فيقول مروعاً: «آه... يا للمعلومة!»، ويشهر عليها ذراعه... ولكنها استيقظ من نومه في تلك اللحظة.

كان لا يزال راقداً على سريره متدرراً بالبطانية. ولم تكن الشمعة مشتعلة، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ.

«كوابيس طوال الليل!». كذلك قال سفديريجايروف، ثم نهض

منتصبًا على سريره في غيظ وحنق. كان يحس بأنه مُحَطّم. إنه يشعر بوجع في جميع عظامه. وفي الخارج كان ينتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية. لا بد أن الساعة قربة من الخامسة. لقد تأخر في النوم!

وقام سفديريجاييلوف، فارتدى سترته ومعطفه اللذين ما يزالان مبتلين؛ وبعد أن تلمس مسدسه في جيبه، أخرجه فثبت من الكبسولة، ثم جلس، وتناول دفتراً صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة. حتى إذا أعاد قراءة الأسطر التي كتبها، رجع يسترسل في أحلامه من جديد، متكتأً بគوعيه على المائدة. المسدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعه. وقد استيقظ الذباب فهو يتهافت على قطعة لحم العجل التي لم يمسسها. ظل سفديريجاييلوف ينظر إلى الذباب برهة طويلة، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التي كانت طليقة. ولكنه لم يفلح في ذلك رغم الجهد الكثيرة التي بذلها. وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً في هذا العمل الشيق فثار إليه صوابه، وارت杰ف، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة. فما هي إلا لحظة حتى كان في الشارع.

إن ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة. وسار سفديريجاييلوف على أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة، في اتجاه نهر «نيفا الصغير». كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التي ارتفعت أثناء الليل، وعن تخيل جزيرة بتروف斯基، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال التي يتقططر منها الماء، ثم الدغل المقصود!... واغتاظ من ذلك فأخذ يتفحص المنازل من حوله ليصرف تفكيره إلى شيء آخر. لم يكن في الشارع أحد من المارة، ولم يكن فيه أيّ عربة. والمنازل الخشبية الصغيرة، الصفراء الفاقع لونها، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة، قدرة المظهر كالحنة الهيبة.

أخذ سفديريجاييلوف يرت杰ف من البرد والرطوبة اللذين تفذا فيه. فإذا وقع بصره على لافتة دكانٍ من دكاكين البضائع والخضراوات بين الحين

والحين ، أخذ يقرأ الكلمات مدققاً متৎحاً .

ها قد انتهى الشارع المبلطة أرضه بالخشب . لقد وصل سفديجايلوف إلى مبني كبير من حجر . وهذا كلب صغير بشع يمر أمامه قاطعاً الشارع ، واضعاً ذيله بين قائمتيه . وهذا رجل سكران حتى لكانه ميت من فرط السكر ، قد رقد على الرصيف عرضاً ، لابساً معطفاً سميكاً ، واضعاً وجهه على الأرض . نظر سفديجايلوف إليه ثم تابع طريقه .

وظهر له برج كبير على شماليه فجأة . فهتف يقول لنفسه : «آ... آ... آ...» وجدت المكان المناسب . علام الذهاب إلى جزيرة بتروفسكي ؟ في هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد شاهد رسمي ». وكاد يبتسم حين خطرت بباله هذه الفكرة ، ثم انعطف يدخل شارع «س... س...». هناك كان ينتصب المبني الذي يعلوه برج<sup>(85)</sup> . وعلى باب الفناء من هذا المبني كان يستند بظهره رجل قصير القامة متذر بممعطف رمادي اللون من معاطف الجنود ، وعلى رأسه خوذة من نحاس كخوذة آخيل<sup>(86)</sup> . رشق الرجل سفديجايلوف بنظرة باردة تعبر عن النعاس . إن في وجهه تلك الكآبة الساخطة التي عمرها مئات السنين ، تلك الكآبة التي تطبع في كثير من المرارة قسمات وجوه جميع الناس الذين يتعمون إلى ملة اليهود دون استثناء . وتحفص كل من سفديجايلوف وأآخيل صاحبه مدة من الوقت في صمت . ورأى آخيل أخيراً أن من غير الطبيعي أن يقف رجل ليس بالسكران حتماً ، أن يقف على بعد ثلاث خطوات منه ، ويأخذ يحدق إليه ويترس فيه دون أن ينطق بكلمة . فقال يسأله ، وهو ما يزال جاماً لا يتحرك :

- هيه ! عمَّ تبحث ؟

فأجابه سفديجايلوف :

- لا أبحث عن شيء أيها الأخ . صباح الخير .

- امضِ في طريقك !

- هل تعرف أيها الأخ؟ أنا مسافر إلى الخارج .

- إلى الخارج؟

- إلى أمريكا.

- إلى أمريكا؟

تناول سفديجايروف مسدسه وحشاه. فرفع آخيل حاجبه. وصاح يقول:

- ما هذا المزاح؟ ليس هذا هو المكان . . .

- ولماذا لا يكون هو المكان . . .

- لأنه ليس هو المكان . . .

- دعك يا صاحبي، لا ضير . . . هذا المكان مناسب مع ذلك. فإذا سئلت فقل إني سافرت إلى أمريكا.

قال سفديجايروف ذلك ووضع المسدس على صدغه الأيمن. فانبرى آخيل يقول له مندفعاً محملاً مزيداً من الحملقة:

- ممنوع هنا. ليس هذا هو المكان!

وضغط سفديجايروف على الزناد.

## الفصل السابع

ذلك اليوم نفسه، عند المساء، بين الساعة السادسة والساعة السابعة، كان راسكولنيكوف يقترب من مسكن أمه وأخته، ذلك المسكن الذي أسكنهما فيه رازوميغين في عمارة باكلايف. إن مدخل السلم يطل على الشارع. كان راسكولنيكوف يتقدم متربداً، متباطئ الخطو وكأنه يسأل في دخلة نفسه «أدخل أم لا؟». ولكن ما كان له أن يقفل راجعاً بحال من الأحوال، فقد اتخذ قراره وعزّم أمره. كان يقول لنفسه: «إنهما، على كل حال، لا تعرفان شيئاً حتى الآن، وقد أفتا أن تعذاني شاذًا...». كانت ثيابه في حالة رهيبة، فإنه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحش. وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والطقس الرديء والإجهاد الجسمي والصراع الروحي الذي ظل ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة. كان قد قضى الليل وحيداً لا يعلم إلا الله أين، ولكنه كان قد عقد العزم على إنفاذ الأمر.

طرق الباب، ففتحت له أمه. كانت دونيا قد خرجت. وحتى الخادمة كانت غائبة في هذه الساعة. خرست بولخيريا الكسندروفنا من الدهشة والفرح في أول الأمر، ثم أمسكت يده وقادته إلى الغرفة. وببدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت:

- آ... هاؤنت ذا أخيراً! لا تزعل يا روديا إذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكية. إنني أضحك. إنني لا أبكي. أتظن أنني أبكي؟ لا، أنا سعيدة. ولكن هذه عادة سخيفة من عاداتي. دموعي تنسب لغير سبب... منذ مات أبوك أصبحت أبكي لأنّه أمر من الأمور. اجلس يا حبيبي، لا بد أنك متعب، أنا أرى هذا واضحاً! آه... ثيابك متسخة جداً! ...

بدأ راسكونيكوف يتكلم فقال:

- كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماه!  
فاندفعت بولخيريا السكندروفنا تقول والبكاء والفرح يختلطان في  
كلامها:

- لا، لا، لا يذهبن بك الظن إلى أنني استجوبك، على عاداتي القديمة المتبعة. اهداً بالأ، فإبني أفهم الآن كل شيء. لقد تعلمت عادات الناس هنا، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك. وأيقنت أنه ليس من حقي أن أحاول معرفة أفكارك، وأن أحاسبك. الله يعلم ما هي الخطط والشؤون التي تملأ رأسك، وما هي الخواطر التي ترهقك، فهل يجوز لي أن أشدك من ذراعك وأسائلك: «هيا، هيا قل لي، قل لي فيم تفكرا؟» يا رباه! ما حاجتي إلى هذه الثرثرة أخطب فيها خطب عشواء! هل تعلم يا روديا؟ أنا الآن أقرأ، للمرة الثالثة، المقالة التي نشرتها في... في تلك المجلة. لقد جاءني بها دمترى بروكوفتش. فما إن رأيتها صحت أقول: آه... من فرط دهشتي! قلت لنفسي: «ما كان أغبانى وأشد حماقى. هذا هو إذاً ما يشغل باله. هذا يفسر كل شيء. إنه يدير في رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها، وأجيء أنا فازعجه وأعذبه...». إنني أقرأ مقالتك يا بني، فيها أشياء لا أفهمها طبعاً. ولكن لا غرابة في ذلك، فما أنا إلا امرأة بسيطة.

- أريني تلك المقالة يا أمي.

تناول راسكولنيكوف المجلة، وألقى على مقالته نظرة عجلی . فشعر، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة، شعر بتلك العاطفة الغريبة، بتلك العذوبة الحادة، بتلك الحلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون انتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين). ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة قصيرة. فبعد أن قرأ الأسطر الأولى، تقطب حاجبه، وانقبض صدره، واحتقن قلبه بحزن رهيب. إن جميع أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن إلى ذاكرته دفعة واحدة. فها هو ذا يرمي المجلة على المائدة بحركة اشمئزاز ولوغة.

- مهما أكن غبية يا روديا فإني أستطيع أن أدرك أنك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف، إن لم تصبح أعظمهم جميماً بغير استثناء!... هه!... ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنك مجنون! ها ها!... لعلك لا تعرف هذا، ولكنهم زعموه، ودار في خلدهم! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض! مساكين! أتى لهم أن يفهموا ما هو الذكاء! ولكن ما بال دونيا، نعم ما بال دونيا قد أوشكك أن تصدق ذلك هي أيضا؟... أهذا ممكن؟ إن المرحوم أباك قد أرسل... إنتاجه مرتين إلى إحدى المجلات، مرة شعراً (ما زلت احتفظ بالدفتر، وسأريك إياه يوماً) ومرة قصة (وقد رجوته أن يسمح لي بنسخها)، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا إنتاجه ذاك ولكنهم لم ينشروه! هل تعلم يا روديا؟ إبني منذ ستة أيام أو سبعة قد حزنـت حين رأيت كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبـس وأين تسـكن؛ ولكنـي أدرـك الآن أنـي كنت غـبية في هذه المـرة أيضـاً، فـلو قد دـشت لنـلت كلـ شيء دـفعـة واحدة بـفضل ذـكائـك وـموهـبـتكـ. ولكنـكـ فيـ أـغلـبـ الـظنـ لاـ تـشاءـ ذلكـ الآـنـ، لأنـكـ مشـغـولـ عنـهـ بـأـمـورـ أـهـمـ شـأنـاـ.

- أليست دونيا في البيت يا أمي؟

- لا يا روديا، إنها تخرج في أكثر الأحيان وتدعني وحدي. لقلم تلطف دمترى بروكوفتش فجأة يزورني ويقضى بعض الوقت في صحبتي. إنه يكلمني دائمًا عنك. إنه يحبك، ويقدرك حق قدرك يا بني. لا أزعم بهذا أن أختك لا تحفل بأمرى وأنها مقصورة في حفي، فلست ألومها، ولكن لها طبعها ولها طباعي. وهي تخفي أسراراً صغيرة لا حصر لها، تخفيها عنى ولا تطلعني عليها. أما أنا فلست أخفي عنكما أي سر. أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً، وأنها كذلك تضمر لي، وتضمر لك أنت أيضاً، كثيراً من العاطفة والحنان. ولكن لا أدرى كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها. لقد أسعدتني بمجيئك كثيراً يا روديا، ولكنها هي ذي قد خرجت في الوقت الذي جئت أنت فيه! سأقول لها حين تعود: « جاء أخوك في غيابك ، فأين كنت خلال ذلك الوقت؟ ». ولكن لا تدللني كثيراً يا روديا: تعال إلى إن استطعت ، فإن لم تستطع أن تجيء فلا ضير ، وسأنتظرك على كل حال ، وسأعرف دائماً أنك تحبني ، وهذا يكفيوني . سوف أقرأ مؤلفاتك ، وسوف أسمع الناس جميعاً يتحدثون عنك ، وسوف تجيء أنت إلى من حين إلى حين . ما عساي أتمنى أكثر من ذلك؟ هاؤنت ذا قد جئت اليوم لتتواسي أمك ، إنني أرى هذا واضحاً ، فهل يمكن أن أطلب المزيد؟

هنا أخذت بولخيريا الكسندروفنا تبكي فجأة.

- آه... ها أنا أعود إلى البكاء! لا تنظر إليّ يا بني! ما أنا إلا حمقاء!

ثم هتفت تقول وهي تنهض واثبة:

- آه... ما بالي أظل جالسة هذا الجلوس! عندنا قهوة ولا أقدم لك منها... هذه أنانية المسنين! حالاً حالاً...

- أمه! دعي هذا! أنا ذاهب بعد لحظة! ما من أجل ذلك جئت.  
أرجوك، أصغي إليّ!

اقربت منه بولخيريا السكندروفنا وجلة. فقال يسألها طافح القلب، دون أن يفكر دون أن يزن كلامه:

- أظللين تحببني، يا أماه، كما تحببني الآن، مهما تسمعي عنِّي،  
ومهما تعلمي من أمرِي؟

- روديا، روديا، ماذا بك؟ كيف يمكنك أن تلقي سؤالاً كهذا السؤال؟ من ذا الذي يجرؤ أن يقول فيك سوءاً؟ وهب أحداً قال فيك سوءاً، فإني لن أصدقه؛ لن أصدق أحداً يجرؤ أن... سوف أطرد من يجرؤ... سوف أطرده... .

تابع راسکولنیکوف کلامه یقول بحmas:

- جئت لأؤكّد لك أنني أحبّتك دائمًا، وإنّه ليسّبني أن تكون الآن  
وحيدين، وأن لا تكون دونيَا هنا. لقد جئت لأقول لك بصراحة إن  
عليك، مهما يصبك من شقاء، أن تعلمي أن ابنك يحبك أكثر مما يحب  
نفسه، وأن كل ما يمكن أن يخطر ببالك من ظنون عن قسوتي وقلة  
عاطفي إِنما هو باطل. وإنّي لن أكُف عن حبك يوماً... كفى هذا  
الآن، وإنّما أنا قادرّت أن على أن أقول هذا الكلام وأبدأ به... .

ضمت بولخيريا الكسندروفنا ابنها صامته، وشدته إلى صدرها، وبكت في رفق. وقالت أخيراً:

- لا أدرى ماذا بك يا روديا. كنت أقدر حتى هذه اللحظة أن كل ما في الأمر هو أنك قد ضقت بنا. ولكنني أدرك الآن إدراكاً واضحاً أن آلاماً كبيرة تنتظرك، وأن هذا هو السبب في حزنك. لقد أحسست بشيء من هذا إحساساً غامضاً منذ مدة يا روديا: سامحني إذا أنا حدثتك في ذلك، ولكنني دائمة التفكير فيه، حتى أنه يؤرقني ويحرمني من النوم. كانت أختك في هذه الليلة تهذى، وتكلمت أثناء هذيانها عنك. ميّزت بعض الكلمات، لكنني لم أفهم شيئاً. وظللت طوال الصباح كمن ينتظر

تنفيذ حكم الإعدام فيه؟ نعم، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث، وهذا هل  
ذا شيء الذي توقعته يحدث فعلاً! روديا! روديا! إلى أين أنت ذاهب؟  
ستسافر، ستسافر، أليس كذلك؟

- نعم، سأسافر.

- ذلك ما كنت أقدرها! ولكن في وسعي أن أسافر معك، إذا كان  
ذلك ينفعك. ودونها أيضاً تحبك، تحبك كثيراً، ولتأت معنا صونيا  
سيميونوفنا أيضاً إذا وجب ذلك! إنني مستعدة لأن أقبلها بنتالي.  
وسيساعدنا دمترى بروكوفش فى الاستعداد للسفر. ولكن إلى أين تريد  
أن تسافر؟

- استودعك الله يا أماه!

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها إلى الأبد:

- كيف؟ أفي هذا اليوم نفسه؟

- لا أستطيع التأخر... آن الأوان... يجب حتماً أن...

- وأنا؟ ألا أستطيع أن.. أذهب معك؟

- لا. ولكن اركعي وصلي لي، فعلل الله يستجيب لصلاتك!

- دعني أرسم عليك إشارة الصليب، دعني أباركك. نعم، هكذا،  
هكذا! رباه... ماذا نفعل؟

نعم، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً، سعيداً جداً بأن البيت خالٍ  
ليس فيه أحد، كان سعيداً بأن يخلو إلى أمه، حتى لكانه بعد جميع  
العذابات الرهيبة التي عانها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعةٍ  
واحدة؛ فها هو يرتمي على قدمي أمه فيقبلهما، وهما يبكيان كلاهما  
ويتعانقان. والأم في هذه المرة لا تشعر بدھشة ولا تلقي سؤالاً. لقد  
أدركت أن ابنها يعاني أموراً فظيعة، وأن لحظة رهيبة سوف تأزف بعد  
قليل، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً.

قالت ناشجةً :

- روديا، يا بني الحبيب، يا أول ولد لي، هأنا ذي أراك الآن كما كنت في صغرك تماماً. كنت تجيء إليني على هذا النحو نفسه، فقطوني، وتقبلني، بهذه الطريقة نفسها. وحين كان أبوك ما يزال معنا، وحين كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة، كنت أنت تعزينا كلينا بوجودك. وبعد أن دفت أباك، كم من مرة بكينا على قبره، أنا وأنت، متعانقين كتعانقنا الآن! لمن كنت أبيكي منذ مدة، فلأن قلبي قلب الأم قد أوجلس أن شرآ سيقع، أن مصيبة ستنزل. حين رأيتكم أول مرة ذلك المساء، هل تذكر؟ - يوم وصلنا إلى هنا حزرت كل شيء من رؤية نظرتك وحدها، فسرعان ما ارتعش قلبي؛ واليوم، حين فتحت لك الباب، نظرت إليك فلم ألبث أن قلت لنفسي: لا شك أن الساعة المسئومة قد حانت.

روديا، روديا، أنت مسافر فوراً؟

- لا.

- هل ستعود؟

- نعم... سأعود.

- روديا، لا تزعل، أنا لا أجرؤ أن أسألك، أنا أعرف أنسني لن أجرب، ولكن قل لي كلمة واحدة فقط: هل المكان الذي ستסافر إليه بعيد؟

- بعيد جداً.

- ما الذي يدعوك إلى هناك؟ وظيفة، عمل؟

- ما يرسله إلى الله... ولكن صلي من أجلني!

واتجه راسكوليروف نحو الباب، غير أنه أمه تشبت به، ونظرت إليه محدقة في عينيه وقد عبر وجهها عن يأس شديد، وانقلبت ساحتها خوفاً وذعراً.

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء:

- كفى يا أماء!

- لست تساور إلى الأبد، أليس كذلك؟ لست تساور إلى الأبد بعد،  
أليس كذلك؟ وسترجع غداً، ألن ترجع غداً؟

- سأرجع، سأرجع، استودعك الله!  
وانتزع نفسه منها أخيراً.

كان المساء ناعماً طرياً صافياً. لقد صحا الجو منذ الصباح. وعاد راسكولنيكوف إلى بيته. كان مسرعاً. كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس. وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً. فلما كان صاعداً إلى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تحدق فيه وتتابعه بنظراتها. قال يسأل نفسه: «أيكون أحد عندي؟». وتذكر بروفيري مشمئزاً ممتعضاً. لكنه حين وصل إلى غرفته وفتح الباب، رأى دونيا. كانت جالسة بمفردتها على الديوان، غارقة في تأمل عميق. وكان واضحاً أنها قد انتظرته مدة طويلة. وقف على العتبة. نهضت خائفة وانتصبت أمامه. إن نظرتها المحدقة إليه الثابتة عليه تعبر عن ذعر هائل وحزن لا نهاية له. أدرك من هذه النظرة وحدها أنها تعرف كل شيء.

سألها حائراً:

- أدخل أم أصرف؟

قالت:

- قضيت النهار كله عند صونيا سيميونوفنا. كنا ننتظرك كلتنا. وكنا نظن أنك لا بد أن تأتي.

دخل راسكولنيكوف، وتهاوى على كرسي، مهدود القوى، وقال:  
- أشعر بضعف ووهن يا دونيا، إنني متعب جداً، وأنا في هذه  
لحظة خاصة إنما احتاج إلى قوای كلها.

ونظر إليها نظرة ارتياخ .

- أين كنت طوال الليل؟

- لا أتذكر جيداً . لقد أردت يا أختي أن أتخذ قراراً حاسماً ، ومضيت عدة مرات إلى قرب نهر نيفا . هذا أذكره . أردت أن أنهي الأمر هنالك . . .

وأضاف راسكولنيكوف يقول متممًا وهو يلقي على دونيا تلك النظرة المرتابة نفسها :

- ولكنني . . . لم أعزِّم أمري . . .

- الحمد لله! . . . ليتك تعلم كم كنا خائفتين ، أنا وصونيا سيميونوفنا ، من أن تفعل ذلك! إذاً ما زلت تؤمن بالحياة! الحمد لله !

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرّة . وقال :

- كنت لا أؤمن بها ، ولكنني آمنت منذ قليل ، حين تعانقنا أنا وأمي ، وب يكنا . أنا لست مؤمناً ، ومع ذلك طلبت من أمي أن تصلي من أجلني وأن تدعوا الله لي . الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتشكا! على كل حال ، لست أفهم من الأمر شيئاً! . . .

هتفت دونيا تقول مذعورة :

- كنت عند أمينا؟ وقلت لها؟ . . . هل جرئت حقاً أن تقول لها . . .

- لا ، لم أقل شيئاً . . . لكنها فهمت الكثير . لقد سمعتكم تهدّين في الليل . وإنني لوأني أنها تعرف الحقيقة منذ الآن . لا أدرى لماذا ذهبت إليها . أنا إنسان سيء دنيء يا دونيا!

- أنت إنسان سيء ، أنت الذي ترضى أن تقبل الألم؟ ذلك أنك تقبل الألم ، أليس كذلك؟

- نعم ، الآن أقبله . إنني من أجل أن أتحاشى هذا العار ، أردت أن

أغرق نفسي يا دونيا. ولكنني حين ملت فوق مياه النهر، قلت: ما دمت أعد نفسي رجلاً قوياً فما ينبغي أن أتراجع أمام العار. هذه كبراءة يا دونيا، أليس كذلك؟

- نعم، هي كبراءة يا روديا!

لأن شعلة قد عادت تتقد في عيني راسكولنيكوف المنطفتين: كأنما ما يزال يسره أن يكون ذا كبراءة!

وسأل أخته وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ويحدق إلى عينيها بنظرة ثابتة:

- قولي يا أختي، لماذا لا تظنين أن الخوف من الماء وحده هو الذي صدّني عن الانتحار غرقاً؟

فهتفت دونيا تقول بمرارة:

- كفى يا روديا!

وساد الصمت دقيقتين.

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين. وكانت دونيا واقفةً عند الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عبر وجهها عن ألم شديد. ونهض راسكولنيكوف فجأة. وقال:

- تأخرت. حانت الساعة. سأمضي أشيء بمنفسي. ولكنني لا أدرى لماذا أشيء بمنفسي!

فانحدرت على خدي الفتاة دموع كبيرة.

قال راسكولنيكوف:

- تبكين يا أختي؟ ولكن هل تقبلين أن تمدي إليك يدك؟

قالت:

- هل يساورك شك في هذا؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضمًّا قوياً. وهتفت تقول وهي ما تزال تعانقه وتقبله:

- ألسنت تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم؟

فصاح فجأة يسألها في سورة من غضباً شديداً:

- جريمة؟ أية جريمة؟ أ يكون جريمة قتل قملة قدرة ضارة، قتل مرابية عجوز لا يحتاج إليها أحد، مرابية تمتص دماء القراء؟ ألا إن قتلها ليمحو الأربعين خطيئة! لا أظن أن هذا الفعل جريمة، ولا أريد أن أطهّر منه وأكفر عنه. ما بالكم جميعاً تكررون على مسامعي : «جريمة، جريمة»؟ نعم، إبني وقد قررت أن أحمل هذا العار الذي لا طائل تحته، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جبني من سخف. إن الدناءة وعدم الكفاءة وحدهما هما اللتان تدفعاني إلى أن... وربما أضيفت إليهما المنفعة... كما... كما... كما كان يقترح علي ذلك... بورفيري!

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها يأس شديد:

- أخي، أخي، ما هذا الذي تقوله؟ لقد سفتح دم إنسان!....

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره:

- دم يسفحه جميع الناس، يجري وسيظل يجري على الأرض أنهاراً... نعم... يسكنه جميع الناس كالشمبانيا، ومن أجل ذلك يتوج بعضهم في «الكامبيتول»<sup>(87)</sup>، ويسمى بطلاً من الأبطال الذين أحسنوا إلى الإنسانية! أتعمي النظر قليلاً واحكمي في الأمر! أنا قد أردت أن أصنع للبشر خيراً، وكنت مستعداً لأن أقوم بمناث الحسنات بل بألف الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة البسيطة... بل قولي عن تلك الخرافات البسيطة، لأن الفكرة في ذاتها لم تكن حمقاء إلى الحد الذي يبدو الآن، بعد أن أخفقت (نعم إن كل من يحقق يبدو غبياً أحمق). الخلاصة إبني رجوت بهذه الحماقة - إذا سلمنا أنها حماقة - أن أخلق لنفسي وضعياً مستقلاً، أن أخطو خطوة أولى، أن أحصل على موارد، فإذا جميع الأمور تتدبر بعد ذلك على نحو أكثر فائدة (بالمقارنة مع القتل)، فائدة لا تقايس... كل ما هنالك إبني منذ الخطوة الأولى قد

ترئحت لأنني جبان. تلك هي الحقيقة! غير أنني لن انظر إلى الأمر بعيونكم أنتم: فلو قد نجحت لوضعوا على رأسي أكاليل الغار، أما الآن فإنهم يلقوني إلى الكلاب . . . .

- ليس هذا صحيحاً، ليس صحيحاً أبداً! ما هذا الذي تقوله يا أخي؟

- صحيح أنني لم أرَعِ الأشكال البدية التي توجبها قواعد الجمال. ولكن هل تعتقدين حقاً أن قذف القنابل على سكان آمنين، وانهاكهم بحصار منتظم، أكثر مراعاة للأشكال البدية وأكثر تقيداً بقواعد الجمال؟ ثم إن الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز . . . إنني لم أحسَّ هذه الحقيقة في يوم من الأيام كما أحسَّها الآن، ولا عجزت في يوم من الأيام عن أن أفهم ما هي جريمتى كما أعجز عن هذا الآن! لم أكن في يوم من الأيام أشد افتئاماً وأرسخ يقيناً مني في هذه اللحظة! . . . .

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه الشاحب احمراراً قانياً على حين فجأة. لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخيرة التقت عيناه مصادفةً بنظرة دونيا، فقرأ في هذه النظرة ألمًا يبلغ من الشدة أن راسكولنيكوف لم يلبث أن ثاب إلى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه على الرغم من إرادته. لقد شعر أنه على كل حال قد أشقي امرأتين مسكيتين. إنه هو السبب مهما يكن من أمر! . . . قال:

- دونيا العزيزة، إذا كنت مذنبًا فاغفر لي (رغم أن الغفران مستحيل إذا كنت مذنبًا). استودعك الله! كفى مناقشة! لقد آن الأوان حتى لقد تأخرت! لا تتبعيني، أرجوك! هناك زيارة أخرى يجب أن أقوم بها . . . انصرفي حالاً وابقي إلى جانب أمنا، أرجوك، أضرع إليك! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به إليك. لا تتركيها لحظة واحدة. لقد وذعنها وهي على حال من القلق لا تستطيع أن تطيقها . . . فإذا ما أن تموت وإما أن تُجن. فابقي إذا بقربها! وسيكون رازوميفين إلى جانبكما، لقد كلمته

في الأمر... لا تبكي على... سأحاول أن أكون طوال حياتي شريفاً وشجاعاً، رغم أنني قاتل. وقد تسمعين باسمي في يوم من الأيام. لن ألطخ شرفكم بالعار. سوف ترين. سوف أبرهن...

وأسرع راسكولنيكوف يقول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبذلَ تلك الوعود أن عيني دونيا قد التمع فيها تعير غريب:  
- والآن، إلى اللقاء. لماذا تبكين هكذا؟ لا تبكي! لا تبكي! إننا لا نفترق إلى الأبد! ها... نعم... انتظري... نسيت!...

واقترب من المائدة، فتناول كتاباً ضخماً غشاء الغبار، ففتحه، وسحب منه صورة صغيرة لوجه مرسوم بالألوان المائية على عاج، كانت موجودة بين أوراق الكتاب. إنها صورة بنت صاحبة البيت، الفتاة التي ماتت من الحمى وكانت في الماضي خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير. تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصغير المعبر للمتألم، ثم قبل الصورة ومدتها إلى دونيا وهو يدمدم شارد الذهن:

- كثيراً ما كلمتها هي أيضاً عن ذلك الأمر. لقد بحث لقلبها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحققاً جهنميَا!

وأردد يقول لدونيا:

- لا تقلقي يا دونيا! كانت لا تؤيد آرائي ولا تحبّذها مثلما لا تؤيدنها ولا تحبّذنها أنت! وإنني لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم!

ثم هتف يقول فجأة وقد عاد إليه عذابه:

- المهم، المهم أن كل شيء سيتغير، وأن الانفصال عن الماضي سيكون تاماً. نعم، كل شيء، كل شيء سيتغير! ولكن هل أعددت نفسى لهذا؟ وهل أنا أريده حقاً؟ يقال إن هذه المحنة لازمة لي، ولكن فيم هذه المحن السخيفة كلها؟ ما فائدتها؟ ما جدواها؟ هل سأكون أقدر على الفهم مما أنا عليه الآن، حين أصبح، بعد عشرين سنة من

الاعتقال، شيئاً مرهقاً هذه الألم ودمّر العذاب وصار أبله معتوهاً؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد ذلك؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة؟ آه... لقد أدركت حقاً أنني جبان رعديد حين ملت على مياه نهر نيفا في هذا الصباح عند الفجر!

وخرج الاثنين أخيراً. كانت دونيا تتألم كثيراً، ولكنها كانت تحب أخاهما. وابتعدت. غير إنها ما أن سارت خمسين خطوة حتى التفت إلى وراء لتنظر إليه ولو مرة واحدة. كان راسكولنيكوف ما يزال يُرى. وحين وصل إلى ناصية الشارع التفت هو أيضاً، فالتفت نظراتهما آخر مرة. لكنه حين لمح أن أخيه تنظر إليه حرك يده بإشارة تململ بل بإشارة غضب، ليومئ لها بأن عليها أن تتبع السير في طريقها. وأسرع يغيب هو أيضاً عند منعطف الشارع.

وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التململ أو الغضب التي بدرت منه: «أنا شرير! واضح أنني شرير!... ولكن لماذا يحبونني كل هذا الحب ما دمت لا أستحقه؟ آه... لو كنت وحيداً، لو لم يكن هناك أحد يحبني، ولو لم أحاب أحداً أبداً إذاً لما حدث شيء من ذلك كله! والآن أود لو أعرف هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من السجن، هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً إلى الحد الكافي الذي يجعلني أمضي إلى جميع الناس أذرف أمامهم الدموع، وأعلن لهم أنني وغد؟ طبعاً، هذا هو السبب الذي يحضهم على إرسالي إلى السجن؛ ذلك هو ما يريدون... آه... إنني أراهم جميعاً يذهبون ويجيئون في الشوارع. إنهم جميعاً جبناء حقيرون أوغاد، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون! ومع ذلك يكفي أن أحارو تحاشي السجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فإذا هم مستاؤون ساخطون! آه... إنني أكرههم! وأمقتهم جميعاً!».

وغرق راسكولنيكوف في خواطره وتأملاته، فكان يتساءل: «كيف

سأنتهي شيئاً فشيئاً إلى الشعور بالمذلة أمامهم جمِيعاً على اقتناع مني بذلك؟ ولكن لم لا؟ لا شك أن الأمر سيجري هذا المجرى. ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة إلى بلوغ هذا الهدف؟ الماء يأكل الصخر. ولكن إذا صَحَّ هذا، فعلام أحيا، علام أحيا؟ نعم، علام أذهب إلى هناك مع أنني أعلم منذ الآن أن كل شيء سيجري على نحو ما أتبأ، لا على أي نحو آخر؟».

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة. لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في السير.

## الفصل الثامن

**حيلن** دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط . لقد انتظرته صونيا طوال النهار وهي في حالة قلق رهيب . انتظرته مع دونيا . إن دونيا قد جاءت إلى صونيا في الصباح إذ تذكرت أن سفدريجايبلوف قال لها إن صونيا «تعرف» . لن نروي تفاصيل الحديث الذي جرى بين دونيا وصونيا ، ولن نتحدث عن الدموع التي ذرفتها ، وعن التفاهم الذي نشأ بينهما . وحسبنا أن نقول إن دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاء كبير : إن أخاها لن يكون وحيداً . فلها ، لصونيا ، إنما أفضى بسره وباح بجريمته قبل أي شخص آخر ؛ وفيها ، في صونيا ، إنما التمس إنساناً يرکن إليه حين أحسن أنه في حاجة إلى إنسان يرکن إليه . فهي التي ستتبعه إذن وإنما ترسله الأقدار . لم تلق دونيا أي سؤال عن هذا الأمر ، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث . حتى لقد كانت تنظر إلى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا في أول الأمر ، وخجلت منه ، وكاد يبكيها ، من فرط قوّة اعتقادها بأنها أهون شأنًا وأحقر قيمة من أن ترفع عينيها إلى دونيا . إن صورة دونيا الرائعة الفاتنة ، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقائهما في بيت راسكولنيكوف ، قد انحرفت في نفسها إلى الأبد صورةً من أجمل وأروع ما رأت في حياتها من صور جميلة رائعة .

ونفذ صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتنتظر أخاها في بيته. لقد بدا لها أنه سيذهب إلى هناك أولاً. فلما خلت صونيا إلى نفسها عاودها الخوف الرهيب من أن راسكولنيكوف قد ينتحر. وكانت دونيا، هي أيضاً، تخشى ذلك. ولكن كلاً منها كانت قد ظلت تقنع الأخرى بأن هذا التصور ليس له ما يسُوّغه وأن الأمر يستحيل أن يقع، مستندتين في ذلك إلى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها. لهذا كانتا هادتتين بعض الهدوء طوال مدة اجتماعهما. ولكن ما إن افترقتا حتى أصبحتا كلتاهمَا لا تفكران إلا في هذا. تذكرت صونيا أن سفديريجايلوف قال لها أمس أن أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما: فإذا سببيرة وإنما... وكانت تعرف من جهة أخرى كبراء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة عاطفته الدينية، فكانت تتساءل يائسة أشد اليأس: «هل يمكن أن يكون التخاذل والخوف من الموت كافيين وحدهما لصدِّه عن الانتحار وجعله يتثبت بالحياة؟».

كانت الشمس تميل إلى الغروب في أثناء ذلك. وكانت صونيا واقفة قرب النافذة تحدق إلى الخارج حزينة ملائعة. ولكن جداراً مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تراه العين من هناك. وأخيراً، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين قد مات، دخل عليها راسكولنيكوف.

فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح، ولكنها حين تفرست في وجهه مليأً أصفر وجهها فجأة.

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- هيه صونيا! لقد جئت آخذ صليبيك! ألم تأمرني أنت نفسك بأن أمضي أتعترف على رؤوس الأشهاد؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت أن أضع ذلك موضع التنفيذ؟

كانت صونيا تنظر إليه مذهولة مبهوتة. لقد بدت لها هذه اللهجة

غريبة. وسرت في جسمها رعدة باردة، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة أن كل شيء، اللهجة والكلمات لم يكن إلا تظاهراً وتصنعاً. لقد كان يكلمها وهو ينظر إلى ركن، متهرباً من نظراتها. وأردف يقول:

- اسمعي يا صونيا، لقد وجدت أن من مصلحتي أن أتصرف هذا التصرف، فإن هناك ظرفاً خاصاً... ولكن الأمر يطول شرحه... ثم لا قيمة لهذا... ولكن هل تعلمين ما الذي يغطيوني ويختنقني؟ إبني أجن غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفاة الأغبياء الوحوش يزدحمون حولي ويحيطون بي ويحملقون في، وحين أتصور جميع الأسئلة البلياء التي سيلقونها على والتي سيكون من واجبي أن أجيب عنها؛ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيشرون إلى بأصابعهم... هه!... هل تعلمين؟ لن أذهب إلى بورفيرى. لقد أزعجني كثيراً. وإنما سأذهب إلى صديقي «البارود». وبذلك أدهشه أشد دهشة. لا شك أنني سأشير في نفسه دهشة كبيرة! ولكن ينبغي أن أكون أكثر هدوء، وقد أصبحت في الآونة الأخيرة ثائراً للأعصاب! هل تصدقين؟ لقد أوشكنا منذ قليل أن ألوح لأختي بيدي مهدداً متوعداً، لا لشيء إلا لأنها التفتت تلقي على نظرةأخيرة! آه... إنه لعار أن أكون في مثل هذه الحالة العصبية! أتراني هبطت إلى مثل هذا الدرك الأسفل؟ والآن، أين الصليبان؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو في حالة سوية. كان لا يستطيع حتى أن يستقر في مكانه دقيقة واحدة، ولا أن يركز انتباهه على أي شيء. كانت أفكاره تختلط في أحاديثه وتتشابك وتضطرب. وكانت يداه ترتجفان قليلاً.

سألت صونيا صليبيها من الدرج من دون أن تقول شيئاً: الصليب الخشبي المصنوع من خشب السرو، والصلب النحاسي. ورسمت على نفسها إشارة الصليب ثم رسمت إشارة الصليب على راسكولنيكوف، ثم علقت صليب خشب السرو في عنقه.

- يرمز هذا إجمالاً إلى أنني أحمل صليبي... ها ها ها!... كأنني

ما تالمت ألمًا كافيًّا حتى الآن! إن الصليب الخشبي هو أبناء الشعب! أما الصليب النحاسي، أي صليب اليزافيتا، فأنت تحتفظين به لنفسك. أرينيه! إذن كانت اليزافيتا تحمله... في ذلك الأولان! أنا أيضًا أعرف صليبيين من هذا النوع، بل صليبياً من فضة وأيقونة صغيرة. رميتهما في ذلك اليوم على صدر العجوز. فانظري ماذا يجب علي أن أضع في عنقي اليوم! على كل حال... أنا أقول سخافات، وأنسى الأمر الأساسي... إنني ذاهل... اسمعي يا صونيا: لقد جئت لأبلغك... نعم، يجب أن تعلمي... أنا لم أجيء إلا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدر أن أقول أكثر مما سأقول)... اسمعي: أنت التي حضرتني على أن أفعل ما سأفعل... سوف أنفذ إرادتك فأدخل السجن. ولكن ما بالك تبكين أنت أيضاً؟ كفى كفى! كفى بكاء! آه... لشد ما يؤلمني هذا كله!

غير أن حناناً وُلد في قلبه، وانقبض صدره حين رأى صونيا تبكي. وتساءل: «وهذه، لماذا تتألم هذه؟ لماذا أنا عندها؟ ما بالها تبكي؟ ما الذي يجعلها تهم بـ كأنها أمي أو اختي؟ ما الذي يحملها على أن تصاحبني إلى نهاية الشوط؟ آه... سوف تكون لي بمثابة المربيه للطفل».

تضرعت إليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش:

- ارسم إشارة الصليب! صل مرة واحدة على الأقل!

- إذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات! سأفعله راضياً كل الرضى يا صونيا!

والحق أن راسكولينيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً.

وها هو ذا يرسم إشارة الصليب عدة مرات. وتناولت صونيا شالها فغطت به رأسها. هو خمار أخضر من جوخ السيدات، لعله «شال الأسرة» الذي تكلم عنه مارميلادوف. ومضت هذه الفكرة في ذهن

راسكولنيكوف خلسة، ولكنه لم يلق أي سؤال. لقد بدأ يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيعاً، وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً. خاف من شعوره هذا. وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا تتهيأ لمصاحبته.

صاحب يقول لها غاضباً:

- ماذا تفعلين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ ابقي! ابقي! سأذهب وحدي.

وأتجه نحو الباب شبه زعلان، وتمتم يقول وهو يخرج:

- أنا في حاجة إلى خفيর؟

بقيت صونيا في وسط الغرفة. لقد أهمل حتى توديعها. نسيها منذ الآن، لأن الارتياب اللاذع المتمرد غمر قلبها. تسأله وهو يهبط السلالم: «هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً؟ أليس من الممكن أن أتوقف، أن أنكس على عقبي، أن أدبر الأمور... أن لا أذهب إلى هناك؟»

ومع ذلك واصل سيره. لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من التساؤل ووقت التردد قد مضى. حتى إذا صار في الشارع تذكر أنه لم يودع صونيا، وأنها بقيت في وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ أن تتحرك مخافة أن تغضبه. فتوقف لحظة. ولكن فكرة واحدة ومباغطة وافته في تلك اللحظة نفسها، كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتواتفه. تسأله قائلاً: «لماذا ذهبت إليها؟ لقد قلت لها إنني إنما جئت لها تنفيذاً لمهمة يجب علي أن أقوم بها؟ ما هي تلك المهمة؟ ليس هناك أية مهمة تدفعني إلى زيارتها! أأبلغها إنني ذاهب إلى هناك؟ أكان هذا ضروري؟ أتراني أحبها؟ لا، لا، غير معقول!... ألم أدفعها عنى منذ لحظة كما يُدفع كلب؟ هل صليبيها إذاً هو ما كنت في حاجة إليه؟ آه... إلى أي درك من الدناءة قد هبطت! لا، لا، وإنما أنا كنت في حاجة إلى دموعها. كنت في حاجة إلى أن أرى رعبها وذعرها، كنت في حاجة إلى أن أرى قلبها يتلوى ويتمزق. كنت في حاجة إلى أن أتشبث بشيء ما،

إلى أن أكسب وقتاً، إلى أن أتأمل إنساناً! هذا ما كنت في حاجة إليه، ومع ذلك تجرأت في يوم من الأيام فتخيلت أن مصيرأً عظيماً ينادياني إليه، واعتمدت على نفسي فأقدمت على أمور كتلك الأمور، أنا الذي لست إلا إنساناً حقيراً تافهاً، وغداً، وغداً!!

كان يسير على طول رصيف القناة. لم يبق بينه وبين الوصول إلا مسافة قصيرة. لكنه حين وصل إلى الجسر توقف لحظة، ثم لم يلبث أن مضى يعبر الجسر، فنأى بذلك عن طريقه، واتجه نحو سوق العلف.

كان ينظر يمنةً ويمرة بشراءه، ويحاول أن يتفحص كل شيءٍ من الأشياء متممّعاً، لكن انتباهه لم يستطع أن يتركز على شيءٍ من هذه الأشياء. فكل شيءٍ يتهرّب منه ويغيب عنه. وخطرت بباله خاطرة، وحدث نفسه قائلاً: «بعد شهر، بعد أسبوع، سيعبرون بي هذا الجسر ماضين بي إلى مكان ما على عربة سجناء، فأي نظرة سألقي على هذه القناة نفسها يومذاك؟ هل سأذكر أنني رأيتها على نحو ما أراها الآن؟ وهذه اللافتة؟ كيف سأقرأ عندئذ أحرفها؟ هذه الكلمة «شركة».

فهل سأذكر هذه «الشين»، هل سأذكر حرف «الشين» هذا؟ وإذا تلبيت عيناي بعد شهر على الحرف نفسه فهل سأنظر إليه كما انظر إليه الآن؟ نعم، ما عسى تكون احساساتي وأفكاري حينذاك، أوه... ما أتفه وما أسفخ هذه المشاغل!... لا شك أن هذا أمر غريب... (ها ها... ماذا أيضاً؟) إنني أرتد إلى الطفولة، فاصطعن أوضاعاً انظر إليها وأعتز بها. ولكن لا، لماذا أخجل من نفسي؟ أوه... ما أكثر التراحم والتصادم في هذا المكان! هذا هو، الرجل السمين ذاك... لا شك أنه ألماني... هو الذي صدمي ودفعني. فهل يعلم من هو الذي صدمه؟ وهذه المرأة العجوز التي تجر طفلاً وتستجديني صدقة، من المضحك أنها تظنني أسعده منها. طيب... على كل حال... علي أن أنفحها صدقة، هكذا، من باب اللعب، على سبيل العبث... هوه!

بقي في جيبي خمسة كوبكات! تُرى من أين وكيف؟»

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسلولة:

- خذى، خذى، أيتها الأم الطيبة!

فقالت المتسلولة بصوت فيه بكاء:

- حماك الله!

ودخل راسكولنيكوف سوق العلف. كان يشعر من ملامسة كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس، كان يشعر بإحساس مزعج كريه أليم، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه إلى حيث يحتشد الناس أكثر احتشاد. كان مستعداً لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يخلو إلى نفسه، ولكنه كان يحس إحساساً واضحاً بأنه لن يستطيع احتمال العزلة ولو دقيقة واحدة. هذا رجل سكران يصبح ويعربد: إنه يحاول أن يرقص، ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه. واجتمعت حوله جمودة من الناس. شق راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد، ونظر إلى السكران بضع لحظات، فإذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة. ثم ما إن مضت دقيقة حتى كان قد نسي الرجل، وأصبح لا يراه، رغم أن عينيه كانتا ما تزالان مثبتتين عليه. وانصرف أخيراً عن المكان الذي كان فيه، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف. ولكنه حين وصل إلى وسط الميدان حدث في فكره شيء، واستولى عليه إحساس قوي مباغت، فسرى في ذهنه وجسمه.

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة: «اذهب إلى ميدان من الميادين، فسلم على الشعب، وقبل الأرض لأنك أثمت في حقها أيضاً، وقل بصوت عالٍ حتى يسمعك جميع الناس: إبني قاتل».

فما إن دارت في ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الرأس إلى القدمين. إن الآلام الرهيبة والتاريخ الفظيع التي عاناهما في الأيام السابقة، ولا سيما في الساعات الأخيرة، قد بلغت من إرهاقه أنه

استسلم استسلاماً كاملاً لهذا الإحساس الجديد الشامل. اعتراف نوع من نوبة عصبية. إن شرارة قد انبعثت في نفسه فأشعلتها دفعه واحدة. ثم استولى عليه حنان واسع كأن كل كيانه قد لان في الحال فسالت دموعه على خديه. وتهالك على الأرض حيث كان . . .

ركع في وسط الميدان، ثم سجد، فقبل الأرض الموحلة منتاشيا ثملأ سعيداً، ونهض ثم سجد مرة أخرى.

قال فتي على مقربة منه:

- هيء! كم هو سكران!

وضج الناس من حوله بضحك صاحب. وأضاف باائع صغير ثمل بعض الثمل:

- لا شك أنه مسافر إلى القدس يا أصحابي، فهو يودع أولاده، ووطنه، ويسلم على الناس جميماً، ويهب قبلة أخيرة للعاصمة الكبرى سان بطرسبurg، ولأرضها.

وقال ثالث:

- ما يزال في ريعان الشباب!

وعقب رابع بصوت جازم:

- وهو ابن أسرة كريمة.

وأضاف خامس:

- أصبح المرأة لا يميز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا أبناء أسر كريمة!

هذه التعليقات المتفكهه كلها أوقفت على شفتي راسكولنيكوف كلمتي: «أنا قاتل» اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه. ومع ذلك تحمل هذا الصخب كله بكثير من الهدوء، ومضى يسير في شارع صغير يؤدي إلى قسم الشرطة، دون أن يلتفت إلى وراء. وفيما كان

يمشي عرضت لعينيه صورة، ولكنه لم يُدهش ، فإنه كان قد تنبأ بأن هذا هو ما سيحدث . إنه حين سجد في سوق العلف سجدة ثانية ، قد التفت يسرّه فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة . كانت لحرصها على أن لا يراها قد اختبأت وراء كوخ خشبي كان قائماً في الميدان ، وإذا فقد تبعته في صعوده على «الرابية التي يعلوها صلبيه» !

في تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون معه إلى الأبد ، وأنها ستتبعه ولو إلى آخر العالم ، ستتبعه إلى أي مكان يقوده إليه قدره . فاضطراب من ذلك قلبه . . . ولكنها هوذا يصل إلى المكان المحتم .

دخل فناء المبنى بخطى جازمة ثابتة . كان عليه أن يصعد إلى الطابق الثاني . قال لنفسه : «من هنا إلى أن أصير فوق . . . ». وبدا له أن هناك زمناً طويلاً سينقض قبل أن يصل إلى فوق ، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال يمكن أن توافيه ، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة .

السلم مملوء بالأقدار نفسها والقشور ذاتها ؛ والأبواب مفتوحة على مصاريعها كما كانت في المرة الماضية ؛ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة العفونة والدخان الخانق . أن راسكولنيكوف لم يرجع إلى هذا المكان بعد زيارته الأولى له .

كانت ساقاه متخردين وكانت تترنحان ، ولكنه ظل يتقدم . وتوقف لحظة ليسترد أنفاسه ، وليسترجع رباطة جأشه ، من أجل أن يظهر بالمظهر الذي يجب أن يظهر به إنسان . ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به من جهد فتساءل : «ولكن لماذا؟ ما فائدة هذا؟ ما دام يجب علي أن أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة أو تلك؟ بالعكس . . . فكلما كنت منفرأ باعثاً على الاشمئزاز كان ذلك أفضل!». وفي تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفتش ، الملائم «بارود». فتساءل : هل يجب حقاً أن أذهب إليه هو؟ إلا يمكن أن أتجه

إلى شخص آخر؟ ولماذا لا أتجه إلى نيكوديم فومتش؟ وماذا لو عدت  
أدراجي فذهبت إلى مفوض الشرطة ألقاه في بيته؟ ميزة هذه الطريقة،  
على الأقل، أن الأمور تجري عندئذ في جو كأنه جو أسرة!... لا،  
لا، بل اتجه إلى «بارود»، إلى الملازم «بارود»! ما دام يجب علي أن  
أشرب الكأس، فلا شيء بها دفعة واحدة!

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعي ما يفعل. في هذه المرة لم يكن هناك إلا قليل جداً من الناس. لا أحد إلا بباب ورجل من الشعب يتظاران. شرطي الحرس وراء شباكه لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه. مر راسكونيكوف إلى الغرفة المجاورة. وحدث نفسه قائلاً: «العلني ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً». هذا كاتب من القسم يرتدي ستة رسمية قد مال على مكتبه يكتب شيئاً ما. وهذا كاتب آخر مستقر في ركن. ليس زاميتوف هناك، ولا نيكوديم فومتش طبعاً.

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص المائل على مكتبه:

- ألا يوجد أحد؟

- من ترید؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً:

- آ... آ... آ... لا حاجة إلى أذنين، ولا حاجة إلى عينين...  
غريزتي أنبأتنى بوجود رجل «روسي»... كما تقول الحكاية. تحياتي  
واحترامي.

أخذ راسكولنيكوف يرتجف. إن الملازم «بارود» الذي انبجس من غرفة ثلاثة يقف الآن أمامه. حدث راسكولنيكوف نفسه قائلاً: «هذه هي الأقدار. لماذا هو هنا؟»

وعاد ايليا بتروفتشر يصبح، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل  
ومهتاج الأعصاب قليلاً:

- أنت عندنا؟ ما هي المشكلة؟ إذا كنت آتياً لعمل، فاللوقت مبكر

جداً. أنا نفسي إنما... بمصادفة محضة!... على كل حال، إذا كنت  
أستطيع... أتعرف لك... نعم... كيف... كيف أنت...  
معدرة... .

- أنا راسكولنيكوف.

- طبعاً، طبعاً راسكولنيكوف! هل تخيلت، ولو لحظة واحدة، أنني  
نسيت... أرجوك، لا تصدقني إذا... يا روديون رو... رو...  
روديونتش، أليس كذلك؟

- روديون رومانوفتش.

- نعم نعم نعم، روديون رومانوفتش! روديون رومانوفتش! ذلك هو  
الاسم الذي كنت أحابه تذكره! لقد سألت عن أخبارك مراراً! لقد  
أسفت حقاً منذ ذلك الزمن، اعترف لك بذلك للطريقة التي تصرفنا بها  
معك في ذلك اليوم. وقد ذكروا لي فيما بعد... لقد علمت فيما بعد  
أنك شاب أديب، بل وعالم... وأنك تخطو خطواتك الأولى إن صح  
التعبير. أي أديب وأي عالم لا يقوم بأمور فيها شيء من الشذوذ والتفرد  
في بداية حياته الأدبية أو العلمية؟ إننا، أنا وزوجتي، نعشق الأدب،  
حتى إن امرأتي تبلغ في ذلك حد الوله والتدهُّل!... الأدب والفن! قد  
يكون المرء نبيل المحتد كريم المنبت، ولكن شيء الهمام هو ما يناله  
بالموهبة، بالعلم، بالعقل، بالعصرية! ما قيمة قبعة مثلاً؟ القبعة قرص  
أستطيع أن أشتريه من محل تسييرمان، أما ما هو تحت القبعة، أما ما  
تغطيه القبعة، فذلك لا أستطيع أن أشتريه!... أتعرف لك بأنني قد  
تمنيت أن أذهب إليك، لأعتذر لك، ولكنني قدرت أنك قد...  
بالمناسبة: أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن! وصلت  
أسرتك، أليس كذلك؟

- نعم، أمي وأختي.

- لقد شرفت وسعدت بلقائك أختك. إنها فتاة مثقفة رائعة. اعترف  
لك بأنني آسف لأندفعنا أنا وأنت... كانت قصة مؤسفة! ولكن لمن

نظرت إليك نظرة اشتباه عند أغمائك، فإن أسباب هذا الإغماء قد ظهرت بعد ذلك ظهوراً واضحاً! لقد كان ذلك مني نزقاً وتعصباً لا أكثر! إنني أفهم استياءك! لعلك ستغير مسكنك بمناسبة وصول أهلك، أليس كذلك؟

- لا... وإنما جئت... لأسألك... لقد كنت أتصور أنني سأجد زاميوفوف.

- ها... نعم... أصبحتـما صديقـين... سمعـت عن هـذا! ولكن زاميـوف تـرکـنا، فـلن تـجـدـهـ بـعـدـ الـيـوـمـ هـنـاـ!ـ نـعـمـ،ـ لـقـدـ فـقـدـنـاـ الـكـسـنـدـرـ جـرـيـجوـرـيـفـيـتشـ...ـ مـنـذـ أـمـسـ!ـ قـدـمـ استـقالـتهـ،ـ حـتـىـ إـنـهـ عـنـدـ اـنـصـارـافـهـ قـدـ بـادـلـنـاـ جـمـيـعاـ كـلـمـاتـ خـشـنةـ.ـ نـعـمـ...ـ مـضـىـ فـيـ قـلـةـ التـهـذـيبـ إـلـىـ ذـلـكـ الحـدـ...ـ إـنـهـ صـبـيـ،ـ إـنـهـ صـبـيـ،ـ إـنـهـ طـائـشـ!ـ صـحـيـحـ أـنـ آـمـالـاـ كـانـتـ تـعـقدـ عـلـيـهـ،ـ وـلـكـنـ كـيـفـ السـبـيلـ إـلـىـ الـاتـكـالـ عـلـىـ شـبـابـنـاـ الـلامـعـ هـذـاـ؟ـ إـنـهـ يـرـيدـ،ـ فـيـمـاـ يـبـدـوـ،ـ أـنـ يـتـقـدـمـ إـلـىـ اـمـتـحـانـ مـسـابـقـةـ،ـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـحـاـولـ أـنـ يـزـيدـ عـلـىـ الشـرـثـةـ وـالـمـفـاخـرـةـ!ـ ذـلـكـ هـوـ اـمـتـحـانـ الـمـسـابـقـةـ الـذـيـ يـرـيدـ أـنـ يـدـخـلـهـ!ـ لـيـسـ هـوـ مـثـلـكـ،ـ أـوـ مـثـلـ صـدـيقـكـ رـازـوـمـيـخـينـ...ـ فـإـنـكـ أـنـتـ قـدـ اـعـتـنـقـتـ رـسـالـةـ الـعـلـمـ،ـ وـمـاـ مـنـ إـخـفـاقـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـرـفـكـ عـنـهـ.ـ جـمـيـعـ مـبـاهـجـ الـحـيـاةـ هـيـ فـيـ نـظـرـكـ أـنـتـ باـطـلـ<sup>(88)</sup>...ـ nihileـstـ،ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ أـنـتـ،ـ أـنـتـ رـجـلـ زـاهـدـ مـتـقـشـفـ،ـ أـنـتـ رـاهـبـ،ـ أـنـتـ نـاسـكـ.ـ الـمـهـمـ فـيـ نـظـرـكـ أـنـتـ إـنـمـاـ هـوـ الـقـلـمـ وـرـاءـ الـأـذـنـ،ـ وـإـنـمـاـ هـوـ الـبـحـثـ الـعـلـمـيـ.ـ نـعـمـ،ـ ذـلـكـ هـوـ فـيـ نـظـرـكـ الشـيـءـ الـ...ـ وـأـنـاـ أـيـضاـ،ـ إـلـىـ حدـ ماـ...ـ هـلـ قـرـأتـ «ـمـذـكـراتـ لـيفـنجـسـتونـ؟ـ»<sup>(89)</sup>

- لا!

- أما أنا فقد قرأتها. ثم إن عدد الذين يعتقدون المذهب العدمي قد ازداد في هذه الأيام ازدياداً كبيراً، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً. في أي عصر نعيش نحن؟ أنت ألقى عليك ذلك السؤال! ولكن ما بالي أحدهم

أنت... أنت لست من معتنقي المذهب العدمي، أليس كذلك؟ أجبني بصراحة، بصراحة.

- لا... لا.

- لا؟ ولكن في وسرك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة. نعم، لا تخرج، كلامي كما لو كنت تكلم نفسك. العمل شيء وال... شيء آخر. كنت تظن أنني سأقول: الصداقة، أليس كذلك؟ إذاً لقد أخطأ ظنك. ليست الصداقة هي ما أردت أن أشير إليه، وإنما أردت أن أشير إلى عاطفة الإنسان والمواطن، إلى العاطفة الإنسانية، وكذلك إلى الحب الذي يحمله المرء للعلي القدير. صحيح أنني موظف حكومة، صحيح أنني شخص رسمي، ولكن هذا لا يمنعني من أنأشعر دائماً بأنني مواطن، بأنني إنسان، وأن أحسب حساب ذلك. إليك هذا المثال: لقد تكلمت أنت عن زاميوتوف. ولكن زاميوتوف شخص يحدث صخباً وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية في أسوأ المحال سمعة لا لشي إلا لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون... نعم، ذلك هو صاحبك زاميوتوف! أما أنا فإني أحترق نشاطاً وحماسة إن صبح التعبير. العواطف الكبيرة تلهبني، ثم أنني أملك رتبة وأشغل منصبأً. وأنا متزوج، ولدي أولاد! أنني أقوم بالواجب الذي يقع على عاتق إنسان ومواطن، أما هو فهلا قلت لي ما الذي يعمله؟ أني أحديث حديثي إلى رجل صقلته الثقافة وسمت به. إليك هذا المثال أيضاً: لقد تكاثرت القابلات في أيامنا هذه تكاثراً تجاوز الحدود... .

نظر إليه راسكونيكوف مبهوتاً. إن جميع الكلمات التي قالها ايليا بتروفيتش - واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل - قد رأت في أذنيه رنين كلمات لا معنى لها. ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحو ما استطاع. وألقى على ايليا بتروفيتش نظرة مستفهمة وهو لا يدرى كيف سيتهي هذا كله.

تابع ايليا بتروفيتش الذي لا ينضب لكلامه معين ، تابع كلامه فقال :

- إنني أطلق هذا اللقب - القابلات - على هاته الفتيات ذوات الشعر المقصوص<sup>(90)</sup> لأنه يبدو لي موفقاً جداً... هي!... إنهم يدخلن كلية الطب<sup>(91)</sup>، ويتعلمن التشريح، ولكن قل لي : أتراني إذا مرضت أدعو إحدى هذه الآنسات لمعالجتي؟ هي!... .

انفجر ايليا بتروفيتش ضاحكاً، وقد رضي عن أقواله الحسنة وكلماته الجميلة كل الرضى !

ثم تابع كلامه فقال :

- لنسلم بأن الدافع إلى ذلك ظمأً إلى التعلم والثقف لا يرتوى، ولكن يخيل إلى أن على الإنسان ، متى تعلم ، أن يتوقف ، أن يكف ... فلماذا الإسراف والإفراط؟ لماذا تهان شخصيات نبيلة ، كما يفعل ذلك الرجل التافه زاميوتوف؟ أشخص مثل زاميوتوف يهيني أنا؟... ثم تلك الانتحارات التي تتكرر؟ لا تتصور ما أكثر عددها!... يأكل أحدهم آخر قرش ثم ينتحر! بنات ، شباب ، شيوخ!... إليك هذا المثال: في هذا الصباح نفسه ، أبلغنا... أن سيداً كان قد وصل إلى هذه المدينة منذ مدة قصيرة... هي!... نيل بافلتش... يا نيل بافلتش... ما اسم ذلك السيد الذي أبلغ عنه... أطلق على رأسه رصاصة عند ضفة النهر... أقصد عند الضفة الأخرى من نهر نيفا؟

أجاب صوت أبع غير مكترث ، صوت رجل في الغرفة الأخرى ،

أجاب يقول :

- اسمه سفديجايلوف.

فارتجف راسكولنيكوف ، وصاح يسأل :

- سفديجايلوف؟ سفديجايلوف أطلق على رأسه رصاصة؟

- هل تعرف أنت سفديجايلوف؟

- نعم... أ... أعرفه... لقد وصل في الآونة الأخيرة فعلاً!...  
- نعم، في الآونة الأخيرة... كانت زوجته قد ماتت منذ حين...  
ثم إن هذا الرجل الذي كان ماجنا فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من  
مسدس فجأة... وقد فعل ذلك في ظروف فاضحة يستحب المرء حتى  
أن... لقد ترك بعض الكلمات في دفتره قائلاً إنه يموت مالكاً كل عقله  
فما ينبغي اتهام أحد بقتله. يقال إنه كان يملك ثروة طائلة. ولكن كيف  
عرفته؟

- تعرفت... تعرفت عليه... لأن اختي كانت تعمل معلمة  
لأولاده في منزلهم...

- ه... ه... إذاً تستطيع امدادنا بمعلومات عنه. ألسنت تفترض  
 شيئاً ما؟

-رأيته أمس... وكان... يشرب خمراً... ولم أطلع على  
شيء...

كان راسكولنيكوف يحس أن حملًا ثقيلاً قد جثم على صدره يسحقه  
سحقاً.

- لكأنك تصفر من جديد. لا شك أن الجو هنا خانق...

تمتم راسكولنيكوف يقول:

- آن لي أن أصرف. اغفر لي ازعاجك...

- ولكنك لم تزعجني البتة! أنا في خدمتك! ثم إنك قد سررتني،  
ويسعدني جداً أن أقول لك...  
ومد ايليا بترورتش إليه يده.

جمجم راسكولنيكوف يقول:

- كنت أريد... فقط... أن... أن أرى زاميتوف...  
- فهمت، فهمت، ولكنك مع ذلك قد سررتني بلقائك...  
...

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يبتسم:

- أنا سعدت بلقائك... استودعك الله...

وخرج متربعاً. كان يشعر بدوراً يكاد يدرى فهو ما يزال منتسباً على ساقيه. وأخذ يهبط السلالم، متكتناً بيده اليمنى على العائط. تراءى له أن بوابة في يده سجلاً قد صدمه ليدخل إلى قسم الشرطة، وإن كلباً كان ينبغ في مكان ما، وأن امرأة كانت تطوحه بشوبق لتسكته. فلما بلغ أسفل السلالم دخل الفناء.

كانت صونيا واقفة في الخارج، غير بعيد عن الباب، صفراء كصفرة الموتى، تنظر إليه مروعة منقلبة السحنة. وقف أمامها، فتشنجت قسمات وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع؛ وباعتدت بين ذراعيها بحركة تعبر عن يأس وارتسمت على شفتيه ابتسامة تيه وشروع بشعة.

توقف راسكولنيكوف لحظة، فابتسم بمرارة، ثم قفل راجعاً إلى المكتب الذي بارحه منذ قليل.

كان ايليا بترورفتش جالساً ينقب بين أوراقه، وقد وقف أمامه ذلك الشخص نفسه الذي صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلالم.

فما أن رأه ايليا بترورفتش حتى صاح يسأله:

- أهذا أنت أيضاً؟ هل نسيت شيئاً ما؟ ولكن ماذا بك؟ ماذا أصابك؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطريقاً، أبيض الشفتين جامد الناظرة، واقترب من المائدة فأمسن إليها إحدى يديه، وأراد أن يقول شيئاً ما، ولكنه لم يستطع ذلك. لم تسمع منه إلا جمجمات لا تبين عن شيء.

هتف ايليا بترورفتش:

- ماذا بك؟ هل تشعر بدوراً؟ هاتوا كرسيأ، بسرعة! خذ، اجلس، اجلس هنا، هاتوا ماء!

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذي قدم إليه، ولكنه لم يحوّل

بصريه عن وجه ايليا بتروفيتش الذي دهش من ذلك اشد الدهشة . وظل الاثنان خلال دقيقة ينظر كل منهما إلى الآخر ويتظر . وجيء بماء .

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

- أنا الذي . . . .

- اشرب جرعة ماء !

أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه بإحدى يديه ، وقال بصوت خافت لكنه واضح متميز ، مع وقفات بين الكلمات :

- أنا الذي قتلت ، بضربات فأس ، العجوز التي تفرض على رهن ، واختها اليزافيتا ، وأنا الذي سرقتهما .

لبيث ايليا بتروفيتش فاغر الفم ، وهرع ناس من كل جهة .

وأعاد راسكولنيكوف الإدلاء بإفادته .

## خاتمة

### الفصل الأول

**لليليرا... على الشاطئين المفترين من نهر عريض، تقام مدينة هي أحد المراكز الحكومية في روسيا.** إن في هذه المدينة قلعة، وإن في القلعة سجناً. وفي هذا السجن حبس، منذ تسعه أشهر، السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية<sup>(92)</sup>، روديون راسكولنيكوف، الذي انقضت حوالي سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته.

لقد سارت إجراءات المحاكمة بدون مصاعب. كرر المجرم إفاداته بثبات ووضوح ودقة، لم تتدخل الظروف في أقواله، ولا حاول أن يخفف من شأن جرمه، ولا هو شوئ الواقع، أو أسقط منها شيئاً. حتى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه، وأوضح سر الرهن اللوح الصغير بشرط معذني، الذي كان بيدي العجوز القتيل؛ - وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز مفاتيحها، ووصف هذه المفاتيح، ووصف الصندوق؛ وعدّ بعض الأشياء التي كان يضمها الصندوق؛ وأوضح أيضاً سر مقتل اليزافيتا؛ وروى كيف جاء كوخ فقرع الباب، وكيف جاء بعده الطالب؛ وذكر الأقوال التي تبادلها كلاهما؛ وقص، كيف أنه، هو القاتل، قد هرب راكضاً على السلم فسمع هنالك صرخات نيقولاي ودمتري،

فاختباً في الشقة الخالية، ثم عاد إلى بيته. وختم ذلك كله بأن حدد صخرة موجودة في فناء أحد المنازل بشارع فوزنيسينسكايا، قرب باب الفناء، حيث عثر على الأشياء والمحفظة المسروقة. الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبق منها في الظل شيء. وقد دهش المحققون والقضاة دهشة خاصة إذ علموا أن الجاني قد أخفي الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها، وأنه لا يتذكر جميع الأشياء التي سرقها تذكراً صحيحاً، حتى لقد أخطأ في عددها. أما قوله إنه لم يفتح المحفظة مرة واحدة بل وإنه يجهل المبلغ الذي تحتويه فقد بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبين أن المحفظة كانت تضم ثلاثة وسبعين عشر روبيلاً وثلاث قطع من فضة العشرين كوباكاً، كما أن الأوراق المالية التي كانت فوق، وهي أكبرها، قد ساءت حالها من طول بقائهما تحت الصخرة). وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب في هذه النقطة، مع انه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق بصراحة ومن تلقاء نفسه. ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر في المحفظة فعلاً، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون أن يعرف ما تحتويه. غير أن هؤلاء أسرعوا يستنتاجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد أرتكبت إلا في نوبة جنون طارئة، أي في لحظة: «مونومانيا» القتل والسرقة، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون المؤقت، وهي النظرية التي يحاول بعضهم في كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم في هذه الأيام. ثم إن حالة الوسوس (الهيبيوكوندريا) المزمن التي كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود، جازمين قاطعين؛ فمن هؤلاء: الدكتور زوسيموف صديقه القديم، ورفاقه القدامى، وصاحبة البيت الذي كان يقطنه، والخدم. ذلك كله ساهم كثيراً في تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم

عادى، قاتل أو سارق، أى شبه على الإطلاق، وأن شأنه شأن آخر، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف . ولكن الجانى نفسه لم يحاول أن يدافع عن نفسه ، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية أشد الأسف . حتى إذا ألقى عليه السؤال الأخير عن السبب الذى دفعه إلى القتل والسرقة، أعلن بوضوح تام ودقة فظة أن فقره، وعجزه عن الخروج منه ، ورغبته في تأمين خطواته الأولى في الحياة ، بمعونة ثلاثة آلاف روبل كان يأمل أن يجدتها عند العجوز ، أما القتل فإنه عزم عليه بسبب طبعه الطائش والضعف والذى هيجنته ، زيادة على ذلك ، بلاياده واحفاقاته . ولما سئل عن الدافع الذى حدا به إلى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قاطعاً بأن ذلك ندم صادق وتبعة مخلصة .

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة ، بل كان فيه غلظة وفاظطة ! . . .

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه في جريمة كهذه الجريمة ، وربما كان مرد ذلك إلى أن الجانى لم يحاول أن يسوغ نفسه ، حتى لقد أظهر رغبة في اتهام نفسه مزيداً من الاتهام . ولقد بصر بعين الاعتبار إلى جميع الظروف العجيبة الخاصة التي لابست القضية . من ذلك أن حالة المرض والعوز التي كان عليها المتهم قبل انفاذ جريمته لم توضع موضع الشك . كما أن عدم استفادة الجانى من المسروقات قد نسب إلى الندامة وعذاب الضمير تارة ، ونسب تارة أخرى إلى حالة قواه العقلية التي لم تكن سليمة البتة عند ارتكاب الجريمة . وكان مقتل البىزافيتا ، دون عمد ، مثالاً على هذا الافتراض ودليلأً يدعمه ويفيده : نحن هنا إزاء رجل يرتكب جريمتي قتل ، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً! ذلك كله بالإضافة إلى أن الجانى قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه في اللحظة التي اختلطت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الإفادة الكاذبة التي أدلى بها شخص مهووس خارت عزيمته (نيقولاي) ،

بل وفي اللحظة التي لم يكن فيها أي دليل واضح يدين القاتل الحقيقي، بل ولم تبق فيها أية شبهة تحوم حوله. (لقد حافظ بورفيري بتروفتش على وعده وبر عهده تماماً). ذلك كله قد أسهم في حمل المحكمة على أن تسلم للجاني بظروف مخففة.

يضاف إلى ذلك أن وقائع في مصلحة راسكولنيكوف قد انجست فجأة على نحو لم يكن في الحسبان البتة. فإن الطالب السابق رازوميفixin قد استطاع أن يعثر لا يدري أحد من أين على شهادات ثبت صدقها، بأن الجاني راسكولنيكوف قد أتفق آخر ما كان يملك من موارد، أثناء دراسته بالجامعة، على رفيق فقير مصاب بداء السل، فقام بأوده وسد حاجاته وخفف عنه خلال ستة أشهر كاملة. حتى إذا مات رفيقه ذاك، اهتم راسكولنيكوف بأبيه، وهوشيخ عاجز بقى وحيداً في هذه الحياة (بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره سنه الوحيد)، ثم أدخله مأوى للشيخوخة، حتى إذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة، تكفل راسكولنيكوف ببنقات دفنه.

هذه المعلومات كلها كان لها أثر في مصير راسكولنيكوف. وقد شهدت صاحبة البيت الذي كان يقطنه راسكولنيكوف (وهي أم خطيبته المتوفاة)، شهدت من جهتها أن راسكولنيكوف، حين كانوا ما يزالون يسكنون في شارع «الأركان الأربع». قد أنقذ، أثناء حريق، في ذات ليلة، طفلين صغيرين من مسكن شبت فيه السنة النيران واشتعل، حتى أن راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعده حروق. وقد جرى تحقيق دقيق في هذه الواقعة، فشهد بصدقها شهود كثيرون. الخلاصة أن كل شيء قد ساهم في حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثماني سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط، لأنه اعترف بجريمه من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفأ مخففة.

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر في الدعوى. واستطاع

رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلها إلى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة. لقد اختار رازوميخين مدينة قرب بطرسبرج يصل إليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى آفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة.

وكان مرض بولخيريا الكسندروفنا إصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الجنون لدرجة ما أن لم يكن كاملاً. إن دونيا، حين عادت إلى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة، قد وجدت أمها في حالة حمى بالغة وهذيان شديد. فاتفقتو مع رازوميخين في ذلك المساء نفسه على الأجرة التي ينبغي أن يجبيا بها بولخيريا الكسندروفنا متى سألتهما عن ابنها، حتى لقد اخترعا لهذا الغرض قصة سفر، سفر بعيد، سفر إلى مكان على حدود روسيا، فقد كلف راسكولنيكوف بالقيام بمهمة خاصة، وسوف تجلب له هذه الرحلة مالاً وشهرة. فما كان أشد دهشتهما حين لم تطرح عليهما بولخيريا الكسندروفنا أي سؤال، لا في ذلك الحين ولا بعده؛ حتى أنها، على خلاف ذلك، قد تخيلت هي نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بغتها؛ وقد قضت عليهما، وهي تبكي زيارة ابنها لها موعداً، وألمحت في هذه المناسبة، ببعض الإشارات والتلميحات، إلى أنها وحدها على علم بظروف كثيرة خطيرة سرية، قائلة: أن لابنها روديا خصوماً أشداء عتاة، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنوار. أما عن مستقبل ابنها، فإنها لا تشک في أنه سيكون مستقبلاً لاماً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية؛ حتى لقد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح في المستقبل «رجل دولة»؛ فإن مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوي على ذلك. وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع، حتى لقد كانت تقرؤها في بعض الأحيان بصوت عال، وتوشك أن تنام معها في الليل. ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا في ذلك الأوان، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن من حولها يتحاشون أي حديث عنه (وكان

حرياً بهذا أن يشير شبهاً لها طبعاً). وأصبح رازوميخين دونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولخيريا الكسندروفنا آخر الأمر وعدم اكتراها لبعض النقاط. حتى لقد كانت، مثلاً، لا تشكو من أنها لا تتلقى أني رسالة من ابنها، مع أنها كانت قبل ذلك، في مدینتها الصغيرة، لا تحيا إلا على الانتظار والأمل في تلقي أنباء ابنها الحبيب روديا بأسرع وقت ممكن. ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلي الأخير، وكان لها بمثابة إنذار، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذي حل بابنها، وأنها لا تريد أن تسألهما، لخشيتهما من أن تعرف شيئاً أفظع. ومهما يكن من أمر، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولخيريا الكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة.

وقد حدث للأم مع ذلك مرتين أن وجهت الحديث توجيههاً ما كان للشابين أن يجيئاً معه عن أسئلتها إجابة تامة دون أن يشيرا لها إلى المكان الذي يوجد فيها روديا. حتى إذا جاءت الإجابات متحفظة مشتبهة وقعت الأم في حالة حزن رهيب دامت مدة طويلة. وأدركت دونيا عندئذ أن من الصعب أن يستمر الكذب والتلفيق، وانتهت إلى هذه التبيجة، وهي أن التزام الصمت التام في النقاط الحساسة أفضل وأسلم. ولكن أخذ يتضح مزيداً من الاتضاح شيئاً بعد شيء أن الأم المسكينة تشتبه في شيء ما، في شيء مرؤٍ فظيع. وتذكرت دونيا، فيما تذكرت، بعض أقوال أخيها. ألم يقل لها أن بولخيريا الكسندروفنا سمعتها تهذى، في الليلة التي سبقت اللحظة الخامسة من لقائهما الأخير، بعينه المشهد الذي حدث مع سفديريجايلوف؟ ألم تسمع بولخيريا الكسندروفنا عندئذ بعض الأشياء، ففهمت شبه فهم؟ وكثيراً ما أصبح يحدث، بعد بضعة أيام بل وبضعة أشهر من صمت حزين عابس ودموع خرساء، أن يتتاب المريضة انتعاش مرضي ونشاط هستيري، فتأخذ تتكلم عن ابنها، وعن آمالها، وعن المستقبل، متداقةً تدفقةً سريعاً،

بغير توقف تقريباً! . . . وكانت أخيلتها في بعض الأحيان عجيبة حقاً! فكان الشابان يتظاهران بمشاركتها آراءها موسامة لها، وتسريحة عنها، (ولعل موافقتهما هذه على آرائها لم تكن تنطلي عليها ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة حديثها الشري الذي لا ينضب له معين . . .

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهر من اعتراف القاتل بجريمته. وأخذ رازوميخين يزور راسكولنيكوف في السجن كلما تمكن من ذلك. وكذلك كانت تفعل صونيا. وأزفت أخيراً ساعة الفراق. فحلفت دونيا لأخيها على أن الفراق لن يكون أبداً. وحلف رازوميخين أيضاً على ذلك. وقد ترسخت في دماغ رازوميخين، في دماغه الفتى الفائز المتحمس المندفع، ترسخت ترسخاً قوياً، فكرة المشروع الذي قام في ذهنه، وهو أن يرسي قواعد مصيره الم قبل، خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية، فيدخل ولو مبلغاً قليلاً من المال ليمضي يقيم في سiberيا، حيث الأرض غنية، وحيث الأيدي العاملة ورؤوس الأموال قليلة. فهناك سيستقرون، بالمدينة نفسها التي سيكون فيها روديا، وهناك . . . سيبدؤون جميعاً حياة جديدة!

وبكي الجميع في ساعة الفراق. كان راسكولنيكوف، خلال الأيام الأخيرة مغموماً جداً، فكان يلقي أسئلة كثيرة عن أمه، ويُظهرُ قلقاً شديداً عليها، فكان يتذمّر عذاباً قوياً يخيف دونيا وينذرها بأسوا العواقب. ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولخيريا الكسندروفنا معرفة دقيقة، أصبح قاتم النفس مظلماً المزاج. ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة، فهو لا يبوح لها بما في نفسه. وكانت صونيا، بفضل المال الذي تركه لها سفديريجايروف، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التي ستضم راسكولنيكوف. إنهما لم يبحا هذا الأمر معاً في يوم من الأيام، ولكنهما كلاهما يعرف أن الأمر سيكون كذلك. وفي اللحظة الأخيرة، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامةً غريبة حين سمع

التأكيدات الحارة من أخته ومن رازوميخين عن المستقبل الجميل الذي ينتظرونهم جميعاً عند خروجه من السجن. لقد كان يوجس أن أمه ستموت قريباً.

وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبه صونيا.

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا من رازوميخين. وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً، وكان يرین عليه جو الحزن. وكان بين المدعويين بورفيرى بتروفتش وزوسيموف. وقد اكتسى رازوميخين في الآونة الأخيرة مظهراً ملائماً للرأي. وكانت دونيا تؤمن بإيماناً أعمى بأنه سيحقق جميع مشاريعه. وكان لا يمكنها، على كل حال، إلا أن تؤمن بذلك: فإن إرادة حديدية كانت تتجلّى في هذا الرجل. ولقد استأنف، خاصةً، متابعة دروس الجامعة لينهي دراسته. وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل، وكانا كلاهما يتتويان حقاً أن يرحا إلى سيبيريا بعد خمس سنين. وإلى أن يحين ذلك العين، كانوا يتكلان على صونيا.

وقد باركت بولخيريا الكسندروفنا زواج ابنتها ورازوميخين وفرحت به، لكنها سرعان ما سقطت في حزن أشد وأسى أعمق وأكبر. ومن أجل أن يهبي لها رازوميخين بعض لحظات من فرح قصّ عليها قصة الطالب وأبيه العاجز، وحكي لها حكاية الحريق الذي حدث في السنة الماضية والذي برز فيه روديا بطلأً يتنزع الطفلين الصغيرين من بين ألسنة اللهب حتى إنه مرض بسبب ذلك. فكانت القصص تلقي بولخيريا الكسندروفنا التي كان عقلها قد اهتز وأصابه اختلال، تلقيها في نشوة تشبه أن تكون وجداً، حتى أصبحت لا تتكلّم إلا عن هذا، وحتى مضت في ذلك إلى حد استيقاف الناس في الشارع لتفقص عليهم هي أيضاً... (هذا رغم أن دونيا ترافقتها حينما تذهب). أصبحت بولخيريا الكسندروفنا تتجه إلى أول إنسان تلقاه، في عربات الخيل، في الدكاكين، في أي مكان آخر، فتأخذ تكلمه عن ابنها، وعن مقالته، وتأخذ تشرح له مسهبةً مفيدةً

كيف أن ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون وكيف أنه اقتحم ألسنة اللهب أثناء حريق، وهلم جرا. وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهديها. كانت تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحة أمها المريضة، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع أحد اسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدعوى وأن يتحدث عنها.

وقد اكتشفت بولخيريا الكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين أنقذهما روبيا، وأرادت أن تزورها مهما كلف الأمر. وبلغ قلقها أبعاداً خطيرة في النهاية. فهي تارة تنفجر باكية ناشجة، وتارة أخرى تتكلم هارفة هاذية. وفي ذات صباح أعلنت فجأة أن روبيا وفقاً لحساباتها عائد في القريب، فقد وعدها وهو يودعها وهي تذكر وعده أنه سيرجع بعد تسعه أشهر.

وسرعان ما شرعت ترتيب الشقة استعداداً لعودته، فهياًت له غرفتها هي، ودهنت الأناث، وغسلت، ومسحت، وعلقت ستائر جديدة، الخ.. ولم تقل دونيا شيئاً، رغم جزعها، بل ساعدتها في هذه الاستعدادات. وبعد أن قضت بولخيريا الكسندروفنا ذلك النهار كله في تخيل أشياء تبلغ غاية الجنون، وفي البكاء والانقياد للأحلام، مرضت في تلك الليلة نفسها، فما طلع الصباح حتى كانت في حالة هذيان، فقد اعترتها حمى حارة، ثم ماتت بعد أسبوعين.

وقد أفلتت من لسانها أثناء الهذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصير الرهيب الذي آل إليها ابنها أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها، وتفترض ابتها.

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أبناء من بطرسبرج منذ وصوله إلى سيبيريا. كانت صونيا تكتب إلى رازوميixin كل شهر دون تخلف، وكل شهر أيضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج. وفي أول الأمر رأت دونيا ورأى رازوميixin أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبعث على كثير من الرضى.

ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك؛ وأن من السهل عليهما أن يكونا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التي يعيش فيها أخوهما البائس. كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التي يحياها راسكولنيكوف في المعقل. كانت لا تذكر شيئاً عن آمالها، وعن أحلامها المتصلة بالمستقبل، لا ولا عن عواطفها الشخصية. كانت صونيا في هذه الرسائل، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية وحياته الروحية، تذكر وقائع جرت له، وتنقل أقوالاً قالها، وتقدم تفاصيل عن صحته، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التي عبر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك، وما كلفها بأن تنقله، الخ. وكانت هذه الأخبار كلها مفضلة، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها، ولم يكن من الممكن أن يحدث أي خطأ، لأن جميع الواقع كانت صادقة.

غير أن جميع هذه الأنباء، ولا سيما في البداية، لم تحمل إلى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة. كانت صونيا تبلغهما أن راسكولنيكوف لا يزال قاتم المزاج مظلوم النفس صموداً قليلاً الكلام؛ وأنه لا يكاد يهتم بالأخبار التي تنقلها إليه كلما تلقت رسالةً منهمما؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب عن وفاتها، أدهشها أنه لم يبد عليه أن ذلك أثرَ في نفسه تأثيراً كبيراً، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل.

وكانـت صونيا تقول لهما أيضاً إنه رغم انطوانـه على نفسه دائمـاً، يبدو راضـياً بـحياته الجديدة بـصدق واستقـامة وبـساطـة، وأنـه يدرـك الـوضع الذي هو فـيه، ولا يتـوقع أن يـتحسن مـصيرـه في مستـقبل قـرـيب، وأنـه لا يـراودـه أيـ أـمل باـطل فيـ غير محلـه (كـما يـحدث عـادة لـلسـجنـاء)، وأنـه لا يـدـهـشـ منـ شـيءـ تقـرـيبـاً، رغمـ ماـ هـنـاكـ منـ تـعـارـضـ وـتـناـقـضـ بـيـنـ حـيـاتـهـ الـراـهـنةـ وـحـيـاتـهـ السـابـقـةـ.

وكانت تقول لهما إن صحته حسنة، وإنه يمضي إلى الشغل دون تهرب أو تملص، ودون نشاط كاذب أو حماسة زائفة. وأنه لا يكاد يهتم بأمر الطعام، ولكن هذا الطعام، في غير أيام الأحاداد وأيام الأعياد، يبلغ من السوء أن راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال منها هي صونيا، ليستطيع أن يحصل لنفسه على شيء من الشاي (أما فيما عدا ذلك، فقد رجاهما أن لا تقلق عليه وأن لا تهتم به، وقال لها إن عنایتها به تقل على نفسه وتضايقه).

وكتبت لهما صونيا كذلك أنه في السجن يسكن مع السجناء الآخرين في مهجع مشترك، وأنها لم تدخل المهجع، ولكن ظاهر المبني يدل على أن المكان ضيق قذر غير صحي؛ وأن راسكولنيكوف يرقد على لوح من الخشب مغطى ببلباد، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر؛ وأنه على كل حال، إذا كان يعيش حياة خشنة قاسية فقيرة إلى هذا الحد، لا يفعل ذلك التزاماً بفكرة سابقة أو تقيداً بمبدأ معين، بل لأنه لا يكترث للظروف المادية ولا يحفل بها.

وكتبت صونيا بصراحة أنه، في أول الأمر خاصة، لم يكن يعبأ بزياراتها، حتى لقد كان يظهر لها شيئاً من الاستيء، ولا يفتح فمه بكلمة، ويعاملها معاملة أميل إلى الفظاظة. غير أن لقاءاتها أصبحت عادة له بعد ذلك، وأوشكت أن تصير حاجة، حتى أن الزمن بدا له طويلاً أثناء الأيام القليلة التي لم تستطع أن تزوره خلالها بسبب مرض ألم بها. إنها في أيام الأعياد تراه عند بوابة السجن، من وراء القضبان الحديدية، أو تراه في غرفة هيئة الحرس التي يؤتى به إليها بضع دقائق. وأما في الأيام الأخرى فإنها تراه أثناء الشغل، في ورشات العمل، أو في مصانع الأجور، أو في المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايرطيش<sup>(93)</sup>. أما عنها هي فلم تزد على أن أشارت إلى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها في المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها؛ وأنها تعمل في الخياطة، وأنها لقلة الخياطات في المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا

تستغنى عنها . ولكن صونيا أسقطت ذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه ، بفضلها هي ، أن يحظى بشيء من العطف عليه ، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المراعاة ، وكانت الأشغال التي يُعهد بها إليه غير شاقة كثيراً، الخ . . .

ثم وصل النبأ الذي يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق ومن العصبية في الرسائل الأخيرة التي بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذي يقول إن راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين ، وأن هؤلاء لا يحبونه كثيراً ، وأنه يظل صامتاً ساعات بكمالها ، وأن شحوبه يزداد شيئاً بعد شيء .

وكتبت صونيا أخيراً في ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً ، وأنه يعالج الآن في مستشفى المعتقل .

## الفصل الثاني

لقد كان مريضاً منذ مدة طويلة، ولكن لا الأهوال التي تشتمل عليها حياة السجين، ولا الأشغال الإجبارية الشاقة، ولا الطعام الرديء، ولا حلق شعر الرأس، ولا الملابس المصنوعة من القصاصتين المختلفتين اللون<sup>(94)</sup>، لا شيء من هذا كله هو الذي حطمته! لا، لا، إن جميع هذه الأنواع من البؤس والعقاب لا تعنيه في شيء! بالعكس: لقد كان يرضيه أن يكون عليه أن يعمل عملاً مضنياً. إنه حين يرهقه العمل الجسمي يستطيع على الأقل أن يتمتع ببعض ساعات من نوم هادئ مريح. أما الطعام الرديء، أما حساء الكرنب ذاك مليء بالصرافير، فإنه لا يهمه البتة. ألم يتفق له، حين كان طالباً، في أول عهده بالحياة، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام؟ وأما ملابسه فقد كانت تكفل له الدفء، وهي تلائم طراز الحياة الجديدة التي يحياها، فماذا يريد أكثر من ذلك؟ وأما الأغلال الحديدية، فقد كان لا يكاد يُحسّ بها... وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه مخلوقاً أو من ملابس السجين؟ يخجل أمام من؟ أمام صونيا؟ إن صونيا تخاف منه وتخشاه، فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا، صونيا التي ينتقم منها فيعاملها باحتقار وفظاظة. ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزي

والعار لا يرجع لا إلى أن شعر رأسه محلوق، ولا إلى أنه مكبل بالسلسل! إن ما كان يشعره بالخزي والعار، وما كان يؤلمه إيلاماً شديداً حتى جعله مريضاً، إنما هو الجراح التي أصبت بها كبرياوته! آه... لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان في وسعه أن يتهم نفسه وأن يدين نفسه! لو استطاع ذلك إذن لكان يمكن أن يتحمل الخزي وأن يتحمل العار! ولكنه مهما تشتت قسوته في الحكم على نفسه، فإن ضميره المتصلب كان لا يجد في ماضيه أية خطيئة فظيعة، اللهم إلا أن تكون هذه الخطيئة هي أن ضربته قد أخفقت. صحيح أن هذا يمكن أن يقع لجميع الناس، ولكنه كان يشعر بالخزي من أنه ضاع بمثل هذه العمادة، بمثل هذه الحماقة، بمثل هذا الانهيار، ومن أنه خاصة مضطر، وهو راسكونيكيوف، أن ينصلح لحكم هذا القدر الأعمى، وأن يخضع أمام «سخافة» هذا الحكم، إذا هو أراد أن يسترد الهدوء والسكينة.

إن قلقاً لا موضوع له ولا غاية له في الحاضر، وإن تضحيه متصلة غير منقطعة في المستقبل، ذلك هو كل ما ينتظره هنا على هذه الأرض! فأي فائدة إذاً في أن يقول لنفسه أنه بعد ثمانين سنتين لن يكون عمره قد تجاوز اثنين وثلاثين سنة، وأنه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته؟ علام يحيا؟ ما هي الغاية التي ما يزال يستطيع أن يلاحقها؟ ما هو الهدف الذي ما يزال يمكنه أن يسعى إليه؟ لماذا يفيده وماذا يجديه أن يستمر في الصراع والكفاح؟ أيحيا من أجل أن يوجد؟ ألا أنه كان طوال حياته مستعداً لأن يضحي بوجوده ألف مرة في سبيل فكرة، في سبيل أمل، بل وفي سبيل تحقيق نزوة! إن الوجود في حد ذاته لم يكن كافياً له في يوم من الأيام. وإنما هو كان يطمع دائماً في أكثر من ذلك! ولعل عنف رغباته كان وحده السبب في أنه ظن نفسه إنساناً يجوز له ما لا يجوز لغيره.

ولو أن القدر قد اختار له الندامة، الندامة المحرقة التي تحطم القلب وتطرد النوم. الندامة التي تجعل صاحبها يفكر في الانتحار شنقاً أو غرقاً، إذاً لكان سعيداً كل السعادة! إن الآلام والدموع هي الحياة أيضاً!

ولكن راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمه.

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته، كما غضب في الماضي من أفعاله الشادة الغبية التي قادته إلى المعتقل. أما وقد أصبح الآن في المعتقل، وأصبح يستطيع أن يفكر في تلك الأفعال بحرية تامة، فإنه لا يراها شادة ولا سخيفة إلى الحد الذي تراءى له قبل ذلك في اللحظة المحتومة المشوّمة.

إنه الآن يقول لنفسه: «هل فكرتني أجيبي من تلك الأفكار والنظريات التي تجري في هذا العالم وتصادم منذ أن وُجد العالم؟ يكفي أن نواجه الأمور بنظرة موضوعية واسعة متحركة من الأحكام السابقة اليومية حتى ندرك أن فكرتني ليست... غريبة إلى ذلك الحد الذي قد يتوجهه بعضهم... أيه أيها الجاحدون، أيها الفلاسفة التافهون، لماذا تتوقفون في منتصف الطريق؟ غريب! لماذا تبدو لهم فعلتي شادة إلى هذا الحد؟ لأنها جريمة؟ ماذا تعني كلمة: جريمة؟ إن ضميري مرتاح. صحيح أن جريمة قد وقعت. صحيح أن نص القانون قد اخترق وأن دمًا قد سُفك. فإذا كان الأمر أمر تقييد بنص القانون، فاقطعوا رأسي... ولنستك! ولكن يجب أن نذكر في هذه الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا إلى الإنسانية ولم يكونوا قد ورثوا السلطة وراثة وإنما استولوا عليها استيلاء، وبالتالي كان ينبغي أن تقطع رؤوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى. إن الفرق الوحيد بين هؤلاء وبيني هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم، فكان ذلك مبرراً لهم، أما أنا فلم أقدر على الاحتمال. إذن كان لا يحق لي أن أجيز لنفسي القيام بتلك الخطوة».

تلك هي الخطيئة الوحيدة التي كان راسكولنيكوف يؤاخذ نفسه عليها: وهي أنه لم يستطع أن يتحمل، بل مضى يشي بنفسه ويعترف بجريمه.

وكان يتأنم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال: لماذا لم ينتحر

حينذاك؟ لماذا، حين مال على ماء النهر، أثر أن يشي بنفسه؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة، يصعب التغلب عليه إلى هذه الدرجة من الصعوبة؟ إن سفديريجايروف الذي كان يخشى الموت، قد استطاع مع ذلك أن ينتصر على حب الحياة هذا!

كان راسكولنيكوف يعاني من إلقاء هذه الأسئلة على نفسه عذاباً شديداً، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله أو جس في نفسه وفي اقتناعاته كذباً. إنه لم يدرك أن هذا التوجس يمكن أن يكون علاماً انعطافاً مقبل في حياته، وبإشارة انبثاث جديد، واستباقاً لتصوره الحياة في المستقبل تصوراً آخر. وإنما كان يتوهם أن هذا من ثقل الغريرة البليد، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على ذلك الثقل. وكان إذ يلاحظ رفاقه في الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة جبأً قوياً، ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا أحراضاً طلقاء. ومع ذلك ما أقسى أنواع العذاب، وما أشد ضروب الآلام التي كان يعانيها بعضهم! المتشردون مثلاً... هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها، في نظرهم، لشاع من شمس، لغابة متوحشة، لنبع ماء بارد في قرار الأحراج (نبع رأه أحدهم منذ ثلاث سنين، فأصبحت صورته تلازمه حتى لكانها صورة لقاء خليلته يراها في منامه)، لنسبة عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع، لطير يغرُّد في الأدغال؟

وأمعن راسكولنيكوف في الملاحظة مزيداً من الإمعان، فكانت تفجأ بصره، وتثير دهشته أمثلةً أعنصر فهماً من مثال المتشرددين أيضاً. إن في المعتقد أموراً كثيرة كانت تفوته، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال. لقد كان يعيش غاضباً بصره خافضاً عينيه إن صح التعبير. كان النظر إلى ما حوله يثير اشمئزازه. غير أن أشياء كثيرة أخذت تفاجئه آخر الأمر، فإذا هو، على غير علم منه تقريباً، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور في خلده أو يخطر بباله قبل ذلك. ولعل ما أدهشه أكثر من أي شيء آخر

هو الهوة الرهيبة، هذه الهوة التي لا يمكن اجتيازها، أعني الهوة التي تفصله عن هؤلاء الناس. لكانهم ينتمون إلى أجناس مختلفة. إنهم ينظرون ببعضهم إلى بعض نظرة شك وعداوة. وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر، ولكنه لم يتصور في يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة.

وكان في السجن أيضاً سجناء بولنديون نُفوا إلى سibirيا لجرائم سياسية<sup>(95)</sup>. فكان هؤلاء ينظرون إلى الآخرين نظرتهم إلى رعاع وعيّد، ويعاملونهم معاملة احتقار، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك في هذا الرأي. ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعاع كانوا من نواح كثيرة أذكي من أولئك البولنديين أنفسهم. وكان بين الروس أيضاً أناس يزدرون رفاقهم ازدراء زائداً، ولا سيما ضابط سابق، ورجلان مثقفان. وقد أدرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً.

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبته. حتى لقد انتهى بهم الأمر إلى كرهه. لماذا؟ ليس يدرى ! كان بعضهم ، وهم أشد إجراماً منه ، يحتقرونه ويستهذون به ، ويجعلون جريمته محل سخرية وتفكك وضحك ! كان هؤلاء يقولون له :

- أنت سيد! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربيات فأس؟ ليس هذا شأن سيد من السادة!

وفي الأسبوع الثاني من الصوم الكبير، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه. فعل كما فعل الآخرون، فذهب إلى الكنيسة وصلّى. ولكن مشاجرة شبّت في ذات يوم دون أن يعرف لماذا. لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد، وأخذوا يصيّحون قائلين له:

- أنت ملحد! أنت لا تؤمن بالله! يجب قتلك!  
إنه لم يكلمهم في يوم من الأيام عن الله، ولا عن الدين؛ ولكنهم  
يريدون قتله بحجة أنه ملحد لا يؤمن بالله. لم يعترض بشيء، وصمت.  
ووثق أحد السجناء نحوه مهتماً مسحوراً. فانتظره راسكونيكوف هادئاً

صامتاً. لم يحرك ساكناً، لم يتزحزح من مكانه، ولا اختلجمت قسمة من قسمات وجهه. واستطاع أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف في اللحظة التي هم فيها الرجل أن يفتك بالضحية، فلو تأخر العارس لحظة واحدة لسال الدم.

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلأً: لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبوها؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بمودتهم. وكانوا لا يلقونها إلا في مناسبات نادرة، أثناء العمل، حين تجيء لتراء دقيقة واحدة. ومع ذلك عرفوها جميعاً، وعرفوا جميعاً أنها بعثته هو، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن. وهي لا تهبه لهم مالاً، ولا تقدم إليهم خدمات خاصة. مرة واحدة، في عيد الميلاد، حملت هدية إلى السجن كله: فطاائر صغيرة وخبزاً أبيض. غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شيء: أصبحت تتولى عنهم كتابة رسائل إلى أسرهم، وتضع الرسائل في البريد. وإلى صونيا إنما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة، يعهدون بالأشياء أو حتى بالأموال التي يريدون إرسالها إليهم، بإشارة من السجناء أنفسهم. كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعين إليها في بيتها. وكان السجناء، إذا هي ظهرت في ورشات العمل لترى راسكولنيكوف، أو صادفت فريقاً منهم ذاهباً إلى العمل، يرتفعون لها طاقاتهم احتراماً وبحسونها جميعاً. كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الموسومون<sup>(96)</sup> يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة: «ماتوشكا»<sup>(97)</sup> صونيا سيميونوفنا، أنت أمي الحنون الرؤوف». وكانت صونيا ترد على تحبيتهم، وتبتسم لهم، وكانوا جميعاً يحبون أن يروها تبتسم. كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي، فإذا مررت التفتوا يتبعونها بنظراتهم. كانوا لا يقولون فيها إلا مدحأ، كانوا يمدحون حتى ضالتها. أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح. وإذا مرضوا ذهبوا يلتزمون عندها علاجاً.

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها، وعيid الفصح كله. فلما أصبح في دور النقاوه تذكر الأحلام التي رأها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهذيان. لقد حلم، طوال مدة مرضه، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مصيبة رهيبة لا عهد بمثله من قبل، مصيبة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا؛ وأن جميع الناس سيهلكون إلا قلة قليلة مختارة. إن طفيلييات من نوع جديد قد ظهرت، واختارت أجسام البشر مسكنًا لها. غير أن هذه المخلوقات الميكروسكوبية كائنات مزودة بعقل وإرادة، والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانيين مسحورين، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزعمه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام فقط؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرئون من الخطأ، في أحکامهم، في نتائجهم العلمية، في مبادئهم الأخلاقية والدينية. إن قرى ومدننا وأماماً بكاملها قد سرت إليها هذه العدوى، وفقدت العقل. أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون، لا يفهم بعضهم عن بعض شيئاً، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً؛ كل واحد يؤمن بأنه الإنسان الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، فإذا نظر إلى الآخرين تالم وبكي ولطم صدره وعقف يديه لوعة وحسرة. أصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغي أن يُعد شرآً وما ينبغي أن يُعد خيراً. أصبحوا لا يستطيعون لا أن يدينوا ولا أن يبرئوا. أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يُفهم. هم يجتمعون ليؤلّفوا جيوشاً كبيرة، فما أن يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق في جميع الصفوف فتنحل الجيوش، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض، فيتعَضَّ بعضهم بعضاً، ويذبح بعضهم بعضاً، ويلتهم بعضهم بعضاً. في المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار، ويُستنفر الشعب. ولكن من الذي يستنفره؟ ولماذا يستنفره؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً. الرعب يستبد بجميع الخلائق. المهن العاديّة هجرها أصحابها، لأن كل واحد يعرض آراءه

وإصلاحاته، وما من أحد يستطيع أن يتفق مع أحد. الزراعة أهملت إهمالاً تاماً. هنا وهناك يجتمع أناس فيشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك، متعاهدين بأغلظ الإيمان على أن لا يفترقا قط، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا في شيء لا يمت بأي صلة إلى ما عقدوا النية على القيام به، ثم ما يلبثون أن يأخذوا في التراشق بالتهم، ثم ما يلبثون أن يقتتلوا فيذبح بعضهم بعضاً. وتشتعل الحرائق، وتظهر المجاعة. كل شيء يصيّب الدمار، وجميع الناس تقريباً يهلكون. البلاء ما ينفك يشتد قوة ويتسع مدى. ولا ينجو من البلاء إلا عدد قليل من الناس: هم الأنقياء الأطهار، المصطفون الأخيار، الذين كتب عليهم أن ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة، أن يجددوا الأرض ويطهّروها. غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد في مكان، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم.

إن الشيء الذي كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهذيان السخيف يترجع في ذاكرته ترجعاً حزيناً وأليماً. وأن الانطباع الذي خلفته تلك الأحلام المؤلمة لا يمحى إلا ببطء.

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح. أصبحت الأيام دافئة مضيئة. هي أيام ربيع حقاً. فتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هي نوافذ ذات قضبان حديدية يحرسها خفير).

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يسمح لصونيا أن تزوره إلا مرتين، وقد اضطررت في المرتين كلتيهما أن تطلب إذناً بذلك، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً. لكنها كثيراً ما كانت تأتي إلى فناء المستشفى، ولا سيما عند هبوط الليل لتنظر إلى التوافد من بعيد، ولتمكث في الفناء بضع دقائق أحياناً.

ففي مساء من الأماسي، وكان راسكولنيكوف قد أبلَّ من مرضه تقريراً وكان نائماً، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة، فإذا هو

يلمح صونيا تحت، قرب الباب. كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً. فشعر راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنة نفذت في قلبه. فارتعش وأسرع بيتعذر عن النافذة.

ولم تجئ صونيا في غد، ولا جاءت بعد غد. فأدرك راسكولنيكوف عندئذ أنه ينتظرها فارغ الصبر. وأخرج أخيراً من المستشفى، فلما عاد إلى السجن علم من السجناء أن صونيا سيميونوفنا مريضة، وأنها ملزمة غرفتها لا تبرحها.

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً، وأرسل يسأل عنها. فلم يلبث أن عرف أن مرضها ليس خطيراً. وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتالم من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت إليه برسالة كتبها بالقلم الرصاص، وفيها تنبئه بأن صحتها تحسنت كثيراً، وأن مرضها لم يكن إلا بردًا بسيطاً، وأنها ستمضي تراه أثناء العمل في أقرب فرصة. فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفاناً موجعاً أثناء قراءته هذه الرسالة.

كان النهار في هذه المرة كذلك مضيناً دافناً. ومضى راسكولنيكوف إلى العمل على ضفاف النهر في ساعة مبكرة من الصباح هي الساعة السادسة، وذلك تحت سقيفة فيها فرن لحرق الرخام الشفاف وسحقه. لم يرسل إلى هذا المكان إلا ثلاثة عمال من السجناء. فأما الأول فقد عاد مع المراقب إلى السجن ليجيء بالأدوات، وأما الثاني فكان يهين الحطب ويضعه في الفرن. وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطئ وجلس على إحدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبنى وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر. إن المرء يرى، من على هذه الضفة العلية، هضبة واسعة. ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن. إن هناك في المرج الذي تغمره الشمس، والذي يمتد على مدى البصر، خيام، بدوار حل تبدو للناظر إليها نقاطاً صغيرة سوداء. هناك الحرية. هناك يعيش بشر آخرون، يختلفون كل الاختلاف

عن البشر الذين يعيشون هنا. هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر إبراهيم وقطعانه لما ينصرم بعد. كان راسكولنيكوف ينظر إلى ذلك المشهد جالساً في مكانه جاماً على وضعه، لا يستطيع أن يحول عنه بصره. لقد انزلق فكره نحو الاسترسال في الأحلام والاستغراف في التأمل دون أن يحس. أصبح لا يفكر في شيء، واجتاحت نفسه حزناً كبيراً.

وفجأة وقفت صونيا أمامه. كانت قد دنت منه دون ضجة،وها هي ذي تجلس إلى جانبه. إن برودة الصباح لم تكن قد خفت بعد. وكانت صونيا ترتدي معطفاً مهترئاً، وتضع الشال الأخضر. وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير. ابتسمت له في رقة ولطف، مرحة الهيئة، ولكنها على عادتها لم تمدد إليه يدها إلا خجلة. وجلة.

كانت دائماً تمد إليه يدها على خجل ووجل، وكانت في بعض الأحيان لا تمدها إليه البتة، كأنما هي تخشى أن يدفعها عنه. كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور وامتعاض، وكان يبدو عليه دائماً أنه يستقبل الفتاة باستحياء ومضض. وفي بعض الأحيان كان يصرُّ على الصمت في عناد طوال مدة الزيارة. وكانت صونيا في بعض الأيام ترتعش أمامه خائفةً، ثم تصرف وفي نفسها حزن عظيم ولوغة شديدة. أما في هذه المرة فإن يديهما لم تحاولا أن تنفصل. ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة، ولم يقل شيئاً، وخفض عينيه. كانا وحيدين. لم يكن يراهما أحد. كان الحراس قد ابتعد للحظات.

لا يدرى راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشيء يستبد به ويلقيه على قدمي صونيا. لقد ارتمى راسكولنيكوف على قدمي صونيا، وبكي، وضم ركبتيها إلى صدره. دُعِرت في أول الأمر ذرعاً شديداً، وغضبت وجهها صفرة كصفرة الموتى. ثم نهضت فجأة، ونظرت إليه مرتجمة مرتعشه. ولكنها سرعان

ما أدركت كل شيء بنظرة واحدة. أخذت عيناهما تشعل بسعادة لا حدود لها. لقد فهمت - وليس يخالجها الآن في ذلك أي شك - ففهمت أنه يحبها، وأنه يحبها حباً ليس له نهاية، وأن تلك الدقيقة قد آن أوانها أخيراً...

أرادا أن يتكلما، ولكنهما لم يستطعا. امتلأت عيناهما دموعاً. كانا كلاهما أصفرى الوجه هزيلى الجسم؛ ولكنها هوذا فجر مستقبلٍ جديد يسطع في وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً إلى حياة جديدة. لقد بعثهما الحب بعثاً جديداً، إن قلب كل منهما يفجر في قلب الآخر ينابيع حياة لا تنضب.

قررا أن ينتظرا وأن يذعنوا. ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين أخرى في سيبيريا. صحيح أنهما سيتحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا طلاق، ولكنهما سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً. هو يعرف ذلك. هو يحس بذلك بكل كيانه الجديد. وهي، أليست تحيا بحياته، أليست حياتها من حياته؟

في ذلك المساء، في مبني السجن المقفل، فكر راسكولنيكوف في صونيا وهو راقد على مضجعه. وبداله، في ذلك المساء أيضاً، أن جميع السجناء، جميع أعدائه القدامى، نظروا إليه نظرة جديدة، ورأوه بأعين أخرى. لقد خاطبهم، فأجابوه برقة ونعومة. هو يتذكر ذلك الآن، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون: ألا يجب أن يتغير كل شيء بعد اليوم؟

فكر في صونيا. فتذكر أنه قد عذبها دائماً، وأنه كان يمزق قلبها تمزيقاً. تذكر وجهها الصغير الشاحب الذي نحل حوله شديداً، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه. فهو يعرف أنه سيكفر الآن عن جميع تلك الآلام بحث لا نهاية له.

ثم، ما قيمة تلك الآلام الماضية كلها الآن؟ إن كل شيء، حتى

الجريمة التي ارتكبها، وحتى الحكم الذي صدر عليه، وحتى النفي الذي يقاسي منه، إن كل هذا هو الآن أثاء هذه الاندفاعة الأولى، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتناوله هو. ثم إن راسكولنيكوف كان في ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلأً، وعن أن يركّز فكره على نقطة بعينها، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة: فإنما هو يشعر بإحساسات، لا شيء غير الإحساسات. لقد حلت الحياة محل الجدل؛ وفي أعماق نفسه أصبح ينضج شيء آخر تماماً.

وكان تحت وسادته إنجيل، فتناوله بحركة آلية. كان هذا الكتاب لصونيا، وهو بعينه الكتاب الذي قرأت له فيه في الماضي قصة انبعاث لعاذر. كان راسكولنيكوف يقدر في أول عهده بالسجن أن صونيا ستتصدّع رأسه بالكلام على الدين، وأنها ستتحذّث عن الإنجيل بغير انقطاع، وأنها ستحاول أن تفرض عليه كتاباً دينية. فما كان أشد دهشه حين لم تطرق هذا الموضوع في يوم من الأيام، لا ولا عرضت عليه أن تجيئه بالإنجيل قط. إنه هو الذي طلب منها ذلك قبل مرضه بقليل، فحملت إليه الكتاب دون أن تقول كلمة واحدة.

وهو لم يفتحه في تلك المرة، لكن فكرة قد اجتازت رأسه الآن بسرعة كوميضم البرق: «هل يمكن أن لا يكون إيمانها الآن هو إيماني؟ أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفها وأشواقها هي عواطفي وأشواقي؟...»

وقد اضطررت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هي أيضاً، وألم بها المرض مرة أخرى في تلك الليلة. ولكن سعادتها كانت تبلغ من القوة، وكانت تبلغ من المبالغة، أنها تكاد ترعبها! سبع سنين، سبع سنين فقط!

ومررت بهما في البداية ساعات نشوة كانوا فيها كمن يعد السنين السبع

أياماً سبعة. كان راسكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحياة الجديدة لن توهب له بغير تضحيه، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً، وأن يحصل عليها بجهود شاقة فاسية مضنية . . .

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى، قصة تجدد إنسان شيئاً بعد شيء، قصة انبعاثه رويداً رويداً، قصة انتقاله من عالم إلى عالم آخر متدرجاً، قصة معرفته بواقع جديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل.

هذا يصلح أن يكون موضوع قصة جديدة، أما قصتنا التي نرويها الآن فهي تنتهي هنا.

## الهوامش

- (1) «وأنه ما من إنسان . . .»: وردت في النص باللاتينية *Nihil humanum* وهي إشارة إلى جملة تيرانس المشهورة: «أنا إنسان، فلا شيء مما هو إنساني غريب عنّي».
- (2) حرب مشروعة. (بالفرنسية في الأصل).
- (3) عهد «النقد المفيد»: الإشارة هنا إلى مطلع الستينات من القرن 19، حين أخذت الجرائد تهاجم العادات الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسي، في جو يسوده شيء من الحرية. ففي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة 1861، نددت عدة صحف، ومنها جريدة «الزمان» التي كان يصدرها دوستويفסקי، بسيده اسمه كوزلينينوف ضرب بالسوط امرأة ألمانية في القطار.
- (4) «الفاحشة التي تححدث عنها مجلة العصر»: في عام 1861 نددت المجلة الأسبوعية «العصر»، (في رسالة من مراسلها بمدينة برم)، بالتمثيلية الخلية التي قدمتها سيدة قرأت قصة بوشكين «ليال مصرية» التي يصف فيها غراميات كليوباترة. وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة «العصر» وتسفه تدخلها هذا. وقد شارك دوستويف斯基 في تلك المساجلات (في مجلة «الزمان»)، متهمًا على الصحفين الذين يأخذون مأخذ الجد أمراً تافهاً لا قيمة له.
- (5) «أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعي لم تمسستا بسوء»: إن قانون الإصلاح الزراعي الذي صدر في 19 نيسان (أبريل) سنة 1861، لم يهب للأقنان الذين اعتقهم إلا الأراضي الصالحة للزراعة التي كانوا يزرعونها هم، أما الغابات والمراعي فقد ظلت ملكاً للسادة.
- (6) «مطاعم دوسو»: هو فندق ومطعم فرنسي كان له صيت ذائع حينذاك، وقد أقام فيه دوستويفסקי زمناً. والحديث عن «الحلقات» إشارة إلى مكان بجزيرة إيلاجين اسمه «الحلقة»، وهو محل ملاهٍ ومباهج وملذات شعبية.
- (7) «يوناني حقير من نبيجين»: في عام 1779 نزح عدد كبير من يونان القرم في عهد كاترين الثانية، إلى مدينة نبيجين، وهي مدينة صغيرة من مدن أوكرانيا لا تبعد كثيراً عن مدينة كييف (عاصمة أوكرانيا حالياً). وقد أصبح كثيراً من هؤلاء اليونان تجاراً وأغنياء.
- (8) خرتني فسدت «لأن خرتني فسدت»: بالفرنسية في الأصل، والمقصود بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل إلى الشراب.

- (9) «بيرج»: ألماني كان يعلم رقص الباليه ويعاطي الطيران بالمنطاد، وقد نظم في بطرسبرج نزهات طيران بالمنطاد.
- (10) «محطة مالايا-فيشيرا»: محطة تقع على خط موسكو - سان بطرسبرج، وتبعد عن العاصمة مسافة 150 كيلومتراً.
- (11) «آيسكا»: تصغير تحقربي لاسم آيسيا.
- (12) «فilkaka»: تصغير تحقربي لاسم فيليب.
- (13) من المعروف أن دوستويفסקי كان معجبًا أشد الإعجاب بلوحة رافائيل «مادونا سิกستين» التي تأملها كثيراً بمدينة درسدن، وكان يحتفظ في حجرة مكتبه بصورة منسوخة منها.
- (14) «عمارة فيازمسكي»: عمارة كبيرة بمدينة سان بطرسبرج كانت فيما مضى ملكاً لأسرة الأمراء فيازمسكي. وهي في العهد الذي تجري فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جداً، وتضم بيوناً مشبوهة وموأي ليلاً.
- (15) إن اسم رازوميخين مشتق من الكلمة «رازوم» الروسية ومعناها «العقل». وهنا يتظاهر لوجين بتبان الاسم، ويحل محله اسم راسودكين، المشتق من الكلمة راسودوك الروسية ومعناها «الذكاء».
- (16) «ضعيف»: وردت الكلمة بالألمانية في الأصل Schwach ويجب أن يشار هنا إلى أن مشروع رازوميخين الذي يدور عليه الكلام في هذه المحادثة يعبر عن المتعاب التي لقيها دوستويف斯基 نفسه من الناشرين، وعن الحلم الذي كان يحمله دائماً وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه.
- (17) «... وفي هذا الصباح ذهبنا كلتنا إلى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليشكا ولينيا...»: حتى الآن كان دوستويفסקי يسمى أولاد مر咪لادولف: بوليشكا وليدوشكا وكوليما. أما هنا وفيما بعد فقد ظهرت الصبية لينيا بدلاً من ليدوشكا ومثل هذه الأخطاء تصادفها في روايات دوستويف斯基 الأخرى.
- (18) «أين الحديث عن قيام لعازر؟»: يجب أن تذكر أن قاضي التحقيق كان قد سأله راسكونيكوف هل هو يؤمن بقيام لعازر؟.
- (19) «الفرسخ السابع»: كان يوجد على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج، مستشفى للمجانين؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى.
- (20) «سترى الله»: إشارة إلى الآية الواردة في إنجيل متى: «طوبى للأطهار، لأنهم سيرون الله» (الإصحاح الخامس، 8).
- (21) «إنجيل يوحنا، الإصحاح الحادي عشر).
- (22) إنجيل مرقص (الإصحاح العاشر، 14).
- (23) كان مفوض التحقيق جزءاً من الشرطة، فلما صدرت قوانين الإصلاح القضائي في 20 تشرين الثاني (نوفمبر 1864)، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل.

- (24) بلا تكليف. (بالفرنسية في الأصل).
- (25) ذلك واجب لا مفر منه. (بالفرنسية في الأصل). المغرب
- (26) «يقال إن رجالاً من مستشاري الدولة...»: مستشار الدولة رتبة مدنية في روسيا القيسارية من الدرجة الخامسة وتعادل رتبة العقيد العسكريية...
- (27) «فستتغير أسماؤنا على الأقل»: إشارة إلى قوانين الإصلاح القضائي المرتقب، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخاً هو تموز (يوليو) 1864.
- (28) «بعد معركة ألماراسا»: هي معركة 20 أيلول (سبتمبر) 1854 التي خسرها الجيش الروسي فانكفا إلى سيفاستوبول أثناء حملة القرم.
- (29) مهرج - بالفرنسية في الأصل.
- (30) إشارة إلى بداية حملة 1805 حين أفسد نابوليون خطط «المجلس العسكري الأعلى» (هوفكريسجرات) بالتمسا، وأسر في أول الجنرال النمساوي ماك هو وجشه. أن تلك الأحداث قد وصفها تولستوي في روايته الكبرى «الحرب والسلام» (الجزء الأول) الذي بدأ نشره في مجلة «الرسول الروسي» (قانون الثاني وشباط - يناير 1869) عند بدء نشر الأجزاء الأولى من رواية الجريمة والعقاب هذه.
- (31) «أما في الواقع فإن قائدتهم الجنرال ماك هو الذي استسلم»: الفيلدمارشال كارل ماك (1752-1828) عسكري نمساوي حاصرته القوات الفرنسية قرب قلعة أولم النمساوية حتى استسلم أسيراً لتابليون.
- (32) رجل مجهول. (باللاتينية في الأصل).
- (33) «ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً»: راجع المجلد الأول، الحاشية رقم .25
- (34) «بقساوسة ونواب»: من الأنظمة المتبعة في بداية تحقيق قضائي أن يؤتى بقسيس يحلف المتهم أمامه اليمين؛ ويؤتى أيضاً بنايب من نواب طبقة الاجتماعية ليعرف بهويته.
- (35) «يقال إن غوغول... هو الذي كان يملك هذه الموهبة»: نيكولاي غوغول (1809-1852) - الكاتب الروسي العظيم مؤلف عدد من الأعمال الهجائية الساخرة.
- (36) «متجر كنوب أو المتجر الإنجليزي»: متجران شهيران في قلب سان بطرسبرج تابع فيما أدوات الترف الراقية.
- (37) «يسمون تقدميين أو عدميين أو مصلحين»: كانت هذه الأسماء الثلاثة تطلق على التيار الراديكالي السادس بين الشبيبة في ذلك الأوّان. ومن المعروف أن مصطلح «العدمي» إنما أوجده تورجنيف وكان قد استعمله في روايته «الأباء والأبناء».
- (38) «وكان آندريه سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه وداروين»: شارل فورييه (1772-1837) اشتراكي طباوي فرنسي كبير رسم في مؤلفاته صورة مجتمع

المستقبل. وتشارلز داروين (1809-1882) عالم إنجليزي كبير، صاحب نظرية نشوء وارتقاء العالم العضوي.

(39) «في إنشاء كومونة جديدة في مكان ما بشارع ميشانسكايا»: في فترة الستينات في القرن الماضي أنشأ شباب بطرسبرج الديمقراطي عدداً من الكومونات. وكانت إحداها تقع في شارع ميشانسكايا الأوسط، أي في الحي الذي كان يعيش فيه دوستويفסקי أثناء كتاب الرواية. وقد عكست آراء ليزياتنيكوف عن الكومونة موقف دوستويفסקי السلبي منها.

(40) هنا وفيما بعد يتهكم دوستويف斯基 بلسان ليزياتنيكوف على عدد من الأفكار (مساواة المرأة بالرجل، تحرير المرأة، حرية الأحاسيس... الخ) والتي نادى بها نيكولاي تشيرنيشيفסקי في رواية «ما العمل؟»

(41) يجب أن نميز. (بالفرنسية في الأصل).

(42) «لقد مضينا في اعتقادنا إلى مدى أبعد..»: أن ليزياتنيكوف يعرض هنا آراء بيساريف (1840-1868) المتطرفة الموغلة في الراديكالية؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبورليبوف (1836-1861) الذي كان كذلك راديكالياً جداً، وبهاجم الناقد الكبير بيلن斯基 (1811-1848).

(43) «بل إنه لأكبر كثيراً من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين»: إن ليزياتنيكوف يبالغ في آراء بيساريف وتلميذه زايتسيف اللذين كانا يدافعان عن مذهب المفعة، ويناديان بأن حذاء من الحذائين أفعى للمجتمع من شكسبير أو بوشكين.

(44) نصاً صريحاً وكاملاً. (بالفرنسية في الأصل).

(45) يا إله الرحمة! (بالألمانية في الأصل).

(46) «عملأً بالمبأدا القائل إن اليد اليمنى يجب أن تجهل...»: تحويل للمثل القائل «تجهل اليد اليمنى ما تفعله اليد اليسرى».

(47) «العرض العام للمنهج الوضعي»: كتاب ظهر ببطرسبرج سنة 1866 يضم ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من المؤلفين: فيرشوف، كلود برنار، موليشوت، تيودور بيدريت «الدماغ والفكر». آدولف فاجنر «ما يدل عليه الإحصاء من أن الأفعال التي تبدو حرة في الظاهر إنما هي حتمية في الواقع».

(48) لم يكن لديه... لا تلون، ولا مصر، ولا مر مونيلان...»: بالنسبة لتلون ومصر راجع الحاشية رقم 64 في المجلد الأول. أما مونيلان فهو سلسلة جبلية في الألب على الحدود بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا عبر هاناپليون بجيشه في مايو عام 1800 نحو إيطاليا، حيث سحق القوات النمساوية في معركة مارنوجو في 14 يونيو 1800.

(49) «سيميون زاخارتش»: هو مارميلادوف.

(50) إنها تعلم لينا أغنية «القرية الصغيرة» للموسيقار كليموفסקי التي كانت واسعة الشهرة آنذاك.

- (51) لعل الأستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسي فرانسوا لوريه (1795-1851) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للجنون» (1838).
- (52) انصبي قامتك. (بالفرنسية في الأصل).
- (53) كلميني بالفرنسية. (بالفرنسية في الأصل).
- (54) نحن لا نمثل «بتروشكا» المبتذل... : بتروشكا هو البطل الرئيسي لفن مسرح العرائس الروسي الشعبي... وهو شخصية شجاعة، مرحّة، يخرج متتصراً في العادة من خلافاته ومساحاته مع السادة والقساوسة والشياطين... ألمع.
- (55) «الفارس المتكى على سيفه»: هذه هي الكلمات الأولى من قصيدة «فراق» للشاعر الروماني باتيوشكوف؛ وقد لحت القصيدة سنة 1814، وراجت رواجاً كبيراً.
- (56) خمسة قروش. (بالفرنسية في الأصل).
- (57) مالبورو مسافر إلى الحرب. (بالفرنسية في الأصل).
- (58) مالبورو مسافر للحرب، لا يدري متى يعود... (بالفرنسية في الأصل).
- (59) خمسة قروش، خمسة قروش لإنشاء أسرتنا... (بالفرنسية في الأصل).
- (60) لك ماس ولآلئ. (بالألمانية في الأصل).
- (61) لك أجمل عينين، فماذا تريدين أكثر من ذلك يا فتاة! (بالألمانية في الأصل).
- (62) «جزيرة كرسوفسكي»: جزيرة من أنواع جزر نهر نيفا.
- (63) «الدكتور ب...»: أغلبظن أنّه الدكتور سرجي بتروفتش بوتكين (1832-1889)، وهو طبيب شهير في ذلك الأوّان.
- (64) دون جدو. (بالألمانية في الأصل).
- (65) «إلى صباح غد»: (بالألمانية في الأصل). وهو تعبير ألماني يستعمل بمعنى قولنا: «دعك من هذا الكلام! لا أصدقك»!.
- (66) «هل تعرف أنه من فئة راسكولنيكي»: كان عدد من أفراد أسرته قد انتما إلى ملة «الجواليين»: «الراسكولنيكي» (أصحاب العقيدة القديمة) هم المشاركون في حركة مناهضة الكنيسة الرسمية في روسيا، تلك الحركة التي ظهرت في القرن السابع عشر بسبب إدخال تعديلات على الطقوس الدينية بواسطة رأس الكنيسة المسيحية الروسية البطريرك نيكون. وتعني كلمة «راسكولنيك»: المشق.
- (67) ملة «الجواليين»، والجواليون هم إحدى طوائف المنشقين والتي ظهرت كاحتاجاج على الرق والاستعباد وانتشرت في أوساط الفلاحين وفقراء المدن والجنود الهاجرين من الجنديّة. وكان من أهم معتقداتهم القبول الطوعي للألام والعقاب.
- (68) «ويقرأ الكتب القديمة... الكتب الحقيقة»: أي الكتب الدينية للمنشقين أنصار العقيدة القديمة والتي كانت توضع في مواجهة الكتب الدينية للكنيسة الرسمية.
- (69) «هل تستطيع المحاكم الجديدة رد الأمور إلى نصابها»: انظر الحاشية رقم 24.
- (70) «وأنت تخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير السجن»: كانت عقوبة

الإعدام تنهى الشخص الذي يهاجم الحراس أو رجال الشرطة في روسيا القصيرة.

(71) إنجل مثـ. (الاصحـ السابع).

(72) تأبـا. (بالفرنـيـة في الأصل).

(73) «كما يدلـ على ذلك اسمـ . . . .»: كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولـمـ مدارس اللاهوـتـ، وكانت هذه الأسماء تستمدـ أحـيـاناًـ من مزاـيا روحـيةـ، فاسم دوبـرـلـويـوـفـ يعنيـ «محـبـ الخـيرـ»ـ، واسم زـدـافـوـسـميـسلـوفـ يعنيـ «الـسـدـيدـ الرـأـيـ»ـ، واسم رـازـوـميـخـينـ مشـتقـ منـ كـلـمةـ رـازـوـمـ وـمعـناـهاـ العـقـلـ.

(74) «بارـاشـاـ»ـ: تصـغـيرـ اسمـ بـراـسـكـوفـوـ.

(75) أيـهاـ الصـدـيقـ العـزـيزـ. (بالفرنـيـة في الأصل).

(76) الطـبـيعـةـ والـحـقـيقـةـ. (بالفرنـيـة في الأصل).

(77) انـظـرواـ أـيـنـ تـختـبـئـ الـفـضـيـلـةـ! (بالفرنـيـة في الأصل).

(78) إـلـىـ اللـقاءـ، ياـ عـزـيزـيـ. (بالفرنـيـة في الأصل).

(79) كـائـنةـ نـظـرـيـةـ أـخـرىـ. (بالفرنـيـة في الأصل).

(80) «فوـكسـهـولـ»ـ: كانتـ هـذـهـ الكلـمةـ الانـجـيلـيـزـيـةـ فيـ أولـ الـأـمـرـ اـسـمـاـ لـضـاحـيـةـ منـ ضـواـحيـ لـندـنـ أـصـبـحـتـ حـديـقةـ مـلاـءـ شـعـبـيـةـ فيـ القرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ. وـقدـ أـنـشـتـ حـدـائقـ مـشـابـهـةـ لهاـ فيـ الـقـارـةـ الـأـورـوـيـةـ أـطـلـقـ عـلـيـهـاـ هـذـاـ الـاسـمـ نـفـسـهـ؛ـ وـمـنـهـاـ حـديـقةـ فيـ روـسـيـاـ قـرـيـةـ جـداـ مـنـ محـطةـ باـفلـوـفـسـكـ؛ـ وـقدـ أـصـبـحـتـ الكلـمةـ فيـ نـطـقـهاـ الـرـوـسـيـ الـآنـ «فوـكـزـالـ»ـ تعـنيـ كـلـ مـحـطةـ مـنـ مـحـطـاتـ السـكـكـ الـحـدـيدـيـةـ.

(81) «فـلاـديـمـيرـ»ـ: العـاصـمـةـ الـقـدـيمـةـ لـروـسـيـاـ فيـ القرـنـ الثـالـثـ عـشـرـ وـالـقرـنـ الـرـابـعـ عـشـرـ،ـ وـهـيـ تـقـعـ شـمـالـ شـرـقـ موـسـكـوـ. وـقدـ أـصـبـحـتـ الطـرـيقـ الـذـيـ تـسلـكـهـ قـوـافـلـ السـجـنـاءـ الـمـحـكـومـ عـلـيـهـمـ بـالـأـشـغالـ الشـاقـةـ،ـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ سـيـبـيـرـيـاـ؛ـ وـهـكـذـاـ فإنـ «طـرـيقـ فـلاـديـمـيرـ»ـ تعـنيـ الـذـهـابـ إـلـىـ السـجـنـ.

(82) «فـيـ الخطـ الثـالـثـ مـنـ فـاسـيـلـيفـسـكـيـ أـوـسـتـرـوـفـ . . . .»ـ: فـاسـيـلـيفـسـكـيـ أـوـسـتـرـوـفـ (جزـيـرـةـ فـاسـيـلـيـ)ـ تـقـطـعـهـ شـوـارـعـ كـبـيرـةـ وـصـغـيرـةـ.ـ وـالـشـوـارـعـ الـمـتـعـامـدـةـ عـلـىـ هـذـهـ الشـوـارـعـ تـسـمـيـ خـطـوـطـاـ.

(83) «. . . . هـذـاـ هـوـ الإـنـذـارـ!ـ المـيـاهـ تـعلـوـ . . . .»ـ: نـظـراـ لـكـثـرةـ وـقـوعـ الـفـيـضـانـاتـ فيـ بـطـرـسـبـرـجـ كـانـ السـكـانـ يـنـبـهـونـ عـلـىـ الـفـيـضـانـاتـ الـخـطـرـةـ بـإـلـاطـاقـ المـدـافـعـ . . . .

(84) إنـ روـاـيـةـ أـلـكـسـنـدـرـ دـوـمـاـ «غـادـةـ الـكـامـيلـيـاـ»ـ (1848)ـ وـالـمـسـرـحـيـةـ الـتـيـ تـحـمـلـ هـذـاـ الـاسـمـ نـفـسـهـ قـدـ رـاجـتـاـ رـوـاجـاـ كـبـيرـاـ جـداـ فيـ روـسـيـاـ.ـ وـأـصـبـحـ اـسـمـ «ـكـامـيلـيـاـ»ـ يـعـنيـ الـبـغـيـ الـرـاقـيـةـ.

(85) «ـالمـبـنـىـ الـذـيـ يـعـلوـ بـرـجـ»ـ: هوـ ثـكـنـةـ لـرـجـالـ الـأـطـفـاءـ.

(86) «. . . . وـعـلـىـ رـأـسـهـ خـوـذـةـ مـنـ نـحـاسـ كـخـوـذـةـ آـخـيـلـ . . . .»ـ: كـانـ بـطـلـ الـمـلـاحـمـ

الإغريقية القديمة آخيل يصور وعلى رأسه خوذة يكتلها عرف متهدل من الأمام.  
وقد التقى سفيدير بجايلوف بأحد رجال الأطفال الذي كان يرتدي خوذة نحاسية أثناء  
نوبته.

(87) «... دم يسخنه جميع الناس... ومن أجله يتوج بعضهم في «الكابيتول»:  
المقصود معبد الكابيتول في روما القديمة، حيث كانت تعقد جلسات مجلس  
الشيوخ. وقد أنعم فيه على القائد العسكري الروماني يوليوس قيصر بلقب الكاهن  
الأكبر والخطيب العسكري أثر عودته إلى روما بعد أن فتك بلا رحمة بقراصنة  
البحر.

(88) عدم. (باللاتينية في الأصل).

(89) «مذكرات ليفنجستون»: إن كتاب ليفنجستون «استكشافات في داخل أفريقيا  
الوسطى» قد ظهر بلندن سنة 1865. وقد ترجمه إلى الروسية وأصدره سنة 1867،  
نيقولاي ستراخوف صديق دوستويفסקי.

(90) «... إنني أطلق هذا اللقب... على الفتيات ذوات الشعر المقصوص...»:  
ينجلي هنا موقف الدوائر الرجعية في المجتمع الروسي في الستينيات تجاه أنصار  
تعليم النساء. ولم يكن في وسع النساء آنذاك أن يعملن سوى في مهنتين فقط:  
قابلات أو مدرسات. وكانت الفتيات والنساء الدارسات عادة ما يحملن تسريحات  
بسيئة، أو يقعن بقضم الشعر.

(91) لم تكن كلية الطب بمدينة بطرسبرغ إحدى كليات الجامعة، كما في المدن  
الأخرى، وإنما كانت «أكاديمية للطب والجراحة» مستقلة.

(92) «السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفتنة الثانية»: كان المحكوم عليهم  
بالأشغال الشاقة يقسمون إلى ثلاث فئات حسب خطورة الجريمة التي اقترفوها،  
وكان السجناء من الفتنة الثانية يعملون في الحصون وسجون الأشغال الشاقة. وفي  
العادة كان المحكومون بالأشغال الشاقة يجرّدون من كافة حقوقهم وينفون إلى  
سييريا.

(93) «على ضفاف نهر إيرطيش»: إن هذا النهر الذي تقع على شاطئه مدينة أومسك، قد  
سبق أن ذكره دوستويف斯基 في كتابه «ذكريات من منزل الأموات».

(94) «ولا حلق شعر الرأس، ولا الملابس المصنوعة من قصاصتين مختلفتي الألوان»:  
كان المحكومون بالأشغال الشاقة تحلق لهم نصف رؤوسهم، والمحكمون من  
الفتنة الثانية يلبسون سترة نصفها رمادي والنصف الآخر أسود. ويحملون على  
ظهرهم صورة آس أصفر.

(95) «وكان في السجن أيضاً سجناء بولنديون نفوا إلى سibirيا لجرائم سياسية»:  
المقصود بهؤلاء السجناء: الثوار البولنديون الذين شاركوا في الانفصال البولندي  
في 1830 و1862 والتي قمعتها السلطات القيصرية الروسية بشدة.

(96) «كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الموسومون»: كان المحكومون بالأشغال الشاقة من الفلاحين والجنود وصفار أهل المدن يوسمونهم في روسيا بأحرف KAT (أي أشغال شاقة) توقع على خذولهم وجباهم، أما المحكومون بالأشغال الشاقة من النساء فلا يوسمون.

(97) «ماتوشكا» - اسم التدليل بـ«أم - ماما».

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشد القارئ، وبتعبيرها القوي عن دوافع النفس الإنسانية، وقد عبر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر - المراهق - مذلون مهانون - الجريمة والعقاب - الأباء ...

وتعتبر رواية "الجريمة والعقاب" إحدى قمم الأعمال الإنسانية، إنها ذلك اللغز المفتوح على النفس الإنسانية، وما يدور في أعماقها. والمفتوح على قضايا الوجود، والعذاب، والخير، والشر، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة، والمرض ...

إن شخصية راسكولنيكوف هي محاولة لفهم تعقيدات الشخصية الإنسانية مقدماً عدداً من التفسيرات، مناقشاً الدوافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حدّت براسكولينيكوف للتصرف بما يخالف المنطق.

يطرح دوستويفسكي فكرة استحالة معرفة الإنسان، ويجبرنا على أن نتطلع إلى ما يكمن في نفوسنا، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف ببطله، وكيف أن النفس الإنسانية تحمل في آن أسمى المثل إلى جانب أحط الذناءات..كيف أن الإنسان يحمل في داخله قوة تنفيذ الجريمة ورغبة تحقيق العدالة.

ISBN 978-9953-68-462-6



9 789953 684628

المركز الثقافي العربي

cca@ccaedition.com

